موسوعة التاريخ الإسلامي

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه من جامعة كمبردج (انجلترا)

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة

الطبعة الرابعة عشرة (١٤١٦) (١٩٩٦)

مع تحقيقات مهمة وزيادات جديدة

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

موسوعة

التاريخ الإسلامي

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء لتاريخ العالم الإسلامى كله
من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى
حققتها الدول الإسلامية عَبْرَ التاريخ

١

(ا) مقدمة الموسوعة عن : نطاق التاريخ الإسلامى — تفسير التاريخ — هل التاريخ علم ؟ — فلسفة التاريخ — فائدة التاريخ — مراحل تدوين التاريخ . . . .

(ب) تاريخ العرب قبل الإسلام : حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية

(حـ) السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تُدوَّن لأول مرة

(د) الدعوة الإسلامية وفلسفتها — عصر الخلفاء الراشدين

تأليف

الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه من جامعة كمبردج (انجلترا)
أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الرابعة عشرة (١٤١٦) (١٩٩٦) مع تحقيقات مهمة وزيادات جديدة

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا القاهرة

الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨
الطبعة الثانية سنة ١٩٦١
الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٤
الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦
الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٠
الطبعة السادسة سنة ١٩٧٤
الطبعة السابعة سنة ١٩٧٧
الطبعة الثامنة سنة ١٩٧٨
الطبعة التاسعة سنة ١٩٨٠
الطبعة العاشرة سنة ١٩٨١
الطبعة الحادية عشرة سنة ١٩٨٣
الطبعة الثانية عشرة سنة ١٩٨٧
الطبعة الثالثة عشرة سنة ١٩٨٨
الطبعة الرابعة عشرة (١٩٩٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

{ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا } .

(سورة الممتحنة الآية الرابعة)

التاريخ . . .

شعاع من الماضي ينير الحاضر والمستقبل

أحمد شلبي -

كتب للمؤلف

اولا : موسوعة التاريخ الاسلامى :

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة مجلدات لتاريخ العالم الإسلامى كله ، من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى حققتها الدول الإسلامية عبر التاريخ . (الطبعة الثالثة عشرة)

ثانيا : موسوعة الحضارة الاسلامية :

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة مجلدات ، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الإسلام لهداية البشرية فى شئون الفكر ، والسياسة ، والاقتصاد ، والعلاقات الدولية ، وفى مجال الحيـــاة الاجتماعية والتربوية ، كما تبرز نشاط المسلمين لإحياء الحضارة التجريبية كالطب والرياضة والفلك . . . (الطبعة العاشرة)

ثالثا : مقارنة الأديان :

سلسلة من الكتب فى أربعة مجلدات ، تعتمد على أدق المراجـــع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراساتها بالحيدة والعمق . (الطبعة التاسعة)

رابعا : كتب فى الثقافة العامة :

— كيف تكتب بحثاً أو رسالة ؟ (الطبعة العشرون)

دراسة منهجية لكتابة البحوث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه

— الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن

خامسا : كتب بلغات اجنبية :

Islam : Belief– Legislation – Morals

History of Muslim Education

وعشرون كتاباً باللغة الإندونيسية والمالزية .

سادسا : كتابان لخدمة اللغة العربية هما :

١ — تعليم اللغة العربية لغير العرب .

قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها .

سابعا : التفسير الميسر للقرآن الكريم :

تفسير موجز وواضح يهدف لأن تفهم القرآن الكريم إذا قرأته أو سمعته ، مع وقفات تفصيلية عند بعض القضايا القرآنية المهمة .

المكتبة الاسلامية لكل الأعمار

تخطيط يشمل ١٠٠ جزء ظهر منها ٥٦ جزءا كالآتى :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة (١٦ جزءا)

وتشمل سيرة الرسول كلها وجوانب منها تدون لأول مرة .

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة (٧ اجزاء)

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية (٥ اجزاء)

نزول القرآن وتدوينه — القرآن والعلم — فضائل القرآن — إعجاز القرآن — الأخلاق الإسلامية من القرآن الكريم .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم (٧ أجزاء)

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف (٥ اجزاء)

لماذا انحرف تدوين التاريخ الأموى ؟ ماذا عن محاسن الأمويين ؟ مدعو التشيع وسمومهم — قمم فى التاريخ الأموى .

معاوية — عبد الملك بن مروان — الوليد بن عبد الملك — عمر ابن عبد العزيز — التوسع الإسلامى والحضارى فى العهد الأموى — قصة استشهاد الإمام الحسين والمسئول عنها .

المجموعة السادسة : صراع وشهداء وانتصارات (٦ اجزاء)

— من شهداء الإسلام .

— الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن

— شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .

المجموعة السابعة : الاسلام والمراة (٥ اجزاء)

حالة المرأة فى الحضارات غير الإسلامية — ماذا قدم الإسلام للمرأة ؟ نماذج من السيدات المسلمات : من بيت النبوة « السيدة زينب والسيدة سكينة » ونماذج فى السياسة والآداب والعلوم والفنون — زيجات شهيرة فى التاريخ : « زبيدة — بوران — قطر الندى » .

الميراث في الشريعة الاسلامية : دراسة شاملة .

تاريخ الطب فى الاسلام .

حركات فارسية ضد الإسلام والمسلمين عبر العصور .

خطة البحث فى هذه الموسوعة

إن خطة البحث التى أتبعها فى كتابة «التاريخ الإسلامى» خطة جديدة ومريحة. ويسرنى أن أبرزها فى التخطيط التالى، ليعرفها القارىء، وليسهل عليه متابعتها.

دراسة زمنية فى هذه الأجزاء الثلاثة، إذ أن العالم الإسلامى كان وحدة واحدة	جـ ١	العرب قبل الإسلام – السيرة النبوية العطرة وجوانب من السيرة تدون لأول مرة – عصر الخلفاء الراشدين
	جـ ٢	الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية خلالها – إنصاف تاريخ الأمويين
	جـ ٣	الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول، وبجهود المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الإسلامية والحضارة العالمية.

دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) فى الأجزاء الخمسة التالية لأن العالم الإسلامى انقسم إلى دويلات كثيرة: ويشمل كل جزء من هذه الأجزاء الخمسة قطاعا من العالم الإسلامى، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين إلى الشرق كالتخطيط التالى:

الجزء الثامن	الجزء السابع	الجزء السادس	الجزء الخامس	الجزء الرابع
التاريخ الإسلامى للدول الإسلامية غير العربية بآسيا: إيران – أفغانستان – باكستان – بنجلاديش – ماليزيا – أندونيسيا – الأقليات الإسلامية بالهند والصين والاتحاد السوفيتى والفلبين.	الإسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الإسلام حتى الآن. دول الجزيرة العربية: المملكة العربية السعودية – عمان – اليمن – جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية – دولة الإمارات العربية – قطر – البحرين – الكويت – ثم العراق.	الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن. دراسة عن: – وسائل انتشار الإسلام بقلب إفريقية – الدول الإسلامية قبل الاستعمار الأوروبى – الدول الإسلامية الحالية: موريتانيا – السنغال – جامبيا – غينيا – مالى – النيجر – نيجيريا – تشاد – السودان – الصومال – جيبوتى	– مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر – الحروب الصليبية: دوافعها – أدوارها – نتائجها – الإمبراطورية العثمانية (تركيا) منذ ظهورها حتى الآن	– الأندلس الإسلامية وانتقال الحضارة الإسلامية منها إلى أوروبا – المغرب – الجزائر – تونس – ليبيا من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر – النوبية: بلادها وتاريخها

وتختم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر:

الجزء التاسع: ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم:
- حوليات عصر محمد نجيب: الواجهة
- حوليات عصر جمال عبد الناصر: عصر المظالم والهزائم

الجزء العاشر: ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم: عصر أنور السادات

محتويات الكتاب

تاريخ العرب قبل الإسلام

الموضـــوع الصفحة

الحياة الاجتماعية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام

السيرة النبوية العطرة

الرسول منذ ولد إلى أن بعث :

الموضـــوع — الصفحة

البعثة النبوية
(وحياة الرسول فى مكة)

الموضـــوع

فهرست الخرائط والمخططات

أهم الإضافات من طبعة إلى طبعة

الطبعة العاشرة وأهميتها :

كانت الطبعة العاشرة لهذا الكتاب — فى الحق — تدويناً جديداً لتاريخ هذه الفترة ، فقد كنتُ قبل الطبعة العاشرة أسيرُ تبعاً للنهج الذى انتهجه المؤرخون السابقون ابتداء من ابن هشام حتى الآن ، وكان هذا النهج يجعل الغزوات وحدها موضع دراستهم لتصوير حياة الرسول صلوات الله عليه بالمدينة .

ثم خطر لى فى مطلع الثمانينات أن ذلك تقصير يتحتم تداركه ، فأنشطة الرسول فى المدينة كانت متعددة ، وكانت الغزوات تغطّى الجوانب العسكرية فقط ، ومن المقرر تاريخياً أن الغزوة كانت تستغرق يوماً واحداً ، أو عدداً قليلا من الأيام ، أما باقى أيام العام فكان الرسول دائم النشاط فيها ليقدم الإسلام لغير المسلمين وليرسى مبادىء الإسلام وقيمته لدى المسلمين .

واتجهتُ بكل الجهد لاستيفاء هذا الموضوع ولتسجيل حياة الرسول بالمدينة تسجيلا دقيقاً ، ولما كانت المصادر السابقة لم تُعْنَ بتقديم مادة كافية لهذه الدراسة ، فقد لجأت إلى كتب « الصحاح » فأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام التى دوّنتها كتب « الصحاح » تَمُدُّ الباحث فى سيرة الرسول بمادة وفيرة ، عن كل جوانب الأنشطة التى قام بها الرسول بالمدينة ، ونتيجة لهذا الجهد أضفت للطبعة العاشرة مثل حجمها تقريباً فى موضوعات مهمة مثل :

— الرسول الداعية .
— الرسول يربىّ العلماء والدعاة .
— الرسول فى بيته : زوجاته — أولاده وأحفاده — خدمه .
— الرسول بين أصحابه .
— الرسول يربى القوة العسكريه .
— الرسول يربىّ الولاة والحكام .
— الرسول والشباب .

— الرسول والعمل .
— توجيهات طبية يقدمها الرسول .

وموضوعات كثيرة أخرى كبيرة الأهمية سيراها القارىء فى مكانها من هذه الطبعة .

إضافات للطبعة الخامسة :

على أن الطبعات السابقة حظيت كذلك بإضافات مهمة ، لا أرانى فى حل من إغفالها ، فقد حظيت الطبعة الخامسة بإضافات وصفتُها فى مقدمتها بقولى :

« هناك جديد يستحق الذكر والشكر فى تقديم الطبعة الخامسة للجزء الأول من هذه الموسوعة ، فقد أتيح لى أن أزور الأرض المقدسة لأداء فريضة الحج قبل البدء فيها ، وعشت بذلك ردحاً من الزمن فى مكة المكرمة ، فى الأرض التى شهدت مطلع الفجر ، وشهدت الصراع الطويل بين الحق والباطل ، وعشت كذلك ردحا من الزمن فى المدينة المنورة ، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبنى المجتمع الإسلامى ويناضل قوى الشر التى أرادت القضاء على هذا المجتمع ، وقد انتهزتُ هذه الفرصة لأقوم بدراسات وتحقيقات فى مواطن الأحداث ، وسيرى القارىء نتيجة هذا الجهد فى أمكنة متعددة من هذه الطبعة .

« وهذا يدفعنى أن أذكر بالفضل وعرفان الجميل مجموعة الأصدقاء من « آل الأسطل » فقد أحسنوا استقبالى فى الأرض المقدسة ، وهيأوا لى وسائل الانتقالات والزيارات لمواطن الأحداث ، وما كنت بدون عونهم قادراً على أن أحقق الأغراض السامية التى حققتها ، فالشكر لهم ، وأسأل الله لهم حسن الجزاء »

« ولست أنسى أن أشكر القراء على إقبالهم وتشجيعهم ، فقد فاق ذلك كلّ تفاؤل وكل أمل .

« وشىء آخر أضعه فى القمة دائماً من مقدمة كل كتاب فى طبعته الأولى

أو فى أية طبعة من طبعاته ، ذلك هو الشكر العميق لله كثير المنن ، على ما أسدى ووهب ، فبعونه وإلهامه تحققت الأسس لما نصادف من نجاح .

« يارب . . ، مزيداً من العون ومزيداً من التوفيق لنصل إلى الغاية التى نرجوها ويرجوها منا القراء ، لنعمل بذلك مع العاملين لخدمة الإسلام والمسلمين » .

إضافات للطبعة السابعة :

أما الطبعة السابعة فقد حظيت بالإضافات التالية :

— المقدمة الفسيحة التى شملت لأول مرة دراسات عن مجال التاريخ الإسلامى ، وتفسير التاريخ ، وفلسفة التاريخ ، ومبدأ الالتزام فى التاريخ الإسلامى ، وغيرها من القضايا التى تهم الباحث بوجه عام والمؤرخ بوجه خاص .

— دراسة الاتجاهات الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام ، وهو لون جديد من دراسة الحياة العربية .

— بحوث عميقة لتصحيح انحرافات حول الإسراء والمعراج .

إضافات للطبعة الثالثة عشر :

أما الإضافات فى الطبعة الثالثة عشرة فسنشير لها فى المقدمة الخاصة بهذه الطبعة فيما بعد .

وسنظل دائماً نكدح ونجيد ، فسيرة سيدنا رسول الله ثروة ضخمة تنبثق من حين إلى حين عن نواح من العظمة وصور من المجد ، والتاريخ الإسلامى حافل زاخر كالبحر كلما خضت فيه وجدت فيه ألواناً من الجواهر واللآلىء .

والشكر لله واهب النعم ، والموجه للخير ، الفاتح طرق المعرفة ، ولا يملك العبد إلا شكر سيده .

وثناء عميقاً للقارىء الكريم الذى استجاب لى عندما أقبلت عليه وعملت له ، فأقبل على واحتفى بجهدى ، ودفعنى إلى العمل الدائب المتصل .

والله نسأل أن ينفعنا بهذا الجهد ، وينفع به القراء ، ويجعله مشعل هداية للباحثين عن الهداية .

وهو نعم المولى ونعم النصير ؟

مقدمة الطبعة الثالثة عشرة

فى هذه المقدمة لا أملك إلا شكر الله العلى العظيم على ما منح وأعطى ، وأسجد له وأركع تقديراً لِنِعَمِه وتوفيقه، وما كنت بدون ذلك بقادر على تحقيق ما تمنيت .

ولقد عشتُ مع الرسول صلوات الله عليه ردحاً من الزمن عند ما كنت أعيد تدوين سيرته العطرة ، ونعمتُ بصحبته ، وتدفّقَتْ علىَّ الإلهامات والفيوضات خلال هذه الصحبة الكريمة ، وما إن أتممتُ كتابة السيرة النبوية من جديد ونشرتها ، حتى توالى الإقبال عليها ، كأنما كان الناس على موعد مع ظهورها ، مما جعل الطبعة العاشرة تنفد فى وقت قصير ، فأسرعت بإخراج الطبعة الحادية عشرة والثانية عشرة ثم الثالثة عشرة التى أضعها الآن بين أيدى القراء .

وكنت بعد ظهور الطبعة الثانية عشرة قد قدّمت فى إذاعة القرآن الكريم بالقاهرة بعض حلقات عن سيرة الرسول ، وبخاصة عن أسرته ونشأته ، ولم أقنع فى تقديم هذه الحلقات بما ورد فى هـــذا الكتاب ، بل أضفت الكثير إليه ، وقد أثبتُّ هذه الزيادات فى هذه الطبعة الجديدة .

وقبيل إخراج هذه الطبعة تلقيتُ دعوةً من الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن الربيع عميد البحث العلمى بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالمملكة العربية السعودية ، يدعونى فيه لكتابة كتاب لمركز البحوث بالجامعة عن « السيرة النبوية » ، ففرحت بهذه الدعوة ، وقمت بهذا العمل بأقصى ما أستطيع من الإجادة ، وقد أدخلت فى هذه الطبعة بعض ما جاء فى هذا الكتاب مما رأيت ضرورته .

وفى هذه الطبعة أيضاً إبراز الخطر الذى تدفّق على الإسلام والمسلمين من إيران ، والذى كان من ضحاياه عمر وعثمان وعلىٌّ رضى الله عنهم ، وقد قنع السابقون بالقول بأنّ قاتل عمر هو أبو لؤلؤة المجوسى ، وأن عثمان قتِل فى ثورة ، وعلىٌّ قتله الخوارج ، والحق أنهم جميعاً قتلوا بمؤامرات فارسية يهودية سيجد القارىء تفاصيلها عند الحديث عن الخلفاء الراشدين فى هذا الجزء .

إن السيرة النبوية نموذج ينبغى على المسلمين أن يتعرّفوا عليه ، ويقتدوا به ، وقد بذلتُ أقصى الجهد لأبرز سيرة القدوة ، وعلى المسلمين أن يبذلوا الجهد لمحاكاة هذه السيرة ، وصَدَقَ الله العلىّ العظيم الذى يقول : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » .

ومن الحق أن أقرر أن كل جهد مخلص يجد جزاءه عند الله وعند الناس ، فى المدى القريب ، أو المدى البعيد ، والله يشهد مدى الجهد الذى أبذله فى كل ما أكتب وأدوّن ، وأن هدفى الذى لا أحيد عنه هو مرضاة الله أولاً ، وخدمة مصر الحبيبة والعالم الإسلامى ثانياً .

وقد نلت جزاء طيبا بإقبال الناس على عملى ، مما يستدعى أن أشكرهم أعمق الشكر ، وأعاهدهم على الاستمرار فى مواصلة الجهد فى كل عمل ، بحيث يظل هذا القلم مسخراً لكلمة الحق ، غير طامع إلا فى إرضاء الله وإرضاء القيم الإسلامية .

وإلى اللقاء فى الكتب الأخرى والطبعات التالية إن شاء الله

دكتور أحمد شلبى

المعادى فى الثالث من يوليو سنة ١٩٨٨

مقدمة الموسوعة

دراسات حول علم التاريخ وفلسفته

ومراحل البحث فيه

• نطاق التاريخ الإسلامى

• تفسير التاريخ

• هل التاريخ علم ؟

• مراحل البحث التاريخى .

• فلسفة التاريخ

• فائدة التاريخ

• مبدأ الالتزام فى كتابة التاريخ الإسلامى

• الحضارة الإسلامية

• مشكلات حول تدوين التاريخ الإسلامى:

(أ) المراجع القديمة والدراسة التحليلية الحديثة

(ب) أقطار فسيحة منسية .

(ج) مصادر مهمة تجاوزها المؤرخون

(د) التاريخ الإسلامى جزء من الدراسات الاسلامية

(هـ) فقدان الروح الإسلامية فى كثير مما كتب حديثاً

(و) أخطاء شاعت ينبغى تصحيحها

• علم التاريخ بين المسيحية والإسلام

• سياسة التجميع والتنسيق

• كلمة عن المراجع والمكتبة التاريخية

نطاق التاريخ الإسلامى

التاريخ الإسلامى هو تاريخ الشعوب والدول الإسلامية منذ دخلها الإسلام حتى العهد الحاضر ، وبهذا فالتاريخ الإسلامى طويل طول القرون الأربعة عشرة التى اجتازها ، واسع سعة الرقعة التى يشغلها من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى ، متماسك تماسك مبادىء الإسلام التى يباشرها المسلمون على هذه الخريطة الفسيحة .

ولدى الدين الإسلامى فرصة لمزيد من الانتشار ، فإنه يتصل بأرض بكر ، وبشعوب تتطلع للأديان ، ومن الممكن أن نجذب الكثيرين من هؤلاء للإسلام لو ربينا جيلا من الدعاة يحسن تقديم الإسلام للناس ، وعلى هذا فخريطة العالم الإسلامى مفتوحة قابلة للامتداد ، بخلاف خريطة المسيحية التى قفلت عليها أوروبا وأمريكا ، ولا تجد مجالا واضحاً للامتداد ، بل إن مسيحية أوروبا مزعزعة بعيدة عن مسيحية عيسى ، وبعيدة عن الأديان، مما قد يجعل أوروبا وأمريكا مجالا للدعوة الإسلامية لو صحت همة المسلمين .

وفى الجامعات المصرية وغيرها من الجامعات نجد ألقاباً مختلفة قد تعرض صورة تختلف عن الصورة التى رسمناها عن مدى التاريخ الإسلامى ، فى هذه الجامعات نجد أستاذاً التاريخ الإسلامى ، وأستاذاً لتاريخ العصور الوسطى وأستاذاً لتاريخ مصر أو تاريخ الباكستان الحديث ، مع أن تاريخ الدول الإسلامية خلال العصور الوسطى جزء من التاريخ الإسلامى ، وتاريخ مصر الحديث أو تاريخ الباكستان أو اندونيسيا الحديث ، جزء من التاريخ الإسلامى كذلك ، والحق أن هذه التسميات ليست إلا وسيلة مالية خلقها التخطيط الجامعى ليرفع بعض الأساتذة المساعدين إلى كراسى الأستاذية أيام كانت هناك كراسى

للأساتذة ، أما التاريخ الإسلامى لقطر فيبدأ عندما يصبح معتنقوه أغلبية فى هذا القطر ، ويظل التاريخ الإسلامى ما بقى الإسلام ، ومن هنا اتجهنا فى هذه الموسوعة لدراسة تاريخ العالم الإسلامى كله فى جميع العصور وجميع الأنحاء ، فكل هذه الأزمنة وكل هذه الأمكنة مجال لهذا التاريخ .

تفسير التاريخ

هناك مدارس أو اتجاهات مختلفة حول تفسير التاريخ وبيان الدوافع التى تحرك الأمواج التاريخية الكبرى ، فالماديون يرون أن المادة و الاقتصاد هو المحرك الرئيسى للتاريخ ، وأن كبريات الأحداث التى غمرت الكون نشأت بسبب الصراع على المادة ، ويتخذون من حروب طروادة ، ومن الصراع القديم بين الفرس واليونان [1] . ثم بين الفرس والروم ، ومن الدوافع التجارية فى الحروب الصليبية ، ومن الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ، دليلا على ذلك .

ويعد أرنولد هيرن (Arnold Hearen) ١٦٧٠ — ١٧٤٢ ، من أسبق من تبنوا هذا الاتجاه ، ثم تزعمه الفكر الماركسى الذى يقرر أن أحداث التاريخ لا ترجع إلى بواعث فكرية ، بل تبرز هذه الأحداث تبعاً لظروف الحياة المادية ، وبالدافع الاقتصادي .

وعلى هذا ؛ فالفكر — عند الماركسيين — لا يحرك أحداث التاريخ إلا بعد أن تعتنقه الجماهير وترى فيه عوناً مادياً للخلاص من قوة مادية أخرى ، فالقوة — كما يقولون — لا تقاوم إلا بالقوة ، ولكن النظرية تصبح قوة مادية عندما يعتنقها الجماهير ، فالفكر والمادة يتعايشان فى وحدة يؤثر كل منهما على الآخر ويتطور معه .

---

(١) دونها هيرودوت أبو التاريخ (٤٨٤ — ٤٢٥ ق م) .

وهناك اتجاه آخر يرى أن الجانب الروحي والفكرى هو أهم تفسير للتاريخ ، وأن معظم الهزات العالمية كانت نتائج للاتجاهات الروحية : فالصراع بين قريش والمسلمين كان دينياً ، والحروب الصليبية كان دافعها الرئيسى دينياً ، والصراع بين الأرثوذكس والبروتستانت كان دينياً كذلك ، وكذلك كان الصراع الذى اندفع له الخوارج فى التاريخ الإسلامى .

ومن الواضح أن الاتجاه الفكرى معترف به عند الماديين ، ولكنهم كما أوضحنا آنفاً لا يرونه ذا بال إلا بعد أن تعتنقه الجماهير ، أما أصحاب المذهب الروحى فيرون الاتجاه الفكرى قوياً حتى قبل أن تعتنقه الجماهير . فصمود المسيحيين أمام الرومان الوثنيين ، وصمود القلة المسلمة أمام قوة قريش العاتية التى كان العرب يؤيدونها فى مطلع الإسلام ، كل ذلك خلق من الفكر قوة ، ووهبه البقاء حتى استطاع أن ينتشر ويزدهر ، ولم يكن زحف المسلمين على إمبراطوريتى الفرس والروم مؤيداً بالقوة بمقدار ما كان مؤيداً بالفكر والرغبة فى إحدى الحسنيين .

وهناك اتجاه ثالث يفسر التاريخ تفسيراً نفسياً ، فيرى أن أعظم أحداث التاريخ ارتبطت بصراع نفسى لدى شخص معين ، استطاع بطريق أو بآخر أن يحصل على سلطة مادية أو معنوية ، فهو بدافع الصراع النفسى والحقد الداخلى من جانب ، وبقوة السلطة التى حصل عليها من جانب آخر ، يدفع بالمجتمع إلى الصراع لسبب أو لآخر ، فيخلق الأحداث الكبرى وينظر لها نظرة ترضى انحرافه ، ويقف فى قمة من تصرف على هذا النحو الربيع بن يونس وابنه الفضل اللذان شغلا أرق المناصب فى قصور الرشيد والأمين ، وعاصرا البرامكة وآل سهل ، مع الفرق الكبير فى المحتد والأرومة ، فدفعهما الصراع النفسى إلى خلق المؤامرات ، وإشعال الحروب العاتية [١] ،

---

(١) انظر الدراسة النفسية عنهما فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

ثم يجيء كارل ماركس الذى عانى الجوع والاضطهاد الدينى فدفع من سماهم البروليتاريا إلى ثورة عارمة لم تنته بعد .

والذى يبدو لى أن وضع حواجز حصينة بين هذه الدوافع لا يمكن أن يتم ، فكل منها دافع له وزنه ، وقد يوجد دافعان منها أو توجد الدوافع الثلاثة كلها متعاونة فى حدث واحد . ويتضح ذلك من دراستنا للحرب الصليبية التى تعاونت أسباب عدة فى خلقها[1] .

هل التاريخ علم ؟

فى مطلع القرن العشرين أعلن الدكتور ج . ب بيورى J. B. Bury (١٨٦١ — ١٩٢٧) « أن التاريخ علم » ثم كرر هذا الأستاذ إعلانه عدة مرات فى محاضرات متتالية ، وقد أثار هذا الإعلان رأى كثير من الباحثين فى العلوم والآداب ، وشب نزاع خطير حول هذه القضية .

واتضح من الصراع أن تحديد لفظى « العلم » و« التاريخ » كان له دخل كبير فى تقريب وجهات النظر ، أو فى حسم الخلاف ، فاللورد أكتن (١٨٣٤ — ١٩٠٢) عرّف العلم بأنه « اجتماع طائفة كبيرة من الوقائع المتشابهة بحيث تنشأ عن اجتماعها وحدة عامة على هيئة مبدأ أو قانون يمكّننا على وجه اليقين من التنبؤ بحدوث وقائع مشابهة للوقائع المذكورة فى ظروف معينة » وبناء على هذا التعريف لم يعتبر اللورد أكتن ومن أخذ برأيه فى تعريف العلم أن التاريخ علم .

ولكن تعريف اللورد أكتن للعلم ليس موضع اتفاق لأن علم الميتيورلوجيا لم يصل إلى قوانين دقيقة خاصة بالجو ، ومن هنا شاع الخطأ فى تنبؤات الخبراء

---

(١) انظر الحديث عنها فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

س ـجو ، ومع هذا فـلا نستطيع أن ننفى صفة العلم عن الميثيولوجيا ، وبهذا سقط تعريف اللورد أكتن للعلم ، وبالتالى سقط استبعاد التاريخ عن دائرة للعلم .

واتجه الرأى لتعريف العلم بأنه المعرفة المنظمة المبوبة التى تؤسس على البحث الذى لا يتبع هوى النفس ، على أن يكون قد رُدَّ إلى المبادىء ثلاثة . التصنيف — التبويب — التقنين .

فهل التاريخ علم بناء على هذا التعريف الجديد ؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال نقرر أن التاريخ ليس هو عملية التدوين عملية التدوين فن أى إنشاء أدبى ، واللفظ الدقيق لهذا المعنى هو « تأريخ » أى كتابة التاريخ .

أما التاريخ فمرحلة تسبق التأريخ والكتابة ، وهو يعنى البحث فى أحوال السابقين ، وما خلفوا من آثار ووثائق ثم نقدها وتأويلها ، والمعرفة عن طريقها ، وذلك هو المعنى المقصود عندما نستعمل كلمة « تاريخ » وهو بذلك يشمل الاستقصاء والبحث وطلب الحقيقة ، ثم إنه يتبع مبادىء التصنيف والتبويب والتقنين ، وبهذا يكون التاريخ علما .

وتبعاً لهذا الاتجاه أدخل رينان سنة ١٨٤٨ العلوم التاريخية فى مؤلفه عن « مستقبل العلم » وردد فوستل ديكولاند (١٨٣٠ — ١٨٨٩) هذا القول مراراً ، ومن ذلك ما جاء فى كتابه (العصر الوسيط) ونصه : التاريخ علم لا يتخيل بل يرى ، وهو نظير كل علم ينظر إلى الأحداث ويحللها ويقارن بينها ، ويحقق الروابط القائمة بين بعضها والبعض ، والمؤرخ يبحث عن الحدث ويدركه بدرس النصوص بإمعان ودقة وهى نفس الطريقة المتبعة فى كل علم مؤسس على الملاحظة الدقيقة (١) .

---

(١) جوزيف هورس : قيمة التاريخ ص ٥٦

ويبقى سؤال بعد ذلك هو : من أى أنواع العلوم يعتبر التاريخ ؟

الإجابة عن ذلك يوردها Hearnshaw بقوله : التاريخ علم ، ليس علم نقد وتحقيق ،وأقرب العلوم الطبيعية شبهاً به الجيولوجيا . فكما أن الجيولوجى يدرس الأرض كما هى الآن ليعرف بقدر المستطاع كيف صارت إلى حالتها الحاضرة ، فكذلك المؤرخ يدرس الآثار المتخلفة عن الماضى ليفسر بواسطتها وبقدر إمكانه ظاهرة الحاضر ، وكما أن الجيولوجى يجد مادته الأساسية فيما سلم من نفايات الطبيعة من أدلة قليلة تثبت التطورات الجيولوجية القديمة ، فكذلك المؤرخ يعتمد فى معرفة الوقائع الماضية على آثار مادية أو سجلات ، سلمت مصادفة واتفاقاً من عوادى الزمن التى لا تبقى ولا تذر ، وهذه الآثار والسجلات هى الحقائق المحسوسة الحاضرة التى ينصب عليها عمل المؤرخ وهى مادة علمه ، وهى ليست ذات قيمة وهامة لذاتها ؛ ولكن لدلالتها على الوقائع الماضية ، ثم هى لا تدل على الوقائع الماضية مباشرة، ولكن بواسطة الضوء الذى يلقيه عليها فكر الباحث [1] .

---

(١) Hearnshaw : علم التاريخ ص ١٢ ترجمة الأستاذ عبد الحميد العبادى .

مراحل البحث العلمى

وبمناسبة الحديث عن التاريخ والتأريخ نقرر أن المؤرخ يمر بمراحل ثلاث قبل أن يبدأ فى التدوين : والمراحل الثلاث تكوّن التاريخ ، أما عملية التدوين فهى التأريخ ، والمراحل الثلاث هى :

أولا – مرحلة جمع المادة التاريخية ؛ وهذه المرحلة خطيرة للغاية ، لأن المؤرخ كثيراً ما يصادف وقائع لاتحصى متصلة بالفترة التى يؤرخ لها ، وهذه الوقائع لايمكن أخذها جميعاً ، وعملية الاختيار منها عملية صعبة للغاية ، وليست هناك قاعدة يسير عليها المؤرخون ، ويقول هرنشو[1].

لو عهد إلى مؤرخَيْن أن يصفا حركة من الحركات ، أو حادثاً من الحوادث فمن المرجّح ألا يتفقا فى القول بأهمية نواح منه بعينها ، لقد كان قدماء المؤرخين يستهويهم من شئون البشر كل ما كان شاذاً ، أو دراميا ، أو حماسياً ، أما المؤرخ العلمى الحديث فأميل إلى أن يختار مما بين يديه من مواد غير متناهية مجرد الحقائق التى يرى أنها تعينه فى بيان تطور المجتمع الإنسانى إلى حالته الحاضرة . وتعتبر الوثائق المكتوبة أعظم المصادر التى تساعد على بلوغ هذا الغرض ، نعم إن هناك مصادر أخرى على شكل مبان وحصون ونقوش ، بل وعلى شكل رواية شفوية أيضاً ، إلا أنه قد بلغ من فضل الوثائق المكتوبة على غيرها أن قيل « لاتاريخ بدون وثائق » ثم إن تجميع المواد من الوثائق يقتضى ملكة فنية عالية ، ودراية علمية فائقة بفقه اللغة وقراءة النقوش ، والقدرة على الغوص فى أعماق المحيط لإخراج اللآلىء ، وكما أن على المؤرخ أن ينتقى أنفع ما عنده من الوقائع التى لاتحصى ،

---

(١) علم التاريخ ص ١٨ .

فإن عليه أن يسعى إلى إضافة كل الوقائع المتيسرة التي يمكن أن يستفيد منها بحثه .

ثانياً : مرحلة النقد ؛ وفي هذه المرحلة يفحص المؤرخ ما جمع من مادة تاريخية ليتأكد من صحة أصلها، ودقة روايتها ، وكون عبارتها قابلة للتصديق ، ولهذا يتحتم على المؤرخ أن يكون على علم بالاتجاهات الفنية المعمارية التي سادت في العصر الذي يدرسه ليتحقق من نسبة الآثار المعمارية إليه ، وأن يعرف ظروف المؤرخين الذين يقتبس منهم ، ومدى ما استمتعوا به من حرية ومواهب وخلق .

ثالثاً : مرحلة التأويل ؛ وهي أشق المراحل الثلاث وأصعبها مراما ، ففيها تتجلى عبقرية المؤرخ وسعة خياله بحيث يصبح قادراً على السبح في أعلى الأجواء دون أن يخرج من نطاق الحقيقة ، وسيصادف المؤرخ عقبات جساماً منها ما يتصل بقلة الوثائق والمادة التاريخية ، ومنها ما يتصل باختلاف الظروف والقيم بين العصر الذي وقعت فيه الأحداث وعصر المؤرخ ، ومنها ما يتصل بانحراف بعض ما وجده من كتابات لسبب أو لآخر ، ولكن المؤرخ يتحتم فيه رجحان العقل والعاطفة جميعاً ليستطيع أن يرسم الصورة التي تعد أقرب إلى الحقيقة ، وأن يضفي عليها من التأويل ما يجعلها واضحة مقبولة .

وبانتهاء هذه المراحل الثلاث يصل المؤرخ إلى مرحلة التأريخ ، وينبغي أن يكون واضحاً أن كل حقيقة تاريخية تعتبر وحدة قائمة بذاتها ، وعلى هذا فلا يؤخر المؤرخ كتابته في كل موضوعه حتى تتم له هذه المراحل في كل الموضوع ، ويجوز له أن يعتنق رأي Edward Carr الذي يقول(1).

---

(1) Edward Carr : What is History p. 37 - 38

وفيا يتعلق بي فإنني بمجرد أن أطلع على ما أعتقد أنه مراجعي الرئيسية تزداد لهفتي إلى الكتابة وأشرع فيها ، ليس ضروريا من البدء ، بل من أي موضع ، وعقب ذلك تستمر القراءة والكتابة ، فيضاف إلى الكتابة التي تمت أو يحذف منها ، أو يعاد تنظيمها ، أو تستبعد ، في نفس الوقت الذي أقرأ فيه ، وتسيّر القراءةُ الكتابةَ وتوجهها ، وتجعلها مثمرة ، وكلما استمرت الكتابة ازدادت معرفتي بما أبحث عنه ، وازددت فهما لأهمية ما اهتديت إليه ، ومن المحتمل أن يقوم بعض المؤرخين بهذه الكتابة التحضيرية في أذهانهم دون استخدام القلم والورق أو الآلة الكاتبة ، كما يلعب بعض الناس الشطرنج في رءوسهم دون رجوع إلى اللوحة والقطع الخشبية ، إنها لموهبة أحسدهم عليها ، ولكنني لا أستطيع أن أجاريهم فيها ، وإني على يقين أن العمليتين اللتين يسميهما الاقتصاديون (وارد ومنصرف) يتمان في نفس الوقت عند أي مؤرخ جدير بهذا الاسم ، وأنهما من الناحية العلمية جزءان من عملية واحدة .

فلسفة التاريخ بين الإهمال وسوء الاستعمال

فلسفة التاريخ هي التعليق على الحدث التاريخي ، وبيان أسبابه ، وذكر فروض مختلفة حوله ، مع محاولة الإجابة عن هذه الفروض ، وإذا استطعنا أن نجرد الحدث التاريخي عن الفلسفة فإن هذا الحدث يمكن أن يقبله أكثر المؤرخين كأن نقول : الحلفاء انتصروا في الحربين العالميتين الأولى والثانية ، وقد قلنا إن هذا الحدث يقبله أكثر المؤرخين ، ولم نقل يقبله كلهم لأن بعض المؤرخين لا يرى الحدث قد انتهى بعد ، ويتوقع أن تكون هناك جولات أخرى تغيّر من النتائج ، وعلى كل حال فالخلاف حول الحدث التاريخي أضيق جداً من الخلاف حول فلسفته ، فإننا إذا تساءلنا : لماذا انتصر الحلفاء ؟ فإن الإجابات تختلف من شخص إلى شخص ومن فكر إلى فكر ، ومن يوم إلى يوم ، والمؤرخون القدامى قلما كانوا يعنون بفلسفة التاريخ ، وقد اتجهوا

فى الغالب إلى سرد الأحداث بدون تعليق أو بتعليق خفيف ، فلما جاء العصر الإسلامى ظهر مع القرآن الكريم ما يسمى بأسباب النزول ، وظهر فى التشريع حكمته ، ودوران الحكم مع العلة وجوداً وعدما ، فانفتح الباب بذلك للحديث عن فلسفة التاريخ ، ثم حدث شيء مهم فى الإمبراطورية الإسلامية فخلق بوضوح فلسفة التاريخ ، وذلك هو ما أصاب العالم الإسلامى من ضعف وتدهور ، وما نزل به من خطوب جسام ، فاتجه المؤرخ ابن خلدون (٨٠٨ هـ) بسبب ذلك اتجاهاً فلسفياً عميقاً ليتعرف عللّ الحوادث وأسباب قيام الدول وعلل سقوطها ، ومظاهر العمران وأصول الاجتماع ونحو ذلك ، وأصبح ابن خلدون بذلك فيلسوف مؤرخى العرب قاطبة ، وأصبحت « مقدمة ابن خلدون » عملا رائداً فى هذا المجال ، وعدت بحق أول عمل من نوعه وضع الأساس وشيد البناء حول ما يعرف بفلسفة التاريخ .

والتقط الأوربيون هذه النظرية فى اللقاءات التى تمت بين المسلمين والأوربين فى الأندلس وفلسطين وصقلية ، تلك اللقاءات التى يقول عنها Hearnshaw [١] : لقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فإذا هم جلوس عند أقدامهم ، يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة ، لقد بُهت أشباه الهمج عندما رأوا حضارة المسلمين التى رجحت حضارتهم رجحانا لا تصح معه المقارنة بينهما .

وراح الأوربيون يستعملون فلسفة التاريخ بعد ذلك فى التعليق على الأحداث التاريخية ، وأصبحت فلسفة التاريخ شديدة الأهمية منذ ذلك الوقت ، فلم يعد الحدث التاريخى بمنأى عن فلسفة التاريخ ، وإنما تم امتزاج بين الحدث وبين فكر المؤرخ ، أو أصبحت صلة المؤرخ بموضوعه — كما يقول Edward Carr صلة الإنسان ببيئته [٢] . ويقرر Carr أيضاً أن وقائع التاريخ

---

(١) علم التاريخ ص ٦٤ من الترجمة العربية .

(٢) ما هو التاريخ ص : ٢٨ - ٢٩ و ص ١٥٣ - ١٥٤

لا يمكن أن تكون موضوعية صرفه لأنهـا وقائع للتاريخ ، وذلك بسبب ما أسبغ المؤلف عليها من تأثير لا محيص عنه ، والموضوعية فى التاريخ — إذا أصررنا على استعمال هذا الاصطلاح — لا يمكن أن تكون موضوعية واقعية بل موضوعية صلة فحسب ، أى الصلة بين الواقعة والتفسير ، وبين الماضى والحاضر والمستقبل [1] ، ويقرر بوليب أننا إذا انتزعنا من التاريخ البحث عن الأسباب والأساليب والأهداف التى حركت الإنسان وأهملنا دراسة النتائج التى توخاها من عمله ، ونسبة ما استهدف إلى ما حصل عليه ، فلن يبقى من التاريخ سوى تمارين أدبية لا عبرة فيها ؛ ومتعة للآذان وملهاة للأذهان لا نتيجة لها فى مستقبل الأيام [2] .

وفى العصر الحديث كان المستشرقون أسبق من سواهم فى مزاولة فلسفة التاريخ الإسلامى ، فراحوا يتخذون من كل حدث الجانبَ الذى يرضى اتجاههم فى مهاجمة الإسلام ، فإذا كانت هناك حروب بين المسلمين من جانب وبين الروم والفرس من جانب آخر فسروا ذلك بأن الإسلام انتشر بالقوة ، ومواقف المسلمين من اليهود بالجزيرة العربية ، وتعدد زوجات الرسول ... فسرت كلها بما يهاجم الإسلام ويؤذى شعور المسلمين ، وسار على هذا المنوال الباحثون المسيحيون على العموم حتى الذين ينحدرون من أصل عربى فإنك إذا قرأت تاريخ العرب للدكتور فيليب حتى هالك ما به من مغزامت وتعليقات لا تكاد تخلو منها صفحة من صفحات كتابه الكبير .

ومهمة الباحث الحديث أن يعيد النظر فى هذه التأويلات الجائرة التى اتُّخذ بعضها مع الزمن على أنه شىء مسلم به ، مع أنها لا تثبت أمام البحث العلمى العميق كما سنرى فى هذه الموسوعة .

---

(١) Edward Carr : What is History p 153 - 154

(٢) نقلا عن جوزيف هورس : قيمة التاريخ ص ٢٥ من الترجمة العربية .

فائدة التاريخ

هل يختلف المفكرون فى أن للتاريخ فائدة ؟

نستطيع أن نجيب بأن جميع المفكرين يرون فى التاريخ فائدة ، ولكنهم يختلفون فى نوع هذه الفائدة ومداها ، ولعل أهم الآراء التى تقلل من قيمة التاريخ هو رأى Sir Ray Lankester الذى يرى أن فائدة التاريخ تنحصر فى أن قراءته لذيذة ، وأنه تسلاة يُتَسَلى بها : وهناك باحث آخر هو الأستاذ J. W. Allen يرى أن للتاريخ فائدة غير مباشرة : فيقرر أن دراسة التاريخ تنشط الفكر وتفتقه وتساعده بطرق شتى ، فهو بذلك أداة لرياضة العقل [1] ، ويذكر أبو التاريخ هيردوت أنه يدون تاريخه كيلا يطمس الزمانُ أعمال الرجال ، وكيلا تبقى المآثر الكبرى والإنجازات الباهرة بلا تمجيد ولا إعجاب .

بيد أننا لو عرفنا طبيعة التاريخ لأدركنا جوانب كبيرة الأهمية من فائدته الواقعية ، فالتاريخ ليس سرداً للماضى ، وليس عودة للوراء ، إنما هو عمل لخدمة الحاضر وخدمة المستقبل ، ولنعد إلى تلك الدراسة الممتعة التى كتبها Edward carr عن ماهية التاريخ ، وفيها يقول : إن المؤرخ لا يتبع الماضى بل الحاضر ، وإن مهمة المؤرخ ليست أن يعشق الماضى أو يتحرر منه ، بل أن يلم به ويفهمه باعتباره مفتاحاً لفهم الحاضر ، والذى يقرأ ما كتبه المؤرخون الفرنسيون عن الثورة الفرنسية قبل الثورة الروسية (١٩١٧) وبعدها ، يدرك الفرق الكبير فى الاتجاهين ، ويعرف تأثير الثورة الروسية على كتابات الذين جاءوا بعدها ، مما يؤكد تأثر المؤرخ بالحاضر ، وانفعاله بأحداثه ، وهو يكتب عن الماضى [2] .

---

(١) Hearnshaw : علم التاريخ ١٥٧ ، ١٥٨

(٢) What is History p. p. 33 - 34

ومثل هذا ما يقرره Collingwood حين يقول[1]: إن القديس أغسطين قد نظر إلى التاريخ من وجهة نظر المسيحيين الأوائل ، ونظر له نيلامونت من وجهة نظر الفرنسيين في القرن السابع عشر ، وجيبون من وجهة نظر الانجليز في القرن الثامن عشر ، وممش من وجهة نظر الألمان في القرن التاسع عشر ، فلا مجال للسؤال : أية وجهة نظر هي الصحيحة ؟ فكل وجهة نظر كانت هي الممكنة بالنسبة للرجل الذى اتبعها »

ويتجه Hearnshaw نفس الاتجاه تقريباً حين يقرر أن دراسة التاريخ كانت على مر الأجيال من أجل توضيح الحاضر وإلهامه سبيل الرشاد[2] وأن التاريخ هو وحده القادر على أن يضع ظواهر الحاضر فى وضعها الصحيح[3].

ويبرز المؤرخ الإيطالى المعاصر « نيوتوكروش » فائدة التاريخ للحاضر بقوله : إن التاريخ كله تاريخ الحاضر ، فنحن لانبغى حقاً من دراسة التاريخ غير التعرف على الإطار الذى نعيش فيه ومعرفة أصوله ، ولا يتسنى لنا معرفة الحاضر وتفسيره مالم ندرك الماضى بالبحث فى حقيقة وجوده .

وإذا تقرر أن التاريخ لخدمة الحاضر ومفتاح له . . . فإن فائدة التاريخ تصبح أكيدة ، وإذا خالف مؤرخ هذا الاتجاه وعاش فى الماضى وللماضى ، فإن عمله يكون قليل الجدوى ، لأنه بعيد عن الخط الصحيح للدراسة التاريخية .

بقى اتجاه آخر ينبغى نشير إليه ونناقشه ، ذلك هو الرأى الذى يتجه اتجاهاً مادياً ويحترم من العلوم مايطبق تطبيقاً عملياً فى شئون الحياة كالطب والزراعة والهندسة ، وهناك رد شديد على هذا الاتجاه يصل إلى القول بأن المواد

---

(١) The idea of History p. xii

(٢) علم التاريخ ص ٢٣ — ٤٢

(٣) نفس المرجع ص ٦٠

الصالحة للدراسة المدرسية والجامعية هي تلك التي لاتشوب الاعتباراتُ النفعية صفو الاشتغال بها ، وتؤكد هذه النظرة أن الطبيب يباشر قدراً ضئيلا جداً من ثقافته الطبية في الحياة العملية ، ويقتبس هرنشو قول أحد المربين الانجليز « إن خير أنواع التربية هو مانمّى أعظم مقدار ممكن من قوى العقل ومداركه » وبهذا يصبح التاريخ عاملا مهماً من عوامل التربية للفرد والمجتمع [١].

والآن بعد هذا النقاش حول فائدة التاريخ نتجه إلى الفكر العربي الإسلامي لنقتبس اتجاهاته في هذا المجال :

يقول ابن الأثير[٢] موضحاً فائدة التاريخ للفرد : إن ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما يصير إليه من عواقبها يجعله لايحدث له أمر إلا وقد مرّ به هو أو نظيره ، فيزداد عقلا ، ويصبح لأن يقتدى به أهلا .

ويقول موضحاً فائدة التاريخ للدول والمجتمعات : إن من إليهم الأمر والنهى إذا وقفوا على مافى وقائع التاريخ من سيرة أهل الجور والعدوان ، ورأوها مدوّنة في الكتب يتناقلها الناس فيروبها خلف عن سلف . . . وما ترتب عليها من فساد وخرائب وهلاك . . . . استقبحوها وأعرضوا عنها ، وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها ، وما فيها من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، وأن بلادهم وممالكهم عمرت ، وأموالها نمت استحسنوا ذلك ورغبوا فيه وثابروا عليه . . . هذا سوى مايحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفع بها السابقون مضرات الأعداء وخلصوا بها من المهالك [٣].

ويقول السخاوى[٤]:

إن الحديث عن ذوى المروءات والأجواد والمتّصفين بالوفاء ومحاسن

---

(١) علم التاريخ ص ١٥٦
(٢) الكامل فى التاريخ جـ ١ ص ٧
(٣) الكامل فى التاريخ ١ جـ ص ٨
(٤) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٣٢ .

الأخلاق، والمرموقين بالشجاعة والفروسية عبر التاريخ يثير في النفوس الهمم والتطلع إلى معالي الأمور ، فالتاريخ جم الفوائد كبير النفع لذوي الهمم العالية ، والقرائح الصافية ، لما جبلت عليه طباعهم من الارتياح عند سماعهم هذه الأخبار إلى التشبه والاقتداء بأربابها ليصير لهم نصيب من حسن الثناء وطيب الذكر التي حرص عليها خلاصة البشر .

ويقول الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ [1] :

التاريخ مدرسة الأجيال يتعلم فيه الأحياء ما ينفعهم فيعملونه ؛ وما يضرهم فيجتنبونه ، وهو الجسر الذي يصل ماضي كل أمة بحاضرها ، وبقدر العناية به ، والاهتمام بتدريسه تستطيع الأمم أن تبني حياتها على أسس متينة وثابتة ، وكيف لا والحياة كلها بدروبها الطويلة المتعاقبة ليست إلا تاريخاً أميناً ، فاليوم هو حاضرك لكنه سيكون غداً في حساب تاريخك ، لا يعود إليك ولا تملك تغيير معالمه ، والإنسان يبني واقعه على الماضي ، فأنت تلتقي بالأمجاد فتشد نفسك إليها ، وتلتقي بالسيء من الأحداث فتحجز نفسك عن انتهاج الطرق المؤديه إليها ، وإذا رأيت أمة قد اضطربت واختلطت عليها معالم الطريق ، فاعرف أنه في مقدمة الأسباب لذلك انقطاع الصلة بين ماضيها وحاضرها

ويبدي المؤرخون الأوربيون اهتماما كبيرا وهم يدوّنون التاريخ فيعملون على إبراز فائدته للفرد والمجتمع ؛ ويلتقي عدد كبير منهم في اعتبار التاريخ وسيلة لتهذيب الأخلاق والتربية ، فيقررون أن الفائدة الأخلاقية هي بوجه الدقة ما يجعل للتاريخ قيمة من حيث التربية ، يقول بولنجبروك : لقد بان لي أن دراسة التاريخ دون سواها أصلح الدراسات لتعويد الإنسان الفضائل الخاصة والعامة ، وقليل من الناس من يعارض اليوم في وجوب استخدام التاريخ أداة لإلقاء دروس في الأخلاق خارجة عن نطاق البحث التاريخي [2] .

---

(١) تقديم كتاب عنوان المجد لابن بشر .

(٢) Hearnshaw : ١٥٨ التاريخ ص .

ولنذهب الآن إلى باحث أوروبى آخر لنراه يذكر من فوائد التاريخ مجموعة ذات بال ، ذلك الباحث هو Josiph Horse ، ونقتبس منه بعض لمحــات :

— إذا وجهنا سؤالا ملحاً للمؤرخ وطلبنا منه الإجابة عما يبرر فى نظره جهوده وصبره ، فلن يكتفى إذن بوصف ما يشعر به من المتعة الصافية ، ولن يكتفى بترديد قول ليون هلكان ، بأن الجانب العاطفى نحو القصص والحكايات يرضى نفسه ، وأن جمال القصص يتضاعف هنا بسبب واقعية الرواية والشعور بأن حوادثها حقيقة واقعة ، ولن يقف عند وصف اللذة العميقة المتأتية من معرفة الأشياء الغريبة ، على حد تعبير « لينتز » المظلم ، كما أنه لن يقف عند ذكر الخيلاء التى يشعر بها من ينفرد بمعرفة بعض ما يجهله الناس ، بل هو سيجيب بأنه ما دام هدفنا أن نعيش فلا بد من الاستعانة بأى علم ، وألا نهمل علماً يعرفنا كيف عاش الناس قبلنا ، يقول المثل : إن القفز إلى الماء يعلم العوم ، ويمكننا القول بأن الحياة تعلم العيش ، وأن ملاحظة أعمال الناس فى الماضى تضيف خبرة إلى خبرتنا ، وهكذا نعيش أعماراً كثيرة إذ نحن أضفنا إلى عمرنا أعمار من سبقونا من الناس [(١)]

— فى كل لحظة تتمثل فى ذاكرة الإنسان صور سواء منها ما كان عفوياً أو إرادياً ، كما تعـود إلى ذهنه ذكريات عن أشياء أو حوادث عفا أثرها ، ولكنه عرفها ، وإذا شرع فى أمر بدت له أمور مشابهة تمهد له الطريق وتهديه إلى سبل النجاح ، إذ هو يتجنب ما اتضح فى الماضى مخيباً للأمل وينهج المنهج الذى اختُبر فى الماضى نجاحه أو اختبره غيره من الناس ، والتاريخ فى أبسط رسومه يبدأ عندما ينتقى المرء من بين ذكرياته المتناثرة ما يصلح نماذج لأعماله المستقبلة [(٢)] .

---

(١) جوزيف هورس : قيمة التاريخ ص ١٢ — ١٣ .

(٢) نفس المرجع ص ١٥

ويقتبس جوزيف هورس من توسيد يد عبارة تفيد نفس المعنى وهى : الفائدة التى يمكن أن تستمد من معرفة حقائق الماضى هى تقدير أقيسة الحوادث المشابهة التى يمكن أن تتولد فى المستقبل من قرار الطبيعة المشتركة بين البشر .

— لكل مؤسسة محفوظات ورفوف ، ولكل تاجر دفاتره ، ونحن لا نستطيع أن نعيش وأن نعمل وأن نساير الزمان إلا إذا احتفظنا بالتضامن الوثيق مع الماضى .

— تربية النشء هى العمل الأسمى فى وظائفنا الإنسانية ، ولن تكون تربية النشء صحيحة وكاملة إذا جهلنا ماضى سلالة من نربى ، وحياة أبوية وجدوده ، وحالة البيئة التى ينتمى إليها ، والتقليد العائلى أساس متين لا يغنى عنه التأديب فى أسلوب تربوى مهما بلغ مناهجه من الكمال ، ودراسة النسب لا يزال الجوهر الثابت لكل نشاط تاريخى .

وإذا قصدنا من التاريخ هذا المعنى ألفيناه عملا حتمياً لا بد منه لكل مجتمع بشرى ، فبدونه لا يوجد شعور باستمرار الوجود خلال الأزمنة ؛ وبدونه لا تستطيع مجموعة من الناس التعرف على شخصيتها ولا يتكون عندها وعى بجمع تراثاً مشتركا جديرا بانتباه الناس ، فلا يتى من النسيان سوى التاريخ ، وبدونه لا تنسجم الأجيال المتعاقبة ، كأنها رجل واحد تلقنه الدهور دروساً دائمة على حد تعبير باسكال ، لذلك تتصم بالهمجية تلك الشعوب التى تفتقر أشد الافتقار إلى ذكريات ماضيها وتنحصر أساليبها المعيشية فى بعض ممارسات لا يجدون لتحسينها سبيلا بسبب ما يجهلون من أصولها التاريخية العميقة الجذور [1] .

— من المحتم أن نضيف إلى خبرتنا خبرة الأجيال الماضية ، فالتاريخ

---

(١) جوزيف هورس : قيمة التاريخ ص ١٥ — ١٦

على حد تعبير بعض المفكرين الألمان هو (حاصل الممكنات التى تحققت)، وهذا التحديد يوحى بأن هناك أشياء لم تتحق على الرغم من معقوليتها، والمؤرخ يختبر أعمال الإنسان ويتأمل فى سير الحوادث، فيستطيع توسيع خبرته وتمحيص معرفته بالطبيعة الإنسانية، وذلك كالطبيب، فإنه لا يتحكم فى تطورات كل مرض عند كل مريض، وهو كذلك يجهل النواميس التى تدور عليها دقائق التطورات، ومع ذلك فلا بد من اللجوء إليه لأن خبرته فى آلام الناس توحى بنصائح نافعة وعلاجات شافية، والاطلاع على أفعال الإنسان السابقة يفيد فى مسايرة التسلسل الحدثى، وأحداث التاريخ لا تتكرر كما هى، ولكن علم التاريخ يكشف خلال تطورات الإنسان نواميس وعوامل طويلة المدى يمكن الاستفادة بها فى مقابلة حدث بحدث [1].

وليكن ختام هذا البحث مقتبسات من كتاب علم التاريخ لهرنشو، وهو يقرر ما ذكرناه آنفاً من أن التاريخ لايعيد نفسه، ولكنه يذكر أن تجارب الماضى تفيد عندما تُقْدِم البشرية على عمل جديد مثلما يستفيد الإنسان بتجربته السابقة وهو يحاول عملا آخر، والتاريخ بالنسبة للإنسانية هو مستودع التجـارب، فكما يختزن الإنسان تجـاربه الخاصة فى ذهنه ليستفيد بها، وفيما يلى كلماته : التاريخ لايعيد نفسه، ولكن على الرغم من ذلك يجد كل إنسان عندما يبلغ سن النضج والاكتمال أنه تهديه وتحكمه تجاربه التى تعيها ذاكرته، ومبادىء السلوك التى يستمدها من التجارب المذكورة، وما يقال عن الفرد يقال عن الجنس الإنسانى، مع ملاحظة هذا الفارق الهام، وهو أن الجنس الإنسانى فاقدٌ لما يتصف به الفرد من الشخصية والشعور الذاتى المستمر، فليس للجنس ذاكرة طبيعية، ولكيلا يفقد الثروة الضخمة المتجمعة من تجارب الماضى، وجب أن تنشأ له ذاكرة، وذاكرة الجنس الإنسانى هى التاريخ.

---

(١) جوزيف هورس : قيمة التاريخ ١٠٧ — ١٠٨ بتصرف .

وهناك فائدة أخرى يشير لها هرنشو وخلاصتها تشجيع جيل من الأجيال لأعمال مجيدة بإشاعة مفاخر أجداده ، واتخاذ ذلك وسيلة لحث الجيل الحاضر على السير نحو تحقيق ماحققه الأسلاف من أمجاد ، وقد سار على ذلك بعض المؤرخين المحدثين فى إثارة همم معاصريه[1] ، بل اتخذ الأوروبيون المستعمرون التاريخ وسيلة لتحقيق أغراض سياسية استعمارية ، فراحوا فى مستعمراتهم يسلكون لتحقيق أغراضهم الاستعمارية طريقاً ذا شعبتين ، الشعبة الأولى قطع هذه المستعمرات عن تاريخها ، بحيث ينشأ سكانها كالنباتات الطفيلية بدون جذور فلا يعرفون أصولهم ، ولا يعرفون شيئاً عن ماضى أسلافهم ، وبذلك لايتمسكون بهذا الماضى ، ولا يحسون بالارتباط به ، أما الشعبة الثانية ، فهى أن يدرس المستعمر الفرنسى فى المستعمرات الفرنسية تاريخ فرنسا ، ويدرس الأنجليز فى المستعمرات الانجليزية تاريخ إنجلترا ، ويقصدون بذلك خلق التقدير والرهبة فى نفوس هؤلاء الطلاب عندما يتعرفون على أمجاد الأوروبيين ، وما خاضوه من معارك وما حققوه من نجاح عسكرى وعلمى .

* * *

تلك لمحة سريعة عن قيمة التاريخ ، وهى لمحة تضع التاريخ فى مكانه الحقيقى الجدير به بين مختلف العلوم والفنون .

وصدق الله العظيم حين قال « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب »[2] وصدق سيدنا رسول الله القائل (من ورّخ مؤمناً فكأنما أحياه) أى أحياه بخيره وشره ليكون قدوة أو عظة للأحياء .

التاريخ المتصل والتاريخ المنقطع :

بقى فى إبراز فائدة التاريخ أن نوضح أن المؤرخ ومعلم التاريخ يلتزمان

---

(١) هرنشو : علم التاريخ ١٦٠ — ١٦١ .

(٢) سورة يوسف الآية ١١١ .

بإبراز هذه الفائدة ، وذلك بخلق ما يسمى فى المناهج التاريخية بـ « التاريخ المتصل » وتحاشى « التاريخ المنقطع » بقدر الامكان .

ومعنى التاريخ المتصل أن يوضّح المؤرخ ومعلم التاريخ الصلة بين الحاضر وبين المعالم والأحداث التاريخية ، فيركّز على إظهار القيم العليا فى التاريخ وجهود الأبطال والقمم ، مع بيان ماخلّفته هذه الجهود من فوائد وما تركته من آثار ، وفى مقابل هذا يوضح أن المجتمع الحالى فى حاجة للتأسى بالماضى . والانتفاع باتجاهات السابقين لينال المصلحون فى الحاضر ما ناله المصلحون فى الماضى من خلود ومن ذكر طيب . ويقف المؤرخ كذلك ومعلم التاريخ عند انحرافات صانعى التاريخ فى الماضى ، فيوضح أن هذه الانحرافات عادت على البلاد والعباد بالويل والفساد ، وأن الذين قاموا بهذه الانحرافات لم يجنوا فى النهاية إلا الخزى وسوء الذكر ، ويحذر أن يقع المعاصرون فى مثل هذه الهاوية .

ذلك هو التاريخ المتصل الذى يربط بين أحداث الماضى وواقع الحاضر بكل صور النقد والمقارنة ، والأمثلة على ذلك كثيرة تمتد عبر التاريخ الإسلامى طوال العصور وفى جميع البلدان ، حيث تقابل الصالح والطالح ، وحيث يتحتم أن نخلق نوعاً من الارتباط بين الأمور المتناسبة والمتقاربة فى أحقاب الماضى وفى الزمن الحاضر .

أما التاريخ المنقطع فيتبعه المؤرخ ومدرس التاريخ الذى لم يتكامل وعيه ؛ وهذا النهج يُضيِّع فائدة التاريخ ويجعله أقرب للقصص والأساطير ، وطريقته أن يجرى الحديث عن حدث من الأحداث أوشخص من الأشخاص دون نقد أو مقارنة أو تعليق ، ومن هنا يجىء الحديث منقطعاً عن الحاضر ، ويكون فى معزل عن مجريات الأمور ودنيا الواقع ، فيقل تأثير التاريخ وربما ضاع التأثير .

إن الاهتمام بالتاريخ المتصل يجعل التاريخ حياً نابضاً ، ويقوّى الارتباط بين العصور والأحداث ، ويحقق المعنى السامى الذى تحمله الآية الكريمة « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب .

مبدأ الالتزام فى كتابة التاريخ الإسلامى

إذا كان النقاد من الأدباء يرون أن فكرة الالتزام فى الأدب فكرة حديثة ، وأنها وليدة هذا العصر ، ولم يعرفها النظر النقدى فى العصور الماضية ، وأن المصطلح نفسه – يعنى الالتزام – مصطلح جديد فى ميدان الأدب ؛ لم يستخدمه الأقدمون ولم يعرفوه[1] ، أقول إذا كان النقاد من الأدباء يرون ذلك فإن المؤرخين والمفكرين المسلمين ، عرفوا الالتزام والتزموا به منذ مطلع الإسلام ، فكثيرون من المسلمين وقفوا ضد الإسلام بعنف فترات طويلة قبل أن يدخلوا الإسلام ، وأدرك الرسول بحكمته أن السابقين قد يعتريهم العجب والتيه ضد المتأخرين فى دخول الإسلام فذكر أن الإسلام يَجبُّ ما قبله ، وأوصى بأصحابه جميعاً حين قال : لاتسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحُد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه (صحيح مسلم) ، فهذا الموقف بالنسبة لأصحاب الرسول هو الالتزام بعينه .

وبعد وفاة الرسول قامت حروب بين المسلمين بعضهم والبعض كحرب الجمل وحرب صفين ، وقادها مسلمون من رجال الصف الأول كعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه وكالسيدة عائشة وكطلحة والزبير ومعاوية بن أبى سفيان ، ومن انضم إلى هذا المعسكر أو ذاك من كبار صحابة سيدنا رسول الله ، واتجه أكثر المؤرخين إلى عدم الخوض فى دراسة هذه المعارك بما يسىء إلى بعض الصحابة ، أو يَصِمُهم بما لايناسب قدرهم ، وهناك أراجيز وأشعار تحمل هذا المعنى أذكر منها قول الشاعر :

واحفظ رسول الله فى أصحابه　　　فمقامهم بمقامه موصول

---

(١) دكتور عز الدين اسماعيل : الشعر العربى المعاصر ص ٣٧٣ .

وقد سار أكثر المؤرخين المسلمين المعتدلين على هذا الدرب ، معتنقين مبدأ الالتزام منذ أمد بعيد .

وفى الدراسات العلمية هناك اتجاه يرى دراسة العلم للعلم ، فتجرى تجاربه للوصول إلى نتائج مقصودة لذاتها بصرف النظر عن فائدتها . فقد يكون البحث مفيداً أو لا يكون ، ولعل الصعود للقمر فى العهد الحاضر يعد مثالا لهذا اللون ، فهو حدث ضخم ، وتقدم هائل فى مجال العلم ، ولكن لو سألنا : ما فائدته ؟ لا نجد إجابة واضحة حتى الآن ، وهذا الاتجاه ترف علمى يعرف بأنه لا التزام فيه ولا غاية محددة له .

أما الاتجاه الغالب فهو أن العلم للحياة ، ويدخل فى هذا كل التجارب التى تجرى لزيادة الإنتاج ، والتقدم التكنولوجى ، والحصول على أدوية للأمراض ، واختراع الجديد من الصناعات أو تحسين ما هو موجود منها ... وهذه دراسات ملتزمة ، أى أنها دراسات لها هدف وفائدة محسوسة مطلوبة .

فإذا جئنا إلى الفن وجدنا أنه مر بمراحل ثلاث ثم انتهى إلى الالتزام ، وهذه المراحل تبدأ بمرحلة ارتباط الفن بالعقيدة الدينية ، وقد عبرت هذه المرحلة فترة طويلة كانت كل الجهود الفنية خلالها فى خدمة العقيدة الدينية ، ثم اتجه الفن للارتباط بالعبقرية متمثلة فى فرد ، فأصبح هذا الفرد ينال كل عناية الفن ، إذ تمثلت فيه كل الآمال ، ثم حصل التمرد على الفرد واتجه الفن ليكون للفن ، وكانت هذه ثورة على الخضوع للعقائد ، ولكنها فى الوقت نفسه اتُّهِمت بأنها جعلت الفن عقيدة ، فجاء تحولٌ جديدٌ جعل الفن للحياة وللمجتمع ، والتزم الفنان أن يكون فنه فى خدمة المجتمع ولحل مشكلاته .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نحدد معنى الالتزام ، ولعل أوضح معنى للالتزام هو وجوب مشاركة المفكر فى قضايا قومه الدينية والوطنية والإنسانية ،

... يعانون من آمال ، فليس للمفكر أن يستغرق فى التجريدات على حين يعانى وطنه مذلة احتلال ، أو طغيان ظالم مستبد .

هل نطبق مبدأ الالتزام فى كتابة التاريخ الإسلامى ؟ أولا نطبقه ؟ أو بعبارة أخرى . هل يدرس المؤرخ قضايا التاريخ مرتبطة بقضايا عصر المؤرخ ؟ أو يدرس قضايا التاريخ منفصلة عن قضايا العصر ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال واضحة تمام الوضوح إذا تذكرنا ماذكرناه آنفا عند حديثنا عن « فائدة التاريخ » من أن التاريخ ليس سردا للماضى وليس عودة للوراء ، إنما هو عمل لخدمة الحاضر وخدمة المستقبل ، وأن المؤرخين جميعا تأثروا بحاضرهم وهم يكتبون الماضى ، ومن هنا يتحتم أن تكون دراسة التاريخ الإسلامى ملتزمة .

ولكن ليس معنى هذا أن نغير فى التاريخ ، فالتاريخ مقدس ، ومن الخيانة أن تلعب به الأهواء ، ولكن هناك وسائل كثيرة للمؤرخ يحقق خلالها مبدأ الالتزام فى خدمة مجتمعه ، وفى الوقت نفسه تجعله بمنأى عن تزييف التاريخ الذى لايرضى به أحد وبخاصة المسلم .

ومن هذه الوسائل نسوق بعض نماذج .

١ — أن يرعى المؤرخ الدين والوطن فى فلسفة التاريخ ، فإذا تحدث عن حروب الصحابة عبرها دون إدانة ، ذاكراً وجهات النظر التى لا تجرح أحداً ولاتقوض تراثاً ، ومثل ذلك أيضاً إذا تحدثنا عن هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ ، فإننا نعترف بذلك ، ونحذر من تكراره ، ولكنا نجعل تعليقنا على هذا الحدث يبعث فينا الأمل ويشحذ الهمة ، كأن نذكر أن هذه الهزيمة تسببت عن خطأ يمكن تداركه ، أو غفلة أمكن التغلب عليها ، ومثل هذا يتبع عند الحديث عن خلافات بين دولتين إسلاميتين ، فنسرد الأحداث دون تعليق يثير القلق ويزيد من الخطب .

٢ — أن يتحاشى الغمزات التى تضر وطنه ودينه ، فمن الظلم ومن البعد عن الالتزام أن ذهب بعض الأشخاص مرة لزيارة دوله عربية ، وهناك ألقى محاضراته مهاجما الشيخ محمد عبده ، ورشيد رضا ، وسعد زغلول وصفية زغلول وغير هؤلاء من الأعلام ، وارتفع صوت عاقل يقول : لمصلحة من ندمر تاريخنا ونقضى على الهالة الطيبة التى ، حبها الزمن لزعمائنا فى الفكر والسياسة ؟ .

وقد قرأت رحلة ابن جبير ، وهى رحلة ممتعة صورها المؤلف فى صورة نابضة حية ، وأشاد فيها بما صادفه من خير ، وانتقد بعض الانحرافات التى رآها . وفى مرة كنت أفتح المذياع فوجدت عرضا للقطات من هذه الرحلة ، ولكن الذى التقط هذه اللقطات كان عجيباً ، إنه جمع فيها كل مايضر بمصر وتاريخ مصر ومايسىء إلى العرب ويحط من قدر المسلمين ، وراح يفصل القول عن ظلم الجمارك بمصر فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، وعن قطاع الطرق الذين ينهالون على مواكب الحجاج ، وبخاصة فى الطريق من مصر إلى الحجاز ، وعن أهل اليمن الذين كانوا يقومون بمساخر وهم بالحجاز ، وعن بغداد التى فقدت كل شىء .

وإن أى إنسان ليسائل نفسه ، لمصلحة من ندمر تاريخنا وتاريخ أعظم قائد عرفه عصر الحروب الصليبية ؟ ولماذا اقتبس هذا الباحث كل تلك الغمزات المريرة ، ولم يذكر سطراً واحداً من المفاخر الإسلامية والشهامة العربية التى تنساب فى ثنايا هذه الرحلة الممتعة ؟ إن باحثاً كهذا ليس ملتزماً بل ليس عادلا .

٣ — ومن الالتزام فى التاريخ كذلك أن نقدم للتلاميذ والطلاب فى المدارس والجامعات ، وأن نقدم للقراء والمثقفين بوجه عام صوراً تبعث القوة وتشحذ الهمة من التاريخ الإسلامى ، والتاريخ الوطنى ، لعلنا نربى بذلك النشء تربية تجعله يحب دينه ويحترم الأسلاف ، ويسعد بالتراث

نرتبط به ، إن لأجدادنا مفاخر ينبغي أن نتذكرها ونتمثلها ، وبين أسلافنا قمم يتحتم أن ندرس تاريخهم ، ونسعد ونحن نعايش هذا التاريخ ، ولشيوخنا وباحثينا الأقدمين جولات علمية وابتكارات فكرية تعطر تاريخنا وتشرفنا ، ومن الالتزام أن نقدم كل هذه القمم وتلك القيم لندفع بالجيل الجديد أن يرتبط بالتراث وأن يسير على نمط الأجيال السابقة ليحقق ماحققت من خير ورفاهية وانتصارات .

٤ — ومن الالتزام في التاريخ أن نعني في بلادنا بدراسة الاستعمار والصهيونية وتبيان خطرهما على أوطاننا وأهلينا ، وأن نوضح ما عانيناه من الاستعمار الأوروبي من جوع وحرمان ، وقتل للحريات ومحاربة التطور ، وأن نوضح أن الاستعمار قبل أن يرحل وضع إسرائيل في بلادنا ولا يزال يؤيدها ، لتؤدي نفس الدور الذي كان يؤديه من إضعاف وتدمير :

وينبغي أن تكون وقفتنا مع العدو الصهيوني طويلة نشرح فيها عقليته وانحرافاته ، وتحريفه للديانة الموسوية ، وأطماعه ، وسوء علاقته بالناس والأوطان جميعاً ، ونتدارس مواقفه العدوانية التي ارتكبها ضد كل البلاد التي نزل بها . مما يجعله أنانياً يعادي اليوم من صادق بالأمس ، وليس أهلا لثقة أو تقدير ، ونذيع كذلك جبنه وانهياره عند ما تقابله قوى صادقة صامدة .

وعلى كل حال فليس من الالتزام ما يمكن أن نسميه بالإلزام ، أي أن يسخر الفكر لخدمة نظم سياسة خاصة أو لخدمة بعض الحكومات أو الأحزاب أو بعض القيادات والزعامات ، فهذا كله خطأ قد ساعد على انتشاره تورط بعض الكتاب — في كثير من البلاد — في تسخير أقلامهم هذا التسخير ، ثم تعليق آثامهم على مشجب « الالتزام المزعوم » تماماً كما تملأ السجون في بعض البلاد باسم الحرية ، وكما تشن حروب باسم السلام .

إن مفهوم الالتزام — كما يصفه أصحابه بعيداً عن انحرافات أدعيائه — هو أن يتخذ الإنسان ، بمحض إرادته واختياره الحر ، موقفاً فكرياً وعملياً

من قضايا وطنه ، ومشكلات قومه ، وأزمات الإنسانية جمعاء ، بحيث يكون هذا الموقف الفكرى مناصراً لقضايا الحق ، ومسهما فى حل مشكلات التقدم ، ومؤازراً لكل عمل بناء يقصد إلى تفريج أزمات الإنسان فى كل مكان ، وتكون الغاية النهائية فى كل ذلك هى توفير الحرية للفرد ، وتحقيق التعاون للمجتمع ، ومساعدة الفرد والمجتمع دائما على أن يسعد بحياة أفضل(١) .

ولكن الغربيين غالبا ساروا فى الالتزام على غير النهج السليم ، ويلوم Hearnshaw(٢) هذا الاتجاه عند الغربيين فيقول : قلما كان التاريخ يدرس لذاته ، بمعنى أنه كان يدرس ويستغل لتأييد ما هو أجنبى عنه من الصوالح السياسية أو الدينية ، لا ابتغاء الوصول إلى الحقيقة فى أحداث الماضى الخطيرة من حيث عللها ووصفها ونتائجها ، فحتى فولتير لم يتورع عن تسخير علمه فى مناوأة رجال الدين ، وكان « تاريخ انجلترا » للفيلسوف هيوم مجرد نشرة مسهبة تحمل روح حزبه ، حزب المحافظين .

وينبغى أن نلاحظ أن المستشرقين والمستعمرين وضعوا الأسس الحديثة لكتابة تاريخنا الإسلامى وتاريخنا الوطنى ، وكانوا ملتزمين بما ينفعهم ، وما ينفعهم كان فى الغالب يصيبنا بالضرر فقد اتجه أكثر المستشرقين فى كتابة التاريخ الإسلامى اتجاها يثير الفتن بين المسلمين ، ويضعف كيانهم ، ويصور لهم تراثهم تصويراً تشمئز منه النفوس ، فأسرفوا فى تصوير الصراع بين بنى أمية والشيعة لنغفل عن تاريخ الأمويين لأن به عمالقة يمكن الافتخار بهم ، وهاجموا تاريخ الأتراك العثمانيين ولم يدعوا من وسيلة للحط منهم إلا قدموها ، ورسموا أسوأ صورة للخديوى

---

(١) دكتور أحمد هيكل : الأديب بين الحرية والالتزام — مقال بمجلة الأدباء العرب العدد الرابع .

(٢) علم التاريخ : (ترجمة الأستاذ العبادى) ص ١١٧ .

إسماعيل . ولأحمد عرابى . وهكذا راحوا يتتبعون كل قيمنا ليحطوا منها ، واتخذتنا مرآة ، وسرنا فيه إلى مدى بعيد ، بل راحوا — عند ما كان فى يدهم الأمر — يقدمون تاريخهم لأولادنا ليخلقوا الهيبة فى نفوس الجيل الجديد ، وليقيموا رباطا قويا بين النشء هنا وبين أبطالهم .

وباسم مبدأ الالتزام نحن ندعو إلى العودة للطريق الصواب ، لنتخذ من ماضينا مشاعل تهدى طريقنا فى الحاضر والمستقبل ، وممن سار على هذا النهج من الباحثين المحدثين الأستاذ العقاد الذى يقول فى مقدمة كتابه (عبقرية محمد) . . . والبوم ونحن نضع كتابنا هذا عن (عبقرية محمد) بين يدى القراء . . . . نقول : إننا التزمنا فيه الباعث الذى أوحى بتأليفه . . . . فكتبناه ونحن نستحضر فى الذهن تبرئة المقام المحمدى من تلك الأقاويل التى يلغط بها الأغرار والجهلاء عن حذلقة ، أو سوء نية .

وفى مقدمة (عبقرية الصِّدِّيق) يقدم المرحوم العقاد دراسةً تصور حدود الالتزام ، وليس كلام الأستاذ العقاد بعيداً عما أوردناه آنفاً ، ، وسنسوقه هنا لمزيد من التعرف على هذه الحدود ؛ يقول رحمه الله :

قصدتُ أن أرسم للصديق صورة نفسية التزمت فيها التوقير ، والصدق كل الصدق ، وليس من غرضنا التجميل الذى يخرج بالصورة عن حقيقتها ، إذ لا نريد أن يطلع القارىء على تلك الصورة فلا يعرفها ، ولا يعرف أبا بكر منها ، وعلى هذا فالتوقير شىء والتجميل شىء آخر ، التوقير إبراز ما فى الشخصية من محاسن ، وامتداح هذه المحاسن ، أما التجميل فإضافة صناعية تضلل الناظر فلا يعرف الحقيقة .

ومن التوقير ألا تروح تبحث عن العيوب وتبرزها . ولا يتنافى هذا مع الحقيقة التاريخية ، فإنك حين تعد ثروة رجل فتقول : إنه صاحب عشرة بيوت لا يلزمك بعد ذلك أن تقول : ولكنه ليس بصاحب أرض زراعية ،

ولا أوراق مالية ، ولا معامل صناعية ، ولا مرتبات حكومية . وإذا أنت سكت عن هذا قاصداً أو غير قاصد ، لم يجز لأحد أن يلومك أو يظن بك تعمد الإخفاء والسكوت فحسبك أنك ذكرت ثروته فى البيوت بدقة ، ولم تضف إليه ما ليس من ماله .

وكذلك الشأن فى ثروات النفوس حين يحصيها المقدرون ؛ تصْدقُ إن ذكرت للإنسان ما يملك ، ولا يفوتك الصدق إن فاتك أن تحفى كل ما ليس له بملك ، فليس هذا بغرض من أغراض الإحصاء أو التعريف [1] .

ونستمر فى إبراز ضرورة الأخذ بمبدأ الإلتزام فى التاريخ الإسلامى موردين مزيداً من الشروح التى تنسب للأستاذ أحمد أمين والأستاذ العقاد ، وقد كان الأستاذ العقاد كتب كتابه (عبقرية عمر) قبل كتابه (عبقرية الصديق) وكان ذلك سنة ١٩٤٣ ، ويُعتقد أن السبب فى ذلك هو أن المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل كان قد أخرج كتابه آنذاك (الصديق أبى بكر) فيبدو أن العقاد قصد أن يترك الجو ردحاً من الزمن لكتاب الدكتور هيكل ، أو أنه أراد أن يتأنى ليتدارس هذا الكتاب قبل أن يخرج كتابه فى نفس الموضوع . والمهم أن الأستاذ أحمد أمين علق على كتاب (الصديق أبو بكر) للدكتور هيكل وكتاب (عبقرية عمر) للأستاذ العقاد ، وقد اقتبس العقاد بعض فقرات من هذا التعليق وناقشها فى مقدمة كتابه (عبقرية الصديق) ، واتجهت هذه الأقلام الرائدة الثلاثة لمبدأ الالتزام ؛ فيقول الأستاذ العقاد [2] :

قال زميلنا الباحث الفاضل الأستاذ أحمد أمين عن نقده لكتاب الدكتور هيكل باشا (الصديق أبو بكر) وكتابى (عبقرية عمر) : « . . . . : بقيت مسألة هامة كثيرا ما اختلفت وجهة نظر الكتّاب فيها ، وهى أن العظيم

---

(١) عبقرية الصديق ص ٤ — ٥ بتصرف .

(٢) عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق ٧ - ٨

منهما يعظم له أخطاء ، وإلا ماكان إنساناً ، فالعصمة لله وحده ، فهل واجب كاتب تاريخ أن يعرض لكل ذلك فى تفصيل ، فيذكر كل ماله ويشيد بذكره ويذكر خطأته وينقدها . . . ؟ أو واجبه فقط تجلية نواحى العظمة ، والتأويل والدفاع الدائم عن نواحى الخطأ ؟

أنا أرى أن الرأى الأول أوجب ، . . . . ، والمؤلفان الفاضلان إلى الرأى الثانى أميل »

« والواقع أننا إلى الرأى الثانى أميل ، كما قال زميلنا الأستاذ ؛ ولكنه الميل الذى نحُدُّه بما قدمناه من حدود ، ونحتج له بما بيناه من أسباب ، ويخيل إلينا أن الأستاذ نفسه يستطيب هذا الميل حين قال فى صدر مقاله عن الكتابين : (. . . . إن الأوروبيين قد وجدوا من علمائهم من يشيد بعظمائهم ويستقصى نواحى مجدهم ، بل قد دعتهم العصبية أحياناً أن يتزايدوا فى نواحى هذه العظمة . . . .) أما نحن فقد كان بيننا وبين عظمائنا سدود وحواجز حالت بين شبابنا وجمهورنا والاستفادة منهم . . . فهذه السدود كثيرة فى الشرق ، كثيرة فى العصر الحاضر ، وهى التى تجيز لنا ـ بل تفرض علينا ـ أن نوفى العظماء حقهم من التوقير ، وأن نصورهم كما خلقهم الله ، ثم لاعلينا أن نرفع الصورة حيث شئنا بعد الصدق فى التصوير . »

هذه لمحة قصيرة عن مبدأ الالتزام ومـــداه ، لعلها وضّحت هذا الموضوع الخطير .

الحضارة الإسلامية

فى السنين الأولى من هذا القرن ، كانت الحضارة الإسلامية تعبيراً محدود المدلول ، وكنا ندرس الحضارة الإسلامية على أنها قصر الحمراء بغرناطة ، والجامع الأزهر بالقاهرة ، والجامع الأموى بدمشق ، وبعض مظاهر العمران ، وعندما أخرج جورجى زيدان كتابه (التمدن الإسلامى) خلط فيه بين ما هو إسلامى وبين مافعله المسلمون . وعندما تقرأ هذا الكتاب تخرج منه باللائمة على المسلمين أكثر مما تمدح دورهم الحضارى . وظهر كتاب آدم متز « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ، فكان أقرب إلى الإنصاف ، ولكنه كان محدود الزمن ، وغير شامل للدور الذى قام به المسلمون فى ميادين الحضارة .

وقُدِّر لى أن أرتبط بدراسة (الحضارة الإسلامية) منذ أخذت فى إعداد رسالتى للدكتوراه بجامعة كمبردج عن (تاريخ التربية الإسلامية) فى منتصف هذا القرن ، وظللتُ على صلة بالحضارة الإسلامية حتى كتابة هذه السطور ، ومن طول الدراسة والبحث والمقارنة ، وصلت إلى ما أعتقد أنه المدلول الحقيقى للحضارة الإسلامية ، فقد ظهر لى أن الحضارة الإسلامية نوعان :

النوع الأول ــ حضارة إسلامية أصيلة وتسمى حضارة الخلق والإبداع وقد كان الإسلام مصدرها الوحيد ، وعرفها العالم لأول مرة عن طريق الإسلام .

النوع الثانى ــ حضارة قام بها المسلمون فى الأمور التجريبية ، إحياءً وامتدادا وتحسيناً لما عرفه الفكر البشرى من قبل ، وتسمى حضارة البعث والإحياء .

والحضارة الإسلامية الأصيلة جاءت فى الأمور التى لم يستطع العقل البشرى أن يصل إليها بنفسه ، جاءت فى نظم السياسة والاقتصاد والتشريع والأخلاق ... ، فإن البشرية قد عجزت عن الوصول إلى نظم سياسية سليمة ، ولم تستطع الإنسانية أن تعرف العدالة الاجتماعية ، أو تتفق على نظام سليم للميراث ، وكانت الأخلاق مثار خلاف كبير بين الناس ، فالعدل مثلا عُدَّ فضيلة عند بعض الناس ، واعتبره الأكثرون دليل ضعف ، فجاءت حضارة الإسلام تبرز لنا الحق فى هذه الأمور التى اختلفت فيها الأفهام ، وضعفت العقول عن جلها ، ومن هنا فرأى الإسلام فى السياسة والاقتصاد والأخلاق رأى أصيل ، أنقذ المجتمع البشرى من انحرافه ومتاهاته ، بل فرض نفسه على المجتمع البشرى ، فاقتبسته كل النظم حتى أصبحت كلمة (ديمقراطية) على كل لسان ، وأصبحت كلمة (اشتراكية) منارة البشر ، وليست الديمقراطية إلا صدى للشورى التى جاء بها القرآن الكريم لأول مرة ، وليست الاشتراكية إلا فهماً للعدالة الاجتماعية التى كان الإسلام أول صوت نادى بها .

أما حضارة البعث والإحياء فكانت فى العلوم التجريبية كالرياضة والطب والفلك والموسيقى وغيرها ، وهى تبين لنا مدى ما وصل له المسلمون من تقدم فى هذا الميدان ، إذ ورثوا الحضارة المصرية التى كانت قد تحولت إلى اليونان وورثوا كذلك ثقافة الفرس وثقافة الهند ، وكانت هذه الحضارات كلها قد ذبلت وماتت بسبب الكهنة والتعسف وأحياها المسلمون ، وهكذا انتفع المسلمون بما كان لدى المجتمع البشرى من خبرات ، فأحيوا التراث الإنسانى الذى كان على وشك الفناء ، وأضافوا إليه تفسيراتهم وشروحهم ، حتى وصل المسلمون بهذه الحضارة إلى غاية بعيدة ، ثم راح المسلمون فى هذا المجال يبتكرون ويضيفون حتى أصبحت أفكارهم رائدة ، وانتقلت أفكار المسلمين ومؤلفاتهم إلى أوربا ، فكان ذلك أساس النهضة الأوروبية ، وتحقق بذلك ما سبق أن اقتبسناه من Hearnshaw

من « أن الصليبيين خرجوا من ديارهم لقتال المسلمين ولكنهم سرعان ماجلسوا عند أقدامهم يأخذون عنهم العلم والمعرفة »

ونتيجة لصلتي الطويلة بدراسة الحضارة الإسلامية بنوعيها ، صلة امتدت حوالى ثلاثين عاماً ، استطعت أن أخرج « موسوعة النظم والحضارة الإسلامية » فى عشرة أجزاء ، وتكلمت فى هذه الأجزاء عن اتجاهات الإسلام فى السياسة والاقتصاد والتربية والحياة الاجتماعية والسلم والحرب والقضاء ... كما شرحت ماوصل له المسلمون من تقدم فى الحضارة التجريبية .

بقى نوع من أنواع الحضارة ، وهذا النوع مرتبط بدراسة التاريخ ؛ وذلك النوع هو ماتقوم به دولة من الدول الإسلامية لرفع شأن الإنسان وخدمته ، وهذا النوع من الحضارة يلزم أن يقوم به معلم التاريخ ، وأن يعنى به عناية تامة ، فإذا درس تاريخ الدولة الأموية أوالعباسية أو الفاطمية كان عليه أن يقف عقب الانتهاء من دراسة الأحداث وقفة كافية يشرح فيها ماقدمته هذه الدولة فى مجال الحضارة ، أى ماقدمته لخدمة الإنسان ورفع قدره ، ويشمل ذلك جهود الدولة فى الميدان الاقتصادى (الزراعة والتجارة والصناعة) وفى ميدان العمران ، وفى ميدان التربية والتعليم ، وفى ميدان الأمن بالداخل والأمن من العدوان الخارجى وغير ذلك من الميادين . وهذا النوع من الحضارة شديد الارتباط بموسوعة التاريخ الإسلامى التى نقدم الآن جزأها الاول .

مشكلات حول تدوين التاريخ الإسلامى

(١) المراجع القديمة والدراسة التحليلية الحديثة :

ظهر فى كتابة التاريخ الإسلامى طريقان :

أحدهما سرد الأحداث فى نظام الحوليات أو بدونه ، من غير تعليق عليها ، وبدون تحليلها والبحث عن دوافعها ونتائجها القريبة والبعيدة .

والطريق الثانى اتجه إلى الاهتمام بالتعليق والتحليل لحدث من أحداث التاريخ دون الاهتمام بسرد الأحداث التاريخية المتتابعة .

وقد عنى المؤرخون القدامى بالطريق الأول فألفوا الكتب الضخمة لسرد الاحداث التاريخية ، وعنى المؤرخون المحدثون بالطريق الثانى فامتازت كتاباتهم بأنها تحليل لحدث واحد من أحداث التاريخ ، أو شخصية واحدة من الشخصيات التاريخية .

ومن الواضح أن الطريقين يكمل أحدهما الآخر ، ولا يستقيم أحدهما وحده ، فالأحداث التاريخية دون فهم وتحليل عمل يعتبر ساذجاً محدود النفع ، وتحليل حدث واحد دون فهم سلسلة الأحداث التاريخية غير كاف ، فهو ترف علمى يحتاج إلى أساس ينبنى عليه .

والمؤرخون القدامى بالإضافة إلى عدم اهتمامهم بالتحليل والنقد كانوا غالباً يدوّنون التاريخ على نسق تدوين حديث الرسول ، فيذكرون الروايات المختلفة للحادث الواحد ويذكرون الرواة متسلسلين الواحد بعد الآخر ولا يهتمون بالأسلوب الذى يكتبون به ، وكل هذا جعل دراسة التاريخ فى العهد الحاضر صعبة المنال .

وفى سنة ٦٥٦هـ حدث حادث خطير فى العالم الإسلامى هو سقوط بغداد فى أيدى التتار ، وقتل الخليفة العباسى ، وإنهاء الخلافة العباسية بالعراق ، والذى يعنينا من هذا الحادث هنا هو خطورته على كتابة التاريخ الإسلامى ، فقد كانت الخلافة العباسية حتى فترات ضعفها رباطاً يربط بين أجزاء العالم الإسلامى ، وكان من المؤرخين من يكتب تاريخ العالم الإسلامى كله جملة واحدة ، فلما سقطت بغداد وانقطع الخيط الذى كان يربط بين أجزاء هذا العالم ، انفرط عقد البلاد الإسلامية . وأصبح لكل منها تاريخ ومؤرخون ، وكثر أن نجد عراقياً مثقفاً يجهل تاريخ اليمن ، ومصرياً يجهل تاريخ إيران ، وهكذا .

وعلى هذا يعانى الباحثون المحدثون فى التاريخ الإسلامى مصاعب تشمل تاريخ العصور الإسلامية قبل سقوط بغداد ، وبعده ، فقبل سقوط بغداد كتب التاريخ الإسلامى ، ولكن بدون تحليل وبأسلوب ونسق بعيدين عن أسلوب العصر الحديث ونسقه ، وبعد سقوط بغداد اتجه الاهتمام إلى التاريخ المحلى للبلدان الإسلامية ، وقل الاهتمام بالتاريخ العام للعالم الإسلامى ، كما اتجه أكثر اهتمام الجامعيين فى العصر الحاضر إلى التحليل والنقد لحدث واحد من أحداث التاريخ كما سبق القول .

وفى هـــذه الموسوعة محاولة حاسمة لدراسة التاريخ الإسلامى كله من جانب ، وتحليل أحداثه المهمة من جانب آخر . —

(ب) أقطار فسيحة منسية :

فى جامعات الدول العربية وغير العربية توجد مادة اسمها « التاريخ الإسلامى » ولكن المدلول الواقعى لهذا التعبير هو التاريخ العربى أو ما يحيط به ، أو تاريخ الخلافة الإسلامية حتى سقوط بغداد ، وعندما ألف الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم كتابه « تاريخ الإسلام » توقف عند سقوط بغداد ، فكأنه بذلك أنهى الشوط ، وربما كان ذلك هو ما دعا Philip Hitti إلى

تسمية كتابه : تاريخ العرب ، حتى لايقع فى الخطأ الذى وقع فيه سواه وهو أن يجعل عنوان حديثه أوعنوان بحثه « التاريخ الإسلامى » ثم لا يتحدث إلا عن التاريخ العربى . وفى بعض الأحوال يمتد حديث المؤلف إلى تركيا أو إيران كما فعل بروكلمان لشدة ارتباط هذين القطرين بالتاريخ العربى .

ولذلك فنحن نهتف بأن من الضرورى تصحيح المدلول ، فالتاريخ الإسلامى هو تاريخ العالم الإسلامى الذى أشرنا اليه آنفاً ، وذلك يشمل الإسلام جنوب صحراء افريقية ، ويُدْخِلُ فى نطاق العالم الإسلامى دولا كثيرة فى هذه المنطقة هى موريتانيا والسنغال وجامبيا وغينيا ومالى والنيجر ونيجيريا وتشاد والصومال وشطرا من تنزانيا كان إلى عهد قريب يسمى زنجبار كما يشمل الدول الإسلامية غير العربية بآسيا كإيران وأفغانستان والباكستان وبنجالاديش وماليزيا واندونيسيا ، ويشمل التاريخُ الإسلامى تاريخ الأقليات الإسلامية فى آسيا وافريقية وأوربا .

وكثير من الدول الإسلامية لم يدون تاريخه الإسلامى ، ويتطلع سكانه إلينا لندون لهم هذا التاريخ ، ويتحتم علينا أن نستجيب لذلك ، تحقيقاً لمسؤلياتنا العلمية ، وتعرفاً بإخوان لنا تربطنا بهم مقدسات الإسلام وتعاليم الإسلام ، وهذا هو النهج الذى ارتبطنا به هذه الموسوعة .

(ج) مصادر مهمة تجاوزها المؤرخون :

من العجيب أن كثيراً من الكتب لم تتخذ القرآن الكريم وأحاديث الرسول مراجع لها عند دراسة حدث تكلم عنه القرآن أو الحديث ، والحق أن القرآن الكريم جلى مواقف ما كان يمكن التعرف عليها بدونه كما سنرى فيا يأتى ، وفى كتب الأحاديث أبواب عن مغازى الرسول لا يتم فهم الغزوات بدون الاطلاع عليها ، ولسنا نعرف السبب فى إهمال هذه المراجع المهمة الا أن يكون ذلك بسبب الاتجاه الإغريقى الذى يرى أن الكتب

السماوية لا تصلح مرجعاً تاريخياً ، ولكن ذلك إن جاز بالنسبة للتوراة والإنجيل ، فإنه لا يجوز بالنسبة إلى القرآن لاحتمال الوضع والتحريف فى الكتابين الأولين ولعدم احتماله فى القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى تعهد العلى العظيم بحفظه من أى انحراف أو تغيير ، فإذا تكلم القرآن الكريم عن شىء أو ورد فى الحديث الصحيح وصف لحدث تاريخى ، فإننا آنذاك إزاء مصدر لا يمكن تجاهله من مصادر التاريخ الإسلامى ؛ ولا يتم تصوير الحدث التاريخى بدونه .

والعجيب أن الطبرى المؤرخ المفسر ، اتبع أيضاً هذا النهج ، فكتب عن غزوة بدر دون أن يقتبس من سورة الأنفال ما يشفى الغلة ، مع أن سورة الأنفال اتصلت تماماً بغزوة بدر وتحدثت عن مشكلاتها ، ولم يقتبس الطبرى من هذه السورة إلا آيات قليلة لا تدخل فى بناء الحدث ، وإنما هى آيات أشبه بالوعظ والحكم ، وكذلك فعل مع باقى الغزوات . ولما جاء ابن الأثير واختصر روايات الطبرى ، اختصر كذلك ما أورده الطبرى من آيات قرآنية ، فأوشك كتابه أن يخلو منهـا ومن أحاديث الرسول ، واعتمد فى بناء الحدث على الرواية التاريخية فقط .

وقد حاولنا فى هذه الموسوعة أن نضع القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة فى مكانهما الحقيقى ، فنمرت آيات سورة الأنفال تصويرنا لغزوة بدر ، وجاءت آيات سورة آل عمران توضح مجريات الأمور فى أحد ، واعتمدنا على سورة الأحزاب فى رسم صورة صراع الخندق أو الأحزاب ، وهكذا ، وفى الحق أن هذه السور الكريمة قدمت فائدة عظمى للأحداث التاريخية .

واعتمدنا اعتماداً واسعا على كتب الحديث فى تدوين السيرة النبوية وبخاصة الجوانب الجديدة التى ظهرت فى هذا الجزء ابتداء من الطبعة التاسعة ، كما اعتمدنا على القرآن والحديث اعتماداً واسعا كذلك فى تدوين الحضارة الإسلامية .

(د) التاريخ الإسلامي جزء من الدراسات الإسلامية :

التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية جزء من الدراسات الإسلامية . ولا يمكن إطلاقا اعتبار التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية شيئا مستقلا عن الدراسات الإسلامية ، وقد ظلت هذه الحقيقة مهملة قصداً أو سهواً ، مما أتاح لقليلي البضاعة في الدراسات الإسلامية أن يكتبوا في التاريخ الإسلامي ، وعلى هذا جاءت كتاباتهم ضحلة قليلة الغور ، وقد كان المستشرقون أكثر وعيا لهذه الحقيقة ؛ فلم يكتبوا في التاريخ الإسلامي ، أو قل لم يتجهوا للتاريخ إلا بعد أن اتجهوا بعنايتهم اتجاها كاملا للدراسات الإسلامية في أكثر شعبها ، أو في جميعها ، فحصلوا منها على قدر قليل أو كثير ، ونريد لهذا أن نقول بصراحة : إن الذي يكتب في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لابد له من الإلمام بدراسة القرآن وقراءاته ، وأسباب نزوله ، وأخذ الأحكام منه ، وبلاغته وصلته بالأحداث الإسلامية والعربية . وتفسيره ، وكذلك معرفة الحديث والفقه وأصول الفقه والتوحيد وتاريخ التشريع الإسلامي وغيرها من العلوم الإسلامية ، فتلك تعتبر أهم مصادر التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، وبدونها يقع الكاتب في أخطاء قد يكون بعضها خطيراً .

(هـ) فقدان الروح الإسلامية في كثير مما كتب حديثا :

قلنا آنفا إن المستشرقين أخذوا من الدراسات الإسلامية قدراً قليلا أو كثيرا قبل أن يقدموا على كتابة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية وهذه ناحية تستحق الثناء في ثقافة المستشرقين ، ولكن هناك ناحية أخرى مؤسفة تتعلق بما كتبه المستشرقون عن الإسلام . تلك هي عدم الإنصاف الذي ظهر في أكثر ما كتبه هؤلاء ، صحيح إن فيهم من هم منصفون أو أميل إلى الإنصاف ، ولكن هؤلاء قليلون جدا إذا قيسوا بالجمهرة العظمى منهم ، فأكثرهم كان نتاجهم يهاجم الإسلام والمسلمين قصدا : أو لقلة فهم لهذا الدين ، وجميع الكتاب المسلمين يدركون ذلك ، استمع إلى الدكتور عبد الحليم

النجار وهو يقدم الترجمة التى قام بها لكتاب (مذاهب التفسير الإسلامى) لجولد زيهر حيث يقول : « . . . . ويشتمل الكتاب على قابل من النزغات الدينية وهى نزغات لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب المستشرقين ، لا سيما فيما يتصل من الدين بسبب أو نسب ، يمليها عليهم إلف لازم ، أو هوى متبع . أو قصد جائر » .

ويلاحظ أن هذا الانحراف ارتبط بجميع الدراسات الإسلامية ، كالعقيدة والتشريع وغيرها .

وهذه المسألة يترتب عليها مسألة أخرى أكثر خطورة ، ذلك أن هؤلاء المستشرقين سبقوا المسلمين فى دراساتهم ذات الطابع الحديث ، وكانوا أساتذة للكثيرين من المسلمين الذين أوفدوا إلى أوروبا للتعمق فى الدراسات الإسلامية وطرق البحث فيها ، وقد تأثر بعض هؤلاء المسلمين بأساتذتهم المستشرقين ، وعادوا فكتبوا ، ونقرأ ما كتبوه فتلمس أن كتاباتهم تجافى روح الإسلام فى كثير من الأحيان ، والذى سبّب ذلك هو أن هؤلاء الموفدين لم يكونوا قبل إيفادهم على علم واسع بالدراسات الإسلامية .

وقد قلت آنفا إن كتابة هؤلاء المسلمين أكثر خطورة من كتابة المستشرقين أنفسهم . ومرجع ذلك أن القراء يقرءون للمستشرقين بحذر ، ولكنهم قد يستسلمون للكاتب المسلم ولا يحذرون منه .

وقد أشرت إلى هذه النقطة إشارة مجملة متعمداً عدم التفصيل لظروف آمل أن يدركها القارىء ، ولو أردت الإسهاب لعرضت اقتباسات عجيبة دونتها أقلام مسلمين .

(و) أخطاء شاعت ينبغى تصحيحها :

هناك فى التاريخ الإسلامى موضوعات كتبت تحت تأثير معين فسوّدت صفحات بعض الأفراد أو الدول ، وتلقّى الخلف عن السلف هذا الانحراف فأصبح الخطأ كأنه حقيقة مسلم بها ، ولما آلت الوصاية على التاريخ الإسلامى للمستشرقين فرحوا بما دونته الكتب الإسلامية عن هذه الموضوعات فأبرزوها وبالغوا فى إبرازها لتخدم هدفهم الرئيسى وهو النيل من الإسلام والمسلمين ،

وأنا هنا أعرض هذه الفكرة داعياً إلى إعادة النظر فى هذه الموضوعات لنحق الحق ونبطل الباطل ، وفيما يلى بعض نماذج التحريف .

— لقد كتب تاريخ الدولة الأموية فى عهد أعدائها العباسيين ، فهل نتوقع أن ينال الأمويون ما يستحقونه من إنصاف ؟ .

— وكتب تاريخ الأمين بن هارون الرشيد فى عهد المأمون ، وجيوش المأمون هى التى قتلت الأمين ، وتأثر مدونو تاريخ الأمين بهذا الوضع وهم يكتبون تاريخه .

— وحدث خلاف واسع بين الحاكم بأمر الله وبين أخته لأبيه ست الملك ومعها بعض الأعوان ، وقد انتصرت ست الملك فى هذا الصراع ، وقُتل الحاكم ، فأبرزته أخته مجنوناً ركب حماره واختفى ولم يعد ، فهل من العدل أن نقبل عن الحاكم كل ما قيل عنه ؟ .

— وتاريخ عصر المماليك بمصر يلزم أن يكتب من جديد ، لقد سوّدوا صفحته ، وبعض صفحات هذا التاريخ ناصعة البياض .

— والخديوى إسماعيل سلطان مصر عزله الإنجليز وكتبوا تاريخه ، وذكروا أن عزله كان لإسرافه ولأنه متلاف ، والتاريخ المنصف يذكر أن عزله كان لأن أوروبا كانت تتجه لاحتلال إفريقية ، وكان الخديوى إسماعيل عقبة فى طريق أوروبا لتوغله فى إفريقية توغلا ناجحا ، ولنشره الإسلام والحضارة فى كل الربوع التى دخلها الجيش المصرى حتى رحب أكثر الإفريقيين بالزحف المصرى ، وقاوموا كل المحاولات لسحب هذا الجيش ، وأكبر أخطائه فى نظر التاريخ هو أنه عين على الامتدادات المصرية بإفريقية حكاما أوروبيين ، فوضعوا الأساس للقضاء على الإمبراطورية المصرية .

— أسكيا محمد سلطان صنغى أخذ مكانه بعد سُنّى على الكبير ، فنقل السلطنة بذلك من أسرة إلى أسرة ، وقهر أولاد سنى على ، وتأثر المؤرخون بذلك وهم يكتبون تاريخ سنى على وتاريخ أسرته .

وهناك أحداث كثيرة جداً مماثلة فى التاريخ ، ولا يمكن أن يُقْبَل كل ما كتب عن هذه الأحداث ، ويتحتم أن نعترف بأن هناك مظالم فى تدوين التاريخ ينبغى أن نوقفها ، وأن نعيد كتابة التاريخ فى ضوء الفهم الحقيقى ، وفى ضوء الإنصاف والعدل .

ربما تسألنى : كيف نستطيع أن نصحح تاريخا وصل لنا مزيفا ؟ .

والإجابة أن عناصر صدق تفرض نفسها دائما ، وتأتى هذه العناصر فى ثنايا الكلام ، وعلى المؤرخ أن يلتقط هذه العناصر ، ويجعلها أساس بحثه ، ففى إنصاف الدولة الأموية مثلا ، لدينا الواقع الذى يصف الانتصارات الضخمة التى حققها الأمويون فى مختلف الميادين العسكرية ، مما يجعل جزءاً كبيرا من العالم الإسلامى مدينا لجهود الأمويين ، ولدينا تعريب الدواوين الذى قام به عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، ولدينا صنوف التفكير الذى أنتجها العقل الأموى كالسكة وتنظيم الجيوش والبريد والإصلاحات الداخلية والعمرانية التى تنسب لمعاوية وعبد الملك والوليد ، ولدينا الإصلاحات التى ترتبط بعمر بن عبد العزيز ، وهكذا ، ولست أسترسل فى بيان وسائل إصلاح الخطأ ، فالقارىء سيجدها فى أمكنتها مصححةً بهذه الموسوعة إن شاء الله .

علم التاريخ بين المسيحية والإسلام

عندما تنصر أول امبراطور رومانى قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ م) وانتصرت الكنيسة المسيحية على الوثنية الرومانية ، كان لهذا أثر عميق على العلوم بوجه عام ، وعلم التاريخ بوجه خاص ، فقد حاربت الكنيسة مختلف العلوم كما حاربت العلماء ، واحتكرت الكنيسة بعض المجالات الفكرية ، كدراسة التاريخ ، وقاومت بعضها كالطب والرياضة والفلك ، إذ ألقت الكنيسة كتبها فى مغارات لا يطلع عليها أحد ، واستمراراً لهذه السياسة نجد الكنيسة تحكم بكفر من قال بدوران الأرض ، ولم ينقذ هذه الكتب من مخابئها ومدافنها إلا المسلمون كما وضحنا ذلك عند الحديث عن العصر العباسى الأول فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

وكان التاريخ - كما ذكرنا آنفا - من العلوم التى احتكرتها الكنيسة ، فآلت السلطة عليه إلى أيدى القسس والرهبان ، وبقى فى أيديهم زهاء ألف سنة ، وأصبح التاريخ خلال هذه الفترة خاضعاً للاهوت مسخَّراً له ، وفقد كل صفة علمية ، وأصبح لا يكترث بما هو حق أو محتمل الوقوع ، وغدا مشحوناً بأخبار الخوارق والكرامات غير مكترث إلا بما له صلة بالدين ، وفقد حاسة النظر إلى الأشياء موضوعة فى مواضعها ، وبجملة القول إن تحول التاريخ إلى رجال الدين كان معناه محو التاريخ الصحيح من الوجود محواً دام ألف عام ، وعندما تصدعت الإمبراطورية وحلت الهمجية محل النظام بها ، لم تبق إلا الكنائس موئلا لخيط رفيع من الفكر بما فى ذلك التاريخ ، فضربت الكنيسة حول التاريخ نطاقاً جامداً من التوقيت الخرافى لم يستطع التاريخ حتى يومنا هذا أن يتحرر منه ، وجعلته ركاماً من الأساطير القائمة على التحيز والهوى [1] .

---

(١) Hearnshaw : علم التاريخ ٣٨ - ٤٠

وقد ظل هذا الاتجاه موجوداً فى الكنيسة حتى عصرنا الحاضر ، فلا يزال رجال الكنيسة يُدخلون على التاريخ ما ليس منه ، ومن ذلك مايقوله الأب بولس إلياس فى مجال الفخر بعيسى ومعجزاته : « ومن مزيته التى لا يفاضله فيها نبى ولا رسول أنه أفضى بالقدرة على إتيان المعجزات إلى تلاميذه ، ثم جدد منحها لهم بعد قيامه من الموت وصعوده إلى السماء ، وأورث كنيسته تلك القدرة أيضاً . »[1]

ولا شك أن هذا بعيد كل البعد عن الحقيقة والتاريخ ، فلا عيسى أفضى بالقدرة إلى أحد ، ولا هو كان يستطيع ذلك ، ولا أحد من تلاميذه باشر فعلا هذه المعجزات . وليس ذلك إلا من بقايا الانحراف الكنسى فى دراسة التاريخ ، ومثل ذلك أيضاً ادعاء الكنيسة القبطية بمصر أن السيدة العذراء ظهرت بها وشفت المرضى ومنحت الإبصار للعميان . . .

والسيدة العذراء لم تكن تشفى المرضى وهى حية ، فكيف تستطيع ذلك بعد الممات ، وهى بالطبع لم تظهر بدليل أن الزوبعة هدأت ، وأمسك الذين قالوا بهذه الخرافات عن الاسترسال فيها .

وفى الفصل السادس من كتاب « قيمة التاريخ » الذى ألفه جوزيف هورس أورد المؤلف صوراً من تحريف التاريخ ، ومن الصكوك المزيفة التى قامت بها الكنيسة ، وقرر أن الوثائق المزيفة فاق عددها الحصر ، وأن المراسيم الكاذبة فاقت العد .

فإذا جئنا إلى التاريخ فى ظل الإسلام وجدنا أن التاريخ كان امتداداً للحديث الشريف ، حتى إنه ليقال ان التاريخ ابن الحديث ، وذلك لأن الحديث الشريف تكلم عن المغازى ، وبعد الرسول استمر التاريخ يصف الأحداث الحربية التى بدأت فى حياة الرسول ، واتخذ التاريخ نفس النمط الذى كان متبعاً فى رواية الأحاديث وهو الرواية الدقيقة ، على ما وضحه علم

---

(١) يسوع المسيح ص ٨٩

مصطلح الحديث ، ويقول الأستاذ العبادى (١) :

إن المسلمين أول من ضبط الحوادث بالإسناد ، وأنهم مدوا حدود البحث التاريخى ونوعوا فيه ، وأنهم أول من كتب فى فلسفة التاريخ ، وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقتهم بأول واجب المؤرخ ، وهو الصدق والنزاهة فى الحكم ، ونحن على هذا الدرب لا نزال نسير .

---

(١) هرنشو : علم التاريخ ص ٦٩ (إضافة المترجم الأستاذ العبادى)

سياسة التجميع والتنسيق

هناك اتجاه حرصتُ عليه فى هذه الموسوعة ، ذلك هو أن أجمع فى وحدة واحدة جميع المعلومات المتناثرة التى تكوِّن فكرة تاريخية واحدة ، وهذا سيتضح وضوحاً دقيقاً فى القضايا المهمة التى دوناها عن حياة الرسول بالمدينة مثل حديثنا عن الرسول الداعية أو الرسول مربى الدعاة والتوجيهات الطبية التى قدمها الرسول وهكذا ،ومثل التوسع فى العهد الأموى فإنى لا أدرسه متناثراً مع خلفاء العهد الأموى ، بل أجمعه فى مكان واحد أتناول فيه أسباب هذا التوسع ، وأسير مبيناً مدى نشاطه ، وأشرح توقفه ، وتدفقه ثم أقرر نتائجه ، ومثل هذا يتبع مع نشاط الشيعة ونشاط الخوارج ، والحروب الصليبية ، والحركة الإصلاحية فى نجد ، والحركة السنوسية ، وهكذا ، فإن هذا يحمى الفكرة من التمزق ، ويجعلها سهلة التناول ، وبخاصة أن هذه الأحداث كانت بعيدة الأثر فى تاريخ المسلمين ، فمن حقها أن تستقل بدراسة ، ولا تكون تابعة لعدد من الخلفاء متناثرة مع تاريخهم ، ضائعة أو شبه ضائعة فى خضم الأحداث .

وبهذه المناسبة نقرر أن الأحداث التى لا غناء لها لن تطول عندها وقفتنا ، فمنصب أمير الأمراء مثلا لا يستحق منا وقفة تشرحه أو تدارسه ، فلم يكن هذا المنصب إلا نوعاً من القرصنة لا يستحق إلا الإيجاز دون ذكر تفاصيل الخلافات بين أولئك الذين سعوا ليشغلوه ، إذ من الواضح أنه لم يكن لهؤلاء أثر يذكر فى توجيه الحياة الإسلامية ، ولم يكن صراعهم إلا صراعاً فردياً لا قيمة له .

وهناك دول لم يكن لها فى التاريخ دور كبير ، وهذه سنمر عليها مروراً سريعاً ، فنذكر كيف نشأت ، وكيف سارت ، ثم انهارت ، ونعدد ملوكها ثم نتجاوزها إلى سواها

ونحن نطمع مستعينين بالله العلى العظيم أن يوفقنا فى السير فى هذا العمل الكبير ، وفى تحقيق الأمل الذى يُعدُّ عون الله أساس الوفاء به .

كلمة عن المراجع والمكتبة التاريخية

فيما يتعلق بالمراجع سأتبع القانون العام الذى وضحته فى كتابى « كيف تكتب بحثاً أو رسالة » وخلاصة هذا القانون أن تذكر المراجع بدقة فى الأحداث المهمة، والأفكار المقتبسة ، للتثبت من أحداث التاريخ ، ولنعطى كل ذى حق حقه ، ولنمهد الطريق للراغب فى الاستزادة ، على أن هذه الموسوعة ليست سردا لأحداث التاريخ فقط ، وليست جمعاً لعبارات الآخرين ، وإنما هى جزء من مؤلفها ، فكثير من أحداث التاريخ أصبح من الشهرة بحيث لا نريد مصدرا نرجعه إليه بقدر حاجتنا إلى التفكير فى ذلك الحدث ودواعيه ونتائجه تفكيرا يجعل مصدره الكاتب نفسه . وقد كتب الأستاذ الدكتور طه حسين كتابه « الفتنة الكبرى » بجزأيه : « عثمان » و « على وبنوه » وفى هذا الكتاب كثير من الحقائق التاريخية ؛ ولكن أهم ما فيه هو تفكير مؤلفه وفهمه للأحداث ، ولهذا لم تكثر فيه المراجع المباشرة ، وإن كانت مراجعه غير المباشرة كثيرة .

وقد دعانى إلى ذكر ذلك ما لاحظته من اتجاه بعض المؤلفين إلى الإكثار من ذكر المراجع بحيث تجد فى السطر الواحد ثلاثة مراجع أو أربعة أحياناً ، وبحيث يشار فى صفحة واحدة عشر مرات إلى مرجع واحد لم يتغير ، أو قل إلى صفحة واحدة من ذلك المرجع الواحد ، ولست أنقد هؤلاء المؤلفين ، ولكنى أقول إن هذه لن تكون طريقتى لأنى سأتدخل فى دراسة الأحداث بأفكارى ، ولن أدع القارىء طويلا دون أن يجدنى محاولا أن أبحث أكثر مما أحاول أن أجمع .

والمصادر التى أمدّت هذه الموسوعة بما بها من مادة ، كثيرة ومتلونة ، وهى طبعاً تختلف باختلاف الزمان واختلاف المكان ، وتختلف فى دراسة الحضارة عنها فى دراسة التاريخ .

وقبل أن نذكر المصادر الرئيسية التى اعتمدنا عليها نقرر أن الآثار والنقوش والعملة تعتبر عادة من أهم المصادر التى تساعد على دراسة التاريخ ، وقد كانت الآثار الفرعونية أهم المصادر التى حفظت لنا تاريخ الفراعنة وحضارتهم ، ولكن — للأسف — يعتبر تاريخ العرب قبل الإسلام والتاريخ الإسلامى فى مرحلته الأولى (عصر صدر الإسلام) قليلى البضاعة من هذه المصادر لعدة اعتبارات أهمها :

١ — البداوة التى كانت طابع العرب والتى لم تحفزهم على النقش ، إذ كانوا فى الغالب رحلا ، والنقوش والآثار تحتاج إلى استقرار وإقامة :

٢ — كثرة الحروب بين قبائل العرب قبل الإسلام وكثرة الحروب بعد الإسلام ، كأيام العرب فى الجاهلية ، والغزوات وحروب الردة وغيرها بعد الإسلام ، وهذه وتلك أفنت ما قد يكون ظهر من هذه النقوش أو تلك الآثار .

٣ — كان المسلمون الأول قريبى صلة بعبادة الأوثان ، ولذلك لم يهتموا بالآثار والأحجار خوفاً من أن تصبح فى يوم مقدسة عند ضعاف القلوب .

٤ — وجد المسلمون القرآن مصدرا لا يعدله مصدر ؛ ويجىء بعده الحديث والرواية ، فلم يهتموا بتسجيل أحداثهم عن طريق النقوش والآثار .

وعلى هذا لم يبق لنا إلا بعض النقوش والآثار والعملة وبخاصة فى الأماكن المتحضرة كاليمن والأنباط وتدمر ، وستمدنا هذه المصادر ببعض المعلومات المفيدة نستمدها مما كتبه الرحالة والعلماء الذين زاروا هذه الآثار ووصفوها أو نستمدها من ملاحظاتى التى دونتها عند زيارتى لبعض هذه الأماكن .

ونعود بعد ذلك إلى المصادر الرئيسية للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، فنقرر أن فى قمتها للقرآن الكريم ذلك الكتاب المقدس الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى لم تعبث به السنون ولم يلحقه تحريف ولا تشكيك ، فإذا حدثنا القرآن الكريم حديثاً واضحاً عن بعض الأحداث التاريخية فإننا لا نحتاج معه إلى مصدر آخر ، وأى مصدر يبلغ فى الدقة والعمق مبلغ القرآن ؟ .

فالقرآن مثلا يحدثنا عن اجتماع قريش قبيل الهجرة حيث تناقش المجتمعون ليجعلوا طريقاً يسلكونه ضد محمد ، قال تعالى « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »[١]. فهذا المصدر هو أدق مصدر يحكى هذه المؤامرة وما جرى فيها .

والقرآن يصور لنا حال المسلمين فى غزوة الخندق أدق تصوير بقوله . « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر » [٢] وهو بهذا يغنينا عن أى مرجع آخر . والقرآن يعطينا معلومات ضافية عن غزوة بدر فى سورة الأنفال ، وعن غزوة أحد فى سورة آل عمران ، وعن غزوة الأحزاب فى السورة المسماة باسمها ، وعن صلح الحديبية فى سورة الفتح ، وعن غزوة تبوك فى سورة التوبة ، وهكذا .

ويجىء بعد القرآن حديث الرسول ، وقد كانت أحاديث الرسول أهم مرجع اعتمدنا عليه ونحن ندرس حياة الرسول بالمدينة ، والمصدران بالغا الأهمية بشكل أخص فى دراسة الحضارة الإسلامية . فإن هذه الدراسة اتخذت أسسها منهما .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٠ .
(٢) سورة الأحزاب : الآية العاشرة .

وبعد القرآن والحديث تجيء الوثائق ، والوثائق بالغة الأهمية فى دراسة التاريخ الإسلامى ، ولكن للأسف فقدت أغلب الوثائق فى الحروب الداخلية التى كثيراً ما التهمت نيرانها هذا المصدر الهام من مصادر التاريخ ، ومع هذا فلا تزال لدينا مجموعة ذات بال ، وقد جمع السيد حميد الله الحيدر آبادى فى كتاب خاص « مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة » كما جمع الأستاذ أحمد زكى صفوت أكبر مجموعة من هذا النوع فى كتابين هما « جمهرة رسائل العرب فى عصور العربية الزاهرة وهو فى أربعة أجزاء كبيرة ، وجمهرة خطب العرب وهو فى أربعة أجزاء أيضا.

وبعد الوثائق تجيء كتب المؤرخين ، والحديث عن كتب المؤرخين يقتضينا أن نتحدث قليلا عن رأى المسلمين الأول فى التدوين (١) .

أول كتاب دونه المسلمون هو كتاب الله ، ويروى المؤرخون أن المسلمين ترددوا طويلا قبل أن يقدموا على تدوين القرآن ، وربما جاز لنا أن نعود قليلا إلى الوراء لنذكر أن الرسول كان بعد أن يتلقى الوحى يملى ماتلقاه على كتّاب الوحى ، وكان هؤلاء يكتبون مايسمعون من الرسول على عسيب النخل أو الجلد أو العظام أو الحجارة الرقيقة ، ولكن جل الاعتماد على صيانة القرآن كان على الحفظ ، فقد كانت ذاكرة العرب قوية وحافظتهم مشهوداً بها . بيد أن كثيرين من الحفاظ ماتوا فى حروب الردة وحروب المتنبئين ، فأشار عمر على أبى بكر أن يجمع القرآن ويدوّنه ، وقد تردد أبوبكر حيناً ثم وافق عمر ، وانتدبا لذلك زيد بن ثابت ، ولكنه تردد أيضاً حيناً ثم وافق (٢) .

---

(١) انظر كتاب تقييد العلم للخطيب البغدادى .

(٢) اقرأ كتاب تاريخ التشريع الإسلامى وتاريخ النظم القضائية فى الإسلام للمؤلف ص ٣٨ .

فإذا جئنا إلى تدوين الحديث وجدنا التردد أكثر ، فقد كان القرآن يدون عقب نزوله كما قلنا ، ولكن الحديث لم يكن يدون خوفاً من أن يختلط بالقرآن ، وبعد وفاة الرسول وظهور الأحاديث الموضوعة أمر أبو بكر الناس ألا يحدثوا عن الرسول ، وسار عمر على هذا النهج بل بالغ فيه فحبس ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصارى لأنهم أكثروا التحديث عن الرسول ، ولهذا لم ينشط تدوين الأحاديث إلا فى منتصف القرن الثانى الهجرى حيث شغل به مالك بالمدينة ، وابن جريج بمكة ، وسفيان الثورى بالكوفة وحماد بالبصرة ... (١) .

وإذا كان المسلمون ترددوا على هذا النمط فى تدوين الحديث فإن ترددهم فى تدوين سواه من العلوم كان أكثر ، ومن هنا وجب علينا الحذر فى تلقى الأخبار التى دونها المؤرخون ، فإن الأحداث الأولى لم تصل للمؤرخين مدونة وإنما وصلتهم من الرواة ، وعلى هذا يصادف المؤرخ أحياناً بعض التناقض ، وإن كان ليس من العسير على المؤرخ المدرب أن يصل إلى الحقيقة حتما أو تقريباً من بين طيات ذلك التناقض .

ومن الكتب الهامة التى ستمدنا بمادة غزيزة كتب التراجم وعلى رأسها سيرة سيدنا رسول الله : سيرة ابن هشام (٢١٣ هـ) . وقد برع المسلمون فى موضوع التراجم براعة لم تصل إليها أية أمة ؛ واتجهوا بها اتجاهات تخصص دقيق ، فجعلوا بعضها للأعيان مثل « وفيات الأعيان » لابن خلكان (٦٨١ هـ) وتكملته « فوات الوفيات » لابن شاكر الكتبى (٧٦٤هـ) والوافى بالوفيات للصفدى (٨٦٤ هـ) وجعلوا بعضها للأدباء كمعجم الأدباء لياقوت (٦٢٦ هـ) وبعضها للفقهاء كطبقات الشافعية للسبكى (٧٧١ هـ) وبعضها للأطباء كتراجم الحكماء لابن القفطى (٦٤٦ هـ) .

---

(١) انظر المرجع السابق ص ١٥٠ - ١٥١

ومن الكتب الهامة كذلك كتب الحوليات وفى قمتها تاريخ الطبرى (٣١٠هـ) والكامل فى التاريخ لابن الأثير (٦٣٠ هـ).

ومن الكتب الهامة أيضا كتب التاريخ العام التى ليست من الحوليات ومن أهمها تاريخ اليعقوبى الذى دون التاريخ الإسلامى حتى سنة ٢٥٦ هـ وكذلك العبر لابن خلدون (٨٠٨ هـ)

وكتب المغازى والفتوح وأهمها فتوح الشام للواقدى (٢٠٧ هـ) وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (٢٥٧ هـ) وفتوح البلدان للبلاذرى (٢٧٩هـ).

وكتب الجغرافية وأهمها مروج الذهب للمسعودى (٢٤٥ هـ)؛ وكتاب صورة الأرض لابن حوقل (٢٦٧ هـ) ومعجم البلدان لياقوت (٦٢٦ هـ).

وهذه المراجع — كما هو واضح — عامة تمدنا بمادة هامة عن القرون الأولى للتاريخ الإسلامى فى مختلف بقاعه، ولكنا نحتاج بعد ذلك إلى الكتب التى اتجهت لدراسة كل قطر على حدة عندما انفرط عقد العالم الإسلامى.

فاذا وصلنا إلى العصر الحديث لعبت الوثائق والمراجع الحديثة وتصريحات صانعى التاريخ، وشهود العيان، أكبر دور فى إمدادنا بالمعلومات اللازمة وهو ما اتضح فى الجزء الرابع وماتلاه من أجزاء.

فاذا جئنا للحضارة الإسلامية وجدنا لوناً من الصعوبة، فإن المؤرخين والكتّاب الأولى لم يفردوا كتباً وبحوثاً خاصة لإعطاء دراسة كافية للحضارة الإسلامية، ولذلك كان علينا أن نصبر وأن نثابر حتى نجد الحضارة الإسلامية متناثرة فيما كتبوه، وعلى كل حال فبين ما كتبه الأولون كتب تميل إلى جانب الدراسات الحضارية أكثر من ميلها إلى الدراسات التاريخية، ونستطيع — مع الصبر — أن

نجمع المادة من هذه الكتب ونرتبها ، فتخرج لنا فكرة عن حضارة الإسلام كاملة أو قريبة من الكمال ، ومن هذه الكتب مايلى .

أبو يوسف (١٩٢ هـ) فى كتابه الخراج .

الكلبى (٢٠٤ هـ) فى كتابه الأصنام .

الجاحظ (٢٥٥ هـ) فى كتبه : الحيوان — البيان والتبيين — التاج فى أخلاق الملوك .

ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) فى كتبه . المعارف — الإمامة والسياسة — عيون الاخبار .

ابن عبد ربه (٢٣٨ هـ) فى كتابه العقد الفريد .

الجهشيارى (٣٣١ هـ) فى كتابه الوزراء والكتاب .

قدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) فى كتابه الخراج .

الأصفهانى (٣٥٦ هـ) فى كتابه الأغانى .

الماوردى (٤٥٠ هـ) فى كتابة الاحكام السلطانية .

ابن حزم (٤٥٦ هـ) فى كتابه الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، والمحلى .

الغزالى (٥٠٥ هـ) فى كتبه . الإحياء — إلجام العوام — الرسائل .

الشهرستانى (٥٤٨ هـ) فى كتابه الملل والنحل .

ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) فى كتابيه . مناقب عمر بن الخطاب — مناقب عمر بن عبد العزيز

ابن الطقطقى (٧٠٩ هـ) فى كتابه الفخرى فى الآداب السلطانية .

ابن خلدون (٨٠٨ هـ) فى المقدمة .

القلقشندى (٨٢١ هـ) فى كتابه صبح الأعشى .

ابن حجر (٨٥٣ هـ) فى كتابه رفع الإصر عن قضاة مصر .

السيوطى (٩١١ هـ) فى كتبه « الاتقان فى علوم القرآن — نزهة الجلساء — تاريخ الخلفاء » .

ويجيء بعد ذلك مجموعة كبيرة من كتب المحدثين ، وذلك مثل مؤلفات

محمد عبده الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .

أحمد أمين : فجر الإسلام — ضحى الإسلام — ظهر الإسلام — يوم الإسلام .

عباس العقاد : العبقريات — الديمقراطية فى الإسلام — حقائق الإسلام وأباطيل خصومه

طه حسين : على هامش السيرة — الفتنة الكبرى : عثمان — على وبنوه

محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية .

محمد الخضرى : أصول الفقه — تاريخ التشريع الإسلامى — محاضرات فى التاريخ الإسلامى .

محمد حسين هيكل : حياة محمد — الصديق أبو بكر — الفاروق عمر

جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى .

فريد رفاعى : عصر المأمون .

على عبد الرازق : الإسلام وأصول الحكم .

حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام .

عبد المنعم ماجد . التاريخ السياسى للدولة العربية (حتى سقوط الدولة الأموية)

أحمد شلبى : « موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » فى عشرة أجزاء .

« موسوعة النظم والحضارة الإسلامية » فى عشرة أجزاء .

سلسلة « مقارنة الأديان » فى أربعة أجزاء .

ومجموعات كثيرة أخرى من الكتب غير هذه .

وقد أدت كتب المستشرقين دوراً كبيراً في هذه الدراسة التاريخية والحضارية ، ومن أهم الكتب التي قدمت فائدة تذكر كتب :

Stanley Lane Poole :]

History of Egypt in the Middle Ages

The Moors in Spain

Muhammadan Dynasties

ومن كتب المستشرقين أيضاً ذات الفائدة :

Nicholson	: A Literary History of the Arabs ,
Browne	; A Literary History of persia
Gibb	: Muhammadanism
Thomas Arnold	; The Caliphate
	The Breaching of Islam
Margolioth	; Muhammed and the Rise of Islam
H . Wells	: A Short History of the world
G Kirk	; A Short History of the Middle East

ومن الكتب ذات الفائدة العظيمة التي كتبها شرقيون مسلمون أو غير مسلمين بغير اللغة العربية .

Sayid Ameer Ali	: A Short History os the Saracens
	: The spirit of Islam
Rhuda Bakhsh	: Islamic Civilization
ph . Hitti	; The History of the Arabs '

وقد قدمت دوائر المعارف العربية والأوربية مادة وفيرة ومساعدات جمة لهذه الموسوعة سنجدها متناثرة في أجزائها .

وفى هذا الجزء (الجزء الأول) تحدثت عن العرب قبل الإسلام ، وعن سيرة الرسول ، وعن الخلفاء الراشدين ، وأريد هنا أن أثبت حقيقة بالغة الأهمية ، وهى أننى حينما كنت أكتب سيره سيدنا رسول الله صلوات الله عليه كنت أجد الفكرة ميسرة ، والأسلوب مواتيا وكنت أنعم بلذة لا تعدلها لذة ، وسرور لا يدانيه سرور ، وكنت أحس بدافع قوى يدفعنى لمواصلة العمل ، وكنت أدخـل حجرة مكتبى وكأننى مقبل عـلى شىء بهيج ، فإذا جلست لمكتبى وتفرغت للعمل غمرتنى سعادة ليس لى عهد بمثلها ، ولم أدرك مبعث هذا الإحساس حتى انتهيت من كتابة سيرة الرسول وبدأت فيما تلاها من أبحاث ، فرأيتنى أعود إلى طبيعتى أحب العمل حيناً وأنفر منه حيناً ، فأدركت أن صحبة الرسول كانت هى مبعث اللذة ، وكانت مصدر الغبطة ، وجدير بهذه الصحبة الكريمة أن تكون كذلك .

وبعد ، إننى أدرك أن الغاية التى أسعى لها شاقة ، ولكنى أرجو من الله العون ، وأسأله أن ينفع بهذا العمل كاتبه وقارئه إنه سميع مجيب .

تاريخ العرب قبل الإسلام

مقدمة :

لابد من معرفة فكرة عن العرب قبل الإسلام ، ذلك لأن العرب هم الجنس الأول الذى تلقى الإسلام ، وحمل ألويته ودعوته ، فجدير بنا أن نتعرف عليهم ، ثم إن العرب كانت لهم قبل الإسلام دياناتهم وعاداتهم وأخلاقهم ونظم حياتهم ، وجاء دين الإسلام وله نظمه وأخلاقه . فالدين الجديد نزل على قوم ليسوا جددا ، فالتقى الدين الإسلامى بأديان الجاهلية ، والتقت نظم الإسلام بنظم العرب قبله ، وحدث صراع طويل لا يمكن أن نحيط به إلا إذا عرفنا شيئاً عن حياة العرب قبل الإسلام ، ومثل ذلك يجب أن يتبع إذا تحدثنا عن دخول الإسلام مصر أو الشام أو إندونيسيا ... فلابد أن نعرف شيئاً عن هذه البلاد قبل الإسلام ، فذلك الذى سنعرفه سيوضح لنا أسباب الطريقة التى استقبل بها الإسلام فى أى من هذه البلاد .

وسنذكر فيما بعد أن سكان الجزيرة العربية قسمان : بدو وحضر ، وإذا كنا نعرف شيئاً كافيا عن تاريخ الحضر فى الجنوب والشمال والحجاز ، فإن تاريخ البادية والبدو يكاد يكون مجهولا ، وأقدم ما نعرفه عنهم هو ما امتد قبل الإسلام بحوالى ١٥٠ سنة فقط . وسبب ذلك أنهم كانوا قبائل متعادية متحاربة ، وكانت الحرب عندهم فى الأصل ضرورية للمحافظة على الحياة ، فالقوى هو الذى يستطيع أن يمتلك منازل الماء ومراعى السائمة ، أما الضعيف فليس له سبيل للحياة الكريمة . واشتغال البدو بالحروب استنفد جهدهم فلم يتجهوا للحضارة ، فإذا حدث أن اتجه بعضهم للحضارة أفنى أعداؤه حضارته التى بناها ومجده الذى شيده ، ثم إنهم كانوا يجهلون الكتابة فلم يدونوا لنا تاريخهم وحياتهم ، وعلى هذا لم تقم لهم آثار أو أبنية تحدثنا عن تاريخهم ، ولم توجد كتابة تعلمنا ذلك التاريخ ، ولم يصل لنا عن الأقدمين إلا ما أوردته الكتب المقدسة ، أما المائة والخمسون سنة التى

سبقت الإسلام فقد جاءتنا المعلومات عنها مما أثبته الشعر أو تحدث به الرواة .

وسنورد فيما يلي مباحث كافية تجلّي لنا إلى حد كبير حياة العرب قبل الإسلام ، وسنلم في دراستنا بالموضوعات الآتية :

- تعريف عام بالمنطقة وبالسكان .
- التاريخ السياسي للعرب قبل الإسلام .
- الاتجاهات الاقتصادية لدى المجتمع العربي قبل الإسلام .
- الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية قبل الإسلام .



خريطة الجزيرة العربية والحجاز بوجه خاص

تعريف عام بالمنطقة وسكانها

فى هذا التعريف ندرس الموضوعات التالية :

– جغرافية جزيرة العرب .

– الجنس العربى .

– لغة الشمال ولغة الجنوب .

وهذه الموضوعات ستساعدنا على التعرف على المنطقة ، وعلى سكانها فلنأخذ فى ذلك :

جغرافية جزيرة العرب :

يطلق العرب على بلادهم « جزيرة » مع أن الماء يحيط بها من الشرق والغرب والجنوب فقط ، أما فى الشمال فتوجد « بادية الشام » ولذلك كان إطلاق كلمة الجزيرة على بلاد العرب هو من باب التجوز ، أو لأن العرب فى رحلاتهم التجارية بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب كانوا يسيرون مع شواطىء البحار ، فظنوا أو فاعتبروا أرضهم محاطة بالبحار من جميع النواحى ، فأطلقوا عليها كلمة « جزيرة » ، وكثير من المؤلفين المعاصرين يقولون « شبه الجزيرة » وضعاً للأمور فى نصابها .

والذى ينظر إلى « الخريطة رقم ١ » يجد الجزيرة العربية على شكل مستطيل غير متوازى الأضلاع مع انبعاج فى قاعدة المستطيل الجنوبية ، وحدود الجزيرة هى بحر القلزم (البحر الأحمر) من الغرب ، والمحيط الهندى من الجنوب وخليج عمان والخليج العربى من الشرق ، أما فى الشمال فتقع بادية الشام ولا تصل الجزيرة العربية إلى البحر الأبيض المتوسط إلا تجوزاً كما سبق القول وطول الجزيرة العربية يزيد عن ألف كيلو متر وعرضها يبلغ نحو ألف من الكيلو مترات .

وهذه المساحة الشاسعة يمكن أن نقسمها قسمين هما .

١ — قلب الجزيرة ،

٢ — دائرها .

ويختلف كل من هذين القسمين عن الآخر من الناحية الجغرافية اختلافاً كبيراً ، فقلب الجزيرة يتكون من سلاسل من الجبال المرتفعة ، بينها بعض الوديان ، ولا تسقط عليه الأمطار إلا قليلا ، ومن ثَمّ كان قليل السكان ، وكان سكانه رحلا يبحثون على مساقط الأمطار أو منابع الماء ، ويبقون حولها يرعون العشب ويشربون الماء حتى ينفد العشب ويجف الماء ، وحينئذ يبحثون عن مكان آخر وهكذا ، وطبيعي أن قوماً كهؤلاء ، لم تكن لهم مساكن يأوون إليها ، وإنما كانوا يستعملون الخيام ، وكان الجمل عونهم الكبير فى تنقلاتهم ولذلك يسمى « سفينة الصحراء » ، أما الغنم فهى مادة حياتهم يشربون لبنها ويأكلون لحمها ويستعملون جلودها ملابس فى البرد ، ويصنعون من أصوافها خيامهم وملابسهم ، ويسمى هؤلاء القوم « البدو » كما يسمى قلب الجزيرة العربية « البادية » ، ولم تهيء حياة البادية للبدو أن يعملوا فى الزراعة أو الصناعة ، فهاتان من حرف الاستقرار الذى لم ينعم به سكان البادية .

وبالإضافة إلى سلاسل الجبال الهائلة المنتشرة فى الجزيرة العربية ، توجد منطقتان مهمتان إحداهما فى الشمال ويطلق عليها (نجد) والأخرى فى الجنوب ويطلق عليها « الأحقاف » أو « الربع الخالى » ، ومع قلة السكان فى نجد فإنهم أكثر نسبياً من سكان الأحقاف ، ولذلك يطلق على الأحقاف « الربع الخالى » لخلوه تقريباً من السكان ، وتختلف طبيعة الأرض فى نجد عنها فى الأحقاف ، ففى الأحقاف رمال تغوص تحت أقدام السائرين وتبتلع مياه الأمطار إن نزلت عليها ، ولهذا كان هذا القسم قليل السكان ، أما نجد

فأرض صخرية ،ومن عوامل النحات والتعرية تكونت فى بعض الأنحاء بنجد طبقة زراعية من قشور الصخر الظاهرية ، وبقيت الأرض صخرية فى الداخل فلا تبتلع المياه التى تهبط عليها ، ومن ثم كانت نجد أكثر قبولا للزراعة ، وبالتالى أكثر عمراناً من الأحقاف .

أما دائر الجزيرة العربية فهو عبارة عن شريط ضيق فى الغالب يمتد مع الشواطىء المحيطة بالجزيرة العربية . وينفسح هذا الشريط قليلا عند التقاء البحر الأحمر بالمحيط الهندى فتتكون اليمن ، ودائر الجزيرة العربية يختلف عن قلبها اختلافاً ظاهراً ، فالأمطار تسقط على دائر الجزيرة بشكل منتظم تقريباً ضمن للناس نوعاً من الزراعة ومن ثم نوعاً من الاستقرار ، فقامت ممالك ومدن وقرى على الشاطىء وهى كما يتضح من الخريطة السابقة : الأحساء أو البحرين – عمان – مهرة – حضرموت (من مهرة وحضرموت تتكون الآن جمهورية اليمن الشعبية) – اليمن – (تطلق اليمن أحياناً على الساحل الجنوبى كله) ، وأهم هذه المناطق ، من ناحية الدراسة التاريخية المتصلة بهذه الفترة اليمن والحجاز ، وسنوليهما العناية الكافية بهذا الجـزء ، على أن منـاطق الجزيرة العربية كلها قد خصص لها الجزء السابع من هذه الموسوعة ليشمل تاريخها من مطلع الاسلام حتى العصر الحاضر .

وفى شمال الجزيرة العربية تكونت مملكتان هما الحيرة وغسان ، وكانت هاتان المملكتان حداً فاصلا بين الجزيرة العربية وبين دولتى الفرس والروم وقد تأثرت حياة المملكتين العربيتين بالفرس والروم لعمق الصلة بين الحيرة وبين الفرس . وعمقها كذلك بين الغساسنة وبين الروم كما سيأتى ، وهناك قبل الغساسنة قامت مملكتان ببادية الشام هما مملكة الأنباط وعاصمتها البتراء ، ومملكة تدمر وعاصمتها تدمر ، وعلاقة هاتين المملكتين بالدراسات الإسلامية أقل بكثير من علاقة الغساسنة والمناذرة بطبيعة الحال ، لأن مُلك الغساسنة والمناذرة استمر حتى ظهور الإسلام ، بخلاف مملكتى الأنباط وتدمر ،

ولكنا مع هذا لن نهمل هاتين المملكتين عند ذكر التفاصيل عن ممالك شمال الجزيرة العربية .

الجنس العربى :

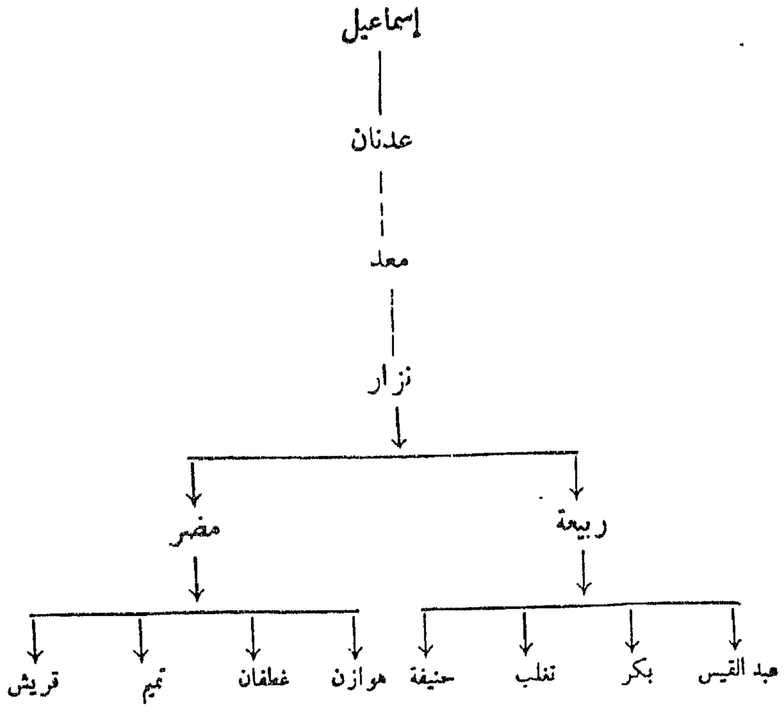
الجنس العربى هو أحد الأجناس السامية ولعله أكثرها محافظة على خصائص الساميين ، واللغة العربية هى إحدى اللغات السامية ولكنها أيضاً أكثرها محافظة على خصائص اللسان السامى(1)، وترجع هذه المحافظة إلى طبيعة الحياة فى الجزيرة العربية . فلقد حرست هذه الحياة الجنس العربى واللغة العربية من الهجمات التى تعرض لها غير العرب من الساميين وغير اللغة العربية من فروع اللسان السامى .

وقد جرى المؤرخون على وضع حد فاصل بين قسمين من العرب هما : العرب البائدة والعرب الباقية ، وكلام المؤرخين يوحى بأنه لا توجد علاقة بين الاثنين ، وكلمة البائدة تفيد الاندثار والفناء ، وفى هذا القسم توضع عاد وثمود وطسم وجديس ، ويرى هؤلاء المؤرخون أن الكتب المقدسة هى التى روت لنا شيئا من أخبار بعض هذه الجماعات ، وأن ذكرها ورد أحيانا فى بعض المراجع القديمة .

أما العرب الباقية فهم الذين لا يزالون حتى اليوم ، ويبدو لى أن وضع حد فاصل بين القسمين غير مفهوم ، وأن ارتباطا ما ينبغى أن يلاحظ بين السابقين واللاحقين ، والعرب الباقية تنقسم بالتالى قسمين : قحطانية وعدنانية ، والقحطانيون موطنهم الأصلى جنوب الجزيرة ، ومنهم ملوك اليمن وقبائل سبأ وحمير ، وقد خرجت منهم جماعات وقبائل فى ظروف متعددة ونزلت بأجزاء مختلفة من الجزيرة العربية ، ومن هؤلاء اللخميون الذين نزلوا الحيرة

Hitti : History of the Arabs P. 8 (1)

وكوّنوا ملكا بها ، ومنهم كذلك أولاد جفنة ملوك الغساسنة ، ومنهم ملوك كندة ، كما أن منهم الأزد الذين تفرع منهم الأوس والخزرج ، أما العدنانية فيسمون العرب المستعربة أى الذين دخل عليهم دم ليس عربيا ثم تمّ اندماج بين هذا الدم الدخيل وبين العرب ، وأصبحت اللغة العربية لسان المزيج الجديد، وهؤلاء هم عرب الحجاز وموطنهم الأصلى مكة المكرمة والدم الجديد الذى نزل بهم هو إسماعيل الذى جيء به إلى مكة وهو صغير ، ونشأ بين سكانها من قبيلة جرهم كما سيأتى ، ثم صاهر العربَ وعاش أولاده بينهم بعد أن استعربوا . ومن أهم أولاد إسماعيل عدنان الذى تنسب له هذه الطائفة ، ويجيء بعد عدنان ابنه معد ثم نزار بن معد ، ولنزار هذا فرعان هامان يتبعان ولديه : ربيعة ومضر ، ومن أشهر قبائل ربيعة عبد القيس وبكر وتغلب وحنيفة ، ومن أشهر قبائل مضر هوازن وغطفان وتميم وقريش .



ولم تتسع مكة لعرب الشمال فبدأوا يهاجرون للبحث عن مساقط الماء ومنابع العشب ، فنزل عبدالقيس البحرين، ونزل بنو حنيفة اليمامة، ونزل بنو هوازن بنواحي أوطاس شرق مكة .

وكان لعرب الجنوب مدنية أعمق ومعرفة بشئون السياسة أكثر من عرب الشمال ، ولذلك لما هاجر عرب الجنوب للشمال أقاموا لهم مدنيات وممالك فى الشمال ، ومنهم يتكون حضر الجزيرة فى الغالب ، أما عرب الشمال فلم يظهر لهم مجد ذو بال إلا فى ظل الإسلام ، وكانوا يكونون بدو الجزيرة . وسنرى أن الإسلام قد نادى بزوال الفوارق ، وعمل محمد ﷺ وعمل خلفاؤه من بعده على تكوين أمة إسلامية لا عصبية فيها ، ولكن الخلاف بين عرب الجنوب وعرب الشمال لم يتوقف ، وكان يبدو قوياً مدمراً من حين إلى آخر ، وبخاصة عندما يكون الخليفة ضعيفاً أو عندما ينسى المثل الإسلامية وينتصر لهؤلاء أو أولئك .

لغة الشمال ولغة الجنوب :

ستدلنا الأبحاث التالية على أن اليمن كانت سيدة الحضارة فى الجزيرة العربية ، وكانت فى يدها تجارة الشرق كله ، وكانت لها مستعمرات على طول الطريق من اليمن إلى الشام بالإضافة إلى خطوطها البحرية ، وهذه المستعمرات لم تدع حاجة لاستخدام البدو الذين يسكنون شمال الجزيرة ، وعلى هذا قل الاختلاط بين عرب الجنوب وعرب الشمال ، ثم إن اليمن جذبت لها طوائف من المهاجرين بسبب صلاتها التجارية ، وأهم هؤلاء مهاجرو إفريقية والحبشة عبر باب المندب ، ولهذه الأسباب وجدت فى الجنوب لغة غير لغة الشمال ويبدو أن لغه الجنوب كانت أقوى حضارة بسبب رقى المتكلمين بها وسمو آدابهم ، ولكن دخلتها ألفاظ أجنبية كثيرة بسبب كثرة المتكلمين بها من غير العرب ، فأصـ ـوية الموضوع ضعيفة الأسلوب ، ولغة الجنوب هذه لها صلة وثيقة بلغة الحبشة ، إحدى اللغات السامية ، وتسمى اللغة الحميرية نسبة إلى حمير ، وبهذه اللغة نقشت بعض أخبار الحميريين التى لا تزال موجودة

أما لغة الشمال فهى لغة قريش ، وتختلف عن لغة الجنوب فى تصاريف الأفعال والضمائر ، ولكنها تتفق معها فى كثير من المفردات وفى الجموع المكسرة [١] ، وهذه اللغة وإن كانت أقل حضارة إلا أنها كانت سليمة فصيحة .

ودالت دولة الجنوب ، وانتقلت التجارة بالجزيرة العربية إلى عرب الشمال كما سيأتى إيضاحه ، وكثر الاهتمام بمكة كمركز دينى للعرب جميعاً تنمو مكانته يوماً بعد يوم ، وهذا جعل لغة الشمال تنمو ولغة الجنوب تتقهقر ، وجاء الإسلام ونزل القرآن بلغة قريش لغة الشمال ، وتم لهذه اللغة بذلك السلطان فى الجزيرة العربية كلها ولم يبق للغة الجنوب إلا آثار لاقيمة لها ، ومع هذا فلم تدع لغة الشمال هذه البقية دون أن تدخل عليها كثيراً من خصائصها ومفرداتها حتى ضاقت الهوة ، وأصبحت لاتعدو أن تكون لهجة من لهجات لغة الشمال .

---

(١) انظر تاريخ العرب للدكتور فيليب حتى ج ٢ ص ٣٨ و ٦٧

التاريخ السياسى

للعرب قبـــل الإسلام

إن الفكر السياسى عند البدو يختلف عنه عند الحضر ، فبينما عاش البدو فى نظام الوحدة الصغيرة «القبيلة» استطاع الحضر أن يكوّنوا ممالك لها ملوك ونظم سياسية ، ومن هنا لزم أن نتكلم عن البدو وعن الحضر ، كل على حدة ، مع ملاحظة أن نظام الحكم القبلى متشابه ، فإعطاء فكرة عنه سيغنينا عن تتبع القبائل هنا وهناك ، ولو أردنا أن نتتبع كل القبائل ما استطعنا ، لقلة ما لدينا من مادة ، ولعدم الاستقرار فى سلطاتها السياسية :

١ ـــ الحكم فى البادية

يعيش البدو فى الصحراء فى نظام قبلى ، والوحدة فى البادية هى القبيلة ، وهى وحدة يربط بينها الدم والعصبية ، ويعتبر من أفراد القبيلة هؤلاء الضعاف أو العبيد الذين يلجأون للقبيلة ويعيشون فى جوارها وحمايتها ولو لم تكن بينهم وبين القبيلة صلة دم .

وقد تطغى قبيلة على أخرى وتغلبها على أمرها فيخضع المغلوب للغالب لمدة قصيرة أو طويلة ، حتى يتاح للقبيلة المغلوبة من أبنائها من يشهر السيف فى وجه الغالبين ويكسب لقبيلته استقلالها .

والقبيلة العربية تخضع لدستور صارم نظمته التقاليد والعرف ، وخلاصة هذا الدستور أن يحس الفرد برابطته القبلية ، ويلتزم بتأييد مصالحها ، والعمل لها بكل ما يملك من قوة[١] ، وأفراد القبيلة جميعا متضامنون فيما يرتكبه أحدهم

---

(١) الميدانى : مجمع الأمثال جـ ١ ص ١٧

تضامنا حازما ، فتأتى مسئوليته على سيد العشيرة الذى عليه أن يتحمل التبعة باسم القبيلة ، وله — من أجل هذا — حق الطاعة على أفراد القبيلة ؛

وسيد القبيلة يُختار من بين من تجمعت فيهم صفات الشجاعة والكرم والحلم ، أو قل إن الامتياز فى هذه الصفات يفرض صاحبه ليكون سيداً القبيلة ، وقد يجىء لرئيس القبيلة ابنٌ يعدله فى الشرف والسؤدد وحينئذ يستطيع أن يرث مكانة أبيه ، وإذا تكررت رياسة القبيلة فى بيت من بيوتها عرف هذا البيت بالمجد والجاه .

ومسئوليات سيد العشيرة أو رئيس القبيلة أكثر جداً من حقوقه ، فهو فى السلم جواد كريم مسئول عن إكرام الضيوف الوافدين . وإغاثة المحتاجين من أبناء القبيلة ، وإجارة المستجير ، وهو فى الحرب يتقدم الصفوف ويساعد من لاعتاد له ، وهو يتحمل باسم القبيلة تبعة ماقد يرتكبه أفراد القبيلة من أخطاء ، ولكن إذا ارتكب فرد من أفراد القبيلة جرما ترفض القبيلة أن تتحمل نتائجه ، أوإذا أخطأ فى حق قبيلته نفسها ، فإنه يطرد منها ، ويسمى هذا الطرد خلعاً ويسمى الطريد خليعاً .

أماحقوق رئيس القبيلة فهى الطاعة المطلقة على كل أفراد القبيلة ، وليس لدى رئيس القبيلة قوة مادية يرغم بها أفراد القبيلة على الطاعة ، وإنما هى التقاليد والعرف ، وللبدوى أن يتمرد على أى قرار يتخذه رئيس القبيلة ، ولكن عليه فى هذه الحال أن يدع القبيلة وأن يهجرها هجراً تاماً ، وكثيراً مالجأ البدوى إلى هذا التصرف ، فإن أهم مايمتاز به البدو عدم الخضوع ، فالحرية عند البدوى هى خير مايعتزُّ به ، ولايستطيع أن يتنازل عن أى جزء منها لقاء أى شىء ، فما نعرفه فى العصر الحديث من أن كل فرد ينبغى أن يتنازل عن جزء من حريته لتتحقق الحرية للمجموع ، هذا الاتجاه كان البدوى يعتبره خدعة ولايقبله ، والموت أو الهجرة عن الوطن أيسر على البدوى من فقدان حريته .

والدارس لتاريخ البادية ونظام الحكم بها يجد أن تمرد أفراد من القبيلة على حكم رئيسها كان كثير الوقوع وكانت الحرية المطلقة ، والأنانية المفرطة ، والأثرة ، من أهم العوامل التى تتحرك فى نفوس البدو ، فلا يخضعون لحكم يصدره رئيس القبيلة ويؤثرون أن يخلعوا أنفسهم ويهيمون على وجوههم مع نظرائهم من الخلعاء .

ومن مظاهر الأنانية والفردية عند البدو ماروى من أن بعضهم كان بعد دخوله الإسلام يهتف داعياً : اللهم ارحمنى ومحمداً ولاترحم معنا أحداً :

ومن أجل هذا لم يكن سهلا أن يتم بالبادية ارتباط بين عدد من القبائل لتكوين ممالك ، فالقبيلة الواحدة كانت معرضة للانقسام بطوناً كلما كبرت ، وكان أفراد كثيرون منها يتركونها أو يطردون منها من حين لآخر كما ذكرنا ، وعلى هذا فالاتجاه فى البادية كان للانقسام لاللتجمع .

مملكة كندة :

وهناك مملكة وحيدة قصيرة العمر قامت فى أواسط الجزيرة العربية بين الحكم القبلى وهى مملكة كندة (٤٨٠ — ٥٢٩ م) وكان أحد ملوك تبع(١) قد قهر بعض القبائل فى أواسط الجزيرة فعين (حجر) آكل المرار ملكا عليها ، وقد استطاع حفيده الحارث أن يستولى على الحيرة ويتخذ له عاصمة يغلب أن تكون الأنبار ، ولكن سرعان ما انهزم ملوك كندة أمام وثبة جديدة قام بها اللخميون ملوك الحيرة ، وقد تسبب عن انهزام ملوك كندة فى الشمال أن تفتت ملكهم فى قلب الجزيرة وعادت الحياة القبلية إلى الظهور . وينسب امرؤ القيس أحد شعراء المعلقات إلى ملوك كندة ، وقد حاول أن يعيد مجد آبائه ولكن محاولته لم تكلل بالنجاح .

---

(١) التبابعة لقب ملوك اليمن الأقدمين .

٢ — الحضر

مناطق الحضر المهمة فى الجزيرة العربية تتركز فى ثلاث مناطق هى :

(ا) اليمن .

(ب) ممالك الشمال وتشمل :

١ — الأنباط . ٢ — تدمر . ٣ — الحيرة وغسان .

(ج) الحجاز .

وسنتكلم عن كل منها على حدة :

(ا) اليمن

قلنا فيما سبق إن دائر الجزيرة العربية عبارة عن شريط ضيق يمتد مع الشواطىء المحيطة بالجزيرة العربية ، وينفسح هذا الشريط قليلا عند التقاء البحر الأحمر بالمحيط الهندى فيتكون اليمن ، ونضيف هنا أنه فى هذا الملتقى تكونت حضارة تعتبر أرقى حضارات الجزيرة العربية . كما أنها ذات قيمة كبيرة بين الحضارات العالمية .

تسمية اليمن :

وقد اشتق اسم اليمن من اليُمْن لأنها بلاد يمن وبركة وخير [1] ، إذا قيست بالصحارى القريبة منها ، وقد جاء اليُمن إلى اليمن من خصوبة أرضها ، وهبوط الأمطار عليها هبوطاً منتظماً . وكذلك من مهارة أهلها بحيث استطاعوا أن يحفظوا هذه المياه من الضياع ، فأقاموا السدود وخزنوا بها المياه بين الجبال وخلف هذه السدود ، ثم من عوامل اليُمن أيضاً لليمن موقع هذه البلاد

---

(١) انظر ياقوت : معجم البلدان كلمة « يمن » وانظر كذلك مادة « Yaman » فى Ency. of Islam

بحيث أصبحت ملتقى الرحلات البحريه التجارية التى تأتى من الهند ومن إندونيسيا والصين حيث تلتقى بالرحلات البرية وقوافل الجمال التى تسير بين اليمن فى أقصى الجنوب وبين الشام فى شمال الجزيرة ، وعلى هذا أصبحت اليمن سوقاً هامة تعرض بها البضائع التى ترد من الرحلات البحرية والبضائع التى تعود بها قوافل الجمال من الشمال . وسيأتى فيما بعد مزيد من الكلام عن الحركة التجارية بالجزيرة .

وموقع اليمن هذا حرمها مما سبق أن ذكرناه كميزة للبادية وهو نقاء العنصر وسلامة النسب ، فقد استقبلت اليمن عناصر مختلفة من الناس ، وجذبت أسواقها تجاراً من بقاع مختلفة من الجزيرة ومن خارج الجزيرة ، وكان بعض هؤلاء التجار يقيمون بها مدداً قصيرة أو طويلة ، فاختلطت الأنساب باليمن كما اختلطت اللغة ، وكثيرون من هؤلاء جاءوا عبر باب المندب من إفريقية وبعضهم جاء من الهند أو جزر الهند الشرقية (إندونيسيا الآن) وبعضهم جاء كذلك من سوريا مع التجارة الهابطة من الشمال ، وتم بين هؤلاء وبين القحطانيين سكان البلاد الأصليين روابط مصاهرة ، كما عاد بعض التجار اليمنيين والحضارمة الذين كانوا يرافقون التجارة إلى الهند وإندونيسيا ومعهم زوجات من هذه البقاع ، وعلى هذا لايبعد أن نتصور سوق اليمن وبها خليط من الأجناس وخليط من الحضارات وخليط من اللغات .

وغنى اليمن جلب إليها نوعاً من نظام الحكم لم يعرفه سكان البادية ، وسبب ذلك أن الناس ، كما يقول Kirk (١) ، كانوا قبل الاهتداء إلى الزراعة يعيشون على حالة البداوة المزعزعة فى جماعات صغيرة متناثرة ، وكانوا لايجدون وسيلة لسد حاجات معيشتهم إلا عن طريق الشيوع ، فلما نمت الحضارة الزراعية ووُجد فائض عن الحاجة أعطى هذا الفائض إلى قوم امتازوا عن الباقين بميزة ، كرجال الدين أوقادة الحروب .. وهذا ماحدث

---

(١) A Short History of tho Middle East p 7 ترجمة عمر الإسكندرى

فى اليمن ، فقد كان الدخل أكثر مما يستهلك ، وبذلك وجدت طبقة من الحكام ذوى الغنى واليسار والقوة ، وظهرت فى اليمن ألقاب الملك والسلطان ، وكانت هذه الألقاب تتناسب مع رقعة الملك ، فهناك من يسمى « ذو » وهناك من يسمى « قَيْل أو مقول » وهناك أيضاً « الملك » وهى متدرجة إلى أعلى فى معانيها (١) ، وفى عهود الضعف كان يكثر الانحلال والتفكك ويظهر مايسمى بالمخاليف ، فلكل رئيس مخلاف يضيق سلطانه أو يتسع بحسب قوته . أما فى عهود القوة فكانت تظهر الممالك التى كانت تذوب فيها المخاليف أو كانت تندمج فيها إذا لم تذب هذه المخاليف نهائياً ، كما كانت هذه الممالك تمتد أحياناً فتشمل حضرموت . وأهم الممالك الكبيرة التى قامت باليمن مملكة معين ومملكة قتبان ، ومملكة حمير ، والمعلومات التى لدينا عن المملكتين الأولين قليلة ، وكانت هاتان المملكتان متعاصرتين ، فكانت معين فى أواخر الألف الثانى ق م (حوالى ١٢٠٠ ق م) وقد ظلت حتى قامت سبأ فاستنقصت أرضها ولم يبق منها فى القرن السابع ق م إلا جزء يسير . أما قتبان فقد بدأت حوالى أوائل الألف الأول قبل الميلاد (١٠٠٠ ق م) وكان لها الإشراف على باب المندب . وقد ورثتها سبأ أيضاً كما ورثت دولة معين .

مملكة سبأ :

لمملكة سبأ شهرة واسعة سنتحدث عنها فيما بعد ، ولكن هذه الشهرة تتصل بالدولة عند نهضتها ، أما المعلومات التى بين أيدينا عن نشأتها فقليلة ، ويبدو أن مملكة سبأ بدأت على إثر ما انتاب دولة معين من ضعف ، وعاصرت سبأ كلا من معين وقتبان ، وكانت سبأ فتية ناشئة فى وقت كانت معين وقتبان يبدو عليهما الهرم وتؤذنان بالزوال ، وقد استطاعت سبأ أن

---

(١) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٧٤ .

تفسح حدودها على حساب كل من هاتين الدولتين حتى ورثتهما نهائياً فى آخر الأمر ، كما ضمت لها حضرموت ، وقد بدأت سبأ فى منتصف القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً (٩٥٥ ق م) وظلت حتى سنة ١١٥ ق م ، وكانت عاصمتها مأرب .

وترجع شهرة سبأ إلى سببين كبيرين أولهما ملكتها بلقيس وقصتها مع النبي سليمان والهدهد [1] ، وثانيهما سد مأرب ، فقد كانت الأمطار تهطل على اليمن ثم تنحدر إلى البحر فلا يُنتفع بها إلا فى موسم نزولها ، وكان لمملكة سبأ فن فى العمارة ، فعمد المهرة فى فن العمارة إلى مكان ضيق يوشك أن يلتقى عنده جبلان كبيران ، وفى هذا المضيق أقام هؤلاء سداً عظيما هو سد مأرب الشهير ، وكانت فائدة هذا السد مزدوجة ، فقد احتفظوا بواسطته بالماء لينتفعوا به وقتما يشاءون ، فكثرت بذلك الزراعة وتعددت دوراتها كل عام ، وكذلك تحكم هذا السد فى السيول التى كانت تقضى بالغرق والإتلاف على المزارع والقرى التى تقع فى المنخفضات ، فكانت نتيجة هذا السد أن كثر الرخاء باليمن وعمت الخيرات .

ولكن مثل هذا السد يحتاج إلى عناية وتجديد مستمر ، بيد أن فترة الضعف التى نزلت بالمملكة فى آخر أيامها شغلتها عن رعاية السد ، فبدأ يضعف ، وقلت مقاومته للسيول الجارفة ، فانهار بعضه أمامها ، وبدّل هذا الحادث الحياة فى اليمن ، فهاجر كثير من السكان إلى الشمال وآذن ذلك بسقوط مملكة سبأ وقيام مملكة حمير .

مملكة حمير :

على إثر الضعف الذى انتاب مملكة سبأ بدأت قبائل حمير تكوّن لها

---

(١) انظر سورة النمل الآيات ٢٠ — ٤٤ وانظر الطبرى ج ١ ص ٤٢٥ وما بعدها

نفوذاً وسلطاناً فى اليمن ، وكان ذلك فى المائة الثانية قبل الميلاد ، ولما سقطت دولة سبأ سنة ١١٥ ق م استكمل ملوك التبابعة الحميريون نفوذهم ، وأصلح هؤلاء الملوك ما فسد من نظم الزراعة والسدود وأصبح لهم جاه وسلطان عظيم ، حتى ليقال إنهم ساروا بجيوشهم محاربين مهددين حتى وصلوا العراق والبحرين [١] .

ثم آن الأوان لهذه الدولة أن تهزم وأن تتهاوى ، فقلت العناية بالسدود وبخاصة سد مأرب الذى كان قد ضعف منذ عهد سبأ ، وكانت نتيجة هذا الإهمال أن انكسر السد أمام سيل العرم الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم [٢] فجرفت السيول مزارع القوم وبساتينهم [٣] وخلف انكسار السد أرضاً تحتاج للماء فى الشمال وأرضاً غارقة به فى الجنوب ، وكان ذلك إيذاناً بالهجرات الواسعة التى قام بها سكان اليمن إلى الحجاز وغيره فى شمالى الجزيرة وخارج الجزيرة ، وكان ذلك أيضاً إيذاناً بضعف اليمن ضعفاً أدى إلى تدخل الفرس والروم رجاء احتلال البلاد السعيدة ، وسنتكلم فيما بعد على الصراع على اليمن من الدول الطامعة .

وقد خلّفت سبأ وحمير آثاراً تدل على العظمة والرقى ، وهى تشمل كثيراً من الأطلال والنقش ، كما كان لها أسطول ضخم ينقل البضائع بين موانى اليمن وبين موانى الهند والصين والصومال وسوءطرة ، بحيث كانت التجارة شبه احتكار فى يدها [٤] . ومن اليمن كانت التجارة تصعد إلى الشمال بقوافل

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٣٠٧

(٢) سورة سبأ : الآية السادسة عشرة

(٣) فى رأى ياقوت (معجم البلدان ٤ : ٣٨٣) أن تصدع السد كان فى عهد الأحباش والظاهر كما شرحنا أن السد ضعف أمام السيول عدة مرات وفى كل مرة كانت تطغى السيول على جماعة فتهاجر وهكذا

(٤) أنظر Periplus of Erythaean. sea Translated from Greek
نقلا عن الدكتور ماجد : التاريخ السياسى للدول العربية ١ : ٧٣

برية تسيطر عليها اليمن أيضاً قبل أن ينتقل مركز هذه القوافل إلى مكة كما سيأتى فيما بعد، فقد كانت سبأ فى إبان عظمتها التجارية تسيطر على طرق النقل التجارية التى تجتاز الحجاز متجهة شمالا حتى موانى البحر المتوسط ، وكان لها مستعمرات أنشئت على هذه الخطوط ، ويرى الدكتور حتى أن بلقيس لم تكن ملكة على بلاد اليمن وإنما كانت ملكة على أحد معاقل سبأ ومراكزها التجارية سالفة الذكر (١) . وقد كان تجار اليمن من الذكاء لدرجة أنهم حافظوا على أسرار تجارتهم فلم يعرف أهل الشمال مصادر كثير من البضائع التى كانت ترد إلى اليمن من الهند وإندونيسيا والصين وغيرها حتى ظن بعض مؤرخى اليونان والرومان أن جميع هذه البضائع كانت من إنتاج اليمن (٢) .

اليمن فريسة الاستعمار :

كان الهدف الرئيسى للتسابق بين الفرس والروم على احتلال اليمن هو السيطرة على هذا الموقع المهم والانتفاع بغنى اليمن الناتج عن تجارته وحاصلاته الزراعية ، ولكن هذا الهدف الرئيسى توارى ـ كما تفعل دول الاستعمار دائماً ـ خلف أسباب أخرى ثانوية كما سيتضح مما يلى :

قلنا إن الحميريين كانت لهم السلطة فى اليمن منذ سنة ١١٥ ق م ، وجاء المسيح وانتشر الدين المسيحى ولاتزال للحميريين السلطة والملك فى اليمن ، ثم ضعفت حمير كما قلنا وكان ذلك فى القرن الخامس الميلادى ومايليه ، وكان ملك حمير فى هذه الأثناء اسمه ذو نواس وكان قد اعتنق اليهودية (٣) ، وفى

---

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ١ : ٥٤

(٢) المرجع السابق ص ٥٩ — ٦٩

(٣) تسربت اليهودية إلى اليمن بسبب الاتصال الذى تم بين ملوك اليمن ويهود الشمال=

الوقت نفسه كانت المسيحية قد انتشرت فى نجران شمال اليمن . وقد جاءت المسيحية من الحبشة ، وبسبب التعصب الدينى من جهة ، ومن جهة أخرى بسبب خوف الحميريين أن يمتد نفوذ الحبشة إلى بلادهم عن طريق المسيحيين بنجران ، بسبب هذا وذاك ، خيّر ذونواس المسيحيين فى نجران بين اعتناق اليهودية أو الموت ، فاختاروا الموت ، فحفر لهم أخدوداً أفناهم بين حرق وقتل [1] . وقد فرّ من أهل نجران رجل وذهب إلى الحبشة يستنصر بالنجاشى المسيحى ضد ملك حمير اليهودى الذى أوقع بالمسيحيين وحرق الإنجيل ، فاستجاب النجاشى للرجل وأرسل النجاشى إلى قيصر الروم حامى المسيحية يخبره بذلك ويطلب منه بعض السفن لنقل الأحباش إلى بلاد اليمن ، وفى رواية أخرى أن المسيحى الفار ذهب إلى قيصر يستنصره فأرسل قيصر للنجاشى أن ينوب عنه فى الدفاع عن المسيحية وأمده القيصر بالسفن ، وعلى كل فقد قامت حملة اشترك فيها قيصر بالسفن وحليفه النجاشى بالرجال ، بقيادة أرياط ، وقد استطاع هذا الجيش أن ينتصر على الحميريين ، ورأى ذونواس هزيمته ، فاقتحم البحر بفرسه فغرق ، وأصبحت اليمن تابعة للحبشة ،

= فى أثناء رحلات قام بها هؤلاء الملوك شمال . (انظر كتاب الأصنام لابن الكلبى ص ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ٥٨) .

(١) انظر سورة البروج ١ — ٧ وانظر الطبرى ج ١ ص ٥٤٤ .

ويعترض بعض الباحثين على سير القصة على هذا النحو لأن القرآن الكريم وصف المعتدى عليهم بالإيمان بالله ، قال تعالى « وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (سورة البروج الآيتان ٧ — ٨) . وهذا يفيد أن المعتدى ليس مؤمناً بالله ، وبالتالى ينفى أن ذا نواس كان يهودياً ويحتم وثنيته . أو ينفى ارتباط القصة بذى نواس أصلا ويربطها بملك وثنى لم تحدده المراجع التاريخية . انظر « الحياة العربية من الشعر الجاهلى للدكتور أحمد الحوفى ص ١٥١ - ١٥٣ » .

وربما جاز لنا أن نبقى القصة كما ذكرناها على أن يكون تصرف ذى نواس هو من اتجاهات التعصب التى عرفت عن اليهود فى كثير من الأزمنة والأمكنة : وعلى هذا يكون القرآن الكريم يعيب على ذى نواس عدوانه على المؤمنين التابعين لغير الدين الذى يعتنقه .

وأرسل أرياط إلى النجاشى السبايا والغنائم(١) .

ولم يخلص الأمر طويلا لأرياط فقد تمرد عليه أبرهة أحد مساعديه ، ثم تبارز أرياط وأبرهة ولكن أرياط سقط فى المبارزة بغدرة دبّرها له أبرهة بأن أكمن عبداً له ضربه من الخلف ضربة قتلته وخلص بذلك الأمر لأبرهة(٢) . وعند ما كان عبد المطلب بن هاشم سادن الكعبة كان أبرهة صاحب النفوذ فى اليمن ، وبعد أبرهة حكم ولداه يكسوم ثم مسروق وفى عهد مسروق غلب الفرس على اليمن وأخرج الأحباش منها ، وقد دامت مدة الأحباش باليمن اثنتين وسبعين سنة(٣) ، أما انتصار الفرس على الأحباش فحديثه فيما يلى :

كانت فارس تنقم على الأحباش والروم استعمار اليمن : وحانت الفرصة لتدخل فارس ، فإن أحد أولاد ملوك حمير واسمه سيف بن ذى يزن فر إلى الفرس يطلب النجدة والعون لإخراج الأحباش من بلاده ، واستجابت فارس وأرسلت جيشاً إلى اليمن بقيادة وهرز ، وانتصر وهرز هذا وتعاون هو وسيف فى القضاء على الأحباش ، ولما تم انتصار الفرس أمر كسرى أن يتوج سيف بن ذى يزن ملكاً على اليمن (٤) وأن يعود وهرز إلى فارس ؛

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ٥٤٨ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ٥٥٨

(٣) يختلف المؤرخون فى ذكر تاريخ استعمار الحبشة لليمن وفى المدة التى قضاها الأحباش هناك ، فبينما يذكر الطبرى أن الاستعمار بدأ سنة ٥٢٥ واستمر ٧٢ سنة يذكر بروكلمان (دون أن يثبت مصدراً) أن الاستعمار بدأ سنة ٥٣٠ واستمر ٤٠ سنة ، ورواية الطبرى أوضح لأن مولد الرسول حصل فى عام الفيل فى أثناء حكم أبرهة سنة ٥٧١ وإن كان بروكلمان ينكر ذلك (انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ١ : ١٤ - ٣٤)

(٤) وقيل إن الذى توج هو معد يكرب بن سيف لأن الأخير كان قد مات قبل زحف الجيش الفارسى . والذى فى العقد الفريد يؤيد أن الذى توج هو سيف بن ذى يزن نفسه وأن أشراف العرب وفيهم عبد المطلب ذهبوا لتهنئته (انظر الجزء الثانى ص ٢٣ وما بعدها)

ولكن هـذا الملك قتل بعد قليل : يقال قتله من استبقاهم عبيداً له من الأحباش ويقال إنه قتل بتدبير الفرس ، وبعد قتله أرسل كسرى وهرز ليكون حاكماً لليمن تابعاً للفرس ، وبعد وهرز حكم أبناؤه وأحفاده : المرزبان بن وهرز ثم البينجان بن المرزبان ثم خر خسره بن البينجان ، ثم غضب كسرى على هذا فعزله وعين باذان على اليمن ، وعند بعثة محمد صلوات الله عليه كان باذان حاكماً لصنعاء من قبل فارس (١) . وكان بجواره باليمن وحضرموت أقيال وملوك من العرب ، وقد دخل باذان فى الإسلام عندما دعى إليه . كما ذكرنا فى الجزء السابع من هذه الموسوعة .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ١ ص ٥٦٥

(ب) ممالك الشمال

١ — الأنباط :

الأنباط أو النبطيون قبائل بدوية نزحت من الأرض المعروفة اليوم بأرض « شرق الأردن » ونزلت جنوب سوريا وكونت لها مملكة امتدت من غزة شمالا حتى العقبة جنوباً ، وعلى هــذا اتخذت هذه المملكة مكاناً مهما فى طريق التجارة بين الشمال والجنوب ، وكانت لهم إتاوة على التجارة الصاعدة والهابطة .

وعاصمة الأنباط مدينة « البتراء » أو « بطرة » وهى مدينة شهيرة فى بلاد العرب حتى اليوم ، تمتاز بأنقاضها الضخمة وبخاصة أنقاض المعبد الذى كان به الآلهة التى عبدها سكان الأنباط ، ولا تزال أعمدته الشاهقة شاهد صدق على ما وصلت له البتراء من حضارة ورقى .

وقد بدأت دولة الأنباط فى حوالى القرن الرابع ق . م ولكنها بلغت غاية مجدها فى القرن الأول الميلادى حيث امتدت إلى دمشق التى أصبح حاكمها والياً تابعاً لملك الأنباط ، وهذا الوالى هو الذى حاول القبض على بولس الرسول يقول بولس ، « فى دمشق والى الحارث الملك الذى يحرس مدينة الدمشقيين يريد أن يمسكنى ، فتدليت من طاقة فى زنبيل من السور ونجوت من يديه (١)

وامتدت الأنباط فى نفس القرن جنوباً حتى مدائن صالح (الحجر) فى شمال الحجاز (٢) .

---

(١) رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس « الإصحاح الحادى عشر : ٣٢ - ٣٣ .
(٢) أنظر فيليب حتى : تاريخ العرب ١ : ٩٠ .

ومن أشهر ملوك الأنباط الحارث الثالث (٨٥ — ٦٠ ق . م) ويسميه اليونان Arethas وعبيدة الثانى (٢٨ — ٩ ق . م) ويسميه اليونان Obudas والحارث الرابع (٩ ق . م — ٤٠ م) وهو عصر المسيح وفيه امتدت الأنباط إلى دمشق كما سبق القول .

ومن أهم العوامل التى أضعفت من شأن البتراء ومن شأن مملكة الأنباط اتجاه أهل الملاحة من الرومان إلى السفر بحراً إلى الهند ، وتحول خط القوافل بين الشرق والغرب إلى منطقة شمالية ؛ وهذا التحول الذى أضعف من شأن البتراء رفع شأن تدمر المدينة التى كانت عاصمة مملكة تدمر وهى فى الشمال بالنسبة لمدينة دمشق (١) ولما ضعفت مملكة الأنباط أذن ذلك برقى شأن تدمر .

هذا من الناحية الاقتصادية ، أما من الناحية السياسية فإن أباطرة الرومان خافوا من التوسع الذى وصلت له الأنباط ، وخافوا من أن تصبح هذه المملكة منافساً لهم ، ولذلك لم يقنعوا بالتحالف الذى كان معقوداً بينهم وبين ملوك الأنباط وهاجمهم الإمبراطور تراجان « Trajanus » ودمر عاصمتهم سنة ١٠٥ وضم بلادهم لإمبراطوريته ، وأصبحت مملكة الأنباط مقاطعة فى الإمبراطورية الرومانية . ولذلك كان يطلق عليها « المقاطعة العربية » وكان ذلك فى العام التالى لتهديم البتراء .

٣ — تدمر :

وتدمر هى باليونانية (بالميرا) وهى عريقة فى القدم ، ولا يعرف بالضبط تاريخ هجرة العرب إليها ، ويبدو أن ذلك كان فى وقت مبكر جداً ، وقد ورد لها ذكر قبل الميلاد بأكثر من ألف عام ولكن شهرتها ترجع إلى

---

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ٦٦ .

المجد الذى حققته فى القرنين الثانى والثالث بعد المسيح فقد استطاعت مملكة تدمر أن تقف فى الغالب موقف الحياد بين جارتيها القويتين : الفرثيين (الإيرانيين) والرومان ، وقد انتفعت بهذا الحياد انتفاعاً كبيراً ، ونالت عون الدولتين ، ثم كان لموقعها الجغرافى وما بها من مياه معدنية ما صبب لها الرخاء والمجد .

وعلى الرغم من محاولة الحياد فقد تورطت تدمر فى صراع مع الفرس حيناً ومع الروم حيناً .

وتدل بعض النصوص الأثرية على أن تدمر ارتبطت سياسياً بالرومان منذ القرن الميلادى الأول ، ولكنها لم تفقد لستقلالها الداخلى ، وظلت تدير شئونها بنفسها ، وبحكم هذا الارتباط بالرومان خاضت تدمر حروباً مدمرة ضد الفرس كتب لتدمر النصر المؤزر فيها ، وردت شابور الأول إلى عاصمته بعد أن كان قد استولى على جزء كبير من أرض الشام ، وكان ملك تدمر آنذاك أذينه (٢٩٥ م) وقد منحه إمبراطور الرومان لقب « إمبراطور الشرق » اعترافا له بخدماته ونجاحه . وبسط أذينة سلطانه على سوريا كلها ، وبعد أذينة تولت الحكم زوجته زنوبيا (وتسمى أيضا زينب والزباء) وصية على ابنها القاصر ، ولكن زنوبيا تحدت الرومان وصارعتهم بيد أنها انهزمت فى نهاية الصراع ، ودخل الإمبراطور أورليانوس مدينة تدمر ودمرها وأسر الملكة العربية البطلة ، ولكن الأقاصيص سارت ببطولتها عبر البوادى والحواضر (١) .

وكانت هزيمة الزباء نتيجة لحيلة دبرها الإمبراطور أورليانوس فقد تظاهر بالانكسار فى إحدى المعارك وتراجع ، وأمر جنوده بنصب كمين لها وراء تلال أنطاكية وبساتينها ، وظن جيش تدمر أن الرومان قد هزمو

---

(١) انظر بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ١ : ٢٢ .

فعلا ، فاندفعوا إلى الأمام ، ووقعوا فى الكمين ونزلت بهم خسارة فادحة ، وتراجعت الزباء بمن نجـا من جيشها إلى تدمر ، ولحق بهم أورليانوس حيث حاصر المدينة مدة طويلة حتى ضعفت المقاومة ، وأدركت الزباء أن الأمل قليل فى الانتصار وفك الحصار ، وعز عليها أن تستسلم فامتطت هجينا وانطلقت به تجاه بلاد فارس ولكن جنود الرومان أدركوها وهى تعبر الفرات ، فقبضوا عليها وأعادوها أسيرة ، وشق على الملكة أن ترى نفسها فى الأسر وأن ترى دولتها تنهار ، فأعلنت الصوم عن الطعام إلى أن فاضت روحها (١) .

وكانت مدنية تدمر مزيجاً من اليونانية والسورية والفرثية، وهذه المدنية تبين ذرى الثقافة التى يستطيع العرب من أهل البادية أن يبلغوها إذا ما تسنت لهم المهيئات . . . ومن ينعم النظر فى أطلال تدمر الباقية يفقه سر تلك المدنية الزاهرة، ويتبين أن بناء المدينة جاء وفقاً لتصاميم وضعها لها جماعة حذاق مهرة فى هندسة البناء . وقد حملت إليها حجارة ضخمة من الجرانيت من شلال النيل الأول بمصر، وكان يحف بشارع المدينة الرئيسى نحو ٨٥٠ عموداً كورنثياً من الحجر الكلسى الأبيض الوردى ، وارتفاع كل منها نحو ٥٥ قدماً ، وكان أول الشارع العظيم قريبا من قوس النصر الذى رفعوه إلى جانب هيكل معبودهم الأكبر « شمس » ولا يزال هيكل الشمس وبعض الأعمدة قائمة حتى الآن (٢).

٣ — الحيرة وغسان :

كانت مملكة الفرس من جهة ومملكة الروم من جهة أخرى معرضتين لهجمات بعض القبائل البدوية التى كانت تعيش شمالى الجزيرة ، وكانت هجمات هذه القبائل سريعة ، يختطفون خلالها ما يستطيعون الحصول عليه،

---

(١) انظر كتاب (الإسلام : انطلاق لاجمود) للدكتور مصطفى الرافعى ص ١٤٦ .

(٢) فيليب حتى: تاريخ العرب ١ : ١٠٠ - ١٠١

ثم يفرون عائدين فيتوغلون فى قلب الجزيرة حيث لا تستطيع جيوش الروم ولاجيوش الفرس أن تتبعهم خوفاً من وعورة الطريق وقلة المياه .

ولهذا عمد الفرس كما عمد الروم إلى أن يقيموا حاجزاً بينهم وبين العرب ، وكان ذلك الحاجز عبارة عن بعض القبائل العربية ، تألَّفها الفرس والروم وأسكنوها فى شمال الجزيرة ، وأمدَّ الفرس والروم هذه القبائل بعون من السلاح والمال ، وكانت هــذه القبائل تعرف مسالك الجزيرة وتستطيع الوقوف فى وجه هجمات العرب ، وبهذا تكونت مملكةٌ بالحيرة تحمى الفرس ويحميها الفرس ، وتكونت مملكة بغسان تحمى الروم ويحميها الروم ، وكانت المقدرة على رد هجمات العرب من أبرز الصفات التى يلزم أن تتوفــر فيمن تسند له السيادة فى كل من الحــيرة وغســان . يروى أن كسرى عند ما أراد أن يسند ملك الحيرة إلى النعمان بن المنذر سأله : أتكفينى العرب ؟ فأجاب النعمان : نعم . قال كسرى : كلها ؟ فأجاب النعمان : نعم كلها . فاستطرد كسرى قائلا : كيف بإخوتك ؟ فأجاب النعمان : إن عجزت عنهم فأنا عن غيرهم أعجز ، فملَّكه كسرى وخلع عليه(١) .

وهناك سبب آخر استدعى قيام مملكتى الحيرة وغسان ، وهو أن الروم أرادوا أن يستعينوا بالعرب فى حروبهم ضد الفرس ، فلجأ الفرس إلى نفس الحيلة ، وقربوا بعض القبائل العربية إليهم واستعملوهم على حدودهم ليقف العرب فى وجه العرب وليكونوا عوناً لحلفائهم ضد أعدائهم ، وسنعطى مزيدا من التفصيل عن كل من هاتين المملكتين فيما يلى.

مملكة الحيرة :

لتكوين مملكة الحيرة ظروف خاصة بجانب ما أوضحناه آنفاً ، وتلك

---

(١) جاد المولى وزملاؤه : أيام العرب فى الجاهلية ص ١٣

الظروف تتصل بالحالة ببلاد فارس عند قيام هذه المملكة ، وخلاصة ذلك أن الإسكندر المقدونى — عملا بنصيحة أستاذه أرسطو — قسم بلاد الفرس إلى دويلات وجعل على كل منها ملكاً له جيش ووزراء ليضمن الإسكندر بذلك تفريق الكلمة وضعف القوة ، وكان للإسكندر ما أراد ، ويسمى هذا العهد عهد ملوك الطوائف ، وقد استمر من سنة ٣٣٢ ق . م إلى سنة ٢٣٠ م .

وخلال هذا العهد حدثت هجرة عرب الجنوب بسبب سيل العرم ، وقد استطاعوا بسبب ضعف ملوك الطوائف أن يكوّنوا لهم ملكا فى منطقة الحيرة لم يكن قوياً ولكنه لم يكن أضعف من ممالك الطوائف .

ثم ظهر سنة ٢٣٠ أردشير بن بابك واستطاع أن يعيد للبلاد وحدتها وأن يخضع هذه الممالك لسلطانه ويزيل هؤلاء الملوك ويكوّن الدولة الساسانية ، ولم يجد أردشير بداً من إخضاع مملكة الحيرة كما أخضع سواها من ممالك الطوائف ، ولكن للاعتبارات الخاصة بالعرب التى سبق إيرادها أبقى على مملكة الحيرة واكتفى بخضوع ملوكها إليه ، وبأن يتولى هو عند اللزوم تعيين هؤلاء الملوك ، ومن أشهر ملوك الحيرة عمرو بن عدى ، والمنذر بن ماء السماء ، والنعمان بن المنذر ، وقد غضب كسرى على النعمان هذا لأنه أنف أن يزوج بناته وأخواته من كسرى وأولاده ، فتوعده كسرى وطلبه ، ولكن النعمان هرب ثم سلم نفسه فألقاه كسرى فى السجن حتى مات[١] ، وبعد النعمان عين كسرى إياس بن قبيصة على الحيرة ، ولم يفرده بالحكم وإنما أشرك معه رجلا فارسيا اسمه « النخيرجان » وفى هذا العهد قدم خالد بن الوليد إلى الحيرة يقود جيش المسلمين ، فصالحه إياس على الجزية وكان ذلك سنة ١٢ هـ[٢] ، ثم دخل الناس بعد ذلك فى الإسلام .

---

(١) اقرأ القصة كاملة فى « أيام العرب فى الجاهلية » لجاد المولى وزميليه ص ٦ — ٣٩ .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٥٥١ - ٥٥٢ .

مملكة غسان :

هناك تشابه بين قيام مملكة الحيرة ومملكة غسان من عدة وجوه ، فبينما كانت فارس تمر بفترة ضعف فى عهد ملوك الطوائف كانت الروم تجتاز أيضاً فترة اضطراب تسمى عهد الفوضى العسكرية [١] ، والفوضى هنا وهناك كانت أثراً لزحف الإسكندر المقدونى السريع الذى لم يعقبه استقرار ، وفى القرن الثالث الميلادى عاد الاستقرار إلى فارس كما رأينا وفى نفس هذا القرن (سنة ٢٨٦ م) انتهى عهد الفوضى العسكرية بالروم ، وعندما هاجرت قبائل من اليمن واستقرت بالحيرة هاجرت قبائل أخرى من اليمن واستقرت ببادية الشام ، وكما اتخذ الفرس عرب الحيرة درعاً يتقون بهم هجمات البدو ويقوون بهم ضد الروم ومعاونيهم من العرب ، اتخذ الروم عرب الشام لنفس الأغراض كما سبق القول .

ولعل أول القبائل التى حظيت بهذه المكانة فى بادية الشام هى قبيلة الضجاعمة ، وقد مكثت هذه القبيلة مدة طويلة تلى أمر العرب فى هذه البقاع وولى الرومان عليهم ملكاً منهم ، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة [٢] .

وقبل نهاية الضجاعمة كانت قبيلة بنى جفنة قد نزلت ببادية الشام حول بئر ماء اسمه « غسان [٣] » وقد عرف بنو جفنة لذلك بالغساسنة ، ولما أدرك الغساسنة ضعف الضجاعمة استولوا على السلطة فى بادية الشام وأقرهم الرومان على ذلك واختاروا منهم ملك العرب ، واتسع ملكهم وكانت « جلق » عاصمة لهم وهى التى تسمى « دمشق » الآن . ومن أشهر ملوكهم الحارث

---

(١) Wells . A Short History of the world ص ١٥٢ من الترجمة العربية.

(٢) الخضرى : تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ٣٤

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٦ ص ٢٩٢

ابن جبلة والمنذر بن الحارث وجبلة بن الأيهم ، وهو آخر ملوك الغساسنة ، وفى عهده دخل المسلمون بلاد الشام ، ويقال إن جبلة دخل الإسلام ثم ارتد بعد ذلك و هرب إلى الروم فى حادثة مشهورة فى عهد عمر بن الخطاب .

الأهمية الحضارية للمناذرة والغساسنة .

كان ملوك الحيرة وغسان بوصفهم من سلالة يمنية يحتفظون فى مظاهرهم وحضارتهم بعناصر يمنية ، وأبرز مثال لذلك القصران العظيمان اللذان بناهما ملوك الحيرة محاكين بهما قصور اليمن ، وهذان القصران هما « الخورنق والسدير » ، على أن أهم دور قامت به هاتان المملكتان هو أنهما كانتا جسراً عبرت عليه ألوان من حضارة الفرس والروم إلى الجزيرة العربية ، وأهم هذه الألوان الحضارية هى الأديان ، وضروب من المعارف العامة ، والقراءة والكتابة ، والفنون الحربية وغيرها .

(ج) الحجاز

أخرنا كلامنا عن الحجاز لنصل حديثنا عنه بالحديث عن التاريخ الإسلامى ، ثم لنعطيه مزيداً من التفصيل لمكانته فى ذلك التاريخ .

والحجاز هو الموطن الأول للدعوة الإسلامية ، فيه ولد الرسول ، وعلى أرضه خطا ، وهو منزل الوحى ، ومشرق النور ، نقل الإسلام الحجاز من مكان مغمور إلى مركز حضارة غمرت الكون ، ومن الحجاز انطلقت صيحة الإصلاح ودعوة الإسلام ، ولا تزال تحث السير فى الآفاق توقظ الهاجع وتهدى النضال ، تنقذ الملايين من عبادة الأحجار وعبادة الأشخاص وعبادة الأشجار ، وتردلهم الهدى وتوجههم إلى عبادة الله الخالصة وإلى التوحيد المطلق الصافى ، وتمدهم فى شئون دنياهم ودينهم بما يكفل

لهم السعادة ويزيل عنهم غبار الجاهلية التى غطت الفكر العالمى أو وجهته وجهة خاطئة على مر السنين .

وقد نقل الإسلام الحجاز من مكان عربى إلى مكان إسلامى أو قل عالمى ، وجدير بالحجاز الذى نبت فيه محمد أن يصير كذلك ؛ فالنور الذى جاء به محمد لا يعرف وطناً ولا حدوداً ، إنه نور انتفعت به بقاع كثيرة من العالم ولا تزال تنتفع ، بل ربما جاز لنا أن نقول إن قسط الحجاز نفسه فى الانتفاع بمدنيّة الإسلام لا يرتفع إلى قسط سواه ، وذلك يرجع طبعاً إلى عوامل دخيلة ستتضح فى دراستنا عن التاريخ الإسلامى .

والحجاز من الحواضر كما قلنا فيما سبق ، ولكنه يمتاز على غيره من الحواضر بأنه حافظ على استقلاله ، فإذا كانت جيوش الأحباش والفرس قد وطئت اليمن ، وإذا كان نفوذ الفرس والروم قد امتد إلى الحيرة وغسان ، فإن نفوذاً أجنبياً لم يستطع أن يتعمق فى قلب الجزيرة أو يصل إلى الحجاز ، ولعل ذلك يرجع لموقع الحجاز فى الجزيرة ، ولحرص العرب جميعاً على استقلال هذا المكان المقدس ، ثم لأن الحجاز لم يكن بلداً غنياً يُطمع فيه المحتلين الأجانب ، ولعل المحاولة الوحيدة لإخضاع الحجاز للاستعمار كانت تلك التى قام بها عثمان بن الحويرث ، فلقد تنصر عثمان هذا واتصل بقيصر ، وأراد أن يلحق مكة بالروم وأن يكون ملكاً عليها تابعاً لقيصر كملوك الغساسنة ، ولكن أهل مكة ثاروا عليه ففر من وجههم وحاول أن يؤلب عليهم القيصر وأتباعه من الغساسنة ولكن أهل مكة احتالوا عليه حتى أطعموه طعاماً مسموماً مات به .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن تاريخ الحجاز حفظه لنا اتصاله بالأديان وبالكتب المقدسة ، وسنعتمد — مع كتب التاريخ — على بعض اقتباسات من القرآن والحديث لنتتبع نشأة الحياة فى الحجاز .

مكة : المدينة المقدسة :

هناك قصة رواها البخارى عن بئر زمزم نوجزها فيما يلى :

جاء إبراهيم بابنه اسماعيل وهو طفل رضيع مع أمه هاجر . ووضعهما بالقرب من مكان بئر زمزم الحالى ، وترك لهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم اتجه إبراهيم عائداً ، فنادته أم إسماعيل : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى ؟ فلم يلتفت لها إبراهيم . فسألته آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لن يضيّعنا . وبعد أيام نفد الطعام والماء، وجفّ تبعاً لهذا لبن أم إسماعيل ، وجعل إسماعيل يبكى ، وأخذت أمه تتردد مهرولة بين جبلى الصفا والمروة لعلها تجد من يساعدها ويمدها بالطعام والشراب ، وكان ترددها بين الصفا والمروة سبع مرات . ولذلك يسعى الحجاج بينهما سبع مرات . ولما أتمت السابعة ظهر لها ملك فى صورة طائر نقر الأرض فانبثق منها الماء . وفى رواية أخرى أن الماء انبثق عند رجل إسماعيل التى كان يدق بها الأرض وهو يصيح .

تلك هى بئر زمزم وقد فاض ماؤها على هذه الصورة تبعاً لما ترويه الروايات المقدسة ، وقد جعلت هاجر تقيم حوضا حول الماء المنبثق حتى لا يسيل .وكانت هذه البئر تسمى « بئر إسماعيل » ثم سميت بئر زمزم لأن هاجر كانت تحفظ الماء من الضياع بإقامة حائط ترابى حوله (١)

هل كانت بئر زمزم أساساً للعمران فى هذه المنطقة ؟ لابد أن يكون الجواب بالإيجاب ، فالماء فى الصحراء هو الحياة ، وعند ما يوجد الماء تدب الحياة فيما حول الماء ، على أن الماء فى هذه المرة لم يكن ماء فحسب ، وإنما شاعت هذه الصورة التى انبثق بها هذا الماء ، وعرف البدو قصة البئر الجديدة والظروف التى نبع فيها ماء تلك البئر ، والطفل الذى نبع الماء عند مضرب قدمه . وأمثال هذه الأشياء عميقة التأثير وبخاصة فى عهد يعتبر عهد طفولة البشرية ؛ وكل ذلك ساعد على عمران هذه المنطقة .

---

(١) فى المنجد : زمزمه رد أطرافه وحفظه .

وغير بعيد من هذه البئر كان هناك مكان فيه عمران قليل وكان هذا المكان يسمى مكة ، ووقوعه فى منتصف الطريق تقريباً بين جنوب الجزيرة وشمالها جعله مكاناً مناسباً لاستراحة القوافل ، كما كان البدو يحطون به رحالهم فترة قصيرة أو طويلة فى أثناء تجوالهم بالجزيرة ، وكان انبثاق بئر زمزم خيراً وبركة على مكة ، فاتسع عمرانها وامتد حتى اتصل العمران بالبئر أو كاد ، كما كثر زوارها الذين يفدون للتبرك بماء زمزم ولرؤية إسماعيل الذى انبثق الماء تكريماً له .

وجاء إبراهيم بعد حين ليزور ابنه إسماعيل ، ورأى إبراهيم المكانة التى حظى بها ابنه بين سكان مكة ، كما رأى كثرة الزائرين الذين يفدون من كل الجهات لرؤية إسماعيل وللتبرك بماء زمزم ، فبنى إبراهيم وابنه الكعبة المشرفة « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم »[1] .

والكعبة المشرفة هى بيت الله أو البيت العتيق ، وهى بناء مربع تقريباً ، بنى فى أوسع نقطة من الوادى ، ويبلغ ارتفاعه خمسة عشر متراً ، وطول جداره الشمالى والجنوبى عشرة أمتار تقريباً وطول جداره الشرقى والغربى اثنا عشر متراً تقريباً ، وفى الجدار الشرقى يقع باب الكعبة ، وهو يرتفع عن الأرض بحوالى مترين ونصف متر .

ويروى الطبرى[2] خبراً يتصل بباب الكعبة وبئر زمزم فيقول : إن قبيلة جرهم (وسيأتى الحديث عنها) عندما أخرجت من مكة وضعت ببئر زمزم غزالين من ذهب كانا بالكعبة ووضعت كذلك أسيافاً ودروعاً

---

(١) سورة البقرة ١٢٧ — ١٢٨

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٢

من الصلب وأهالت عليها التراب فردمت البئر ، وكانت جرهم تأمل أن تعود الى مكة فتستخرج هذه الكنوز وتعيد حفر البئر ، ولكنها لم تعد ، وظل الحال على ذلك حتى عهد عبد المطلب ، فأعاد حفر البئر ، فوجد هذه الكنوز من الصلب والذهب فضرب الأسياف باباً للكعبة وجعل من الغزالين صفائح ذهبية غطى بها هذا الباب ، وفى الركن الجنوبى الشرقى للكعبة من الخارج يقع الحجر الأسود ، وهو مبدأ الطواف ، ويرتفع عن الأرض بمقدار متر ونصف متر تقريباً :

ولما أتم ابراهيم بناء الكعبة هتف مناجياً ربه « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات » (١) . فاستجاب الله لدعائه ووجّهه لتحقيق ذلك بقوله : « وأذّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » (٢) فأذن إبراهيم بالحج واستجاب له الناس ومنذ ذلك الحين والناس يفدون حاجّين ملبين من مختلف البلاد ومختلف النواحى .

وكانت الشعائر الدينية فى أول الأمر تؤدى فى الكعبة ، ثم ضاق هذا البناء الصغير بزواره والحاجين إليه ، ولذلك اصطلح العرب منذ عهود طويلة على اتخاذ جزء من الأرض حول الكعبة ليكون مكاناً للشعائر الدينية ، وقدسوا هذا الجزء وسموه حرماً ، ولما جاء الإسلام وفرضت الصلاة كانت الصلاة تؤدى فى هذا الجزء ، ولذلك سمى المسجد الحرام ، وقد ظل ذلك الجزء من الأرض فراغاً لا يحيط به سور حتى عهد عمر بن الخطاب وكانت تحيط به دور من أكثر جهاته (٣) .

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٧

(٢) سورة الحج الآية ٢٧

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٧١

وفى عهد عمر أصبح واضحاً أن هذا المكان لم يعد يتسع لوفود الحجاج التى تأتى من كل حدب وصوب من العالم الإسلامى ، فرأى عمر ضرورة توسيعه كما رأى ضرورة فصله عن هذه الدور بإقامة جدار يحيط به فاشترى عمر دوراً وهدمها وزادها فيه ، واتخذ للمسجد جداراً دون القامة [١] .

وابتاع عثمان منازل أخرى وأدخلها فى المسجد واتخذ له الأروقة .

ولما احترقت الكعبة فى عهد عبد الله بن الزبير هدمها هـذا وأعاد بناءها وأدخل فيها حِجر إسماعيل [٢] .

ولما انتصر الحجاج على ابن الزبير بعد أن استعمل المنجنيق الذى زلزل جدران الكعبة والمسجد الحرام أمره عبد الملك أن يعيد بناء الكعبة والمسجد الحرام ، ففعل الحجاج ولكنه رد الكعبة إلى أصلها قبل أن يبنيها ابن الزبير فأخرج الحِجر منها [٣] .

وعنى الخلفاء والملوك والسلاطين بالكعبة والمسجد الحرام ، فى جميع العصور حتى العهد الحاضر وكانت مصر منذ عهد شجرة الدر تقدم كسوتها كل عام ، وفى عهد جمال عبدالناصر حصل خلاف بينه وبين المملكة السعودية كان من نتائجه أن اضطلعت المملكة العربية السعودية بإعداد هذه الكسوة . ويهتمّ ملوك المسلمين ورؤساؤهم جميعاً بتعمير البيت الحرام وتحسينه [٤] .

حكومة مكة :

لم تكن مكة منذ هتف إبراهيم بالحج واستجاب له الناس مِلْكا للمكيين ، وإنما كانت مكاناً مقدساً لدى العرب جميعاً ، ومن هنا نجد السلطة فى مكة متصلة بالسلطات فى نواحى الجزيرة العربية كلها ، أو بعبارة أخرى نجد العرب جميعاً يتفقون على شىء يهىء لهم فريضة الحج فى أمن ويسر ، فاتفقت

---

(١) المرجع السابق فى نفس الصفحة .
(٢) الأزرقى ، أخبار مكة ص ١٤٣ .
(٣) البلاذرى ص ٥٩ — ٦٠ .
(٤) انظر الحديث عن مدى الاهتمام بالبيت الحرام فى الجزء السابع من هذه الموسوعة .

كلمة العرب على تحريم القتال فى الأشهر الحرم وهى الشهور التى يفد فيها العرب إلى مكة حاجين أو معتمرين ، أو يقفلون منها إلى بلادهم ، وهذه الشهور هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم للحج ، وشهر رجب للعمرة ، ويروى الطبرى [1] أن قصى بن كلاب عندما أراد أن يعود من الشام ليلحق بأعمامه وأسرته بمكة قالت له أمه : يا بنى لاتعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام فتخرج فى حاج العرب فإنى أخشى عليك أن يصيبك بعض الناس . فأقام قصى حتى إذا دخل الشهر الحرام خرج حاج قضاعة فخرج معهم ...

وبجانب الأشهر الحرم اتفق العرب على تحريم القتال عند حرم مكة دائماً ، وقرروا أن من دخل الحرم كان آمناً ، ومن هنا كانت الأسواق الأدبية والتجارية تقام حول الحرم دون أن يمس المشتركين فيها سوء ، إذ كان ذلك باتفاق الجميع لمصلحة الجميع ، ولما وقعت الحرب بين قريش وكنانة وبين قيس على حدود الحرم سميت حرب الفجار لأنها مست حرمة البيت ، ولذلك عقدت قريش بعد الصلح حلف الفضول الذى تحالف فيه بنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى تُرَدَّ عنه مظلمته ، وقد تم هذا الصلح فى دار عبد الله بن جدعان وحضره الرسول وكانت سنه حوالى عشرين سنة . وعنه يقول . . « لقد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت لمثله فى الإسلام لأجبت » . ويعتبر هذا الحلف استرداداً لمكانة الحرم ، تلك المكانة التى كانت قد أصيبت بضربة فى حرب الفجار .

وتحريم القتال فى الأشهر الحرم وفى مكة نظام قديم لعله يرجع إلى العهود الأولى لتشريع الحج :

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٥ .

تلك كانت الصلة بين السلطة فى مكة وبين السلطات المختلفة بالجزيرة العربية ونعود بعدها للحديث عن السلطة فى مكة وفى يد من كانت .

لقد عرفت مكة أول ما عرفت قبائل من العماليق ، ولم تكن لمكة فى ذلك الحين مكانتها المقدسة فإن ذلك كان قبل عهد إسماعيل ، ونزح إلى مكة أيضا قبائل من جرهم ، وسكنوا مع العماليق فيها ، ثم غلبوهم عليها وأخرجوهم منها وخلص لجرهم الأمر فى مكه ، وفى هذه الأثناء وفدت هاجر ومعها إسماعيل ، ولما شب إسماعيل اتصل بجرهم وتزوج منهم ، وبنى البيت هو وأبوه كما مر ذكره ، وتكونت حكومة مكة لحماية الحجيج والسهر على مصلحتهم ، ويبدو أنه كان للجراهمة أمور السياسة وتفرغ إسماعيل لخدمة البيت وأمور الدين ، وكان ذلك شبه أساس للوظائف التى ظهرت واضحة فيما بعد وهى السقاية والرفادة واللواء وكانت لقادة جرهم ، أما الحجابة فكانت لإسماعيل .

وبعد إسماعيل زاد ثراء جرهم فانغمسوا فى الملاذ ونسوا واجباتهم الدينية ، وأهملوا السهر على بئر زمزم وعلى البيت الحرام حتى نضب ماء البئر ، ففكرت خزاعة — وكانت قد حلت بمكة — أن تستولى على السلطة من جرهم ، ولما يئس مضاض بن عمرو الجرهمى من إيقاظ قومه ألقى ببئر زمزم سيوفاً ودروعا من الصلب وغزالتين من الذهب كانتا بالكعبة وأهال التراب عليها كما سبق القول ، وخرج هو وقومه آملا أن يعود لمكة يوما ليستخرج هذه الذخائر ، وكان خروجه حوالى سنة ٢٠٧ ق . م ومنذ ذلك التاريخ استولت خزاعة على مكة وخلصت لها وظائف الكعبة كلها ما كان منها متصلا بالرياسة السياسية أو الرياسة الدينية[١] . وظلت الحال

---

(١) انظر كتاب الأصنام لابن الكلبى ص ٨ .

كذلك حتى سنة ٤٤٠ م حين انتقلت السلطات إلى قريش التى كانت قد نزحت إلى مكة قبل ذلك فأصبحت أمور الكعبة كلها فى يد قصى بن كلاب الجد الرابع للرسول ، وانتقلت السلطة من قصىّ إلى أولاده على ما سيأتى تفصيله فيا بعد .

وكانت أم قصى قد انتقلت به وهو طفل بعد موت أبيه كلاب من مكة إلى الشام لتعيش مع زوجها الجديد ربيعة بن حرام ، فشب قصى بالشام لا يعرف له أبا غير ربيعة حتى نما ، ثم عيّره بعض بنى ربيعة بأنه ليس منهم ، فسأل أمه ، فقالت له: إنك يا بنى أكرم منهم نسبا وأنت ابن كلاب ابن مرة وأهلك بمكة ، فرحل لهم كما سبق القول ، وهناك تزوج فتاة من خزاعة كان لأبيها السلطان على الكعبة ، وقدمهد له هذا الزواج أن يستولى على السلطان بعد موت هذا الأب ، والتف حوله قومه لما رأوا فيه من مروءة وشهامة ونصروه على خزاعة فخلص له الأمر .

وقصىّ هذا هو الذى بنى دار الندوة ليجتمع فيها أهل مكة للتشاور فيا يهمهم تحت إشرافه ، وهو الذى رتب وظائف الكعبة وحدد مدلولاتها وهذه الوظائف هى .

السقاية : كان الماء عزيزاً بمكة بعد ردم بئر زمزم (أعاد عبد المطلب حفرها فيا بعد كما قلنا آنفا) فكان من يلى أمر السقاية يحضر الماء من آبار بعيدة ويضعه فى حياض ويحلّيه بشىء من التمـر والزبيب ليشرب منه الحجاج .

الرفادة : وهى تقديم طعام لغير القادرين من الحجاج ، ويروى أن قصيا فرض على قريش أن يقدم كل منهم شيئا إليه ليصنع طعاما لفقراء الحجيج ، وقال قصى فى ذلك . . يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته ، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة ،

فاجعلوا لفقرائهم شرابا وطعاما أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم . ففعلوا ، فكانوا يُخرجون لذلك كل عام جزءاً من أموالهم فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاما للناس (١) !

اللواء : الدعوة إلى الحرب برفع راية فوق رمح ويتبعها قيادة الجيوش.

الحجابة .. وهى خدمة الكعبة وتولى مفاتيحها .

وبعد قصى انتقلت وظائف الكعبة إلى ابنه عبد الدار لكبر سنه مع أن عبد مناف بن قصى كان أعظم منه ذكراً وأعلى شأنا بين أنداده ، ولذلك نجد أبناء عبد مناف يريدون أن يأخذوا لأنفسهم هذه الوظائف من أبناء عبد الدار وانضمت بعض قريش إلى أبناء عبد مناف وانضم آخرون إلى أبناء عبد الدار وأوشكت أن تقع بينهم حرب طاحنة لولا نجاح بعض المساعى التى قسمت وظائف الكعبة بين هؤلاء وأولئك ، فأعطت السقاية والرفادة لأبناء عبد مناف وأعطيت الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار . وقد تولى هاشم بن عبد مناف حينذاك السقاية والرفادة وتولاها بعده أخوه المطلب ثم عبد المطلب بن هاشم ، وفى عهد عبد المطلب عز شأنه وذاع صيته وأصبح مرجع كل الأمور بمكة ، وفى عهده كذلك حاول أبرهة الحبشى هدم الكعبة على ما سنوضحه فيما يلى :

عام الفيل :

أوضحنا من قبل أن الحبشة كانت قد استولت على بلاد اليمن ، وأن الأمر آل إلى أبرهة بعد أن فتك بأرياط ، قائد النجاشى ، ولما رأى أبرهة غضب النجاشى عليه لفتكه بأرياط أراد أبرهة أن يرضى النجاشى فكتب

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١٩ .

إليه يقول : « سأبنى إليك كنيسة لم يبن مثلها أحد قط ، ولست تاركا العرب حتى أصرفهم لها عن بيتهم الذى يحجون إليه »[1] ويبدو أن أبرهة أراد أن يهدئ ثورة النجاشى ، أما اتجاهه الحقيقى فكان سياسياً أكثر منه دينياً ، فقد هاله تقديس العرب لمكة وسيرهم إليها فى إجلال وطاعة حاملين الهدايا والهبات إلى مكانها ، ولذلك عزم على أن يبنى بيتاً أعظم من الكعبة وأن يدعو الناس إلى أن يحوّلوا وجوههم ومزارهم إليه ، فبنى كنيسة سماها «القليس» زيّنها بالرخام وجيد الخشب المذهب ، وكانت مرتفعة البناء بحيث يشرف المطل منها على مدينة عدن ، واستذل أبرهة فى بنائها أهل اليمن وجشمهم أنواعاً من السخر ، ونقل إليها من قصر بلقيس الأعمدة من الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والأبنوس ، ودعا الناس إلى الحج إليها [2] فغضب العرب ، وثار رجل من بنى مالك بن كنانة وأقسم ليعبثن بهذه الكنيسة ، وقدم اليمن ودخل الكنيسة كأنه متعبد حتى إذا أظلم الليل وخلا المكان قام يعبث بأثاث الكنيسة ويلطخ جدرانها بالقاذورات . ولما علم أبرهة فى الصباح بما أصاب كنيسته من العدوان ، وعرف أن عربياً كان يبيت بها وأنه المتهم بالعبث بالبناء المقدس ، حلف ليهدمن الكعبة ، وسار فى جيش كبير من الأحباش سيّر أمامه الفيلة ، حتى حط رحاله بالقرب من مكة .

كان سيد مكة فى هذا الوقت عبد المطلب بن هاشم جد الرسول صلوات الله عليه ، وقد أخذ أبرهة إبلا يملكها عبد المطلب كانت ترعى عند مكان نزل فيه أبرهة بالقرب من مكة وأرسل إليه يطلبه ، فلما جاءه عبد المطلب قال

---

(١) ابن الكلبى : كتاب الأصنام ص ٤٦ — ٤٧

(٢) انظر كتاب الأصنام لابن الكلبى ص ٤٦ — ٤٧ ، وانظر تعليق المحقق بهامش صفحة ٤٦ ، ويضيف صاحب الروض الأنف أن هذه الكنيسة أقفرت عقب تلاشى ملك الحبشة من اليمن ، وأن بقية أنقاضها بيعت فى عهد أبى العباس السفاح بواسطة عامله على اليمن ، وعفا بذلك رسمها ودرست آثارها .

له أبرهة : إنى لم أجىء لحربكم بل جئت لأهدم هذا البيت ، فإن تعرضتم لى حاربتكم ، وإلا فلا حاجة لى فى دمائكم .

قال عبد المطلب : لا قوة لنا فى التعرض لك ، والذى أطلبه منك أن ترد على إبلى التى أخذتها .

قال أبرهة : كنت هبتك حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى شأن الإبل ؛ وتترك البيت الذى هو دينك ودين آبائك ؟ .

قال عبد المطلب : أما الإبل فهى لى ، وأما البيت فله رب يحميه .

وعرض عبد المطلب على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع دون أن يهدم البيت ، فأبى أبرهة وأصر على هدم هذا البناء . فعاد عبد المطلب وطاف بالبيت منشداً والناس يرددون :

يارب لا أرجو لهم سواكا   يا رب فامنع منهم حماكا

إن عـــدو البيت من عاداكا

واستجاب الله لهتاف عبد المطلب ، ويحكى القرآن الكريم نهاية أصحاب الفيل فى الآيات الكريمة : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟ وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول »[1] .

وكانت حادثة الفيل كبيرة الأهمية عند العرب فأخذوا يؤرخون بها أحداثهم ، وفى عام الفيل ولد محمد صلوات الله عليه .

غير مكة فى الحجاز :

بجانب مكة كانت هناك فى الحجاز مدن أخرى أهمها الطائف ويثرب

---

١) سورة الفيل .

وإذا كان البيت الحرام أكسب مكة نوعاً من الاستقرار فإن غزارة الماء وخصوبة التربة فى يثرب والطائف جعلا سكانهما يشتغلون بالزراعة وغرس الأشجار مما سبب لهم الاستقرار أيضاً ، ولقد لعبت يثرب فيما بعد أعظم دور فى تاريخ الإسلام ، ففيها وجد محمد الحماية ، ومنها انتشر الإسلام ، ولعبت الطائف كذلك دوراً هاماً ، فقد أخرجت لدولة الإسلام مجموعة كبيرة من القادة ، كالمغيرة بن شعبة ، وزياد ، والحجاج ، ومحمد بن القاسم ، وهذه المدن الثلاث هى التى استقرت على الإسلام يوم انتشرت الردة والتنبؤ وكبر الضلال عقب وفاة الرسول ، ومنها خرجت الجيوش التى أعادت الحق إلى نصابه وقهرت الباطل .

ولمكة على العموم مكانة خاصة بين مدن الحجاز ، ولذلك أطلق عليها القرآن الكريم « أم القرى » إشارة إلى ذلك ، قال تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها »(١).

اقتصاديات العرب وتجارة قريش

إن مصادر الثروة الشهيرة هى الزراعة والصناعة والمعادن والتجارة ، وقد عُرفت هذه المصادر فى الجزيرة العربية .

أما الزراعة فارتبطت بالأمطار ، والأمطار قليلة بالجزيرة ، ويحدث جفاف قاتل أحياناً ، ولكنها أحياناً تهطل بغزارة شديدة حتى تهدد الكعبة المشرفة كما حدث سنة ١٩٦٩ ، وكما حدث قبل ذلك عدة مرات ، والأمطار تخلف فيضا من المراعى ، ويزرع البدو عليها الشعير والقمح ؛ ومع كثرة المراعى تنمو الأغنام وتكثر ، كما تنمو الإبل ويتكون منها جزء كبير من مصادر الثروة عند العرب .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٢ .

وتكثر الوديان فى الجزيرة ، وتوجد مع الوديان سيول تضمن زراعة بعض الحاصلات من حين إلى حين .

ومنطقة المدينة والطائف غنية بالمزروعات ، وتكثر الفواكه فى الطائف كثرة واضحة ، أما فى اليمن فتسقط الأمطار بانتظام ، وتزرع الأرض بالتالى زراعة منتظمة .

ويكثر النخيل فى الحجاز ، والقمح فى اليمن ، واللبان فى مهرة ، والصمغ فى عسير ، والكروم فى الطائف . أما عمان فتلعب الأفلاج (الينابيع الجبلية) فيها دورا مهما ، وتنحدر الأفلاج من الجبال فتروى مزارع النخيل الفسيحة ، كما ينبت بها أنواع من الحبوب ، وقد رأيت الأفلاج فى زيارتى لعمان فى نوفمبر سنة ١٩٨٠ وشربت من مائها العذب المصفى ، ورأيت انسيابها بين الحقول حيث تملأ الارض خيرا وبركة

أما الصناعة فى الجزيرة العربية فكانت قبل انبثاق البترول ترتبط بالصوف والوبر ، وكانت صناعة الصوف والوبر يدوية ، وقد اشتهر المغزل والنسيج عند العرب وكان ذلك من مصادر الثراء ، يروى أن الوضين بن عطاء زار أبا جعفر المنصور ، فسأله هذا عن عياله فقال الوضين : ثلاث بنات والمرأة . فقال المنصور : أربع نساء فى بيتك ؟ وكررها ثلاث مرات حتى ظن الوضين أن المنصور سيكثر عطاءه ، ولكن المنصور رفع رأسه وقال : أنت أيسر العرب ، أربع مغازل يدرن فى بيتك[1] .

وهناك أيضا صناعة الآلات الحربية والتماثيل ، وهناك صناعات ارتبطت بالحاصلات الزراعية كصناعة النبيذ والصناعات المرتبطة بالنخيل .

وأما المعادن فقد عرفت الجزيرة العربية استخراج اللؤلؤ من منطقة عمان والبحرين على خليج عمان والخليج العربى ، ووجدت كذلك مناجم للملح فى بعض البقاع ، وظلت هذه معادن الجزيرة حتى انبثق البترول فكان أعظم مصادر الثراء .

على أن أهم مصادر الثروة عند العرب قد ارتبطت بالتجارة . وقد

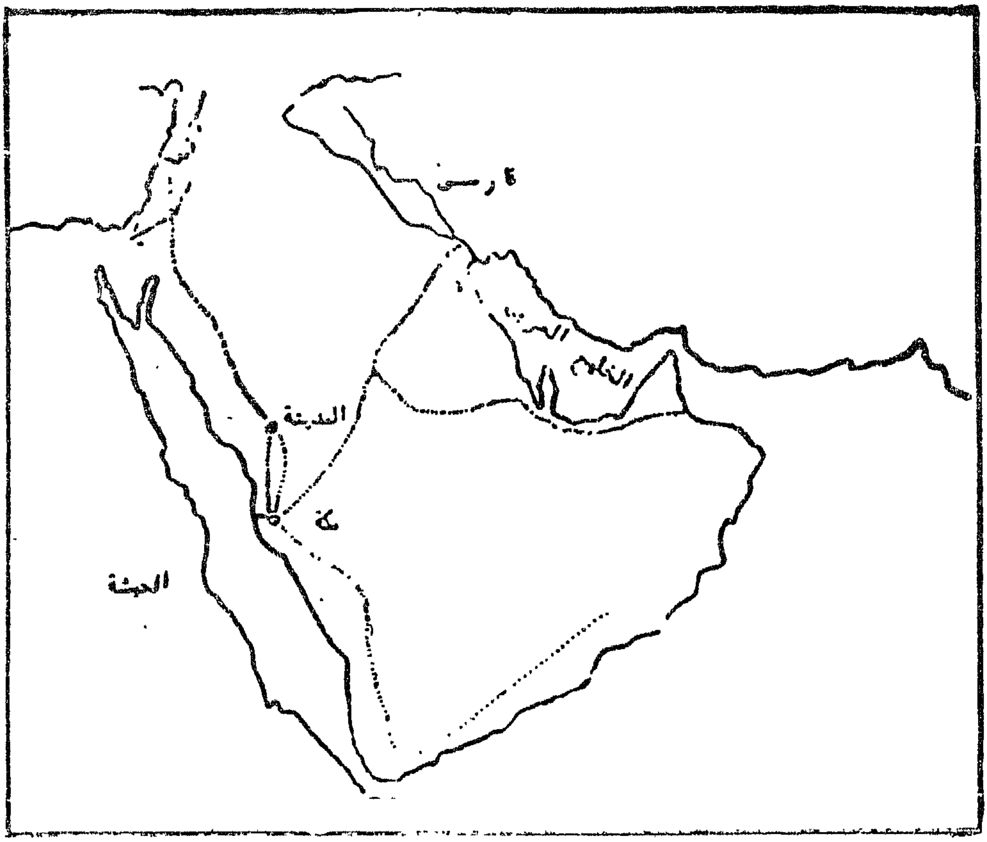
---

(١) ابن الأثير جـ ٦ ص ١٠

اشتهر العرب فى الجاهلية بالتجارة شهرة واسعة حتى قيل « إن كل عربى تاجر » وكانت الجزيرة العربية تمثل بحرا واسعا تخترقه قوافل الإبل فى شبه مجموعات من السفن تمخر عباب البحر الفسيح ، وقد حلت هذه القوافل محل الملاحة بالبحر الأحمر الذى كانت الملاحة فيه عسيرة كما ذكرنا من قبل .

ومن الطبيعى أن طرق القوافل فى الجزيرة العربية كانت تتبع المسالك المعروفة حيث تتوافر آبار المياه على طول الطريق ، وحيث يكون الطريق آمنا لكثرة من يطرقه من الناس ، وعلى هذا كان هناك طريقان رئيسيان للقوافل أحدهما من الشمال إلى الجنوب غير بعيد من البحر الأحمر ، وهو فى الشمال يتفرع إلى الشمال الشرقى تجاه سوريا ، وإلى الجنوب الغربى تجاه فلسطين ومصر ، وهو فى الجنوب يسير شوطا مع ساحل حضرموت ، أما الطريق الثانى فهو يخترق الجزيرة العربية من البحر الأحمر إلى الخليج العربى مارا بمكة . ويتفرع فى قلب الجزيرة فرعين يتجه أحدهما إلى الشمال الشرقى فيصل شط العرب ، ويتجه الآخر إلى الجنوب الشرقى ويسير هذا مع الخليج العربى مارابدبى ومسقط وظفار . (انظر الخريطة رقم ٢) .

وقد تحدثنا من قبل عن النشاط التجارى فى اليمن فى عهد مملكتى سبأ وحمير ، وقلنا إنه كان يشمل نشاطا بحريا إلى الهند والصين وسومطرة ؛ ونشاطا بريا داخل الجزيرة العربية ، ولما وقعت اليمن فريسة الاستعمار الحبشى ثم الفارسى استطاع المستعمرون أن يسيطروا على النشاط البحرى ، الذى انكمش انكماشاً ظاهراً ، أما النشاط البرى داخل الجزيرة فقد انتقل إلى مكة لأن نفوذ القوى الأجنبية لم يستطع قط أن يمتد إلى قلب الجزيرة كما سبق القول .



(الخريطة رقم ٢) الطرق التجارية بالجزيرة العربية

وهناك عوامل ساعدت مكة لتلعب هذا الدور ، فقد هاجر إليها فى ظروف متعددة كثير من اليمنيين الذين لهم خبرة واسعة بهذه الحركات التجارية ، ثم إن شهرة مكة الدينية كانت تنمو يوماً بعد يوم بسبب وجود البيت المقدس بها وتوافد الحجاج عليها كل عام ، وقد هيأ ذلك لقريش احترام العرب وإجلالهم وبخاصة أن قريشاً كانت تحسن استقبال الحجاج وتعنى بخدمتهم وإكرامهم وتتكفل بحمايتهم ، وموقع مكة فى منتصف الجزيرة العربية تقريباً بين الشمال والجنوب قوّى هذه العوامل ، كما قوّاها أيضاً أنها فى مكان قاحل قليل الماء عديم الزرع مما جعل أهلها يهتمون بالتجارة كمصدر رئيسى من مصادر رزقهم .

وكانت عير قريش تحمل من صنعاء ومن موانى اليمن الطيب والبخور والمر والصموغ العطرة والأخشاب الزكية والعاج والأبنوس وجلود الفهود واللبان والذهب والجوهرات والأرقاء والعاج والمنسوجات الحريرية والمعادن والأسلحة والتوابل ، وبعض هذه الأشياء من منتجات اليمن وبعضها مما يرد إلى الموانى من إندونيسيا والصين والهند أو من إفريقية عبر باب المندب ، وكانت العير تحمل هذه البضائع إلى أسواق الشام ، إذ كان الطيب والبخور من أهم ما تعنى به المعابد والكنائس والقصور الواقعة فى بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط وفى الهلال الخصيب ، ولذلك كانت تلاقى رواجاً كبيراً ، وكانت هذه الإبل تعود من مصر والشام حاملة القمح وزيت الزيتون والحبوب والمنسوجات .

أما الخط التجارى الذى يخترق الجزيرة العربية من الشرق إلى الغرب. فقد كان اللؤلؤ المستخرج من الخليج العربى وتوابل الحبشة من أهم السلع به .

ومن الطبيعى أن تقوم على طول هذه الطرق التجارية مجموعة من الأسواق تنزل بها القوافل التجارية ، ويقبل إليها سكان هذه المناطق والمناطق

التى تجاورها بسعهم ، ويقوم بين الطرفين تبادل تجارى ترحل بعده القوافل ببعض ما تنتجه هذه المناطق ، ويعود سكان هذه المناطق ببعض ما كانت تحمله هذه القوافل مما يحتاجون إليه ولا تنتجه بلادهم ، ومن أهم هذه الأسواق سوق دبى ، وسوق عدن ، وسوق الرابية بحضرموت وأسواق عكاظ وذى المجاز ومجنة فى منطقة مكة ، وسوق حباشة بمنطقة تهامة ، وإليه أرسلت السيدة خديجة محمداً صلى الله عليه وسلم ، قبل البعثة فى تجارتها[1] .

وكان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون إلى الجهات الرئيسية الأربعة التى كانت تتجه لها تجارة قريش ، فكان هاشم يتجه للشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس ، وكان تجار قريش يذهبون إلى هذه البلاد فى ذمة هؤلاء الإخوة الأربعة لا يتعرض لهم أحد بسوء [2] ، على أن رحلتى الشمال والجنوب كانتا أكثر انتظاماً وأعظم نشاطا ، ولهذا وردتا فى القرآن الكريم : «لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف» [3] وكانت رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام ، ويروى الطبرى [4] « أن هشاما هو أول من سن لقريش رحلة الشتاء ورحلة الصيف » . والمعتقد أنه كانت هناك رحلات إلى الشمال والجنوب قبل هشام ولكن هشاما جعلها منتظمة لا تختلف ولا تتخلف .

وقد سببت هذه التجارة أرباحا كثيرة لعدد كبير من أفراد قريش كأبى سفيان والوليد بن المغيرة وغيرهما ؛ على أن هناك ربحا أدبيا كبيراً حصلت عليه قريش من جراء هذه التجارة ، وهو دراسة سياسة البلاد التى تجرى معها التجارة ومعرفة أحوالها الاجتماعية ، وقد أدى ذلك إلى تطور فكرى فى هذه القبيلة . فلم تعش بمعزل عن الحضارات التى كانت تحيط بها فى الشمال والجنوب .

---

(١) انظر الحديث عن هذه الأسواق بمعجم البلدان لياقوت وانظر الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى للدكتور يوسف خليف ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ١٢ ، ١٣ وسبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب ص ٢١٥ .

(٣) سورة قريش .

(٤) تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٢ .

الاتجاهات الاقتصادية

فى المجتمع العربى قبل الإسلام

تحدثنا من قبل عن مصادر الثروة عند العرب ، وابتداء من الطبعة السابعة لهذا الكتاب أسعدنى أن أوردت دراسة عن الاتجاهات الاقتصادية فى المجتمع العربى قبل الإسلام ، وقد أهمل الباحثون السابقون الحديث عن هذه الاتجاهات ، فخلت منها الموسوعة الكبرى التى كتبها الدكتور جواد علىّ عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، مع أن المؤلف أسهب فى الحديث عن أديان العرب ، وأوثانهم وقبائلهم وتاريخهم السياسى ، وعاداتهم ، وحروبهم ويكاد ذلك ينطبق على المؤلفات الأخرى عن ذلك العصر . ولكن إذا جاز ذلك فى الماضى ، فإننا لا نستطيع الآن أن نغفل مثل هذه الدراسة لأن التيارات الاقتصادية فى العهد الحاضر تحرك العالم وتجعله يعيش على فوهة بركان يوشك أن ينفجر ، وكلمات الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية تملأ الآفاق ، فجدير بنا أن نتعرف على الاتجاهات الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام لنعرف موقف العرب آنذاك من دنيا المال ، فلا شك أن ذلك الموقف كان شديد التأثير على موقفهم من الإسلام عندما جاء الإسلام .

ومن الواضح أن هذه الدراسة تستلزم كثيراً من الجهد وتحتاج لاطلاع واسع ، ولكن النتيجة التى يحصل عليها الباحث تزيل أثر الجهد ، وتمنح كثيراً من السعادة :

وقد تبين لى من البحث الطويل الذى قمت به أن الجزيرة العربية — فى مجال الاتجاهات الاقتصادية — تنقسم قسمين رئيسين :

١ — مناطق عربية ، قلّ أو انعدم فيها التأثر بالفكر الخارجى ، وتتمثل

هذه فى مناطق البدو بقلب الجزيرة وفى بعض جهات الساحل التى لم تجذب لها غير العرب .

٢ — مناطق عربية كانت شديدة الاتصال بالفكر الخارجى .

وسنقوم بدراسة كل من هذين القسمين على حدة :

١ — المناطق العربية التى لم تتأثر بالفكر الخارجى :

المناطق العربية التى لم تتأثر بالفكر الخارجى أو كان تأثرها به محدوداً هى مناطق البدو وتوجد بشكل خاص فى قلب الجزيرة العربية ، وقلب الجزيرة العربية يتكون من سلاسل من الجبال المرتفعة ، بينها بعض الوديان ، وهو قليل الأمطار ، سكانه رحل يبحثون عن مساقط الأمطار ، أو منابع المـاء ، ويبقون حولها يرعون العشب ويشربون الماء حتى ينفد العشب ويجف الماء ، وحينئذ يبحثون عن مكان آخر ، وهكذا ، ويعيش فى هذا القسم قبائل العرب فى ظل مايعرف بالعصبية القبلية ، تلك العصبية التى تجعل من القبيلة وحدة متماسكة ومتميزة عن سواها من القبائل [1] ، وقد تصادف القبيلة واحة لا يجف منها الماء ، وحينئذ تستقر بهذا المكان .

وقلب الجزيرة العربية يمثل حقيقة الفكر العربى ، والبدو فى قلب الجزيرة حققوا أسمى مراحل المشاركة [2] الاقتصادية فيما بينهم ، فاقتسموا — بنوع واضح من العدالة — مصادر الثراء الضئيلة التى قدمتها لهم الطبيعة ، ـ اقتسمت القبائل التى تعيش فى عمان ما يحصل عليه رجالها من لؤلؤ وأسماك ، واقتسمت القبائل الأخرى مناجم الملح وبلح النخيل والمراعى ومزارع الشعير

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٦٥ .

(٢) آثرنا فى هذا البحث أن نستعمل كلمة « مشاركة » بدل كلمة « اشتراكية » إذ أصبح لهذه الكلمة الأخيرة معنى اصطلاحى خاص .

ولبان مهرة وصمغ عسير ، وهناك عوامل ثلاثة حققت المشاركة فى هذه المجتمعات العربية الأصيلة ، وهذه العوامل هى :

١ — القبيلة وتكوينها .

٢ — جماعات الصعاليك واتجاهاتها الاقتصادية .

٣ — الكرم العربى ومدلوله الاقتصادى . .

وسنتكلم عن كل من هذه العوامل كلمة تشرح مكانه فى خلق الاتجاه الاقتصادى بهذه المناطق .

القبيلة العربية والاتجاهات الاقتصادية فى حياتها :

تقوم الهيئة الاجتماعية عند البدو على نظام العشيرة ، ووحدتها الأسرة التى تمثل الواحدة منها الخيمة أو البيت ، والحى عبارة عن مضرب الخيام، وأعضاء الحى يطلق عليهم لفظ قوم ، وتتألف القبيلة من أقوام أو عشائر تربطها أواصر النسب ، وينظر أبناء العشيرة الواحدة بعضهم إلى بعض كأبناء دم واحد ، وهم يؤدون الطاعة لرئيس واحد هو شيخ القبيلة ، . . ويرجع اسم العشيرة فى الغالب إلى الجد الأعلى الذى تنسب إليه ، فيقال بنو تميم أو بنو شيبان وهكذا [١] .

والذى يعنينا من هذا التكوين أن نصل إلى حقيقة هامة جداً هى أن ثراء القبيلة هو ملك للقبيلة ، شركة مشاعة ينتفع الجميع بها بمقدار حاجتهم ، ويعمل الجميع لتنمية هذا الثراء بمقدار طاقتهم ، ويذكر Philip Hitti [٢] أن الخيمة وما بها من أثاث لا قيمة له ، ملك لصاحبها ؛ أما الماء والمراعى والأرض التى يستنبت منها القمح أو الشعير فهى ملك شائع للقبيلة كلها .

---

(١) فؤاد حمزة : قلب الجزيرة العربية ص١٢٣ .

(٢) Philip Hitti : History of the Arabs p. 26

صحيح أن للقبيلة رئيساً ، ولكن إذا لاحظنا دوافع اختيار الرئيس ومسئولياته ، وجدنا أنه كان يُعَدُّ ركناً هاماً من أركان شركة الشيوع التى ذكرناها آنفا ، فالرجل يختار لرياسة القبيلة إذا توافرت فيه صفات ثلاثة : الكرم والشجاعة والحلم ، والكرم أبرزها ، فالعربى حين يقصد الناس رفده يحس أنه صار ركنا مكينا من أركان المجتمع فى القبيلة ، أو فى أحياء العرب ، يلجأ إليه المرملون والضعفاء وطلاب الحاجات ، وأنه سائر فى طريق المجد الذى يوصله إلى سيادة قومه ورياستهم ، فإذا وصل إلى تلك المنزلة حافظ عليها ما وسعه جهده وماله بالبذل وإرضاء الناس ، فيحمل الكَلَّ ويغيث الملهوف ويفك العانى ، ويطعم الفقير ؛ وينتصف للمظلوم ، وذلك لأن السيادة لم تكن مبنية على الغلبة والقهر والاستبداد ، وإنما كان منشؤها الاحترام والإجلال ، لما يمتاز به الرئيس من صفات تدفعه إلى الصدارة فى مجتمعه هذا ، ومن أقوى هذه الصفات الكرم لأن حاجة القوم إليه أشد ، فهم ينزلون الرئيس منزلة الوالد الذى يحنو عليهم ويرعى شئونهم[1] .

وقد ذكر عرابة بن أوس مقطوعة من الشعر يبين بها الأسباب التى جعلته سيداً فى قومه قال :

وأصبحت فى أمر العشيرة كلها ... كذى الحلم يُرْضَى مايقول ويعرَف
وذاك لأنى لا أعادى سرَاتهم ... ولا عن أخى ضرائهم أتنكف
وإنى لأعطى سائلى ، ولربما ... أكلف مالا أستطيع فأكلف

والدارس للحياة الاجتماعية لدى القبائل العربية يدرك أن مسئوليات رئيس القبيلة أكثر جداً من امتيازاته ؛ فهو كثير البذل والعطاء من نصيبه الذى يناله من ثراء القبيلة ، وهو يقود القبيلة فى الحروب والغارات ويذود عنها العدوان، وهو يحمى اللاجئين ويحلُم على الجاهلين ، ونظير ذلك يتحتم

---

(١) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٦٨ — ٦٩ .

على أفراد القبيلة أن يطيعوا أمره وأن يستجيبوا لتوجيهه . بيد أن دوافع الحرية المطلقة والأنانية المفرطة والأثرة ، كثيراً ما تتحرك فى نفوس البدو فلا يخضعون لحكم يصدره رئيس القبيلة ، إذ لم يكن لرئيس القبيلة سلطان يرغم به أفرادها على خضوع لحكمه ، وكان للبدوى أن يتمرد على هذا الحكم ويهجر القبيلة كلها كما شرحنا ذلك من قبل ، وهكذا كانت مسئوليات رئيس القبيلة أوسع جدا من امتيازاته ، وما كان يمكن أن يكون له من ثراء وحوله جائعون أو محتاجون ، وقد عبّر الشاعر العربى عن ذلك بقوله :

وإن سيادة الأقوام عبء يُضاق به ومطلبها جليل
أتزهو أن تسود ولا تُعَنّى وكيف يسود ذو الدعة البخيل؟

تلك هى صورة القبيلة العربية ؛ أسرة واحدة ، ثروتها شركة ، لا سيد فيها ولا مسود ، بل « سيد القوم خادمهم » كما جرى بذلك المثل العربى ، ورئيس القبيلة يحمل من المسئوليات أضعاف ما ينال من امتيازات إن كانت له امتيازات .

هذا وينبغى هنا أن نشير إلى مظهر الحياة فى البادية ومدى ما ينتشر بها من فقر وفاقة ، وما يؤدى له هذا الفقر من نتائج فى المجال الاقتصادى ، فقد كانت البادية شحيحة قاسية ، فلم تجد الجماعات المتناثرة بها وسيلة لسد حاجات معيشتها إلا عن طريق الشيوع (١) فكان هؤلاء يلتقطون غذاءهم ويتقاسمونه ، وكانت أدوات الإنتاج تتمثل فى الأقواس والسهام والشباك وكلاب الصيد ، وكانت كلها مملوكة للقبيلة ملكاً عاما ، فكان من الحق أن تكون ما تدرّه من نتائج ملكا عاما أيضا ، كما كان الغزو والغارة وهما من أركان البناء الاقتصادى فى تلك الهيئة الاجتماعية يجلبان ثراء تقتسمه

Kirk : A Short History of the Middle East p. 7 (١)

القبيلة كلها ، على أن مما ألزم اتباعَ هذا النظام الاقتصادى أنه لم يكن هناك فائض فى السلع ، وكان الناتج لا يزيد عما تتطلبه الحياة ،ومن هنا لم يكن من الممكن أن يُدَّخر شيء عند إنسان ويجوع إنسان آخر ،فقد كان الكل يعملون ويوزع الناتج على الجميع ، وتعرف هذه المرحلة فى رأى علماء الاقتصاد بمرحلة الشيوعية البدائية(١) .

٢ — جماعات الصعاليك واتجاهاتها الاقتصادية :

والصعاليك يسمون أنفسهم « الفتيان » ويسميهم زعيمهم عروة بن الورد « الإخوان » وفى ذلك يقول :

ولا أترك الإخوان ماعشت للردى كما أنه لا يترك الماءَ شاربُه(٢)

والحديث عن الصعاليك يقتضينا أن نعود مرة أخرى للكلام عن القبيلة العربية وعن عناصر تكوينها وظروف حياتها ، فقد قلنا إن للقبيلة أسرة كبيرة ، وأن رئيسها يختار ممن توافرت فيهم صفات الكرم والشجاعة والحلم ، وعليه مسئوليات أكثر من امتيازاته ، وليس له أن يرغم أفراد القبيلة على الخضوع لحكمه ، ولأى منهم أن يتمرد على قراره ويهجر القبيلة كلها .

ومن هؤلاء الذين هجروا قبائلهم لسبب أو لآخر تكونت فى الجزيرة العربية جماعات لا يربط بينها الدم الذى يربط بين أفراد القبيلة بعضها والبعض الآخر ، وإنما يربط بينها رباط مطلعه التمرد ، ثم يدعم هذا الرباط بعناصر اجتماعية واقتصادية هى المقصودة فى هذا البحث كما سنرى ، ومن هذه الجماعات يتكون الصعاليك أو الفتيان بالجزيرة العربية .

---

(١) انظر كتاب « النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامى فيها » للمؤلف ص ١٧ - ١٩ .

(٢) ديوان عروة ص ١٥١

والناظر فى أخبار هؤلاء الصعاليك ، المتتبع لظروف نشأتهم وحياتهم ، يستطيع أن يلاحظ فى وضوح ثلاث طوائف مختلفة تتألف منها جماعاتهم وهذه الطوائف هى :

١ — طائفة « الشذاذ والخلعاء » الذين شذوا على الدستور القبلى وتمردوا عليه ، فخلعتهم قبائلهم وتبرأت منهم ، وطردتهم من حماها ، وقطعت ما بينها وبينهم من صلة ، وتحللت بهذا من العقد الاجتماعى الذى يربط بينها وبينهم ، والذى يصوره المثل العربى القديم « فى الجزيرة تشترك العشيرة » فأصبحت لا تحتمل لهم جريرة ولا تطالب بثأر لذنب يرتكبه الآخرون ضدهم ، ومن هؤلاء حاجز الأزدى وأبو الطمحان القينى .

٢ — طائفة الأغربة السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء ، فلم يعترف بهم آباؤهم العرب ، ولم ينسبوهم إليهم ، لأن دماءهم خالطتها دماء أجنبية سوداء لا تصل فى درجة نقائها إلى درجة الدم العربى ومن هؤلاء تأبط شرا والشنفرى والسليك بن السلكة .

٣ — طائفة الفقراء المتمردين الذين تصعلكوا نتيجة للظروف الاقتصادية الصعبة التى كانت تسود المجتمع الجاهلى ويمثلهم عروة بن الورد[١] .

ومن هذه الطوائف الثلاث تكونت جماعات الصعاليك ، وكلمة « الصعلكة » فى اللغة معناها الفقر ، ولكنها ذات مدلول أدق مع هذه الطوائف ، فهى معهم تفيد الاستعداد للغزو ، والتجرد للغارات ، والثورة ضد النظام القبلى السائد الذى يقوم على روابط الدم والنسب ، ويمكننا بذلك أن نرى فى ثورة البروليتاريا التى دق ناقوسها كارل ماركس فى القرن التاسع عشر عناصر مقتبسة من ثورة الصعاليك ضد القبائل[٢] ولكن

---

(١) الدكتور يوسف خليف : الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ص ٦٥ — ٦٦ .

(٢) انظر خاتمة البيان الشيوعى فيما كتبه Isaiah Berlin بكتابه « Karl Marx » ص P. 125 .

الثورة العربية كان فيها نبل العرب كما سنرى بعد قليل ، ولكن كارل ماركس صبغ ثورته بالدم وجعلها مملوءة بالحقد والضغينة .

وقبل أن نتحدث عن خلق المشاركة عند الصعاليك ينبغي أن نتعرف على أخلاقهم ، فقد كانت أخلاقهم واتجاهاتهم النفسية أسساً قوية لسياستهم المالية :

من أبرز صفاتهم الشجاعة وعدم الخوف من الموت أو الرهبة منه ، بل إنهم يرون الموت أكرم من الخضوع الذى ثاروا عليه وأنفوا منه ، يقول عروة :

فَلَلْموت خير للفتى من حياته فقيراً ، ومن مولىً تدبُّ عقاربه(١)

ولماذا لا يقتحمون المعارك خشية الردى ، والموت يدهم الوديع المستقر بين أهله ، وقد ينجو منه البطل الذى يخوض المعارك ، وقد عبر تأبط شرا عن ذلك بقوله :

لعل الذى يخشون منه مواجِهاً يصادفه فى أهله المتخلِّفُ(٢)

ولابد للإنسان أن يموت ، فإذا لم يجىء الموت اليوم فسيجىء غدا ، يقول عروة :

فإن فاز سهم للمنية لم أكن جزوعاً ، وهل عن ذاك من متأخر(٣)

وقد خَلَقَت « الصعلكة » من هذه الجماعة قوة متماسكة متعاونة ، للضعيف فيها حقه لدى القوى ، وحل عروة بن الورد من الصعاليك محل رئيس القبيلة من القبيلة ، فأصبح يحس بما عليه من مسئوليات تجاه جماعته ،

---

(١) ديوان عروة ص ١٥١ .
(٢) الأغانى جـ ١٨ ص ٢١٧ .
(٣) جمهرة أشعار العرب ص ٢١٤ .

ومن أجل هذا لقب بعروة الصعاليك أو بأبى الصعاليك ، وكان يسعى للحصول على المال ليعين به محتاجاً ، أو يرد به ضراً ، وهو فى ذلك يقول :

دعينى أطوِّف فى البلاد لعلنى ... أفيد غنًى ، فيه لذى الحق محملُ
أليس عظيما أن تلم ملمة ... وليس علينا فى الحقوق معوَّل[1]

ومن أبرز ما اعتز به الصعاليك من خصال أنهم كانوا لا يتعرضون لأموال الفقراء ولا لأموال الأغنياء الأسخياء ، بل كانوا يتتبعون الأغنياء المترفين ، وبخاصة البخلاء منهم[2] واعتبروا ما يحصلون عليه منهم حلالا لهم غنموه بعد أن حُرِموه ، فاستراحوا إلى أنهم يثأرون من الأغنياء والأشحاء[3] .

ومن الصفات التى عرفت عن الصعاليك ، الكرم ، وقد برزوا فى هذه الصفة إلى حد كبير حتى ضرب المثل بذلك فقيل «كل صعلوك جواد[4] » وكان عروة بن الورد نظيراً لحاتم الطائى فى جوده وكرمه ، وقد أثر عن عبد الملك بن مروان قوله : من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة ابن الورد[5] .

الفلسفة الاقتصادية للصعاليك :

لم تكن الرابطة بين الصعاليك هى رابطة الدم والنسب كتلك التى تربط بين أفراد القبيلة ، وإنما كانت هناك عصبية جديدة تضم الصعاليك ، وهى عصبية اجتماعية تتخذ من اتجاهها الاقتصادى أهم أسسها ، وجميع الدارسين لحياة الصعاليك يواجهون هذا الاتجاه الاقتصادى بين أفراد هذه

---

(١) ديوان عروة ص ٣١ .
(٢) دكتور يوسف خليف : الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ص ٤٥ .
(٣) دكتور أحمد الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ص ٣٠٠ .
(٤) الميدانى : مجمع الأمثال جـ ٢ ص ٩
(٥) الأغانى جـ ٣ ص ٥٨٤ .

الجماعة ، ويعلنون هذا الأساس كواحد من أبرز الأسس التى التقت عندها هذه الطائفة ، فالدكتور أحمد الحوفى يذكر أنه « تبين من دراسة شعر الصعاليك أنهم دعاة إلى نوع من الاشتراكية العملية القسرية[1] والدكتور يوسف خليف يصف صعلكة عروة بن الورد بقوله : كانت الصعلكة عند عروة نزعة إنسانية نبيلة ، وضريبة يدفعها القوى للضعيف ، والغنى للفقير . وفكرة اشتراكية تُشْرِك الفقراء فى مال الأغنياء وتجعل لهم فيه نصيباً ، بل حقاً يغتصبونه إن لم يُؤَدَّ لهم ، وتهدف إلى تحقيق لون من ألوان العدالة الاجتماعية ، والتوازن الاقتصادى ، فالغزو والإغارة للسلب والنهب لم يعد عنده وسيلة وغاية ، وإنما أصبح وسيلة غايتها تحقيق نزعة الإنسانية وفكرة الاشتراكية[2] .

وقد وصل الصعاليك فى الجاهلية إلى فكرة سامية وصحها الإسلام فيما بعد ، هى أن المال مال الله ، وأن مَنْ منحه الله الغنى عليه أن يرعى الفقير ، ويعطيه مما أعطاه الله « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم [3] » ولكن بعض الأغنياء بالجاهلية أغضوا الطرف عن الفقراء ، وضنوا بالمال ، وعاشوا وعندهم فائض وبجوارهم محتاج مظلوم ، ومن أجل هذا استباح الصعاليك أن يغيروا على أموال الأشحاء فيأخذوا منها حقوقهم التى منعوها ظلماً وعدواناً ، ومن هنا كانت غاراتهم تتجه إلى الأغنياء الأشحاء ؛ فلم يكن من دستورهم أن يعترضوا ذوى الكفاف ولا ثراة الكرماء ، وقد رويت عن صعلوك متأخر هو الأحيمر السعدى مقطوعة شعرية جميلة تمثل اعتقادهم أن المال مال الله ؛ وأن لكلٍّ من خلق الله نصيباً فيه . وهو فى هذه المقطوعة يعلن خجله من مخالفة ناموس الخالق الأعظم ، إذ يسير بجبل ليس به بعير ، وإبل الله يزدحم بها الكون ، ويملك الأشحاء أعداداً كبيرة منها ، وهاك جزءاً من هذه المقطوعة :

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى ص ٣٠٤ .

(٢) الشعراء الصعاليك ص ٤٧ .

(٣) سورة النور الآية ٣٣ .

وإنى لأستحى من الله أن أرَى ... أمـــر بجبل ليس فيه بعـــير
وأن أسأل الجبس اللئيم بعيره ... وبُعران ربى فى البلاد كثير (١)

وقد اتخذ الصعاليك هذا الاتجاه دستورهم كلما حصلوا على مال ، فقد كانوا حريصين على المنح بسعة . وتوزيع ما حصلوا عليه على كل المحتاجين منهم ، بحيث لا ينال واحد منهم أكثر من سواه ولو كان فى هذا التقسيم ما يمسه بسوء ، وقد صرخ أبو الصعاليك عروة بن الورد فى وجه أحد الأغنياء بمقطوعة رائعة تشرح هذا الاتجاه ، وفى هذه المقطوعة يسخر عروة من الغنى لأنه سمِنَ وزاد شحمه فى حين ظهرت النحافة على عروة ، وليس ذلك إلا لأن طعام عروة يقتسمه مع كثيرين ، ولكن طعام الغنى للغنى فقط ، ويختم هذه المقطوعة أروع ختام حين يعلن أنه يقسم جسمه فى جسوم كثيرة ، فهو موجود فى كل جسم ، ويكفيه قليل من الماء والطعام إذا شبع الآخرون استمع إليه يقول :

أتهزأ منى أن سمنتَ ؟ وأن ترى ... بجسمى مسّ الجوع والجوع جاهد
فإنى امرؤ عفو لزادى جماعة ... وأنت امرؤ عفو لزادك واحد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

وعروة كما قلنا زعيم الصعاليك ؛ ومُقَنِّن حياتهم ، فلنسر معه مرحلة أخرى لنرى الاتجاهات الاقتصادية التى جعلها دستور جماعته :

يروى ابن السكيت (٢) أن عروة بلغه عن رجل من كنانة أنه أبخل الناس وأكثرهم مالا . فبعث عليه عيونا فأتوه بخبره ، فشد على إبل هذا البخيل واستاقها ، ثم قسمها فى جماعته .

ويروى أبو الفرج الأصفهانى (٣) من أخبار عروة أنه كان إذا أصابت

---

(١) الشعر والشعراء ص ٤٩٥ والجبس هو اللئيم الجبان .
(٢) شرح ديوان عروة ص ١٨١ .
(٣) الأغانى ج ٣ ص ٧٨ — ٧٩

الناسَ سنةٌ شديدة ، يجمع المرضى والضعفاء والمسنين من عشيرته ، ثم يحضر لهم الأسراب ويكنُف عليهم الكنف ويكسبهم (يكسب لهم) ومن قوى منهم : إما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته ، أخرجه به معه فأغار وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصيباً ، حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما عاد الإنسان منهم إلى أهله وقد استغنى »

وكان الصعاليك — كما قلنا — يتساوون فى القسم لا فرق بين قوى وضعيف ورئيس ومرءوس .

٣ — الكرم العربى ومداه فى تحقيق المشاركة الاقتصادية .

الدراس لحياة العرب فى الجزيرة العربية يدرك أن شبح الفاقة كان يتهددهم ، فالسماء قد تشح بالمطر ، فتجدب الأرض ويجف الضرع [1] ، وقليل من العرب من لم يتعرض لمجاعة فى ظرف من الظروف أو وقت من الأوقات ، وكانت هذه الحال تدعو القادر أن يحمل الكل مخافة أن يصبح القادر كلاً والغنى محتاجاً ، وقد عبَّرت أم حاتم الطائى عن سبب كرمها بقولها .

لعمرك قدْماً عضنى الجوع عضة فآليت ألا أمنع الدهر جائعاً
فقولا لهذا اللائمى اليوم : أعفنى وإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا

وفى ضوء هذا الاتجاه حفل التاريخ العربى بأفانين من الكرم والتفنن للعطاء ، حققت للمعوز حقه فى مال الواجد ، وخلقت اتجاه مشاركة يصوره الأدب أجمل تصوير ، والأدب العربى مصدر مهم من مصادر التاريخ العربى والإسلامى ومنه نقتبس بعض نماذج [2] .

---

(١) أنظر حديثا عن عام الرماده بكتابنا « المجتمع الإسلامى » ص ١٤٢ — ١٤٥ .

(٢) هذه النماذج مقتبسة من :

١ — المعلقات العشر ٢ — أسرار الحماسه للاستاذ سيد على المرصفى .

٣ — الأدب العربى وتاريخه للاستاذ محمد هاشم عطية .

٤ — الحياة الاجتماعية فى الشعر الجاهلى للدكتور أحمد الحوفى .

كانت الصحراء الفسيحة الصامتة تبتلع فى الليل القرى والنجوع ، فيوشك السارى أن يضل الطريق ، فكان من عادة العرب أن يشعلوا النيران على ربوات عالية ليهدوا بها الضال ، وكانت النيران تمثل لدى العربى دعوة القرى ،وكان حاتم شديد الرغبة أن تجلب ناره الضيفان ، فكان يحث غلامه أن يثابر على إشعالها ، ويغذيها بالخشب والعيدان لترتفع ، لعل ضيفا يجىء لها ، ويعده بالحرية إن جلبت ناره ضيفا ، استمع إليه يقول :

أَوْقِدْ فإن الليل ليــل قرٌّ
والريحُ ياغــلام ريح صِر
عسى يرى نارَكَ من يمر
إن جلبت ضيفاً فأنت حرّ

وكان المضيف يفرح بالضيف ، ويهدهده ويهش له ، ويحّله محل أولاده ، قال جابر بن حيان .

وما وجد الأضياف فيما ينوبهم   لهم عند ِعلات الزمان أباً مثلى

وقال الحطيئة فى ذلك .

فبات أبوهم من بشاشته أبا   لضيفهم والأم من بشرها أما

وقصيدة الحطيئة التى اقتبسنا منها هذا البيت تمثل صورة بديعة عن روعة الكرم والإحساس بالمسئولية تجاه الضيف عند العرب ، وبلغ الإحساس بالمسئولية مداه لأن الحطيئة ليس عنده ما يقدمه للضيفان ، فيتقدم ابنه إليه يطلب أن يذبحه ويقدم لحمه طعاماً للضيف ، وربما لعب الخيال بالشاعر ، ولكن وصول الخيال إلى هذا الحد شىء جدير بالتقدير .

استمع إلى الحطيئة يقول :

رأى شبحا وسط الظلام فراعه   فلما رأى ضيفا تشمر واهتما
وقال: هيا رباه ،ضيفٌ ولا قِرًى   بحقك لاتحرمه تا الليلة اللحما
وقال ابنه لمـــا رآه بحيرة   أيا أبتِ اذبحنى ويسر له طعما

ولا تعتذر بالعدم علّ الذى ترى   يظن لنا مالا فيوسعنا ذما
فروّى قليلا ثم أحجم برهة   وإن هو لم يذبح فتاه فقد همّا

وتسير القصيدة تروى أن قطيعا من حمر الوحوش ظهر ، فصاد منه الحطيئة ما قدمه قِرًى لضيفانه ، بعد أن همّ بذبح ابنه .

ويرسم زهير بن أبى سلمى صورة لهرم بن سنان المرى وهو يعطى ، فيصوره متهللا سعيداً كأنه ينال ويأخذ ، وهو فى الحقيقة يعطى ويرفد ، قال زهير :

تراه — إذا ما جئته — متهللا   كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وكان المال عند العرب وسيلة لا غاية ، كان وسيلتهم لفك العثار ومساعدة المحتاج وما يتبع ذلك من كسب المحامد ، ومن أجل هذا عاب العرب قيس بن عاصم لأنه فى وصيته لأبنائه جعل المال غاية لا وسيلة ، فأوصاهم بجمعه والإكثار منه ، ويقول أبو الفرج الأصفهانى فى ذلك [١] . أوصى عاصم بنيه وكان أكثر وصيةً أن يحفظوا المال ، والعرب لا تفعل ذلك وتراه قبيحا .

وهكذا كان العرب يحبون الغنى ليمنحوه ، ويجمعون المال ليعطوه ، فما كان الثراء يستقر بيد إلا ريثما تدبر هبته ، والنابغة الجعدى يبرز هذه الصورة فى قوله .

فتى كملت خيراته غير أنه   جواد فما يبقى من المال باقيا

ومثل ذلك قول الآخر .

كريم رأى الإقتار عاراً فلم يزل   أخا طالب للمال حتى تمولا
فلما أفاد المال عاد بفضله   على كل من يرجو جداه مؤملا

---

(١) الأغانى جـ ١٢ ص ١٥٠

والرائع أن كلمة المشاركة وردت فى الشعر العربى القديم فأغنانا هذا التعبير فى تراثنا عن استعمال كلمة « الاشتراكية » الدخيلة ، وقد وردت كلمة المشاركة فى أبيات سنرويها بعد هذا التقديم ، وسنراها فى هذه الأبيات تحمل مع الاشتراك معنى آخر هو الإعطاء من القليل الكفاف وإن كانت هناك حاجة إليه ، وألا ينتظر الإنسان الغنى ليمنح ، فمن لم يمنح مع الكفاف لن يمنح مع الإثراء ، وفيما يلى هذه الأبيات .

سأمنح من قِدْرى نصيباً لجارتى ... وإن كان ما فيها كفافا على أهلى
إذا أنت لم تشرك رفيقك فى الذى ... يكون قليلا ، لم تشاركه فى الفضل

ويقول المقنع الكندى فى هذا المعنى بيتاً مشهوراً هو :

ليس العطاء من الفضول سماحة ... حتّى تجود وما لديك قليل

وعن حرص العربى على أن يجد له رفيقا فى الزاد يقول حاتم الطائى لامرأته :

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسى معى ... أكيلا ، فإنى لست آكلهُ وحدى
أخاً طارقا ، أو جار بيتٍ ، فإننى ... أخاف مذمات الأحاديث من بعدى

وقد جاءت رسالة الإسلام تضع أسمى الأخلاق فى قضية العطاء والعون ، فقررت أن العطاء يجبُ ألا يصحبه منٌّ ولا أذى ، وأن الطريق لنيل البر أن ينفق الإنسان مما يحبُّ ، قال تعالى :

— الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى(١) .

— لن تنالوا البر حتّى تنفقوا مما تحبون(٢) .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٢ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٩٢ .

والذى يعنينا هنا من هذه الآيات الكريمة أن من العرب من وصل فى الجاهلية إلى هذه المعانى وباشرها فعلا ، فذو الإصبع العدوانى يقول :

إنى لعمرك ما بابى بذى غلق على الصديق ، وماخيرى بممنون

(الغلق : مايغلق به الباب)

ويقول الآخر يذكر أنه فى القرى يعمد إلى أسمن نوقه فينحرها للضيفان فما يقدم فى الكرم إلا أحسن العطاء ، استمع إليه يقول :

فأعضضته الطولى سناما ، وخيرَها بلاء ، وخيرُ الخير ما يُتخيَّر

أى جعلت سيفى يعض ويجزر أطول النوق سناما وأكثرها شحما .

وكان لحاتم الطائى فلسفة رائعة يحذر بها الأغنياء من جمع المال ، فطالما تمنى الورثة موت المورث الغنى ليرثوه ، وربما كان من بين الورثة جواد كريم يمنح من هذا المال ما يكسب به المحامد والمفاخر لنفسه دون من جمع المال وكدّ فى الحصول عليه ، وهو فى هذا يقول :

ولا تشقين فيه فيسعد وارث به حين تغشى أغبر الجوف مظلما
يقسمه غنما ويشرى كرامة وقد صرتَ فى خط من الأرض أعظما
قليلا به ما يحمدنّك وارث إذا نال مما كنت تجمع مغنما

وهكذا حقق الكرم نوعا مهما من المشاركة فى المال ، فلم يبق فى المناطق العربية التى لم تتأثر بالفكر الخارجى غنىّ متخم يعيش بجواره فقير عضه الجوع .

ومن المعروف أن الشرائع من جهة والقوانين الوضعية من جهة أخرى فرضت على الغنى أن يدفع قدرا من ماله للفقير أو للحكومات لتعالج مشكلة الفقراء ، ومن الواضح كذلك أن كثيرين من الناس يتهربون بطريقة أو بأخرى مما تُلزم به الشرائع أو القوانين ، وذلك لأن نفوسهم لم تهذب بالإخوة الإنسانية ، ولم ترقَ فيهم عواطف الخير والتعاون ، فماذا فعل الله فى هذا المضمار ؟

يقول Wacyf Ghali : [1].

إن العرب جميعاً أعلنوا الحرب على الفاقه والعوز ، شكا المحتاجون أمرهم لذوى اليسار والسعة فطارد هؤلاء الفقر ، وأمطروه وابلا من سهام كرمهم حتى ركع أمامهم ، وارتد على عقبيه ، فاستلوا من صدور الفقراء بذور البغضاء والحسد ، وجعلوا لسانهم يلهج بالمديح المستطاب والثناء العطر .

ويقول الأستاذ عمر الدسوقى [2] : إن العربى ربيب الصحراء وصل فى مضمار المنح إلى ما تطمح إليه أرقى المجتمعات البشرية ، وكان الإعطاء عنده طبيعة متأصلة ، فهو لا يجود ، أداء لواجب أو إطاعة لقانون ، وإنما لأن الجود يشيع فى نفسه رغبة ويدخل عليها مسرة ، وهذه هى الغاية القصوى فى تربية الفضائل الاجتماعية .

وبعد ، لقد أجمع الباحثون والنقاد على أن الشعر العربى هو المرآة التى تنعكس عليها حياة العرب قبل الإسلام ، وأنه من أهم مصادر هذه الحياة ، وهاهو ذا ينطق بأجلى بيان موضحاً اتجاهات المشاركة فى المال ، هذه الاتجاهات التى سادت بقلب الجزيرة العربية ، فلم تدع الجوع يعيش بجانب التخمة ، وهذه الاتجاهات تحمل شعارات الفخر لهذا المجتمع العظيم الذى سلك هذا السبيل بحكم تكوينه من جهة ، وبحكم ميوله الفطرية الطيبة من جهة أخرى .

٢ — المناطق العربية شديدة الاتصال بالفكر الخارجى .

تتمثل هذه المناطق فى الأمكنة التى اتصل فيها العرب بطريق السياسة أو التجارة بغير العرب كأرض الغساسنة واليمن ، كما تتمثل فى المناطق التى زحف لها عنصر ليس عربياً واستوطنها مثل يثرب وتتمثل كذلك فى مكة حيث كان البيت المقدس يستقبل حجاجا

---

(1) Tradition Chevaleres que des Arabes P. 321

(٢) الفتوة عند العرب ص ٦٥ ، ٦٦ بتصرف .

من الشمال أو الجنوب لهم اتجاهات اقتصادية برزت فى مواكبهم إلى مكة، وأخذها عنهم سدنة الكعبة وكبار الشيوخ بالمدينة المقدسة، وفى هذه المناطق أو تلك كان مظهر الاقتصاد مختلفاً عن مظهر الاقتصاد عند العرب الخلص الذى شرحناه آنفا، وسنقوم فيما يلى بإبراز مظاهر هذا الاقتصاد :

فى جنوب الجزيرة العربية باليمن كانت الأرض خصبة، وكانت الأمطار تهطل بشكل منتظم، وقد عنى القوم - كما ذكرنا من قبل - بالسدود لحسن الانتفاع بهذه المياه، وترتب على ذلك أن استطاع أهل اليمن أن يباشروا الزراعة، وتحقق لهم الاستقرار تبعاً لذلك، فقامت ممالك ومدن وقرى على هذا الشاطىء، وتكوّن فيها ما يمكن أن يسمى بعصبية المملكة أو المدينة، وهى تقابل العصبية القبلية بقلب الجزيرة [1]، وحظيت اليمن بغنى عظيم نتيجة للزراعة ونتيجة للتجارة البحرية والبرية التى كانت تباشرها، وقد تكلمنا عنها من قبل، فأصبح لدى اليمن فائض امتلكه بعض الناس فامتازوا به على سواهم وظهر تبعاً لذلك نظام الطبقات باليمن.

وفى دائر الجزيرة العربية من ناحية الشمال وجدت دولتا المناذرة والغساسنة وكانت هاتان الدولتان تمثلان حلقة الاتصال، أو - بتعبير آخر - الحاجز الوقائى بين البدو فى الجزيرة العربية من جانب، ودولة الفرس ودولة الروم من جانب آخر، وملوك الحيرة وغسان من سلالة يمنية نبتوا فى أرض الطبقات أو بتعبير العصر الحديث أرض الرأسمالية، ثم التقوا فى حياتهم الجديدة بدول الشمال التى كان النظام الطبقى بها فى أشد مظاهره، وعلى هذا عنى ملوك الحيرة وملوك الغساسنة بحياة الترف وحياة القصور يحاكين قياصرة الرومان وأكاسرة الفرس، وكان هؤلاء الملوك العرب

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٦٥

وثيق الصلة بتاريخهم القديم. فجعلوا قصورهم الضخمة على مثال قصور اليمن، وأعظم دليل على ذلك، هذان القصران العظيمان اللذان بناهما ملوك الحيرة محاكين بهما قصور اليمن، وهذان القصران هما «الخورنق والسدير».

وهكذا وُجدت حياة الطبقات فى دولتى الشمال امتداداً لحياة الطبقات فى اليمن وتأثراً بحياة الطبقات فى دولتى الفرس والروم .

وهناك مركز آخر فى الجزيرة العربية وضحت به مظاهر الطبقية، ذلك المركز هو مكة المكرمة، ومكة المكرمة مكان مقدس عند العرب منذ بنى إبراهيم وإسماعيل البيت الحرام، وكان كثير من الوافدين إلى مكة من اليمن أو من دولتى الشمال يمثلون مظاهر الغنى والثراء ببلادهم، وكانت مواكبهم العظمى تمثل الحياة الطبقية أدق تمثيل، وقد انتقلت عن طريق هؤلاء حياة الطبقية إلى مكة، فوجدت بها طبقة أرستقراطية تنعم بالغنى والترف، كما وجد بها جحافل من العبيد والضعفاء .

ولم يكن الحجاج فقط هم الذين جلبوا الغنى وبالتالى نظام الطبقات إلى مكة، بل إن تجارة قريش كانت أيضا سببا مهما لهذه النتيجة .

وكان تجار مكة يربحون فى تجارتهم الدينار ديناراً، فأصبحت مكة جمهورية صغيرة تجارية، يرأسها الموسرون من أكابر قريش ومقدمها الذين أتاحت لهم مـــوارد التجارة ومناصب البيت الحرام جاها، ووسائل للترف على أوسع نطاق .

وراجت تجارة مكة فأخذت قريش توطد مركزها فى البلد الحرام، فسنّت — كما قلنا من قبل — رحلتى الشتاء والصيف، رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام، فارتفعت مكانة مكة فى الجزيرة، واعتُبرت العاصمةَ المعترف بها، وسَمَتْ منزلة سوق عكاظ فأصبح ملتقى الخطباء وقطب

الدائرة الفكرية فى الجزيرة ، وهو أمر لم يسبق له مثيل فى ثقافة اليمن القديمة أوفى مجالس الأدب وحلقاته الزاهرة فى بلاط الحيرة والغساسنة . وكان قصى مؤسسَ مجد قريش فابتنى فى الشطر الأخير من القرن السادس دار الندوة ليجتمع فيها كبراء أهل مكة تحت إمرته وليتشاوروا فى مهام بلدتهم (١)

وهكذا كان النظام الطبقى هو صورة الحياة فى مكة ، وعندما جاء الإسـلام كان بمكة الوليد بن المغيرة الذى قال القـرآن الكـريم عن مكانته وعن ثرائه « ذرنى ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيدا . كلا . . » (٢) كما كان بها من الأغنياء أبوسفيان وعثمان بن عفان وأمية بن خلف ، وبجوارهم جمهرة من الفقراء والضعفاء والمحتاجين .

ومن مظاهر الغنى لدى أرستقراطية مكة أن زحفَ هؤلاء فامتلكوا كثيراً من أرض الطائف الخصبة وحدائقها الغناء لتكون مصيفاً لهم ومصدراً من مصادر ثرائهم .

بقى فى الجزيرة العربية مركز رأسمالى طبقى لم تـكوّنه الظروف السابقة ، بل كوّنته هجرة عنصر غريب إليه ، وهذا العنصر يهتم بالمال وجمعه اهتماماً بالغ الغاية ، وهذا المركز هو يثرب ، والعنصر الغريب هم اليهود ، وإلى الشمال من يثرب وجدت مراكز مماثلة ولـكنها أصغر حجماً وأقل نشاطاً وهى خيبر وتيماء ووادى القرى وفدك .

وكان اليهود يشتغلون بالتجارة ويعقدون الأسواق ليقصدها الأعراب

---

(١) انظر الترجمة العربية لكتاب « History of the Arabs » جـ ١ ص ١٤٥ ففيه زيادة عن الأصل الإنجليزى p.104 (مترجم الـكتاب هو مؤلفه الدكتور فيليب حتى)

(٢) سورة المدثر الآيات ١١ – ١٦ .

للامتيار، وكانوا أيضاً يزرعون الأرض التى يعيشون بها وينتجون ما يحتاجه الأهلون ، كما كانوا يحترفون بعض الحرف مثل الصياغة ، وهى حرفة اشتهروا بها منذ عهد بعيد ، على أن جل اعتماد اليهود كان على معاطاة الربا وقرض الأموال بربا فاحش للأعراب ، واشتغال اليهود بالربا جلب لهم أرباحاً طائلة ؛ ولا يعنى الربا عندهم إقراض مال بمال فقط ، بل كان اليهود يرابون بالأشياء العينية كالقمح والشعير فى مقابل أضعافها عند استحقاق الأجل وفى مقابل أشياء عينية من نوع آخر أحياناً لأن النقود بأنواعها لم تكن كثيرة آنذاك ؛ وقد كان تحريم الإسلام للربا ضربة قاصمة لظهورهم ، وكان من أسباب وقوفهم موقف التحدى للإسلام . ومن المظاهر الاقتصادية التى مارسها اليهود ، أنهم كانوا يجلبون الخمر من بلاد الشام ، كما كانوا يبيعون بأجل نظير رهن يودعه المشترى [1] .

وبهذه الوسائل تكدست أموال طائلة عند اليهود ، وأصبح تجارهم يكوّنون طبقة عظيمة الثراء ، وعن ثرائهم يتحدث القرآن الكريم: (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأرضاً لم تطئوها [2]) .

وإجمالاً لكل ما سبق نقرر أن المشاركة كانت مظهر الحياة عند البدو فى قلب الجزيرة العربية ، وأن حياة الطبقات والرأسمالية كانت مظهر الحياة الاقتصادية فى اليمن ودولتى الشمال وفى مكة ومراكز اليهود .

---

(١) دكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ٦ صفحات ٢٢ ، ٢٣ ، ١٢٥ بتصرف .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢٧

الحياة الاجتماعية

فى الجزيرة العربية قبل الإسلام

فيما يلى من صفحات ، نورد أبرز صور الحياة الاجتماعية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وهذه الصور لها أهمية كبيرة فى فهم موقف العرب من الإسلام عندما ظهرت دعوته ، ويلاحظ أن الفروق من الناحية الاجتماعية بين البدو وبين الحضر أقل جداً من الفروق فى الناحيتين السياسية والاقتصادية لأن وحدة العنصر العربى ، والصلة بين البدو والحضر عبر القرون وحّدت الاتجاهات الاجتماعية تقريباً وأشاعت هنا وهناك عادات وتقاليد واحدة أحياناً ومتقاربة فى أكثر الأحايين ، ثم إن العوامل الطارئة لا تستطيع أن تؤثر فى الحياة الاجتماعية بمثل تأثيرها فى الحياة السياسية والاقتصادية . وسنبدأ بإيراد أهم ملامح الحياة الاجتماعية عند البدو ، تلك الملامح التى يتميز بها البدو عن الحضر ، ثم ندرس موضوعات كبيرة الأهمية هى: الشعر والدين والأسرة ، وستمدنا تلك الموضوعات بأهم ما يعنينا فى دراسة المجتمع العربى قبل الإسلام .

الحياة الاجتماعية عند البدو

أهم ما يمتاز به البدوى أن نسبه صريح لم يدخله اختلاط ، وذلك لتعمقه فى الصحراء فى حياة لا تغرى أحداً بها ولا تجذب الأنظار إليها ، بل إنها مخيفة لا يستطيع الرواد أن يأملوا فى السلامة فيها إن اقتحموها ، ومن هنا بقى العنصر البدوى سليم النسب كما حدث فى مضر وكنانة وثقيف وغيرها [1] :

(١) مقدمه ابن خلدون ص ١٢٩ .

وكما ضمنت البادية سلامة النسب للبدو فقد ضمنت لهم أيضاً سلامة اللغة العربية عندما فسدت هذه اللغة فى مواطن الحضر بسبب الاختلاط الذى تـمّ بين العرب وغير العرب ، وأصبحت البادية لذلك مدرسة يدخلها من أراد أن يتلقى اللغة الصحيحة والعربية الفصيحة [١] .

وحياة البادية استلزمت العصبية ، إذ كانت العصبية وحدها وسيلة لحماية القبيلة من اعتداء الآخرين ، ولا يمكن أن يعيش فى البادية شخص أو أشخاص دون أن يكونوا أفراداً فى قبيلة يحمونها وتحميهم ، فإذا وجد شخص أو أشخاص قليلون فى البادية تخطفتهم القوى البدوية التى ترى من حقها أن تمتلك الضعيف وتأسره إلا أن يلجأ هذا الشخص إلى جوار قبيلة ، وحينئذ تحميه عصبية هذه القبيلة التى دخل فى جوارها [٢] . وقد ترتب على ذلك أن فقد البدوى شخصيته فأصبح فرداً فى قبيلة يثور معها عندما تثور دون أن يسأل : لماذا تثور [٣] .

وإذا كانت القوة هى سلاح البدوى يعتدى بها على الضعيف دون سبب، فإن الثأر هو أقرب ما يكون للعدالة فى البادية ، وقانون الثأر هو أنه إذا قتل رجل من قبيله فرداً من قبيلة أخرى ، فإن الأخذ بالثأر يصبح لزاماً على أفراد قبيلة المقتول ، فيحق لكل منهم أن يقتل من يصادفه من أفراد قبيلة القاتل ؛ ومن الواضح تبعاً لذلك أن قتل شخص من قبيلة كان يستدعي حروباً طويلة قد تمتد عدة سنوات لتعدد الأخذ بالثأر ، ولهذا ظهرت أيام العرب التى تصف حروبهم ومعاركهم التى كانت تشترك فيها أحياناً عدة أجيال ، مع أنها لم تقم

---

(١) اقرأ ما كتبه المؤلف عن « البادية » فى كتابه « تاريخ التربية الإسلامية » واقرأ نماذج لفساد لغة الحضر فى عيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد وغيرهما .

(٢) اقرأ مقدمة ابن خلدون ص ١٢٧

(٣) اقرأ المجتمع الإسلامى للمؤلف .

فى بادىء أمرها إلا للأخذ بثأر شخص واحد[١] . وإنما قلنا آنفا إن الثأر أقرب ما يكون للعدالة لأنه ناجم عن اعتداء سابق فهو قصاص غير منظم ، والثأر بالنسبة لحياة البادية أعدل من الاعتداء دون سبب الذى كان كثيراً ما يقع فى البادية كما ذكرنا آنفا .

واحتراماً لحرمة الكعبة التى كان يفد إليها العرب حاجين أو معتمرين ، اتفق العرب — كما سبق القول — على تحريم القتال والغارات فى شهور أربعة من السنة سميت الأشهر الحرم ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وتلك هى شهور الحج ثم رجب وهو شهر تكثر العمرة فيه ، غير أن البدو كان يثقل عليهم أن يوقفوا الغارة ثلاثة شهور متتالية ، ولذلك كانوا كثيراً ما يستبدلون بالمحرم صفراً فيحلون المحرم ويحرمون صفراً بدله ، وذلك ما يسمى بالنسىء وكانوا يفخرون بذلك ، وفيه يقول شاعرهم :

ألسنا الناسئين إلى معد شهور الحل نجعلها حراماً

وقد عاب القرآن الكريم عليهم ذلك قال تعالى : (إنما النسىء زيادة فى الكفر . .)[٢]

ويرى بعض الكتاب[٣] أن تحريم القتال فى هذه الأشهر كان بسبب رغبة العرب فى الحد من سفك الدماء ، ورأيى أن التجاءهم للنسىء وشوقهم للغارة يعارض هذا القول ، ولذلك أميل إلى ما ذكرته آنفا من أن تحريم هذه الأشهر كان ذا علاقة بالحج ، واتخذ للتحريم وسيله لأمان التجارة والتنقل ، أما شهر رجب فقد حرموه لأنهم استطالوا الشهور التسعة فى الحرب والصراع

---

(١) اقرأ أيام العرب فى الجاهلية للاستاذ جاد المولى وزميليه .
(٢) سورة التوبة الآية ٣٧
(٣) انظر التاريخ السياسى للدولة العربية للدكتور ماجد جـ ١ ص ٥٠

وما يسببه ذلك من كساد للتجارة ، ثم انتهزوا فرصة تحريمه فاعتمروا فيه .

والشجاعة من مستلزمات البادية فإذا كان الحضر قد ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة كما يقول ابن خلدون ووكلوا أمرهم فى المدافعة عن أموالهم وأنفسهم للحاكم ... فإن أهل البدو قائمون بالمدافعة عن أنفسهم ، فهم دائما يحملون السلاح ويتفردون فى القفر ، لهذا صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية[1] .

وإذا قارنا أخلاق البدو التى ذكرناها آنفا بما يقابلها من أخلاق الحضر وأضفنا لها شظف الحياة فى البادية ولين العيش فى الحضر اتضح لنا ما يقوله ابن خلدون من أن البدو للحضر كالوحش غير المقدور عليه وكالمفترس من الحيوان[2] ويبدو لى أن ابن خلدون وصف جانبا وترك جانبا آخر أكثر شيوعا فى العلاقات بين البدو والحضر ، فالبدوى مع ميله للسلب أدرك أن السلب سينتج حرمانه ؛ لأن الحضر سيعملون على حماية أنفسهم منه . ولذلك لجأ البدوى إلى أساليب آخر للكسب من الحضر ، وذلك عن طريق العمل لهم والمقايضة معهم وغير ذلك من الأساليب ، وإن كان ذلك لم يضع حدا لأسلوب العنف الذى وصفه ابن خلدون.

وكان من نتيجة صفات البادية وصفات البدو التى أشرنا لها فيما سبق أن أصبح قلب الجزيرة مجهولا ، إذ أنه لم يجذب إليه الرحالة ، ولم يستطع أهل الحضر أن يجازفوا بدخول هذا المجهول ، ولم تزل البادية كذلك إلى أن أتاحت لها الأقدار ، بعد ظهور محمد عليه الصلاة والسلام ، أن يقص أخبارها من نزح عنها من أهلها وأن يقف العالم على كثير مما كان العالم من قبل ذلك فى أتمّ الجهل به[3] . وعلى هذا فمعرفتنا بالبادية لاتتعدى قرناً ونصف قرن قبل الإسلام كما سبق القول .

---

(١) المقدمة ص ١٢٥

(٢) المرجع السابق ١٢١

(٣) دكتور هيكل : حياة محمد ص ٧٤

وكان من نتيجة صفات البادية أيضاً أن نجت الجزيرة العربية من الاستعمار ، فليس فى الصحراء القاحلة ما يجذب أنظار المستعمرين من الفرس أو الروم الذين كانوا يبحثون عن الصيد السمين كما يبحث البدوى عن مواطن العشب ، واكتفت انجلترا أم الاستعمار فى العصر الحديث بالساحل تحرس به مصالحها البحرية حتى إذا ظهر الذهب الأسود فى بعض نواحى البادية بدأ الاستعمار يتطلع لها ولكن يقظة العالم حالت دون زحف الاستعمار ، كما أن الاستعمار استحدث أساليب استعمارية جديدة تناسب العالم العربى والعالمى .

على أن هؤلاء البدو استطاعوا أن يلعبوا دوراً هاماً فى تجارة العالم فى تلك الأزمان السحيقة ، فكما أن الطريق المائى عبر قناة السويس يلعب الآن دوراً هاماً فى تجارة العالم ويربط الشرق بالغرب ، فقد كان طريق القوافل فى العهد الجاهلى يلعب نفس الدور فى عهد لم تكن قناة السويس قد شقت ، ولم تكن سفن ذلك العهد تستطيع استعمال البحر الأحمر المملوء بالجزر التى تجعل الملاحة خطراً عليها ، ومن عيوب الملاحة فى البحر الأحمر أيضاً أن شواطئه قليلة الموانىء وأن به كثيراً من الشطوط الضحلة التى كان اقتراب السفن منها أمراً محفوفاً بالخطر (١) . ولم تكن السفن كذلك تستطيع استعمال الخليج الفارسى بسبب وجود الفرس على ساحله الشمالى وهم أعداء لسكان حوض البحر المتوسط . وعلى هذا أصبحت المواصلات البرية هى الطريق المهم للتجارة عبر البادية بين الشمال وبين الجنوب ، ثم بين الشرق وبين الغرب ، وقد حدد البدو أماكن للراحة والاستجمام على طول الطريق فكانت بمثابة محطات يتزودون منها بالماء والزاد ؛ وكانت كذلك بمثابة مخازن يودعون بها بعض المتاجر لتلحق بقافلة أخرى عبر طريق آخر (٢) ، وقد أوردنا مزيداً من الكلام عن هذا الموضوع عند الحديث عن تجارة قريش .

---

(١) عصور الازدهار فى الجزيرة العربية : مقال الدكتور نقولا زيادة بمجلة القافلة (رمضان ١٣٧٨ هـ) ص ٢

(٢) انظر حياة محمد للدكتور هيكل ص ٧٧ .

الشـــعر (*)

تفيدنا دراسة الشعر الجاهلي من ثلاث نواح :

أولا — دراسة الشعر العربي لذاته كفن له قيمة خلابة عند العرب .

ثانياً — دراسة الشعر العربي كعامل شديد التأثير في الحياة العربية .

ثالثاً — دراسة الشعر العربي كمصدر يصور لنا كثيرا من عادات العرب وأخلاقهم .

وفيما يلي دراسة موجزة لكل من هذه النواحي .

فالشعر عند العرب كان أجمل الفنون التي يحتفون بها ويمجدونها ، وطالما كانوا يجتمعون حول الشعراء ليسمعوا لهم وليصفقوا لقصائدهم ، كما يجتمع الناس الآن حول مغن عظيم أو موسيقي شهير ؛ وكانت هناك أسواق العرب : عكاظ ومجنة وذو المجاز (1) ، وفيها كان العرب يجتمعون للتجارة وكان الشعراء ينتهزون فرصة هذا الاجتماع ليلقي كل منهم أجود ما أعدَّ من شعر ، وكانت قبيلة الشاعر تقف حوله وهو ينشد شعره تشجعه وتفخر به ، وكانت أمهات القصائد تُختار لتعلَّق في الكعبة غير بعيد من معبوداتهم كما سبق القول ، وكانت عكاظ أشهر الأسواق في مجال الشعر .

وكانت منزلة الشعراء عند العرب عالية جدا ، وكانت لهم أسمى مكانة في نفوس الناس ، فإذا ظهر في القبيلة شاعر مجيد أقبلت إليها وفود القبائل الأخرى للتهنئة ، وكانت قبيلته تقيم الأفراح وتنحر الذبائح ، وتقدم الأطعمة للناس ، وتخرج نساء القبيلة يعزفن الموسيقى ويرقصن ويغنين ، إذ كان

(*) مراجعنا في الحديث عن الشعر وأثره عند العرب كثير من كتب الأدب والتاريخ وبخاصة كتاب المرحوم الأستاذ محمد هاشم عطية « الأدب العربي وتاريخه » فهو من خير ما كتب في ذلك الموضوع .

(١) عكاظ بين نخلة والطائف ، وذو المجاز ومجنة حول عرفات .

الشاعر يدافع عن القبيلة بشعره ولسانه أكثر مما يدافع الفارس عنها بسيفه وحرابه ، كما كان هو الذى يسجل الأحداث والوقائع ، ويرد على شعراء القبائل الأخرى إذا تحدثوا عن قبيلته بما لا تحب .

* * *

أما عن تأثير الشعر والشعراء عند العرب فإن الشاعر كان يمدح الخامل فيرفع ذكره ، ويذم الشريف فيقلل قدره ، وفيما يلى نماذج قليلة تدل على مدى ما كان للشعر عند العرب من تأثير عميق :

الأعشى وعبد العزى بن عامر :

كان عبد العزى بن عامر رجلا كثير البنات سيء الحال ، رغب طلاب الزواج عن بناته فكعدن ، فمدحه الأعشى بقصيدة قال فيها :

أبا مسمع سار الذى قد فعلتمو … فأنجد أقوام به ثم أعرقوا
يداك يدا صدق : فكف مبيدة … وأخرى إذا ماضنّ بالمال تنفق

فسار ذكره ، وحسنت حاله وتزوجت بناته .

الحطيئة وبنو أنف الناقة :

وكان جماعة من تميم ينتسبون إلى جدهم « أنف الناقة » ، ولكنهم كانوا يخجلون من هذه النسبة ، وإذا سئل الواحد منهم عن نسبه قال : من بنى قريع بن عوف (والدجعفر أنف الناقة) ولا يذكرون أنف الناقة ، فزارهم الحطيئة فأكرموه . فقال فيهم قصيدة منها :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم … ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا ؟

فاحترمهم العرب لهذا النسب بعد ذلك ، وأصبحوا هم ينتسبون لجدهم أنف الناقة ، ويفخرون به بعد أن كانوا يخجلون منه .

حسان بن ثابت وبنو عبد المدان :

كان بنو عبد المدان يمتازون بطول الأجسام وعظمها ، وكانوا يفخرون بذلك على الناس فهجاهم حسان بن ثابت بقصيدة قال فيها :

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير

فشاع ذلك البيت بين الناس وحفظوه ، وكان بنو عبد المدان كلما ظهر واحد منهم بجسمه الفاره صاح الأولاد يرددون هذا البيت حتى أصبح بنو عبد المدان يستحون من طولهم ويتمنون لو كانوا قصاراً. فاتصل بعضهم بحسان بن ثابت وقدم له هدية ثمينة ، وشكا له ما نالهم بسبب شعره . فقال حسان : سأصلح ما أفسدت ، ونظم قصيدة أخرى قال فيها :

وقد كنا نقول إذ التقينا بذى جسم يهاب وذى بيان
كأنك أيها المعطى بياناً وجسما من عبد المدان

• • •

ذاك هو الشعر وتلك أهميته وتأثيره ، ونجيء بعد ذلك إلى الشعر كمصدر يصور لنا حياة العرب وأخلاقهم وعاداتهم ، والباحثون يتفقون على أن الشعر الجاهلى كان أهم مصدر حفظ لنا صورا من حياة عرب الجاهلية ، وكان وسيلة سُجِّل بها تاريخ العرب . كما كانت الأهرام والمعابد والمسلات وما نقش عليها مصدرا لتاريخ المصريين ، فالذى يقرأ الشعر العربى يجد فيه حياة العرب واضحة ، فيجد الصحراء والخيام ، والملاعب وموارد المياه ، ويجد أحاديث السادة ، ومنجبات النساء ، وعتاق الخيول ، وأوصاف السيوف ، ويرى تاريخ وقائع العرب وحروبهم وصور عاداتهم وأخلاقهم ، وسنذكر فيما يلى بعض النماذج الشعرية التى تصور هذه الحياة الاجتماعية وتدون تاريخ الحياة العربية ونظمها :

البسوس :

حرب البسوس من أهم الحروب التى وقعت بين العرب . وكانت بين بكر وتغلب ، وقد استمرت أربعين سنة ، وسبب هذه الحروب أن جساس ابن مـــرة من بكر قتل كليب بن ربيعة من تغلب ، وكانت جليلة أخت

جساس زوجة لكليب ، فلما جلس نساء تغلب فى مأتمه طلبوا أن تخرج جليلة من المأتم لأنها أخت القاتل ، فخرجت باكية على زوجها ، ولكن أخت القتيل اتهمت جليلة بالميل لأخيها ، فأنشدت جليلة القصيدة الرائعة الآتية :

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا　　تعجلى باللوم حتى تسألى
فإذا أنت تبينت الذى　　يوجب اللوم فلومى واعذُلى
إن تكن أخت امرىء ليمت على　　شفق منها عليه فافعلى
جلَّ عندى فعل جساس فيا　　حسرتى عما انجلت أو تنجلى
يا قتيلا قوض الدهر به　　سقف بيتىَّ جميعا من عل
هدم البيت الذى استحدثته　　وانثنى فى هدم بيتى الأول
يشتفى المدركُ بالثأر وفى　　درك ثأرى ثكلٌ للمثكَل

وكان من أعظم الأيام التى انتصرت فيها تغلب على بكر يوم الذنائب (موضع بنجد) وقد سجله مهلهل بن ربيعة فى قصيدته التى يقول فيها :

فإن يك بالذنائب طال ليلى　　فقد أبكى من الليل القصير
فلو نبش المقابر عن كليب　　ليُخبَرَ بالذنائب أى زير ؟

وهكذا كان للشعر أهم مصدر يرينا أحداث هذه الحرب الضروس

عقر الرواحل على قبور الأبطال :

كان من عادة العرب فى الجاهلية أن يعقروا رواحلهم على قبور أبطالهم وسادتهم ، وقد مر حسان بن ثابت على قبر أحد الأبطال فقال :

نفرت قلوصى من حجارة حرة　　بنيت على طلق اليدين وهوب
لولا السفار وبعد خرق مهمه　　لتركتها تحبو على العرقوب

كرم العرب ووسائل الاستضافة :

واشتهر العرب بالكرم ، ولهم فيه ضروب شتى ، وها هو حاتم الطائى ذائع الصيت فى الكرم ، يروى عنه أنه مر بأسير لا يستطع أن يفتدى نفسه وطلب منه الأسير المساعدة ، ولم يكن مع حاتم ما يدفعه فداء للأسير ، فلم يجد حاتم طريقاً إلا يضع نفسه موضع الأسير ليُطْلَق الأسير ؛ وظل حاتم فى الأسر حتى افتداه أهله . والشعر العربى هو أعظم سجل لكرم حاتم ولاهتمام العرب بالكرم والثناء على الكرماء .

وكان من عادة العرب أن يشعلوا النيران على ربوات عالية ليراها السارون فى الصحراء فيهتدوا بها ويأتوا ضيوفاً على أصحابها ، ومن عاداتهم كذلك أن السارى إذا ضل طريقه ولم ير نارا نبح كما تنبح الكلاب ؛ فتجيبه الكلاب على نباحه ، فيهتدى بذلك إلى مكان الحى ، وكانت الكلاب التى تهدى ضالا تكافأ على ذلك بنصيب من لحوم الماشية التى ستذبح لاستضافة القادمين ، وكل هذه العادات عرفناها من قول نابغة بنى جعدة :

عوى فى سواد الليل بعد اعتسافه ليَنبحَ كلب أو ليفزع نوَّم
فجاوبهُ مستسمع الصوت للقِرَى له عند إتيان المُسلمِّين مطعم
يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلاً يكلمه من حبه وهو أعجم

وظل الكرم صفة مميزة عند العرب بعد الإسلام . وكان لطلحة بن عبيد الله باع واسع فى مجال السخاء حتى أصبح اسم « طلحة » يعنى الكرم ، وطلحة الطلحات يعنى أكرم الكرماء ، وعن كرم طلحة يقول قبيصة ابن جابر : صحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت أعطى لجزيل مال من غير مسألة منه ، وقد اشتهر بالكرم طلحات خمسة هم طلحة بن عبيد الله الذى كان يلقب طلحة الفيَّاض ، ثم طلحة بن عامر ويلقب طلحة الجـواد ،

وطلحة بن عبد الله بن عوف ويلقب بطلحة الندا ، وطلحة بن الحسن بن على ويلقب طلحة الخير وطلحة بن عبد الله بن خلف ويلقب طلحة الطلحات[1] ، وكانت التسمية بطلحة تيمناً بطلحة بن عبيد الله وتفاؤلا بأن يسير المسمى على منواله فى الكرم رضى الله عنه .

الطلاق :

وكان العرب يعرفون الطلاق . وفى ذلك يقول الأعشى :

أيا جارتى بينى فإنك طالقه كذاك أمور الناس غاد وطارقه

أسماء الخيول :

سجل العرب أسماء خيولهم العتاق فى الشعر ، كقول خالد بن جعفر فى حصانة « حذفة » :

فمن يك سائلا عنى فإنى وحذفة كالشجا تحت الوريد

منجبات النساء :

وكان العرب يهتمون بالمنجبات من النساء ويشيرون إليهن فى الشعر ، وقد عرف ذلك من قول لبيد فى رجز طويل :

« نحن بنى أم البنين الأربعة »

تحريم الخمر :

ومن العرب من حرم الخمر على نفسه ، ومن هؤلاء قيس بن عاصم وفى ذلك يقول :

لعمرك إن الخمرَ ما دمت شاربا لسالبةٌ مالى ومُذهبة عقلى

وتاركةٌ بين الضعيف قرامهُ ومورثة حرْبَ الصديق بلا ذحل

---

(١) ابن ناقيا البغدادى : الجمان فى تشبيهات القرآن ص ٢٨٥

زواج امراة الأب :

وكان الرجـــل يتزوج امرأة أبيه بعد موته ، وقد سجّل عمرو بن معد يكرب ذلك حينما كرهته زوجته التى كانت زوجة أبيه :

فلولا إخوتى وبنىٌّ منها ملأتُ لها بذى شُطب يمينى

الله والحساب :

وبين وثنية الجاهلية كان هناك من أدرك أن للخلق خالقا . وأن لهم معاداً ولأعمالهم حساباً ، يقول زهير بن أبى سلمى :

فلاتكتُمنّ الله ما فى نفوسكم ليخفى،ومهما يُكتم الله يعلم
يؤخَّرْ فيوضعْ فى كتاب فيدخر ليوم حساب أويعجل فيُنْـقَـم

• • •

وهكذا كان الشعر مصدرا مهما صور حياة العرب وأخلاقهم وعاداتهم :

الدين

هناك حقيقة متفق عليها بين علماء تاريخ الأديان وهى أن الإنسان متدين بطبعه ، وقد عبر معجم (لاروس) للقرن العشرين عن هذه الحقيقة بقوله : « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية ، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية . . . وإن هذه الغريزة الدينية لا تختفى بل لا تضعف ولا تذبل » (1) .

ويقرر الفلاسفة العالميون أن الإنسان شديد الارتباط بالتدين ، فيقول برجسون الفيلسوف الأمريكى : قد نجد فى الماضى أو الحاضر مجتمعات بشرية لا تعرف العلم ، أوالفن ، أو الفلسفة ، ولكن ليس ثمة مجتمع بلا دين .

ويقول الفيلسوف وليم جيمس : يرجح لدينا أن الناس سيظلون يصلون إلى آخر الزمان .

ويقول إرنست رينان : من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه ، وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها . . . ولكن يستحيل أن يمحى التدين (2) .

وشرح بارتيمى سانت هيلير نشأة التدين بقوله : ما العلم ؟ ما الإنسان ؟ من أين جاءا ؟ من صنعهما ؟ ما نهايتها ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ماذا بعد

---

(1) Larousse Article Religion نقلا عن كتاب « الدين » للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٧٥ — ٧٦ .

(2) اقتباسات من « الله ذاتا وموضوعا » للأستاذ عبد الكريم الخطيب ص ١٩

الموت ؟ . . . هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع إلا وضع لها حلولا جيدة أو رديئة ، مقبولة أو سخيفة ، وهذا هو التدين (١) .

وعلى هذا إذا ظهر فى الدنيا أفراد أو جماعات ينكرون وجود الله ويحاربون التدين فليس ذلك إلا مقاومة للغريزة الموجودة فيهم ، وطالما تقاوم الغرائز لدافع من الدوافع .

ثم إن الغريزة الدينية صفة من الصفات التى تربط بين البشر ، وهى تفوق فى قوتها علائق الدم والجنس والوطن .

ويختلف علماء تاريخ الأديان فى تحقيق الظروف التى تنمى غريزة التدين ، فيرى بعضهم أنها تنمو حيث يرقى الفكر وتسمو الثقافة وحيث يصل الإنسان إلى مستوى يفكر فيه فى نفسه وكيف خُلِق ، وفى القُوَى التى منحت له ، وكيف يسمع ويبصر . . . (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) (٢) . ويفكر فى الكون الذى يحيط به وفى ملكوت السموات والأرض (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت) (٣) .

ويرى علماء آخرون أن هذه الغريزة تنمو حيث يواجه الانسان قوى الطبيعة ، وحيث يشتد إحساس الإنسان بالضعف أمام بعض القوى ، وإحساسه بالحاجة إلى حماية نفسه منها ؛ كالانسان البدائى الذى يرى المطر والريح ، والمرض والموت والحيوانات الفتاكة ، فيحس بالضعف ويطلب الحماية .

وقد أدرك الغرب أن الغريزة الدينية موجودة دائماً ، كما أدرك أنها من أقوى

---

(١) Muhamet et le Coran نقلا عن « كتاب الدين » ص ٧٦ .

(٢) سورة الذاريات الآية ٢١ .

(٣) سورة الغاشية الآيات : ١٧ - ٢٠ .

الصلات بين البشر ، وأدرك كذلك سهولة إيقاظ هذه الغريزة عند مَن يواجهون قوى الطبيعة من سكان إفريقية وآسيا ، فاستغلّ الغرب هذه المعارف لنشر المسيحية فى هذه البقاع .

وهناك رأى ثالث يرى أن غريزة التدين تنمو تبعاً للرخاء وهدوء البال ، إذ يجد الإنسان فراغا من الوقت ليفكر فى غير أمور المعاش ، وليصل فى تفكيره إلى الكون وخالقه ومدبّره .

وتبعا للعلة فى نمو غريزة التدين يتخذ العرب مكانهم بين المتدينين ، فالذين يرون الرأى الأول وهو ربط التدين برقى الفكر يعتقدون أن العرب لم تَرْقَ عندهم غريزة التدين إلا لدى من أتيح له العلم والثقافة كأمية بن أبى الصلت وورقة بن نوفل ، والذين يتجهون الاتجاه الثانى وهو مواجهة الإنسان لقوى الطبيعة يرون أن نمو الغريزة الدينية عند العرب كان قويا نتيجة لهذا الوضع فى حياتهم ، والذين يرون الرأى الثالث وهو أن الرخاء وهدوء البال لهما أكبر الأثر فى إبراز غريزة التدين ، يرون أن هذه الغريزة كانت أعمق حيث الغنى باليمن والمدينة وكانت الغريزة سطحية فى أماكن الجفاف والفقر .

على أن جفاف الجزيرة العربية هو فى الحقيقة حديث عهد بالنسبة لعمر الإنسان ، فقد دلت الأبحاث العلمية على أن الجزيرة العربية كانت قديما رياضا خضراء منحت أهلها ألوانا من الرخاء ، فلا يبعد أن يكون نمو الروح الدينية انحدر من ذلك التاريخ ، وإنما نقول ذلك لأن من المشاهد الذى لا ريب فيه أن روح التدين قوية جداً عند العرب ، وأن قوة هذه الروح كانت من الأسباب التى جعلتهم يصارعون الإسلام عندما جاء ، لتمسكهم بأديانهم وشدة ارتباطهم بمعتقداتهم ، ولو كانوا قليلى الاهتمام بالتدين لتركوا الإسلام يلحق به من يشاء ويعرض عنه من يشاء ، ولكنهم حاربوه بعنف حتى هزموا ، ثم تمسكوا به بعد ذلك ، وأصبح الإسلام بمرور الزمن عقيدتهم الراسخة ،

وجزءاً هاماً من فكرهم الاجتماعى : ولا يزال العربى حتى اليوم ـ متعلما كان أو غير متعلم ـ شديد الحرص على دينه ، يعمل على نشره ويذود عنه ماوسعه ذلك ، وفى إندونيسيا رأيت العرب الحضارمة ورأيت الهنود ورأيت الصينيين وليس بين هذه الطوائف طائفة حريصة على دينها وعلى نشره كالعرب ، مع أن الصينيين والهنود أغنى بكثير من العرب . والتدين الذى نقصده هنا هو التدين العام ، أما الطقوس والعبادات فطالما ضجر منها البدوى لأنه كان يعتبرها قيوداً وهو لم يألف حياة القيود .

والاتجاه للتدين استقام أحياناً وانحرف كثيراً ، فإذا كان بعض الناس عرفوا الله أو قربوا منه فإن أكثر الناس عبدوا الأشجار والكواكب ، والأبطال والحيوانات والأحجار ، ويقول سوريس ديمومبين[1] إنه فى عهد الجاهلية كانت الآلهة ذات الصفات المحدودة تسيطر كل منها على قبيلة مهمة أو غير مهمة ، وكانت عبادة القبيلة لهذه الآلهة قلما تتميز عن عبادة الأوثان المقدسة ومنابع المياه والأشجار ، ونجد عند كل قبيلة طقوسا للطواف والوقوف بأشكال معينة ، والهرولة فى صورة مواكب احتفالية وحمل المشاعل ، وكل هذه فيما يبدو تشير إلى عبادة قديمة للشمس ، لكن الأجرام السماوية الأخرى كانت تمجدُ كذلك ، وقد تبقّى فى مكة طقس دينى هو التحية الخالصة الهلال عند ظهوره ، وهو يرجع إلى الجاهلية دون شك .

* * *

ومع هذا فيمكن القول عامة إن عبادة الله كانت أقدم عبادة عرفها البشر منذ آدم ، وهى العبادة التى ترتاح لها النفس المفكرة الباحثة ، ولكن هذه النفس ماتكاد تصل إلى التوحيد المطلق وما تكاد تستريح إليه حتى تبدأ فى البعد عنه ، لأن « عقيدة الألوهية المجردة عن الأجرام عقيدة صعبة

---

(١) النظم الإسلامية ص ١٦ مترجم عن الفرنسية (ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر) .

المنال لايدركها إلا خاصة الخاصة ، وإن أدركوها فسرعان ما ينسونها ويميلون إلى التجسيد »[1] .

وهكذا اتجه العالم إلى التجسيد منذ أقدم العهود ، وهكذا وجدت الحاجة للأنبياء ليعيدوا للناس الرشد والهداية ، وكان كثير من العرب من المهتدين بالفطرة ، أو بسبب التعاليم التى وصلت لهم عن طريق صلتهم بإبراهيم وإسماعيل ، ولكن أكثر العرب عادوا إلى الأحجار التى عرفت من عهد نوح فنصبوها فى الكعبة واتجهوا لها عابدين ، واختلط دين الفطرة بالوثنية ، وأوشكت الوثنية أن تطغى عليه أو طغت فعلا .

كيف تحوّل العرب عن عبادة الله إلى الوثنية ؟ .

تختلف الآراء فى الإجابة عن هذا السؤال ، فهل يرجع ذلك إلى بقايا « طوطمية » تطورت ، على أن هذه الكلمة لا تزال موضع بحث فى أصلها ، وأوضح الآراء عنها هو أن الجماعات الأولى اهتمت بالحيوان أو النبات الذى ارتبط بطعامها اليومى ، ثم تطور الاهتمام فأصبح اعتقاداً بأنهم انحدروا منه ، ويحملون لذلك اسمه أحياناً (ولعل أسرة الجمل والغراب ونحلة من ذلك) ويلزمون أنفسهم بشعائر وطقوس معينة فى مواسم خاصة ، وتسبب عن ذلك تحريم أكل (الطوطم) فحرمت جماعات أكل البقر ، وحرم آخرون أكل الطيور وعند ما حُرِّم « الطوطم » نُظِر له بتقدير ، وانتهى هذا التقدير إلى العبادة ، ثم تحول ذلك خطوة أخرى فعُمل تمثال له يحل محله ، وكان ذلك منشأ عبادة الأحجار .

هذه فكرة فى غاية الإيجاز عن « الطوطمية » فهل كانت عبادة الأحجار عند العرب بقايا « طوطمية » ؟ إن الباحث لا يستطيع أن يجيب بالإيجاب أو بالنفى فى صورة تأكيد ، وكل ما يمكن أن يقوله الإنسان إن

(١) أحمد أمين : يوم الإسلام ص ٧ .

ذلك ممكن ، وإن كان يؤخذ على ذلك أن العرب لم يحرموا أكل الإبل والغنم والبقر ولم يتخذوا منها طواطم مع أنها تكوّن أقدم الأطعمة التي عرفها العرب . ولا نظن أن حيوانات أخرى أو طعاماً آخر كانت أشد ارتباطاً بهم منها

وهناك رواية يذكرها ابن الكلبي[1] تبين لنا تاريخ تحول العرب عن عبادة الله إلى الوثنية وسبب ذلك ، يقول ابن الكلبي إن عمرو بن لحى من خزاعة كان حاجب الكعبة ، ثم مرض مرضاً شديداً فذهب إلى البلقاء في الشام ليستحم في ماء هناك ، فاستحم وشفي ، ووَجَدَ أهل البلقاء يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا نستقي بها المطر ونستنصر بها على العدو . فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة .

ويمكن أن يعد ذلك بدء دخول الوثنية في قلب الجزيرة العربية . أما انتشارها فيوضحه لنا ابن الكلبي أيضاً في قوله[2] : وكان الذى سلخ بالعرب إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة . فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمنا منهم بها وصبابة بالحرم وحباً له ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون ، ثم سلخ ذلك أنهم عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه . واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره . فعبدوا الأوثان وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، واتبعوا ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما بقي فيهم من ذكرها .

وهذا تعليل نرضاه لأنه يبين لنا السبب في إقامة الأصنام في بلادهم ومع ذلك يحجون للكعبة ويعظمون مكة ، فالأصنام التي في بلادهم لم تكن أول الأمر إلا حجارة من الحرم عظموها وبنوا لها بيوتاً وكبروها ، وبقيت للكعبة

---

(١) الأصنام ص ٦

(٢) المرجع السابق ص ٨ .

مكانتها السامية ، ثم لما اختلط عليهم الأمر لقلوا من معبوداتهم الحجرية الى الكعبة وملئوها بالأصنام ، ولكنهم مع هذا لم ينسوا مكانة الكعبة ، وما كانوا يرضون أن يكدسوا معبوداتهم فى مكان آخر ، أو أن يحجوا الى مكان آخر ،ومن هنا يتضح كيف اختلط دين الحق بعبادة الأصنام ، ويقول ابن الكلبى[١] فى ذلك – استمراراً لما سبق أن اقتبسناه منه آنفاً – : واستبدل العرب بدين ابراهيم واسماعيل غيره . . . وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم وإسماعيل يتمسكون بها : من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وإهداء البدن ، مع إدخالهم فى الدين ماليس منه .

ويرى بعض الباحثين أن العرب كانوا يعبدون الله ، وكانوا يعظمون الكواكب على أنها أعظم خلقه ، ثم تطور تعظيمهم للكواكب فصار عبادة خالصة ، وهناك بعض حجارة بركانية اعتقد العرب أنها ساقطة من السماء ، فلها صلة بهذه النجوم فعظموا هذه الأحجار ، وانقلب التعظيم إلى عبادة ، ثم عبدت الأحجار الأخرى وإن لم يظنوا أنها ساقطة من السماء[٢] .

ومثل هذا ما آل له أمرهم مع إساف ونائلة وهما فى الأصل كما يروى ابن الكلبى رجل وامرأة من جرهم وكان الرجل يعشق المرأة ثم قدما للحج ، فدخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس وخلوة فى البيت فواقعها ، فَمُسِخَا حجرين ،فوضعا عند الكعبة ليتعظ بهما الناس ، فلما طال مكثهما وعُبدت الأصنام ،عُبدا معها[٣] .

---

(١) المرجع السابق ص ٦ .
(٢) انظر حياة محمد الدكتور هيكل ص ٩٢ .
(٣) الأصنام لابن الكلبى ص ٩ ، ٢٩ .

ويرى بعضهم أن الأوثان لها صلة بالقبور والحجارة التي تعودوا أن ينصبوها على قبور الأبطال ، أو أنها تجسيد لأبطال مشاهير احتلوا عند العرب مكان التقديس ، فلما ماتوا اتخذوا لهم التماثيل ، وأجلوها ثم عبدوها .

الحنفاء :

وغلبت عبادة الأحجار على العرب وخضعوا لها وأنسوا بها ، ولكن بين هذا الظلام كان هناك من يدرك أن القوم في ضلال ، فقد روى أنه اجتمع — في أحد الاحتفالات التي كان يقيمها العرب لأصنامهم — أربعة من العرب هم : ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش وزيد بن عمرو ؛ وقال هؤلاء بعضهم لبعض : والله ما قومنا على شيء ، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطوف به لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع ؟ التمسوا لأنفسكم ديناً غير هذا الدين[١] ، وقد أخذ هؤلاء يفكرون فاهتدى ورقة وعثمان للنصرانية ، والتبس الأمر على عبيد الله فبقي على حاله من الالتباس حتى ظهر الإسلام فأسلم ثم هاجر للحبشة وهناك تنصر ، وأما زيد فلم يدخل النصرانية ، ولكنه أبعد عبادة الأصنام عن نفسه[٢] وأنكر ما رآه على العرب من أكل الميتة والدم وغيرها واعتقد بذلك أنه عاد إلى دين إبراهيم ، ولذلك كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول يامعشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري . وكان يناجي ربه قائلا : يارب ، لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به . ولكني لا أعلم[٣] ، وهو الذي يقول :

---

(١) الخضري : تاريخ الأمم الإسلامية ص ٦٠ .

(٢) الأصنام لابن الكلبي ص ٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢ .

تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجل الخبير
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صَنَمَىْ بنى غنم أزور
ولا هُبلا أجلُّ ، وكان ربًّا لنا فى الدهر إذ حلمى صغير(١)

ومن هؤلاء أيضا أمية بن أبى الصلت وقيس بن ساعدة الإيادى .

الأصنام والأوثان والأنصاب :

وقد سبق أن أشرنا إلى أصنام العرب وقلنا إنه كانت لهم أصنام فى الكعبة أو حَوْلها ، كما كانت لهم أصنام فى بيوتهم ، وأخرى فى ملنهم ، وفى مواقع أخرى لهم ، ويجدر بنا قبل أن نذكر أهم هذه الأصنام أن نوضح أن كلمة الأصنام قد تذكر ويرادبها الأوثان والأنصاب ، فكل منها قد تنوب عن النوعين الآخرين فى الاستعمال العام ، وقد سمى ابن الكلبى كتابه « الأصنام » مع أنه تحدث فيه عن كل هذه الأنواع ، ولم يوضح ابن الكلبى الفرق بين هذه الأنواع توضيحا شافيا ولعله كما يلى (٢) .

النصب : صخرة ليست على صورة إنسان ، ويغلب ألا يكون لها صورة خاصة .

الوثن : ماكان على صورة إنسان من حجر .

الصنم : ماكان على صورة إنسان من معدن أو خشب .

وأهم أصنام العرب (٣) « هبل » وكان من العقيق الأحمر على صورة إنسان ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٢) انظر كتاب الأصنام ص ٣٣ ، ٤٢ ، ٥١ : ٤٣ .

(٣) ماأورده هنا من الأصنام هو إيجاز لأهم ما ذكره ابن الكلبى فى عدة أمكنة من كتاب الأصنام ، انظر ص ٩ إلى ص ٦٠ .

وكان مكسور الذراع فأبدله القرشيون ذراعا من ذهب وكان هبل كبير الآلهه ومقره الكعبة المكرمة .

وهناك أصنام أخرى كثيرة عند العرب ، أهمها :

اللات . صخرة مربعة أقيم عليها بناء بالطائف وهى عند ثقيف تسبق كل الأصنام .

العُزّى : كانت تعبد فى الحجاز ، وكانت أعظم صنم عند قريش بعد هبل وربما نافسته .

مناة : صنم على ساحل البحر بين المدينة ومكة ، وكان العرب جميعا تعظمه وكانت الأوس والخزرج تذبح له وتقدم الهدى ، وقد ورد ذكر هذه الأصنام الثلاثة فى الآية الكريمة (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) [1].

ود : تمثال رجل عظيم معه أدوات الحرب ، وكان بدومة الجندل لكلب وقضاعة .

سواع : بأرض ينبع لهذيل .

يعوق : بأرض الطائف لطى ومذحج .

يغوث : باليمن وكانت تعبده همدان .

نسر : باليمن وكانت تعبده حمير .

ويقول ابن الكلبى إن هذه الأسماء الخمسة كانت فى الأصل أسماء لقوم صالحين ، ولكنهم ماتوا فى شهر ، فجزع عليهم أقاربهم : فقال لهم رجل يعمل بالنحت : هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم

---

(١) سورة النجم الآيتان : ١٩ — ٢٠ .

على أنى لا أقدر أن أجعل فيها أورواحا ؟ قالوا : نعم . فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم ، فكان أقاربهم يأتون إليهم معظمين ، وفى القرن التالى زاد تعظيم الناس لهم ونحروا وأهدوا ، وفى القرن الثالث خطوا خطوة أخرى فعبدوهم ، وقد بدأ ذلك قبل نوح (١) .

وكانت هذه الأصنام الخمسة تعبد فى عهد نوح ويبدو أن عرب الجاهلية جددوا عبادتها بعد نوح كما سبق القول ، وقد ورد ذكرها فى سورة نوح قال تعالى . (قال نوح : رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً) (٢) .

التثليث عند عرب الجنوب :

وبالإضافة إلى الأصنام عَرَفَ الثالوث طريقه إلى عرب الجنوب ، وكان هذا الثالوث يتكون عند قتبان من « عم » وقد صوره عُبَّاده إلهاً ذكراً وقدموه على « الشمس » التى اعتبروها زوجته ، اما الأقنوم الثالث فى ثالوثهم الدينى فهو « عثتر » ابنهما (٣) .

عبادة الأصنام لم تكن ذاتية :

وينبغى أن يتضح أن عبادة العرب للأصنام لم تكن عبادة ذاتية وإنما كانت فى نظرهم وسيلة يتقربون بها إلى الله (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)(٤) وهذا دليل على أنهم لم ينسوا إله إبراهيم حتى حينما كانوا فى ظلماتهم يعمهون ، ومما يؤكد ذلك أن آلهتهم التى انتشرت فى الجزيره العربية والتى

---

(١) كتاب الأصنام ص ٥١ - ٥٣ « بتصرف » .
(٢) سورة نوح الآيات ٢١ - ٢٣ .
(٣) فيليب حتى : تاريخ العرب جـ ١ ص ٨٠ .
(٤) سورة الزمر الآية الثالثة .

أقاموا لها البيوت ورتبوا لها السدنة لم تشغلهم عن الكعبة بيت أبيهم إبراهيم فظلوا لها يحجون كما سبق القول ، والدارس لذلك الموضوع يدرك اضطراب هؤلاء العرب بين موحدين على ابراهيم ، وبين وثنيين عبدة للأصنام . ويقول ابن الكلبي [٢] . ويوسونة بالتلبية : ويُدْخِلون معه آلهتهم ويجعلون ملكها بيده ، يقول الله عز وجل : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) [٣] . أى مايوحدوننى بمعرفة حقى إلا وجعلوا معى شريكا من خلقى .

وكان العرب يتقربون لهذه الآلهة بالقرابين من الماشية ، وكانوا فى وقت ما يتقربون لها بالقرابين من البشر ، ويدل على ذلك حادثة عبد المطلب الذى كان على وشك أن يتقرب للآلهة بذبح ابنه عبد الله والد الرسول كما سيأتى الحديث عن ذلك ، وكانوا كذلك يستقسمون عندها فيضربون بالأزلام ليروا ما قسم لهم ، فكان الواحد منهم إذا أراد أن يقدم على شىء ذى بال كالزواج والسفر ذهب للكعبة ليستقسم وليرى ماتريده له الآلهة ، وكان يقوم بالاستقسام سدنة البيت .

عبادة الأصنام لم تكن جدية :

استعرضنا أديان العرب فى الجاهلية ، وبينا كيف انحرف العرب عن دين إبراهيم إلى عبادة الأصنام ، وأوردنا أشهر الأقوال فى سببه هذا الانحراف كما ذكرنا أن عبادة الأصنام لم تشغل العربى عن دين إبراهيم بل ظل على صلة به ، وأوضحنا أن عبادة الأصنام كانت الغالبة فى الجزيرة العربية .

---

(١) الأصنام ص ٧ .

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٦ .

وإن الذى يقرأ بإمعان كتاب الأصنام لابن الكلبي — وهو بلا شك أهم مرجع فى هذا الباب — يصل إلى حقيقة هامة هى أن عبادة الأصنام عند العرب لم تكن جدية ، وأنها لم تتعمق فى قلوبهم ، وأن الثورة على هذه الأصنام كانت تحدث من حين إلى آخر ، فيطيح الثائر برأس صنمه وينهال عليه تهشيما وسخرية ، وليس هذا فقط من العقلاء المفكرين كزيد بن عمرو ، وورقة بن نوفل وغيرهما ممن تحدثنا عنهم ، بل إن الثورة على الأصنام كانت تحدث من عابديها وأتباعها ، فكان العابد ينقلب فجأة إلى ساخر ساخط لأدنى الأسباب مما يدل على أن عبادتهم للأصنام كانت فى كثير من الأحوال سطحية لاتعمق فيها ، وسنورد هنا بعض ما ذكره ابن الكلبي مما يدل على ذلك .

كان لكنانة صنم يقال له « سعد » بساحل جدة ، فأقبل رجل من كنانة بإبل له ليقفها عليه ، يتبرك بذلك فيها ، فلما دنا من الصنم — وكان عليه أثر دماء — نفرت الإبل ، وذهبت فى كل وجه وتفرقت ، فأسف صاحبها لذلك وغضب على « سعد » وتناول حجراً ورماه به ، وقال : لا بارك الله فيك إلهاً ، أنفرت على إبلى . ثم خرج فى طلبها حتى جمعها وانصرف وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ۝ فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وماسعدُ إلاصخرة لاهُدًى لها ۝ يُرَجَّى ، ولاتدعى لغى ولارشد [1]

* * *

وكان لمزينة صنم يقال له « نهم » وكان له سادن يسمى خزاعى ابن عبد نهم ، فلما سمع بالنبي الله عليه وسلم ثار على الصنم فكسره وأنشأ يقول :

---

(١) ابن الكلبي ص ٣٧

ذهبت إلى نهم لأذبح عنده عتيرة نسك كالذى كنت أفعل
فقلت لنفسى حين راجعت عقلها أهذا إله ! أبكم ليس يعقل
أبيت ، فدينى اليوم دين محمد ورب الإله الماجد المتفضل [١]

• • •

وكان لخثعم وبجيلة وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب ومن هوازن صنم يقال له « ذو الخلصة » وكان موضوعاً بتبالة بين مكة واليمن على بعد سبع ليال من مكة ، وكانوا يعبدونه ويستقسمون عنده ، فلما أقبل امرؤ القيس بن حجر يريد الغارة على بنى أسد لأنهم قتلوا أباه ، عرج على « ذى الخلصة » فاستقسم عنده ثلاث مرات ، فخرج « الناهى » أى الأمر يمنعه مما أراد من الهجوم على بنى أسد والثأر منهم . فلما كانت الثالثة ناهية أيضاً كسر امرؤ القيس القداح وضرب بها وجه الصنم وقال . « عضضت بإير أبيك ! لو كان أبوك قُتِلَ ماعوَّقتنى » وسار امرؤ القيس فى طريقة للثأر وهو ينشد :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا
مثلى ، وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

ويقول ابن الكلبى ، إن أمرأ القيس بعد ذلك غزا بنى أسد وظفر بهم [٢].

الأديان السماوية بالجزيرة العربية قبل الإسلام :

وبجانب عبادة الأوثان عَرَفتْ الديانات السماوية طريقها إلى العرب قبل الإسلام ، وقد سبق أن تكلمنا عن ملك اليمن الذى اسمه ذو نواس ، وقلنا إنه اعتنق اليهودية واعتنقها معه كثير من رعيته ، وقد أخذ ذو

---

(١) الأصنام ص ٧ .
(٢) المرجع السابق .

نواس اليهودية من اليهود الذين هاجروا إلى اليمن كما كان هناك يهود في يثرب بخيبر ووادى القرى وغيرها ، ويغلب أن يكون هؤلاء اليهود نازحين من فلسطين وربما كان فيهم بعض العرب الذين اعتنقوا اليهودية .

وعرفت النصرانية طريقها إلى الجزيرة العربية كذلك ، وقد أشرنا إلى نصارى نجران الذين قبض عليهم ذو نواس السالف الذكر . ودخلت المسيحية اليمن في أثناء حكم الحبشة ، أما دولتا الشمال الغساسنة والمناذرة فقد عرفتا المسيحية أيضاً وبخاصة دولة الغساسنة التي كانت وثيقة الصلة بثقافات الروم ، ودخلت المسيحية أيضاً الحيرة حيث تنصرت الأسرة المالكة أو أغلبها ، وقد كانت بالحيرة «بيعة» أورد ياقوت [1] الكتابة التي كانت على واجهتها ونصها «بَنَتْ هذه البيعة هند أمة المسيح وأم عبده» وقد جاءت المسيحية للعرب عن طريق سوريا ومصر والحبشة في أزمنة متعددة غير معروفة تماماً ، ويغلب أن تكون في القرنين الرابع والخامس ، وربما دخلت المسيحية قبل ذلك مع المسيحيين الفارين من التعذيب والاضطهاد قبل أن يعتنق إمبراطور الروم المسيحية .

على أن اليهودية والمسيحية لم تكونا عظيمتى الخطر واسعتى الانتشار في الجزيرة العربية ، فأما اليهودية فكانت دين الشعب المختار ؛ وكان دخول العربي فيها لا يحقق المساواة مع اليهود من أبناء إسرائيل ، ولذلك لم يَقبل العربي أن يدخل ديناً يضعه في طبقة أسفل من طبقة دعاة ذلك الدين ، وأما المسيحية فهي مملوءة بالتعقيدات التي لم يستسغها ذهن العربي ، ومملوءة بالخلافات الحادة التي سببت الغموض للدين ، وصرفت عنه من كان يمكن أن يتبعه من العرب .

وقد وضحنا ذلك في سلسلة «مقارنة الأديان» .

---

(١) معجم البلدان جـ ٢ ص ٧٠٩ .

الإمرة

هناك ظاهرة تكاد تكون واضحة عند كل القبائل العربية وهى الحرص على المرأة واعتبار عرضها أغلى من النفس والمال والولد ، ومن مظاهر هذا الحرص أن ظهرت عند العرب عادة أخذ النساء فى مؤخرة الجيوش ليدرك المحارب أن هزيمته ستجعل عرضه مباحاً لأعدائه ، وكان هذا كفيلا أن يستميت المحارب فى الصراع(١) .

على أن المرأة كثيراً ما كانت تنتهز فرصة التحاقها بالجيش فتشجع الرجال وتشد أزرهم ، وفى يوم « ذى قار » الذى كان بين الفرس وبين بكر وقفت امرأة من بنى عجل تنشد مستحثة الرجال على الجلاد ، واعدة — باسم صواحبها — المنتصرين ، مهددة المهزومين ، قالت المرأة فى رجز لها :

إن تَهزموا نعانق ونفرش النمارق
أو تُهزموا نفارق فراق غير وامق(٢)

وطالما اشتط هذا الحرص فسبب المآسى والمصائب والعار والشنار ، فعمرو بن المنذر بن ماء السماء سيد الحيرة ، يسأل يوماً جلساءه : هل تعلمون أحداً من العرب يأنف أن تخدم أمه أمى ؟ فقالوا : لا ، إلا أن يكون عمرو بن كلثوم . فاستضاف عمرو بن المنذر وأمّه هند ، عمراً بن كلثوم وأمّه ليلى بنت مهلهل ، وطلب ابن المنذر من أمه أن تستخدم ليلى فى زحزحة بعض الأطباق ومناولتها لها وهن يأكلن ، ففعلت هند ولكن ليلى أجابتها قائلة : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، وحاولت هند ذلك مرة أخرى ولكن ليلى أدركت مايراد بها وأن كرامتها جرحت فصاحت : واذلاه ! فسمعها ابنها فسارع إلى سيف معلق فاختطفه وقتل به عمرو بن هند .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧١ .
(٢) انظر أيام العرب فى الجاهلية لجاد المولى وزميليه ص ٣١ .

ومن هذه القصة التى أوردناها موجزة تظهر لنا مكانة المرأة العربية ممثلةً فى هند وليلى ، وتظهر لنا حساسيتها المرهفة ممثلة فى ليلى ، ثم ندرك أن كلمة واحدة نطقت بها ليلى معبرة عن استيائها تسبَّبت فى مصرع الملك .

ومن اشتطاط الحرص ، وأد البنات الذى عرف فى بعض قبائل العرب خوفاً عليهن من العار أو الأسر ، ولم يكن وأد البنات بطبيعة الحال كثير الانتشار وإنما وجد فى بعض بنى أسد وتميم .

وتتكون الأسرة العربية فى الغالب تكويناً عادياً ، بأن يخطب الرجل المرأة من ذويها ، فإذا قُبلت خطبته أخذها إلى بيته وبنى بها ، ويكثر أن تستشار المرأة فى أمر زواجها ، وتقص كتب الأدب والتاريخ حكاية عن أوس ابن حارثة وبناته الثلاث حينما جاءه الحارث بن عوف خاطباً ، فاستدعى أوس كبرى بناته وعرض عليها خطبة سيد العرب ، فاعتذرت بأن فيها بعض العيوب وليست هناك بينها وبين الحارث قرابة يرعاها بها ، ولا هو جار لأبيها فيستحى منه ، وقالت إنى أخشى أن يطلقنى فيشق ذلك علىّ ، فاستدعى أوس الوسطى فقالت كما قالت أختها . فاستدعى الصغرى فقبلتْ ، فذكر لها أبوها امتناع أختيها والأسباب التى دعت لهذا الامتناع ، فقالت الصغرى : لكنى والله الجميلة وجهاً ، الصناع يداً ، الرفيعة خلقاً ، الحسيبة نسباً . فسأل أبوها : ألا تخافين الطلاق ! فأجابت . إن طلقنى مع مابى فلا بارك الله فيه . فزوجها منه .

ومن هذه القصة ندرك كذلك أن العرب كانوا يعرفون الطلاق وكانوا يخافونه وينفرون منه .

وكان الطلاق بيد الرجل إن شاء أبقى وإن شاء طلق ، ولكن بعض

النساء كن لايتزوجن إلا إذا كان لهن حق الطلاق . ومن هؤلاء سلمى بنت عمرو إحدى نساء بني النجار وهي أم عبد المطلب بن هاشم .

ومن عادات العرب ألا يزوجوا بناتهم لغير العرب . وقد حاول كسرى ملك الفرس مرة أن يخطب لنفسه من بنات تابعه النعمان بن المنذر ملك الحيرة فقيل له : أيها الملك ، إن شر شيء في العرب أنهم يتكرمون عن العجم . ولكن ذلك لم يثن كسرى عن رغبته فأرسل بها إلى النعمان . وثار النعمان لذلك وقال : أما في مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته ؟ وكتب النعمان لكسرى يقول : إن مطلب الملك ليس عندي ، وقد دفع النعمان حياته ثمناً لموقفه ذلك كما سبق ، ولكن العرب ظلوا على هذه الحال كما لا يزال الكثيرون منهم حتى الآن . فلنبرز هنا أن هذه العادة عربية وليست إسلامية[1] .

وكانت المرأة البدوية لا تحب أن تتزوج في الحضر ، وأعظم مثال لذلك ميسون زوجة معاوية وأم يزيد التي لم تطق حياة دمشق والقصور والنعيم ، وتاقت إلى الخيام والانطلاق في الصحراء ،وكتبت في ذلك قصيدة طويلة منها :

ولبس عباءة وتقر عيني أحب إلي من لبس الشفوف
وأطياف الرياح بكل فج أحب إلي من قصر منيف
وأكل كسيرة من كسر بيتي أحب إلي من أكل الرغيف

فلما عرف معاوية ذلك أعادها إلى أهلها بالبادية .

---

(١) كثير من العرب الحضارمة الذين هاجروا إلى بلاد الشرق الأقصى لا يزالون يرفضون تزويج بناتهم لسكان هذه البلاد ، وذلك امتداد للفكر العربي قبل الإسلام .

ولم يكن عدد الزوجات عند العرب فى الجاهلية محدوداً ، وقد أوردت كتب الفقه الإسلامى نماذج كثيرة لأزواج أسلموا وتحت الواحد منهم عدد يزيد عن الأربعة ، ومنهم من كانت زوجاته عشرة وأمروا باختيار أربعة ومفارقة الباقيات . ويحب العرب كثرة البنين ودعاؤهم عند الزواج هو : بالرفاه والبنين . ومن الواضح أن البنين هم عماد الأسرة العربية التى لا تعيش إلا فى حراسة السيوف والدروع التى يستعملها الشبان .

والمرأة العربية خير رفيق لزوجها وخير عون له،لأنها تجيد من الفنون ما يجعلها فى مستوى ثقافى يلائم زوجها ، فالرعى ، والاستسقاء ، والغناء ، وقول الشعر ، والرقص ، والغزل ، والنسيج ، وشد الخيام ، وضمها ، كل ذلك كانت تجيده المرأة العربية بالإضافة إلى واجباتها كأم وربة بيت .

ولم تعرف المرأة العربية الحجاب فى عصور الجاهلية ، كما لم تعرفه فتاة البادية حتى الآن ، فإنها لا تزال تصحب زوجها متأبطة يده على نسق ما يفعل الأوربيون(١) ، أما الحجاب المنتشر فى مدن الجزيرة العربية الآن ، سواء منه غطاء الوجه أو المنع من الخروج للحياة العامة المعروف بنظام « الحريم » فهو نظام أدخله الأتراك إلى العالم الإسلامى إبان سلطانهم وقد صبغوه بصبغة إسلامية(٢) ، وقد أصبح الآن عادة متبعة فى بعض البلاد بالجزيرة العربية .

ومن الأشياء التى قاستها المرأة العربية فى بعض الأحوال أن زوجة الأب كانت تورث كما يورث المتاع ، وقد كان ذلك غير شائع وكانوا يسمونه نكاح المقت ، وكان مقصوراً على المرأة التى ليس لها أولاد

---

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ١١٣ .
(٢) انظر « الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى » للمؤلف .

كبار ، ويعلل له بعضهم بأنه نتيجة لنظام العرب فى الزواج ، ذلك النظام الذى كان يعتبر زواج المرأة إلحاقاً لها بزوجها وقطعاً للصلة التى كانت لها بأبيها وأسرتها .

وكانت الأسرة وحدة ينتصر أفرادها بعضهم لبعض فى الظلم والعدل ، ومن أمثلتهم الشائعة « انصر أخاك ظالماً أومظلوماً » وإذا كان هذا هو موقف الأخ من أخيه فإن أبناء الاثنين (أبناء العم) سرعان ما يصبحون أعداء ، وسرعان ما تنشب بينهم الحروب كالعداء الذى حصل بين بنى عبد الدار وبنى عبد مناف ابنى قصى وكالعداء الذى حصل بين ابنى عبد مناف . هاشم وأمية ، والذى حصل بين العباسيين والعلويين والفرعان من أولاد عبد المطلب بن هاشم وهكذا .

• • •

وقبل أن نتحدث عن رسول الإسلام وعن سَيْر دعوته يجدر بنا أن نوصى القارىء بالتعرف على الأديان التى سبقت الإسلام ، وبالتعرف على المقارنة بين قضاياها المختلفة ، فلذلك سيوضح مكانة الإسلام بين هذه الأديان ، وقد أبرزنا ذلك فى سلسلة « مقارنة الأديان » التى تشمل أربعة أجزاء هى :

١ — اليهودية .

٢ — المسيحية .

٣ — الإسلام .

٤ — أديان الهند الكبرى (الهندوسية — الجينية — البوذية) .

والآن ننتقل إلى الدراسة الرئيسية فى هذا الجزء ، وهى دراسة السيرة النبوية العطرة :

مُحَمَّدٌ قَبلَ البَعْثَة

الرسول منذ وُلد إلى أن بُعث

نسب الرسول :

محمد هو ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر . وفهر هــذا هو قريش عند الأكثرين وهو الجد العاشر للرسول .

وفهر هو ابن مالك بن النضر ويرى بعض الباحثين أن النضر هو قريش .

والنضر هو ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان وعدنان هو الجد العشرون للرسول .

وينتهى نسب عدنان إلى إسماعيل عليه السلام .

العرب العاربة والمستعربة :

العرب العاربة هم الأقدمون الذين كانوا قبل إسماعيل أو عاصروه ، أما المستعربة فهم أبناء إسماعيل ، أخذوا اللغة العربية من العرب العاربة أى الأصلاء فى اللغة ، وسموا مستعربة لأن جدهم إسماعيل ليس عربيا ، فهو ابن إبراهيم الخليل ، زعيم العبرانيين ، ولكن إسماعيل نشأ بين العرب وعرف لغتهم ، وتعرَّب هو وأولاده فسُموا مستعربة .

كلمه عن أجداد الرسول

قريش :

قريش هو الجد العاشر للرسول كما ذكرنا ، وكان قريش يكفى حاجة المحتاج ، وكان ملجأ المظلوم والطريد والخائف .

قصى :

وقصى الجد الرابع للرسول ، وهو الذى استعاد سلطان أجداده على الحرم ، إذ أخرج خزاعة من مكة ، وكانت خزاعة قد سلبت السلطة من أبناء إسماعيل ، وسيطرت على مكة ردحا من الزمن ، فلما شبَّ قصى أعلن أنه أحق بالسلطة على مكة ، لأنه من نسل إسماعيل الذى رفع مع أبيه قواعد البيت ، والذى نبع له ماء زمزم ، وقد حقق قصى مأربه ، ثم بنى دار الندوة ورتب وظائف الكعبة .

هاشم :

وهاشم هو الجد الثانى للرسول صلوات الله عليه ، وكان يتولى السقاية والرفادة وكان اسمه عَمْرا ، وسمى هاشما لأنه كما تقول الرواية كان يتلقى معونات من قريش لإطعام فقراء الحجاج ، ولكن حـدَثَ عام مجاعة فلم يكلِّف هاشم بنى قومه شططاً ، وأخذ كلَّ ماله وذهب إلى الشام فاشترى كمية كبيرة من الكعك الجاف وعاد به فهشمه هشما ليجعله صالحاً لأن يكون ثريداً ، فسُمِّى الهاشم .

وكان هاشم سفير قريش لدى الملوك ، وهو الذى عقد حِلْفاً تجارياً باسم قريش بينها وبين هرقل ملك الروم لتذهب تجارة قريش آمنة إلى الشام ، وكثيراً ما كان يقود التجارة بنفسه إلى الشام ، ومات هاشم فى إحدى رحلاته التجارية وهو عائد إلى مكة ، وكانت وفاته فى غزة [١] .

المطلب أخو هاشم :

والمطلب أخو هاشم ، وكان أصغر منه سناً ، وبعد موت هاشم تولى المطلب السقاية والرفادة وكان ذا فضل وشرف فى قومه ، وكانت قريش تسميه « الفيض » لسماحته وفضله .

---

(١) ابن هشام ١ : ١٢٥ .

شيبة (عبد المطلب) :

وكان هاشم الذى سبق الحديث عنه قد قدم المدينة « يثرب » فتزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عـــدى بن النجار ، وكانت امرأة ذات شأن ومكانة ، فكانت لا تتزوج إلا إذا كان أمرها فى يدها ، وقد ولدت لهاشم ولداً سمى « شيبة » وتركه هاشم مع أمه بيثرب حتى شبَّ وأصبح غلاماً ، فلما مات هاشم خرج أخوه المطلب إلى المدينة ليُحضر ابن أخيه لمكة ليعيش بين قومه وأهله ، وقد تمسكت أمه به أولا ، ولكن المطلب صاح بها قائلا : نحن أهل بيت كريم ، لناشرف فى قومنا ، نلى أمورهم ونحمل تبعاتهم ، وقومه وأهله أولى به ، فاستجابت أمه لذلك وأسلمته .

ودخل به المطلب مكة وقد أردفه خلفه ، فظنت قريش أنه عبدٌ اشتراه المطلب فقالوا « عبد المطلب » فقال المطلب : ويحكم إنه شيبة ابن أخى ولكن لقب عبد المطلب غلب عليه [١] .

ومات المطلب فأخذ عبدُ المطلب ابنُ أخيه هاشم مكانه وتولى السقاية والرفادة ، وأقام لقومه ماكان آباؤه يقيمون قبله لقومهم ، وبلغ فى قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم فيهم [٢] .

بطون قريش

واستكمالا للحديث عن أجداد الرسول نذكر أن بطون قريش اثنا عشر بطنا هى :

١ — بنو عبد مناف ، وعبد مناف هو جد الرسول الثالث ، وأشهر أولاده هاشم جد الرسول الثانى وعبدُ شمس والد أمية الذى تنسب له الأسرة الأموية .

٢ — بنو تيم أجداد أبى بكر .

٣ — بنو عدى أجداد عمر .

---

(١) ابن هشام ١ - ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) ابن هشام ١ - ١٣١ .

٤ — بنو أسد أجداد خديجة .

٥ — بنو زهرة أجداد آمنة .

٦ — بنو مخزوم أجداد خالد بن الوليد .

٧ — بنو سهم أجداد عمرو بن العاص .

٨ — ١٢ بنو عبد الدار وبنو عامر وبنو الحارث وبنو جمح وبنو محارب

عبد الله بن عبد المطلب :

رُوى أن رجلا جاء إلى الرسول صلوات الله عليه فقال له : . . . يا بن الذبيحين ، فلم ينكر الرسول عليه ذلك ، والذبيح الأول هو إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام ، والذبيح الثانى هو أبو الرسول عبد الله بن عبد المطلب .

وقد قص القرآن الكريم قصة الذبيح الأول فى قوله تعالى : (فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعي قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال : يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إبراهيم)[1] .

أما قصة الذبيح الثانى فترويها لنا كتب التاريخ وخاصة كتاب الأصنام لابن الكلبي[2] وتاريخ الطبرى[3] ؛ وهى ترينا بعضاً من عادات العرب التى سبق الحديث عنها ، فالعرب كانوا يتقربون إلى الآلهة بتقديم القرابين التى تكون أحياناً من دماء البشر ، كما انتشرت عندهم عادة الضرب بالقداح واتّباع ما توصى به هذه القداح ، وخلاصة هذه القصة أن عبد المطلب كان

(١) سورة الصافات الآيات ١٠١ — ١٠٩ وانظر الطبرى جـ ١ ص ١٨٤ وكتاب اليهودية » للمؤلف .

(٢) ص ٨ و ٢٧ — ٢٨ . (٣) جـ ٢ ص ١ — ٦ .

عليه سقاية الحاج ، وكان عليه أن يحضر الماء لذلك من آبار بعيدة ويضعه فى أحواض ليشرب منها الحجيج كما تقدم ، وكان هذا العمل صعباً يحتاج إلى أيد كثيرة وإلى جهد كبير ، ولذلك فكر عبد المطلب فى إعادة حفر بئر زمزم ، ولكنه وجد كثيراً من العنت من قريش، ولولا صبره ودأبه ما نفّذ هذا العزم ، ومن أجل هذا نذر لئن وُلِد له عشرة بنين ثم شبوا وأصبحوا يمنعونه ، لينحرنّ واحداً منهم عند الكعبة تقرباً لآلهة قريش ، فلما حقق الله أمنيته وأصبح له عشرة أولاد[1] أراد أن يفى بنذره،فجمع أولاده عند (هبل) وهو أعظم الأصنام التى تعبدها قريش ، وطلب إلى صاحب القداح أن يضرب عليهم ، فخرجت القرعة على عبد الله وهو أصغر أولاد عبد المطلب وأحبهم إليه . فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة وذهب به ليذبحه عند أساف ونائلة وهما وثنا قريش اللذان تُقدَّم عندهما القرابين ، فكفَّته قريش وكفَّه بنوه وقالوا : لا تذبحه أبداً حتى نتبصَّر الأمر ،وأشاروا عليه أن ينطلق إلى عرّافة شهيرة ليستشيرها ، فذهب إليها ، فأشارت عليه أن يعيد الضرب بين عبد الله وبين عشرة من الإبل ، فإن خرجت القرعة على الإبل فلتكن هذه ديةً لعبد الله وإن خرجت على عبدالله زيد عليها عشرة أخرى وهكذا حتى ترضى الآلهة بالدية،فاستجاب عبد المطلب لرأى العرّافة،وظلت القرعة تخرج على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة،فخرجت على الإبل،فنحرها عبد المطلب وترك لحمها حلالا للناس والحيوان والطير .

ونجا عبد الله بذلك من الذبح ، ولكن هـذه الحادثة أذاعت اسمه وأكسبته شهرة عظيمة ، وأصبح موضع عناية الناس وحديثهم وحبهم ، وزوّجه والده بعد ذلك من آمنة بنت وهب ، وعاش معها فترة قصيرة بعد الزواج ، ثم تركها وسافر متاجراً إلى الشام . ومات فى الطريق دون أن يعود إلى زوجته ، ولكن بعد أن أودع فى بُضعها نطفة[2] كان مقدراً لها أن تكون أعظم شخصية فى تاريخ البشرية . فكأنما نجا عبد الله من الذبح

---

(١) كان لعبد المطلب عشرة بنين وست بنات (انظر العقد الفريد جـ ٤ ص ٢٥٢) .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد جـ ١ ص ١٧ .

لغرض واحد هو الالتقاء بآمنة وتكوين هذا الجنين ؛ وبعد أن أدّى عبدالله الغرض أذّن بالرحيل .

الكاهنة التى أرادت الزواج من عبد الله

عند ما نجا عبد الله من الذبح انصرف به أبوه عبد المطلب عائداً إلى البيت ، وفى طريق عودة عبد الله إلى دور بنى هاشم رأته امرأة من بنى أسد بن عبد العزى تدعى رقية بنت نوفل ، وهى أخت ورقة بن نوفل ، وكانت لها فراسة ومهارة ؛ فرأت فى وجهه نوراً أحست أنه سينتقل إلى ابن عبد الله؛وتمنّت أن تكون هى الأمّ التى يجىء هذا الابن عن طريقها، فتعرّضت لعبد الله ؛ وحادثته ثم عرضت نفسها عليه ، ولكن عبد الله أعرض عنها فطلبت منه أن يتزوجها وقالت له : لك مثل الإبل التى نحرت عنك لو تزوجتنى ، ولكن ذلك لم يدفع عبد الله للاستجابة لطلبها ؛ وتقول الرواية أن عبد الله قال شعراً يحمى نفسه من أية صلة غير مشروعة بأية امرأة ، وهذا الشعر هو :

أمّا الحرام فالحِمامُ دونَه والحلُّ لا حلَّ فأستبينَه
فكيف بالأمر الذى تبغينَه يحمى الكريمُ عرضَه ودينَه

ويقال إن عبدالله تزوج آمنة بعد ذلك بقليل،ومرّ بهذه المرأة بعد أن دخل بآمنة وبعد أن حملت آمنة منه ، ولكنها أعرضت عنه ؛ فسألها عبدالله ما سبب إعراضك ؟ فقالت : فارقك النور الذى كان معك ، فليس لى بك اليوم حاجة [١] .

آمنة بنت وهب :

إذا كان عبد الله قد أدى مهمته فى الحياة بزواجه بآمنة وتكوين هذا الجنين ، فإن مهمة آمنة لم تنته بذلك ، فالحمل والحضانة والإشراف على الطفل كانت لازمة لهذا الطفل ، فتفضّل الله ومدّ عمر آمنة بضع سنين ، والباحث

---

(١) ابن هشام ١ : ١٤٣ و ١٤٥ .

النفسي يـدرك مرور آمنة بزواجها من عبد الله ذي الشباب الغض والشهرة الذائعة، ويدرك أن موت عبد الله بعد هذا الالتقاء الوجيز كان جديراً أن يحطم قلب آمنة؛ ولكن التاريخ يثبت لنا هدوء آمنة في غمرة الحزن ورضاها مع الأسى، وقد وجدت آمنة سلواها في الجنين ثم في الطفل، ولكنها سرعان ما ماتت عندما كان طفلها في السادسة من عمره. وكانت وفاتها في موضع يقال له الأبواء بين مكة والمدينة [1].

لقد شاء الله - فيما يبدو - أن يتولى هو تربية محمد وأن ينزعه من أسرته ليصبح في رعاية الله تمهيداً للأسرة الكبيرة التي سيكون محمد زعيمها، والتي لا تهتم بجنس ولا لغة، وإنما أكرم الناس فيها هو أكثرهم تقوى لله، وقد عبر القرآن عن هذا المعنى بالآية الكريمة: (ألم يجدك يتيما فآوى) [2] وعبر عنه الرسول بقوله: « أدبني ربي فأحسن تأديبي ».

مولد محمد:

كان محمد ثمرة الالتقاء القصير بين عبد الله وآمنة، ولقد ولد في التاسع أو الثاني عشر من شهر ربيع الأول (٢٠ ابريل سنة ٥٧١ م)، وكان مولده في مكان غير بعيد من الكعبة، وقد أقيمت مكتبة في المكان الذي ولد فيه الرسول عليه السلام، ويؤمها الآن كثير من الحجاج ليعيشوا ردحاً من الزمن في المكان الذي شهد مولد المصطفى.

وكانت ولادته في عام الفيل، ويبدو لي أنه تكريماً لمولد الرسول دافع الله سبحانه وتعالى عن البيت الحرام بواسطة الطير الأبابيل التي دمرت الفيلة التي كانت عماد جيش أبرهة وهو يزحف لتدمير الكعبة، وقد خطر لي هذا الخاطر لأن الكعبة هوجمت قبل الإسلام وبعده عدة مرات [3]، وكانت هذه المرة هي المرة الوحيدة التي تصدت القوة العليا للدفاع عن البيت الحرام.

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد ١: ١٧.   (٢) سورة الضحى الآية ٦.

(٣) اقرأ هذه المرات في كتاب: حركات فارسية ضد الإسلام والمسلمين عبر العصور للمؤلف ص ٢٠٤.

محمد فى كفالة جده عبد المطلب :

ذكرنا من قبل أن عبد الله والد محمد مات عقب زواجه من آمنة بشهور قليلة ، وبهذا لم ير محمد أباه فكفله جده عبد المطلب ، ويروى أنه لما تمت ولادة محمد — وكانت قد تمت بكل اليسر كما تؤكد الروايات التاريخية — أرسلت آمنة إلى جده عبد المطلب بذلك ، فأسرع إليها ، وفرح بالمولود أشد الفرح ، وتقول الرواية إن عبد المطلب أخذه إلى الكعبة وطاف به وشكر الله أن منحه عوضاً عن ابنه عبد الله ، وقال قصيدة طويلة مطلعها .

الحمد لله الذى أعطانى هذا الغلام الطيب الأردان

رضاعته عليه السلام من حليمة السعدية :

تمنَّت السيدة آمنة أن يُتاح لابنها ما يتاح لأبناء السادة من قريش من الحياة بالبادية مع إحدى المرضعات لتقوى عظامه ، وتتمكن شخصيته الاستقلالية ، ولينعم بسلامة الجو ، وينشأ على سماع اللغة العربية الفصحى .. فطلبت من عبد المطلب أن يحقق لها هذا الأمل ، وكان عبد المطلب شديد الحرص على تلبية رغبات آمنة لعله يجبر خاطرها إذ أنها فقدت زوجها بعد حياة قصيرة معه .

وسرعان ما دخل عبد المطلب على آمنة ومعه امرأة أعرابية هى حليمة ابنة أبى ذؤيب من بنى سعد .

وتقول حليمة السعدية إنها خرجت من موطنها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، وكانت ضمن نسوة من بنى سعد يلتمسن الرضعاء .

وتقول حليمه إن ذلك كان فى سنة عجفاء ، وقد خرجتُ على ناقة نحيلة ، وليس بثديى حليمة لبن يذكر من قلة الطعام ، وكان ما بثديها من اللبن لا يكاد يغنى ابنها الذى حملته معها ، وتستمر حليمة قائلة : قدمنا إلى مكة ، وعُرِض محمد بن عبد الله على أكثر المرضعات فأبين أخذه لأنه يتيم ، والأمل قليل فى عطاء أمه وجده ، واستطاعت كل مرضعة أن تجد

رضيعاً ، ولم يبق إلا أنا ، فلما أوشكنا على العودة ، قلت لزوجي : والله إنى لأكره أن أرجع بين صواحبي بدون رضيع ، وأشرت عليه أن نأخذ الطفل اليتيم ، فوافق على ذلك ، فذهبت إليه وأخذته ، وما حملني على أخذه إلا أنى لم أجد غيره .

وتقول حليمة ورجعت به إلى رحلي ، وسرعان ما امتلأ ثدياى باللبن ، وشرب حتى رَوِىَ ، وشرب ابنى حتى روى كذلك ثم ناما ، واتجه زوجي إلى ناقتنا فإذا باللبن يكاد يقطر من ضرعها ، فحلب منه ما قضى حاجتنا .

وفى طريق العودة كانت ناقتنا أسرع النوق سيراً ، حتى ظنت صواحبي أنها ليست الناقة التى وفدنا عليها ، ولكنى قلت لهن: إنها والله هى هى .

وفى دُورنا رأيت كل شيء فى حياتنا قد تغير، فأغنامنا سمنت ، وفاض لبنها ، وحياتنا قد ملأها السرور والخير ، ولما انتهت فترة الرضاعة ، قدمنا به إلى مكة ونحن نأمل أن نعود به مرة أخرى ، فكلمت أمه فى ذلك وقلت لها : لو تركت ابنى عندى حتى يغلظ ؟ فإنى أخشى عليه وباء مكة، ولم نزل بها حتى ردته معنا .

ثم حدثت أحداث غير عاديّة فيها يمن وبركة للرسول صلوات الله عليه خلال إقامته فى بنى سعد مما جعل حليمة تخاف عليه فردته إلى أهله ، إشفاقاً منها عليه .

محمد فى بيت أبى طالب :

أوصى عبد المطلب وهو فى النزع الأخير أولاده بمحمد وطلب منهم أن يعوّضوه ما فقد من حنان أبيه وأمه وجده ، وذكر لهم أنه يتوقع لمحمد مستقبلا عظيما ، ويخشى عليه من الحساد والأعداء ، وطلب منهم مساعدته بكل ما يستطيعون

وقد انبرى أبو طالب آنذاك يطَمْئِن والده على محمد، ويتعهد بالعناية به وبحمايته والدفاع عنه حتى لا يمسه سوء، وكان أبو طالب أخاً شقيقاً لعبد الله

ولذلك كان أرحم أعمام النبي صلى الله عليه وسلم به ، وأولاهم برعايته (١) .

وتوفى عبد المطلب عقب ذلك وكانت سن الرسول ثماني سنوات .

وانتقل محمد إلى بيت أبي طالب ، وكان هذا رجلا شهماً كثير العيال ، وأقبل على محمد وفضّله على كل أبنائه ، وأظهر محمد قناعة وأدباً فزاد حب أبي طالب إليه ، وكان طعام محمد مع عمه غالباً وليس مع أبناء عمه .

راعي الغنم « الأمين » :

ولما شبّ محمد أخذ يرعى غنم عمه أبي طالب ، وكان مثالا للراعي الأمين ، يهتمّ بأغنامه رعياً وسقياً ، فإذا مرضت إحداها عمل بجدّ على رعايتها وعلاجها ، فكثرت أغنام أبي طالب وعظمت ؛ مما جعل بعض أهل مكة يطلبون أن يضموا أغنامهم لأغنام أبي طالب طلباً للنماء والخير ، ولما ظهر لهم حرص محمد على حسن أداء العمل وحسن رعايته لأغنامه أطلقوا عليه لقب « الأمين » .

وكان هناك رعاة آخرون يخرجون بأغنامهم للرعى ، ولكن محمداً لم يكن كثير الاختلاط بهم ، ولم يُقْدِم على ما كانوا يعملون من نزوات الصبيان وأهوائهم .

وحدث مرة أن أراد محمد أن يشارك أترابه ما كانوا يقومون به من مسرّات وسهرات ، وهو يروى ذلك عند ما أصبح نبياً ، فيقول :

ذهبت حتى أتيت داراً من دور مكة ، وسمعت العزف والغناء ، ولكن سرعان ما شملنى النوم ، فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشمس .

وكررتُ ذلك مرة أخرى فحدث نفس الشيء ، فوالله ما عُدْتُ لذلك بعدها حتى أكرمني الله عز وجل بالنبوة .

وستراه فيما يلي وهو يصحب عمه فى تجارته إلى الشام .

---

(١) العقد الفريد ٤ : ٢٥٢ وفى الكامل للمبرد (١ : ٢٥٧) أن الزبير بن عبد المطلب كان أيضاً شقيقاً لعبد الله .

قصة بحيرى الراهب :

وخرج أبو طالب مرة فى تجارته للشام وصحبه محمد ، فحدث حادث مهم ترويه كتب السيرة والتراث ، ففى الطريق إلى الشام نزل الركب بُصرى من أرض الشام ، وكان بها راهب يسمى بَحِيرَى ، وكان له عِـلْمٌ بالكتب المقدسة ، كما كان راهباً يعيش فى الصـومعة التى كان يعيش بها الرهبان . .

وكان من عادة بحيرَى ألا يهتم بالقوافل التجارية ، فليس له بها شأن ، ولكنه فى هذه المرة أبدى اهتماماً كبيراً بقـافلة قريش ، إذ رأى غمامة تسير مع القافلة وتقف إذا وقفت القافلة ، وكان ذلك دليلا يفسر ما يجده بحيرى من قرب ظهور نبى آخر الزمان ؛ ومـن صور إكرام الله له ، فأراد بحيرى أن يستوثق من أن بالقافلة نبى آخـر الزمان ، فأقام مأدبة كبيرة دعا لها كل تجار القافلة ، وطلب منهم ألا يتخلف أحد عن الحضور .

ودهش تجار القافلة من صنع بحيرَى ، فلم يكن من عادته أن يحتفى بهم .

وحضر التجار إلى مكان المأدبة إلا محمداً لصغر سنه ، فقد بقى يحرس الرحال والسلع ، ورأى بحيرى أن الغمامة لا تزال هناك عند المكان الذى نزلت به القافلة ، ولم تصحب الغمامة القوم إلى بيت بحيرى ، فسألهم : هل بقى منكم أحد لم يحضر مأدبتى ؟ فقالوا : حضرنا كلنا إلا غلاماً واحداً تركناه عند الرِّحال . فقال : لا بد من إحضاره وسأرسل من رجالى من يحرس متاعكم ، وحضر محمد .

استقبل بحيرى محمداً وسأله باللات والعزّى أن يصدُقه فيما سيسأله عنه ، فصاح به محمد : لا تسألنى باللات والعزى شيئاً ، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضى لهما .

فأدرك بحيرى مكانة محمد وأجلَّه ، وعاد يسأله : بالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه . فقال له محمد : سلنى عما بدا لك ، فجعل يسأله عن

أشياء من حاله فى نومه وهيئته وأموره ، ومحمد يجيب حتى استوثق بحيرى من أنه أمام رسول آخر الزمان .

وحينئذ اتجه بحيرى إلى أبى طالب وسأل : ما هذا الغلام منك ؟

قال أبو طالب : هو ابنى .

قال بحيرى : ما هو ابنك ، وما ينبغى أن يكون لهذا الغلام أب حىٌّ .

قال أبو طالب : أنه ابن أخى ، مات أبوه وأمه حامل به .

قال بحيرى : صدقت ، ارجع بابن أخيك واحذر عليه من اليهود ، فوالله لو عرفوا عنه ما عرفتُ لأوقعوا به شراً (١) .

محمد يشترك فى حرب الفجار :

وعند ما كانت سنُّ محمد أربع عشرة سنة وقعت حرب الفجار الرابعة وكانت بين قريش وكنانة من جهة وهوازن من جهة أخرى ، وقد حضر الرسول هذه الحرب ويروى عنه قوله : كنت أنبل على أعمامى يوم « الفجار » وأنا ابن أربع عشرة سنة أى أناولهم النبل وسُميت حرب الفجار لوقوعها فى الأشهر الحرم ، وحروب الفجار خمسة اشتركت فيها القبائل التى سبق ذكرها : قريش وكنانة وهوازن (٢) .

محمد يتاجر بمال خديجة :

كانت خديجة بنت خويلد بن أسد سيدةً ذات شرف ومال ، وكانت تستأجر الرجال للعمل فى مالها وتجعل لهم شيئاً نظير ذلك ، إما مضاربة أو أجراً ، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ، ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام على أن تعطيه أفضل ما كانت تعطى لمن سبقه من الرجال الذين عملوا فى مالها .

---

(١) ابن هشام ١ — ١٦٥ ، ١٦٧ .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٥ ص ٢٥١ وما بعدها .

فقبل محمد ذلك وسار فى ركب التجارة ومعه غلامها ميسرة ، ويقول ميسرة إن راهباً اسمه (نَسْطُورَا) اعترضه فى مكان نزلت به القافلة للاستراحة ، وسأل الراهب ميسرة : من هذا الرجل ، فقال له ميسرة : إنه رجل من قريش أهل الحرم .

فقال الراهب : إن لهذا الغلام لشأناً[١] .

ووصلت التجارة إلى الشام ، وباعها الرسول فربحت كما لم تربح تجارة من قبل ، واشترى محمد من سلع الشام تجارة عاد بها ، وفى مكة بيعت هذه التجارة بضعف ثمنها فكان فى ذلك ربح وفير .

وتحدث ميسرة لخديجة لا عن الربح فحسب ، بل عن شرف محمد وأمانته ، وعن كلام الراهب نسطورا ، فكان لهذا الكلام وهذه المعاملة وقع عميق فى قلب خديجة أدّى إلى الزواج بها كما سنرى فيما يلى :

زواجه عليه السلام من خديجة :

يقول ابن هشام[٢] أن خديجة كانت امرأة شريفة نبيلة ، وكانت من أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالا ، فلما أخبرها ميسرة بما لاحظه على محمد خلال رحلة التجارة قررت خديجة أن تخطب محمداً لنفسها بطريق غير مباشر ، فأرسلت إليه امرأة ذكية اسمها « نفيسة بنت منبه » ودار بين هذه المرأة وبين محمد الحديث التالى :

نفيسة : لماذا يا محمد لا تُقْدِم على الزواج ؟

محمد : تكاليف الزواج يا أماه لم تيسّر لى بعد .

نفيسة : وماذا يا محمد لو كفيناك هذه التكاليف ، واقترحت عليك امرأة من أعظم سيدات قريش حسباً ومالا ؟

محمد : ومن تكون هذه السيدة ؟

نفيسة : خديجة بنت خويلد .

---

(١) ابن هشام ﺟ ١ ص ١٧٢ (٢) المرجع السابق ونفس الصفحة

محمد : إننى أعرف أن كثيرين تقدموا إليها ورفضت الزواج .

نفيسة : إذا قبلت أنت يا محمد كان علىّ أن أكمل الموضوع .

وتمّ الاتفاق على أن يتم زواج بينهما ، وخطب أبو طالب خديجة لابن أخيه ، وقدّم لها عشرين ناقة لتكون مهراً لها ، وألقى أبو طالب خطبة فى أهل خديجة قال فيها : إن محمداً ابن أخى شاب لا يوزن به فتى من قريش إلا زاد عليه شرفاً وخلقا ، وإن كان قليل المال فالمال ظل زائل ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وقد ساق محمد إليها عشرين ناقة مهراً .

فقام عم خديجة ورد على الخطبة بقبولها وبارك الزوجين ، وأقيم حفل الزواج فنحرت الذبائح وأطعم الناس ، وفتحت دار خديجة أبوابها لتُولِم الولائم وتستقبل رءوس العشائر مهنئين ، وضم بيتها الكريم أعظم زوجين .

ومما يذكر أن الزواج كان يتم فى بيت الزوجة فيقيم الرجل فى بيت زوجته عدة أيام ثم يأخذ زوجته إلى داره ، ولكن خديجة طلبت من الرسول أن يبقى فى بيتها الواسع ، وأن يدير تجارتها ويشرف على أموالها فقبل .

وكان الرسول عند الزواج فى الخامسة والعشرين وكانت السيدة خديجة فى الأربعين (١) من عمرها تزوجت قبله مرتين (٢) .

عمر السيدة خديجة عند زواجها بالرسول :

على أن تحديد سنّ السيدة خديجة حين زواجها بالنبى ﷺ ، هو من المسائل التى اختلفت فيها الآراء ودار حولها نقاش كثير ، وذلك لاختلاف روايات المؤرخين الثقات وهى المصدر الذى نعتمد عليه فى هذا الموضوع .

فقد روى كثير من المؤرخين على رأسهم الطبرى (٣) : أن السيدة خديجة كانت تبلغ من العمر أربعين سنة يوم تزوّجها النبى صلى الله عليه وسلم ،

(١) ابن القيم — زاد المعاد ١ — ١٨ . (٢) ابن قتيبه : المعارف ص ٦ .

(٣) تاريخ الطبرى ص ١١٢٧ .

واعتمد على هذه الرواية كثير من الدارسين المحدثين كالدكتور محمد حسين هيكل (١) والدكتورة عائشة عبد الرحمن (٢) وغيرهما ، وقد أخذ أصحاب هذا الرأى فى اعتبارهم أن السيدة خديجة قد تزوجت قبل النبى صلى الله عليه وسلم مرتين وأنجبت فيهما أطفالا ، ثم أنها مكثت بعد الزواج الثانى فترة ترفض مَنْ يتقدم إليها من أشراف قريش يطلب نكاحها ، وانصرفت إلى التجارة تنمى ثروتها وتهتم بها ، حتى تاجر الرسول فى مالها فاقتنعت بـه ، ورَضيته زوجاً لها ؛ لأنها رأت فيه صفات الرجل الذى تنشده ، ويؤيد هذه الرواية التى تقول إنها كانت فى الأربعين من عمرها روايةٌ أخرى تقول : إنها توفيت قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وكان عمرها آنذاك خمساً وستين سنة ، وكان عمره عليه الصلاة والسلام خمسين سنة .

وهذا الرأى يؤخذ عليه أنها أنجبت فى هذه السِّن المتأخرة ، ولكن يجاب على ذلك بأنه من المشاهد وجود بعض السيدات ينجبن ليس فقط بعـد الأربعين ، بل بعد الخمسين أيضاً ، ويتوقف ذلك على عوامل متعددة — توفرت للسيدة خديجة — كالوسط الاجتماعى ، ومدى ما تعيش فيه المـرأة من ترف ورفاهية .

على أن هناك روايات أخرى أشار اليها ابن كثير (٣) تذهب إلى أن السيدة خديجة كانت فى الخامسة والعشرين أو الثامنة والعشرين عندما تزوجها الرسول ، ويرجِّح هذا الرأى المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد (٤) حيث يرى أن المرأة فى بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها الهرم ، فلا تتصدى للزواج بعد الأربعين ، وإن كان يؤخذ على هذا الرأى أن الحكم العـام قد لا ينطبق على امرأة كالسيدة خديجة عاشت فى ترف من العيش ، كمـا ذكرنا آنفاً .

وهكذا تتعدد الآراء وتختلف حول هذه القضية ، ويؤكد كل فريق ما يذهب إليه بروايات مأثورة ، ومشاهدات ما تزال تعيش بيننا حتى الآن .

---

(١) حياة محمد ص ١١٠ . (٢) نساء النبى ص ٢١٧.

(٣) السيرة النبوية جـ ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٥. (٤) فاطمة الزهراء والفاطميون ص ٢٠ .

بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود :

عندما كان الرسول صلوات الله عليه فى الخامسة والثلاثين من عمره اجتمعت قريش لبناء الكعبة ، وعند الحديث عن بناء الكعبة يجدر بنا أن نقتبس قوله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » والتعبير « يرفع القواعد » يفهم منه بعض الباحثين أنه كانت هناك قواعد للبيت قبل إبراهيم .

ولعله من الأنسب أن نتحدث عن مرات بناء الكعبة كما يرويها التاريخ ، فيقولون إن الكعبة بنيت خمس مرات :

الأولى : حين بناها شيث بن آدم ، وفى رواية أن الملائكة هم الذين بنوها لأول مرة .

والثانية : حين بناها إبراهيم واسماعيل على القواعد الأولى .

والثالثة : هى تلك التى نتكلم عنها والتى حدثت قبل الإسلام بخمسة أعوام .

والرابعة : حين احترقت فى عهد عبد الله بن الزبير وأعاد ابن الزبير بناءها ووسع مساحتها .

والخامسة : فى عهد عبد الملك بن مروان حينما ضربها الحجاج - وابن الزبير متحصّن بها - فلما سقط ابن الزبير هدمها عبد الملك وأعاد بناءها على قواعدها التى كانت عليها فى عهد الرسول .

بمناسبة الحديث عن الكعبة نذكر أن المسجد الحرام بُنِىَ لأول مرة فى عهد عمر بن الخطاب ، إذ رأى أن الناس ضيّقوا على الكعبة وألصقوا دورهم بها أو بنوا هذه الدور على مقربة منها ، فقال عمر : إن الكعبة بيت الله ، ولابدّ للبيت من فناء ، فاشترى تلك الدور من أهلها وهدمها ، وبنى المسجد المحيط بها ، وفى عهد عثمان اشترى هذا دوراً أخرى وأغلى فى ثمنها وزاد فى

سعة المسجد ، فلما كان ابن الزبير زاد فى إتقان المسجد وتجميله ، وجعل فيه أعمدة من الرخام ، وزاد فى أبوابه ، فلما جاء عبد الملك زاد فى ارتفاع حائط المسجد ، وحمل إليه السوارى فى البحر إلى جده ، ثم فى البر إلى مكة .

وزاد عليه الخلفاء العباسيون زيادات واسعة ، كما اهتم سلاطين مصر بتوسيعه وتجميله وبخاصة الظاهر بيبرس وبرقوق وقايتباى .

وفى العصر الحديث بلغ اهتمام ملوك المملكة العربية السعودية بالحرم المكى أقصى حدٍّ ، توسيعاً وتجميلا ، حتى أصبح تحفة معمارية رائعة .

ولنعد لحديث بناء الكعبة قبيل الإسلام ، تقول الرواية إن العرب تردّدوا فى هدمها ، وهابوا ذلك ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدأ بهذا العمل ، وأخذ المِعْوَل وبدأ الهدم وهو يقول : اللهم إنا لا نريد إلا الخير ، وبعد ذلك تقدم الناس وساعدوا الوليد حتى انتهى الهدم إلى الأساس الذى رفع عليه إبراهيم واسماعيل القواعد .

ووضعت قريش دستوراً لبناء الكعبة حدده الوليد بن المغيرة بقوله : يا معشر قريش لا تُدخلوا فى بنائها من كَسْبكم إلا طيِّباً ، لا يَدْخل فى بنائها مهرُ بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس .

ولما ارتفع البناء اختلفت قريش فى وضع الحجر الأسود فى مكانه واختصموا فى ذلك ، كلُّ قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، واشتدَّ الأمر ، واستعد القوم للقتال : وهنا صاح أبو أمية بن المغيرة ، وكان أكبر قريش سناً فقال : يا معشر قريش حكِّموا فى هذا الأمر أول من يدخل من باب هذا المسجد ليقضى بينكم . فارتضوا هذا الرأى .

وبعد قليل دخل الرسول عليهم من هذا الباب ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا بحكمه ، وأخبروه الخبر ، فقال : هلم إلىّ ثوباً ، فأُتِىَ به ، فأخذ الحجر ووضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ،

ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه وأرضى الجميع (١) .

وتقول الرواية إن إبليس ظهر آنذاك فى صورة شيخ نجدى وصاح بأعلى صوته قائلا : يا معشر قريش أرضيتم أن يضع محمد هذا الحجر فى مكانه دونكم ؟ وأراد بذلك أن يثير شراً ، ولكن الناس أعرضوا عنه .

أخلاق محمد قبل البعثة :

اتفق المؤرخون والباحثون على أن محمداً لم يعبد صنماً قط ، وبُغِّضَت إليه الأوثان ودين قومه (٢) ، وإنما كان يخلو لنفسه ويفكِّر فى الكون وصانعه ، وكان يجاور فى غار حراء من كل سنة شهراً (٣) . واستمر كذلك حتى عَبَدَ اللهَ على دين إبراهيم الخليل الذى كان يدين به بعض العرب الذين لم يقبلوا عبادة الأوثان مثل قس بن ساعدة وأكثم بن صيفى وأمية بن أبى الصلت . وكما تنزه محمد عن عبادة الأصنام فإنه تنزه كذلك عن مذمومات الجاهلية التى كان يغرق فيها شباب العرب فى ذلك العهد (٤) .

ولم يكتف محمد قبل الإسلام بالبعد عن الأصنام ، بل كان ينهى عن عبادتها ما استطاع لذلك سبيلا ، يروى زيد بن حارثة أنه ذهب مع الرسول مرة للطواف بالبيت ، وكان لقريش صنمان يتمسح بهما العرب ، فطاف محمد ولم يتجه للصنمين ، أما زيد فقد تمسح بهما كما كان يفعل سواه من الناس ، فقال له محمد : لا تمسَّهما يا زيد فدهش زيد من ذلك وقرر أن يمس الصنمين مرة أخرى ليتأكد له موقف محمد من ذلك ، ومسح زيد الصنم فى طواف آخر ، فنهره محمد قائلا : ألم تنته ؟ قال زيد : الآن قد انتهيت .

وكان بُعْد محمد عن الأصنام وعن مذمومات الجاهلية إعداداً له ليتلقى رسالة الله ، وهى الفترة التى سنتحدث عنها فيما يلى :

---

(١) الأزرق : أخبار مكة ص ٢٨ و ٢٩ . (٢) زاد المعاد جـ ١ : ص ١٨ .

(٣) ابن هشام جـ ١ : ص ١٥٣ . (٤) [illegible]

البَعثة النبَويَّة

وحياة الرسول فى مكة

تدوين جديد للسيرة

لقد سعدت بكتابة تاريخ السيرة العطرة منذ أكثر من عشرين عاما ، وصرت فيما كتبت على النمط الذى اتبعه الأوائل ؛ ولكنى أحس اليوم بأن السيرة النبوية وبخاصة فى عهد المدينة ينبغى أن تدوَّن من جديد ، فقد راعنى أن تدوين السيرة على مر التاريخ ابتداء مما كتبه ابن هشام حتى الدراسات التى كُتبت فى العهد الحاضر ، أغفلت جوانب كبيرة الأهمية من حياة الرسول بالمدينة ، فمن الطبيعى أن حياة الرسول بالمدينة كانت حافلة بجلائل الأعمال ، بنى فيها الرسول الفرد المسلم ، وبنى المجتمع الإسلامى ، وكانت له مواقف رائعة مع أسرته تعتبر نموذجاً لكل رب أسرة ، ومواقف رائعة مع أصحابه تعتبر قدوة لكل رفيق ، وفى هذه الفترة أسَّس الرسول أخلاقاً جديدة ، ووضع الأسس لعلاقات الفرد بالفرد . والفرد بالمجتمع ، كما وضع الرسول أساس العلاقات بين المسلمين ، وقام بالدعوة للإسلام فى المدينة وفى الجزيرة العربية ، وخارج الجزيرة مبيناً وسائل الدعوة هنا وهناك ، وفى المدينة واجه الرسول اليهود والمنافقين ، وربى الحكَّام والولاة والدعاة ، وغير ذلك من الأعمال التى حفلت بها الحياة اليومية للرسول صلوات الله عليه .

ماذا نرى فى كتب السيرة ؟ .

إننا للأسف نرى تركيزاً قوياً على الغزوات . فما أن يتم حديث كتَّاب السيرة عن الهجرة حتى تتجه جهودهم للغزوات . فيتحدثون عن غزوة بدر الكبرى فى العام الثانى للهجرة ، وغزوة أحد فى العام الثالث . والصراع ضد بنى النضير فى العام الرابع ، وغزوة الخندق فى العام الخامس . والحديبية فى العام السادس ، وخيبر فى العام السابع ، وفتح مكة وغزوة مؤتة فى العام الثامن ، وتبوك فى العام التاسع ، ثم الوفود وحجة الوداع ووفاة الرسول .

بالله ! ! كأن حياة الرسول كانت حروباً متصلة ، وكأن الإسلام دين دماء ، وذلك ما يخالف الواقع ، ويتضح هذا لو لاحظنا أن حروب ذلك الزمان كانت بالسيوف والحراب ، وكانت لقاء لا يطول مداه ، تنتصر فيه جماعة وتهزم أخرى ، بعد جولة أو عدة جولات وبكلمات محددة نذكر مثلا أن غزوة أحد بما كان بها من أحداث ومد وجزر حدثت فى يوم واحد هو يوم السبت النصف من شعبان ، وكانت غزوة الخندق أطول الغزوات ولكنها أيضاً لم تستغرق أسابيع قليلة ، فماذا كان الرسول يفعل خلال باقى أيام العام ؟ ثم إن بعض الغزوات كانت بقيادة بعض الأبطال من المسلمين مثل غزوة مؤتة ، وكان الرسول مقيما بالمدينة يزاول المهام الإسلامية الواسعة ، ومثل هذا كان يحدث عندما كان الرسول يرسل السرايا ، وتدلنا أحداث التاريخ أن الرسول خلال السفر للغزوات كان أيضاً يباشر تربية الفرد وتربية المجتمع وغرس أخلاق الإسلام والدعوة له . . . . فلماذا أغفل كُتَّاب السيرة هذه الجوانب المهمة ، وركزوا اهتمامهم على الغزوات والحروب ؟ .

إن الإجابة على هذا السؤال الخطير ترينا سبب هذا الخطأ ، وبالتالى تفتح أمامنا الأبواب لنصحح هذا الوضع ونتدارك ما فات السابقين .

إن الإجابة تكمن فى أقـدم كتاب عن سيرة الرسول ، ذلك هو ما كتبه ابن اسحق (٨٥ – ١٥١ هـ) الذى تلقى عن التابعين وتابعيهم ، وجاء بعده ابن هشام الذى جمع كلام ابن اسحق وهذبه فنُسب له وأصبح معروفاً بسيرة ابن هشام .

ماذا فيما كتب ابن اسحق مما سبب هذا الخطأ الذى نحاول أن نفتح الباب لإصلاحه ؟ .

الإجابة أن ابن اسحق كتب كتابين يتصلان بالسيرة العطرة ، أحدهما هو « كتاب المبتدأ » أو « كتاب المبدأ وقصص الأنبياء » وهو كتاب

يتحدث عن تاريخ الأنبياء ويمتد حتى هجرة الرسول محمد صلوات الله عليه إلى المدينة ، والكتاب الثانى هو « كتاب المغازى » ويتحدث فيه عن غزوات الرسول ، ويقال إنه كتب كتابه الأول بناء على طلب الخليفة أبى جعفر المنصور ليكون وسيلة لتثقيف ابنه المهدى ، وكان قد كتبه مطولا ولكن الخليفة طلب منه اختصاره ففعل . أما الكتاب الثانى وهو كتاب « المغازى » فكان استجابة للفكر العربى والعالمى آنذاك ، الذى كان يهتم بالحروب ويسجل صور البطولات ، فطالما نظم الشعراء قصائد إعجاب بأبطال الحرب ودونوا سيرة أولئك القادة المشاهير الذين كان عليهم الدفاع عن الديار وحماية الذمار .

وعمل ابن اسحق لا غبار عليه ، فهو قد اختار موضوعاً لهذا الكتاب وموضوعاً لذاك وكتب فيهما ، ولكن المشكلة تبدأ من ابن هشام الذى اقتبس من « كتاب المبتدأ » الجزء الخاص بسيرة الرسول حتى الهجرة ، وأضاف إليه كتاب ابن اسحق الثانى وهو « كتاب المغازى » وكوّن بذلك كتاباً أسماه « السيرة النبوية » واعتبر هذا الكتاب أساساً لكُتّاب السيرة عبر العصور ، فنتج عن هذا التصرف ما يلى :

أولا : دوّنت السيرة النبوية لابن هشام تفاصيل دقيقة لحياة الرسول فى مكة حتى تمام الهجرة ، إذ كان ابن اسحق قد دوّن ذلك بتفصيل واسع .

ثانياً : حفلت الغزوات بتفاصيل دقيقة عن خطواتها وأحداثها ونتائجها لأن ابن اسحق كان قد عنى بذلك أيضاً .

ثالثاً : لم تنل مواقف الرسول بالمدينة فى غير الغزوات أى اهتمام لأن ذلك لم يدخل ضمن الإطار الذى وضعه ابن اسحق لدراسته ، ولأن ابن هشام ومن جاء بعده غفلوا عن ذلك فقنعوا — سهواً — بما ذكره ابن اسحق ، مع أن دراسة ابن اسحق عن الرسول بعد الهجرة كانت مرتبطة بالغزوات فقط .

وأصبح هناك منهج للسيرة يذكره محقق سيرة ابن هشام بقوله فى المقدمة التى وضعها لهذا الكتاب :

« تبدأ السيرة بسرد نسب النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وقد تطلّب هذا إشارة إلى أنساب بعض أخيار العرب وأفاضلهم ، وذكر أخبارهم فى الجاهلية ، وعاداتهم وتقاليدهم وعباداتهم ؛ وذكر الأحداث

الهامة التى وقعت بينهم كإعادة حفر بئر زمزم على يد عبد المطلب بن هاشم ، ثم تنتقل للحديث عن مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونشأته ومبعثه ، ومَنْ استجاب لدعوته ، وآمن برسالته ، وما لقيه النبى فى سبيل نشر الدعوة ، من أذى وتعنت ، وما عاناه المؤمنون من إيذاء الكفار لهم ، وهجرتهم الأولى والثانية إلى الحبشة ، وعرض الرسول نفسه على القبائل حتى قَبِلَ أهل يثرب دعوته ، فهاجر إلى المدينة هو والذين آمنوا معه .

« وفى المدينة يجىء ما وقع فيها بين الرسول وبين اليهود حتى تطهرت المدينة منهم ، ومن المدينة انطلقت جحافل جيوش المسلمين تدعو إلى الحق وترفع لواء الإسلام ، ومنها أرسلت الوفود ، حتى جاء نصر الله ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

« وبعد ذلك تجىء أخبار أزواج النبى ثم مرضه وانتقاله إلى الرفيق الأعلى »[١] .

ويقول محقق الكتاب إن هذا هو النهج الذى سار عليه ابن هشام ، ومن دراسة هذا المنهج يتضح لنا أن حياة الرسول بمكة درست بكثير من التفصيل تبعاً لما كان ابن اسحق قد دونه ، أما حياة الرسول بالمدينة فليس فيها إلا موقف الرسول من اليهود وصراعه فى الغزوات والموقفان يجمعهما الحروب ، وهذا هو مجال النقص الذى وجد فى تدوين السيرة على يد ابن هشام وهو الذى اتبعه من دونوا السيرة من بعده .

ولأن بعض الأحـــداث كانت بارزة فى حياة الرسول بالمدينة ، فإن المؤرخين لم يستطيعوا إهمالها ، ولكنهم للأسف جعلوها أجزاء من الغزوات ، ولم يفردوها بدراسة خاصة متكاملة .

---

(١) مقدمة السيرة : صفحة ه ، و

ومن أشهر من كتبوا سيرة الرسول من المحدثين ، الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه « حياة محمد » والدكتور هيكل رجل واسع الثقافة ، ولكنه سلك نفس الطريق الذى سلكه السابقون ، فما إن انتهى من الحديث عن أول العهد بيثرب فى الفصل الحادى عشر حتى اتجه للغزوات ابتداء من الفصل التالى فعقد الفصل الثانى عشر للحديث عن السرايا والمناوشات الأولى ، والفصل الثالث عشر عن غزوة بدر الكبرى وهكذا .

وقد كتب الأستاذ العقاد « عبقرية محمد » وللأستاذ العقاد روحه ومنهجه فى العبقريات ولكنه حدد عمله حين قال : « إن هذا الكتاب ليس كتاب سيرة نبوية جديدة ، وإن المحاولة فيه اتجهت لتبرئة المقام المحمدى من الأقاويل التى يلغط بها الأغرار والجهلاء . ولهذا كان أطول فصوله الفصلان الخاصان بالحرب وبالحياة الزوجية » وعلى هذا النهج سار الشيخ محمد الخضرى والدكتور حسن إبراهيم وغيرهما .

وكتبت أنا عن صـــدر الإسلام الجزء الأول من موسوعة التاريخ الإسلامى على نمط ما كتب الأوائل ، وأعيد طبعه تسع مرات ولكنى لم أعد أقتنع بما كتبت بعد أن خطر ببالى خاطر التصحيح الذى شرحته فيما سبق .

إننى أستعين بالله وأفتح هذا الباب ليس لأحاوله وحدى . وإنما أدعو كل المفكرين المسلمين إلى محاولته كل بقدر استطاعته لنعيد تدوين السيرة من جديد كما ينبغى أن تكون ، ولنضع صورة أقرب إلى الواقع للرسول عليه الصلاة والسلام الذى جعله الله قدوة للمسلمين ، قال تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة[1] » .

ولاشك أننا عند ما ندون تاريخ الرسول وفق هذا الاتجاه نصحح

---

(١) سورة الاحزاب الآية ٢١

خطط طال مداه ، ثم نبرز حياة الرسول للناس ليروا ما بها من أفانين فى مختلف الشئون ليستطيعوا أن يتمثلوا حياته وينتفعوا بها فى تربية أنفسهم وفى تصرفاتهم فى كل المجالات ، ومن الواضح أن عهد المدينة كان عهداً خصباً بعد أن أصبح للإسلام مركز ينطلق منه ، وبعد أن علت كلمة الله ، ولهذا حفل عهد المدينة بما لم يكن لمكة عهد به .

القرآن وسيرة الرسول :

وضع القرآن الكريم صيغة الحياة للمسلمين ، ونظم لهم شئون الدين والدنيا ، وأفاض القرآن الكريم فى تشريعات المال والتشريعات الخاصة بالمرأة ، والحدود ، والنظم ، والأخلاق ، وغير ذلك من التشريعات ، ومن الثابت كذلك أن الرسول كان خلقه القرآن كما رُوِىَ ذلك عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، وعلى هذا فإننا عندما ندون السيرة النبوية يبرز الرسول شارحاً كلام الله ومنفذه ، فسلوكه عليه السلام كان تطبيقاً عملياً للقيم والتعاليم والآداب التى وضعها الإسلام ، قال تعالى « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم[١] » وقال « أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة[٢] » وقال « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا[٣] » .

وعلى هذا فإننا فى تدوين السيرة النبوية نتابع الرسول حركة حركة ما أمكن ذلك ، ونحاول أن نضع أمام المسلم سفراً نرجو أن يكون شاملا لهذه الحياة الحافلة بالكفاح والمجد والعطاء .

---

(١) سورة النحل الآية ٤٢ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٥١ .
(٣) سورة الحشر الآية السابعة .

وبعد أن عزمت على التصحيح وهيأت نفسي له سألت : ما المراجع التي ستساعدني على القيام بهذا العمل إذا كان مدونو سيرة الرسول، على مر التاريخ ساروا على نهج ابن هشام ؟ .

وسرعان ما لمعت الإجابة فى خاطرى ، فقــد أحسست أن كتب الحديث حافلة بوصف شامل لتصرفات الرسول وإرشاداته ، وجمعت حولى كتب الصحاح ، ورحت أقرؤها بصبر ، وأقتبس منها وأصنف الأبواب والأحداث ، ونتج عن ذلك مجموعة رائعة من الدراسات ذكرت بعضها فى مقدمة الكتاب ، وسترد فى هذا الكتاب عند الحديث عن الرسول فى المدينة .

على أن حياة الرسول فى مكة قد أضيفت لها أيضاً دراسات مفيدة عثرتُ عليها وأنا أقرأ وأجمع المادة للنهج الجديد ، وكلما زادت السيرة النبوية وضوحاً كلما كانت أشعة النور والهدى للمسلمين أقوى وأعظم .

* * *

بعثة الرسول

هيأ مال خديجة للرسول فرصة ليتفرّغ للعبادة ، فقد تزوج محمد خديجة واغتنى بمالها (ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى)(١) . وكان محمد كما قلنا يخلو لنفسه ويفكر فى الكون ، ومنحه الغنى فرصة للفراغ والمزيد من التفكير ، ومنحه تقدم سنه مزيداً من العمق ، ومنحته أخلاقه الحسنة مزيداً من الصفاء ، وشملته عناية الله فرأى أن يخلو لله ، وشجعته زوجته الصالحة على رغبته فكانت تعد له الطعام . فيأخذه ويذهب إلى غار حراء ، حيث يخلو ليفكر فى الكون وخالقه . والموت ومصير الناس بعده وهكذا ، وَصَفَتْ نفس الرسول فأصبحت رؤاه تتحقق ولاتكاد تتخلف .

بدء الوحى : وظل محمد يخلو ويفكر حتى نزل عليه جبريل يوم الاثنين السابع عشر من شهر رمضان ، وضمه إليه ضمة شديدة ثم أطلقه وقال له :

اقــرأ .

فأجاب الرسول : ما أنا بقارىء .

فعاد جبريل فضمه بشدة ثم أطلقه وقال له : اقرأ .

فأجاب الرسول وقد أرهقه الضم والخوف : ما أنا بقارىء .

فضمه جبريل مرة ثالثة ثم أطلقه وقال له : (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم)(٢) .

---

(١) سورة الضحى الآية ٦-٨

(٢) سورة العلق الآيات ١ - ٥

وكانت هذه أول آيات تنزل من القرآن الكريم(١) ، ومن الملاحظ أن هذه الآيات لم تخبر محمداً بدعوة ، ولم تكلفه برسالة ، ولم تكن إلا إعلاماً بشيء غير عادى لم يدرك محمد كنهه عند وقوعه ، ومن أجل هذا أسرع محمد إلى البيت وهو يرتجف فقص على خديجة مارآه ، وقال لها : لقد خشيت على نفسى ، فهدأت خديجة من روعه ، وقالت له : والله لايخزيك الله أبداً ، ولم تعرف خديجة كزوجها كنه هذه الحالة ، ولذلك أشارت عليه أن يذهبا إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان شيخاً جليلا واسع الاطلاع عميق الخبرة : فاستجاب الرسول لرأيها وذهبا إليه حيث قص محمد قصته . فقال ورقة : هذا هو الناموس الذى ينزل على الأنبياء ، وياليتنى أكون معك حين يخرجك قومك . فسأله محمد : أو مخرجى هم ؟ فأجاب ورقة : لم يأت رجل بمثل ماجئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم يلبث ورقة أن توفى .

وانقطع جبريل عن الرسول مدة بعد ذلك ، وكان الرسول يترقبه فى الغار وخارج الغار ، فسمع مرة وهو يمشى صوتاً ، فرفع رأسه للسماء ، فرأى جبريل على نحو مارآه فى الغار ، فهاب المنظر وارتعب ، ورجع إلى بيته فى حالة من الخشية ،وقال لأهله : دثرونى دثرونى . فدثروه ، وجاءه جبريل وهو فى هذه الحالة فألقى إليه نداء ربه : (ياأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولاتمنن تستكثر ، ولربك فاصبر)(٢) .

فكانت هذه الآيات هى الآيات الأولى التى كلفت الرسول بالدعوة ، واتضح بها ماكان غامضاً ، ونهض محمد عليه السلام ليحمل هذا العبء الكبير .

وبدأت بذلك رسالة محمد ، تلك الرسالة التى وضعت حداً لعصر

---

(١) زاد المعاد ١ : ١٩ — ٢٠

(٢) سورة المدثر الآيات ١ — ٧

الجاهلية الذى سبق أن تكلمنا عنه وافتتحت عصراً جديداً للعرب هو عصر النور أو عصر الإسلام ، ومن الواضح مما ذكرناه من قبل عن العرب قبل الإسلام أن كلمة الجاهلية لم يقصد بها الجهل ، فقد كان فى الجزيرة العربية حضارة ، وكان لكثير من ممالكها ثقافة ومجد ، ولكن المقصود بالجاهلية هو التخبط فى المسائل الدينية ، فجاء الإسلام ليضع حداً لهذه الضلالة ويدعوهم للدين واحد وإله واحد .

ويروى أن الرسول كان يتصبّب عرقاً عندما تركه جبريل بعد أن ألقى إليه أمر ربه ، فقالت السيدة خديجة له : استرح يامحمد قليلا ، ولكن الرسول قال لها : لم يعد هناك وقت للراحة ياخديجة ، ونهض ليؤدى واجبه تجاه الدعوة على ماسنرى .

كلمة عن غار حراء :

وينبغى لنا أن نقف وقفة عند غار حراء ، ذلك المتعبد الذى شهد الرسولَ فترات طويلة قبل البعثة . والذى نزل به جبريل على سيدنا رسول الله أول مرة ، حيث أقرأه الآيات الأولى من سورة العلق .

وقد زرت هذا الغار فى ذى الحجة سنة ١٣٨٩ هـ (فبراير سنة ١٩٦٩) عند رحلتى للأرض المقدسة لأداء فريضة الحج ، والجبل الذى يقع فى قمته هذا الغار يسمى جبل النور ، وهو يقع إلى الشمال الشرقى من مكة ، ويبعد عنها حوالى خمسة كيلو مترات ، ويذهب إليه الآن كثير من الناس للتبرك والزيارة .

وقد صعدت هذا الجبل مع وفد من الرفاق من «آل الأسطل» ، وصعوده شاق للغاية ، وطريق الصعود صخرى ، ومن هنا فليس ممهداً على الإطلاق ، وقد يحتاج الصاعد إلى استعمال يديه ورجليه فى بعض الأحايين ليتقى السقوط ، ويستغرق الصعود حوالى الساعتين ومثلهما فى الهبوط .

وعندما تصل قمة الجبل تجد مالبس فى الحسبان ، فهناك بركة ماء منتظمة الشكل يقال إن الماء بها لاينقطع صيفاً ولاشتاء ، وعلى حافتها مكان فسيح ممهد مستو ، مساحته حوالى عشرين مترا مربعاً (أربعة أمتار عرضاً وخمسة طولا) والجوُّ فى هذا المكان جميل للغاية ، ونقى من الأتربة ، وهادىء كل الهدوء ،

ويعتقد أن ذلك المكان كان يستعمله الرسول للراحة من حين إلى حين .

وينحدر الإنسان من هذه القمة قليلا ليصل إلى الغار ، وقد أعدت العناية الإلهية هذا الغار إعداداً دقيقاً للإقامة الطويلة به ، فهو يشبه حجرة صغيرة مدخلها إلى الأمام وفى خلفها الجبل الشاهق ، أما الجانبان فيتكونان من صخور الواحدة منها فوق الأخرى تاركة فراغاً قليلا ينفذ منه الضوء والهواء ، فهو بذلك متجدد الهواء أو قل مكيّف الهواء .

وقد ساءلت نفسي وأنا بتلك القمة سؤالا هو : كيف كان يبيت الرسول ويعيش وحده فى هذا المكان الموحش ، وجاءنى الجواب دون إبطاء ؛ لقد كانت معه عين الله ، وكانت رعايته تؤنسه ؛ فلم يحس محمد بوحشة قط حتى انبثق النور من هذا المكان فملأ الأرض رحابة وأمناً وطمأنينة .

وسنرى عند الكلام على غار ثور الفرق الكبير بين الغارين ، لأن لكل منهما مهمة تمتاز عن الأخرى ، وكان الغار فى كل منهما مناسباً تماماً لأداء هذه المهمة .

مراحل الدعوة

قلنا آنفاً إن آيات سورة المدثر هي التي امرت محمداً أن ينذر الناس ، وأن يدعوهم لدين الله ، وقد بدأت بهذه الآيات مراحل الدعوة للدين الجديد(١) وهذه المراحل ثلاث هي :

- المرحلة الفردية .

- دعوة بني عبد المطلب .

- الدعوة العامة .

- عن كل منها فيما يلي :

المرحلة الفردية :

هي المرحلة الأولى من مراحل الدعوة ، وفيها دعا الرسول سراً أهل بيته ، كما دعا خاصة أصدقائه ، وكان يدعوهم لمبادىء الإسلام الأولى التي ذكرتها هذه الآية وهي الإيمان بالله ونبذ عبادة الأوثان ، فآمن به في هذه المرحلة زوجته ، وابن عمه علي ، وزيد مولاه ، ثم دعا الرسول أبابكر وكانت له به صلة منذ مدة فآمن به ، وعن طريق أبي بكر أسلم السابقون الأولون : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ودخل مع هؤلاء مجموعة من الموالي والفقراء(٢) . وقد استمرت هذه الدعوة السرية ثلاث سنوات .

---

(١) انظر زاد المعاد ١ : ٢٠ .

(٢) ابن هشام ١ : ١٦٥ وزاد المعاد : ١ : ٤٢ - ٤٣

وإسلام أبي بكر يحتاج إلى مزيد من التفصيل ، فقد كان صديقاً للرسول قبل البعثة ، وكان يتردد على بيته ، ويحس فيه بعمق الصدق وطيب الفطنة ، فلما اتجه محمد إلى الخلوة فى غار حراء زاد أبو بكر تعلقاً بالرسول وإيماناً بصفاته ، فلما جاء الوحى الرسول بالآيات الأولى من سورة اقرأ ومن سورة المدثر التى الصديقان ، وسأل أبو بكر : لقد افتقدتك طويلا يا محمد فكيف حالك ؟ .

فسأله الرسول بالتالى : أتصدقنى لو حدثتك بحالى ؟ .

فقال أبو بكر : ومن سواك أصدّق إذا لم أصدقك ؟ .

فأخبره الرسول بخبر الوحى وقرأ له آيات سورة اقرأ وآيات المدثر ، وأضاف الرسول أن هذا مطلع شعاع النور الذى أرجو أن يهتدى به الناس من الضلال وعبادة الأصنام ومن أكل الربا ومن الفسوق والعصيان .

وسرعان ما قبل أبو بكر ما قاله الرسول ، وسأله : ماذا أفعل لأصدُقك ؟ فأجابه محمد : تنطق بالشهادتين فتقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فنطق أبو بكر بالشهادتين عدة مرات .

ويقول الرسول : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة (تردد) إلا أبا بكر .

وحمل أبو بكر عقب ذلك عبء الدعوة إلى الإسلام فدخله السابقون الأولون كما ذكرنا آنفا .

ومما يذكر عن إسلام طلحة أن بنى تيم قومه وقوم أبى بكر سخطوا على إسلامهما ، وعبر نوفل بن خويلد الذى كان يدعى « أسد قريش » عن هذا السخط بأن تقدّم ، وربطهما فى حبل واحد ، وأخذ يشهّر بهما ، ولذلك سميا القرينين(١) ، وظلت هذه التسمية شرفاً يحرص عليه طلحة .

---

(١) الرياض النضرة فى تاريخ العشرة

وممن بكّر بالإسلام من أقارب طلحة عمه عمرو بن عثمان وقد كان ضمن المهاجرين إلى الحبشة ، أما عمه الآخر عمير بن عثمان فقد قتــل فى بدر مع المشركين ، وأسر أخوه خالد بن عبيد الله فى بدر أيضاً ومات أسيرا[١] .

واتجه السابقون الأولون إلى أصدقائهم يدعونهم إلى دين الله وقد استجاب لهؤلاء عدد من خيرة قريش مثل : سعيد بن زيد بن عمرو وزوجته فاطمة بنت الخطاب ، وأم الفضل زوجة العباس ، وأبى سلمة بن عبد الله المخزومى ، والأرقم بن أبى الأرقم ، الذى كانت داره على جبل الصفا منعزلة عن مكة ، فاتخذها الرسول مقراً للدعوة السرية للدين الجديد ، فكان يلتقى بها مع أتباع الدين يعلمهم ويرشدهم .

ومن الذين استجابوا لدعوة السابقين خالد بن سعيد بن العاص ، وكان أبوه من أغنى القرشيين ، ولإسلام خالد قصة جديرة بالذكر يرويها خالد بقوله : سمعت عن دعوة محمد وكنت متردداً فى قبولها ، ثم رأيت فيما يرى النائم أننى على وشك أن أقع فى هاوية فأدركنى محمد وخلصنى من الوقوع فيها ، فلما أصبح الصبح اتجهت إليه لأتعرف على تفاصيل الدين الجديد ، وسألت محمداً السؤال التالى : إلام تدعو يا محمد ؟ .

فقال صلى الله عليه وسلم : « أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجرٍ لا يسمع ولا يُبصر ، ولا يضر ولا ينفع .

وأدعو إلى الإحسان إلى والديك ، وألا تقتل ولدك خشية الفقر ، وألا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن ، وألا تقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق ، وألا تقرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن .

وأن توفى الكيل والميزان بالقسط ، وأن تعدل فى قولك ولو حكمت على ذوى قرباك ، وأن تفى بما عاهدت » .

قال خالد : فرأيت أن ما يدعو إليه حق ، فأسلمت واتبعت دينه .

(١) الدرر لابن عبد البر ص ٤٢ و ١١٩ ترجمة أبى عبيدة .

دعوة بنى عبد المطلب :

هذه هى المرحلة الثانية من مراحل الدعوة ، وقد بدأها الرسول عندما نزل عليه قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين)[1] فدعا بنى عبد المطلب ليجتمعوا به ، فلما حضروا قال لهم : إنى ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، فلقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة . وبلّغهم دعوته ، فصدق به بعضهم وكذب به آخرون ، وكان عمه أبو لهب هو وزوجته من أشد الناس قسوة عليه ، فقد هتف به أبو لهب قائلا : تباً لك ، ألهذا دعوتنا ؟ فنزل قوله تعالى : (تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد)[2].

وكانت زوجة أبى لهب (أم جميل) أخت أبى سفيان بن حرب فجذبت زوجها ليكون مع قومها من عبد شمس ضد بنى هاشم امتداداً للعصبية بين الجماعتين .

وقد كانت هذه المرحلة بدء الجهر بالدعوة للدين الجديد ، ولذلك مهدت للمرحلة الثالثة من مراحل الدعوة وهى التى سنتكلم عنها فيما يلى :

الدعوة العامة :

نزل قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)[3] فانطلق الرسول يدعو للإسلام جهراً كل طوائف الناس ، يدعو السادة والعبيد ، يدعو الأقربين والغرباء ، يدعو أهل مكة ثم يتجاوزها إلى البلاد الأخرى ، وكذلك يدعو الحجاج الذين يفدون إلى مكة من مختلف البلدان وقد أسلم فى هذه المرحلة الوليد بن الوليد بن المغيرة ، وسلمة بن هشام أخو أبى جهل وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وجماعة غيرهم أراد الله لهم الهداية[4] .

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤   (٢) سورة المسد .

(٣) سورة الحجر الآية ٩٤ .

(٤) ابن عبد البر : الدرر ص ٤٧ .

مقاومة قريش وأسبابها ومراحلها

بدأت الدعوة للإسلام سراً كما قلنا ، وربما عرفت قريشٌ أخبارها آنذاك ، ولكن قريشاً لم تعلن العداء على محمد إبان هذه المرحلة السرية ، إذ لم تتصور قريش أن الدعوة ستقوى وتشتد ويعتنقها أفراد كثيرون ، كذلك لم تهتم قريش بدعوة محمد لبنى عبد المطلب ، فقد رأت هذه حالة داخلية فى نطاق الأسرة ، فلم تتدخل فيها ، وكأنما اكتفت بمقاومة أبى لهب وأمثاله لها ، ولكن ما إن بدأ الرسول يجهر بالدعوة حتى أعلنت قريش حنقها على هذا الدين ، وسلكت كل السبل للقضاء عليه ، وقبل أن نتحدث عن هذه السبل أو ما سنسميه مراحل المقاومة يجدر بنا أن نبين الأسباب التى جعلت قريشاً تقاوم دين الإسلام هذه المقاومة القاسية .

أسباب المقاومة :

نستطيع من دراستنا لحياة العرب وأخلاقهم قبل الإسلام أن نستنبط أسباب مقاومتهم للإسلام وللمسلمين ، وتلك الأسباب هى :

١ — كان الرق منتشراً فى الجزيرة العربية انتشاره فى كل بلاد العالم ، وكان العبد رقيق العقل والقلب بالإضافة إلى الرق الجسمانى ، بمعنى أنه لم يكن له أن يتدين بغير دين سيده ، ولا يحب أو يكره إلا تبعاً لحب سيده وكرهه ، وكان جسمه خاضعاً لأوامر سيده ، فلما جاء الإسلام لم يعترف برق العقل أو القلب ، وقرر أن العقل والقلب لا ينطرق لهما الرق ، فالرقيق حر فى فهمه وتدينه وحبه وكراهيته ، وأن رق الجسم غير مطلق ،

أى أن للرقيق حقوقاً لدى سيده فى الطعام والكساء والزواج ، وليس لسيده أن يطلب منه الحرام أو ما يشق عليه من العمل .

ودخل بعض العبيد الإسلام كما قلنا ، ورحب بهم محمد ، واعتبر السادة هذا التصرف تمرداً من العبيد ؛ كما اعتبروا محمداً مثيراً للفتن ، وأنه لم يكتف بذويه يدعوهم لعقيدته بل راح يدفع الإسلام إلى القصور عن طريق العبيد على الرغم من إرادة أصحاب القصور .

٢ — كان الصراع فى الجزيرة العربية يدور لأتفه الأسباب ، فإذا جاء دين جديد يهاجم معتقدات القوم ، فما أجدرهم أن يهبُّوا فى وجهه ليُرْضوا ما بأنفسهم من شوق للغارة والحروب .

٣ — السيادة القبلية والتنافس عليها : لم تستطع قريش أن تفرق بين النبوة وبين السيادة ، أو بين النبوة وبين المُلك ؛ وحسبوا أن التسليم بدين محمد معناه التسليم بالزعامة له ولآله من بنى عبد المطلب ، وكانت هناك منافسة شديدة بين قبائل العرب على الرياسة والسلطان ، فلم يكن من الممكن أن تسلم قريش زمامها لمحمد ولبنى عبد المطلب وأن تفقد بطونُها المختلفة مكانتها وسيادتها .

٤ — المساواة بين السادة والعبيد : كان العرب يهتمون بالطبقات اهتماماً شديداً ، فلكل إنسان طبقته التى يجب ألا يتعداها . وإذا بدعوة محمد تجعل المساواة بين الناس أساساً هاماً من أسسها ، وتسوى بين السيد وعبده ، بل تجعل العبد أفضل من سيده لو كان أكثر منه تقى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (١) ومن أجل هذا لم يقبل السادة أن يدخلوا فى هذا الدين الذى يهدم تقاليدهم ، وأسس الحياة عندهم ، ويسوى بينهم وبين العبيد الأذلاء .

٥ — النزع من البعث : يقرر الدين الإسلامى أن هناك بعثاً بعد الموت

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

وأن هناك حساباً للناس ، يكافأ المحسن فيه على إحسانه ، ويعاقب المذنب على سيئاته وآثامه ، قال تعالى (القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ؛ وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وما أدراك ما هيه ، نار حامية) (١) .

وقال (فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل أمرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) (٢) .

ولم تستطع قريش أن تقبل هذا الدين الذى يعيد الإنسان للحياة بعد الموت ، ويعيده ولا سلطان له ولا نفوذ بيده ، ثم يحاسب هذا الإنسان بعدالة على ما ارتكبه ، ما أبشع الصورة التى تصورها زعماء قريش للإسلام ، تلك الصورة التى دفعتهم إلى رفض هذا الدين الجديد وعدم اتباعه والدخول فيه ، إنها صورة العدالة التى لا يرضاها الظالم ؛ وصورة الحساب الذى يفرّ منه المذنبون .

٦ — تقليد الآباء : كان تقليد الآباء واتباع سلوكهم فى العبادات والمعاملات شيئاً راسخاً عند العرب ، ولذلك كرهوا أن يخرجوا من دين آبائهم وأن يتبعوا ديناً جديداً ، وصاحوا فى غباء وجمود (حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) فهزىء بهم سبحانه وتعالى بقوله (أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) (٣) .

٧ — بيع الأصنام : كان هذا السبب مادياً ، فقد كان بين العرب من يحترف نحت الأصنام على شكل اللات والعزى ومناة وهبل . وكان هؤلاء يبيعون هذه الأصنام للحجاج الذين كانوا كثيراً مايشترونها للتبرك والذكرى .

---

(١) سورة القارعة .   (٢) سورة عبس الآيات ٣٣ — ٣٧ .

(٣) سورة المائدة الآيتان ١٠٤ و ١٠٧ .

فلما جاء الإسلام حرم عبادة الأصنام ونحتها وبيعها ، ووجد هؤلاء التجار فى الإسلام حائلا بينهم وبين أرباحهم وعاملا يقضى على تجارة الأصنام بالكساد والبوار ، ولذلك سرعان ما قاوموا الإسلام وثاروا عليه .

ومما يتصل بهذا السبب المالى أيضاً إحساس سدنة الكعبة بأنهم سيفقدون ماكانوا يتمتعون به من ثروة ونفوذ بسبب خدمتهم للأصنام ورعايتهم لزائريها (١) . كما ظن أهل مكة على العموم أن الكساد سوف يصيبهم جميعاً بسبب إعراض الحجيج عن مكة إذا بطلت عبادة الأصنام بها .

مراحل المقاومة

كانت مراحل المقاومة ثلاثاً ، إذ اتجهت أولا إلى العبيد والضعفاء ، وثانياً إلى سواهم من المؤمنين ، وثالثاً إلى الرسول نفسه ، وسنتكلم عن كل من هذه المراحل على حدة فيما يلى :

١ — العدوان على العبيد والضعفاء :

لم توجه قريش اهتماماً ذا بال لمقاومة الإسلام فى أول عهده كما قلنا ، وظنوا أن دعوة محمد ليست إلا حركة تفتر وتختفى بعد قليل من تلقاء نفسها .

ولكن سرعان ما بدا لهم أن الدعوة تدخل عليهم بيوتهم وأن عبيدهم الذين كانو يُعَدون ضمن متاعهم يدخلون هذه الدعوة الجديدة ، بعد أن وضّح لهم الإسلام أن الرق لا يمتد للعقل ولا للقلب ، وإنما هو مقصور على الجسم وبشروط محدّدة فى ذلك أيضاً (٢) . لذلك اتجهت الخطوة الأولى من خطوات المقاومة إلى العبيد والضعفاء ، لأن محمدا إن كان حراً يقول ما يريد

---

(١) انظر حياة محمد الدكتور هيكل ص ١٧٥ — ١٧٩ .

(٢) انظر الرق و موقف الإسلام منه بكتاب الإسلام للمؤلف .

فهؤلاء فى نظرهم ليسوا أحراراً فى أبدانهم ولا فى عقولهم ، وعلى هذا تعرض ياسر وابنه عمار وزوجته سمية كما تعرض بلال وخباب بن الأرت وغيرهم إلى ألوان قاسية من العذاب ليس فيها خلق ولا رحمة ، وقد شمل هذا العذاب الضرب والحرمان من الطعام والشراب ، وامتد العذاب بهؤلاء العبيد حتى كانت توثق ظهورهم بالرمضاء وتوضع فوقهم الحجارة المحماة الثقيلة ، وقدمات ياسر وهو يعذب ، ولما صرخت امرأته شاكية طعنها أبو جهل بحربة فقتلها (١) . وكان من نتائج تعذيب هؤلاء أن اشترى أغنياء المسلمين كثيرين من هؤلاء العبيد وأعتقوهم . وقد أعتق أبو بكر بلالاً وأمه حمامة ، وأعتق عامر بن فهيرة وأعتق خمسا من النساء ، ويقال إن فيه نزلت الآيات الكريمة « وسيتجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى » (٢) .

٢ — العدوان على كل المسلمين :

ونجىء بعد ذلك المرحلة الثانية حيث امتد الاعتداء إلى أتباع الدين الجديد جميعا من غير العبيد والضعفاء ، إذ رأت قريش أن الدعوة زاد انتشارها وانضم لها بعض الأشراف . وبدا خطرها يظهر . فعم الأعتداءُ كلَّ المسلمين وأصبح كل مسلم هدفا للهجوم والإيذاء من المشركين مهما كانت مكانته فى قريش ، ومهما كان ثراؤه ، ومهما كان جاهه وقوته ، وعلى هذا تعرض للأذى سادة أمجاد مثل أبى بكر وعثمان والزبير وأبى عبيدة ، وربما كان من الممكن أن يدافع هؤلاء عن أنفسهم . ولكن الإذن باستعمال

---

(١) ابن هشام ١ : ١٧٢ ، ٢٠٢ وابن القيم ٢ : ٤٢ .

(٢) سورة الليل .

القوة - ولو للدفاع - لم يكن قد جاء بعد ، كما سيأتى تفصيله عند الحديث عن الإسلام والقتال ، ولذلك احتمل المسلمون الأول ألوانا من العسف والقسوة والطغيان أنزلتها بهم قوى الشر بمكة .

وقد أوذى أبو بكر إيذاء شديداً على الرغم من سنه ومكانته فى قريش ، ولقد هم بالهجرة إلى الحبشه من شدة ما عانى ، ولكن أحد سادة قريش قابله وقد أزمع الهجرة فخجل أن يهاجر رجل مثل أبى بكر من مكة ، فأعاده معه فى جواره ، ولكن أبا بكر سرعان ما رد هذا الجوار حتى لا ينعم بالأمن فى وقت يعانى فيه باقى المسلمين ألواناً من العنت والعذاب ، وقد صبر أبو بكر وصابر حتى هاجر مع الرسول إلى المدينة وممن نزل به الأذى فى هذه المرحلة عثمان بن عفان ، فقد حبسه عمه الحكم بن العاص فى حجرة مظلمة وقيده بسلاسل من حديد وهدده بأنه سيبقى هكذا إلى أن يعود إلى آلهة قومه ، ويترك إله محمد ، ولكن عثمان اكد أنه لن يعود إلى الكفر بعد أن ذاق حلاوة الإيمان ، أما ما يعانى من قسوة فلا مناص من احتماله فى سبيل الله .

وتعرض الزبير بن العوام إلى سخط عمه نوفل بن خويلد ، وأقسم نوفل أن ينزل بالزبير من العذاب ألواناً حتى يعود إلى دين آبائه وأجداده وتنفيذاً لهذا القسم وضعه نوفل فى حجرة مظلمة مكتوف الأيدى وأطلق دخاناً كثيفاً بالحجره حتى ضاقت أنفاسه وهو صابر لقضاء الله ، ولم ينقذه من الموت إلا أمه صفية التى هددت بأنها ستدخل نفس الدين إذا استمر نوفل فى إنزال العذاب بابنها .

وإذا كانت صفية قد دافعت عن ابنها ، فإن شاباً مسلماً آخر هو سعد ابن أبى وقاص كانت أمه (حمنة بنت أبى سفيان) مصدر تعذيبه والتنكيل به ، وسنرى ذلك عند الحديث عن « الرسول والشباب » .

ويمكن القول إن الرسول نفسه لم تمسه إيذاء يذكر فى هذه المرحلة لمكانة

بنى هاشم ومكانة أبى طالب الذى آخذ على نفسه حماية ابن أخيه ومن نتائج الإيذاء الذى وقع على المسلمين أن هاجر هؤلاء إلى الحبشة كما سنوضحه فيما يلى ، ثم نعود — بعد الكلام عن الهجرة إلى الحبشة — إلى استكمال مراحل المقاومة بشرح المرحلة الثالثة حيث تعرض الرسول نفسه للإيذاء والاعتداء

هجرة المسلمين إلى الحبشة :

لما نزل الأذى بالمسلمين . وأصابهم البلاء من قريش ، وأصبحت حالة المسلمين تدعو للأسى بسبب مالاقوه من قريش من إيذاء وهجوم ، بدأ الرسول يفكر فى بلدة أخرى يرسل لها المسلمين المستضعفين ليبعدوا عن قريش وعن هجمات قريش ، أما المسلمون الأشداء فقد بقوا بمكة يحيطون بالرسول ويدفعون بيديهم العدوان عن أنفسهم ، ومن هؤلاء على بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله وكثيرون سواهما .

أى البلاد يختار الرسول لراغبى الهجرة من المسلمين ؟

هل يرسلهم إلى اليمن ؟ لا ، إن اليمن خاضعة للفرس ، والفرس لايعتنقون الأديان السماوية ولا يحترمونها بدليل أن كسرى ملك الفرس أرسل إلى باذان عامله على اليمن يقول له : ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين جلدين من عندك فليأتيانى به .

هل يرسلهم إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالجزيرة العربية ؟ لا ، فقد كان أهل الكتاب فى نزاع ومنافسة ، فهم لا يقبلون منافساً جديداً يقول بالله الذى يقولون به على غير ما يعتقدون .

هل يرسلهم إلى الشام أو الحيرة ؟ لا ، فإن الشام والحيرة مكانان لقريش فيهما نفوذ كبير بسبب الصلات التجارية التى تربطهم بسكانها ، هذا بجانب نفوذ الروم والفرس الذى لا يسمح بتأييد الدعوة الجديدة .

إلى أين يرسلهم ؟ هل يرسلهم إلى الحبشة التى كان الرسول يعرف أن

بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ؟ نعم ، لقد استقر الرأى على ذلك ، فوجه الرسول أتباعه عبر البحر الأحمر إلى أرض الأحباش .

وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة على مرحلتين تعرفان بهجرة الحبشة الأولى ، وهجرة الحبشة الثانية ، وكانت الهجرة الأولى فى السنة الخامسة للدعوة وقوامها أحد عشر رجلا وأربع نساء فيهم عثمان بن عفان وزوجته رقية ابنة الرسول والزبير بن العوام وأبو حذيفة وأمرأته ، وكان عثمان بن مظعون رئيس هؤلاء المهاجرين .

أما الهجرة الثانية فقد حدثت بعد ذلك بأشهر قلائل واشترك فيها ثمانون رجلاوامرأة واحدة هى أم حبيبة بنت أبى سفيانمع زوجها عبيد الله بن جحش، وكان جعفر بن أبى طالب زعيم المهاجرين فى هذه المرة ، وبعد فترة قصيرة اتصل بمن كان فى أرض الحبشة من المهاجرين خبر إسلام عمر ومجاهرته بالعباده ، فتشجع بعضهم للعودة ليشارك عمر شجاعته وثباته ونضاله ، كما بلغهم كذلك نوع من الهدنة بين قريش وبين المسلمين لحرص قريش على ألا تقوم حرب أهلية بين الفريقين ، وحبُّ الوطن طبيعة فى الإنسان ، والغريب يتلمس المعاذير ليعود للوطن، وباسم حب الوطن،الذى — فيما نظن — نسج الأسباب وهيأ الحجج ، عاد بعض هؤلاء المهاجرين إلى مكة ، ولكنهم ما إن وصلوها حتى ظهر لهم أنهم كانوا متفائلين ، وأن حدة العداء بين المسلمين والمشركين لم تهدأ ، ولذلك — كما يقول ابن هشام [1] — لم يدخل أحد منهم مكة إلا بجوار أو مستخفياً ، أما باقى مهاجرى الحبشة الذين لم يخضعوا للتفاؤل ، أو الذين آثروا البقاء فى مغتربهم حتى تعلو كلمة الله ، فقد بقوا هناك حتى السنة السابعة للهجرة .

وقد أحست قريش عقب هجرة المسلمين إلى الحبشة أن اختيار المسلمين

---

(١) السيرة جـ ١ ص ٢٢٩ .

* ...شة صيبه استعداد النجاشي لإكرامهم ، وأمنهم على نفوسهم ودينهم في مغتربهم ، فقررت أن تكيد للمغتربين لتحرمهم هذا الملجأ ، فاختارت لذلك عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي وأرسلتهما إلى النجاشي ، وكان لعمرو بن العاص جاه في الحبشة وفي بلاط النجاشي ، وأرسلت مع البعثة مجموعة كبيرة من الهدايا للنجاشي وبطارقته ، وأذاعت أن المسلمين يقولون في عيسى وفي أمه قولاً عظيماً ، فعقد النجاشي مجلساً استمع فيه لرأي جعفر ابن أبي طالب في هذه التهم ، وقد نجح جعفر في عرض الفكر الإسلامي مما جعل النجاشي يقول : إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة ، ويقال إنه آمن بالإسلام فثار عليه قومه لذلك ، وفي العام السابع للهجرة أرسل الرسول من حمل هؤلاء المهاجرين في سفينتين وأحضرهم إلى المدينة ، وكان ذلك عقب استسلام خيبر ، ويروى أن الرسول قال عندما رأى جعفر بن أبي طالب ، ما أدري بأيهما أنا أسر ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر[1] .

ونعود بعد ذلك للحديث عن الجوار الذي أشرنا إليه فيما سبق ، فقد قلنا إنه لم يدخل مكة من العائدين من الحبشة إلا من دخل في جوار ومن دخل مستخفياً ، وكان من عادة العرب أن من دخل في جوار شخص أصبح ذلك الشخص مسئولا عنه وعن حمايته ، ويكون الاعتداء على المستجير اعتداء على المجير وهتكاً لحرمته[2] ، وقد دخل عثمان بن مظعون — عقب عودته من الحبشة ومعرفته أن المسلمين لا يزالون يسامون العذاب — في جوار الوليد بن المغيرة ، ولكن عثمان رأى ما فيه المسلمون من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان ، فخجل من ذلك وقال : والله إن غُدُوِّي ورواحي آمناً

---

(١) هذا العرض هو أدق ما استطعنا فهمه من الروايات المختلفة . انظر صحيح البخاري وابن هشام وابن سيد والنويري وقد ذكر ابن عبد البر (الدرر ص ١٢٩) أن إرسال وفد قريش للحبشة كان بعد غزوة بدر رجاء أن يسلمهم النجاشي مهاجري المسلمين فيقتلوهم بدل أسراهم .

(٢) انظر مدى اهتمام العرب بحماية المستجير في العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ١٥٩ وما بعدها .

بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله مالا يصيبني لنقص كبير في نفسي ، فمشى إلى الوليد بن المغيرة وقال له : يا أبا عبد شمس وفَتْ ذمتك ، وقد رددت إليك جوارك . قال : يا ابن أخي ، لعله آذاك أحد من قومي ؟ قال : لا ، ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره : قال المغيرة : فانطلق بنا إلى الكعبة فاردد على جواري علانية كما أجرتك علانية : فانطلقا حتى أتيا الكعبة ، فقال الوليد : هذا عثمان جاء يرد على جواري . قال عثمان : صدق ، قد وجدته وفياً كريم الجوار ، ولكني أحببت ألا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره . ورأى عثمان عقب ذلك لبيد بن ربيعة الشاعر في مجلس من قريش ينشدهم . فجلس معهم عثمان وأنشد لبيد :

• ألا كل شيء ماخلا الله باطل •

قال عثمان : صدقت . وتابع لبيد إنشاده قائلا :

• وكل نعيم لامحالة زائل •

قال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول :

ولما سمع لبيد من يكذبه صاح : يامعشر قريش ، والله ما كان يُؤْذَى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ، قال رجل من القوم ؛ إن هذا سفيه من سفهاء معه قد فارقوا ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله . فرد عليه عثمان بكلام يدافع عن نفسه ، فاشتبكا في عراك ، ولطم القرشي وجه عثمان لطمة أثرت في عينه . قال الوليد : ياعثمان ، قد كنت في غنى عما أصابك فقد كنت في ذمة منيعة . قال عثمان : والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإني والله لفي جوار من هو أعز منك وأقدر(١) .

ومما يروى أيضاً عن أحاديث الجوار أن أبا بكر لما أصابه الضر

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٢٠ .

ورأى الأذى يصيبه ويصيب الرسول ولا يطيق له دفعاً استأذن الرسول فى الهجرة فأذن له ، فخرج أبو بكر وسار يوماً أو يومين فلقيه ابن الدغنة وهو أخو بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة وهو يومئذ سيد الأحابيش(١) . فسأل : إلى أين يا أبا بكر ؟ فأجاب : أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا على . قال ابن الدغنة : ولم ؟ وإنك والله لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدم ؟ ارجع وأنت فى جوارى . فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال : يامعشر قريش ، إنى قد أجرت ابن أبى قحافة فلايعرض له أحد إلا بخير . ومنذ ذلك الحين كفت قريش عن أذى أبى بكر . وكان لأبى بكر مسجد عند باب داره فكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، وكان رجلا رقيقاً إذا صلى خشع وإذا قرأ القرآن بكى واستبكى ، وكان ذلك يجذب حوله الصبيان والنساء فى إعجاب ظاهر ، فخاف رجال قريش عاقبة ذلك ومشوا إلى ابن الدغنة وشكوا له أبا بكر وطلبوا أن يصلى وأن يقرأ القرآن داخل داره ، فكلمه ابن الدغنة فى ذلك : فأجابه أبو بكر : أردُّ عليك جوارك وأرضى بجوار الله . قال : فاردد علىَّ جوارى . ففعل أبو بكر وتعرض بعد ذلك إلى عنت قريش من جديد(٢) .

٣ — العدوان على الرسول :

نتكلم الآن عن المرحلة الثالثة من مراحل مقاومة قريش للإسلام ، وفى هذه المرحلة تعرض الرسول نفسه للهجوم والإيذاء ، وقد بدأ ذلك عقب هجرة المسلمين إلى الحبشة ، فقد أزعجت هذه الهجرة قريشاً وتوقعت أن

---

(١) الأحابيش معناها التجمعات من تحبشوا أى تجمعوا : وتطلق على بنى الحارث وبنى الهون من كنانة وبنى المصطلق من خزاعة (انظر الروض الأنف ٢ : ٢٣١) .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ٢٣١ ويروى المبرد مجموعة من القصص تبين اهتمام الأبناء بحماية من استجار بقبور آبائهم ، أو حمل بعض الحصا من هذه القبور . (انظر الكامل للمبرد ح ٢ ص ٤٢٩ وما بعدها) .

يبشّر المسلمون فى كل النواحى داعين إلى دينهم ، وأن تمهد هذه الهجرة لهجرة محمد نفسه ، وبذلك تتغلب عبادة الله على عبادة أصنامهم ، ولهذا اتجهت قريش إلى رأس هذه الحركة ، إلى محمد بن عبد الله للضغط عليه أو لإغرائه حتى يكف عن هذه الدعوة الجديدة .

واتبعوا فى إغراء الرسول العروض المالية السخية ، ولكن محمداً سخر منهم ومن أموالهم ، فتجاوزوا المال إلى الملك ، فعرضوا عليه أن يكون عليهم ملكاً ، ولكن محمداً صاح بهم صيحة وضعت حداً لهذه العروض الرخيصة حين قال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى ما تركت ذلك الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه »[1] .

ولما لم يفد الإغراء اتجهوا للهجوم والإيذاء وكانوا راغبين فى إنزال الأذى مصرّين على المقاومة ، ولكنهم فى الوقت نفسه كانوا يخافون نتائج هذا الإيذاء ويتوقعون الشر من إقدامهم عليه ، فأبو طالب يحتل أرفع مكانة بين العرب ، وحوله بنو هاشم فيما عدا أبا لهب ، ولذا تنوعت المقاومة فاتجه ثقلها إلى المقاومة السلبية وضرب الحصار كما سنوضح ذلك عندما نتكلم عن « مقاطعة بنى هاشم » واتجه بعضها إلى إنزال الأذى بالرسول مباشرة ، فأم جميل زوجة أبى لهب كانت تلقى الأقذار والأشواك أمام داره فى غسق الليل لتؤذى الرسول عند خروجه مبكراً ، وكان أبو جهل يلقى فوقه القاذورات وهو فى أثناء صلاته .

ولكن حماية أبى طالب ردت عن الرسول كثيراً من الأذى ، ووقفت زوجته خديجة وكأنها بلسم يشفى ما يصيبه من آلام ، لقد كانت تحسن استقباله إذا عاد إلى البيت كئيباً ، وكانت تواسيه وتشجعه حتى يعود له نشاطه ويسترد عزمه وقوته .

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٧٠ .

وكان المجاهرون بالظلم لرسول الله ، ولمن آمن به كثيرين أهمهم عمه أبو لهب ، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث وهما من بنى هاشم ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وعقبة بن أبى معيط وأبو سفيان بن حرب وابنه حنظلة ، والحكم بن أبى العاص بن أميـة وهم من بنى عبد شمس ، ومن بنى عبد الدار النضر بن الحارث ومن بنى أسد بن عبد العزى زمعة بن الأسود وأبو البختـرى العاص بن هشام ، ومن بنى مخزوم أبو جهل بن هشام ، وأخوه العاص وعمه الوليد بن المغيرة ، ومن بنى سهم العاص بن وائل وابنه عمرو بن العاص ، ومن بنى جمح أمية بن خلف وأخوه أُبَىٌّ ، وكان هؤلاء يواصلون الأذى للرسول وللمسلمين ، ويروى ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى فجاءه أبو جهل واعتدى عليه ، وحاول نهيه عن الصلاة ولكن الرسول زجره وهدده ، فقال أبو جهل : يهددنى محمد وقد علم أن ما بها رجل أكثر نادياً منى ؟ فأنزل الله فيه الآيات الكريمة : « أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى؟ أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى؟ أريت إن كذب وتولى؟ ألم يعلم بأن الله يرى ؟ كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا ، لا تطعـه واسجد واقترب » قال ابن عباس والله لو دعا ناديه لأخذته الملائكة[١] .

إسلام حمزة وعمر بن الخطاب ونتائج ذلك :

وبينما كانت الدعوة بين إصرار الرسول وكفاح قريش ، إذ دخلها فى السنة الخامسة للدعوة بطلان عظيمان هما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب[٢] وقد كانا معروفين بالقوة والصلابة فعزَّ بهما الإسلام واشتد الأمل فى انتصاره ، وسنتكلم عن ظروف إسلام عمر فى « فلسفة الدعوة

---

(١) ابن عبد البر : الدرر ص ٤٨ والآيات من سورة العلق : ٩ – ١٩ .
(٢) ابن هشام ١ : ٣٢٦ .

الإسلامية ، ولكنا هنا نقرر أنه كان لإسلام عمر وحمزة رد فعل قوى عند قريش ، فقد أدركت أن مسالة محمد ستؤدى إلى انتصار مبنه ما دام هذا الدين قد بدأ يجذب له الأقوياء الأشداء من أمثال حمزة وعمر ، وأدركت كذلك أن العدوان على المسلمين قد يؤدى إلى حرب داخلية ، فإن عمر وحمزة لا يصبران على الضيم ، وبخاصة أن إسلام حمزة ارتبط بعدوان أبى جهل على الرسول ، فغضب حمزة لذلك وأعلن إسلامه ، وقصد أبا جهل وشجّه وهدد بالانتقام من أى عدوان .

ومن أجل هذا اتجهت قريش وجهة جديدة طابعها المفاوضة لرغبتها فى أن يتم القضاء على محمد دون إثارة بنى عبد المطلب ، فأخذوا يترددون على أبى طالب يطلبون إليه أن يُسكت ابن أخيه الذى يسب دينهم ويحقّر آلهتهم ، ولكن هذه الخطوة لم تأت بطائل ، وحينئذ خطت قريش خطوة أخرى فيها شدة وتهديد فقد ذهبت وفودهم إلى أبى طالب وصاحت فيه :

يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لن نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين(١) .

ولم يفد التهديد بشيء فخطوا خطوة ثالثة هى أنهم ساوموا أبا طالب وأرادوا أن يعطوه عمارة بن الوليد بن المغيرة ويأخذوا محمداً ليقتلوه ، وقالوا فى ذلك لأبى طالب : إن عمارة أنهد فتى فى قريش ، وأجمل شباب العرب ، فخذه ، فلك عقله ونصره واتخذه ولداً لك وأعطنا محمد. وسخر منهم أبو طالب ، وقال : بئس ما تساوموننى ؛ أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟(٢).

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ١٧٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧٠ .

مقاطعة بنى هاشم :

وانتقل العداء خطوة جديدة ، فقد أدركت قريش أن قوة محمد مصدرها أهله الذين يحمونه ويدافعون عنه ، سواء منهم من اتبع دينه أو من بقى على دين آبائه وأجداده ؛ ولهذا عزمت قريش على مخاصمة بنى هاشم جميعاً ، ورغبة عن الحرب وما تجره من ويلات اتجهوا فى مقاومتهم لبنى هاشم اتجاهاً سلبياً ولكنه عنيف ، فاجتمعت قريش وكتبت صحيفة قررت فيها مقاطعة بنى هاشم فلايتزوجون منهم ولا يزوجونهم . ولايبيعون لهم ولا يشترون منهم ، ولايكلمونهم ، ولايزورون مرضاهم ولايشيعون موتاهم ، وأكرهوهم أن يلزموا الشّعب وهو طريق بين جبلين . . وقد كانت هذه المقاطعة قاسية جداً على بنى هاشم ، مسهم بسببها الضر بل الجوع والحرمان ، وقد استمرت حوالى ثلاث سنوات ، ولم تنقض إلا بعد أن أشفق بعض القرشيين على بنى هاشم بسبب ما نالهم من أذى وعذاب فزقوا هذه الوثيقة وعادوا إلى الاتصال بهم[٢] .

وكان أبو طالب شديد الرعاية للرسول صلى الله عليه وسلم طيلة مدة بنى هاشم فى الشعب ، فكان يأمر الرسول أن ينام فى فراشه الخاص أول الليل حتى يراه الناس وقد أوى إلى هذا الفراش ، فإذا نام الناس أمر أبو طالب أحد بنيه أو إخوته أو بنى عمه فأخذ مكان الرسول ، وأمر رسول الله أن ينتقل إلى فرشهم فيرقد فيها ، وذلك ليضلل أعداء الرسول الذين قد يتجهون إلى العدوان على الرسول صلوات الله عليه .

ومما يذكر عن نهاية الصحيفة أن الله بعث عليها الأرضة فلحست كل

---

(١) ابن هشام ١ : ١١٠.

(٢) ابن هشام ١ : ٢٣١ وابن القيم ٢ : ٤٦ .

ما كان فيها من عهد لهم وميثاق ، ولحست اسم الله عزوجل ، ولم تترك فيها إلا كلمات الظلم والشرك والقطيعة ، وهناك رواية مضادة ترى أن الأرضة أتت على كل شيء ، ولم تدع إلا اسم الله جل وعلا ، وقد أوحى الله لمحمد بذلك ، فنقل ذلك إلى عمه أبي طالب ، فتحدى أبو طالب جماعة المشركين ، وأحضروا الصحيفة فظهر صدق محمد ، ومع هذا اعتبروا ذلك سحراً وزاد بغيهم وعدوانهم .

ولكن كان بين المشركين نفر عارضوا المقاطعة ومشوا فى نقض الصحيفة ، ومن هؤلاء هشام بن عمرو بن الحارث وهو كاتب الصحيفة ، وأبو البَختْرى العاص بن هشام والمطعم بن عدى ، وزهير بن أبى أمية وأمه عاتكة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ، وزمعة بن الأسود(١) .

وكان أبو جهل من أحرص الناس على النيل من المسلمين وحرمانهم ويروى ابن هشام(٢) أن أبا جهل لقى حكيم بن حزام بن خويلد ومعه غلام يحمل قمحاً إلى خديجة بنت خويلد زوجة الرسول وعمة حكيم فتعلق به أبو جهل وقال : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، فجاءه أبو البختْرى وقال له : مالك وله ؟ إنه طعام كان لعمته عنده رغبت إليه فيه ، فكيف تمنعه ؟ فأبى أبو جهل ، وقام نزاع كان من أسباب إغفال الصحيفة ونهاية المقاطعة .

وأبو جهل الذى كان شديداً فى غيبة محمد ، كان يهاب محمداً ويحس بالرهبة أمامه ، يروى ابن هشام أن رجلا من إراش باع إبلا له إلى أبى جهل بثمن مؤجل ، فلما طالبه الإراشى بالثمن مطله أبو جهل وذهب الإراشى إلى حشد من الناس حول الكعبة وقال لهم : يامعشر قريش ، ما من رجل يؤدبنى دَيْناً على أبى الحكم بن هشام ، فإنى رجل غريب وقد غلبنى على حقى ؟ فرأى أحد الجالسين

---

(١) ابن عبد البر : الدرر : مقتبسات من ص ٥٧ – ص ٦٠

(٢) السيرة النبوية : ج ٢ ص ٥ .

أن يهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول يجلس فى ناحية بعيدة عن القوم ، فقال للأراشي : أرأيت هذا الجالس هناك ؟ إنه هو الذى يستطيع أن يأخذ لك حقك من أبى جهل .

وصدّق الأراشى كلام القرشى ، وذهب إلى الرسول وقص عليه الخبر ، قال الرسول للرجل : انطلق معى إليه ، وذهبا معاً تجاه منزل أبى جهل .

وأراد القرشيون أن يعرفوا ماسيتم عليه الأمر . فألحقوا بالرسول والأراشى رجلا منهم لينقل لهم خبر ماسيتم من أحداث . وعاد الرجل ليقول لقريش كلاماً عجباً ، فقد دق الرسول باب أبى جهل ورد أبو جهل سائلا من الذى يدق الباب ؟ فقال الرسول : أنا محمد إخرجْ إلىَّ فخرج أبو جهل وقد امتقع لونه ، وما فى وجهه قطرة من دم ، فقال له الرسول : أعط هذا الرجل حقه . قال أبو جهل : نعم فى التو والساعة ، ودخل وعاد ومعه ثمن الإبل للأراشى .

وسرعان ما جاء أبو جهل إلى الكعبة ، فقال له المشركون : ويحك ماذا حدث لك ؟ قال : ويحكم أنتم . والله ما هو إلا أن ضرب بابى وسمعت صوته حتى ملئت رُعباً ، ولما خرجت إليه وجدت كأن فوق رأسه قوة هائلة أرعبتنى ، وأحسست أننى لو أبيت لهلكت . فعجب القوم من شأن أبى جهل وشأن محمد (١)

---

(١) ابن هشام : ج ٢ ص ٢٧ - ٢٨ .

وفاة أبي طالب وخديجة :

وفى السنة العاشرة للدعوة فقد الرسول أعظم اثنين ساعداه وكانا له قوة وملاذاً فى نضاله لنشر الإسلام ، هما أبو طالب وخديجة ، وكانت خديجة أول من أسلم من النساء ، وكانت تشد عضد الرسول بقوة شخصيتها وبمالها وجاهها وحسن معاملتها ، أما أبو طالب فقد كان درعاً يقي الرسول ويحميه بقوة وصلابة ، ومما أثر عنه قوله :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

وقد مات أبو طالب وله سبع وثمانون سنة ، وأغلب المؤرخين يرون أنه مات دون أن يدخل الإسلام ، ولكن أثر عن العباس أنه سمع أبا طالب وهو على فراش الموت يقول شعراً جاء فيه :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

ومثل هذا الشعر يجعل بعض الباحثين يرى أن أبا طالب دخل فى دين محمد وإن لم يعلن ذلك . وكانت المدة بين موت أبي طالب وخديجة ثلاثة أيام فقط كما ذكر ذلك ابن القيم[١] .

حالة الرسول بعد أبي طالب وخديجة :

وبموت أبي طالب ومن بعده خديجة تعرض الرسول لأهوال جسام من قريش ، يقول ابن اسحق[٢] : ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى مالم تكن تنال منه فى حياة عمه أبي طالب ، وكان أشد قريش عداء للرسول أبو لهب عمه ، والحكم بن العاص ، وعقبة

---

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٤٦ .
(٢) ابن هشام ١ : ١٦٠ .

ابن أبي معيط ، فإنهم كانوا جيران الرسول وكانوا يؤذونه بما يلقون عليه وقت صلاته وفي طعامه من قاذورات .

وكانت زوجة أبي لهب أكبر عون لزوجها في إيذاء الرسول ووضع الأشواك ليلا على بابه حتى تؤذية إذا خرج مبكراً للصلاة كعادته ، وقد ذكر القرآن الكريم قصتها في سورة خاصة هي سورة المسد (وقد سبق إيرادها) .

وكثيراً ما كانوا يضعون القاذورات عليه وهو يصلي في المسجد ، وقد خنقه بعضهم مرة ، وأوشكوا على قتله ، لولا أن دخل أبو بكر وصاح فيهم وهو يخلصه (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله)(١) .

وكان الرسول يعلم أصحابه مرة في المسجد ، فاغتاظت قريش وأوسعوهم ضرباً وإيذاء ، وكان نصيب الرسول وأبي بكر من هذا الضرب شديداً قاسياً .

الدعوة للإسلام بعد موت أبي طالب

دعوة أهل الطائف :

أدرك الرسول أن لامقام له بمكة بعد موت أبي طالب وخديجة ، وبعد إسراف المشركين في إيذائه إسرافاً بعيداً عن الكرامة والإنسانية ، وبعيداً عن الخلق الكريم ، فوضع خطته لنشر الإسلام خارج مكة ، لعله يجد مركزاً آخر يطيب له المقام فيه ، فبدأ بزيارة بعض القبائل وعَرْض نفسه ومبادىء الدين الجديد على أهلها ، وطالما لقي الرسول عناء في هذه الرحلة أيضاً ، وطالما سمع أهلَ هذه البلاد يقولون : لو كان في دعوته خير لتقبلها أهله وذووه ، ومن أشق المواقف التي تعرض لها الرسول ومسه فيها الأذى ما يذكره التاريخ من أنه ﷺ اتجه إلى الطائف ودعا فريقاً من أشرافها (٢) إلى وحدانية

---

(١) سورة غافر الآية ١٢ .

(٢) يقول ابن هشام (٢ : ٢٨٥) إنهم إخوة ثلاثة من ثقيف هم عبد ياليل بن عمرو ومسعود بن عمرو وحبيب بن عمرو .

الله ؛ ولكنهم لم يستجيبوا له ولم يردوه رداً كريماً ، فقد كانت هناك علاقات ود وجوار بين أهل الطائف وبين قريش ، وكان كثير من أغنياء قريش يمتلكون حدائق بالطائف ، وكانت مكة موطن الكعبة حيث يفد حجاج الطائف كل عام فيجدون من قريش كل ترحيب وتكريم ، ولهذا تقرب أهل الطائف لقريش بإيذاء محمد ، فأغروا به أحداثهم وسفهاءهم يسبونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة (١) ، ولكن الرسول لم ييأس وسط هذه الأزمة القاسية وأخذ يهتف : رباه، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى(٢)

وفى رحلتى إلى الأرض المقدسة زرتُ مدينة الطائف ، وأدركت لأول مرة العناء الضخم الذى لحق بالرسول فى هذه الرحلة ، فالطائف تبعد عن مكة بحوالى خمسة وثمانين كيلو متراً ؛ والطريق كله صعود متصل إذ تقع الطائف على ارتفاع شاهق بالنسبة لمكة ، مما يجعل هذه الرحلة شاقة على السيارات والآلات حتى بعد تمهيد الطريق ورصفه ، يا لله ! ! كيف قطع محمد هذا الطريق الصاعد الوعر الموحش ؟ ولكن العقيدة يهون دونها كل جهد وعناء .

وفى الطائف التى وصلها الرسول بعد جهد طويل قابل عليه السلام جماعات الساخرين والمتهجمين الذين أشرنا إليهم ، ثم كان هدفاً للسفهاء والصبية الذين أمطروه بوابل من الحجارة ووابل من سقط القول وفحشه ، وكان النبى الكريم يتوارى من أذاهم وعدوانهم ، وتراجع الصبية بعد أن غادر الرسول منازل الطائف ، وكان العناء قد مسَّ الرسول فلجأ إلى حائط (حديقة) لعتبة وشيبة ابنى ربيعة (٣) وألقى بكوعه على كوة صغيرة بالسور ، ورآه غلام اسمه عداس وهو فى هذه الحال ، فأشفق عليه ، وحمل له بعض أعناب من الحديقة ، فتقبلها الرسول ، ودعا له وحادثه ودعاه إلى الإسلام فدخل عداس الإسلام .

---

(١) ابن هشام ١ : ٢٦٠ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٤٦ .

(٣) ابن هشام ٢ : ٢٨٥ .

وفى هذا المكان بُنِىَ مسجد يسمى مسجد الكوع ، وقد زرته ورأيت الشيوخ يتذاكرون هذه الأحداث التى يتوارثها جيل عن جيل .

دعوة الحجيج :

اتجه الرسول بعد الطائف إلى دعوة الحجيج ، فأخذ يقابل وفود العرب القادمة من هنا ومن هناك . ويعرض نفسه عليهم ، ويشرح لهم دعوته ومبادىء الدين الجديد[1] وكانت هذه اللقاءات تتم بمجنة وعكاظ ومنى[2] ، وخدمت قريش الدعوة من حيث لاتدرى ، إذ أرسلت وفودها إلى جماعات الحجيج تحذرهم من دعوة محمد ، وترميه بالجنون والسحر وغيرها من الصفات الذميمة ، وتدخُّلُ قريش هذا جعل جماعات الحجيج يتوقون إلى رؤية محمد ليشاهدوا بأنفسهم صاحب هذه الدعوة الجديدة ، وليحققوا مقدار صدق قريش فيما تذيع ، وهكذا بَدَلَ أن يسعى محمد للناس أصبح الناس يسعون إليه سراً وعلانية ، لقد كانوا يسعون ليروا المجنون فإذا بهم يجدونه أرشد الناس عقلا ، وليروا الساحر فإذا به بعيد عن السحر والشعوذة ، وسمع الناس وبخاصة أهل يثرب القرآن واستمعوا إلى آراء محمد ودعوته ودينه وفلسفته فأحبوه ، وبدأ الأمل يظهر ، وبدأت الدعوة تنتشر ، وكان إعجاز القرآن وفلسفة الدعوة أهم الأسس التى جذبت الناس لدين الإسلام ، وسنتكلم فيما بعد عن هذين الموضوعين .

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٦٣ .
(٢) الطبقات ج ١ ص ٢٠٧ .

الإسراء والمعراج

فى هـذا الوقت أى قبل الهجرة بعام(١) ، تمّ الإسراء والمعراج وشهدت مكة يوماً من أيامها العاصفة ، إذ أصبح محمد صلى الله عليه وسلم يحدّث الناس بأنه أسرى به إلى المسجد الأقصى ، ثم عُرج به إلى السماء وعاد من ليلته ، وقد فرحت قريش بما قاله محمد ، وظنت أن ذلك دليل باهر على كذبه ، وأن هذه المبالغة التى ترى قريش أنها جاوزت الحد يمكن أن تكون سبباً ينفّر أصحاب محمد منه ، ويمكن كذلك أن تكون سبباً يرد المتردّدين عن التفكير فى متابعة محمد والتسليم بدينه ؛

وسرعان ما خاب ظن قريش ، فقد سعت وفودهم مسرعة إلى أبى بكر لتقول له : أتصدق يا أبا بكر ما يقوله محمد من أنه أسرى به إلى بيت المقدس وعرج به إلى السماء ثم عاد من ليلته ؟ قال أبو بكر فى يقين أذهل القوم : إن كان محمد قال ذلك ، لقد صدق ، قالوا : أتصدقه يا أبا بكر على ذلك ؟ قال : لقد صدقته على أكثر من ذلك ، على الوحى له من السماء(٢) . وانهارت آمال قريش عند أبى بكر وعند المسلمين ، ومع هذا فقد اتخذت قريش الإسراء والمعراج وسيلة للتشنيع على محمد ورميه بأقسى الصفات ولكن هذا التشنيع لم ينتج إلا اهتمام الناس بمحمد وبمحاولة التعرف إليه والتحقق من أخلاقه والاستماع لما يقوله بشأن الدين الجديد . وبهرت الكثيرين منهم الآياتُ الكريمة التى سجلت الإسراء والمعراج بما فيها من بلاغة ساحرة وقوة عظيمة قال تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير)(٣) .

---

(١) زاد المعاد ٢ : ٤٩ .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ٢٤٦ .

(٣) سورة الإسراء الآية الأولى .

وقال : (والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، مازاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى)[١] .

والإسراء والمعراج من أهم الأحداث التي شهدها الإسلام ، ولا يزال المسلمون حتى اليوم يحتفلون بهذه المناسبة ، ويعدون الإسراء والمعراج منحة من الله لرسول الإسلام جديرة بالثناء والتقدير ، وقد حدث الإسراء والمعراج فيما أرى بالروح والجسد كما سنبرهن فيما بعد ، ولكن هذا الحدث كان مجالا تعرَّض أكثر من سواه للحدس والادعاء ووضع الروايات ، ذلك لأنه حدث غير عادى لا يخضع لماديات الحياة ، فراح أعداء الإسلام وراح بعض المسلمين يخضعونه للمادة ، ويصوِّرونه صورة لا تتفق مع جلال هذا الحدث ومع طبيعته .

ما الصورة التي يرويها هؤلاء عن الإسراء والمعراج ؟

إن الصورة تشمل النقاط التالية :

١ – ركب الرسول براقاً تصفه الرواية بأنه حيوان فوق الحمار وتحت الحصان ، وأنه يضع رجله عند نهاية بصره .

٢ – فى بيت المقدس صلى الرسول بالأنبياء ركعتين .

٣ – صعد الرسول ومعه جبريل إلى السماء ، ووقفا أمام كل سماء ليدق جبريل الباب ، ويسأله الملاك الواقف بالباب : من أنت؟ ومن معك ؟ أوَ بُعِثَ محمد ؟ وهل أذن له ؟ .... وبعد الإجابة يفتح الباب لهما ويسيران إلى الباب التالى وهكذا . . .

---

(١) سورة النجم الآيات ١ – ١٨ .

٤ – بعد السموات السبع توقف جبريل وطلب من الرسول أن يتقدم هو ، لأن جبريل لايستطيع أن يتقدم أكثر من ذلك .

٥ – فُرضت الصلاة على المسلمين خمسين صلاة فى اليوم والليلة ، ولكنْ فى عودة محمد احتبسه موسى فى السماء السابعة ، وسأله عما فُرِضَ عليه وعلى أمته ، فأعلمه الرسول ، فقال له موسى : أمتك لاتقوى على ذلك ، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فعاد محمد ، فجعلها الله خمساً وأربعين ثم أعاده موسى مرة ثانية وثالثة ورابعة . . . . وفى كل مرة تنقص خمساً إلى أن صارت خمس صلوات . . . . وقد حاول موسى أن يعيد الرسول مرة أخرى بعد ذلك ، ولكن الرسول أجابه بأنى أخجل من ربى أن أعود بعد ذلك ، وفى رواية أنه عاد فعلا ولكن الله قال له : لايُبدَّل القول لدى وثبَّتها خمساً .

ما المصدر الذى اعتمدت عليه هذه الرواية ؟

إن المصدر يتمثل فى أحاديث وردت فى كتب الصحاح ، وقد كانت هذه الأحاديث موضع دراسة للمفكرين المسلمين فى مختلف العصور ، وبخاصة أن بها ما يتعارض مع الفكر الإسلامى الثابت كتحديد مكان لله ، والله لامكان له ، وكوضع موسى فى موضع المعلّم لمحمد . . .

ومن الذين تدارسوا هذه الأحاديث ابنُ كثير ، وقد وصف بعض ما ورد من أحاديث حول الإسراء والمعراج بالاضطراب ، وحدد ما ينبغى أن يعتقده المسلم وما ينبغى أن يتركه :

وفيما يلى كلمات ابن كثير :

وإذا حصـــل الوقوف على هذه الأحاديث صحيحها وحسنها

وضعيفها ، يحصل مضمون ما اتفقت عليه ، والحق أنه عليه السلام أسرى به من مكة الى بيت المقدس ، وهناك صلى ركعتين ثم عُرِج به الى السماء ، وفرض الله عليه الصلوات خمسين ثم خففها الى خمس رحمة منه ولطفا بعباده . وذلك القــدر هو ما ينبغي أن يقنع به المسلم ويستبعد ما سواه(١) .

واعتقادى أن رأى ابن كثير هو أحكم الآراء حول الإسراء والمعراج ، وينبغى أن يتمسك به المسلم ، وأن يستبعد ماعداه مما ذُكر حول هذا الحادث العظيم .

وواضحٌ أن كلام ابن كثير يقرر ما يلى :

١ – الإسراء تمّ من مكة إلى بيت المقدس دون ذكر الوسيلة ؟

٢ – صلى الرسول ركعتين بدون ذكر أنه أمّ الأنبياء .

٣ – عُرِج به إلى السماء بدون حاجة إلى دق باب ووقوفٍ أمام الأبواب .

٤ – فرض الله عليه الصلاة خمسين ثم خففها إلى خمس تفضلا منه بدون وساطة موسى عليه السلام وبدون تعدد للذهاب والعودة .

٥ – يقرر ابن كثير ضرورة استبعاد ماسوى ذلك وضرورة تركه تماما وهذا هو ما نراه .

ومن العلماء الثقات المعاصرين الذين تدارسوا أحاديث الإسراء والمعراج فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى عضو مجمع البحوث الإسلامية ، وقد ذكر أن أحاديث الإسراء والمعراج وردت فى البخارى فى سبع روايات مختلفة فى تحديد زمان الإسراء والمعراج ، وفى تحديد المكان الذى بدأ منه الإسراء ، وفى تحديد الطريقة ، واختلافُ الروايات فى حديث

---

(٢) تفسير ابن كثير : البغوى ج ٥ ص ٢٤٥ .

ما على هذا النمط ينفى عنه — عند علماء الحديث — صفة الحديث الصحيح والحسن .

وسنعود فيما بعد لننقل كلام الشيخ عبد الجليل عيسى كله .

ولما كانت الأحاديث المرتبطة بهذا الموضوع موضع شك العلماء والباحثين ، وتخالف ماهو معلوم من الدين بالضرورة كالمكانية بالنسبة لله ، فإن من الواجب أن نلجأ لكتاب الله ليكون رائدنا فى هذا الموضوع .

وسأحاول هنا — راجياً من الله التوفيق — أن أصور الإسراء والمعراج فى الصورة التى أراها سليمة أخذاً من أدق الروايات وأنقى الاتجاهات .

١ — وأول موضوع نناقشه هو ذلك الموضوع الذى يثار دائماً فى هذه المناقشة وهو : هل كان الإسراء والمعراج بالروح والجسد أو بالروح وحدها ؟

والذى أراه أن المسلم الذى تلقى القرآن وآمن به لايجوز أن يتردد فى أن الإسراء والمعراج حدثا بالروح والجسد جميعاً ، ففى القرآن الكريم آيات تصور حدثا قريب الشبه بالإسراء ، قال تعالى :

(أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يؤتونى مسلمين ؛ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . وقال الذى عنده علم الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى . .)[1] .

فهذه الآيات تقرر أن عرش بلقيس نُقِلَ هذه المسافة الطويلة من اليمن إلى فلسطين فى لمح البصر وقبل ارتداد الطرف ، فإذا كنا قد آمنا بذلك فينبغى أن نؤمن إيمانا كاملا بنقل سيدنا رسول الله إلى حيث شاء الله دون اعتبار للمادة أو مقياس الزمان والمكان ؟

---

(١) سورة النمل الآيات ٣٨ — ٤٠ .

وربما تعرَّض بعض الناس إلى العقل ، وأرادوا أن يقيسوا هذا الحدث بما يعرفون من مقاييس عقلية ، ونحب — في إيجاز — أن نذكرّ هؤلاء الذين يتكلمون عن العقل بضعف عقولهم ، فالغالبية العظمى من الملايين الذين يحملون الساعات لايعرفون كيف تعمل هذه الساعات ، والغالبية العظمى الذين يمتلكون المذياع أو التليفزيون لايعرفون كيف ينقل المذياع الأصوات عبر القارات والمحيطات ، ولا كيف ينقل التليفزيون الصورة والصوت ، والغالبية العظمى من الناس لايعرفون كيف يتكلمون أو كيف يفكرون ، وطالما ضعف العقل عن فهم فكرة واستطاعت عقول أخرى أن تفهمها ، ولهذا فنحن نهيب بالناس ألا يغتروا بعقولهم التي تقصر عن إدراك الأحداث المتكررة التي يفهمها الآخرون ، فما بالهم يتعرضون لما هو أسمى من العقل البشرى من أحداث ؟

٢ — وننتقل إلى نقطة ثانية : إلى الآيات الكريمة التي سبق إيرادها من سورة الإسراء وسورة النجم لنقف قليلا عند بعض كلماتها ، فهذه الكلمات لها مدلولات يتحتم التعرف عليها ؛ فعن الإسراء يقول الله تعالى :

سبحان : مَطْلَع يدلُّ على التنزيه وعلى أن ماسيرد بعده جليل الشأن عظيم الخطر .

الذى أسرى بعبده ليلا : الليل فيه هدوء وصفاء ويغلب أن تقع به الأحداث الكبرى ، وقوله تعالى « بعبده » إبعاد لأية محاولة لتأليه محمد كما حصل لبعض الأنبياء قبله عندما منحهم الله قدرات عظيمة ، فليس محمد - مع خصوصية الإسراء والمعراج - إلا عبداً لله .

من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى : المراد مكان السجود ، فالرسول كان يصلى عند الكعبة وصلى كذلك ببيت المقدس ، أو المراد ما سيكون ، لأن فى علم الله أنه سيكون بمكة مسجد حرام وببيت المقدس مسجد أقصى ، أو المراد من مكة إلى بيت المقدس ، باعتبار مكة كلها حرماً .

الذى باركنا حـوله : ليست البركة خاصة به فقط . إنما تشمل ما حوله ، وللعلماء كلام كثير فى مدى هذه البركة ونوعها .

لنريه من آياتنـــا	السُّرَى نفسه آية كبرى ، والتعرُّف على جلال الله وعلى صور من عظمته آية عظيمة أيضا .

وآيات سورة النجم التى تشير إلى المعراج هى .

وما ينطق عن الهوى	يقول المفسرون إن المعنى : وما ينطق بقرآن قط من عنده، ويقول ابن كثير إن المعنى : ما يقول شيئاً عن هوى وغرض .
إن هو إلا وحى يوحى	هو أى القرآن ؛ فالقرآن كله وحى من الله بدون شك ، ويقول ابن كثير إن الرسول يبلِّغ ماأُمِرَ به كاملا موفوراً من غير زيادة ولا نقصان ، وروى عن الرسول قوله : ما أخبرتكم أنه من عند الله فهو الذى لاشك فيه .
علمه شديد القوى	نقله له جبريل وهو شديد القوى .
ثم دنا فتـــدلى فكان قاب قوسين أو أدنى	قرب جبريل من الرسول عليه السلام .
فأوحى إلى عبده	فأوحى جبريل إلى عبد الله أى محمد .
ما أوحى	شيئاً عظيما يستحق الإعجاب .
ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى	لقاء آخر تمَّ بين جبريل وبين سيدنا رسول الله فى السموات العلى عند سدرة المنتهى ، ولهـــذا روى أن الرسول رأى جبريل على صورته الطبيعية مرتين وهذا التفسير هو ما نميل إليه .
إذ يغشى السدرةَ مايغشى	إشارة إلى تجلِّى الله سبحانه على المكان .
ما زاغ البصر وماطغى	لم يتجاوز البصر حدوده المرسومة له .
لقد رأى من آيات ربه الكبرى	لقد رأى العجائب فى هذه المناسبة ويمكن أن نفترض أن الرسول صلوات الله عليه

قد رأى الأرض كرة ، ورأى القمر معتما بعكس ضوء الشمس ، وأن هناك مجموعات شمسية أخرى ، ولكن الباحثين الأقدمين اتجهوا إلى عبارات الوعظ ؛ ورووا فى ذلك أحاديث تذكر أن زرعا ينمو بسرعة كناية عن الخير والبركة ، وأن رجلا يسيل منه الصديد لأنه يكثر من الغيبة والنميمة . . . . .

ويتجه البعض إلى أن الرسول رأى الله جل جلاله . ويُروى ابن كثير أن الرسول سئل عن ذلك فقال: رأيت نوراً ، وفى رواية : رأيته بفؤادى ، وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها: لم ير الرسول ربه وإنما رأى جبريل فقط ، وتؤكد أن رؤية الله غير ممكنة لقوله تعالى :

— لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار(١) .

— وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب(٢) .

٣ — ونقطة ثالثة هى البراق الذى تقول الرواية إن الرسول انتقل بواسطته ، وقد وصفه الرواة بأنه حيوان فوق الحمار وتحت الحصان وأنه يضع رجله عند نهاية بصره وهكذا . . . . ، وإنى أهيب بالباحثين أن يستبعدوا فكرهم المادى وهم يتدارسون هذه الأمور التى لا تخضع لقوانين المادة ، وليتذكر الباحثون أن عرش بلقيس نُقِل فى أقل من لمح البصر ، فلماذا يحتاجون إلى حيوان كالبراق ؟ بل يتمادون فى الحديث عنه فيرون أن جبريل عقب الوصول إلى بيت المقدس عمد إلى حجر هناك فغمزه بأصبعه فثقبه ، ثم ربط البراق فيه ، واعتقادى أن هذه الروايات موضوعة تأثراً بماديات الحياة ، ومن الخير أن نعتقد أن الرسول نقل إلى حيث أراد الله بمثل الوسيلة التى نقل بها عرش بلقيس أو بوسيلة أشرف منها تناسب أشرف الأنبياء .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٣ . (٢) سورة الشورى الآية ٥١ .

و الله سبحانه يطوى السماء و الأرض « يوم نطوى السماء كطىِّ السجل للكتب »[1] ومن الممكن أن يطوى الله الأرض فيصبح بيت المقدس متصلا بمكة ، ويخطو محمد خطوة واحدة ، ثم تعود الأرض إلى وضعها الطبيعى فيصبح الرسول ببيت المقدس، والمهم أن وسائل الله سبحانه وتعالى كثيرة لنقل محمد من مكة إلى بيت المقدس فى لحظة من الزمان .

٤ ـ ونقطة رابعة نعرضها أيضاً هى ما يروى عن قصة صعود سيدنا رسول الله مع جبريل إلى السموات العلى ، فالرواية تصور هذا الحادث الجليل تصويراً مادياً محضاً، وتتصور السماء سقفاً كسقف البيت ، وترى أن جبريل استفتح الباب ، فسئل من الذى يستفتح الباب ؟ فأجاب : أنا جبريل فسئل مرة أخرى : ومن معك ؟ فأجاب : محمد . فسئل ثالثاً : هل أذن له ؟ فأجاب نعم ، وهكذا يقف عند كل سماء على هذا النمط حتى يصل إلى مكان لا يستطيع جبريل أن يتقدم إليه ، فيقول جبريل لمحمد : تقدم أنت ، أما أنا فليس لى أن أتقدم خطوة واحدة بعد ذلك . . . . .

وهذا التصوير مادى محض يؤخذ عليه ما يلى :

أولا : ليست هناك أبواب صلدة تُدَقّ .

ثانياً : إذا فرض وكانت هناك أبواب فإن الحواجز لا تمنع الملائكة من الرؤيا أو النفاذ ، فلا معنى لقول الملاك الواقف بالباب مَنْ الذى يدق الباب أو من الذى يستفتح ؟

ثالثاً : جبريل يروح ويغدو بالوحى منذ مطلع البشرية ، فهو بالتأكيد معروف لكل الملائكة ، وهل يوقف أمام الباب كل مرة ؟

رابعاً : السؤال الثانى وهو « من معك » يفهم منه أن الملاك يرى أن شخصاً مع جبريل ، فلماذا لم ير جبريل ؟ وقد أخطأ واضع الحديث وكان عليه أن يقول : هل معك أحد ؟ ولو فعل ذلك لرددناه أيضاً .

---

(١) سورة الأنبياء آية : ١٠٤ .

وعلى كل حال فإنه عندما يُطلب سيدنا رسول الله لهذا اللقاء السامى فلا بد أن تكون الأوامر قد صدرت لكل من بالطريق ليهيء السبيل لهذا اللقاء ، ولا يقف محمد بهذا النمط الذى تصوره الرواية .

ثم إن الرواية تصور الله جل وعلا كأنه هناك فى مكان يسمى له محمد مع أن القرآن الكريم يقول (وسع كرسيه السموات والأرض)(١) ويقول « إنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان (٢) » ويقول « مايكون من نجوى ثلاثة إلاهو رابعهم ، ولاخمسة إلاهو سادسهم »(٣) ويقول علماء التوحيد إن الله فى كل مكان أو ينزهونه جل وعلا عن المكان فيقولون إن الله ليس له مكان وعلى هذا فالصورة السابقة مردودة تماماً بنص القرآن وبحكم الفكر الإسلامى .

والقرآن الكريم يوضح أن القمر فى السموات قال تعالى . (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً) (٤) .

وقال : (تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا (٥) .

وقد استطاع الروّاد الأمريكيون أن يصلوا إلى القمر وأن يهبطوا عليه ، وإننا نتساءل هل وقفوا يستفتحون أبواب السماء ، ومن الذى فتحها لهم ؟

٥ ـ ونقطة خامسة جديرة بالذكر هى فرض الصلوات الخمس ، والرواية فى هذا الموضوع مادية للغاية فى تقديرى ، فهى تصور موسى فى السماء السادسة أوالسابعة ، وتصوره يسأل محمداً : ماذا فرض الله عليك وعلى أمتك؟

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦ .

(٢) سورة المجادلة الآية السابقة .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٤) سورة نوح : الآيتان ١٥ ـ ١٦ .   (٥) سورة الفرقان : الآية ٦١ .

فيقول : خمسون صلاة فى اليوم والليلة . فيقول له موسى : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف . ويستجيب محمد ويعود مرة أخرى وثالثة ورابعة . . على ما مرّ ذكره .

واعتقادى أن هذه القصة من الإسرائيليات التى ترمى إلى وضع موسى فى موضع المعلم لمحمد، وصاحبِ الفضل على المسلمين، وكأنه أعترف بأمة محمد من محمد ، وقد تسربت رائحة الإسرائيليات من الروايات المتصلة بهذا الموضوع ، فقد جعلت بعض الروايات موسى فى السماء السابعة وجعلته يقول عندما رأى محمداً يتخطى السماء السابعة إلى ما فوقها : رب لم أكن أظن أن ترفع علىَّ أحداً ، ثم إن الروايات تقسو فى تصوير اعتراض موسى لمحمد ليعود إلى ربه ، وعبارتها هى : عندما عاد محمد احتبسه موسى وهو تعبير لا يليق بسيدنا رسول الله .

وكم عانى المفكرون المسلمون من أشياء وضعها الوضّاع ، وتقبلها بعض المسلمين ، وراحوا يدافعون عنها بحماسة متصورين أن الشك فى حديث واحد من أحاديث البخارى أومسلم يسقط كل أحاديث البخارى أو أحاديث مسلم ، ولست أريد هنا أن أخوض فى دراسة عن الحديث، ولكنى وأنا أعرف أن حديث الغرانيق والسحر وغيرهما وردت فى هذه الكتب المهمة أقر أن هناك أحاديث موضوعة وجدت طريقها إلى البخارى أو مسلم ، ولكنها قليلة جداً ، والحكم بوضعها لا يمس من قريب أو بعيد باقى الأحاديث ، فوجود خطأ أو أخطاء محدودة فى أى كتاب من الكتب لا يضيع من قيمته ، وكل كتاب يحتمل فيه الخطأ والصواب ، إلا كتاب الله ، وليس من المعقول أن نرتفع بالبخارى ليصبح من العصمة فى درجة تساوى القرآن .

وقد أدرك الإمام أبو حنيفة (١٥٠) فى القرن الهجرى الثانى أن هناك أحاديث موضوعة ، فبنى فقهه على القرآن الكريم وعلى الرأى . ولم يعتمد على الحديث لخوفه أن يكون موضوعاً ، وسمى مذهبه لذلك مذهب أهل الرأى [1] .

---

(١) دكتور على حسن عبد القادر : نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى ص ٢٠٥-٢٠٦

ومن العجيب أننا عندما نحاول أن نفند الإسرائيليات وننقّى منها الفكر الإسلامى يتصدى لنا بعض المسلمين الذين وضعوا أنفسهم حماة للإسرائيليات دون أن يشعروا ، واعتراضنا على القصة السابقة من عدة وجوه :

أولا – أنها تصور الله سبحانه وتعالى – كموسى – فى وضع مادى يمشى له محمد ويعود لموسى ثم يرجع إليه ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ثانياً – تصور الله تعالى على غير ما هو معروف عنه من وفرة المنح ومن الكرم العظيم ، فهى تصوره ينقص الخمسين إلى خمس وأربعين ثم ينقصها فى جولة أخرى إلى أربعين ، ثم إلى خمس وثلاثين. . . ونحن نصرخ فى وجه من يقول هذا القول بأن كرم الله تصوّره آياته « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها »(١) و (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) (٢) ولا يمكن – إلا فى خيال مادى – أن تتم هذه الصورة ، تعالى الله عن ذلك

ثالثاً – أنها ترمى إلى وضع موسى فى موضع المعلم لمحمد ، ومحمد خاتم الأنبياء وأفضلهم وإمامهم ، ومعلم البشرية والرسول الذى أرسل للناس جميعاً ، وكان عليه السلام حينذاك قد تجاوز الخمسين من عمره .

رابعاً – كيف يتصور العقل محمداً ذاهباً وعائداً عدة مرات ، بناء على طلب موسى ، والابن لا يطيع أباه إلى هذا المدى مهما كان فى ذلك من خير إليه .

واعتقادى أن الصلوات فرضها الله من أول الأمر خمساً فى العمل وخمسين فى الأجر ، أو فرضها خمسين فاستعطفه سيدنا رسول الله فاستجاب الله إليه وجعلها خمساً فى العمل وخمسين فى الأجر .

٦ – ونقطة سادسة وأخيرة هى أن حدث الإسراء والمعراج لم يُتَّخَذ معجزة

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٦٠ (٢) سورة البقرة الآية ٢٤٥ .

من معجزات محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن دين الإسلام لا يتخذ الخوارق معجزات، فهو دين لاينبنى على المعجزات التى تَدْهَشُ العقول وتفحم ، إنما معجزاته هادئة باقيه كما وضحناها فى كتابنا « الإسلام » من سلسلة مقارنة الأديان ، والدليل على اتجاه معجزات الإسلام هو قوله تعالى « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون »[1] ويقول الأستاذ العقاد فى ذلك : والنبى فى الإسلام ليس بصاحب الخوارق والأعاجيب التى تشل العقول ؛ وتهول الضمائر ، وتخاطب الناس من حيث يخافون ويعجزون .

ثم إن طبيعة المعجزه أن يظهر التحدى فيها ؛ كالعصا التى يلقيها النبى فتصبح ثعبانا يلتقط الأفاعى، وكإبراء الأكمه والأبرص ، وكالقرآن الكريم ، فهذه معجزات يقدمها الأنبياء دليلا على صدقهم ، ويتحدون أن يأتى أحد بمثلها ، أما إذا قال محمد للمعارضين إننى أسرى بى وعرج بى ، فما أيسر أن يقولوا له : هذا كذب ولانصدقه ، وعلى فرض أنه طار أمامهم وهم ينظرون إليه فإن ذلك لايكفيهم ، فقد حكى القرآن الكريم عن قريش الوسائل التى اشترطوها ليؤمنوا به : قال تعالى على لسانهم « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربى ، هل كنت إلا بشراً رسولا »[2] .

فحتى الرقى فى السماء لم يكن وحده عندهم كافياً للتصديق بل لابد أن يُـنَـزِّل من السماء كتاباً ليقرءوه .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٥٩ .

(٢) سورة الإسراء الآيات ٩٠ – ٩٣ .

وعلى هذا فالإسراء والمعراج تكريم للرسول وليسا من معجزاته ، وسنعود فيما بعد للحديث عن « مكرمات الرسول » ونفرق بين المكرمة وبين المعجزة ؛

* * *

ومن الدروس المهمة المتصلة بالإسراء والمعراج أن الله سبحانه وتعالى أتاح للرسول عليه السلام بها فرصة أن يرى العوالم الكبرى ، فصغرت بذلك مكة فى نفسه ، وما بها من رجال وعتاد ، وماذا تكون مكة ومن بها بالقياس إلى هذا العالم الفسيح ؟ وإلى صاحب القوة الجبارة التى صنعت معجزة الإسراء والمعراج ؟

ومن هذه الدروس كذلك وَضْعُ المسلمين قبل الهجرة فى بوتقة اختبار لتنقيتهم من المترددين قبل أن يبدأ الشوط التالى الذى سيكون حافلا بالجهاد والتضحية بالمال والأهل والوطن بعد الهجرة إلى المدينة .

ويُعَدُّ الإسراء فى التفكير الإسلامى من مكة — حيث بنى إبراهيم الكعبة ، إلى بيت المقدس حيث دعوة موسى وزكريا ويحيى وعيسى — بمثابة رحلة تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من إبراهيم إلى محمد ، وبمثابة إعلان وراثة خاتم الرسل لمقدسات من سبقه من رسل الله ، وأن رسالته مشتملة على هذه المقدسات ، وهذا المعنى هو ما يحسه القارىء فى قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى)(١) .

ومنذ ذلك التاريخ أحس المسلمون بأن فتح فلسطين ضرورة اقتضتها عناية الله وتوجيهه ، ليشرف المسلمون على مقدسات الماضى .

---

(١) سورة الشورى الآية ١٣ .

تعليق :

كتبت هذه الدراسة عن الإسراء والمعراج منذ حوالى ثمانى عشرة سنة أى فى سنة ١٩٦٣ تقريباً ، ولكنى للحق لم أستطع طبعها فى مكانها من هذا الكتاب إلا فى سنة ١٩٧٣ خوفاً من أولئك الذين يتصدون لكل عمل جديد بالهجوم أو الذين يرون فى القديم كل الخير ، ولا يحبون أن يتعمقوا فى الاطلاع ويُعملوا العقل لخدمة الإسلام والمسلمين .

واتخذتُ وسيلة غير الطباعة لنشر هذه الأفكار ، ومن أهمها وفود الشيوخ من الأئمة والوعاظ الذين تستقدم وزارة الأوقاف كل شهر مجموعة منهم بمعهد الدعاة ، وأشترك فى إلقاء المحاضرات عليهم ، وقدمت لهم هذه الأفكار مع ما قدمت ، فاستراحوا لها ، وقدمت هذه المعلومات كذلك فى محاضراتى العامة والخاصه فلقيتْ كل ترحيب .

وقد شجعنى ذلك على وضعها فى مكانها من هذا الكتاب فى طبعته السادسة التى ظهرت فى مطلع سنة ١٩٧٤ وكان المجتمع عند حسن الظن به ، فأحسن استقبال ما كتبتُ ، وسمعتُ وقرأتُ عنها ماجعلنى أطمئن إلى أن العمل الجاد المخلص يلقى دائما ما يستحقه من نجاح .

وفى صبيحة الجمعة ٢٣ / ٨ / ١٩٧٤ نشرت الأخبار مقالا لصاحب الفضيلة الأستاذ الجليل عبد الجليل عيسى يتحدث فيه عن بعض نقاط من موضوع الإسراء والمعراج ، ويسير فى نفس الطريق الذى سرت فيه ، وإذا كان فضيلته قد اطلع على كتابى وأيد رأيى فهذا فضل الله ، وإذا كان هذا الاتجاه من ابتكار فضيلته وبالتالى مما يسمونه توارد الخواطر ، فهو أيضاً فضل الله ، وأنا هنا أنقل هذه الكلمة التى تؤيدنى وأؤيدها لخدمة الهدف الأسمى ، وهو رفعة الإسلام والمسلمين ، وإزالة خرافات علقت بالفكر الإسلامى عدة قرون ، وفيما يلى نص هذه الكلمة مع عنوانها :

بعيدا عن الشطحات والخيال

البلاغة عند علماء العربية : مطابقةُ الكلام لمقتضى الحال ، وهى معنى قولهم : لكل مقام مقال ، وقد تمنيت على الله أن يكون حديثنا عن الإسراء والمعراج فى هذه الذكرى المباركة مناسباً للمقام الذى نحن فيه .

وقد انتظرت حتى انتهى أو أوشك أن ينتهى هذا المهرجان الذى احتشد له الخطباء على المنابر ، والكتاب فى الصحف ، والمتحدثون فى الإذاعة والتليفزيون ، فوجدت السواد الأعظم من هؤلاء جميعاً يخطبون بليل ، ويجمعون كل ماصادفهم من غرائب الأحاديث عن الإسراء والمعراج من روايات الإخباريين والقصاص التى إن أعجبت العامة وبهرتهم فإنها تقع عند كثير من المثقفين موقع التنزية لمقام الإسراء من هذه الشطحات البعيدة ، وذلك الخيال الجنح .

إن من الحق أن أقرر هنا أن قلة قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة وقفوا بالحديث عن الإسراء عند حدوده التى ينبغى أن يقف عندها كل مسلم ، حين يوضع هذا الحديث فى إطار الآية الكريمة : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) حيث يتضح أن الإسراء ضيافة خاصة لرسول الله فى رحاب الحق سبحانه وتعالى ، وقد أطلعه مولاه فى هذه الضيافة على عجائب ملكوته ، فكان له من ذلك زاد عتيد يمده بإمداد القوة والمضاء فى مسير دعوته ، وفى حمل ما يلقاه فيها من أعباء تنوء بحملها الجبال ، وحيث يرى المسلم من الربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى فى مسرى الرسول الكريم آيةً من آيات الله على أن هذين المسجدين أخوان قد آخى بينهما الإسلام وجمعهما فى رحابه ، وأن هذا الإخاء بينهما يدعو المسلمين دعوة صارخة إلى الضرب بكل قوة على أى يد آثمة تحاول التفريق بين ما جمعه الله .

وإذا كان لى من عتب على أولئك الذين أضافوا إلى حديث الإسراء والمعراج من ذيول جرارة ، وما لوّنوه بها من ألوان صارخة سواء فى ذلك الخطباء والكتاب والمتحدثون ، فإن عتبى شديد على الشيخ محمد متولى الشعراوى الذى أكثر من هذا الحديث فى التليفزيون والإذاعة ، ثم لم يكتف بذلك فأخرج هذه الأحاديث فى كتاب منشور يقرأه ألوف المسلمين ، وغير المسلمين .

ولو كان الشيخ الشعراوى واحداً من أولئك المتحدثين الذين تمر أحاديثهم دون أن تشد انتباه الكثيرين إليها لهان الأمر ، ولكن الشيخ وراءه معجبون كثيرون وكثيرون . ومن هنا يكون الخطر لكلمته فى مقام النفع ، أو الضر على السواء .

وقد كان الشيخ فى غنى عن أن يحمل حديث الإسراء والمعراج ما حمله من تقول وخلافات واجتهادات ما كان أغنى حديث الإسراء والمعراج عنها .

ويكفى أن أشير هنا إلى الحديث المروى فى صحيح البخارى ، والذى صدّر به الشيخ الشعراوى كتابه ، وهو الحديث الذى يشير إلى صعود الرسول الكريم مع جبريل إلى السموات السبع سماء سماء ، وفى كل سماء يستفتح جبريل ، فيقول له الملك : من أنت ؟ فيقول جبريل : أنا جبريل .. فيقول الملك : ومن معك ؟ . . فيقول : محمد . . فيقول الملك : أوقد بعث وأرسل إليه ؟ . . فيقول ، نعم . . فيفتح لهما . . وهكذا فى كل سماء حتى بلغ السماء السابعة .

ويسأل السائلون هنا : ألا تعرف ملائكة السماء جبريل — وهو طاووس الملائكة — حتى يسألوه : من أنت ؟ . . ثم ألا يأتمنونه على من يدخل معه ؟ . . ثم ألا تعلم الملائكة بأمر مبعث محمد ، وجبريل يغدو ويروح بالوحى إليه منذ مبعثه إلى اليوم الذى أسرى به أو عرج به ؟ .

إن هذه التساؤلات إن وجدت لها تأويلا مقنعاً عند الشيخ الشعراوى فإنها مع النظرة العميقة للموضوع لا تعطى هذا الاقتناع ، لأن هذا الحديث رغم رواية البخارى له ، قد جاء بسبع روايات فى أبواب مختلفة .

وهذه الروايات السبع مختلفة فى تحديد عام الإسراء وفى شهره وفى يومه، وفى كيفيته وفى المكان الذى جاء الملك إلى النبي فيه ، وفى ربط البراق بالصخرة ، ومن الذى ربطه ، وكيف ربطه ، وفى مراجعة الرسول لربه فى تخفيف الصلاة .

واختلاف الروايات فى حديث ما على هذا النمط ينفى عنه — عند علماء الحديث — صفة الحديث الصحيح والحسن .

هذا رأيى فى القضية . . وعلى الله قصد السبيل .

عبد الجليل عيسى

مزيد من الدراسة حول الإسراء والمعراج :

ذلك ما نشره الأستاذ عبد الجليل عيسى وهو رائد إسلامى عظيم ، وقد حدث أن قابلته عقب ذلك بمؤتمر الفقه الإسلامى الذى عقد بالرياض فى أكتوبر سنة ١٩٧٦ وتدارسنا هذه المسألة طلباً لمزيد من التفصيل حتى نزيل الشُّبَه ونعيد المسلمين للفكر السليم فى هذه القضية التى يهتم بهسا الباحثون والخطباء كل عام كلما دخل علينا النصف الثانى من شهر رجب ، وقد جلس معنا بالرياض بعض العلماء والباحثين وحضروا هذه المدارسة .

وقد سألت فضيلة الأستاذ عبد الجليل عيسى مزيداً من التفصيل عن حديث الإسراء والمعراج وسألته عن قوله : إن الاختلافات الواسعة فى روايات هذا الحديث بالبخارى تجعله لايدخل فى نطاق الحديث الصحيح أو الحسن ؟ فأجاب سيادته : إن روايات البخارى متعددة ومختلفة فى تحديد المكان الذى ابتدأ منه الإسراء ، ومختلفة فى تحديد زمانه ، وغير ذلك من وجوه الاختلاف فعن المكان تقول إحدى الروايات إن الرسول صلوات الله عليه قال : بينما كنت فى المسجد ، وفى رواية أخرى : بينما كنت نائماً فى دار أم هانىء ،

وفى رواية ثالثة إن رحلة الإسراء بدأت من بيت عائشة ، وأن عائشة قالت إن مضجع الرسول لم يبرد لسرعة عودة الرسول إليه .

أما اختلاف الزمان فواسع جداً حتى لا يوجد عندنا تاريخ محدد بدقة أو بوجه التقريب لهذا الحدث الجلل . واختلاف الروايات هكذا فى المكان والزمان يجعل الحديث لا يدخل فى نطاق الحديث الصحيح أو الحسن كما يقول علماء مصطلح الحديث .

وفى الحديث كذلك أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) صلى بالأنبياء فى بيت المقدس ، والمعروف إسلامياً أنه لا عبادة بعد الموت ، وهناك حديث صحيح يقول : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم نافع ، أو ولد صالح يدعو له ، والأنبياء هم من بنى آدم ، وقد انقطع عملهم بوفاتهم إلا من هذه الأشياء الثلاثة ، وعلى هذا فلا معنى لتصوير الأنبياء يصلّون خلف الرسول .

وفى الحديث روايات مختلفة عن أمكنة الأنبياء فى السموات ، فمن منهم فى السماء الأولى ؟ ومن فى الثانية ؟ . . . خلاف ظاهر ، مع أنه لا ضرورة على الإطلاق لوجودهم فى أى منها ، فمن المحقق أنهم ماتوا ودفنوا ، وأن أرواحهم عند الله ، والروح كائن نورانى ، ولا يعلم كنهها إلا الله ، والجسد قد اختفى تماماً فى الأرض ، ومع قدرة الله على إحياء الأنبياء لاستقبال الرسول . . . فلا داعى للقول بذلك على الإطلاق .

ومسألة تخفيف الصلوات فيها روايات متعددة ، فهناك رواية ترى أن الرسول عند ما طلب التخفيف أسقط الله سبحانه وتعالى نصف الخمسين فى المرة الأولى ، وفى المرة الثانية أسقط نصف النصف الباقى ، وهناك رواية تقول إن الله أسقط عشراً فعشراً أربع مرات ثم أسقط خمساً ، وهناك رواية تقول إن الله أسقط خمساً فى كل مرة ، واختلاف الروايات هكذا يشكك فى صحة الحديث .

والرواية تقول إن جبريل دقَّ الباب فسئل : من ؟ فأجاب : أنا جبريل. ومما يدعو للدهشة أن يوجه هذا السؤال لجبريل وهو طاووس الملائكة، يروح ويجيء عدة مرات حاملا آيات القرآن للرسول عليه السلام وتوجيهات الله لرسله من قبل ، وطبعاً هو معروف للملائكة ، ثم إن جبريل والملائكة لا تقف الأبواب حائلة أمام رؤياهم . ولا يحتاج الملاك الموكل بالباب – على فرض وجود باب – إلى هذا السؤال ، لأنه يرى مَنْ هو خلف الباب ، ثم تقول الرواية إن الملاك عاد فسأل جبريل قائلا : من معك ؟ ومعنى هذا أنه رأى شخصاً مع جبريل فلماذا لم ير جبريل ؟ وكان عليه أن يقول : هل معك أحد ؟ وإن كان هذا أيضاً ليس سؤالا عادياً فلا يمكن أن يتعرض جبريل لهذا السؤال فى كل مرة يمر بها .

ونقول الرواية أيضاً إن جبريل قال للملاك : هذا محمد . فسأله الملاك : هل أذن له ؟ وفى رواية ، أو بُعِث ؟ وهى أسئلة لا تليق من إنسان عادى فما بالك بالملائكة المقربين . فلا يمكن أن يتجه الرسول هذه الوجهة فى المعراج بدون إذن ، ولا يمكن القول بأن الملائكة لا يعرفون أنه قد بعث .

(انتهى كلام الشيخ عبد الجابل)

خلاصة

١ – الإسراء والمعراج حدثان عظيمان ، واعتقادى أنهما ثبتا بالقرآن الكريم ، وأنهما حدثا بالروح والجسد .

٢ – فى الإسراء ربطٌ بين عقائد الديانات السماوية التى كانت باقية عند ذلك العهد والتى لاتزال باقية حتى الآن، وبالتالى فى الإسراء إعلانُ وراثة الإسلام لهذه الديانات .

٣ – وفى المعراج بعدٌ عن الأرض التى غمرتها الخطايا منذ مطلع البشرية – عندما قتَلَ أحدُ ابنى آدم أخاه – حتى الآن حيث لا يزال بالأرض مظالم كثيرة ، مثل سفك الدماء البريئة، وهناك بعيداً عن هذه الأرض ، عند سدرة المنتهى ، تجلىَّ الله على رسوله « إذ يغشى

السدرة ما يغشى » وأيسرُ معنىً نذكره للتجلّـــى هو أن يحس الإنسان أنه فى حضرة الله تعالى ، ونستطيع أن نذكر مقارنة بين هذا الحَدَث وبين حَدَث آخر مشابه يرويه القرآن الكريم ، قال تعالى يحكى كلام موسى ونتائجه « رب أرنى أنظر إليك ، قال : لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك » والفرق بين التجلى هنا وهناك أن موسى عليه السلام هو الذى طلب الرؤية ، فالتجلى استجابةٌ للطلب ، والمقصود هو التدليلُ على وجود الله وعظمته ، وأن الجبل نفسه لا يحتمل أن يتجلّى عليه الله ، وفى هذا إقناع لموسى ، وقد اقتنع فعلا ، أمـــا التجلى فى المعراج فمنحةٌ من الله لم يطلبها محمد ، ولذا كان رخاء ويمناً وبركة وآيات كبرى ، والآية الكريمة : « إذ يغشى السدرة ما يغشى » تشـــير إلى جلال التجلى فى هذا المكان الذى اختاره الله ليتجلى على الرسول فيه .

٤ — وعلى هذا فموضوع الإسراء والمعراج لاشك عندى فيه : ويتحتم على كل مسلم الإيمان به . وبهذا تتفق فيه الدراسات .

٥ — أما مواضع الخلاف فهى تفاصيل تذكرها بعض النصوص التى أشرنا إليها ، ويدعى البعض أنها أحاديث للرسول ، وذلك مالا يقبله أفذاذ العلماء ، وقد تدارس العلامة الشيخ عبد الجليل عيسى عضو جماعة كبار العلماء هذه النصوص وقرر أنها ليست من الأحاديث الصحيحة أو الحسنة ، وعلى كل حال فالكلام عن هذه النصوص ينقلنا من الحديث عن الإسراء والمعراج إلى حديث عن مدى قدسية ما دونه الإمام البخارى .

٦ — وأقرر إجلالى التام لأحاديث الرسول صلوات الله عليه ، وقد انتفعت بالمئات والآلاف منها فى دراساتى المختلفة وبخاصة فى الحضـــارة الإسلامية .

٧ — ولكن هل كل ما ورد فى البخارى هو فعلا من كلام الرسول صلوات الله عليه بدون شك ؟ إننا لو قلنا بذلك فإننا نضع البخارى فى مستوى

القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم هو وحده الذى أنزله الله وحفظه ، وتعهد ألا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وقد أجمع العلماء على أن صحيح البخارى هو أصح كتاب بعد كتاب الله ، وليس مثل كتاب الله ، وهذا الإجماع يتيح لنا الفرصة أن نفكر فى الأحاديث الواردة بالبخارى وفى غيره من كتب الصحاح لنستبعد منها مالا يتفق مع القرآن الكريم ، ومع المبادىء الإسلامية المسلَّم بها ، وذلك كحديث الغرانيق والسحر والمسيخ الدجال ، وبعض أحاديث الإسراء والمعراج وغيرها مما سنشير إليه فيما بعد .

٨ — واستبعاد هذه النصوص يجىء على اعتقاد أنها ليست ثابتة الصلة بالرسول ، فقد تكون من أخطاء الإمام البخارى ، والإمام البخارى ليس معصوماً ، أو تكون دُسَّت عليه بعد وفاته ، ويقول بعض المتسرعين إننا لو شككنا فى حديث مما رواه البخارى فإننا نعرض كل أحاديث البخارى للتشكيك ، واعتقادى أن وُضَّاع الأحاديث هم الذين قالوا هذا القول ، ليحرسوا ما وضعوه من نصوص نسبوها للرسول ، والحق أن إخراج فكرة خاطئة من كتاب ، تجعله أعظم قدراً ، وتقربه من الكمال .

٩ — وهناك كثيرون من الأئمة السابقين ناقشوا البخارى ، ولم يعترفوا بتقديس عمله ، ومن هؤلاء :

(أ) الجيَّانى فى كتابه : الأوهام الواقعة فى صحيح البخارى .

(ب) ابن عبد البر فى كتابه : الأجوبة المرْعِبَة عن المسائل المستغْرَبَة من البخارى .

(جـ) البلقينى فى كتابه : الإفهام بما وقع فى البخارى من الإبهام .

(د) ابن خلف فى كتابه : التعديل والتجريح لرجال البخارى .

(هـ) العاملى فى كتابه : الكشكول .

وفى ص ٣١١ من الكتاب الأخير يقول العاملى : كنت أناقش أحد العلماء فى موضوع ، فأردت الاحتجاج بحديث من صحيح البخارى فطعن هذا العالم فى صحيح البخارى وقال : البخارى لا يوثق بكل ما فيه من الأحاديث . فقلت له : الأحاديث الضعيفة فى صحيح البخارى حوالى ستين حديثاً .

فهذا اتفاق بين عالمين على ردّ وتضعيف بعض أحاديث البخارى .

١٠ – ويتجه العلماء إلى مناقشة كبار الأئمة الذين سبقوا البخارى . وعُرِفَ فضلهم فى مجال الدراسات الإسلامية كالإمام أبى حنيفة (١٥٠ هـ) والإمام مالك (١٧٩ هـ) والإمام الشافعى (٢٠٤ هـ) والإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) . فلماذا لا نناقش البخارى المتوفّى سنة ٢٥٦ هـ .

وكان أبو جعفر الطحاوى إماما للحنفية فى مصر ؛ وكان فى الوقت نفسه من كبار علماء الشافعية ، فقد تفقّه على خاله « المزنى » صاحب الشافعى . وقد استفاد من جمعه بين المذهبين ، وكان ينقد الحديث نقد معنى وإن صحّ السّند فى نظر المحدّثين .

١١ – نشر مجموعة من الأساتذة عدة مقالات فى الصحف (الأخبار فى ٧٦/١٢/١٨ ، ٧٧/١٢/٣٠) وأوردوا نماذج مما رواه البخارى ولا يقبله عقل سليم ، ومن ذلك :

(ا) أن موسى عندما جاءه ملك الموت لقبض روحه صكه ففقأ عينه .

وملك الموت مرسل من عند الله ، وطبيعى أن يحترم موسى ملك الموت فهو رسول من الله ، وليس لملك الموت عين تُفقأ .

(ب) أن الحجر هرب بملابس موسى عندما نزل ليستحم .

(حـ) أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات منها كذبتان فى ذات الله .

(د) أن سليمان أقسم أن يطوف فى ليلة واحدة على تسعين امرأة من نسائه ، وأن كلا منهن ستحمل بفارس . فقال له صاحبه : قل « إن شاء الله » فلم يقل .

(هـ) أن الرسول رأى فى السماء الدنيا « أى الأولى » نهرين يطّردان ، فقال لجبريل : ما هذان النهران يا جبريل ؟ فأجابه جبريل : هما النيل والفرات .

(و) أن موسى احتبس محمداً ، وقال له : أمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

وهكذا تحشدت هـذه الرواية أوصافاً قاسية لأمة محمد ، وهى أوصاف لا تطابق الواقع ، ولا يمكن أن تقال عن خير أمة أخرجت للناس ، وعن الأمة التى جعلها الله أمة وسطا . (آل عمران ١١٠ والبقرة ١٤٣) .

١٢ — لسماحة العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز رئيس إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية دراسةٌ عن الإسراء والمعراج ، وعن رفض القول بخروج أجسام الأنبياء من قبورهم بعد دفنها .

وقد وردت هذه الدراسة فى كتابه « التحذير من البدع » ، وهذا العلامة يقول عن الإسراء والمعراج ما يلى : تواتر عن رسول الله ﷺ ، أنه عُرج به إلى السموات ، وفتحت له أبوابها حتى جاوز السماء السابعة ، ففرض الله عليه الصلوات الخمس ، وكان الله سبحانه وتعالى قد فرضها أولا خمسين صلاة ، فسأله الرسول التخفيف ، فجعلها خمساً فى الفرض وخمسين فى الأجر لأن الحسنة بعشرة أمثالها (ص ٧) .

وهكذا لم يذكر الإمام ابن باز دقّ الأبواب ولا أن الرسول صلى بالأنبياء فى بيت المقدس ، ولا أن أنبياء الله كان كل منهم فى سماء من السموات ، ولا أن موسى احتبس محمداً صلوات الله عليه ، وردّه إلى ربه عدة مرات . أحسن الله للإمام ونفع به .

وعن البعث بعد الموت والدفن ، تعرّض الإمام ابن باز لهذا الأمر بكثير من التفاصيل ، فقال ص ٦ من الكتاب المذكور ما يلى :

ادّعى بعض الجهلاء أن الرسول محمداً صلوات الله عليه يحضر بعض الموالد والمناسبات ، وهذا من أعظم الباطل وأقبح الجهل ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يخرج من قبره قبل يوم القيامة ، ولا يتصل بأحد من الناس ، بل هو مقيم فى قبره إلى يوم القيامة ؛ وروحه فى أعلى عليين عند ربه فى دار الكرامة كما قال تعالى فى سورة « المؤمنون » : (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » . وقال عليه الصلاة والسلام : أنا أول من ينشق عنه القبر يوم القيامة . فهذه الآية الكريمة وهذا الحديث الشريف ، وما جاء فى معناهما من الآيات والأحاديث كلها تدلّ على أن النبى صلى الله عليه وسلم وغيره من الأموات إنما يخرجون من قبورهم يوم القيامة ، وهذا أمر مجمع عليه بين علماء المسلمين ليس فيه نزاع بينهم . فينبغى لكل مسلم التنبّه لهذه الأمور ، والحذر مما أحدثه الجهال وأشباههم من البدع والخرافات التى ما أنزل الله بها من سلطان .

وهكذا أثبت العلامة ابن باز أنه بعد الموت والدفن لا يخرج إنسان من قبره قبل يوم القيامة ، واستدل فضيلته بالآية والحديث وعدّ من يقول بغير ذلك بأنه فى عداد الجهال ومختلقى البدع والخرافات ؛ وذكر عن روح محمد وأمثاله من الأنبياء أنها فى أعلى عليّين فى دار الكرامة ، ولا يجوز لنا أن نحرّك الروح ؛ ولا أن نروى عنها بعد قوله تعالى « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى » .

* * *

وعلى هذا ينبغى أن تسكت الألسنة التى تحشد أنبياء الله فى بيت المقدس ، وتوقف كل واحد منهم فى سماء من السموات ؛ أو تضع موسى فى موضع المعلم المرشد بالنسبة لمحمد خاتم الأنبياء وأشرفهم ؛ وكل ما يقال عن ذلك هو من الإسرائيليات التى ضاقت بأن يكون لمحمد هذه المكانة المنفردة عند الله ، فراحت تختلق هذه الروايات ليشترك موسى وغيره فى هذا التكريم .

الاسلام فى يثرب

دخول الإسلام يثرب وظروفه والعوامل التى ساعدته :

بدأت بذور النجاح تظهر فى يثرب ، وبدأ الأمل يعقد على أن يثرب ستكون المدينة التى يتفجر منها ضوء الإسلام وينتشر على الأرض .

والحقيقة أنه كان لعرب يثرب ظروف خاصة خلقت منهم استعداداً لتقبل الإسلام والدخول فيه ؛ لقد كانت يثرب ملتقى طائفتين مهمتين إحداهما قادمة من الشمال وهى اليهود ، والأخرى مهاجرة من الجنوب وهى قبائل عربية أهمها الأوس والخزرج ، والتقاء هاتين الطائفتين فى يثرب أنتج العوامل الآتية :

أولا — كان عرب يثرب أقرب العرب إلى الأديان السماوية لكثرة ماسمعوا من اليهود عن الله والوحى ، وعن البعث والحساب ، والجنة والنار ، ونحو ذلك .

ثانياً — ما ذكره ابن هشام[1] من أنه كان هناك عداء يكاد يكون متصلا بين العرب واليهود ، وكان العرب إذا انتصروا على اليهود قال اليهود : إنه تقارب زمان نبى يبعث كما نجد فى كتبنا ، فإذا بعث اتبعناه وقوينا به عليكم ونقتلكم بعونه قتل عاد وإرم[2] ويصور القرآن الكريم ذلك بقوله : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به »[3] .

---

(١) ج ٢ ص ٢٨ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٢ :

(٣) [illegible] : الآية ٨٩ .

ثالثاً – كان هناك خلاف وحروب بين الأوس والخزرج ، وكانت كل منهما تسعى لتجد من تتعاقد معه لتقوى به على الأخرى ، ومن أشهر الحروب التي وقعت بين الأوس والخزرج تلك الحرب المعروفة بيوم بعاث وقد حدثت قبل الهجرة بسنوات قليلة(١) .

لهذه الأسباب اعتنق الأوس والخزرج الإسلام ، بل سارعوا إليه ، حتى لايسبقهم اليهود ؛ وسارعت الأوس حتى لايسبقها الخزرج ، كما سارعت الخزرج حتى لايسبقها الأوس .

وقد مر إسلام الأوس والخزرج خلال مراحل ثلاثة(٢) :

١ – فى السنة الحادية عشرة للبعثة قدم نفر من الخزرج يريدون الحج ، فاستقبلهم الرسول وتعرف إليهم ، وجلس معهم عند العقبة(٣) . وتحدث إليهم ودعاهم إلى الله . فقالوا له : إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم ؛ وعسى أن يجمعهم الله بك ، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك لعل الله أن يجمعهم عليك ، فلما عادوا إلى يثرب ونقلوا لقومهم الدعوة الجديدة دخل كثيرون فى الدين الجديد ، ولم تبق دار من دور العرب فى يثرب إلا وقد دخلها ذكر الرسول وتحدثت عنه(٤) .

٢ – فى السنة الثانية عشرة للبعثة تمت بيعة النساء أو بيعة العقبة الأولى وسميت بيعة النساء لوجود امرأة هى عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بها ، وسميت بيعة العقبة لحدوثها عند العقبة .

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ١٦٢ .
(٢) انظر تفاصيل هذه المراحل فى زاد المعاد ١ : ٢٥ و ٢ : ٥٠ – ٥١ .
(٣) العقبة بين منى ومكة عند موقع رمى الجمرات .
(٤) ابن هشام ١ : ٢٦٧ .

وقصة هذه البيعة أن اثنى عشر رجلا ومعهم المرأة السابقة قدموا على رسول الله واجتمعوا به عند العقبة وبايعوه ، قال عبادة بن الصامت كنت فيمن حضر بيعة العقبة ، وقد بايعنا الرسول على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولانأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولانعصاه فى معروف .(١)

وقد أرسل الرسول مع هؤلاء مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويؤمهم فى الصلاة ، وقد نشط مصعب فى الدعوة للإسلام فى يثرب ، حتى دخله القادة والرؤساء(٢) كما سنرى ذلك عند الحديث عن الدعاة الذين رباهم الرسول .

٣ — فى السنة الثالثة عشرة للبعثة تمت بيعة العقبة الثانية ، وحديث ذلك أن ثلاثة وسبعين شخصاً من يثرب قدموا إلى مكة وقد عزموا على أن يدعوا الرسول للهجرة إلى يثرب ويبايعوه على أنه نبيهم وزعيمهم .

وقد اجتمع هؤلاء بالرسول عند العقبة أيضاً . وكان مع الرسول عمه العباس وكان لم يعلن إسلامه بعد . فلما جلسوا كان العباس أول من تكلم قال: يامعشر الخزرج إن محمداً منا كما علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز لكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وماتحملتم فى ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه فمن الآن فدعوه .

قال زعيم وفد يثرب . قد سمعنا ماقلت ياعباس . فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فتكلم الرسول وتلا آيات من القرآن الكريم ثم قال: أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم . فبايعوه على ذلك

---

(١) ابن هشام ١ : ٢٦٨ .
(٢) المرجع السابق ١ : ٢٦٩ .

وأضافوا أنهم يبايعونه على هلاك الأموال ، وقتل الأشراف ، والاحتمال فى كل الأحوال (١) .

ويروى عبادة بن الصامت وكان أحد النقباء نص البيعة قال : بايعنا رسول الله على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا وإيثاره علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم (٢) .

هجرة المسلمين إلى يثرب :

عندما ظهرت تباشير النجاح فى يثرب أمر الرسول أتباعه بالهجرة إليها فراراً بدينهم من ظلم قريش ، والتجاء إلى المسلمين الجدد بهذه المدينة ، وقد تدفع المسلمون عقب ذلك مهاجرين إلى المدينة إذ كانت الهجرة إليها أيسر بكثير من الهجرة للحبشة ، كانت هجرةً لأرض عربية ولقوم مسلمين ، ولم يكن هناك بحر فى طريقهم .

وكانت الهجرة ليثرب ، سرًّا غالبا وقد هاجر طلحة بن عبيد الله وصهيب بن سنان الرومى معاً ، وكان صهيب ذا مال ، فاتبعته قريش ليقتلوه وليأخذوا ماله ، فلما أشرفوا عليه ونظر منهم ونظروا منه قال لهم : قد تعلمون أنى من أرماكم رجلا ووالله لا تصلون إلى أو يموت منكم عدد كبير ، فاتركونى وشأنى . قالوا : فاترك مالك . فألقى إليهم ما كان معه من مال ، ودلهم على ماله بمكة ليأخذوه ، وأعطاهم دليلا على ذلك ، فانصرفوا عنه إلى مكة ، ونزلت فيه الآية الكريمة « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد » (٣) .

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٢٧٥ ، ٢٧٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٣١١ .
(٣) ابن عبد البر : الدرر فى اختصار المغازى والسير ص ٨٣ والآية رقم ٢٠٧ سورة البقرة .

وقد حاولت قريش بمختلف الوسائل أن تمنع من استطاعت منعه من الهجرة ، وبلغت فى ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجته ، وكانت تحبس من تستطيع حبسه ممن تخشى هربه ؛ ورغم هذا أفلت كثيرون من قريش ودخلوا يثرب ، وقد هاجر عمر بن الخطاب علانية بعد أن تحدى قريشاً وصرخ فيهم قائلا : من أراد أن تثكله أمه . أو ييتم ولده ، أو ترمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى . . . فلم يتبعه أحد (١) :

وكان أبو بكر يستأذن فى الهجرة إلى يثرب فيقول له الرسول : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً ، أما علىّ فيبدو أنه لم يخطر له أن يهاجر ويدع الرسول بمكة .

الهجـــرة

المؤامرة والأذن للرسول بالهجرة الى يثرب :

انزعجت قريش من هجرة المسلمين إلى يثرب ، وخافت أن ينضم محمد إلى أتباعه بها وأن يقيم له مركزاً حصيناً هناك ، وفى هذه الحالة لاتكون المسألة مسألة دين فقط ، بل ستكون مسألة اقتصادية أيضاً ، ربما ترتب عليها ضياع التجارة وخراب البيوت ، فيثرب تقع فى الطريق بين مكة والشام وإذا كانت معادية لقريش تعرضت تجارة قريش إلى الضياع والخسران ، ومن هنا وجدوا أنه لا مناص من أن يعملوا شيئاً هاماً ويخطوا خطوة حاسمة ، لعلهم يقضون على هذا الدين الذى أصبح خطراً على أديانهم وعلى أرزاقهم.

ماذا يعملون ؟

اجتمعوا وتشاوروا فى الأمر ، وقص الله قصتهم فى كلامه العزيز :

---

(١) الرياض النضرة فى مناقب العشرة ج ١ ص ٢٥٩ .

قال الله تعالى : وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » [1] .

وكان أمام قريش أن يسلكوا حلا من هذه الحلول الثلاثة التى وردت فى الآية : هل يحبســون محمداً ؟ لا ، فإن أهله لابد سيقاتلون دونه ويطلقونه .

هل يخرجونه من ديارهم فيذهب بعيداً عنهم ؟ لا ، فلا بد أنه سيتجه إلى يثرب وفى هذا قضاء على تجارتهم وثرواتهم .

لم يبق إلا أن يقتلوه . ولكن كيف يقتلونه وأهله سيقتلون من يقتله ؟ لقد وجد لهم أبو جهل لذلك حلا هو أن يختاروا من كل قبيلة شاباً جلداً ، وأن يشترك هؤلاء الشبان فى قتله ، فتتوزع دماؤه بين العرب فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يثأروا له من الجميع ، ولا يجدون بدأ من قبول الدية[2] .

ذلك رأى وجدوه سليما ، فأخذوا يعدون له العدة ، وفى إحدى الليالى عرفوا أن محمداً أوى لبيته ، فأطلقوا شبانهم ليحيطوا بالبيت وينتظروا حتى يهدأ الناس فينقضوا عليه ويقتلوه .

وبلّغ الله الرسول حديث القوم وتآمرهم ، وأذن له بالهجرة إلى يثرب[3] ؛ وكان الرسول يحس بكثير من الوحشة بمكة بعد هجرة أصحابه ، ولذلك سُرَّ الرسول بهذا الإذن ، وأخبر به أبا بكر ، وطلب أبو بكر من الرسول أن يأذن له فى أن يصحبه فى هذه الرحلة التاريخية فأذن له ، وحينئذ أخذ أبو بكر يعد العدة للرحلة ، وأمر الرسول علياً أن يبيت

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٠ .
(٢) ابن هشام ١ : ٣٩١ وابن القيم ٢ : ٥٢ .
(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٢ .

فى مكانه ليوهم القوم أنه فى فراشه ، ثم ليردّ فى اليوم التالى الودائع التى كانت عند الرسول لأصحابها[1] ثم نثر الرسول على الشبان ترابا من يده وقال : شاهت الوجوه ، فعرتهم غشاوة لحظة خرج فيها الرسول دون أن يروه ، وصدق الله العظيم الذى يقول : فأغشيناهم فهم لا يبصرون .

الرحلة من مكة الى يثرب :

سبق أن قلنا إن أبا بكر أعد العدة للقيام بهذه الرحلة التاريخية ، وكان أبو بكر كالعهد به كريماً وفياً مخلصاً ، فسخر للهجرة كل شيء يملكه أو يشرف عليه .

أعد راحلتين ودفعهما إلى عبد الله بن أريقط ليركبهما الرجلان العظيمان فى رحلتهما البعيده ، وخاطر أبو بكر بنفسه فصحب الرسولَ مع علمه أن قريشاً ستتبعهما وتهتم بالحصول عليهما ، وأمر ابنه عبد الله أن يتسمع لما تقوله قريش عن الرسول ورفيقه نهاراً ثم يأتيهما ليلا بما يكون فى ذلك من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى الغنم نهاره ثم يذهب بالغنم ليلا إلى جبل ثور حيث سيختفى الرسول والصديق ليحتلب لهما ما يحتاجانه من اللبن ، وكلف ابنته أسماء أن تأتيهما كل مساء بما يحتاجان له من الطعام والشراب ، وحمل أبو بكر ماله كله ليكون عوناً للرفيقين فى هذه الرحلة النائية[2] .

أما سير الرحلة فقد وصفه ابن هشام بقوله : جاء الرسول متخفياً إلى دار أبى بكر ، ثم خرجا من خوخة (فتحة صغيرة) فى ظهر بيته ، ولما غادرا مكة وقف الرسول وتطلع إليها وقال : والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت[3]. واتجه الرسول وصاحبه إلى جبل ثور بأسفل مكة ، وعمدا إلى غار فى ذلك الجبل فدخلاه واختفيا فيه .

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣ .
(٢) ابن هشام ج ٢ : ص ٤ وابن القيم ج ٢ ص ٥٣ .
(٣) رواه الترمذى والنسائى . انظر كذلك زاد المعاد ج ١ ص ٨ .

وقفة عند غار ثور :

يقع جبل ثور على بعد حوالى خمسة كيلو مترات جنوب مكة المكرمة : وقد سبق أن تحدثنا عن غار حراء وعن المشقة التى لاقيناها ونحن نصعد الجبل للوصول إلى هذا الغار ، ويمكن القول إن الصعود إلى غار ثور أشق وأصعب ، فهو جبل كثير القمم ، وللوصول إلى غار ثور يتحتم أن يصعد الإنسان إلى قمة من قمم الجبل ، ثم ينحدر بضع عشرات من الأمتار ، ثم يصعد ثانياً قمة أخرى من قمم الجبل ثم يعود للانحدار ، وهكذا عدة مرات إلى أن يصل إلى القمة التى يقع فيها الغار الذى اختبأ فيه الرسول وصاحبه .

وفى جبل حراء ليس هناك إلا غار واحد هو غار حراء . أما فى جبل ثور فهناك عديد من الغيران (جمع غار) وهذا جعل من الصعب البحث فى كل غار عن محمد وصاحبه لكثرتها وانتشارها هنا وهناك ، وربما بحثت قريش فى غار وآخر وثالث ... ثم توقفت لكثرة الغيران وللإحساس بعدم جدوى البحث فيها .

وإذا كان غار حراء يناسب التعبد فإن غار ثور يناسب الاختفاء ، فهو أشبه بكهف منحوت فى الصخر مع فتحة صغيرة أمامية وفتحة صغيرة خلفية ، وتقع الفتحتان إلى أسفل ، ولا يدخله الداخل إلا زاحفاً أو منحنياً ، أما صخرة السقف فهلالية تشبه المظلة (الشمسية) ، وليست هناك فتحات جانبية مما يجعل الماشى بجوار الغار لا يرى مَنْ بداخله ، وطالما تذكرتُ قول الرسول وهو يصف الغار بأن الواحد من الأعداء لو نظر مكان قدميه لرآنا [1] : فمن بالداخل يرى أقدام الماشين فى الخارج ، أما الباحثون بالخارج فلا يرون مَنْ بالداخل إلا إذا انحنوا ووضعوا رءوسهم مكان أقدامهم :

---

(١) صحيح البخارى رواية أنس .

وجبل ثور فى موقع يناسب حال الاختفاء من ناحية أخرى ، هى أنه يوجد فى سفحه سهل به بعض المراعى مما يتيح لعامر بن فهيرة أن يرعى غنم أبى بكر غير بعيد عن الغار حتى يستطيع أن يصعد للغار ليلا يحمل ألبان الأغنام للرسول وصاحبه .

* * *

هذا ما كان من أمر محمد وأبى بكر ، أما كفار قريش فسرعان ماعرفوا حيلة محمد ، وأدركوا أنه فر من مكة واعتقدوا أنه أخذ طريقه إلى يثرب ، فأعلنوا أن من يأتيهم به حياً أو ميتاً له مكافأة قدرها مائة ناقة ، وأسفر العداء ، وانتشر شبان قريش فى الطريق من مكة إلى المدينة يحاولون الظفر بالجائزة وبشرف القبض على عدوهم اللدود ، ووصل بعضهم فى البحث إلى الغار حيث يختفى محمد وصاحبه ، وصاروا بحيث لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآهما ، وقد أحس أبو بكر بالخوف عند ذلك ، لا على نفسه ، ولكن على صاحبه وعلى الحق ، ولكن الرسول طمأنه وهدأ خوفه وقال له : ماظنك يا أبا بكر فى اثنين الله ثالثهما ؟ وقد حكى القرآن الكريم ذلك فى الآية الكريمة « إلاتنصروه فقد نصره الله ؛ إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة الله هى العليا . والله عزيز حكيم »(١) .

ويروى أن العنكبوت نسج خيوطه على فتحتى الغار ، وباض اليمام ، وكأن الله أراد أن يسخر من القوم فسخَّر أضعف الأشياء لتحمى محمداً منهم .

وبعد أن هدأت قريش وظنوا أن الرسول قد وصل إلى يثرب ، بدأ الرسول يخرج من الغار مع صاحبه ، وكان عبد الله بن أريقط قد قدم فى

---

(١) سورة التوبة الاية ٤٠ .

الموعد المحدد ، فركبا وسار بهما عبد الله فى طريق غير مطروق بالقرب من ساحل البحر الأحمر .

ويروى أن أبا بكر فى رحلة الهجرة كان يسبق الرسول مرة ويتبعه مرة أخرى : فسأله الرسول عن ذلك فقال . يا رسول الله ، أذكر الترصد فأسبقك ، وأذكر الطلب فأتبعك (١) .

يثرب تستقبل الرسول :

أما أهل يثرب فكانوا قد عرفوا أن الرسول قد خرج متجهاً إليهم ، وأخذوا ينتظرون ، ولم يظنوا أنه عرج على الغار ، فلما مرت الفترة اللازمة من الوقت للرحلة من مكة إلى يثرب ولم يصل الرسول ؛ بدأ على مسلمى يثرب شىء من القلق والخوف ، وأخذوا يصعدون أعلى الأمكنة المحيطة بيثرب وينظرون لعلهم يرون ركب الرسول ، وظلوا كذلك حتى أطل عليهم وهم فى أشد الشوق واللهفة .

ويروى البخارى بسنده إلى البراء بن عازب قال : مارأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم برسول الله . وروى أبو داود عن أنس قال : لما قدم النبي المدينة لعبت الحبشة بحرابهم فرحا بقدومه وأشرقت المدينة بحلوله فيها وسرى السرور إلى القلوب .

وعنه أيضاً قال : شهدت يوم دخول النبي المدينة فلم أر يوماً أحسن منه ولا أضوأ ، ولقد صعدت ذوات الخدور على الأجاجير (الأسطحة) عند قدومه يقلن تهنئة له حال دخوله :

---

(١) الرياض النضرة ج ١ ص ٩٠ .

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع (١)

وكان دخول الرسول يثرب فى الثانى عشر من ربيع الأول (٢)

وينبغى أن نذكر أن الرسول نزل قُباء قبل أن يدخل يثرب ، وبقى فيها أربعة أيام، وأسس بها مسجد قباء الشهير (٣)، وقد لحق على بن أبى طالب بالرسول فى قباء بعد أن رد الودائع إلى أصحابها ودخل علىٌّ يثرب فى موكب الرسول (٤) .

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء فى محلَّة بنى عمرو بن عوف من يوم الإثنين وخرج من بين أظهرهم يوم الجمعة فأدركته الجمعة فى بنى سالم ابن عوف فصلاَّها فى بطن الوادى ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة فأتاه عتبان بن مالك وعباس بن عُبادة ، فى رجال من بنى سالم بن عوف فأمسكوا بزمام الناقة وقالوا : يا رسول الله أقم عندنا فى العَدَد والعدة والمنعة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة فخلوا سبيلها ، فسارت بعد أن خلوا سبيلها وانطلقت ، حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت فى المكان الذى بمسجده صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ ملك لغلامين يتيمين من بنى النجار هما سهل وسهيل ابنا عمرو ، وكانا فى حجر معاذ بن عفراء ، فلما بركت الناقة ورسول الله عليها لم ينزل ، ثم وثبت فسارت غير بعيد ورسول الله واضع لها زمامها لا يثنيها به . ثم التفتت إلى خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه ، ثم تلحلحت وأرزمت (أحدثت صوتاً) ووضعت جرانها (مقدم عنقها) على الأرض ، فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه

---

(١) هذا هو الشائع حول هذه الابيات ، ويروى ابن القيم أن أهل المدينة استقبلوا الرسول بهذه الأبيات عند عودته من غزوة تبوك لأن ثنيات الوداع تقع شمال المدينة (انظر زاد المعاد ٣ : ١٣) وذوق الشعر أميل لوقوعها متصلة بالهجرة .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ص ٧٥ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩ وفى زاد المعاد لابن القيم أن الرسول بقى فى قباء أربعة عشر يوماً (انظر ح ١ ص ٢٥) وانظر ابن هشام ٢ : ١١ .

(٤) ابن هشام ٢ : ١٠

وسلم فاحتمل أبو أيوب الأنصارى رَحْلَ الرسول إلى بيته ، وبقى الرسول فى بيت أبى أيوب سبعة أشهر بنى خلالها مسجده فى المكان الذى بركت فيه الناقة . كما بنى حول المسجد حجرة لزوجته سودة ، ثم حجرة أخرى تزوج فيها الرسول من عائشة .

ويروى أن الرسول سأل عن مالك الأرض التى بركت فيها الناقة ، فقال له معاذبن عفراء : هى يا رسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو وهما يتيمان فى حجرى ، وسأعطيهما بدلها ، وقد ظل الرسول يتابع هذا الأمر حتى تأكد من وصول البدل المناسب للغلامين(١) وأصبحت يثرب من يوم الهجرة تعرف بالمدينة(٢) .

دروس من الهجرة :

فى دراسة التاريخ الإسلامى نماذج رائعة جديرة بأن يُقتدى بها وننتفع بما فيها من خلق طيب ، فالانتفاع بما فى التاريخ من أمثلة ممتازة هدف مهم من أهداف دراسة هذه المادة ، والهجرة حدث عالمى لم يقلل من أهميته أحد من المسلمين ولا من أعداء الإسلام ، وبالهجرة صور بديعة أخلاقية جديرة أن نقف عندها وقفة نفصل بعض الشىء ما أجملناه عند الحديث عنها لنرى ألواناً زاهية من الإيثار والتضحية والوفاء .

فى القمة من الدروس التى نقتبسها من الهجرة عظمة محمد التى تجلّت فى قوة عزيمته وصبره على الشدائد دون أن يتطرق اليأس إلى قلبه حتى فى أحلك الأوقات ، وقد ظل يكافح ، فنجح كثيراً وناله أحياناً بعض الفشل ، ولكنه انتفع بالنجاح وبالفشل ، انتفع بالنجاح بتنميته والحرص عليه ، وانتفع بالفشل بأن حاول جاهداً ليجد طريقاً آخر يحقق خلاله ما فشل فى تحقيقه من قبل ، فحين ضعف أمله فى الفوز بمكة أسرع فترك مسقط

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٠٣ .
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٨٣ .

رأسه ؛ وترك متاعه وأهله إلى أرض جديدة أكثر خصوبة وأكثر استعداداً للنبت الصالح ، إنها العقيدة ، أهم عند الأبطال من راحتهم ومن حياتهم .

ومن الدروس الرائعة إخفاء موعد الهجرة تماماً عن كل الناس ما عدا أبا بكر ، فجاءت الهجرة مفاجأة ساعدت على نجاحها .

ومن هذه الدروس أنه عليه السلام ترك علياً فى فراشه ، وذلك للتمويه وتضليل الأعداء مما ساعد على تحقيق الهدف .

ومن الفراسة البارعة تلك الحيلة أو تلك الحيل التى قام بها الرسول وصاحبه لتضليل المطاردين ، فقد كان الرسول يدرك أن جماعات قريش ستنتشر فى طريق يثرب باحثة عنه ، محاولةً الحيلولة بينه وبين هدفه ، ولذلك نجده يقوم بمجموعة من الحيل البارعة التى ضمنت له النجاة ؛ كما يلى :

أولا — بدل أن يصعد إلى الشمال حيث سيوجِّه القوم اهتمامهم ، يهبط قليلا إلى الجنوب ، حيث سيقلُّ البحث عنه فى هذا الاتجاه .

ثانياً — لا يأخذ طريقه مباشرة إلى المدينة وإنما يلجأ للغار بضع ليال حتى يتعب الباحثون ويعودوا دون أمل إلى دورهم .

ثالثا — لا يسير فى أحد الطريقين العاديين بين مكة والمدينة ، وإنما يتخذ طريقاً ثالثاً يقل أو ينعدم فيه السير حتى لاتصل أخباره إلى قريش .

وبجانب الرسول نجد الهجرة تعلمنا درساً خالداً فى الوفاء عند الشدة ، يضربه لنا أبو بكر الصديق ، فكم تخلى صديق عن صديقه عند الأزمات خوفاً أن تمتد له هذه الأزمات أوتصيبه بمكروه ، ولكن أبا بكر سخَّر — كما قلنا آنفاً — كل شىء يملكه أو يشرف عليه لتنجح الهجرة ، وقد شمل ذلك نفسه وابنه وابنته وماله ومتاعه . ومن أجمل ما يروى فى ذلك ما سبق أن ذكرناه من أن أبا بكر وهو فى طريقه إلى الغار مع الرسول جعل مرة

يمشى أمام الرسول ومرة يمشى خلفه ، فسأله الرسول عن السبب فأجاب : أذكر الترصُّد فأمشى أمامك ، وأذكر الطلب فأمشى خلفك(١) .

ويضرب لنا على بن أبى طالب مثلا لامعا فى التضحية والإيثار . لقد قَبِلَ علىٌّ عن طيب خاطر أن ينام فى فراش الرسول مع أن الموت كان قاب قوسين أو أدنى ممن ينام فى هذا الفراش .

فعلى الإنسان المسلم أن يتعلم هذه الدروس ، وأن ينتفع بها فى حياته ، وأن يسير على الهدى الذى رسمه له هؤلاء القادة وأولئك الصفوة من بناة الإسلام ، لينالوا الخير فى الدنيا والآخرة .

الهجرة قلبت موازين القوى :

وبنجاح الهجرة أصبح المسلمون أقوى من أعـــدائهم ، ولم يعودوا يحتملون العدوان بل واجهوا المعتدين وكسروا شوكتهم ، ويوماً بعد يوم استسلمت قريش وحملت الراية مع المسلمين ، وانهار اليهود بعد فيض من التضحيات جعل حقدهم ضـــد العرب والمسلمين ينمو ويزداد ، وأحس أباطرة فارس والروم بأن نوراً جديداً انبثق من قلب الجزيرة العربية ، وأنه يسير كالطوفان قوة واندفاعا ، فحاولت الدولتان الوقوف أمامه ، ولكن نور الحق كان أصلب عوداً ، وكانت الدولتان أضعف من مواجهته ، أما قيادات الروم فقد فرَّت من الميدان ، وتركت ســوريا ومصر والشمال الإفريقى ليغمرها نور الإسلام ، وأما بلاد فارس فاستسلمت عسكريا بسرعة غير متوقعة ، ولكن قادتها بدءوا يثيرون المتاعب والشبهات والشكوك منذ عهد الفتح إلى الآن فى حركات الشعوبية ، والباطنية ، والزنادقة ، والزنج ، والقرامطة ، والدرزية ، والبابية والبهائية ، والخمينية . وقد واجه المسلمون هذه الحركات بحزم من جيل إلى جيل .

لقد كانت الهجرة مطلع النور والقوة ، وستظل ذكراها تبعث الهمم بين جماعات المسلمين إلى الأبد .

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ح ٢ ص ٥٣ .

الرسول فى المدينة

مقـــدمة :

كانت فترة المدينة – كما قلنا من قبل – حافلة بجلائل الأعمال فى مختلف المجالات ، ونسجل فيما يلى أبرز مواقف الرسول فى هذه الفترة :

الرسول نفسه يؤرِّخ بالهجرة

عقب الهجرة أصبح العام الذى هاجر فيه الرسول بدءا للتاريخ الإسلامى أو التاريخ الهجرى ، وقد كان العرب كغيرهم يؤرخون بالأحداث الكبرى ، ولا شك أن الهجرة كانت من أكبر الأحداث ، فأرخ بها المسلمون منذ وقوعها كما أرخ العرب من قبل بعام الفيل وغيره من الأحداث العظام .

ويروى الطبرى(١) أن الرسول لما قدم المدينة أمر بالتأريخ بالهجرة .

وذكر القلقشندى(٢) أن ابتداء التأريخ بالهجرة حدث منذ العام الأول للهجرة .

ويؤكد السيوطى أن الرسول لما كتب لنصارى نجران ، أمر عليا – وكان يكتب له – أن يذكر أنه كُتب لخمس من الهجرة .

وقد شاعت نسبة وضع التاريخ الهجرى إلى عمر بن الخطاب ، ويبدو لى أنه ليس هناك خلاف يذكر ؛ فالعرب – كما ذكرنا – كانوا يؤرخون بالأحداث الكبرى ، وقد أرخوا بالهجرة تبعا لذلك منذ حدوثها ؛ ولكن دور عمر كان أن تثبّت الهجرة لتكون مبدءاً للتاريخ عند المسلمين بحيث لا يترك التأريخ بها إلى أى حادث آخر يجىء بعدها ، ولعل عمر شاهد محاولةً للتأريخ بسقوط دولة الفرس فى يد المسلمين أو دخول المسلمين دمشق ، فأعلن ألا شىء يعدل الهجرة لأنها باب الفتح والنصر . وثبّتها مبدءاً للتاريخ

---

(١) تاريخ الامم والملوك جـ ٢ ص ١١٠ – ١١٤ .

(٢) صبح الأعشى جـ ٦ ص ٢٤٠

الاسلامى ، ومما ينسب إلى عمر كذلك مرتبطا بالتأريخ بالهجرة أنه جعل بدء السنة الهجرية شهر المحرم فى حين أن هجرة الرسول تمت فى شهر ربيع الأول ، فقضى عمر بذلك على خلاف ظهر بين الناس ، إذ عد بعضهم شهرى المحرم وصفر (من السنة التى تلت الهجرة) عاما ثانيا ، وعدهما بعضهم عاما أول لأن الهجرة لم يمر عليها عام . واستمر هذا الخلاف على مر السنين ، فقضى عمر على هذا الخلاف بأن أعلن اعتبار السنة التى هاجر فيها الرسول كلها سنة أولى . وأن مطلع المحرم من العام الثانى يعتبر مطلع عام ثان على اعتبار أن الهجرة كأنها حدثت فى مطلع العام ، وهو اتجاه ساد بعد ذلك وأصبحنا نحتفل بالهجرة فى مطلع المحرم ، ولعل ذلك أيضا مما جعل التأريخ بالهجرة ينسب إلى عمر .

أسرة الرسول وأسرة أبى بكر

يقول البلاذرى : عقب الهجرة وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا رافع وزيد بن حارثه إلى مكة لحمل فاطمة وأم كلثوم ابنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسودة زوجته وأخذ من أبى بكر خمسمائة درهم فدفعها إليهما لما يحتاجون إليه ، وأعطاهما بعيرين وكتب أبو بكر رضى الله عنه إلى عبد الله ابنه يأمره بحمل أم رومان امرأته ، وعائشة وأسماء ابنتيه وتوجه مع زيد وأبى رافع عبدُ الله بن أريقط ، فوافوا طلحة بن عبيد الله يريد الهجرة فتصاحبوا إلى المدينة ، فخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة ، وحبس زينبَ زوجُها أبو العاص بن الربيع ، وكانت رقية قد هاجرت من قبل مع زوجها عثمان بن عفان ، وحمل زيد أيضا امرأته أم أيمن وأسامة بن زيد ابنه ، وخرج عبد الله بأم رومان وأختيه عائشة وأسماء ، فقدموا المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبنى المسجد ويبنى بيوته حول المسجد ، وكان طلحة حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم موجودا بالشام ، فلما عاد إلى مكة وجد أن الرسول قد هاجر للمدينة فهاجر مع أسرة النبى صلى الله عليه وسلم وأسرة أبى بكر .

وكان عند أبى بكر عندما أسلم أربعون ألف درهم ، ولما خرج إلى المدينة للهجرة لم يكن يملك إلا خمسة آلاف درهم ، فبعث ابنه عبد الله فحملها إليه إلى الغار ، فمضى بها معه(١) .

المــؤاخاة

ابتكر الرسول صلوات الله عليه نظام المؤاخاة فى الإسلام ، وجعـل لهذه المؤاخاة قوة أخوَّة النسب بما فى ذلك الميراث . وقد بدأ هذا الاتجاه فى مكة قبل الهجرة ، فقال الرسول لأصحابه : تآخوا فى الله أخوين أخوين ، وأخذ على بن أبى طالب وقال : هذا أخى .

وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد إن حدث به حادث الموت .

فلما هاجر المسلمون إلى المدينة اتسع نطاق المؤاخاة بين المسلمين ، فجدد الرسول مؤاخاته لعلى بن أبى طالب ، وجدد حمزة مؤاخاته لزيد بن حارثه ، واتجه المسلمون إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لتقوية المهاجرين من جانب ، وتخفيف مشكلاتهم الماليـة من جانب آخر ، ثم لمساعدتهم فى احتمال مشكلات الغربة التى ظهرت بعد الهجرة ، وتمت المؤاخاة على النحو التالى :

أبو بكر تآخى مع خارجة بن زهير الخزرجى .

عمر بن الخطاب تآخى مع عتبان بن مالك الخزرجى .

أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح تآخى مع سعد بن معاذ من بنى الأشهل.

عبد الرحمن بن عوف تآخى مع سعد بن الربيع الخزرجى .

عثمان بن عفان تآخى مع أوس بن ثابت من بنى النجار .

طلحة بن عبيد الله تآخى مع كعب بن مالك من بنى سلمة .

---

(١) البلاذرى : أنساب الاشراف ص ٢٦٩ - ٢٧٤ و ٢٦١ .

وتآخى بلال مؤذن الرسول وهو مولى أبى بكر مع أبى رويحة القشعمى .

. . . . (١)

وقد ظل التوارث يتمّ بين هؤلاء حتى نزلت الآية الكريمة « وأولى الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » فبدأ بذلك الميراث بالنسب والمصاهرة ، ثم جعل الله سبحانه وتعالى المؤمنين جميعا أخوة فى التواد وشمول الدعوة بقوله تعالى : « إنما المؤمنون أخوة(٢) » .

متاعب اقتصادية بالمدينة

عقب الهجرة

إن الدارس لشئون المدينة قبل الهجرة يدرك أن أهم ثرواتها كان فى أيدى اليهود إذ كانت الحركة التجارية فى أيديهم ، وكانوا يبتزّون الكثير من أموال الأوس والخزرج عن طريق الربا . كما كانوا يصنعون السلاح ويبيعونه العرب الذين كانوا فى حرب توشك أن تكون مستمرة ، وكانت أكثر الأراضى الزراعية والبساتين فى أيديهم ، مما يجعلنا نقرر أن أغلب ثراء المدينة كان فى أيدى اليهود ، وأن الأنصار كانوا يعيشون فى حياة كفاف غالبا .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الأنصار فتحوا بيوتهم للمهاجرين . وأن زحفا من الأسر المهاجرة غمر المدينة المنورة ، فإننا ندرك ما عاناه المهاجرون والأنصار جميعا من متاعب اقتصادية فى مطلع الهجرة ، ولكن الحال سرعان ما تغيرت . فإن المهاجرين قدموا من مكة ، ولمكة وأهلها شهرة واسعة فى مجال التجارة والمال ، وكان المهاجرون يتجهون للاعتماد على أنفسهم ،

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ١٠٩ – ١١٠ تحقيق طه عبد الرءوف .

(٢) البلاذرى : أنساب الاشراف ص ٢٧٠ والآية الاولى رقم ٧٥ من سورة الانفال والآية الاخيرة رقم ١٠ من سورة الحجرات .

ولا يريدون أن يصبحوا عالة على الأنصار ، ويروى أن عبد الرحمن بن عوف نزل على سعد بن الربيع ، وأكرمه سعد كل الإكرام ، واتسعت دار المضيف وثروته للضيف ، ولكن عبد الرحمن سرعان ما صاح بمضيفه قائلا: جزاك الله خيرا من مضيف سمح ، ولكنى أرجو أن تدلنى على السوق واندفع عبد الرحمن إلى السوق بخبرة أهل مكة وحماستهم ، وسرعان ما أصبح من الأغنياء ، وسلك كثيرون مسلك عبد الرحمن ، فقد اتجه أبو بكر لبيع الثياب ، واتجه عثمان للتجارة فى المحاصيل الزراعية والفاكهة ، فكان يشترى البساتين ويبيعها ، وامتد نشاطه إلى الشام ، واتخذ الزبير مجزرا له فى البقيع ، وعمل عمر وسيطا بين التجار ، ورجّح الإسلام كفة المسلمين فى الميدان التجارى ، إذ حرص المسلمون على اتباع تعاليم الإسلام ؛ فلا غش فى البيع والشراء ولا ربا ، ولا تطفيف لكيل أو ميزان ، ومن هنا اتجه أكثر المتعاملين للمسلمين ، وقلّ الإقبال على اليهود ، وكان ذلك من الأسباب التى أثارت الحقد فى نفوس اليهود ، وجعلتهم يكيدون للمسلمين بكل الوسائل والطرق .

معاهدة التعاون بين المسلمين وغير المسلمين

كان سكان المدينة بعد الهجرة ثلاث طوائف هم :

١ — المسلمون من المهاجرين والأنصار .

٢ — اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة .

٣ — العرب الذين لم يدخلوا الإسلام بعد .

وقد أراد الرسول أن يخلق جوا للتعاون والتسامح بين هذه الطوائف وبخاصة مع اليهود الذين كانوا يمثلون عنصرا مهما فى المدينة ، فتقرّب لهم الرسول ووثّق صلاته بهم ، وتحدث مع رؤسائهم ، وربط بينه وبينهم برابطة المودة باعتبار أنهم أهل كتاب موحدون ، وبلغ من ذلك أن كان يصوم يوم

رهم «عاشوراء» وأثرعنه جميل عطفه عليهم، وفيض بره بهم[١]، وكل هذا مهد لعقد معاهدة بين المسلمين وغيرهم لتصبح المدينة وحدة واحدة تدافع عن كيانها وتواجه أعداءها وتتعاون تعاونا كاملا فى داخلها، وقد أورد ابن هشام نص هذه المعاهدة[٢] وقدم ابن هشام لها بقوله: وَادَعَ الرسول اليهود فى هذه المعاهدة وعاهدهم وأقرَّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم. وخلاصة هذه المعاهدة هى:

١ — أن للجماعة شخصية دينية وسياسية ومن حق الجماعة أن تعاقب المفسد وأن تؤمن المطيع.

٢ — إن الحرية الدينية مكفولة للجميع.

٣ — على سكان المدينة من مسلمين وغير مسلمين أن يتعاونوا ماديا وأدبياوعسكرياً، وعليهم أن يردوا متساندين أى اعتداء قد يوجَّه لمدينتهم.

٤ — الرسول هو الرئيس الأعلى لسكان المدينة وتُعرض عليه القضايا الكبرى وصور الخلاف بين طائفة وأخرى ليفصل فيها.

وعلى الرغم من موقف المسلمين السمح كان اليهود غير مخلصين لهذه المعاهدة، ويبدو أنهم قبلوها ربما يدبرِّون أمرهم كما سنرى عند الحديث عن علاقة المسلمين باليهود.

الحمَّى تصيب المهــاجرين

عقب الهجــرة

يقول ابن هشام[٣] إن يثرب كانت أوبأ أرض الله من الحمى، فلما

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل: حياة محمد ص ٢٢٠

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٢ ص ١٠٦ وما بعدها.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٦٩ — ١٧٥ (تحقيق طه عبد الرءوف) وتلك هى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى دراساتنا الجديدة عن موضوعات «الرسول فى المدينة» وفيما عدا ذلك فان اعتمادنا كان على طبعة [illegible]

قدم المهاجرون إلى يثرب ، ولم تكن بهم حصانة ضد أوبئة يثرب أصيبوا بالحمى والمرض ، وصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم . قالت عائشة رضى الله عنها : دخلت على أبى ومعه عامر بن فهيرة وبلال فى بيت واحد فوجدتهم قد أصيبوا بالحمى ، وسألت أبى عن حاله فقال :

كل امرىء مصبَّح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله

وبمثل هذا كان يشكو عامر بن فهيرة وبلال ، وتستمر عائشة فتقول : ذكرت ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ، فاتجه الرسول إلى ربه داعيا : يارب حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مُدِّها وصاعها ، وانقل عن المدينة وباءها ، وأراد الرسول أن يشجع المهاجرين على مقاومة المرض فدعاهم للصلاة معه ، وأدرك أن أكثرهم يريدون أن يصلوا وهم قعود فقال لهم : اعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم . فتجشم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف والسقم التماسا للأجر والفضل ، وبسبب دعاء الرسول صلوات الله عليه وبمقاومة المسلمين زالت الحمى وعادت السلامة .

وكانت هذه الحمى مع ما عاناه المهاجرون من الحاجة والغربة اختباراً من الله للمسلمين صمد فيه المسلمون ، وظهروا أبطالا يتحملون كل عناء من أجل العقيدة وصدق الله العظيم الذى يقول : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون[١] » .

ومما حدث للمسلمين فى أول العهد بالمدينة أن مرت عدة شهور لم تلد المهاجرات خلالها أى مولود ، وقد اتخذ اليهود والمنافقون ذلك وسيلة للتقليل من شأن المسلمين وتهديدهم بالانقراض ، وفى السنة الثانية للهجرة ولد أول مولود بالمدينة من أصحاب رسول الله وهو عبد الله بن الزبير ، ففرح المسلمون به ، وتلاه أطفال آخرون ، فخرست ألسنة الباطل[٢] .

---

(١) سورة العنكبوت الاية الاولى .

(٢) البلاذرى : أنساب الاشراف ص ٢٧٢

الرسول يبنى المساجد للعبادة والدعوة

كان من أسرع الأعمال التى قام بها الرسول عقب الهجرة بناء المساجد ، ولعل سبب التبكير بإنشاء المسجد هو أن المسلمين أحسوا بأن البيوت تضيق باجتماعاتهم ولا تمنحهم حرية العبادة واللقاء كما يشتهون ، ومن هنا أسسوا المسجد وأطلقوا عليه « بيت الله » إشارة إلى أن الداخل فيه لا يحتاج إلى استئذان أو استئناس ، ثم إن العرب قبل الإسلام كانوا يتخذون البيت الحرام متعبدا لهم ، ذلك البيت الذى رفع إبراهيم وإسماعيل قواعده ، والذى أصبح كعبة يحج لها العرب من أصقاع الجزيرة العربية كلها ويتعبدون فيها ، ولما انحرف العرب عن عبادة الله وعبدوا الأصنام جعلوا الكعبة مقرا لأصنامهم ، فكان يلتقى فى العبادة بالكعبة الموحدون من العرب ، وعبدة الأصنام ، فلما جاء الإسلام عظّم المسلمون البيت الحرام أيضا وأجلّوه حتى قبل أن تزول منه الأصنام ، فقد اتخذ الرسول مصلاه فيه بين الركنين : الركن الأسود والركن اليمانى .

فلما أخرج المسلمون من مكة وحُرموا الالتقاء والعبادة فى البيت الحرام فكروا سريعا فى أن يعتاضوا به مكانا آخر ، بل أمكنة أخرى يجتمع فيها المسلمون فى كل صقع أو بلد للعبادة والدعوة . . ولهذا فإن الرسول وهو فى طريقه إلى المدينة مهاجرا ، أقام بقباء أربعة أيام وأسس فيها مسجد قباء ، وهو أول مسجد أسس فى الإسلام ، ويقال إن فيه نزلت الآية الكريمة « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا[1] » .

فلما وصل الرسول المدينة ، وبركت ناقته فى الأرض الفضاء التى تحدثنا عنها

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٩ وانظر فى ذلك ابن هشام والطبرى والتربية الاسلامية

أقام الرسول مؤقتا فى بيت أبى أيوب الأنصارى ، وبدأ دون تأخير فى بناء مسجد المدينة وبناء حجرتين حول المسجد لزوجته سودة ولزوجته المرتقبة عائشة .

مسجد الرسول بالمدينة وصفته : —

كان مسجد الرسول صغير المساحة فقد كان طوله حوالى ٣٥ ذراعا وعرضه ٣٠ ، وكان محاطا بجدار من اللبن أساسه من الحجارة ويبلغ ارتفاعه حوالى ثلاثة أذرع ، ولم تكن أرض المسجد مفروشة بشىء ، فلما نزل المطر فرشوا الأرض بالحصا ليتحاشوا الطين ، ولم يكن للمسجد سقف إلا ناحية منه أقيمت بها أعمدة من جذوع النخل وسقفت بالجريد إذ كان يعيش بها أهل الصفة الذين تفرغوا للعبادة ومذاكرة الدين معرضين عن ترف الحياة وزينتها ، وكان سقف بيوت الرسول التى تحيط بالمسجد غير مرتفع ، ويقول الحسن بن أبى الحسن : كنت أدخل بيوت الرسول وأنا غلام مراهق فأنال السقف بيدى ، وكان الرسول يبنى حجرة لكل زوجة يتزوجها تُضَمُّ إلى حجرات أمهات المؤمنين .

وقد بقيت بيوت زوجات الرسول حتى توفيت آخر واحدة من أمهات المؤمنين فى عهد الدولة الأموية ، فقام الخليفة عبد الملك بن مروان أو ابنه الوليد بهدم هذه الحجرات وضم مساحتها إلى المسجد ، وقد توالى توسيع المسجد وتجميله بعد ذلك على مر الزمن حتى أصبح تحفة فنية رائعة .

مساجد الرسول :

اهتم الرسول ببناء المساجد فى كل الأمكنة التى زحف الإسلام لها فيما بين المدينة وتبوك ، ويعدد ابن هشام[1] مساجد الرسول فيذكر أنها وصلت

---

(١) سيرة ابن هشام : ح ٢ ص ١٢٩

ثمانية عشر مسجدا ؛ وربما جاز لنا أن نستطرد قليلا لنذكر أن المساجد زادت بعد ذلك وانتشرت مع انتشار الإسلام ، وأصبح من المتبع أن يُبنى مسجد أو أكثر فى كل مكان دخله المسلمون أو فى كل قرية أو مدينة أسسوها ، فقد روى أن عمر لما فتح البلدان كتب إلى أبى موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ، ويتخذ القبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة ، وكتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك[1] ومن الشرف لمصر أن نقرر أن مسجد عمرو بن العاص بمصر هو أقدم مسجد بقارة إفريقية .

أغراض المسجد :

كان مسجد الرسول متعدد الأغراض ، فقد كان — كما قلنا آنفا — يسمى « بيت الله » وفى هذا البيت كان المسلمون يلتقون للعبادة والاعتكاف ، والتعلم والقضاء ، وكان الرسول يجمع فيه المسلمين إذا أراد أن ينفر للحرب ، وأقام به خيمة فى غزوة الأحزاب لعلاج المصابين مما كان أساسا للمستشفيات الإسلامية المرتبطة بالمساجد ، ومن أجل هذا ينبغى أن نعود بمساجد اليوم إلى روح الاتجاه الذى بنى عليه مسجد الرسول بالمدينة المنورة نريد أن يكون مسجد اليوم « مجمّعا » به — بجانب العبادة — مكتبة إسلامية وثقافية ، وبه قاعة للمحاضرات والاجتماعات ، تعمل لارشاد الكبار ، وأحيانا لمساعدة التلاميذ والطلاب على النجاح فى الامتحانات ، وبه استعدادات صحية تصغر أو تكبر حسب القدرة ، وحوله مكان للشبان يمارسون فيه بعض الألعاب الرياضية المباحة حتى إذا أذن المؤذن للصلاة هرعوا لأدائها ، ونريد أن يكون فى كل مسجد مكان للنساء به نفس الوسائل والتيسيرات الخاصة

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٤٦ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ، ص ١٤٩ .

بالرجال كدورات المياه ، وأماكن الاستماع للدروس والمحاضرات ، فالدين الإسلامى ليس للرجال فقط ، والمرأة المسلمة المتدينة ستحث أولادها على ارتياد المسجد ، وستلقنهم التعليمات الإسلامية الأولى إذا شُغل الأب عن هذا الواجب بصراعه فى الحياة ، وكل مسجد ليس به مكان للمرأة فهو مسجد ينقصه شىء مهم ، ويمكن أن يكون هذا المكان بدور علوى مستقل أو بقطاع خاص من المسجد ، له مدخل مخصص للنساء ، وقد كانت النساء على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تصلين خلفه فى المسجد كما سنرى فيما بعد ، إننا إذا فعلنا ذلك بمسجد اليوم نخلق مركزا دينيا سيكون واسع الأثر فى خدمة الإسلام والمسلمين كما كان مسجد الصدر الأول للإسلام .

مظهر المسجد :

أما عن مظهر المسجد فإن حديث الرسول يحدده ، يروى أنه قال لصحبه : ابنوا لى عريشا كعريش موسى ، ثمامات وخشبات ، وظُلّة كظلة موسى . فقالوا له : وما ظلة موسى ؟ فأجاب : كان إذا قام أصاب السقف رأسه . ويعلق أحد الباحثين على هذا الحديث بقوله : قصد الرسول بقوله هـذا أن يبنى له مسجد متواضع ليس فيه شىء من زينة الدنيا(١) .

وقد اقتدى عمر بن عبد العزيز بالرسول صلوات الله عليه فى هـذا المجال ، فقد كان يكثر من المساجد ولكن لم يكن يتأنق فى تشييدها ، ولما طلب منه أن يدفع مبلغا لتزيين مسجد أجاب : لأن أنفقه على أكباد جائعة أحب إلى من أن أنفقه على الجدران والأثاث(٢) .

---

(١) أحمد التاجى : سيرة النبى العربى ح ١ ص ٣٢٩ – ٣٣٠

(٢) انظر الجزء الثانى من موسوعة التاريخ الإسلامى للمؤلف ص ٨٨

ذلك هو أصل التفكير الإسلامى فى هذا الموضوع ، ولكن لا بأس من فخامة المبانى إذا كان ذلك يهيء المساجد لتأدية الأغراض التى طرأت فى العصر الحاضر كقاعات المحاضرات وكمكان المكتبة الإسلامية .... ولا بأس كذلك فى تقديرى إذا كان ذلك فى مواجهة منافسة دينية ، فإذا عنى المسيحيون أو اليهود أو البوذيون بكنائسهم ومعابدهم فى قرية من القرى أو مدينة من المدن ، فإن المسلمين لا يقنعون بمسجد متواضع الشكل لا يمكن أن ينافس هذه المعابد التى تبرز أحيانا بهيجة متلألئة .

ومعنى هذا أنه ليس هناك ما يدعو لتشييد مساجد ضخمة فى قرى ليست فيها منافسة دينية ، وبخاصة إذا كانت هذه المساجد غير مستوفاة لمظاهر النشاط الدينى ، أو كانت بنيت على حساب فقراء يحتاجون لما أسهموا به من مال فى سد حاجة أو كبد جائعة ، وفى ريفنا المصرى مثل شائع يقول « الذى يلزم لبيتك يحرم على الجامع » وهو مثل ينطبق تمام الانطباق على التفكير الإسلامى .

الأذان :

يقول ابن هشام[1] نقلا عن ابن إسحق : إن الرسول صلى الله عليه وسلم اطمأن بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين والأنصار ، واستحكم أمر الإسلام ، وأقيمت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام ، وفرض الحلال والحرام . . . وكان المسلمون يجتمعون للصلاة فى أول مواقيتها بدون دعوة ، فكان منهم من يتأخر لعدم معرفته بدخول الوقت ، فهمّ الرسول أن يستعين ببوق كبوق اليهود ، ولكنه كره ذلك ، ثم هم أن يستعين بناقوس وأراد عمر أن يشترى خشبتين للناقوس ، ولكنه نام قبل أن يفعل فرأى فى المنام من يقول له : لا تستعملوا الناقوس ، بل أذنوا (الله أكبر

---

(١) السيرة النبوية ح ٢ ص ١١١ - ١١٢ (تحقيق طه عبد الرءوف) .

الله أكبر . . . .) فذهب عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليخبره بذلك ، فما راع عمر إلا بلال يؤذن بنفس الكلمات ، وقال الرسول لعمر حين أخبره بما رأى فى المنـــام : قد سبقك الوحى .

ويروى ابن هشام رواية أخرى تذكر أن الذى رأى الرؤيا هو عبد الله ابن زيد الخزرجى ، وأنه ذهب إلى الرسول بذلك ، فقال الرسول : إنها رؤيا حق ، قم مع بلال فألق عليه كلمات الأذان كما رأيتها فى المنام ليؤذن بها ، فإنه أقوى صوتا ، ولما سمع عمر كلمات الأذان جاء للرسول يقول له : والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت فى منامى مثل ما أرى الآن فى يقظتى .

ويروى ابن هشام(١) كذلك عن امرأة من بنى النجار أن بيتها كان أعلى بيت حول المسجد ، فكان بلال يؤذن عليه للفجر ، وكان قبل الفجر يدعو ويسبح بصوت رقيق حتى يدخل موعد الفجر فيؤذن بالأذان ، وتقول هذه المرأة والله ما علمته كان يترك ذلك ليلة واحدة .

المساجد ومكبرات الصوت :

وبمناسبة الحديث عن الأذان ينبغى أن نقول كلمة عن مكبرات الصوت التى خلقها الفكر الحديث ، ورأيى أنه لا مانع من استعمال مكبرات الصوت فى الأذان ، فرفع الصوت بالأذان عمل إسلامى لإبراز دخول وقت الصلاة ، أما فيما عدا الأذان فلا يقر الفكر الإسلامى استعمال هذه المكبرات حتى لا يؤذى عالم يبحث أو طالب يذاكر أو مريض يعانى ، والقرآن الكريم يقول « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا(٢) » .

---

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ١١٢

(٢) سورة النساء الاية ١١١

والعجيب فى سوء استعمال هذا الجهاز أن الناس يثبتونه خارج المجتمعات والسرادقات ليصرخ لمن لا يجلسون للاستماع ، فيتأذى به الكثيرون ، وإذا قرىء القرآن الكريم فمن واجب المسلمين الاستماع له قال تعالى « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا[1] » ولكن ما العمل إذا كان الإنسان يعمل لكسب عيشه ؟ أو يذاكر لامتحان ؟ أو نحو ذلك فمن المسئول عن إذاعة القرآن الكريم لمن هو ليس مستعدا فى هذا الوقت لتلقى القرآن الكريم .

لقد أسيء استعمال هذا الجهاز وأكبر إساءة له توجد فى مصر وحدها ، وإن ما يخسره مستعملو هـــذا الجهاز أكثر جداً ممـا يكسبون ، فليت الناس يفهمون .

القبلـــة :

هناك موضوع مهم يتصل بالمسجد ذلك هو موضوع القبلة ، وفلسفة الإسلام تقضى بخلق روابط بين المسلمين بعضهم والبعض فى أكثر أمور الدين والدنيا ، فهم جميعا يصومون شهر رمضان ويصلون صلوات موحدة ، ويحجون إلى بيت الله العتيق ، وهكذا ، ومن هذه الأشياء أن يتجه المسلمون جميعا إلى مكان واحد وقت الصلاة ، ليحصل التجانس بين صفوف المصلين وبخاصة فى صلاة الجمعة والجماعة والصلاة فى المسجد أو نحو ذلك ، لتَطَّرِد الوحدة التى عنى بها الإسلام ، أما المكان الذى اتجه له المسلمون فى صلاتهم قبل الهجرة ، فهو الكعبة لأنها بيت الله العتيق . وبناء إبراهيم ، وموضع فخار العرب .

غير أن بعض المسلمين الأول ظنوا فى اتجاههم للكعبة أن المكان نفسه معظم ، فأراد الله أن يعلمهم أن اتجاههم إنما هو فى الحقيقة لوجهه تعالى ، وليس فضل الكعبة إلا لأن هذا المكان شهد دين إبراهيم وشهد عبادة الله منذ آلاف السنين ، ولكن إذ تعلق بعض العرب بالكعبة تعلقا

---

(١) سورة الاعراف الآية ٢٠٢

ذاتيا ، وإذ غفل بعضهم عن أن الاتجاه إنما هو لله، فقد اتجهت حكمة الله أن يختار مكانا آخر ليختبر عمق إيمان المسلمين وطاعتهم ، وليثبت فى نفوسهم هذه الحقيقة الهامة التى ذكرناها من قبل ، وهى أن الاتجاه يجب أن يفهم على أنه لله تعالى ، وفى هذا المعنى وردت الآية الكريمة :

« ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله »(١) وقد قال المفسرون فى تفسير هذه الآية : إنه لا يختص مكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع إقامة غيره مقامه(٢) .

وكانت هذه الآية – كما قال المفسرون – توطئة لتوجيه المسلمين فى صلاتهم إلى غير الكعبة ، كما كانت تعليما للمسلمين بأن الاتجاه لله لا للمكان ، وأن اختيار المكان إنما هو مطابق لفلسفة الإسلام التى سبق ذكرها والتى تقضى بخلق روابط بين المسلمين ، فلو لم يحدد مكان واتجه كل مسلم حيث يريد لضاعت الرابطة التى يحرص الإسلام عليها .

ولهذه العوامل اختار الله للمسلمين قبلة جديدة عقب الهجرة ، وهى الاتجاه لبيت المقدس(٣) واستجاب المسلمون لإرادة الله وأدركوا حكمته تعالى .

ثم ظهرت عوامل أخرى ، فقد كان بيت المقدس قبلة اليهود ، فإذا بهؤلاء يأخذون من اتجاه المسلمين إلى قبلتهم وسيلة للسخرية بهم ، وانطلقوا يقولون : محمد لا يتبع ديننا ويتبع قبلتنا ، وشق على العرب أن يتجهوا إلى قبلة اليهود ، ولكنهم فى الحقيقة استجابوا بكل قوة وإيمان متحملين سخرية اليهود رضاء لوجهه تعالى ، وبقيت الحال على ذلك سبعة عشر شهرا ، ثبت خلالها فى نفوس المسلمين أن الاتجاه فى الصلاة إنما هو فى الحقيقة لله ، وأن المكان يمكن تغييره .

---

(١) سورة البقرة الاية ١١٥

(٢) انظر تفسير البيضاوى ص ٣٤ .

(٣) فكان بيت المقدس بذلك أولى القبلتين فى اختيار الله ، أما الصلاة للكعبة قبل الهجره فكانت من اجتهاد الرسول ، أوكانت استمرارا لتعظيم الكعبة ، وكان تعظيمها معترفا به لدى المسلمين .

وقد توقع الرسول ووقع فى روعه أن الله سيحوله إلى الكعبة مرة أخرى ، وكان الرسول يتطلع إلى الله فى صمت ودون دعاء ، آملا أن يحقق له ذلك إرضاء للمسلمين وردا على سخرية اليهود ، وقد عبر الله تعالى عن ذلك بقوله : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره)[١]

وكان ذلك إذنا للمسلمين بالعودة إلى قبلتهم الأولى ، ويروى أن هذه الآية نزل بها الوحي والرسول يؤم الناس فى صلاة الظهر فى مسجد بنى سلمة ، وقد جاء نزولها بعد أن صلى الرسول ركعتين من الظهر متجها إلى بيت المقدس ، فتحول إلى الكعبة حيث صلى الركعتين الأخيرتين ، وتحول الناس[٢] ولذلك يسمى هذا المسجد « مسجد القبلتين » :

ولم يكن هذا نهاية الموضوع ، فإن اليهود بعد أن ترك الرسول قبلتهم راحوا يقولون : لو ثبت محمد على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذى ننتظره ، وكانوا يقصدون بذلك أن يعود إلى قبلتهم لا ليتبعوه ، ولكن ليحدثوا اضطرابا فى الفكر ، وبلبلة فى النفس ، ولذا قطع الله أملهم وكشف سريرتهم بقوله :

(ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض)[١] :

وكان تحول القبلة إلى بيت المقدس بعد الهجرة بقليل ، وصرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة فى شهر رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة[٢] .

---

(١) سورة البقرة الاية ١٤٤ .
(٢) انظر البيضاوى ص ٣٤ .
(٣) سورة البقرة الاية ١٤٥
(٤) ابن هشام ٢ : ١٧٦

الرسول الداعيـة

عُنِىَ الرسول صلوات الله عليه عناية كبيرة بالدعوة للإسلام ، وقد اهتم بذلك فى مكة وفى المدينة ، ولـكن الدعوة للإسلام فى المدينة كانت أوسع نطاقاً ، وأعظم جدوى ، ثم إن الرسول اهتم — كما قلنا آنفاً — بإنشاء المساجد بعد الهجرة ، وجعل من أغراضها أن تكون مراكز للدعوة الإسلامية ، وطالما جلس فيها يستقبل الوافدين ليعرفهم بالإسلام ، أو يتوسط المسلمين ليزيدهم علماً ومعرفة بدينهم ، كما كان يجلس فى بيته أو فى بيوت أصحابه ليعلّم النساء .

وإذا كانت هناك أديان لا تهتم بالدعوة والانتشار كالهندوسية الخاصة بالهنود والـكونفوشية الخاصة بالصينيين ، واليهودية الخاصة ببنى إسرائيل، فإن الإسلام من أديان الدعوة ، لا يختص بقطر دون قطر ولا بجنس دون جنس ، وينافسه فى ذلك دينان آخران هما المسيحية والبوذية ، وإن كانت البوذية تقنع غالباً بمنطقة من الأرض هى شرق آسيا .

ونجىء الآن إلى الحديث عن محمد ، كيف كان يدعو للإسلام ،ولاشك أن موقف الرسول سيساعدنا كثيراً فى العصر الحاضر لنحتذى حذو الرسول ونسير على نهجه فى هذا الموضوع الخطير .

وفى التقديم للحديث عن محمد كداعية ، نذكر بعض آيات الذكر الحكيم التى تُبرز عالمية الإسلام ، ثم بعض آيات الذكر الحكيم التى ترسم الطريق للداعية ، فعن عالمية الإسلام يقول الله تعالى :

— وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (١) .

---

(١) سورة الأنبياء الآية (١٠٧) .

— وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً (١) .

— تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً (٢) .

وعن الطريق للدعوة يقول تعالى :

— ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن (٣) .

— ولتكن منكم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (٤) .

كيف دعا الرسول للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ؟ وكيف كان نموذجاً فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟

هذا ما سنوضحه فيما يلى :

كانت حياة نبى الإسلام وطريقته لنشر هذا الدين صورة رائعة للداعية ، وإذا كانت حياة النبى هى مقياس للسلوك لعامة المسلمين فإنها بالنسبة للدعوة أكثر لزوما وضرورة لمن يعملون فى هذا المجال ، ومن الواضح أن الرسول بدأ دعوته فى مكة ولاقى هناك عنتا شديدا ، ولكنه صبر وصابر كما تحدثنا عن ذلك من قبل ، واتبع الرسول فى عمله خطوات تعد نموذجا رائعا لكل داعية ، فقد دعا للدين سرًّا بادىء الأمر ثم خطا خطوة إلى الأمام فدعا أهله وعشيرته ، ثم ارتقى إلى القمة عندما جاهر بالدعوة لكل الناس ، وكان القرآن الكريم هدياً له فى هذه الخطوات ، وهو بذلك هدىٌ لكل داعية ألا يندفع إلى خطوة قبل أوانها ، بل يترفق الداعية بالناس ، ولا يتجاهل بُعدَهم فى العقيدة عنه ، ويتلمس الوسيلة للوصول إلى

(١) سورة سبأ الآية (٢٠٨) .

(٢) سورة الفرقان الآية الأولى .

(٣) سورة النحل الآية (١٦٥) .

(٤) سورة آل عمران الآية (١٠٤) .

قلوبهم ، وقد تكون الوسيلة بدعوة الأصفياء وتحاشى القساة ، أوبالاعتماد على صلات القرابة ، فإذا وَجدَتْ الدعوة بعض الاستجابة عن هذين الطريقين راح يجهر بها بعد أن يكون قد قوى جانبه .

ومن الواضح أن الرسول ضحى من أجل الدعوة بما يملك من جهد ومال ، ولذلك سَخِرَ منهم عندما قالوا له : إن كنت تريد مالا أعطيناك مالا ، وإن كنت تريد الرياسة ملَّكناك علينا . . . فما كان له فى ذلك هدف ، وكلما ترفَّع الداعية عن متاع الدنيا كلما كان أعمق تأثيرا وأكثر نجاحاً .

ولم تنجح الدعوة فى الانتشار بمكة ، وكانت المقاومة عنيدة ومستمرة ، ولكن الداعية العظيم لم يلن ولم يضعف ، وراح يتلمس أمكنة أخرى يبذر فيها بذوره الطيبة ، فلجأ إلى الطائف ، بيد أن رحلة الطائف على الرغم من وعورة الطريق وصعوبة الزاد لم تأت بطائل ، ولكن الداعية العظيم يتلمس مرة أخرى طريق النجاح ، فاتخذ من مواسم الحج فرصة لنشر الدعوة بين وفود القبائل التى كانت تتدفق إلى مكة ، ولكن جبابرة الشرك لاحقوه فى هذه الخطوة ، وبخاصة عمه أبولهب الذى كان يتتبعه ، ويصيح فى القوم الذين يلقاهم محمد قائلا : « إنه لصابىء يريدكم أن تنسلخوا عن دين آبائكم إلى ما جاء به من بدعة وضلالة » وكان جاه قريش وسطوة أبى لهب تنال الغلبة فى كثير من الأحوال ، فكانت جماعات الحجيج تقول لمحمد إن قومك وذوى قرابتك أعرف الناس بك ، ولو كنت على حق لاتَّبعوك وساعدوك ، ولكن ذلك لم يوهن عزيمته ، فاستمر فى لقائه بجماعات الحجيج ، حتى صادف جماعة من يثرب فدعاهم وتلطف إليهم ، وكان ذلك بدءا لانفتاح الأبواب المغلقة والقلوب المقفلة .

ونمت الدعوة بين أهل المدينة من يوم إلى يوم لأسباب ذكرناها من قبل ، وفى أحد اللقاءات جاءت الدعوة من مسلمى المدينة إلى محمد ليهاجر إليهم بعد أن انتشر دين الله ، فدخل كل بيت من بيوت المدينة تقريبا واستجاب لهم الرسول وهاجر إليهم ، وبدأت الدعوة للإسلام بالمدينة

تأخذ طابعا جديدا فقد بنيت مساجد أصبحت مراكز للدعوة ، وأصبح للدعوة جاه وحماة ، وأصبح المسلمون بعد هذا الجهد الجهيد أقوى من أعدائهم فى هذا المقر الجديد .

ووضح أن الدعوة الاسلامية فى المدينة أصبحت ذات شقين كبيرين ، الشق الأول مع المسلمين لتعليمهم التزامات الدين الجديد ، وشرح التشريعات الجديدة التى بدأت تتدفق فى القرآن الكريم فى هذا العصر ، والشق الثانى المواجهة مع الكتل الكبرى بالمدينة التى كانت لم تدخل الإسلام بعد ، ثم الاتجاه للدعوة للإسلام خارج المدينة .

فى الشق الأول اهتم الرسول بالمسلمين اهتماما كبيراً ليثبِّت الدعوة فى قلوبهم ، وليعلّمهم ما جدَّ من تشريعات ، فأطال جلساته بالمسجد ، والمسلمون يحيطون به ، يعلمهم ويرشدهم ، وهم يسألونه عما يشغلهم فيجيبهم ويهديهم ، واهتم الرسول كذلك بالمرأة اهتماما كبيراً ، ومن ذلك قوله « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وكان — فيما يرويه البخارى — يصلّى خلفه بعض النساء صلاة الفجر ، وكان من حكمته عليه السلام أنه عقب السلام ونية الخروج من الصلاة ، كان يَبقى فى مكانه فترة لينصرف النساء فى الصفوف الخلفية ، فإذا اطمأن إلى انصرافهن قام وقام معه الرجال ، وكان يخفف صلاته إذا سمع بكاء طفل خلفه خشية أن تفتتن به أمه فتنصرف عن صلاتها(١) .

وسأل النساءُ رسول الله أن يجعل لهن مجالس خاصة يعلمهن فيها ويجيب عن أسئلتهن ، فقلن له : يارسول الله ، غلَبَنا عليك الرجال ، فاجعل لنا مجلسا نلقاك فيه ، فكان يلقاهن مرة أو مرتين كل أسبوع ، وكان يجلس معهن فى أحد بيوته أو فى بيوت أصحابه .

واهتم الرسول اهتماما كبيراً بمن سيصبحون علماء الأمة ودعاة الإسلام

---

(١) محمد التاجى : سيرة النبى العربى ج ٢ — ص ٣٨٢ .

فيما بعد ، أولئك ، الذين ستئول إليهم قيادة الحركة العلمية ، وسنتكلم عن تربية هؤلاء عند الحديث عن « الرسول يربى العلماء والدعاة » .

وفى الشق الثانى وهو دعوة غير المسلمين للاسلام كانت سياسة الرسول غاية فى الروعة والذكاء ، وقد بدأ أولا بالمدينة لتأمين المركز الإسلامى الجديد ، وكان فى المدينة منافقون تظاهروا بالدخول فى الاسلام ، وعرب تمسكوا بوثنيتهم ، وجماعات اليهود .

ففيما يتعلق بالمنافقين أغضى الرسول الطرف عن نفاقهم وأظهر أنه لايعرفه ، وأخذ يلاطفهم ويتودد إليهم ؛ حتى أزال النفاق من قلوب الكثيرين منهم .

أما العرب الوثنيون واليهود فقد عقد معهم معاهدة التعاون بين المسلمين وغير المسلمين وقد ذكرناها من قبل ، وأمن المسلمين بذلك الحياة فى المدينة المنورة ، وأصبحت الدعوة هى الشغل الشاغل للرسول بعد أن استقرت الأمور بالمركز الجديد .

وقد زاول الرسول دعوة عرب المدينة الذين كانوا لم يدخلوا الإسلام بعد ، ويوماً بعد يوم استجاب هؤلاء لدعوته حتى شمل الإسلام عرب المدينة كلهم تقريباً .

واتجه الرسول إلى اليهود فظل يتخير أفضلهم ويدعوهم إلى الإسلام حتى دخل منهم جماعة مستجيبين لهذه الدعوة ، ومن هؤلاء عبد الله بن سلام الذى كان يدعى الحصين بن سلام قبل الإسلام .

ويروى أن عبد الله بن سلام عندما دخل الإسلام جاء إلى الرسول ليثبت مكانته بين اليهود ، وقال يارسول الله : أدخلنى بعض بيوتك ثم اسأل اليهود قبل أن يعرفوا إسلامى لتعرف منهم مَنْ أنا بينهم . فأدخله الرسول بعض بيوته ، واستدعى الرسول بعض اليهود ، وبعد حديث بينه وبينهم سألهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ فأجابوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا ،

ماضوا فى الثناء عليه . فلما فرغوا من قولهم خرج عليهم عبد الله بن سلام فقال : يامعشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به محمد ، فوالله لتعلمون أنه لرسول الله ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، وإنى أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فقال اليهود : خسئت وكذبت ، وراحوا يلصقون بعبد الله بن سلام ألوانا من سيء الخصال ودنيء السجايا ، فقال عبد الله للرسول : ألم أخبرك يارسول الله أنهم قومٌ بهتٍ وضلال ، وأسلم عبد الله وأسرته وحسن إسلامهم ، ومثل هذا حدث مع بعض اليهود الآخرين مثل ثعلبة بن سمية وأسد بن عبيد(١) .

وتطلع الرسول بعد المدينة إلى خارجها ، وكان اهتمامه واضحاً بالنصارى ، فهم أهل كتاب يؤمنون بالله ، فدعاهم إلى لقائه ، فوفدت له وفود منهم ، من نجران ، وكان الرسول يحسن استقبالهم ويدعوهم إلى الإسلام ، ويذكّرهم بما فى كتبهم مما جاء عنه ، فأسلم منهم عدد كبير ، كما أسلم عدىّ بن حاتم الذى كان قد اعتنق النصرانية ، وسنتحدث عن عن إسلام عدىّ عند الكلام عن « الرسول والنصارى » .

ثم اتجه الرسول إلى قلب الجزيرة العربية داعياً ، وكان يهتم بالرؤساء الذين يعرف فيهم الدعة والاستقامة ، فاستجاب الكثيرون منهم ، وكان دخول هؤلاء الرؤساء فى الإسلام ، يفتح الباب لتدفق أتباعهم .

وانتشر الاسلام فى قلب الجزيرة العربية بوسائل الدعوة الرشيدة التى اتبعها الرسول ، وسرعان ما تطلع عليه السلام إلى أطراف الجزيرة ، فأرسل الدعاة واستقبل الوفود ، ولاقت الدعوة كل نجاح بهذا الطريق أو ذاك ، بل تطلع عليه السلام إلى الممالك والدول التى تحيط بالجزيرة العربية فأرسل لهؤلاء رسائل ومبعوثين ، ودق بذلك هذه القلوب ، فكان ذلك إيذانا بالفتوح الإسلامية التى جاءت فى العصور التى تلت عصر الرسول .

---

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ – ص ١٨ .

وسنتحدث عن الوفود والرسائل فى حينها أى فى أواخر عهد الرسول بهذه الحياة الدنيا .

وهكذا كان محمد الداعية نموذجا عظيما لحمل الدعوة ، وشرحها ، وتقديمها للناس ، والدفاع عنها ، فما أحوجنا أن نتدارس بعمق طريقته لنتأسّى بها ، وأن نحاول أن نتخلق بالحكمة والموعظة الحسنة والصبر والدأب ونحن ننقل فكرنا إلى أية جماعة من جماعات البشر .

الرسول يربى العلماء والدعاة

من أبرز ما يقوم به القادة الموهوبون المخلصون أن يربُّوا الصف الثانى الذى يأخذ عنهم ويحمل العبء معهم وبعدهم ، بل أن يربوا صفوفاً متتالية أشبه بدرجات السلم ، لتسير أمور المجتمع فى مأمن من الأحداث ، بحيث لومات قائد أواختفى بسبب ما ،ظهر خَلَفُه يحمل العبء دون توقف أو اضطراب ، وتعتبر تربية الصفوف التالية أبرز ما يهتم به القادة إن كانت لهم قِيَمٌ يحرصون عليها وأهداف يسعون لنيلها .

وموقف الرسول صلوات الله عليه من تربية الصفوف التالية موقف نموذجى ، يتحتم على المسلمين أن يتعرّفوا عليه ليقتدوا به ويسيروا على هديه ، وقد اهتم الرسول بتربية الصفوف التالية فى مختلف الميادين ، فى ميدان السياسة والحكم ، وفى ميدان الحرب والجهاد ، وفى ميدان العلم والدعوة ، وسنتدارس جهود الرسول فى كل ميدان من هذه الميادين فى حينه ، وهنا — ارتباطاً بالمسجد وبالرسول الداعية — نتحدث عن الرسول وهو يربى العلماء والدعاة .

كان للرسول صلوات الله عليه قدرة هائلة فى اختيار الأشخاص الذين يحملون راية العلم بعده ، ويتحملون مسئولية توصيل المعارف إلى الناس ، وإذا كانت الحياة فى الجامعة تُعْطِى اهتماماً كبيراً لاختيار المعيدين وطلاب الدراسات العليا ليكون منهم أساتذة المستقبل ، فإن ذلك مأخوذ من حكمة الرسول وفطنته ، فقد كان شديد الاهتمام باختيار العناصر الصالحة التى يفضى لها بمزيد من الخبرات والمعارف لتحمل رسالة العلم بعده ، ومن أبرز صفات حَمَلَةِ العلم الدأبُ على البحث ، وسعةُ الطاقة ، والرغبةُ فى العطاء الفكرى ، ويروى أن الرسول صلوات الله عليه كان يختار لذلك مجموعة من

خاصة المسلمين ليعطيهم من التفاصيل الفكرية ما لا يمكن أن تطيقه أفكار سواهم ، فقد كان الصحابة يتفاوتون فى العلم والهدى ، فمنهم من أخذ عن النبى صلى الله عليه وسلم بنصيب وافر ، ومنهم من أخذ قدراً متوسطا ، ومنهم من كان قليل البضاعة صاحَبَ النبىَّ وكأنه لم يصاحبه ، ولذلك تروى عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان ديننا الذى نحن عليه » (رواه البخارى) وتروى أم سلمة عن الرسول قوله : « إن من أصحابى من لا يرانى بعد أن أفارقه » أى أنه سينسى بعض ما قدَّمت من تعاليم وأفكار .

أما القمم من الصحابة الذين يصدق عليهم قوله صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » فكان منهم على بن أبى طالب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة وحذيفة بن اليمان وكثيرون أمثالهم ، وكان الخلفاء الراشدون يلجأون لهؤلاء إذا حزب أمر فكرى ، فكان على رضى الله عنه أقضى القضاة ، كما كان منهم مجالس الشورى للخلفاء ، وسنتحدث فيما يلى عن نماذج من هؤلاء الذين برزوا فى ميدان العلم والمعرفة ،

على بن أبى طالب :

لاشك أن على بن أبى طالب يقف فى القمة بين العلماء ، فهو أول من أسلم من الصبيان ، وكان يعيش فى بيت الرسول ، ومن هنا كان أسبق من تلقى عنه ، وكان أصفى المؤمنين قلبا ، وأبعدهم عن ترف العيش ، إذ أصبح منذ نشأته وهو يرى الرسول مثله الأعلى وأمله فى الحياة ، فتخلق بأخلاقه ، واغترف من فيض علمه ، ثم كان من كتاب الوحى ، وبهذا كان من أسبق المسلمين لتلقى كلام الله وتدوينه ، والعمل بما جاء به .

ولم تكن الدنيا عند علىّ ذات بال ، وذلك على النمط الذى اتبعه الرسول صلوات الله عليه ، ومن هنا بات علىّ فى فراش الرسول ليلة الهجرة وهو

يعلم أن قريشا ستقتل من تجده فى هذا الفراش ، وهى مغامرة لايطيقها إلا الأبطال ، ثم إن الرسول ترك له أن يرد الأمانات إلى أصحابها وهى ثقة واسعة ، ولما انتهى علىٌّ من هذه المهام لحق بمعلمه فى المدينة حتى لايضيع منه شىء من التلقى والمعرفة (١)، وفى غزوة بدر وقف على مبارزا عملاقا ، فضرب بسيفه أول ضربة فى الغزوة الأولى ، وكذلك كان فى كل الغزوات ، وزوَّجه رسول الله من أحب بناته إليه ، من السيدة فاطمة ، وقال لها الرسول : زوجتك أقدم الناس أسلاما وأكثرهم علما . ولما سئل ابن عباس عن علم علىٍّ أجاب : ما أنا إلا قطرة من بحار علمه ، وإذا كان الرسول مدينة العلم فعلى بابها ، وقد دعا رسول الله لعلى أن يهديه فى القضاء بقوله « اللهم اهدِ قلبه وثبت لسانه ولقنه الصواب » ومن هنا كان على أقضى الناس حتى ضرب به المثل فكانوا يقولون « قضية ولا أبو حسن لها » وحثه الرسول على استعمال العقل والفكر فقال له : يا على إذا تقرب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب أنت إليه بحكمة العقل ، تسبقهم بالدرجات والزلفى عند الناس وعند الله ، ويعلق بعض الباحثين (٢) على هذا الحديث بقوله : إن رسول الله يذكر أن ثروة على كانت فى علمه وعقله ، ويستطيع بها أن يتقرب إلى الله بتعليم الجاهل وحل مشكلات الخلق ، وهو بذلك ينال الحظوة عند الله والناس .

معاذ وسالم :

فإذا انتقلنا بعد هذه العجالة عن علىّ إلى معاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة فإننا نروى عن الإمام البخارى قوله : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خذوا القرآن عن أربعة : عن ابن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة » وكان المهاجرون الذين قدموا

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ص ٢٦١ .

(٢) محمد التاجى : سيرة النبى العربى ج ٢ ص ٤٢٠

إلى قباء يؤمهم سالم مولى أبى حذيفة لأنه أكثرهم قرآنا وإن فيهم عمر بن الخطاب وأبا سلمة بن عبد الأسد (١)

حذيفة بن اليمان :

وكان حذيفة بن اليمان يسمى صاحب السر ، لأن الرسول أفضى إليه ببعض الخصائص التى كان يقوى على تفهمها أكثر مما يقوى سواه ، وذلك عملا بأمر الله الذى ألزم العلماء أن يخاطبوا الناس بقدر عقولهم ، ولذلك كان عمر يسأل حذيفة كيف يراه بعين بصيرته (٢) مما يدل على أن لحذيفة بصيرة ليست لسواه .

تلك لمحة عن بعض نماذج من العلماء الذين عنى الرسول بتربيتهم وتثقيفهم ، وحديثنا عن العلماء امستمر ، وبخاصة أولئك الذين اختارهم الرسول ليحملوا أعباء الدعوة معه فى حياته ، أو ليحملوها بعده ، وأول مبعوث للرسول مصعب بن عمير الذى أرسله الرسول إلى يثرب قبل الهجرة ، ومن مبعوثى الرسول على بن أبى طالب الذى أرسله إلى اليمن ، وأبو عبيدة بن الجراح الذى أرسله إلى نجران ، ومعاذ بن جبل الأنصارى الذى أبقاه الرسول بمكه عقب فتحها وعودة الرسول إلى المدينة ، وأبو ذر الغفارى الداعية الناجح الذى أسلم قومه وجيرانهم بدعوته لهم .

ما الصفات التى لاحظها الرسول فى هؤلاء الذين اختارهم ليكونوا دعاة الإسلام ؟ وما الوصايا التى قدمها لهم وهم يخطون لحمل هذه المسئولية ؟

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ص ٢٦٤ .
(٢) سيره النبى العربى ج ٢ ص ٤١٠ .

لقد تكلمنا من قبل عن بعض هؤلاء فى مجال العلم ، ولكننا نتحدث عنهم هنا والرسول يختارهم دعاة لحمل الرسالة ، وأبرز الصفات التى يلزم أن تتوافر فى الداعية هى العلم ، وعدم الحرص على ترف الحياة ، والرغبة فى العطاء ، وقوة البيان ، وسماحة النفس ، ونقاء السريرة ، والشجاعة فى مواجهة الشدائد ، وهذه الصفات جميعها كانت واضحة المعالم فى الدعاة الذين اختارهم الرسول لحمل مسئولية الدعوة إلى الله ، وسنتدارس صفات هؤلاء الأعلام الذين كانوا مطلع الدعاة لنجعلهم أئمة لنا فى مجال الدعوة .

مصعب بن عمير :

مصعب بن عمير أول الدعاة ، فقد اختاره الرسول كما ذكرنا من قبل ليذهب إلى يثرب مع النفر الذين بايعوا الرسول فى بيعة العقبة الأولى ، وكان مصعب بذلك مُقْدِماً على عمل خطير ؛ إنه يقتحم يثرب ليواجه فيها جمهرة واسعة من الذين لم يدخلوا الإسلام بعد ، وكان مصعب جديراً بحمل هذه المهمة ، فقد كان من السابقين إلى الإسلام ، وقد دخل هذا الدين على الرغم مما توقعه من تهديد أمه التى كانت قوية الشكيمة ، تُهاب إلى حدٍّ الرهبة كما كانوا يقولون ، ونفَّذت أمُّه تهديدها فيه بعد أن دخل الإسلام ، فحرمته ما كانت تغدقه عليه من مال ونعيم ، واضطهده أهله وحبسوه ولكنه فرَّ منهم وهاجر إلى الحبشة ، بيد أنه سرعان ما عاد من الحبشة ، لأنه آثر أن يواجه الشدائد على الفرار منها ، وسنعود فيما بعد إلى الحديث عن مصعب كشاب اعتنق الإسلام على الرغم من أمه ، ونواصل هنا حديثنا عن مصعب كداعية .

وقد اكتسب مصعب بتجربة الحبشة خبرة واسعة فى مجال عرض الدعوة وشرحها ، ثم إن التجربة القاسية التى عاناها مضطهداً فى مكة علمته أن يحتمل الاضطهاد ، فإذا أضفنا إلى ذلك سعة العلم ، والحنكة السياسية ، وسعة الأفق ؛ أدركنا أن الرسول رأى فيه الصفات التى ترشحه ليكون الداعية الأول لينشر الإسلام بالمدينة ، ويقرئ المسلمين القرآن ، ويفقههم فى الدين ،

وليرشد المسلمين هناك إلى آداب الإسلام وتعاليمه (١)

ويقول أحد الباحثين (٢) أن الرسول اختار مصعب الخير وهو يعلم أنه يكل إليه أخطر قضايا الساعة ، ويلقى بين يديه بمصير الإسلام فى المدينة التى ستكون دار الهجرة ومنطلق الدعوة والدعاة ، والمبشرين والغزاة ، بعد حين من الزمان قريب ، وحمل مصعب الأمانة مستعيناً بما أنعم الله عليه من عقل راجح وخلق كريم ، فغزا أفئدة أهل المدينة بزهده وترفعه وإخلاصه ، فدخلوا فى دين الله أفواجاً ، وأثبت مصعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف كيف يختار .

وفى المدينة اتخذ مصعب دار أسعد بن زرارة مركزاً له ، وكان أسعد من أسبق الأنصار فى الإسلام وممن حضروا بيعة العقبة الأولى (٣) فكان المسلمون يجتمعون حول مصعب ليقرأ لهم القرآن ويؤمهم فى الصلاة ، وفى بعض الأحيان كان مصعب وأسعد يتنقلان فى دور بنى عبد الأشهل لدعوة الناس إلى الإسلام .

ولما عرف سعد بن معاذ وأُسيد بن حُضَير شيخا بنى عبد الأشهل ذلك ، ضاقا بهذا التصرف ، ويروى أن سعد بن معاذ قال لأسيد : انطلقْ إلى هذين الرجلين (مصعب وأسعد) اللذين أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دورنا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت لكفيتك (وكان أسعد ابنَ خالة سعد بن معاذ) واستجاب أسيد لسعد وتناول حربته وانطلق إلى حيث يوجد أسعد ومصعب ، وصاح بهما : ما جاء بكما إلينا ، اعتزلانا إن كانت لكما حاجة للحياة ، فأجاب مصعب فى هدوء : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٥٨ .
(٢) خالد محمد خالد : رجال حول الرسول ص ٤٦
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٥٦ .

كرهته قاومته . فجلس أسيد وسمع لمصعب الذى مضى يشرح مبادىء الإسلام ويقرأ آيات من القرآن الكريم ، فتأثر أسيد بذلك وصاح مأخوذاً: كيف يصنع من أراد أن يدخل هذا الدين ؟ فأجاب مصعب : يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فاستجاب أسيد وردد شهادة الإسلام ، ثم قال : إن ورائى رجلا (يقصد سعد بن معاذ) إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه . وجاء سعد إلى حلقة مصعب وتأثر بما سمعه كما تأثر أسيد ، وأعلن دخوله دين الله ، ورجع إلى قومه يلتهب حماسة ، وصاح فيهم قائلا : يابنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

قالوا : سيدنا، وأفضلنا رأيا، وأيمننا نقيبة ، فقال سعد : فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . وتدفق بنو عبد الأشهل يدخلون دين الله ، وبمثل هذه الحماسة كان نشاط مصعب الذى امتد من رَبْع إلى ربع ، ومن جماعة إلى أخرى فى كل الربوع العربية فى المدينـــة .

وفى موسم الحج التالى عاد مصعب مع وفد المدينة إلى مكة ، ويروى أنه اتجه على إثر وصوله إلى بيت النبى صلى الله عليه وسلم ليروى له ماحدث فى المدينة ، فلما عرفت أمه خبر مقدمه أرسلت له تقول : أنت ابن عاق ، تدخل بلداً أنا فيه ولا تبدأ بى ، فقال مصعب : لحامل رسالة أمه قل لها : ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذهب مصعب لأمه عقب لقائه الرسول فصاحت به افتقدتك بالحبشة مرة وبيثرب مرة أخرى ، أما آن لك آن تجلس هنا ؟ فأجابها : إنى أفرُّ بدينى خوف أن تفتنونى . فقالت له : لأحبسنك . فأجاب : لإن حدث هذا لأحرصنَّ على قتل من يتعرض لى . فيئست منه أمه وتركته لشأنه (١) .

على بن أبى طالب :

سبق أن تحدثنا عن على بن ابى طالب وذكرنا أنه نال من العلم والصفاء

---

(١) ابن هشام : ج ٢ ص ٥٨ وما بعدها بتصرف .

فيضاً اكتسبه من عشرته للرسول ومن نشأته فى بيته ، حتى ليمكن القول إن علياً كان أكثر المسلمين تأثراً بالرسول فى هذين المجالين .

أما الحديث عن زهد على فيوضحه أنه عاش عمرهَ فقيراً اقتداء بسيد البشر،وكانت زوجته السيدة فاطمة تطحن القمح بيدها حتى كلت هذه اليد ، وتحمل القربة حتى أثرت فى نحرها ، وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها ، ولما قص علىٌّ على الرسول ألم ابنته من الطحن وحمل القربة ، وأعمال المنزل ، وأنها تحتاج خادماً يقيها عناء ما تلاقى ، التفت لها الرسول وقال : يافاطمة : اتقى الله وأدى فريضة ربك ، واعملى عمل أهلك،ويروى أنه نزلت فى زهد على ورغبته فى العطاء الآية الكريمة « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »(١).

أما بطولة على فكانت مضرب المثل ، وقد صارع علىٌّ أبطال الشرك وصرعهم ، ومن أعتى هؤلاءعمرو بن ود الذى ضربه ضربة قاضية فى غزوة الخندق . ومما يدل على بطولته وحبه لله ورسوله ما رواه البخارى من أن الرسول قال يوم خيبر : لأعطينَّ هذه الراية رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه . قال عمر ما أحببت الإمارة إلا يومئذ ، فتساورت (تطلعت) للرسول رجاء أن أدْعَى لها، ولكن الرسول دعا على بن أبى طالب وأعطاه الراية .

وفصاحة علىٍّ مضرب المثل فقد رويت عنه نصائح غراء لولاته عندما آلت له الخلافة ، وهى نصائح تحمل البلاغة وقوة البيان من جانب ، كما توضح من جانب آخر أنه فى مجال الفكر والخلق كان إنساناً مثالياً ، إنه القائل : أطلقْ عن الناس عقدة كل حقد ، وتغابَ عن كل مالا يصح لك ، ولا تعجلنَّ إلى تصديق ساع ، فإن الساعى غاشٌّ وإن تشبه بالناصحين، ولا تُدخل فى مشورتك بخيلا يعدل بك عن الإحسان ويخوِّفك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور ، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله ، والصق

(١) سورة الحشر الآية التاسعة .

أهل الورع والصدق ، ثم رُضْهم (عودهم) على الا يطروك ، فإن كثرة الإطراء تُحدث الزهو ، وإياك والإعجاب بنفسك ، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان بمحق به ما يكون من إحسان المحسنين ، وإياك والمنّ على رعيتك بإحسانك فإن المن يبطل الإحسان ، واعلم أن الأمر مأخوذ منك لغيرك . . . . (١)

وعلىَ هذا فقد كان عليٌّ من أجدر المسلمين بمكانة الداعية ، وقد فتح الله له الأبواب فى بلاد اليَمن ،ويسر له كل صعب ،مما سهل انتشار الإسلام فى هذه الأصقاع .

أبو عبيدة بن الجراح :

أبو عبيدة من السابقين الأولين ، ومن مريدى مدرسة الأرقم بن أبى الأرقم ، ومن هنا فقد كان فى مقدمة القافلة فى العلوم والمعارف .

وقد هاجر أبوعبيدة إلى الحبشة ، ولكنه سرعان ماعاد ليلاقى أىَّ خطر من أجل دينه ، فلم يكن أبو عبيدة بالذى يرضى بالهرب ويؤثر السلامة ، وهاجر بعد ذلك إلى المدينة ، وصحب الرسول فى غزوة بدر وغزوة أحد وبقية المشاهد جميعا . ولأبى عبيدة فى غزوة أحد موقف جدير بالذكر ، ففى هذه الغزوة سقط الرسول صلوات الله عليه فى حفرة أعدها المنافقون ، وشُج فى رأسه ، ونشبت حلقتان من حلق المغفر فى وجهه ، فتقدم أبو عبيده لينتزعهما ، ولم يتم له ذلك إلا بعد أن سقطت ثنيتّاه من فرط الجهد ، وكان أبو عبيده يفخر بالهتم الذى حدث له وهو يزيل الأسى عن الرسول .

وجاء إلى الرسول وفد نجران يعلنون إسلامهم ، وقد أكرمهم الرسول أيما إكرام ، وطلبوا من الرسول أن يبعث معهم من يعلمهم القرآن ، وعلوم السنة والفكر الإسلامى ، فقال الرسول لهم : لأبعثن معكم رجلا أمينا حقَّ أمين ، حقَّ أمين ، حقَّ أمين ، وسمع الصحابة هذا الوصف

---

(١) نهج البلاغة : ص ٣٣٥ وما بعدها .

فتمنى كل واحد منهم أن يكون هو الذى عناه الرسول ، واشرأبَّ كل منهم لتقع عليه عين الرسول لعله يكون هذا الذى شهد له الرسول بالأمانة وكرر الشهادة ، وأخذ الرسول يسرح ببصره بين أصحابه حتى التقت عينه بعين أبى عبيدة بن الجراح فدعاه إليه وقال له : اخرج مع هؤلاء علّمهم واقض بينهم فيما اختلفوا فيه ، وأصبح أبو عبيدة منذ ذلك الحين معروفا بأنه أمين الأمة .

ومما يدل على إيثاره وعدم اهتمامه بمظاهر الحياة أن الرسول صلوات الله عليه أرسله أميرا على مدد بعث به لمساعدة عمرو بن العاص فى غزوة ذات السلاسل ، وكان ضمن جنود أبى عبيدة أبو بكر وعمر ، وقال الرسول لأبى عبيدة : تعاون مع عمرو ولا تختلفا . ولما التقى القائدان برزت مظاهر الخلاف ، فقد قال عمرو : أنا أمير الجيش وأنتم جئتم لمساعدتى فأنتم تحت إمرتى ، وقال بعض جنود أبى عبيدة لقد جئنا تحت إمرة أبى عبيدة ونحن نتبع أمره ، ولكن أبا عبيدة حسم الخلاف بسرعة وقال : ما للمظاهر الحياة سعينا ، وقد أوصانى الرسول ألا نختلف ، وأنا يا عمرو أحد جنودك فمرنى ومُرْ مَنْ معى بما تشاء .

ومن إيثاره المصلحة العامة ما يروى أن خالد بن الوليد كان أمير جيش المسلمين فى حرب الشام ، ولما مات أبو بكر الصديق وجاء عمر بن الخطاب نقل عمرُ قيادة الجيش إلى أبى عبيدة ، وتلقى أبو عبيدة أوامر عمر والمعركة تدور ، وأخفى الأمرَ حتى انتهت المعركة ، ثم قدّمه إلى خالد ، وخضع خالد للأمر ، وقال لأبى عبيدة : لماذا لم تخبرنى عند وصول أمر الخليفة إليك لأتنحى لك عن الأمارة ؟ فقال أبو عبيدة : يا خالد ما للإمارة سعينا ، وقد كرهت أن أكسر عليك جهدك ، وما سلطان الدنيا نريد ، ولا للدنيا نعمل .

وعندما تمّ فتح الشام صار أبو عبيدة أميراً لها ، وزار عمر الشام آنذاك ، ودخل بيت أبى عبيدة ، فوجد مظاهر الخشونة بارزةً فيه ، فسأله عمر : لِمَ لَمْ تتخذ لنفسك منزلا أطيب مقاما وأغنى أثاثا ؟ فأجاب : هذا يبلّغنى المَقيل .

وكان عمر يفكر فى أن يسند الخلافة من بعده إلى أبى عبيدة ، فشهادةُ الرسول بأنه أمين الأمة تهيئة ليكون أمير المؤمنين ، ومن أجل أن يحقق عمر رغبته بعث يستدعى أبا عبيدة من الشام عندما فشا الطاعون هناك لينجو أبو عبيدة من الموت ، فكتب له عمر كتابا يقول فيه : . . أنى عَرَضَتْ لى إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها ، فعزمتُ عليك إذا نظرت فى كتابى هذا ألا تضعه من يديك حتى تُقبل علىَّ . ولكن أبا عبيدة أدرك ما أراده عمر ، وعزَّ عليه أن يترك جيش المسلمين وينجو بنفسه ، فكتب إلى عمر يقول : إنى قد عرفت حاجتك إلىَّ ، وإنى فى جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فحلِّلْنى من عزمتك يا أمير المؤمنين . وجاء الكتاب إلى عمر فلما قرأه بكى ، فسأله الناس : هل مات أبو عبيدة ؟ فأجاب : لا وكأنْ قدْ . ومات أبو عبيده بعد ذلك فى وسط الوباء(١) .

تلك لمحة من سيرة أبى عبيدة ، وهى توضح أنه كان جديرا ليكون داعية الإسلام ومبعوثَ الرسول إلى جانب من الأرض ، وقد أدى أبو عبيدة عمله خير أداء وترك أعظم الآثار فى المنطقة التى ذهب إليها .

معاذ بن جبل :

ترك الرسول صلوات الله عليه معاذا الأنصارى بمكة عقب فتحها عندما أراد الرسول العودة إلى المدينة ، واختيار معاذ لهذا العمل اختيار النبى على حكمة عليا لاحظها الرسول ، ففيه - بالإضافة إلى صفات العلم والإيثار والشجاعة وسماحة النفس - تكريم للأنصار أن يصبح شاب من شبابهم داعيةَ الإسلام بمكة ، ثم أن مصعب بن عمير الذى أرسل من مكة للهداية والتعليم بيثرب يقابله الآن واحد من الأنصار يبقى فى مكة لنفس الأغراض ، ومن الملاحظات كذلك أن بلاد الإسلام وحدة واحدة ، فليست هناك نوازع إقليمية تتدخل أو تحرك الأمور .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٠١ والكامل لابن الأثير ح ٢ ص ٢٧٥ .

وكان معاذ من السابقين للإسلام من أبناء يثْرب ، وقد حضر بيعة العقبة الثانية حيث دعا أهلُ يثرب الرسولَ للهجرة وتعهدوا بحمايته ، ومنذ ذلك الحين وهو يقف بجوار الرسول مريدا ومجاهدا ، وقد وصل إلى القمة فى الجانبين ، فكان فى العلم منارا ، وفى الجهاد سيفا بتّارا ، وكان معاذ سمحا كريما حتى ذهب جوده بكل ما يملك ، والرغبةُ فى العطاء من أهم الصفات التى يحتاجها الداعية ولا يمكن أن ينجح فى الدعوة الرجل الكز الذى يسعى ليأخذ ويعيش لينال .

وقد وصل معاذ فى العلم والمعرفة ، درجة كبيرة ، ويروى أن الرسول قال عنه : إن العلماء إذا حضروا ربهم عزوجل كان معاذ بينهم ، وكان أصحاب رسول الله إذا جلسوا يتحدثون وفيهم معاذ نظروا إليه فى هيبة ، وكان المتحدثون إذا اشتد عليهم من الحديث شىء ، ردوه إلى معاذ، فأفتاهم.

وكان معاذ حريصا على العمل بالعلم ، وهو فى ذلك يقول : تعلّموا ما شئتم فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا به ، وكان يميل إلى القصد فى العبادة ، وهو فى ذلك يقول : صُمْ وأفطر ، وصلِّ ونم ، . . . . وإياك ودعوة المظلوم .

وبالإضافة إلى العلم وسماحة النفس والرغبة فى العطاء كان معاذ يمتاز بالحكمة والفكر والقدرة على الاجتهاد ، وكان الرسول يحس فيه هذه الصفات ، ولذلك اختاره ليكون داعية الإسلام باليمن ، وقاضىَ الجماعة هناك ، ودار بينه وبين الرسول حوار أثبت فيه معاذ ما أرضى الرسول عن وفادته ، وفيما يلى نص هذا الحوار :

— يامعاذ بم تقضى بين الناس ؟

— بكتاب الله

— فإن لم تجد فى كتاب الله ؟

— أقضى بسنة رسوله

– فإن لم تجد فى سنة رسوله ؟

– أجتهد رأيى .

وفرح الرسول بإجابات معاذ وقال : الحمد لله الذى وفّق رسول الله لما يرضى الله ورسوله .

ومات معاذ فى بلاد الشام وكان قد هاجر إليها بعد فتحها ليعلّم أهلها وينشر الإسلام بها ، وعندما مات أبو عبيدة والى الشام ولاه عمر مكانه ولكن عُمْره فى الولاية لم يكن طويلا . ولاقى هناك ربه .

وعندما حانت وفاة عمر وسأله المسلمون أن يولى عليهم خلفاً له كان فيما قال لهم : . . . . ولو كان معاذ حيًّا لوليته بعد أن سمعت النبى يقول : معاذ بن جبل إمام العلماء يوم القيامة .

وهكذا نجد معاذاً رائداً عظيما من رواد الدعوة فى الإسلام :

أبو ذر الغفارى :

مع أبى ذر الغفارى نقابل داعية ناجحاً أسلمت على يده قبيلته غفار وقبيلة أسْلم التى كانت تجاور قبيلته ، ولم يكلّفه الرسول بدعوة هؤلاء ، فقد كان الوقت مبكراً ، ولم يجهر الرسول بالدعوة بعد ، ولكن الدعوة إلى الله لا تحتاج إذناً ولا تكليفاً ، فعند ما يطبقها الداعية ينبغى أن ينطق بها لوجه الله ، ولعلّ أبا ذر « جندب بن جنادة » كان وحيداً فى هذا المجال .

لقد كان أبو ذر غير مقتنع بالأصنام ، وكان يسخر منها ومن عابديها ، وكان يتطلع إلى الهدى ، ويحس بأن الإله خالق عظيم ، ولا يمكن أن يكون من نوع هذه الحجارة أو الأشجار ، وبينما كان أبو ذر فى حيرته وتفكيره مرّت قافلة بأرضه وافدة من مكة المكرمة ، وعلم أبو ذر من رجالها أن رجلا ظهر بمكة يقول بأنه يوحى له من السماء ويهاجم الأصنام ويدعو إلى الله . فأرسل أبو ذر أخاً له يُدْعَى «أنيس» إلى مكة ليتعرف له خبر هذا الداعية ، وذهب أنيس ، وكان هذا كأخيه متمرداً على عباده الأصنام ، ولذلك أعجب بما سمعه

من الرسول ، وعاد يحمل هذه الأنباء الطيبة إلى أخيه أبي ذر ، فأسرع أبو ذر بالرحيل إلى مكة ليرى بنفسه حقيقة الأمر ، وفي مكة واجه أبو ذر رسول الله وقال له : أنشدني مما تقول .

فأجابه الرسول : ما هو بشعر حتى أنشدك . إنه قرآن كريم .

قال أبو ذر : اقرأ عليّ . فقرأ الرسول عليه فهتف أبو ذر بالشهادتين ، ودخل أبو ذر الإسلام والدعوة لا تزال سراً ، فكان من العشرة السابقين للإسلام ، ويقول أبو ذر : كنت رُبْع الإسلام ، أسلم ثلاثة وكنت الرابع (١).

ودخول فتى من غِفار في الإسلام كان خطيراً لأن قبيلته غفار من أخطر القبائل العربية وأعتاها ، حياتها قطع للطريق وعدوان على الآمنين ، ولكن الله يهدي من يشاء ، ونشأة أبي ذر في قبيلة كهذه جعلته يستصغر كل صعب ، ويميل للمغامرة والمخاطرة ، ومع علمه بأن الدعوة كانت سرًّا لم تعرف الجهر بعد ، فقد أحدث بمكة حدثين خطيرين .

في الحدث الأول راح إلى الكعبة وهي تعج بالأصنام وعابديها وصرخ : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وتجمع القوم عليه وأوسعوه ضرباً ولكماً وإيذاء ، حتى خر من فرط الضرب ، ولم تُنْقذه من أيديهم إلا صيحة خبير قرشي نادى بأعلى صوته : يا معشر قريش إن الرجل من غفار ، وإن استعدى قومه الذين يعيشون في طريق تجارتكم فالويل لكم . ونجا أبو ذر بسبب حكمة العباس عم النبي الذي قال هذا القول(٢) .

أما المخاطرة الثانية فكانت عند ما رأى امرأتين وثنيتين تطوفان بالأوثان ، وتتلمسان منها البركة وتقدّمان القرابين ، فاعترضهما أبو ذر ، وهاجم الأصنام والعقول التي تعبدها ، وكان تعرضه للنسوة مثيراً للرجال ، فأقبلوا عليه وضربوه ضرباً مبرحاً حتى سقط مغشياً عليه .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢ ص ٣٨ .
(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٣٧ .

ووجد الرسول أن من الحكمة أن يبعد أبا ذر عن قريش ، فليس أبو ذر بالرجل الذى يُسِرُّ عبادة الله ، وليست قريش بالجماعة التى تقبل كلمات التوحيد ، ولهذا طلب الرسول من أبى ذر أن يعود إلى قومه غفار ، فذلك خير له وللإسلام (١) .

وعاد أبو ذر ، وكان الجهر بالإسلام فى غفار على يده أسبق جهر بالاسلام فى قطعة من الأرض ، فإذا كان أبو ذر قد جهر بالاسلام فى مكة بين صلابة الباطل ، فما أيسر أن يجهر بالاسلام بين بنى قومه ، وسرعان ما استجاب لأبى ذر أهله وذووه ، ثم امتدت الاستجابة فشملت غفار كلها . ثم انتقل إلى قبيلة أسلم التى كانت تجاور قبيلته ، فارتضى الكثيرون منها دين الله ، واهتدى على يد أبى ذر أولئك الذين كانوا بالأمس قطاع طريق ومثيرى الشغب .

وشهدت المدينة المنورة عقب الهجرة موكباً حافلا يخترق الصحراء ويثير الغبار ، حتى ظنَّ بعض الناس أنه حملةٌ من أعداء الاسلام على المدينة ، ولكن سرعان ما تبين أنهم وفد غفار وأسلم ، جاءوا لمقابلة الرسول والتيمن بلقائه .

وهكذا نرى داعية من نوع جديد ، داعية مبكراً بالدعوة لدين الله ، ربما أرسله الرسول إلى غفار لحمايته من قريش ، ولكن أبا ذر ما كان يخاف إلا الله ، فراح يحمل الدعوة إلى قومه ولاقى منهم استجابة طيبة نقلت الأشرار إلى أطهار والمعتدين إلى داعين ، ولذلك وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : ما أقلَّت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبى ذر .

وعاش أبو ذر بنفس طاهرة لم يلوثها المال والانكباب على الدنيا ، وعاش عدواً للانتهازية والحرص ، وكان فى ذلك جريئاً جراءة سببت له

---

(١) المرجع السابق ص ٣١ .

كثيراً من المشكلات والمتاعب ، ولكن جرأته كانت أمينة ومعارضته كانت نزيهة ، فلم يرفع سيفاً ، ولم يقبل أن ينضم للثوار ضد عثمان ، وكان يعارض بعض التصرفات المالية ، ولكن لا يثور على الخليفة ، وقد لخص أبو ذر اتجاهاته فى وصية كان يرويها عن الرسول وهى :

أوصانى خليلى بسبع : أمرنى بحب المساكين والدنو منهم ، وأمرنى أن أنظر إلى من هو دونى ولا أنظر إلى من هو فوقى ، وأمرنى ألا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرنى أن أصل الرحم ، وأمرنى أن أقول الحق وإن كان مراً ، وأمرنى ألا أخاف فى الله لومة لائم ، وأمرنى أن أكثر من قول لاحول ولا قوة إلا بالله [1] .

وكان أبو ذر حامل راية غفار يوم حنين ، واشترك فى غزوة تبوك ، كما اشترك فى الحروب خارج الجزيرة العربية فى عهد أبى بكر وعمر ، ولكن الحرب التى اهتم بها كانت حربه ضد مكتنزى الأموال ، وقد ظهر تحديه لهؤلاء إبان عهد عثمان الذى أجزل العطايا للأغنياء ، وكان أبو ذر يرى أن الفقراء أولى بها ، وأنكر أبو ذر على الصحابة أن يكنزوا الأموال ، وراح يعلن رأيه فى كل مكان ، وزار الشام وكان معاوية والياً عليها ، وهاجم ما رآه من بذخ فى قصور معاوية ، ويروى أن معاوية أراد أن يختبر أبا ذر ويرى صدق اتجاهه الى الرغبة عن المال فأرسل إليه ألف دينار فى جنح الليل ، وأخذ أبو ذر دون توان فى تفريقها على المحتاجين حتى إذا طلع النهار كانت داره قد خلت منها جميعاً ، فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله فقال : اذهب إلى أبى ذر فقل له : أنقذ جسدى من عذاب معاوية. فإنى أخطأت ولم تكن الهدية لك ، فقال أبو ذر : يابنى عُدْ إلى معاوية فقل له : والله ما بقى فى دارنا من المال شىء ، ولكن أنظرنا ثلاثاً حتى نجمع لك دنانيرك ، فلما عرف معاوية حقيقة الرجل خاف منه ، فكتب إلى عثمان يقول : أما بعد فإن كان لك بالشام أو بأهله حاجة

---

(١) الذهبى : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٠ .

... إلى أبي ذر ، فإنه قد وغل صدور الناس ، فكتب إليه عثمان يستدعيه ، فقدم عليه (١)

وقد حاول الثائرون على عثمان أن يضموه إلى صفوفهم ، فرفض وقال : ما لهذا خرجت . وكان رأى عثمان أنه ليس من حق الخليفة أن يفرض الزهد على الناس ، ومن هنا كان اختلاف الرأى بينه وبين عثمان ، وكانت النهاية الطبيعية لأبي ذر أن يعيش فى الربذة ، فلاة من الأرض ، ليبعُد عن الثروات والثورات ، وعاش بها حتى مات . محققا بذلك قوله صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده .

وصايا الرسول للدعاة :

لدينا عدة وصايا قدّمها الرسول للدعاة الذين أرسلهم لحمل الإسلام إلى بقاع مختلفة ، ولتعليم المسلمين ، ومن الطبيعى أن هذه الوصايا نماذج حيةَ ينبغى أن نستفيد بها فى حاضرنا ومستقبلنا ، وسنوجز فيما يلى بعض هذه الوصايا :

قال صلوات الله عليه لمعاذ بن جبل : إنك ستأتى قوما أهلَ كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإن أطاعوك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فإن هم أطاعوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب .

وأرسل رسول الله صلوات الله عليه خالد بن الوليد إلى بنى الحارث بن كعب وأمره ألا يقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن يدعوهم إلى الإسلام ويعلمهم دعائم الدين وكتاب الله وسنة نبيه ، فذهب خالد بذلك ، فاستجاب له بنو الحارث ،

(١) الذهبى : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٠ .

وكتب خالد بذلك للرسول ، فأجابه الرسول بكتاب يحمد الله فيه أن اهتدى هؤلاء إلى الإسلام ، وطلب من خالد أن يبشرهم وينذرهم ، كما طلب منه أن يعود إليه ومعه وفد منهم . وعاد خالد ومعه هذا الوفد ، والتقى بهم الرسول فوعظهم وزكاهم ، ثم أرسل معهم عمرو بن حزم الأنصارى ليفقههم فى الدين ويعلمهم السنة وتعاليم الإسلام ، وكتب إليه كتابا طويلا يكون دستوره فى هذا العمل ، ونقتبس منه بعض فقرات :

أمره بتقوى الله فى الأمر كله « فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » وأمره أن يأخذ الحق كما أمره به الله ، وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به ، ويعلم الناس القرآن ، ويفقههم فى الدين ، وينهى الناس عن الشر ، ويلين إلى الناس فى الحق ، ويشتد عليهم فى الظلم . . . .[١] .

ذلك هو الطريق الذى ربى الرسول الدعاة عليه ، وهو بذلك يعطينا نموذجا ينبغى أن نقتدى به فى عهدنا الحاضر وفى المستقبل ، فداعية اليوم ينبغى أن يكون عالما واسع الفكر والفقه ، وأن يحفظ القرآن الكريم أو أكثره على الأقل ، ويحفظ مجموعة مناسبة من أحاديث الرسول ، وأن يكون واسع الأطلاع وبخاصة فى العلوم الإنسانية التى ترفع شأنه وتطلق لسانه بين الجماهير ، ويتحتم على داعية اليوم أن يكون عالما بعلوم العصر التى تفيده أكبر إفادة فى نطاق الدعوة مثل مقارنة الأديان والحضارة الإسلامية ، وأن يكون ذا عقل راجح يتعرف أحداث التاريخ بذكاء وعمق ، فلا يخدعه ما وجد فى التاريخ الإسلامى من انحراف ، بل يكون قادرا على تصحيح جوانب هذا التاريخ .

ويتحتم على داعية الحاضر والمستقبل أن يجيد لغة أوربية عالمية حتى يستطيع أن يحضر المؤتمرات الإسلامية العالمية ويحادث المسلمين غير العرب وقد كنا حديثا فى مؤتمر إسلامى فى باكستان ، وقبل ذلك كنا فى مؤتمر بماليزيا

---

(١) تاريخ الطبرى : ج ٣ ص ١٢٨ .

وأسبانيا وكانت اللغة الإنجليزية هى لغة المؤتمر والمؤتمرين . وبالإضافة إلى اللغة العالمية ينبغى على الداعية أن يجيد لغة البلاد التى يعمل بها ، وعلى الداعية المسلم بوجه عام والعربى بوجه خاص أن يجيد اللغة العربية ، وأن تكون لديه القدرة على الأداء بها ومعرفة أساليب البلاغة فيها ، فهى اللغة الأصيلة للدعوة الإسلامية .

ويتحتم أن يكون داعية الحاضر والمستقبل بعيدا عن حدود الوظائف التى تسعى للمال وتعمل للاستزادة منه ، إذ ينبغى لهذا الداعية أن يكون فيه خلق العطاء . كما رأينا من النماذج التى أسلفنا الحديث عنها ، وليس معنى هذا أن يكون الداعية محروما ، بل ينبغى أن تعطيه الحكومات مايحتاجه ، ولكننا نريده هو متطلعا للبقاء أكثر من تطلعه للنعيم الزائل .

ويتحتم أن يكون داعية الحاضر والمستقبل حسن العشرة سمح النفس واسع القدرة على الحوار الذى ينطبق عليه قوله تعالى « وجادلهم بالتى هى أحسن » وقوله « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

ويتحتم على داعية الحاضر والمستقبل أن يبشر بالخير ويتعرف على روح الإسلام وألا تكون مجالسه حافلة بالتخويف من الآخرة ، بل أن يكون الأمل فى النجاة منهجا له ، وأن تكون وسائله للوصول إلى الغاية سهلة يسيرة ؛ فالدين يسر لا عسر فيه ، ويتحتم عليه أن يهتم اهتماما كبيراً بمشكلات الناس والحياة وأن يحاول أن يعالجها بروح الإسلام ، وأن يتذكر دائما جانب المعاملة فى الفكر الإسلامى ، فليس الإسلام عبادة فقط كما يصوره كثير من الدعاة ، بل إن الإسلام يهتم بعلاقة الإنسان بربه كما يهتم بعلاقة الإنسان بالإنسان والمجتمع

ولاشك أننا إذا ربينا الداعية المسلم على هذا النمط أمّلنا منه خيراً كثيراً للإسلام والمسلمين .

- خطر ينبغي الحذر منه :

وبعد أن تحدثنا عن محمد الداعية وعن وسائل تربية الدعاة ..... نصل إلى نقطة خطيرة ، هى أن نشاط الدعاة المسلمين الأول سواء أولئك الذين رباهم الرسول أو الذين جاءوا على شاكلتهم فى القرون الأولى هو الذى دفع سواهم من أتباع الديانات الأخرى ليسيروا سيرتهم فى الدعوة لأديانهم ، وعلى هذا فعندما نستعرض الحركات الدينية بالعالم خلال القرون الماضية نجد أن الإسلام قد انتشر بطريقة رائعة فى مختلف البلدان ، فيما يسمى اليوم بالعالم العربى ، وفى شبه جزيرة الهند وفى الأندلس ، وفى جنوب الصحراء الإفريقية ، كما نجد أن انتشار الإسلام فى تلك النواحى وسواها جاء على حساب أديان ومعتقدات أخرى كانت فى تلك المناطق وآثرت الانكماش والتخلى عن بعض مناطق نفوذها للزحف الإسلامى ، الذى كان يهدر ولاتستطيع قوة أن تقف أمامه .

ولكن هذا النشاط الإسلامى دفع بعض الديانات التى تراجعت إلى إعداد دعاة ومبشرين للصمود والمقاومة والهجوم ، وبينما كان هؤلاء يتجهون هذا الاتجاه ،كان الدعاة المسلمون يرجعون القهقرى ، وينكصون عن الاستعداد ، وأصبح أكثر الدعاة المسلمين لا يتمتعون بالكفاءة والمثابرة التى كان يتمتع بها أسلافهم ممن حملوا الإسلام إلى مختلف البقاع .

وهذا الوضع يصور كارثة كبرى ومحاولة لقلب كفتى الميزان ، لترجح الكفة التى كانت شائلة ، ولتشيل الكفة الإسلامية التى كانت راجحة ، وهذا يدعو إلى سرعة التصرف لنعد للدعوة رجالا أفذاذا يحملون العبء الذى كان يحمله المسلمون فى العهود السابقة .

وإعداد هؤلاء الدعاة يجعلنا نحتاج إلى شباب لهم مواهب عالية ، وإلى مناهج تنمّى هذه المواهب ، وتسكب فى هذه العقول صور الفضائل ،

وصور الفكر ، ليحملوا المشعل، وليسيروا بالهداية إلى كل مكان ، أما الشباب ذوو المواهب فيجب البحث عنهم وتشجيعهم بكل الوسائل ليتجهوا هذا الاتجاه ، ومن عجب أننا نلاحظ قوى هائلة تبحث عن الأصوات الجديدة للغناء وتبحث عن الوجوه الجديدة للتمثيل ، ولانجد من يبذل أى اهتمام أو أى جهد للبحث عن القدرات التى تحمل الهداية للبشرية ، وتقدم للناس خاتمة الديانات .

أنها صيحة ، نرجو الله أن ييسر من المسلمين مَنْ يحمل عبأها ويسعى لتنفيذها .

الرسول فى بيته

ينبغى للمسلم أن يتعرف على حياة الرسول فى أسرته ،فحياة الرسول فى بيته نموذج رائع ، وبخاصة أن بيت الرسول عرف الغنى والثراء أيام السيدة خديجة وعرف الكفاف بل ماهو أقل منه فى كثير من الأيام ، وفى بيت الرسول كانت هناك زوجات كلهن طاعة وإخلاص ، ولكن بين زوجات الرسول مَنْ كانت تعوزها بعض الصفات العالية حتى حاول الرسول أن يطلقها أو طلقها فعلا ، وكان فى بيت الرسول غَيْرَةٌ ومنافسة ومؤامرة ضده أحياناً، ومعنى هذا أن الرسول وهو صفوة ممتازة بين البشر كان بيته فى بعض جوانبه عادياً ، وهذا يفيدنا فائدة كبرى لنتعلم من الرسول كيف عالج أمور هذه الأسرة ، وكيف كان ربان السفينة ماهراً فجعل سفينته تتغلب على الأنواء والعواصف ، ولو قد كانت أسرته مثله صفوةً لما استطاع المسلم أن يحتذيها ، ولكانت مجتمعاً مثالياً ليست به مشكلات الحياة التى توجد فى الأسر العادية ، وإنه ليبدو أن الله سبحانه وتعالى كوّنها على هذا النمط لنرى رائدها وهو يسوس جماعته ، فيتعلم منه المسلمون كيف يسوسون أسرهم ويدبرون حياة بيوتهم .

هذا، ومن الواضح أن الله سبحانه وتعالى خصّ زوجات الرسول بخصائص كالحجاب وألا يتزوجن بعده : . . . وسنرى ذلك فيما بعد ، كما سنرى طريقة المعاملة فى هذا البيت الكريم .

وسيشمل حديثنا عن « الرسول فى أسرته » دراسة عن زوجاته وأولاده وأحفاده وخدمه :

زوجات الرسول

خديجة :

كانت السيدة خديجة تُدْعى فى الجاهلية الطاهرة ، وهى أولى زوجات الرسول وأم أولاده ، ولم يعقب الرسول من غيرها إلا من مارية ، وكانت هذه ملك يمين أنجب الرسول منها ابنه إبراهيم ، وقد سبق أن تحدثنا عن السيدة خديجة التى خطبت محمداً لنفسها ، وكان محمد معجباً بها ، فرحب بذلك ، وزُفَّت له سيدة قريش التى رفضت قبله أغنى رجالات قريش الذين تقدموا يطلبون يدها ، وقد وضعت خديجة مالها فى خدمة الرسول ، فكان يتَّجر فيه كما يرى ، وينفق منه كما يشاء .

وهيأت خديجة لزوجها ما يناسبه من حياة ، فلما لجأ عليه السلام للتحنُّث فى غار حراء كانت تُعِدُّ له ما يحتاجه من طعام وشراب خلال الفترة التى سيعتكف فيها بالغار فلما جاءه الوحى كانت أول من صدَّقه ، وعانت معه صراع قريش ضده ، وكانت البلسم الشافى لجراحه من هؤلاء المعتدين ؛ ودخلت معه الشِّعْب عندما قرر سادة قريش أن يقاطعوا المسلمين . . . ومن الواضح أن خديجة كانت تعنى بالرسول أعظم عناية ، ويقول عنها ابن هشام [1] إنها كانت وزير صدق لمحمد ، كانت تهوِّن عليه ما يلاقى من عنت قريش ، ولم يتزوج الرسول غيرها فى حياتها ، ولا تسرَّى إلى أن قضت نحبها ؛ فلما ماتت لم يطق الرسول أن يبقى بمكة ، وبدأ يُعِدُّ العدة للهجرة من مسقط الرأس حيث اشتد عليه الأعداء بعد فقد أبى طالب وخديجة فى عام واحد أسماه المسلمون عام الحزن .

رحم الله خديجة وأجزل ثوابها ، لقد كانت نموذجاً رفيعاً للزوجة المسلمة التى تعين زوجها بكل ما تملك من مال وجهد ولا تبتغى إلا مرضاته

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٦ وسير أعلام النبلاء للذهبى ج ٢ ص ٨١ .

تعالى ، وكان الرسول يذكرها بالخير دائماً ويقول : كانت خديجة خير نساء العالمين ، وإن لخديجة بيتاً في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب ، وإني لأعرف فضلها ، ولذلك كانت عائشة تغار منها ، وتقول : ما غرت من امرأة من نساء النبي غيرتي من خديجة لما كنت أسمع من ذكر الرسول لها(١) ويروى أن السيدة عائشة أخذتها الغيرة مرة من ذكر الرسول لخديجة وثنائه عليها فقالت : قد أبدلك الله خيراً منها . فقال : ما أبدلني الله خيراً منها ، لقد آمنت بي حين كفر الناس ، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد .

وقد توفيت السيدة خديجة في رمضان قبل الهجرة بثلاث سنوات ودفنت بالحجون(٢) .

سودة بنت زمعة :

لما ماتت السيدة خديجة اشتدت الأحزان بالرسول الكريم ، فقد اختفت أم العيال وربة البيت ، ولم يعد له من يكفكف آلامه وشجونه إذا عاد إلى البيت وقد نال منه الأشرار ما تعودوا أن ينالوا ، ولم يعد بالبيت من يرعى بنات الرسول بعدأن فقدن أمهن ، ويروى أن خولة بنت حكيم زوجة عثمان ابن مظعون — أحد الذين هاجروا إلى الحبشة وعادوا منها إلى مكة ظناً منهم أن قسوة قريش على المسلمين قد تراخت بعد أن زاد عدد المسلمين بمكة — قالت للرسول : لم لا تتزوج من تعوضك عن خديجة بعض حنوها وعطفها ؟ فسكت الرسول . فقالت له خولة : هل تقبل أن أخطب لك زوجة أخرى ؟

فأجاب الرسول : لا بأس إنكن معشر النساء أرفق بذلك .

قالت خولة : إن أردت بكراً فعائشة بنت أبي بكر ، وإن أردت ثيباً فسودة بنت زمعة ، وكانت عائشة لاتزال في حوالي السادسة من عمرها ، فوافق على الزواج من سودة وكانت سودة أرملة ؛ فقد كانت متزوجة من ابن عمها

---

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ص ٤١٢ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ص ٨٦ .

« السكران بن عمرو » ، وقد أسلما فى مطلع الإسلام وهاجرا للحبشة ، ثم عادا لمكة ، وبعد قليل مات السكران ، فقبل الرسول الزواج منها ، وكان لا يزال فى مكة لعلها تملأ عليه بعض الفراغ الذى تركه وفاة خديجة ، ثم ليحميها من اضطهاد قريش .

وينقل الأستاذ أحمد عطية الله(١) من مصدر لم يذكره وصفاً لحالة سودة بنت زمعة يوضّح الأسباب التى دعت الرسول للزواج منها ، يقول « كانت سودة أرملة مسنة ، ثقيلة الجسم والحركة ؛ فمد الرسول صلى الله عليه وسلم يده الرحيمة يسند شيخوختها ويهوّن عليها الذى ذاقت من نكد الحياة » .

ولكن سودة لم تكن زوجة مثالية للرسول ، ولم تكن جديرة بالعبء الذى تقدمت لحمله ، وكانت علاقتها بالرسول وبناته غير مرضية ، ويذكر ابن هشام(٢) أن سودة حينما رأت سهيل بن عمرو (أخا زوجها) ضمن أسرى بدر ويداه معقودتان إلى عنقه قالت : أىْ أبا يزيد سلّمتم أيديكم ؟ ألا مِتُّم كراماً ؟ فسمعها الرسول فقال لها : ياسودة ، أعلى الله ورسوله تحرضين ؟ قالت : يا رسول الله والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد أن قلتُ ما قلتُ .

وقد هم الرسول بطلاق سودة ولكنها تضرعت إليه وقالت : يارسول الله لاتطلقنى وأمسك بى رحمة منك ، ولا تتركنى عرضة للضياع — فقبل رجاءها ويبدو أن سودة استمرت على بعدها عن الجادة ، ولذلك يروى البلاذرى (٣) أن الرسول طلقها سنة ثمانى من الهجرة تطليقة ، ثم تضرعت إليه فراجعها .

---

(١) القاموس الإسلامى حـ ٣ ص ٥٥٧ .
(٢) سيره ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٩ (تحقيق طه عبد الرءوف) .
(٣) أنساب الأشراف ص ١٠٧ .

عائشـــة :

ونجيء بعد ذلك إلى أحب زوجات الرسول إليه بعد خديجة ، إلى السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وتذكر الروايات أن الله سبحانه وتعالى هو الذى زوج رسوله من عائشة ، فقد رأى الرسول فى المنام شخصاً يحمل إليه قطعة من الحرير الأخضر ، وقد نقشت فيها صورة ، فلما كشف عن الصورة سأله الرسول : من هذه ؟ فأجيب : هذه عائشة ، وهى زوجتك فى الدنيا والآخرة ، إنها تُذهب بعض حزنك وإن فيها لخلفاً لخديجة .

وكان الرسول قد عقد عليها هى وسودة فى وقت واحد تقريباً عقب وفاة خديجة ، ودخل بسودة وأجّل الدخول بعائشة لصغر سنها ، فلما وجد أن سودة لم تملأ فراغ نفسه دخل بعائشة فى شوال سنة اثنتين للهجرة ، منصرفه من غزوة بدر ، وكانت فى التاسعة من العمر ، وبنى لها حجرة بجوار المسجد ، وكان جهاز عائشة بسيطاً جداً ، إنه حصير ، وسرير مشدود بالحبال ، وبعض الأوانى من الفخار فى حجرة واحدة تمس اليدُ سقفَها .

وتقول عائشة فى رواية الإمام البخارى : نقلنى رسول الله بالزواج منه إلى عالم آخر لم أكن أهتدى إليه بدونه ، وعشتُ معه الحياة التى رسمها ربه ، حياة النبوة ، والزهد فى متاع الدنيا ، والرغبة فى الآخرة .

وقد ولدت عائشة فى الإسلام وهى أصغر من فاطمة بحوالى ثمانى سنوات

وقد روت عائشة عن الرسول — كما يقول الذهبى — علماً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، كما روت عن أبيها وعن عمر ، وروى عنها عدد كبير من الصحابة والتابعين (١) ويروى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى أنه قال : ما أشكل علينا حديث قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً (٢)

وكانت أقرب نساء الرسول إليه ؛ وهى تحكى ذلك بقولها : فضلت على نساء الرسول بعشر ولا فخر ، كنت أحب نسائه إليه ، وكان أبى أحب رجاله إليه ، وتزوجنى بكراً ولم يتزوج بكراً سواى ، وتزوجنى لسبع ، وبنى بى لتسع ، ونزل عذرى من السماء . واستأذن النبى صلى

---

(١) سير أعلام النبلاء ح ٢ ص ٩٨ وما بعدها .   (٢) المرجع السابق : ص ١٢٦ .

الله عليه وسلم نساءه فى مرضه قائلا لهن : إنى لا أقوى على التردد عليكنّ ، فأذَنّ لى أن أبقى عند بعضكن، فقالت أم سلمة : قد عرفنا مَن تريد ، تريد عائشة ، قد أذنّا لك ، وكان آخر زاده فى الدنيا ريقى فقد استاك بسواكى ، وقبض بين حجرى ونحرى ، ودفن فى بيتى ،

وتقول السيدة عائشة إن الرسول أعرس بها فى شهر شوال وكانت العرب تستحب أن تُعرس فى هذا الشهر .

وروى أن الرسول قال لها : إنى أعرف غضبك إذا غضبتِ ورضاءك إذا رضيت . قالت : وكيف تعرف هذا ؟ قال : إذا غضبت خاطبتنى يا محمد ، وإذا رضيت خاطبتنى : يارسول الله .

وسئلت أم سلمة : هل كان الرسول يقبل وهو صائم ؟ قالت : لا . فقيل لها : إن عائشة تقول إنه كان يقبل وهو صائم . قالت أم سلمة : لعله كان يفعل ذلك مع عائشة ، أما معى فلا .

وكانت عائشة كثيرة الصدقة ، ويروى أن معاوية بعث لها بمائة ألف درهم ، ويقول عروة بن الزبير ، والله ما أمست حتى فرقتها ، فقالت لها مولاتها : لو اشتريت لنا منها بدرهم لحماً ، فأجابت السيدة عائشة قائلة : لو ذكرتينى لفعلت ، وتوفيت السيدة عائشة سنة خمسين للهجرة وقيل سنة ثمان وخمسين ودفنت بالبقيع (١) ..

زينب بنت خزيمة :

وتزوج الرسول زينب بنت خزيمة التى كانت تلقب « أم المساكين » لكثرة برها ، وزينب كانت زوجة عبيدة بن الحارث أول شهيد فى غزوة بدر ، فقد سقط فى المبارزة التى ابتدأت بها الغزوة فأراد الرسول إكرام زوجته وتخفيف آلامها ، ولم يطل عمر زينب بل ماتت عقب الزواج بفترة غير طويلة .

---

(١) انظر ترجمة السيدة عائشة فى سير أعلام النبلاء ص ٩٨ — ١٤٢ .

حفصة بنت عمر :

وتزوج الرسول بعدها حفصة بنت عمر ؛ وكانت حفصة زوجة خنيس ابن خزامة ومات هذا الزوج بعد فترة قصيرة من الزواج بحفصة وتركها وكانت لم تصل سنّ العشرين ، وفكر عمر أن يقدمها زوجة لعثمان بن عفان الذى كان قد فقد زوجته رقية بنت الرسول منذ فترة قصيرة ، فذهب عمر يعرض ذلك على عثمان ، ولكن عثمان سكت ولم يجب بشىء ؛ فذهب عمر يشكو ذلك لأبى بكر ويعرض عليه أن يتزوجها هو ، فواجه عمر نفس الصمت من أبى بكر ، فذهب عمر يشكو ذلك للرسول فتلقى جواباً أسمى من آماله ، قال له الرسول : يتزوج حفصة مَنْ هو خير لها من عثمان وأبى بكر ويتزوج عثمان من هى خير له من حفصة ، وفهم عمر ما يقصده الرسول ، ففرح بذلك ، ويروى أن عثمان وأبا بكر لم يُقْبِلا على الزواج من حفصة لأنهما سمعا الرسول يذكرها ، فأحس كل منهما أن الرسول قد يكون راغباً فيها تكريماً لعمر ، ولم يستطيعا أن يقولا ذلك لعمر مخافة أن يكونا مخطئين فى إحساسهما . وبنى الرسول حجرة بجوار حجراته تزوج فيها حفصة ؛ وكانت حفصة حسنة الصلة بعائشة وكانت لا تكتمها شيئاً ، إنما كان أمرهما واحداً ، وعاشت حفصة حتى زمن معاوية ابن أبى سفيان ، ولما ماتت صلى عليها والى المدينة مروان بن الحكم (١) .

وكانت عائشة تقول عن حفصة : إنها هى التى كانت تساميني من أزواج رسول الله ، ويقول الذهبي : إن رسول الله طلقها تطليقة ، فلما عرف عمرُ ذلك تألم واشتد به الألم ، وقال ما يعبأ الله بعمر وابنته ، فنزل الوحى على الرسول يقول له إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر (٢).

---

(١) الذهبى : سير أعلام النبلاء : ص ١٦٣ .

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ص ٤٢٤ .

زينب بنت جحش :

وتزوج الرسول زينب بنت جحش بنت عمة الرسول (أميمة بنت عبد المطلب) وأخوها عبد الله بن جحش الذى استُشهد فى غزوة أحد ، وكان الرسول قد زوَّجها من زيد بن حارثة مولاه ، وبقيت معه مدة عام لم تكن راضية عن هذا الزواج لعدم التكافؤ فى نظرها بينها وبين زيد ، وطلقها زيد وتزوجها الرسول بأمر الله للقضاء عملياً على فكرة التبنى ، وتحريم زوجة الابن المتبنى كما سنرى ذلك عند الحديث عن حكمة تعدد الزوجات .

وكانت زينب تفخر بأن الله تعالى هو الذى زوجها بنص كتابه بلا ولى ولا شهود ، وكان ذلك فى قوله تعـالى : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها » ، وتقول عن باقى أمهات المؤمنين : أما هؤلاء فزوجهن أهلـهن ، وكانت زينب من خيرة النساء ديناً وورعاً وجوداً ومعروفاً ، وقد أرسل لها عمر مرة عطاء كبيراً ، فقالت : صبُّوه . وأخذت تفرقه فى رحمها وأيتامها ولم تُبْقِ منه لنفسها شيئاً ، واتجهت إلى الله قائلة : اللهم لا يدركنى عطاء عمر بعد عامى هذا . واستجاب الله لها ، فماتت بعد ذلك بقليل .

وكان الرسول يقول : أسرعكن لحوقاً بى أطولكن يداً ، فلما ماتت زينب قالت عائشة : إن طول اليد الذى قصده الرسول هو كثرة المعروف ، وكانت زينب تعمل وتتصدق ، فيروى أنها كانت تجيد دبغ الجلود وتصنع منها ما يصلح للناس وتتصدق به :

وتقول عائشة واصفة زينب بنت جحش : كانت زينب تساميني

فى المنزلة عند رسول الله صلىَ الله عليه وسلم ، ما رأيت امرأة خيراً فى الدين من زينب ، ولا أصدق حديثاً ، وأوصل للرحم وأعظم صدقة منها رضى الله عنها(١) .

أم سلمة :

وتزوج الرسول هند بنت أمية وكانت زوجة عبد الله بن عبد الأسد ابن عمة الرسول ، وكان هذا قد مات متأثراً بجراح أصابته فى غزوة أحد ؛ وكان لها منه ولد اسمه « سلمة » ولذلك كانت تسمى أم سلمة ، وقد تزوجها الرسول عقب وفاة زينب بنت خزيمة ، وأسكنها الرسول فى الحجرة التى كانت هذه تعيش فيها .

وأم سلمة هى السيدة المحجبة الطاهرة المخزومية بنت عم خالد بن الوليد وأبى جهل بن هشام ، وقد تزوجها الرسول سنة أربع من الهجره ، وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسباً ، ويروى أن زوجها قال لها وهو يحتضر : إذا مت تزوجى ، واللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلا خيراً منى ، لا يخزيها ولا يؤذيها ، فلما مات قالت أم سلمة : من خير من أبى سلمة ؟ فلما خطبها رسول الله أدركت أن دعوة أبى سلمة قد استُجيب لها .

وتقول أم سلمة إن الرسول عند ما خطبنى قلت له : فىّ خصال ثلاث : كبيرة السن ، مطفل (كثيرة الأطفال) ، غيور ، فقال لها الرسول : أما الغيرة فيذهبها الله ، وأما السن فأنا أكبر منك ، وأما الأطفال فعلى الله وعلى رسوله ، وتزوجها الرسول .

وتقول عائشة : لما تزوج الرسول أم سلمة حزنتُ حزناً شديداً لما

---

(١) الذهبى : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٤٩ وما بعدها .

ذكروا عن جمالها ، فتلطفتُ حتى رأيتها ، فرأيت أضعاف ما وُصِفَت لى فى الحسن ، فذكرت ذلك لحفصة ؛ وكانت قريبة منى ، فقالت لى إن هى إلا غَيْرة . وذهبت فرأتها ، وعادت تقول : إنها لجميلة ولكن ليس إلى الحد الذى تقولين ؛ وكانت حفصة أقرب إلى الصواب .

وأم سلمة كانت آخر من مات من أمهات المؤمنين ، وقد امتد بها العمر حتى بلغها مقتل الحسين رضى الله عنه فوجمت لذلك وغُشِى عليها . وحزنت حزنا شديداً ، ولم تلبث بعد إلا يسيراً وانتقلت إلى رحمة الله (١) .

جويرية :

وفى السنة السادسة للهجرة تزوج الرسول برة بنت الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق أحد بطون خزاعة وأسماها « جويرية » وكان الحارث قد ساعد قريشا فى أحُد ، ثم حاول فى السنة السادسة أن يجمع جموعه ويهاجم المدينة ، فخرج له المسلمون ، وقامت معركة عند ماء يسمى « المريسيع » وتم النصر للمسلمين ، وغنم المسلمون كثيراً من المال وأسروا عدداً من النساء والصبيان ، وكانت برة ضمن الأسرى وقد وقعت فى سهم ثابت بن قيس فكاتبته على نفسها ولكنه أغلى الفداء ، فجاءت برة إلى الرسول تستعينه فى قضاء ما عليها ، وقالت له : أنا بنت الحارث ابن أبى ضرار ، وقد أصابنى من البلاء مالم يخف عليك ، فوقعتُ فى السهم لثابت بن قيس ، فكاتبته على نفسى وجئتك أستعينك على أمرى ، فتأثر الرسول بحالها وحالات أمثالها ومثيلاتها ، فقال لها : هل لك فى خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أقضى عنك ماعليك وأتزوجك ؟ قالت : نعم يا رسول الله . قال : قد فعلت .

وخرج الخبر إلى الناس ، فقالوا كيف نسترق أصهار رسول الله ،

(١) الذهبى : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٤٢ وما بعدها .

فأعتق المسلمون أسراهم . قالت عائشة : ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة من برة ، وقد أسلم أبوها وقومها عقب ذلك ، وهناك رواية أخرى أن أباها افتداها ثم خطبها الرسول منه وتزوجها (١) .

وماتت جويرية سنة ٥٦ هـ وصلى عليها مروان بن الحكم والى المدينة من قبـل معاوية :

صفيه بنت حيي :

ومن أمهات المسلمين كذلك صفية بنت حيي بن أخطب ، وأبوها سيد بني النضير الذين ثبت تآمرهم ضد الرسول فأخرجهم المسلمون من المدينة، فاتجه بعضهم إلى خيبر واتجه آخرون إلى حدود الشام ، وكان حيي بن أخطب ممن اتجهوا إلى خيبر ، وفى غزوة الأحزاب وفد حيي مع المهاجين ، ودخل حصون بنى قريظة يحثهم على الغدر بالمسلمين ، ونال ماناله بنو قريظة عندما استجابوا للغدر ، فقُتِـلَ مع من قتل منهم .

أما صفية بنته فكانت زوجة لأحد زعماء بنى النضير واسمه سلام بن مشكم وفارقها سلام فتزوجت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق . وهو من زعماء بنى النضير أيضاً ، وهو كذلك الذى كان يشرف على أموالهم فيما يشبه الآن « البنوك » يقول ابن هشام (٢) : كان عند كنانة كنز بنى النضير ؛ فلما سقط حصن الغموص أمنع حصون خيبر فى السنة السابعة للهجره طلب الرسول من كنانة أن يسلِّم ماعنده من أموال بنى النضير ، فأنكر كنانة أنه يعرف أموالهم . فقال له الرسول : أرأيت إن وجدنا المال عندك أأقتلك ؟ قال نعم . وكانت هناك خربة اعترف أحد اليهود بأن كنانة يطوف بها ويحملق فيها ، فأمر الرسول بأن تحفر الخربة فحُفِـرَت فوجد بها الكنز ، فسلم الرسول

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٨٦ — ١٨٧ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢١٧ (تحقيق طه عبد الرؤوف) .

إلى محمد بن مسلمة ليقتله قصاصا لأخيه محمود بن مسلمة الذى كان كنانة قد قتله .

وكانت صفية بنت الأسرى فوقعت فى سهم الرسول صلوات الله عليه وسلم ، وبعد أن انتهى الرسول من تدبير أمر اليهود سأل صفية عن رأيها فى اليهودية والإسلام، فقالت له: يا رسول الله لقد هويت الإسلام وصدّقت بك قبل أن تدعونى إلى ذلك ، وقد كان أبى يعرف صدق دعوتك ، ولكن العصبية ذهبت به ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله : وسألها الرسول إذا كانت توافق على الزواج منه فاستجابت مرحّبةً بذلك ، فأعتقها الرسول وتزوجها ، وتم الزواج فى طريقه من خيبر إلى المدينة ، وكانت صفية غاية فى الإخلاص للإسلام ولرسول الإسلام ، كما كانت شريفة عاقلة ذات حسب وجمال ودين .

وتوفيت صفية فى منتصف القرن الأول للهجرة ودفنت مع أمهات المسلمين بالبقيع .

أم حبيبة :

وفى السنة السابعة للهجرة تزوج الرسول رملة بنت أبى سفيان بن حرب وهى من بنات عم الرسول وليس من أزواجه من هى أقرب إليه منها .

وكانت رملة متزوجة من عبيد الله بن جحش ، وكان عبيد الله قبل الإسلام يضيق بالوثنية ويسخر منها ، وبقى على حال من الالتباس لا يدرى ماذا يفعل ، فلما ظهر الإسلام دخل عبيد الله دين الإسلام ، وهرول إلى زوجته رمله يذكر لها أنه عرف مبعث محمد من التوارة والإنجيل ، وكان يلجأ إليهما وهو يبحث عن الطريق الصواب ، وأنه لذلك دخل الإسلام ، ودعاها عبيد الله إلى دخول الإسلام فاستجابت له ، وهاجرت معه إلى الحبشة .

وأنجبت رملة لعبيد الله بنتاً أسمتها « حبيبة » فأصبحت تُكَنَّى « أم حبيبة »

وقد فاجأها عبيد الله يوماً وهما بالحبشة بخبر مؤلم هو أنه اعتنق المسيحية ، فصرخت فى وجهه وناقشه كثير من المسلمين الموجودين بالحبشة ، ولكنه أصر على رأيه ، ففارقته أم حبيبة إذ لم يكن لمسلمة أن تعيش زوجة لمسيحى ، ومات عبيد الله عقب ذلك ، وعرف الرسول خبرها فأرسل يخطبها عن طريق نجاشى الحبشة ، فسعدت بهذا الخبر ، وتم اجتماع فى قصر النجاشى حضره وجوه المسلمين هناك مع النجاشى ورجاله ، وحضره كذلك عمرو بن أمية الضمرى الذى أرسله محمد إلى النجاشى ليخطب له أم حبيبة وليدعو المسلمين بالحبشة للعودة للمدينة بعد أن قوى شأن الإسلام هناك [1]، وفى هذا الحفل تم هذا الزواج، وكان خالد بن سعيد بن العاص ، وكيل الزوجة، ودفع النجاشى مهر العروس من ماله وقدره أربعمائة دينار ، ويقال أن فيها نزل قوله تعالى « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة » [2] وقد بارك أبو سفيان هذا الزواج عندما سمع به .

وعادت أم حبيبة إلى المدينة مع جعفر بن أبى طالب ومع المسلمين ، وكان وصولها عقب فتح خيبر ، ولذلك أثر عن الرسول قوله : ما أدرى بأيهما أسر ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر .

وماتت أم حبيبة سنة ٤٤ هـ وقبل أن تموت أرسلت إلى عائشة تقول لها : قد كان بيننا ما يكون بين الضرائر ، فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك ، قالت عائشة : غفر الله لك ذلك كله فقالت أم حبيبة : سررتنى سرك الله . وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك [3] .

---

(١) لم يَدْعُ الرسول المهاجرين لحبشة للحضور لمدينة عقب الهجرة وذلك بسبب المشكلات الاقتصادية والعسكرية التى واجهت المسلمين بالمدينة عقب الهجرة ، وقد سبق أن ذكرناها .

(٢) سورة الممتحنة الآية السابعة .

(٣) الذهبى : سير أعلام النبلاء : ص ١٥٩ .

ميمونة :

وفى عمرة القضاء تزوج الرسول ميمونة بنت الحارث ، وهى أخت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب وكانت ميمونة قد جعلت أمرها لأختها أم الفضل ، فجعلت أم الفضل أمر ميمونة إلى العباس ، فزوجها رسولَ الله بمكة وأصدقها عن الرسول أربعمائة درهم .

وقد أراد الرسول أن يطيل مقامه بمكة بعد انقضاء الأيام الثلاثة التى كان قد تم الاتفاق عليها ليصنع طعاماً ويدعو أهل مكة إليه ويعرس بميمونة ، ولكن حويطب بن عبد العزيز قال للرسول قد انقضى أجلك ولا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنا ، فخرج الرسول من مكة ، وأعرس بميمونة بمكان يسمى «سرف» قرب التنعيم . وماتت ميمونة بنفس المكان سنة ٦٣ هـ(١) .

تعــدد الزوجات فى الإسلام

وتعدد زوجات الرسول بوجه خاص

واستكمالا للحديث عن زوجات الرسول اللاتى تعددن كما سبق يجدر بنا أن نشرح تعدد الزوجات فى الإسلام بوجه عام، وسر تعدد زوجات الرسول بوجه خاص ، وموضوع تعدد الزوجات موضوع مهم يتحدث عنه الناس من مسلمين وغير مسلمين ، وفيهم من يدرك هدف الإسلام فيثنى على الإسلام بسبب ذلك ، وفيهم من يطعن فى الإسلام ويحمل عليه لإباحته تعدد الزوجات ؛ ومن الناس كذلك من يدرك البواعث التى دفعت الرسول ليتزوج عدة مرات(٢) ، ومنهم من يتجاوز الحد فيتهم الرسول

---

(١) ابن هشام : ج ٤ ص ٥ - ٦ .

(٢) تزوج الرسول بعد خديجة ثلاث عشرة زوجة دخل بإحدى عشرة منهن كما ذكرنا من قبل وطلق اثنتين قبل الدخول (انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٢٥٢ - ٢٥٤) .

تهماً جسمانية يجل عنها ؛ والآن ، ونحن بصدد شرح أفكارنا فيما يتعلق بتعدد زوجات الرسول ، ذلك التعددالذى ظهر فى المدينة ، أى فى هذه الفترة التاريخية التى وصلنا لها فى عرضنا لأحداث التاريخ الإسلامى، نرى من الأفضل أن نتحدث أولا عن تعدد الزوجات فى الإسلام عموماً حديثاً قصيراً نردُّ به عن الإسلام الفرية التى يرميه بها بعض المفكرين ، ثم نثنى فنتحدث عن تعدد زوجات الرسول ودوافعه :

تعدد الزوجات فى الإسلام :

يتجه بعض الباحثين إلى أن الأصل فى الزواج فى الإسلام هو الزوجة الواحدة ، ويوردون على ذلك بعض الأدلة ، ومنها ما يلى :

قوله تعالى : فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ؛ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة(١) .

وقوله تعالى : ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم(٢) .

ويعلق المرحوم قاسم أمين على هاتين الآيتين بقوله :

ولو أن ناظراً فى الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه بعيداً عن معناهما ، لولا أن السنة والعمل جاء بالإباحة فى الجملة(٣) .

وروى البخارى عن مسور بن مخرمة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : إن بنى هشام بن المغيرة استأذنوا فى أن يُنكحوا بنتهم على بن أبى طالب ، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد على بن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإنما فاطمة بضعة منى ، يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها .

(١) سورة النساء الآية الثالثة .

(٢) سورة النساء الآية ١٢٨ .

(٣) تحرير المرأة : فصل تعدد الزوجات .

وقد أخذ العلماء أو فريق منهم من هذا الحديث أن الشريفة التى يؤذيها أن يتزوج رجلها بأخرى لا يحل إيذاؤها بالتزوج عليها ، وإن اشترطت ذلك على الرجل ، أو كانت تلك هى عادة القوم ، فعليه الوفاء [1] .

والقدرة على تكاليف التعدد شرط فيه ، فقد روى أن الرسول صلوات الله عليه ، قال مخاطباً الشباب : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » فهو لا يرى للأعزب أن يتزوج عند عدم الباءة (وهى مسئوليات الزواج من جميع النواحى) ، ويصف له الصوم علاجاً ، ولاشك أن روح الحديث الشريف توضح ضرورة الاكتفاء بزوجة واحدة لأى زوج غير قادر على الباءة بالنسبة لزوجة أخرى ، ولو نفّذنا هذا الشرط لقلّ تعدد الزوجات بشكل ملحوظ .

فالزوجة الواحدة على ذلك هى الأصل فى الإسلام ، وقد سار على ذلك الأصل الغالبيةُ العظمى من المسلمين ، وبلغ هؤلاء مثلا فى جمهورية مصر العربية أكثر من ٩٧ ٪ .

بيد أن عوامل متعددة تدفع الرجل — مسلما كان أو غير مسلم — إلى التزوج بزوجة أخرى ، وتكون هذه الحالة ملحة أحياناً كعدم الولد ومرض الزوجة ، فتعدد الزوجات هنا أحسن من اتجاه المسيحية إلى طلاق العاقر أو المريضة ثم الزواج بأخرى ، وكعدم القدرة على الصبر دون الاتصال الجنسى حقبة الحيض أو النفاس ، وكالرغبة التى تغلب على بعض الرجال فتجعل حاجتهم الجنسية لا يطفئها إلا عدد من الزوجات ، وعن هذا النوع يقول الإمام ابن القيم : من الناس من يغلب عليه سلطان هذه الشهوة بحيث لا تحصّنه المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة عن الواحدة إلى الأربع وإذا كان الباعث معلوماً فينبغى أن يكون العلاج بقدر العلة ، فالمراد تسكين النفس ، فلينظر إليه فى الكثرة والقلة [2] .

---

(١) كمال أحمد عوف : المرأة فى الإسلام .
(٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين ج ٢ ص ٨٤ .

فهؤلاء وأمثالهم لم يتركهم الإسلام لقيادة الشيطان : بل رسم لهم ما يحقق رغبتهم أو بعضها فى إطار حلال وهو إباحة تعدد الزوجات .

هذا من جهة الرجل ، فإذا جئنا إلى المجتمع ، وجدنا ظروفاً كثيرة تجعل تعدد الزوجات وسيلة لحل مشكلة به ، فلعل تعدد الزوجات هو الوسيلة الصالحة لحل مشكلة زيادة عدد النساء على الرجال وبخاصة بعد الحروب والفتن حيث تصبح هذه الزيادة كبيرة ، ولا نزاع أنه أكرم للمرأة حينئذ أن تتزوج متزوجاً من الرضا بعلاقة الخليلة التى لا حقوق لها ولا لأولادها لدى الرجل ، وأكرم لها كذلك من حياة العانس لما فى هذه الحياة من حرمان وفقر .

بقى أن نقول عن تعدد الزوجات إنه ليس من صنع الإسلام ، وإنما هو تشريع قديم عرفته كل الحضارات وفى مقدمتها التوراة ، وأقره الإنجيل إلا فى حالة واحدة هى حالة الأسقف حيث لا يستطيع الرهبنة مع تعدد الزوجات ، فليكتف بزوجة واحدة ، وقد بقى تعدد الزوجات معمولا به فى العالم المسيحى حتى حرمته القوانين الوضعية ، ولم يقبل الإسلام تعدد الزوجات على النحو الذى عرفته حضارات الماضى ، بل حدده بعد أن لم يكن محدداً ، ونظمه بعد أن كان لا نظام له ، وقيده وكان من قبل مطلقاً .

تعدد زوجات الرسول :

أما تعدد زوجات الرسول فموضوع آخر ، فالله قد أباح له أى عدد من الزوجات فى السنوات الأولى من حياة المسلمين بالمدينة . لماذا كانت هذه الإباحة ؟ ولماذا تزوج الرسول تبعاً لهذه الإباحة هذا العدد من الزوجات ؟ وهل كان ذلك كما يقول أعداء الإسلام لأن الرسول كان يحب النساء ؟

الجواب على ذلك سهل واضح : هو أن مثل هذه التهمة لا يمكن أن توجه إلى رجل أمضى عهد شبابه وعهد قوته قانعاً بزوجة واحدة كانت أكبر منه سنا وكانت ثيباً عندما تزوجها ؛ وهل يمكن أن يتهم بحب النساء رجل لا يتزوج غير واحدة وهو فى الثلاثين والأربعين والخمسين ؟

فإذا تزوج الرسول بعد ذلك وبعد خمسين سنة حافلة بالكفاح والنضال فلا يمكن أن يكون قد تزوج لغرض جنسى .

ولم يعقب الرسول نسلا من النساء اللاتى تزوجهن بعد خديجة ولعل الباحث يستطيع أن يستنبط أن علاقته الجنسية بهن كانت محدودة ، وإلا فلماذا لم يعقب من أى منهن مع أنهن فيما عدا عائشة كن متزوجات قبله وكان لأكثرهن أولاد من الزيجات السابقة ؟

ولم يحدث قط أن اختار زوجة لأنها مليحة وسيمة ، مع أنه — فى مكانته وسلطانه — لم يكن عسيراً عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب وأرق بنات الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية ، ولم يبن بعذراء إلا بعائشة التى اختارها أو اختيرت له من أجل ظروف أخرى (١) .

لماذا إذن تعدد زوجاته ؟

الجواب على ذلك سهل بعد هذه المقدمات ، فمن المعروف أنه فى الظروف الاستثنائية التى تمرُّ بالدول كالحروب والمجاعات والاضطرابات ، تُعْطَى سلطاتٌ استثنائية للرؤساء ليواجهوا هذه الظروف ، وفى مطلع الحياة بالمدينة واجه الرسول ظروفاً استثنائية تتمثل فى صراعه مع قريش واليهود وبنى المصطلق وغيرهم . ثم تمخض هذا الصراع عن أرامل من المسلمات سقط أزواجهن فى الحروب وتمخَّض عن غيره ذلك من المشكلات التى سبق أن ذكرناها ، وفى هذه الظروف الاستثنائية أعطيت سلطات استثنائية للرسول ليتخذ الزواج وسيلة إلى التخفيف من الصراع ومن نتائجه ، وقد عبَّرت عن ذلك الآية الكريمة : عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة »(٢) .

فلما خفَّت حدة الصراع ، أو بلغة العصر لما زالت الظروف الاستثنائية

---

(١) انظر مبادىء الإسلام وأباطيل خصومه للأستاذ العقاد ١٩١ .

(٢) سورة الممتحنة الآية السابعة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الرسول كان قد تبنى زيداً وكان يطلق عليه زيد ابن محمد ، وكان من عادة العرب ألا يتزوجوا زوجة الابن المتبنى لاعتقادهم أن الابن المتبنى كالابن الحقيقى ، فأوحى الله لمحمد أن يتزوج زينب بعد أن طلقها زيد ليبطل الإسلامُ هذا التفكير عند العرب ، ويكون إبطاله عملياً حتى يكون أقوى ، لصعوبة رجوع العرب عن هذه العادة المتمكنة بدون إبطال عملى ، وقد قص القرآن الكريم قصة زينب فيما يلى : (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك ، واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا[١] .

جويرية :

هى جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة ، وقد وقعت حرب بين بنى المصطلق وبين المسلمين فى شعبان من السنة السادسة للهجرة ، وكان الحارث بن أبى ضرار والد جويرية قائد بنى المصطلق وانتصر المسلمون وقتل الحارث ، ولكن الانتصار لم يتم فلا يزال المرجل يغلى ، وقد وقع نساء بنى المصطلق سبايا فى أيدى المسلمين[٢] ، ومثل ذلك كفيل أن يزيد الحفيظة فى القلوب وأن يزيد الكراهية والعداء فى النفوس ، وكانت جويرية بنت الحارث إحدى الأسيرات ، وقد وقعت فى سهم ثابت بن قيس فكاتبها على مال تؤديه فتعتق ، فجاءت إلى رسول الله تطلب منه العون كما ذكرنا من قبل ، ووجد الرسول الفرصة سانحة لتخفيف الأسى عن بنى المصطلق فعرض عليها أن يؤدى عنها ما طلب منها ويتزوجها فوافقت ، وتم الزواج الذى كان خيراً وبركة على بنى المصطلق فإن المسلمين خجلوا أن تظل نساء بنى المصطلق سبايا فى أيديهم ، وقالوا : أصهار رسول الله . وأعتقوهن تكريماً لهذا الزواج[٣] .

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٧ .
(٢) ابن القيم : زاد المعاد ج ٢ ص ١١٢ .
(٣) ابن القيم : زاد المعاد ج ١ ص ٢٧ . وابن هشام ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧ .

وطيب الرسول بهذا الزواج قلب جويرية وهدّأ الثورة التى كانت لا تزال مشتعلة ضد المسلمين فى قلوب شباب بنى المصطلق .

أم حبيبة بنت أبى سفيان :

كان أبو سفيان من أقسى أعداء الإسلام ولكن ابنته حبيبة دخلت الإسلام مع زوجها عبيد الله بن جحش ؛ وقد تعرضت هى وزوجها إلى عنت قريش واضطهاد ذويها . فاضطرت للهجرة للحبشة مع زوجها . ولكن زوجها تنصر وهو فى الحبشة وبقيت هى على الإسلام ، وهكذا فقدت أهلها وفقدت زوجها وهى مغتربة وعز عليها الملجأ ؛ ولكن قلب رسول الله ينفتح لها . ويداوى جراحها . ويكافئها أسمى مكافأة على موقفها الرائع ؛ فيتزوجها وهى بالحبشة ويصدقها النجاشى عنه أربعمائة دينار ، وتجد بيت الرسول مفتوحاً لاستقبالها بعد أن فقدت بيت الوالد وبيت الزوج[1] .

ويعتبر زواج الرسول من أم حبيبة أقوى دليل على أن هدف الزواج لم يكن الرغبة الجسمانية ؛ فأم حبيبة كانت بعيدة جداً عن الرسول ولم يرها الرسول إلا بعد فترة طويلة عندما عادت إلى المدينة . وهذا دليل واضح على أن الزواج كان له هدف آخر .

وهناك زوجات تزوجهن الرسول لحمايتهن وليتكفل بمطالبهن بعد أن فقدن أزواجهن ؛ وأصبحن وليس لهن من يعولهن فاتسعت لهن نفسه الكريمة ؛ واتسع لهن بيته ، ومن هؤلاء سودة بنت زمعة أولى زوجاته بعد السيدة خديجة وزينب بنت خزيمة وكان زوجها من شهداء غزوة بدر

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ١٢٣ .

زالت السلطات الاستثنائية إذ نزل قوله تعالى : لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج(١) .

والزواج عند الناس جميعاً بصفة عامة وعند العرب بصفة خاصة كان ولا يزال سبباً مهماً من أسباب الربط والتقريب بين الجماعات والقبائل . وإذا كان التاريخ أثبت أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً كانوا فى القمة بين المسلمين بدليل اختيارهم خلفاء ، فإن ذلك يوضح لماذا اتصل الرسول بهؤلاء جميعاً بطريق المصاهرة فتزوج بنتى الأولين وزوج من بناته للآخرين ، ولهذا حدث تعدد زوجات الرسول بالمدينة أى فى وقت كان يعمل لتأليف القلوب حوله .

ومن أسباب التعدد العامة كذلك أن فترة الإسلام بالمدينة كانت فترة تشريع ، وتولت زوجات الرسول عبء تحمل التشريع بصفة عامة والتشريع المتصل بالمرأة والأسرة بوجه خاص ؛ وقد تمثل ذلك بصفة أخص مع عائشة كما سنرى .

وهناك أسباب خاصة تستدعى أن نقوم باستعراض سريع لبعض هذه الزيجات لنرى دوافعها وظروفها ، وقد سبق أن أشرنا لذلك من قبل :

عائشة :

كانت علاقة الرسول بأبى بكر قوية جداً كما نعرف ، وكان أبو بكر يعتبر ملازماً للرسول ، فزواج الرسول من بنت أبى بكر يرفع الحرج عن أبى بكر ، ويتيح له أن يدخل بيت الرسول ، وأن يكون أكثر اتصالا به ؛

وكانت عائشة ناشئة عندما تزوجها الرسول ، وكان لها حدة ذكاء الناشئة ، فإذا تزوجها الرسول فى المدينة بعد الهجرة ، أى فى المرحلة التى ذخرت بالتشريع الإسلامى ، أصبحت مصدراً مهماً لحفظ أحاديث الرسول ، والأخذ عنه ، وتبليغ ألوان التشريع إلى الناس . وقد نسبت بعض الروايات للرسول قوله « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

---

(١) سورة الاحزاب الآية ٥٢ .

حفصة :

كانت علاقة الرسول بأبي بكر تكاد تكون مساوية لعلاقته بعمر ولاشك أنه كان من وسائل التكريم للفاروق أن يتزوج الرسول بنته على نحو ما فعل مع أبي بكر ولهذا نجد أنه عندما طلقها جاء الوحي يطلب منه ردها تكريماً لعمر أبيها كما ذكرنا من قبل

زينب :

كانت زينب ابنةً لأميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول ، وكانت من أشراف العرب ، وقد جاء الإسلام فسوّى بين الناس ، سوى بين السادة والعبيد ، سوى بين الأشراف والموالى ، وقد خضع الناس لهذه التسوية ، ولكنها فى العصر الأول لم تكن بطبيعة الحال قد تمكنت فى نفوس القوم ، وقصة زينب إنما هى قصة تثبيت المبدأ الجديد ، فقد خطبها الرسول لمولاه زيد بن حارثة ، وحدث صراع نفسى ، فكيف تتزوج حفيدة عبد المطلب من زيد المولى ؟ ولكن كيف تُرَدّ خطبة الرسول ؟ وكيف لا يخضع المسلمون للاسـلام الذى جعل الناس جميعاً سواء كأسنان المشط كما قال الرسول ؟ وإذن فليتم الزواج ، وقد تم ، ولكن بقى فى النفس شىء من إحساس الجاهلية ، وكان زيد مرهف الحس ، فأحس بتعالى زينب عليه ، واعتدادها من قريب أو بعيد بنسبها ، فشكا ذلك للرسول ، وذكر رغبته فى طلاقها ، وأعلم اللهُ الرسولَ أن هذا الزواج لن يدوم ، ولكن الرسول ما كان ليقول ذلك لزيد ، وأخذ يدعوه أن يمسك عليه زوجه وأن يتقى الله ، ولكن هذا العلاج لم يقض على الداء ، وطلق زيد زينب وبقى فى نفس زينب وفى نفس أقاربها شىء من هذا الزواج ، فأراد الله أن يزيل أثره عن زينب ، وفى الوقت نفسه أراد الله أن يقرر المساواة ويقويها ، فأوحى لرسوله أن يتزوجها ، وهكذا نجد حفيدة عبد المطلب تتزوج من مولى ويظن الناس بأنها انخفضت درجة بهذا الزواج فلم تعد صالحة ليتزوجها قرشى ، ولكن الرسول نفسه يتزوجها بعد طلاقها فترقى إلى أعلى الدرجات ، ويؤمن الناس بالمبدأ الإسلامى الرشيد ، مبدأ المساواة ، الذى وضع وضعاً عملياً فى هذه القصة .

وهند بنت أبى أمية (أم سلمة) وكان زوجها من شهداء أحد .

وهكذا إذا ذهبنا نبحث حالات زواج الرسول واحدة واحدة نجد فى كل منها سبباً كريماً ولكل منها حكمة بالغة .

ماريـة :

وبعد الفراغ من الحديث عن زوجات رسول الله يتحتم علينا أن نتكلم كلمة عن مارية التى كان يمكن أن تكون زوجة ضمن زوجات الرسول؛ إذ أن الرسول عرض عليها أن يعتقها ويتزوجها كما فعل ببعض نسائه ، ولكنها آثرت أن تبقى مملوكة له ، ترى فيه سيدها وصاحب السلطان عليها .

لماذا آثرت مارية هذا الاتجاه ؟ إن الجواب عن هذا سهل، فمارية كانت جارية فى قصر المقوقس فى مصر ومن هنا كان لها عهد بحياة الرق ، فلم ترد أن تغير من نسق حياتها الذى اعتادته ، ثم إنها كانت ذات معرفة بالآداب المسيحية التى تدعو للرهبنة وتحث على الخضوع ، وهناك سبب ثالث قد يساق فى هذا المجال هو أن المقوقس أرسل بها هدية لمحمد لتتعرف على أخباره أو قل لتتجسس عليه ، وأرسل معها أختها (سيرين) ونفراً من قومها لعلها تستطيع أن تنقل إليه أخبار محمد بواسطتهم ؛ فمن هنا لم تجىء مارية إلى بيت محمد لتتزوج وتؤدى التزامات الزواج من حب وإخلاص ، وإنما لتتجسس ومكانها كجارية يبيح لها هذا التصرف .

ومن هنا آثرت مارية أن تبقى ملك يمين ، ولكنها سرعان ما قابلت شيئاً هزَّ وجدانها ، فقد خلَّفت بمصر قصوراً شاهقة كان يعيش فيها المقوقس ويعيش فيها بعض رؤساء الكنيسة ، وجاءت إلى المدينة حيث عاشت فى بيت صغير شديد القرب من صوامع الرهبان ، ورأت الرسول يعيش على

الكفاف ، ويبيت أحياناً على الطوى ، وفراشه خشن متواضع ، وملبسه بعيد كل البعد عن الترف والنعيم ، وكان الرسول يشاركها فى أعمال البيت ، ويتخلق بأسمى الآداب وأرقى الصفات فأدركت مارية أن محمداً ليس ملكاً ، وأنه هو بأخلاقه وبدعوته رسول الله ، بل عرفت مما سمعته من القرآن الكريم طبيعة السيد المسيح وأنه ليس إلهاً كما ادعى المسيحيون ، ولكنه عبد الله ورسوله ، فأسلمت وحسن إسلامها ، وأنجبت للرسول ابنه إبراهيم الذى فرح به الرسول والمسلمون فرحاً جماً ، وسنتحدث عن إبراهيم عند حديثنا عن أولاد الرسول .

معاملة الرسول لزوجاتـه :

فى بيوت الرسول صلوات الله عليه وجد طرفان فى مجال المعاملة؛ الطرف الأول هو الرسول نفسه ، وهو الإنسان الكامل الذى وصفه الله تعالى بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم [1] » وهذا شىء طبيعى لأن الأنبياء صفوة البشر قال تعالى « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس [2] » .

ولهذا كانت تصرفات الرسول فى بيته تصرفات مثالية تعدُّ نماذج للمسلمين الذين ينبغى عليهم أن يقتدوا بالرسول وأن يغترفوا من سلوكه، ماوسعتهم الطاقة .

والطرف الثانى فى بيوت الرسول هو زوجاته رضى الله عنهن ، وهن بلا شك مجموعة من الفضليات ، ولكنهن لم يكنَّ فى درجة الرسول ، ولا كن فى مستوى واحد فى الفضل كما سنرى من الأحداث التى سنرويها ، وزوجات الرسول بهذا الشكل شىء طبيعى ، إذ لو كن قمما فى الفضل لكان بيت الرسول فى مستوى بعيد عن واقع الحياة ، ولما ظهرت به المشكلات التى يعالجها الرسول ليتخذ المسلمون من علاج الرسول لها درساً ينتفعون به فيما يواجهون من مشكلات .

---

(١) سورة القلم الآية الرابعة .

(٢) سورة الحج الآية ٧٥ .

ومن هنا فإن دراستنا للحياة فى بيت الرسول سترينا الاتجاه المثالى التشريعى الذى تمثله تصرفات الرسول ، وسترينا كذلك اتجاهات الزوجات وموقف الرسول منها مثنياً أو مصححاً أو مهذباً ، وعلى المسلمين أن يتبعوا نهج الرسول فى جميع الحالات .

والاتجاه المثالى لحياة الأسرة تبرزه أحاديث الرسول التى تُلزم كلا من الزوج والزوجة أن يرعى الآخر أسمى رعاية ، وأن تكون العشرة عامرة بالحب والوفاء وبالإخلاص ، وأحاديث الرسول فى ذلك كثيرة موثّقة منها :

– استوصوا بالنساء خيراً .
– خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى .
– أيّما أمرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة .
– لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها .

فالرسول فى هذه الأحاديث وسواها يعظ ويعلم ولكنه يضرب المثل بنفسه ، ويبين أنه خير الناس فى أهله ، فأحسن الناس من كان كذلك ، وليس الذى يبدو أمام الناس سمحاً طيباً فإذا دخل بيته انقلب متسلطا عابساً ، وتقول السيدة عائشة عن ذلك « كان رسول الله فى بيته ألين الناس ضاحكاً باسماً » وكان يساعدهن فى أعمال البيت ، وأثر عنه قوله « خدمتك زوجتك صدقة » وكان رسول الله يعامل زوجاته بالحسنى ، ويأخذهن بالنصيحة الطيبة ، ويسألهن الرفق فى أمورهن ، ويقسم بينهن بالعدل ويقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك : فلا تؤاخذنى فيما لا أملك » أى يسأل الله ألا يؤاخذه فى ميل القلب الذى لا يمكن للإنسان أن يسيطر عليه .

أما مكانة الزوج لدى زوجته فيوضحها الرسول لعائشة عندما سألته : أى الناس أعظم حقاً على المرأة ؟ أجاب : زوجها . وسألته وأى الناس أعظم حقاً على الرجل ؟ فأجاب : أمه .

وجاءت إلى الرسول زوجة من الزوجات ، فسألها الرسول « كيف أنت مع زوجك ؟ إنه جنتك ونارك » أى أنك تدخلين الجنة أو النار حسب معاملتك له .

وكان الرسول صلوات الله عليه ينبه الرجال إلى احتمال النساء ، ففى كثيرات منهن نوع من الانحراف ينبغى أن يصبر عليه الرجل ، وهو فى ذلك يقول :

— إن المرأة كالضلع إن ذهبت تقيمها كسرتها ، وإن تركتها استمتعت بها على عوج .

— لو أحسنتَ إلى المرأة الدهر ثم رأت منك شيئاً ، قالت ما رأيت منك خيراً قط .

(رواه البخارى)

ولم تكن زوجات الرسول — كما أشرنا آنفاً — على نسق واحد ومستوى واحد لدى الله ولدى الرسول ، ولذلك كان الوحى يجىء للرسول فى مكة فى بيت خديجة وفى المدينة فى بيت عائشة ، وقد روى عن عائشة قولها « فضلنى الله على الأخريات بأن جعل الوحى ينزل على الرسول فى بيتى » ولم ينزل فى غير بيتها إلا قليلا فى بيت أم سلمة . وكان الرسول يقول : إن لعائشة منى شعبة ما تنزلها واحدة من النساء .

وكان الرسول كثير المداعبة لعائشة ، فقد شكت له مرة آلاماً فى رأسها فداعبها بقوله : ماذا لو متِّ وأنا حى فصليتُ عليك ودعوت لك ؟ فقالت له : فكأنى بك وقد عدت بعد دفنى تعرس بإحدى نسائك على فراشى . . . وكان يسابق عائشة فسبقته مرة وسبقها أخرى فقال لها هذه بتلك .

وكانت الغَيْرَة موجودة فى بيت الرسول ، وكان الرسول ينظم الغيرة حتى لا تكون أداة تدمير للأسرة ، ويروى عنه قوله فى الغيرة من الأجانب « إن الله تعالى

يغار ، والمؤمن يغار ، وإنى لغيور ، وما من امرىء لا يغار إلا منكوس القلب ، ولكن من الغيرة ما يحبه الله ، ومنها ما يبغضه ، فأما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة مع الريبة ، والغيرة التى يبغضها الله الغيرة بدون ريبة ، فإذا لم يكن هناك أدنى شك فلا داعى للغيرة ، بل يعلّم الرجل زوجته أن تبعد عما قد يُحدث شكا فى المستقبل ، أما مع الشك فلا بد من التعرف على أسباب الشك حتى لا تتفاقم الأمور .

أما الغيرة بين الضرائر فقد دعا الرسول ربّه أن يزيل حدّتها وقصة ذلك أنه عند ماخطب أم سلمة ترددت فى القبول وكان من أسباب ترددها ما قالته بأن عند الرسول مَنْ هى أجمل منها .فأحس الرسول فيها بخلق الغيرة فقال .... وإن كنت تغارين من النساء فيذهب الله الغيرة منك .

وبعد أن تزوج الرسول أم سلمة نشأ فى بيت الرسول حزبان ، حزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة ، والحزب الآخر أم سلمة وسائر زوجاته ، ونمت الغيرة فى هذا الجو ، وترتب على الغيرة بعض الكيد ، وبعض الإساءات ، ولكن الرسول وقف منصفاً حكيما ، ليخفف من غيرة النساء ويقلل من وحدتهن ، وقد أورد الذهبى بعض مظاهر الغيرة وبعض الأحداث التى جرت مرتبطة بها :

فمن ذلك ما ترويه عائشة قالت : أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غير يومى ، فدق الباب ، فسمعتُ الدق ولكن توانيت فى الفتح حتى دق أكثر من مرة ، ثم فتحت له ، فقال : أما كنت تسمعين الدق ؟ قلت : سمعته ولكنى أحببت أن تكرر الدق لتعلم النساء أنك أتيتنى فى غير يومى[1] .

ويروى زيد بن أسلم أن رسول الله فى مرضه الذى توفى فيه قالت له صفية بنت حيى : والله يانبى الله لوددت أن الذى بك حل بى ، فتغامزت

---

(١) الذهبى : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٢٣ .

زينته فأبصرهن الرسول ، فقال لهن : استغفرن الله . فقلن : من أى شيء ؟ قال : من تغامزكن بها ، والله إنها لصادقة(١) .

وعن عطاء بن يسار قال : لما قدم رسول الله من خيبر ومعه صفية سمع الناس بجمالها فجئن لينظرن إليها ، وجاءت عائشة متنقبة ، ولكن الرسول عرفها ، فلما خرجت لحق بها الرسول وسألها : كيف رأيت ؟ قالت : رأيت يهودية . قال : لاتقولى هذا فقد أسلمت(٢) .

تلك كانت سياسة الرسول الحكيمة وهو يقود المركب الذى تعددت فيه الزوجات وآن لنا أن نتحدث عن تصرفات أحدثتها بعض الزوجات ونشرح كيف كان موقف الرسول من هذه التصرفات ، وأول مايهمنا إن حياة التقشف كانت نمط الحياة عند الرسول ، وتقول عائشة « كان خبزنا الشعير أطحنه فى الرحى ، وطعامنا التمر والماء ، وأحياناً كنا نحصل على بعض اللبن ، ويمر شهران لا توقد نار لطهو طعام ، ولم يمتلىء جوف الرسول شبعاً قط وكان الفقر أحب إليه من الغنى ، . . . . » ولم تكن الزوجات تستطعن ما استطاعه الرسول من العزوف عن الدنيا ، فاجتمعت الزوجات حول الرسول يسألنه النفقة ، فاعتزلهن الرسول شهراً أو حوالى ذلك ، فنزل قوله تعالى « يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما(٣) » .

فبدأ الرسول يعرض عليهن ما عرضه الله سبحانه وتعالى ، وابتدأ بعائشة قائلاً لها استشيرى أبويك فى هذا الأمر ، فقالت عائشة : أفيكَ أستشير يا رسول الله ؟ فلما تلا عليها الآية قالت : أختار الله ورسوله والدار الآخرة . وكذلك فعلت الزوجات الأخريات . وهكذا عالج الرسول هذه

---

(١) المرجع السابق : ص ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٦٨ .

(٣) سورة الأحزاب : الاية ٢٩ .

الأزمة بحكمة وهدوء . فإما أن ترضى الزوجات بنسق الحياة الذى يعيش فيه الزوج وإلا كان تسريحهن هو المخرج .

وهناك حادثة أخرى تآمرت فيها عائشة وحفصة على الرسول ، فقد كانت زينب بنت جحش من أحب نسائه إليه وكان يدخل عندها نهاراً وهو يمر على زوجاته فيطيل عندها الجلوس فدبرت عائشة وصفية مؤامرة ضده ، فما إن خرج ودخل على عائشة حتى قالت له هذه : ماذا أكلت أو شربت عند زينب ؟ إنى أشم من فمك ريحاً غير طيب : قال الرسول : سقتنى زينب جرعة عسل . قالت : لقد رعى نحله المغافير (المغافير نبات لزج رائحته كريهة) ودخل الرسول على حفصة فقالت له ما قالت عائشة : فصدق الرسول هذا الادعاء ، وكان حريصاً على طيب رائحة فمه ،فحرَّم على نفسه شرب العسل . . . . . وقد كشف الله سبحانه وتعالى هذه المؤامرة فنزلت الآية الكريمة « يأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ؟ تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم » إلى قوله تعالى « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين[1] » وتاب الله على زوجات الرسول وغفر لهن .

وكان من نساء الرسول من تراجع الرسول وتناقشه ، ومنهن من قالت له : تكلم ولا تقل إلا حقا . وكان الرسول يبتسم ويقول : وهل أقول غير الحق ؟ وقد سبق أن ذكرنا أن سودة لم تكن موافقة للرسول ولالبناته كما ينبغى ، وأنها قالت لسهيل بن عمرو قولة فيها تحريض للكفار على المسلمين ، ولما سمعها الرسول قال لها : يا سودة أعلى الله ورسوله تحرضين ؟ فاعتذرت سودة ، وتقول عائشة عن سودة : مامن الناس امرأة أحب إلىَّ أن أكون فى صلاحها من سودة بنت زمعة .إلا أنها امرأة فيها حسد . وقد رأى الرسول انصراف قلبه عنها فعرض عليها الطلاق ، ولكنها توسلت إليه ألا يفعل فقبل ذلك منها ووسعتها رحمته ، وفى رواية أخرى أنه طلقها فعلا . ولعل موقف سودة ومثيلاتها هوالذى أوحى للرسول أن يقول : إن المرأة كالضلع إن ذهبتَ تقيمها كسرتها وإن تركتها استمتعت بها على عوج . ويعلق

---

(١) سورة التحريم : الآيات الاولى .

الإمام الشوكانى على هذا الحديث بقوله : إن فيه الحث على الصبر على مالا يستقيم من أخلاق النساء .

وكان الرسول كثير الاعتراف بالفضل لزوجته خديجة حتى بعد وفاتها ، فقد كان يكثر الحديث عنها بخير ويدعو لها ، وكان يذبح الشاة ويقسمها أجزاء ويبعث بأجزائها إلى صاحبات خديجة ، وقد سبق أن ذكرنا أن عائشة كانت تقول : ما رأيت خديجة قط ولكنى كنت أغار منها أكثر مما أغار من غيرها لكثرة ما كان يمدحها ويثنى عليها ، وفى مرة أعلن الرسول لعائشة أن خديجة لا تعدلها زوجة أخرى فغضبت عائشة وقالت له : هل كانت إلا عجوزاً بدّلك الله خيراً منها ؛ فقال لها بغضب : لا والله ما بدلنى الله خيراً منها ، آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من الزوجات وقد ذكرنا ذلك من قبل .

* * *

الحجاب :

بقيت كلمه عن الحجاب بالنسبة لأمهات المؤمنين وبالنسبة للنساء المسلمات بوجه عام ، والذى عليه الجمهور أن أمهات المؤمنين لهن حكم خاص بهن توضحه آيات سورة الأحزاب ، والحجاب عليهن معناه لزوم البيت ، وقد فرض عليهن بعد غزوة الخندق ، كما أن نساء الرسول لايجوز أن يتزوجن بعده ، وعن هذه الأحكام الخاصة بزوجات الرسول يقول تعالى :

ــ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا[1]

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٣٢ – ٣٣ .

– يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحى منكم والله لايستحى من الحق ، وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن[١] .

– وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا[٢] .

هذا عن زوجات الرسول ، أما النساء المسلمات بوجه عام فالجمهور على أن الحجاب عليهن معناه تغطية الجسم ماعدا الوجه والكفين، وقد تحدد ذلك بما ورد فى سورة الأحزاب وسورة النور ، قال تعالى :

– يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن[٣] .

– وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منهن وليضربن بخمرهن على جيوبهن[٤] .

هذا ولأية مسلمة أن تغطى جسمها كله بما فى ذلك الوجه ، وذلك تفضّل ممن تفعل ذلك ، ولكنه ليس واجباً ، فإذا خيفت الفتنة فى حالة بعينها كان الغطاء أمثل .

الرسول وأولاده :

ذلك حديث عن الرسول بين زوجاته ، فلننتقل إلى الحديث عن الرسول وأولاده ، وأولاد الرسول – ما عدا إبراهيم – من السيدة خديجة ، وهم ابنان : القاسم والطاهر ، وقد ولد القاسم قبل الإسلام وبه كان

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٣ .
(٢) سورة الأحزاب الاية ٥٣ .
(٣) سورة الاحزاب الاية ٥٩ .
(٤) سورة النور الاية ٣١ .

الرسول يكنى ، ومات وعمره حوالى السنتين ، أما الطاهر فقد ولد بعد الإسلام ولذلك سمى الطاهر وقد مات رضيعاً ، وكان الرسول لايزال فى مكة ، فقال العاص بن وائل فى شماتة بالرسول : إن محمداً أبتر. أى لا يعيش له أبناء ، فنزلت الآية الكريمة : « إن شانئك هو الأبتر » وولدت السيدة خديجة للرسول أربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة :

وكبرى بناته كانت زينب وقد تزوجت قبل الإسلام من أبى العاص ابن الربيع وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد ، فلما جاءت الرسالة آمنت به خديجة وبناته وثبت أبو العاص على الوثنية ، وأرادت زينب أن تلحق بأبيها فمنعها أبو العاص ، فعاشت معه فترة دون أن يكون بينها وبينه ما بين الرجل وزوجته ، وكان أبو العاص من معدودى رجال مكة مالا وأمانة وتجارة. فمشى إليه وجوه قريش وقالوا له : اردد على محمد ابنته ، ونحن نزوجك أية امرأة أحببت من قريش ، فقال : لا والله ، لا أفارق صاحبتى فإنها خير صاحبة ، وهاجر الرسول بدونها إلى المدينة ، فلما جاءت غزوة بدر كان أبو العاص مع المشركين ، ووقع فى يد المسلمين أسيراً ، وبدأت قريش تفدى أسراها ، وكان فداء أبى العاص قلادة عرفها الرسول ، إنها قلادة خديجة رضى الله عنها وهبتها لابنتها زينب حين زواجها ، فلما رأى الرسول القلادة رقّ لها ، وقال للمسلمين : إن رأيتم أن تردوا قلادة زينب وتطلقوا أسيرها فافعلوا. فقالوا : نعم يا رسول الله. فأطلقه الرسول بعد أن اشترط عليه أن يبعث بزينب إليه وتوثق منه ، ووجه الرسول زيد ابن حارثة ليتسلمها ، ولحقت زينب بأبيها فى المدينة وبقى زوجها على الشرك.

وفى سنة ست من الهجرة خرج أبو العاص فى تجارة إلى الشام ، وفى طريق عودته بعث الرسول زيد بن حارثة فى جيش من المسلمين فاعترضوا عيره واستاقوها وأسروه . فبعث أبو العاص إلى زينب يستجير بها فأجارته ، وقبل الرسول جوارها ، وقال للمسلمين : إنكم قد عرفتم مكان هذا الرجل منا ، فإن تردوا عليه ماله فإنا نحب ذلك ، وإلا فماله فىء مالكم . فردوا عليه ماله . فعاد إلى مكة ورد الحقوق لأصحابها ثم وفد

إلى المدينة مسلما ، فأعاد له الرسول زينب بنكاح جديد ومهر جديد (١).

أما رقية فكانت قد تزوجت عتبة بن أبي لهب ، فلما نزلت السورة الكريمة : « تبت يدا أبي لهب » قالت أم عتبة واسمها أم جميل بنت حرب ابن أمية : قد هجانا محمد ، وعزمت على ابنها عتبة أن يطلق رقية ، وكذلك فعل أبوه فطلقها قبل أن يدخل بها فزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم من عثمان بن عفان وهاجرت معه إلى الحبشة ، وولدت له عبد الله ومرضت قبيل بدر ، فخلّف الرسول معها عثمان ، وتوفيت والمسلمون في بدر ، ودُفنت بالبقيع ، ومات ابنها بعدها بقليل (٢) .

وأما أم كلثوم فكانت زوجة لعتب بن أبي لهب ، وطلقها زوجها مثلما فعل أخوه عتبة ، فلما ماتت رقية زوجها الرسول من عثمان وظلت معه حتى ماتت سنة ٩ هـ وبكى عليها عثمان وأطال البكاء فسأله الرسول : ما يبكيك ؟ فقال انقطاع صهري منك يا رسول الله فقال . الرسول : انقطاع الصهر لا يكون بالموت ، وإنما يكون بالطلاق ، ولو كان عندنا ثالثة لزوجناك (٣) .

وأما فاطمة فقد زوجها الرسول من علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة اثنتين للهجرة فولدت الحسن والحسين ومحسناً وزينب وأم كلثوم ، وقد مات محسن صغيراً وتزوجت زينب بنت علي عبد الله بن جعفر ولم تنجب منه ، وتزوجت أم كلثوم عمر بن الخطاب ، فولدت له زيد بن عمر وقتل عمر عنها ، وتوفيت أم كلثوم وابنها زيد في يوم واحد ، وأنجب الحسن والحسين ابنا علي وفاطمة نسلاً كثيراً ، ومنهما وجد النسل الذي ينحدر من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى الآن .

وفاطمة تستحق مزيداً من الحديث عنها لمكانتها من الرسول من جانب ولأن منها عاش حتى الآن نسل الرسول من جانب آخر ، ويروى الذهبي

(١) البلاذري : أنساب الاشراف ص ٣٩٧ وما بعدها والذهبي : سير أعلام النبلاء ص ١٧٥ .

(٢) أنساب الأشراف : ص ٤٠١ .

(٣) المرجع السابق : ونفس الصفحة .

أن الرسول قال عنها : بأنها سيدة نساء العالمين فى زمانها وكان يكنيها « أم أبيها » لما كان فيها من الحنان على الرسول صلوات الله عليه . الذى قلما يوجد فى غير الأم ، وقد وُلدت قبل البعثة بقليل ، وتزوجها الإمام على سنة اثنتين للهجرة عقب غزوة بدر ، ودخل بها عقب غزوة أحد ، وذلك بعد أن دخل الرسول بعائشة بأربعة أشهر ، وكانت سن فاطمة خمسة عشر عاماً ، وقد روت كثيراً من الأحاديث عن أبيها وروى عنها ابنها الحسن والسيدة عائشة ، وأم سلمة ، وأنس بن مالك ، وكان صلى الله عليه وسلم يحبها ويكرمها ويُسِرُّ إليها ، وكانت صابرة ديِّنة خيِّرة خاضعة شاكرة لله ، وكانت مشية فاطمة شديدة الشبه بمشية الرسول صلوات الله عليه ، وكانت تطمع فى أن ترث أباها فى أرض فدك ، ولكن أبا بكر ذكر لها أنه سمع الرسول يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة ، فوجدت عليه . كأنها لم تكن قد سمعت هذا الحديث من الرسول ، ولكنها لما مرضت أتى أبو بكر إلى بيتها واستأذن ؛ فدخل على عليها وقال لها : يافاطمة هذا أبو بكر يستأذن عليك . فسألت علياً قائلة : أتحب يا على أن آذن له ؟ قال على : نعم ، فأذنت له فدخل عليها أبو بكر يترضَّاها ، وقال لها : والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ورسوله ومرضاتكم أهل البيت . وما زال بها حتى رضيت .

وتوفيت بعد النبى صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهر ونحوها وكان عمرها خمساً وعشرين سنة ، وكانت وفاتها يوم الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة هجرية .

وكان على رضى الله عنه قسَّم العمل فى البيت بين أمه وبين زوجته ، فطلب من أمه أن تكفى فاطمة الخدمة خارج البيت ، أى تحضر ما يلزم للبيت من الخارج ، وتكفيها فاطمة العمل فى البيت ، فتقوم بالطحن والعجن والخبز . . . . (١) .

ورُزق الرسول ابناً من مارية أسماه إبراهيم ، ولكنه مات وعمره حوالى العام .

---

(١) سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٨٧ ٩٣

هؤلاء هم أولاد الرسول ، فماذا كانت تعاليم الرسول بالنسبة للأولاد بوجه عام ؟ وماذا فعل أولاده ؟ حتى يمكن لنا أن نقتدى به فى هذا المضمار ؟ .

أول ما نذكره أن الرسول كان يحب أولاده ويلاطفهم ، ويروى البخارى ومسلم أن الرسول قبّل الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التميمى ، فقال الأقرع إن لى عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدا قط . فقال له الرسول : من لا يَرْحم لا يُرْحم . (متفق عليه) .

ثم إن الرسول ألزم الأب أن يسوّى بين أولاده فى العطاء والمعاملة ، ويروى أن زوجة بشير بن سعيد الأنصارى طلبت إليه أن يخص ولدها النعمان بمنحة فاستجاب لها ، وأرادت الزوجة توثيق هذه الهبة فطلبت من زوجها أن يشهد عليها الرسول فاستجاب بشير لرغبتها وذهب للرسول ، فسأله الرسول : هل للنعمان إخوة ؟ فأجاب نعم ، فسأله الرسول : فكلهم أعطيت مثل ما أعطيته ؟ قال بشير : لا .. فقال الرسول : ليس يصلح هذا ، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم ، كما أن لك عليهم من الحق أن يبروك ، اتقوا الله واعدلوا بين أبنائكم (١)

وكان الرسول يحب فاطمة حباً جماً ، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها وقبلها وأجلسها بجواره ، وكان يحب ولديها الحسن والحسين ، ويحملهما على ظهره ويداعبهما ، وحدث مرة أن كان الرسول يصلى فأطال الصلاة فلما انتهى من الصلاة سأله أحد الصحابة عن سبب الإطالة فقال : إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله .

وكان يحب زينب ابنته حباً شديداً . وكان يحب زوجها أبا العاص لحفاظه على زينب واحترامه لها مع اختلاف الدين ، وقد رأينا الرسول يقول عنه للمسلمين : إنكم قد عرفتم مكان هذا الرجل منا . . .

ولما ماتت زينب تركت بنتاً اسمها « أمامة » وأحبها الرسول ككل أحفاده ، وفى ليلة أهدى إليه قلادة ثمينة من خرز ثمين يوجد بظفار بجنوب

---

(١) انظر هذه الدراسة مفصلة فى « الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى » للمؤلف ص ٧١ وما بعدها .

الجزيرة ، فقال عليه السلام : لأهدين هذه القلادة إلى أحب أهلى إلى ، فقالت بعض الزوجات قد فازت بها ابنة أبي بكر ، فلما أصبح دعا بأمامة وألبسها العقد .

ولما رزق الرسول بابنه إبراهيم فى أواخر أيامه فرح به كل الفرح ، وتصدق بوزن شعر رأسه فضة . وكان الرسول يمشي لمارية كل يوم يداعب ابنه ويناغيه ، فلما مات إبراهيم بكى الرسول عليه وقال : تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وصادف أن كسفت الشمس يوم موت إبراهيم فقال بعض الناس إنها كسفت حزناً على إبراهيم فقال الرسول : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته .

ما أجدر المسلمين أن ينتفعوا بهذا النموذج الذى شرحه الرسول ، وتعامل به مع أولاده وأحفاده .

الرسول مع خدمه :

يمثل الخدم فى كثير من البيوت عنصراً مهماً من السكان ، وقد أرشد الرسول السادة والخدم على المعاملة المثلى من الطرفين ؛ فمن حقوق الخدم يروى المعرور بن سويد قال : رأيت أبا ذر رضى الله عنه وعليه حلة وعلى غلامه مثلها ، فسألت أبا ذر عن ذلك فذكر أنه ســابَّ خادماً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له النبى : إنك امرؤ فيك جاهلية هم إخوانكم ، وخولكم . جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم . ومن الواضح أنه ليس من الضرورى أن يلبس الخادم من نوع لباس سيده ، وإنما كان ذلك عقوبة لأبى ذر على موقفه من خادمه .

وعن واجبات الخدم تجاه المخدوم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم .. والخادم راع فى بيت سيده وهو مسئول عن رعيته .

فإذا جئنا إلى النموذج الواضح في بيت الرسول رأينا مثلاً عليا فى هذا الشأن : كانت بركة أثابها الله حاضنة الرسول صلوات الله عليه بعد وفاة أمه، ولذلك كان الرسول يدعوها أمه ، ولما شب الرسول وتزوج من خديجة تقدم لخطبتها عبد الله بن زيد الخزرجي وكانت بركة تميل إلى البقاء فى خدمة الرسول وزوجته الطاهرة ، ولكن الرسول وزوجته شجعا بركة على قبول الزواج ، وأحست بركة بأنها أدت واجبها فى خدمة محمد حتى تزوج وبدت حياته طيبة مع زوجته العظيمة فوافقت على الزواج ، ورحلت مع زوجها إلى يثرب وأنجبت ابنها « أيمن » منه فصارت تدعى أم أيمن ثم مات زوجها فعادت بابنها إلى بيت الرسول .

وتقدمت السن بأم أيمن ، وزاد صلاحها فى ظل الإسلام ، ويروى أنها جاءت للرسول مرة وهو بين أصحابه فأسرت له بشيء ثم عادت . فقال الرسول : من أراد أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن . ولما سمع زيد بن حارثة ذلك تقدم للرسول يخطبها ، وتم زواجه منها بعد وليمة سخية أقامتها السيدة خديجة لأوفى خادمة ، وأنجب هذا الزواج « أسامة بن زيد » .

ويروى أن أم أيمن قالت يوم حنين : سبَّت الله أقدامكم . فقال لها الرسول : اسكتى فإنك عسراء اللسان .

ونقف هنا وقفة لنتحدث عن زيد بن حارثة الكلبي ، وقد ولد فى الجاهلية ، وسبي وهو طفل فى إحدى غارات القبائل ، وبيع رقيقا فى أسواق مكة ، وكان الذى اشتراه حكيم بن خزام لخديجة بنت خويلد ، ولما تزوج محمد بن عبد الله من خديجة وهبته زيداً فأحبه وأعتقه وتبناه ، وكان يدعى زيد بن محمد حتى نزلت الآية الكريمة « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » فأصبح يدعى زيد بن حارثة .

وقد اهتدى أبوه إليه وأظهر الرسول استعداده لرده لأبيه وذويه ،

ولكن زيداً اختار أن يبقى مع محمد ، وسقط زيد شهيداً فى موقعة مؤتة فعين الرسولُ ابنه أسامة قائداً للجيش الذى أعده قبل وفاته لغزو الروم ليثأر لوالده ، وكان كبار الصحابة جنوداً فى هذا الجيش تحت إمرة الشاب أسامة .

ومن الذين خدموا الرسول مولاه ثوبان ، وقد أخلص هذا للرسول أيما إخلاص حتى أن الرسول لاحظ أن ثوبان يذوى ويذبل فسأله : مابك ياثوبان ؟ فأجاب ثوبان : إننى أذكر الآخرة التى ستجعلنى فى مرتبة بعيدة عنك فأحس بالأسى والحزن لفراقك . ويقال إن الله طمأنه على مستقبله فى الجنة بالآية الكريمة « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا »(١).

ومن خدمه عليه السلام أنس بن مالك ، وهو يقص قصته مع الرسول بقوله : قدم الرسول إلى المدينة وليس معه خادم ، وكانت أمى (أم سليم) متزوجة من (أبى طلحة الأنصارى) بعد أبى فأسلمتنى أمى لخدمة رسول الله وقال أبو طلحة للرسول وهو يقدمنى : يارسول الله إن أنسا غلام ذكى فليخدمك . وتوليتُ خدمة الرسول طيلة عهده بالمدينة ولقد لازمته فى السفر والحضر ، وما قال لى مرة (أفٍّ) وماقال لشىء صنعتَه : لم صنعته ، ولا لشىء تركتُه : لم تركتَه .

ويروى أن أنسا أرسله الرسول فى حاجة فانحرف إلى صبيان يلعبون فى السوق ورآه الرسول وهو على هذه الحال فقال له : يا أنيس اذهب حيث أمرتك . وأرسل إحدى خدمه مرة لقضاء حاجة له فتباطأت فى قضائها، فقال لها عندما عادت : لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك .

* * *

تلك صورة سريعة لحياة الرسول فى بيته ، بين زوجاته وأولاده وخدمه ، وهى لاشك صورة مشرقة ينبغى على المسلمين أن يتدارسوها وأن يتأسوا بها ، فى ذلك صلاح لبيوتهم ولمجتمعهم .

---

(١) سورة النساء الآية ٦٨

الرسول بين أصحابه

وَضَعَ الرسول صلوات الله عليه أسس الحب والصداقة بين المسلمين منذ آخى بين المسلمين فى مكة ثم آخى بين المهاجرين والأنصار بالمدينة ، فهو بهذه المؤاخاة يخلق رباطاً جديداً بين الأصحاب يصل إلى رباط النسب وأحياناً يزيد عليه ، واستمر الرسول فى حياته اليومية يقوِّى هذا الرباط ويوصى به ، وفيما يلى بعض أحاديث الرسول فى هذا المجال :

— خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه . (رواه الترمذى)

فكلما كان الإنسان شديد الوفاء والإخلاص لصاحبه كان أقرب إلى الله

— لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا .

— ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضتُ صفيَّه من أهل الدنيا ، ثم احتسبه إلا الجنة (رواه البخارى)

وهذا الحديث يدلنا على ألم الصديق لفراق صديقه ، ذلك الفراق الذى يضمن للإنسان الجنة إذا صبر عليه .

ومن هذه الأحاديث الشريفة نستطيع أن ندرك قيمة الصحبة والأصحاب ، وكان سلوك الرسول صلوات الله عليه هدياً رائعاً فى هذا المجال . فهو يتحدث عن أصدقائه أروع حديث ليضرب لنا المثل فى طيب الصحبة ، وصفاء الود ، فهو يقول عن أبى بكر :

لما أحد أعظم عندى يداً من أبى بكر ، واسانى بنفسه وماله وزوَّجنى ابنته

ويقول عن أبى بكر وعمر : أبوبكر وعمر منى بمنزلة السمع والبصر .

ويقول عن على : على أخى فى الدنيا والآخرة .

وكان الرسول من أكثر الناس عرفاناً بالجميل ، ومن هنا كان يوصى دائماً بالأنصار ، ويذكر أنهم فتحوا له ولأصحابه قلوبهم وبيوتهم ، وكانوا

خير رفقة للمهاجرين . وهو فى آخر خطاب يلقيه يهتف بالمهاجرين قائلا : « استوصوا بالأنصار خيراً فإنهم كانوا عيبتى (موضع سرى) التى أويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » والرسول بهذا الحديث الشريف يبرز للمسلمين أن الصديق بشر ، وأنه من الممكن أن يخطىء أو يزل فلابد أن يكون الإنسان مستعداً للعفو عن زلات صديقه . ونسيان هناته ، لتدوم الصداقة وتزدهر ، وليس من الصداقة فى شىء أن يتلمس الصديق خطايا صديقه ، وأن يضمها بعضها إلى بعض ناسياً ما يستوجبه الود ورحم الصداقة من عفو وغفران .

ويتحدث أنس عن الرسول صلوات الله عليه وعن صلته بأصحابه حديثاً فياضاً نقتبس منه بضعة سطور : كان رسول الله يتفقد أصحابه جميعاً . حتى لا يحسب أحد منهم أن غيره أكرم منه على رسول الله ، وإذا جلس إلى أصحابه صبر حتى ينصرف عنه أصحابه ، وكان يجيب من دعاه إلى داره ، ويقبل الهدية ويثيب عليها ، ويزور أصحابه ، ويتعرف أحوالهم . ويعود مرضاهم ، ويلاعب صبيانهم ، وكان إذا التقم أحدٌ أذنه ليهمس له بشىء صبر له ، ولم يُنحِّ عنه رأسه حتى ينتهى الرجل من كلامه . وما أخذ أحد بيده إلا استبقاها الرسول حتى يرسلها صاحبه ، وكان ينادى الناس بأحب أسمائهم إليهم ، ويكنيهم تكريما لهم ، ولا يقطع على أحد منهم حديثه حتى ينتهى منه .

وكان يتمثل فى رسول الله خلق الإيثار بأسمى درجاته . فلم يعرف عنه قط أنه خص نفسه بشىء ، وقد انعكس خلق الإيثار على أصحاب الرسول ، ففى غزوة مؤتة قُتل الأمراء الثلاثة الذين عينهم الرسول للقيادة : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة . فالتقط ثابت بن أكرم الأنصارى اللواء ، وصاح فى المسلمين أن اتفقوا على رجل منكم يكون أميراً وقائداً ، فصاح بعض الناس قائلين : أنت يا ثابت . فقال ثابت : ما أخذت اللواء لأصبح قائداً ، ونظر إلى خالد بن الوليد وقال : أنت يا خالد أحق باللواء لأنك أعلم منى بشئون الحرب . وقال خالد لثابت : أنت أكبر سنا

ومن أصحاب الرسول فى بدر ، فأجاب ثابت : يا خالد ما أخذت اللواء إلا لك ، وصاح بالمسلمين : أترضون بخالد ؟ قالوا نعم . فأصبح خالد أمير الجيش .

وكان الرسول يحاول أن يتعرف على حاجات أصحابه ويعمل على قضائها لهم ، وكان يعد نفسه كفيلا بطعام أهل الصُّفَّة الذين تفرغوا للعبادة بمسجد الرسول ، وقنعوا بالقليل من ضرورات الحياة ، وكان يكره أن يستخدم أصحابه فى شيء يخصه ، يَروى أبو هريرة أنه ذهب مع الرسول إلى السوق ليشترى سراويل ، فاشتراها من تاجر ، وحاول أبو هريرة أن يحملها عنه ، فقال الرسول : صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله ، واستكمالا لهذه القصة يقول أبو هريرة إن الرسول كان سهلا إذا باع وإذا اشترى وأنه أوفى التاجر وزاد ، وأن التاجر حاول أن يقبل يد الرسول ، فجذب الرسول يده منه ، وقال : هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم .

وكان الرسول يحب الدعابة ، ويبسم لها ، ويرى أنها تخفيف عن النفس من مشكلات الحياة ، وربما شارك فيها ؛ فيروى أنه قال لعمته صفية وكانت قد تقدمت فى السن : يا عمة ، لا يدخل الجنةَ عجوز ، فأجهشت صفية بالبكاء ، إذ حسبت أنها ستحرم من الجنة ، ولكن الرسول سرعان ما قرأ لها وهو يبسم قوله تعالى : « إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكارا ، عربا أترابا » ففهمت صفية قصده ، وعادت إلى السرور والأمل . ومن دعاباته أن أحد المسلمين طلب إليه أن يحمله على بعير ، فقال له : سأحملك على ولد الناقة ، وحسب الرجل أن الرسول سيقدم له بعيراً حديث الولادة . فقال : يارسول الله : ما أصنع بولد الناقة ؟ فأجابه الرسول : أليس البعير ولد ناقة ؟

وهناك قصة شهيرة ترينا أن الرسول كان بين أصحابه يبدو كواحد منهم ، ولا يحب أن يمتاز عنهم بشيء ، فيروى أنه كان مع بعض أصحابه ، وأرادوا إعداد الطعام ، وأعدوا لذلك شاة ، فقال أحدهم : علىَّ ذبحها ، وقال آخر : وعلىَّ سلخها ..... فقال الرسول : وعلىَّ جمع الحطب . فقالوا : يارسول الله نكفيك هذا . فأجاب : إنى أعرف أنكم تحبون أن تكفونى هذا ، ولكنى

أحب أن أشارككم الأعمال ، وأن أكون كراحد منكم ولا أمتاز عليكم بشيء . ومثل ذلك ما حدث عند ما جاء له وفد النجاشي زعيم الحبشة ، فقام يخدمهم بنفسه ، فقال له أصحابه : نحن نكفيك هذا . فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وإني أحب أن أخدمهم بنفسي .

ومن الأدب العالي الذي قدمه الرسول لأصحابه في معاملتهم بعضهم لبعض قوله : من اطلع منكم في كتاب أخيه بغير أمره ، فكأنما اطلع في النار .

وكان الرسول يأبى أن يظهر في أي مظهر من مظاهر السلطان أو الرياسة ، وكان يقول لأصحابه : لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم ، إنما أنا عبد الله ورسوله . وقدم على أصحابه مرة فوقفوا له . فصاح بهم : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، وليجلس أحدكم حيث انتهى به المجلس .

وكان الرسول إذا جاءه أصحابه وهو يصلي خفف من صلاته ليسأل حاجتهم ، وربما عاد للصلاة بعد ذلك ، وكان أطيب الناس نفسا وأكثرهم تبسما ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب ، وضرب لأصحابه المثل في الاستهانة بالمال ، فلم يهتم أبدا بالادخار والغنى ، وإنما كان خلقه الرضى والإيثار حتى ليروى أنه لم يشبع قط ، وقد عانى الجوع غير مرة ، وكان زهده في اللباس كزهده في الطعام ، ولم يترك رسول الله دينارا ولا درهما ، ولا عبدا ولا أمة ولا شيئاً إلا بغلته الشهباء وسلاحه ، وأرضاً تركها صدقة ، وهو القائل في ذلك : نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة ، ولذلك لم ترث زوجاته شيئا مما كان له بخيبر وفدك ، فقد رد أبو بكر ما كان يملكه الرسول للمسلمين ، وعاشت الزوجات بما حدد لهن من أسهم في بيت المال(١) .

ومن تكريم الرسول لأصحابه وحبه لهم أنه كان يغفر انحراف ذويهم ولعل أبرز مثال لذلك هو احتماله صلى الله عليه وسلم لنفاق عبد الله بن أبيّ وكراهيته للإسلام ولرسول الإسلام ، وكان هذا الاحتمال من أجل

---

(١) البلاذري : أنساب الأشراف : ص ٥٢٠ .

عبد الله ابنه ، فقد كان هذا مسلماً حسن الإسلام على الرغم من نفاق أبيه، وقد وصل من تكريم الرسول للابن أن قدم قميصه الطاهر ليكفن فيه الأب المنافق بعد موته .

وقد بلغ الرسول القمة التى لا يصلها أحد سواه عندما نزلت الآية الكريمة : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم (١) ». فيروى أن الرسول لما نزلت هذه الآية استمر فى تكريمه للابن الصالح وقال : لو أعلم أنى إن زدت عن السبعين غفر له لزدت عليها .

وإذا كان الرسول قد بلغ هذا المدى من حبه لأصحابه، وتعاونه معهم ، وحياته بينهم، فقد كافأه أصحابه بصور من التفانى فيه ، والحب له ، والتضحية من أجله بكل ما يملكون ، فأبو بكر الصدّيق الذى كان غنيا فى مطلع الإسلام أنفق أكثر ماله فى مكة ، وأخذ ما تبقّى من المال معه وهو مهاجر مع الرسول . ثم أنه كان كما ذكرنا من قبل يسبق الرسول أحيانا وهما فى الطريق إلى المدينة ويتبعه أحيانا ، فلما سأله الرسول عن ذلك قال : أتذكر الترّبص فأسبقك ، وأتذكر اللحاق فأتبعك ، فهو بذلك يريد أن يتحمل الردى عن الرسول .

ويروى كذلك أن أحد الصحابة واسمه زيد بن الدثنة ، وقع فى أسر المشركين فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه ، وأوقفه صفوان وبدأ يطلق السهام حوله من كل جانب ليخيفه ، وناداه أبو سفيان وهو فى هذه الحال قائلا : أنشدك الله يازيد، أتحب أن محمدا الآن يلاقى حتفه بدلا منك وأنت فى أهلك ؟ فصاح زيد قائلا : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنا جالس فى أهلى . قال أبو سفيان : مارأيت أحداً يحبه أصحابه كما يحب أصحابُ محمدٍ محمداً .

وفى غزوة أحد عندما اتجهت جهود المشركين للقضاء على محمد وقف

---

(١) سورة التوبة الآية ٨١ .

الصحابة درعا حاميا للرسول يتلقون عنه الضربات ، ويهتفون بأنه لا تطيب لهم حياة إذا اغتيل الرسول أو نزل به مكروه ، وسنرى ذلك عند الحديث عن الغزوات .

وهكذا كانت حياة الرسول بين أصحابه ، وَضَعَ لهم نموذج التعاون والحب فاستجابوا ، وظهر مجتمع مثالى ما أحوجنا أن نتدارسه وأن نتمثل به ، فإن فعلنا نلنا خير الدنيا والآخرة ، وصدق الله العظيم الذى يقول « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم[1].

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨ .

الرسول يربى الفرد المسلم

هناك رحلة طويلة من الكفر إلى الإيمان ، وكان على العرب الذين تركوا عبادة الأوثان ودخلوا دين الإسلام أن يدركوا أبعاد هذه الرحلة ، وأن يعرفوا ما يستوجبه الإيمان الحق من التزامات ، ويروى عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : كنا جلوساً عند الرسول فأقبل علينا رجل من العالية فقال أخبرنى يا محمد عن أشدّ شيء فى هذا الدين وألينه ؟ ، فقال له الرسول : يا أخا العالية : ألين شيء فى هذا الدين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأشده يا أخا العالية الأمانة ، ألا إنه لا دين لمن لا أمانة له وإن صام وصلى .

وعلى هذا فقد قام الرسول صلوات الله عليه بالمدينة بجهد كبير ليقدم للمسلمين الآداب الجديدة التى خلقها الإسلام ، والأخلاق السامية التى لم يكن للمجتمع البشرى عهد بها ؛ وقد بذل الرسول فى ذلك أقصى الجهد لإعادة بناء الفرد عقب دخوله الإسلام ، فأخذ الرسول يعمل فى جانبين متوازيين ، الجانب الأول تطهير الفرد المسلم من أنواع الشرور والآثام التى كانت متفشية ، والتى تميل لها النفس الأمارة بالسوء ، أما الجانب الثانى فهو العمل ليكسب الفرد المسلم أسمى الصفات وأكرم السجايا ، وذلك بتحديد الفضائل والحث على اتباعها والتمسك بها ، وكان الرسول صلوات الله عليه يتخذ كل الوسائل لتربية الفرد المسلم وإعادة بنائه بالقول حينا وبالسلوك حينا آخر ، وكان تأثير الرسول بكلامه وفعله شديداً على المسلمين ، فظهرت طبقة من الصحابة برزت فيهم صفات البر ، واختفت صفات الانحراف ، وسنعيش مع سيدنا رسول الله نعرض كلامه وتصرفاته وهو يعمل على تجنيب المسلمين الرذائل وعلى شدهم إلى الخير وتمكين الفضائل من نفوسهم ، وليس ما نعرضه هنا إلا محاولة لتجديد العهد بمصدر الإسلام حتى نستجيب لرسول الإسلام وهو يرشد ويعلم ويوجه .

وأول ما نبدأ به من صفات الرذائل التى حاربها الرسول صفة الظلم فالظلم من أخطر الصفات التى تهدد المجتمعات ، وهو عدوانُ قوىٍّ على ضعيف ، كأنما ظن القوى أنه سيظل قويا ، وحسب أن الضعيف سيظل ضعيفا ، وهو حساب خاطىء ، فليس هناك شىء يدوم ، ولذلك نجد سيدنا رسول الله يهاجم الظلم ويحذِّر منه ، قال عليه السلام :

– اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة .

– اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب (متفق عليه) .

ويبين رسول الله أن الظالم سيقاد منه ، ولن يفلت من العذاب ، قال عليه السلام : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

« وإذا كان الظلم نهباً أو استيلاء فإن الظالم يطوق يوم القيامة بما نهبه أو اغتصبه ، قال عليه السلام : من ظلم قيد شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أراضين » (متفق عليه) .

ويكون الظلم أبشع وأفحش لو كان واقعا من ولى الأمر على الرعية ، فولىُّ الأمر يُفترض أن يكون حاميا من الظلم وحارسا للرعية ، فإذا انقض عليهم ظالما وجائراً كان عقابه مضاعفا وحسابه عند الله شديدا . قال صلى الله عليه وسلم :

– ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرَّم الله عليه الجنة .

– اللهم من ولى من أمر أمتى شيئاً فشقَّ عليهم فأشقق عليه . ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به .

ومن الظلم ظلم يُنزله الابن بوالديه وهو يسمى العقوق ، والرسول يَعُدُّ هذا العقوق نوعا من الكبائر ويخوِّف بأن عقوبته لن تكون فى الآخرة فحسب ، وإنما يعجل الله بها فى الدنيا ، قال صلى الله عليه وسلم :

– الكبائر ثلاثة الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس .

– ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف .

– كل الذنوب يؤجل الله منها ما يشاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه فى الحياة قبل الممات .

ومن الأخلاق الذميمة التى نهى الرسول عنها وكرر النهى : الرشوة ، وهو داء يصيب بعض الناس ، ويوهمهم بأنه يجلب لهم الخير ، وهو فى الحق يجلب عليهم البلاء ، ومال الرشوة يسحق ما يواجهه من أموال عند المرتشى ، وفى عصرنا الحاضر تنتشر الرشوة باسمها الحقيقى أحيانا ، وباسم الهدية أحيانا أخرى ، وهى هنا وهناك سحت وضلال ، وقال صلى الله عليه وسلم :

– لعن الله الراشى والمرتشى . (رواه الأربعة) .

– من ارتشى فى الحكم شدت يساره إلى يمينه ثم رمى به فى قعر جهنم : (رواه الحاكم) .

– الرشوه فى الحكم كفر وهى بين الناس سحت . (رواه الطبرانى) .

– هدايا العمال غلول (متفق عليه) .

ويحذر رسول الله من الكبر ، ويدل تحذيره على أن المتكبر جاهل نسى تكوينه ومبدأ حياته ومنتهاها ، ولو أنه تذكر ذلك أو تذكر من سبقوه بما كان لهم من جاه وسلطان ، ثم ما انتهى إليه أمرهم ، ما بقى فى نفسه شىء من الكبر ، وعن خلق الكبر يقول صلى الله عليه وسلم :

– من كان فى قلبه مثال حبة من خردل من كبر كبه الله على وجهه فى النار .(رواه احمد) .

– من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله تعالى وهو عليه غضبان :

وفى بناء الفرد المسلم يهتم الرسول اهتماما كبيراً بالنهى عن التجسس ومحاولة كشف مساوىء الناس وعيوبهم ، قال صلوات الله عليه :

– من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقئوا عينه .

– من استمع لحديث قوم وهم له كارهون صب فى أذنيه الآنك (الرصاص المذاب) .

— كل أمتى معافًى إلا المجاهرون (فإذا كان الله قد ستره فليس لمسلم أن يكشف ستره) .

— لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله .

وليس من التجسس أن تتبع إنسانا غلب على الظن أنه يريد الفتك بإنسان أو ارتكاب كبيرة لتمنعه من ذلك .

وينزه الرسول الإنسان المسلم عن الخلاف ، وقد سبق أن أوردنا أن الرسول عندما أرسل عمرو بن العاص على رأس بعث ، ثم أمده بجند بزعامة أبى عبيده بن الجراح أوصى الرسول أبا عبيدة بقوله لا تختلفا . وكم من مفاسد ترتكب بسبب الخلاف والصراع ، وفى المجتمعات أفراد كأنما يبحثون عن مواطن الخلاف ، ومثل هؤلاء يتخلقون بأخلاق تدمر المجتمع وتأتى عليه .

وفى بناء الفرد المسلم نجد الرسول صلوات الله عليه يتبع أرقى ألوان الفكر عندما يقول : إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر . وينهى الرسول عن الجلوس على الطرقات إلا بعد أداء حقها ، فعن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إياكم والجلوس على الطرقات ، فقالوا يارسول الله : مالنا بدٌّ . فقال : فإن أبيتم إلا الجلوس فأعطوا الطريق حقه ، وقالوا وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

تلك وقفة قصيرة مع الرسول صلوات الله عليه ، وهو يجنب الفرد شرور النفس وآثامها ، فإذا جئنا إلى الجانب الآخر الذى يحث الرسول فيه الفرد المسلم على كريم الصفات وجميل السجايا ، وجدنا ثروة هائلة تجعل من الإنسان صورة طيبة ونموذجا حيا يتناسب مع الصورة التى أرادها الله للإنسان المسلم ، وسنذكر فى هذا المجال بضعة أحاديث تصور أهم الجوانب فى بناء الإنسان المسلم .

وأحاديث الرسول فى هذا المجال تتدرج فى بناء الإنسان ، فهى تتجه فى

المقام الأول لتعليمه الصدق والأمانة والكرم والأخلاص فى العمل وما ماثل ذلك ، ثم تتجه به بعد ذلك لتعلمه رعاية الآخرين ، فتحثه على صلة الرحم وأداء حق الجار والتنفيس عن المعسر ، وتنتقل الأحاديث خطوة أخرى فتحث على الدقة فى اختيار الصديق . ولما كانت الحياة تحتاج لحراسة فإن الأحاديث توضح أن المجاهدين والمرابطين لهم عند الله أحسن الجزاء فهم يقدمون النفس والدم إذا قدم الكرماء المال والمتاع ، وتتجه أحاديث الرسول فى مجال بناء الفرد إلى اتجاهات أخرى متعددة سنراها فيما بعد .

عن الصدق يقول صلى الله عليه وسلم :

— عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، والفجور يهدى إلى النار وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ، (رواه البخارى)

— وعن الأمانة يروى على بن أبى طالب رضى الله عنه الحديث الذى سبق أن أوردناه فى مطلع هذا الكلام مرتبطاً بالرجل الذى جاء من أهل العالية .

— وعن الإخلاص فى العمل وإجادته يقول عليه الصلاة والسلام : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه .

— وعن أنسب وقت للصدقة يروى أبو هريرة أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له يارسول الله : أى الصدقة أعظم أجرا ؟ قال : أن تصَّدَّق وأنت صحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت هذا لفلان وهذا لفلان .

— وعن صلة الرحم يروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مَنْ أحبَّ أن يُبسط له فى رزقه ويُنْسأ له فى عمره فليصل رحمه . (متفق عليه) .

— وعن حق الجار يقول صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن باا واليوم الآخر فليكرم جاره . وقيل للرسول : إن فلانة تصوم النهار وتة الليل لكنها تؤذى جيرانها . فقال : هى فى لنار .

— وعن التنفيس عن المدين يقول أبو قتادة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفّس عن معسر أو يضع عنــه ، ويروى جابر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : رحم الله رجلا سمحا إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى .

— وعن الدقة فى اختيار الصديق يقول صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب ، ويقول : الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل . (رواه أبو داود) .

— وعن جزاء المجاهد يقول صلى الله عليه وسلم : من قاتل فى سبيل الله وجبت له الجنة .

— وعن الحث على البعد عن الفقر والحرمان والعوز يقول صلى الله عليه وسلم : اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى (متفق عليه)

— وعن الرفق بالناس يقول عليه السلام لعائشة يا عائشة عليك بالرفق ، فإنه لا يدخل شيئا إلا زانه ، ولا ينزع من شىء إلا شانه ، وان الله رفيق يحب الرفق (رواه مسلم) .

— وعن حسن معاملة الخدم يقول ابن مسعود : كنت أضرب غلاما لى فسمعت صوتا من خلفى يقول : اعلم يا ابن مسعود .... فلم أفهم الصوت من شدة غضبى ، فلما دنا منى صاحب الصوت وجدته رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : اعلم يا ابن مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام ، فقلت يارسول الله : هو حر لوجه الله تعالى : فقال : لولم تفعل للفحتك النار (رواه مسلم) .

تلك نماذج قليلة ، وهناك آلاف مثلها من أحاديث الرسول وهو يربى الفرد المسلم ، مرتبطة هذه الأحاديث بأحداث ومواقف ، أوكانت من التوجيه العام ، ولاشك أن هذا اللون من التربية شغل حياة الرسول فى مقامه وسفره . ويجب على كل مسلم أن يتعرّف على هــذه التوجيهات وأن يعمل بها ليسعد فى الدنيا والآخرة .

الرسول يربى المجتمع الإسلامى

عايشنا رسول الله آنفا وهو يبنى الفرد المسلم ، ورأيناه كذلك وهو يقيم الروابط بين الأفراد بالمؤاخاه ، ثم وهو يبنى المساجد تجتمع فيها جموع المسلمين فى الجمعة والجماعة وغيرهما ، ونريد أن نعايش الرسول صلوات الله عليه وهو يبنى المجتمع بخلق روابط بين أفراده وجماعاته ليتألف من هؤلاء الأفراد وهذه الجماعات مجتمع متحاب متعاون .

والذى يتتبع أحاديث الرسول وتصرفاته فى هذا المجال يجده قد بذل جهدا كبيراً فى الإرشاد لتكوين مجتمع الأسرة ، وهو المجتمع الصغير الذى يتكوَّن من وحداته المجتمع الكبير ، وقد عنى الرسول بمجتمع الأسرة عناية كبيرة ، فحث على الاهتمام باختيار الزوجة الصالحة بقوله تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس ، ثم حث على العناية بالأولاد والعدالة بينهم فى العطاء والمعاملة ، وأفاض فى الحديث عن بيان حقوق كل من الزوج والزوجة تجاه الآخر ، وأوضح التكافل بين الوالدين والأبناء ، وألزم الأبناء برعاية الآباء حتى مع اختلاف الدين ، يروى أحمد أن قتيلة قدمت على ابنتها أسماء بنت أبى بكر ، وكان أبو بكر قد طلقها فى الجاهلية ، فترددت أسماء فى استقبال أمها وقبول هداياها وبعثت إلى رسول الله تسأل عن هذا ، فأخبرها الرسول أن تحسن استقبالها وتقبل هداياها ، فنزلت الآية الكريمة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم »[1] . ونظم الرسول كذلك حقوق ذوى القربى ، وغير هذه من الموضوعات الخاصة بالأسرة ، وحسن تكوينها وتآلفها وقد شرحنا ذلك بإفاضة فى مكان آخر[2] .

وفى بناء المجتمع الإسلامى اتجه الرسول اتجاها أشمل وأفسح ، ورسم خطوطا لو اتبعها المسلمون لتكوَّن منهم أعظم مجتمع عرفته البشرية ، وشملت

---

(١) سورة الممتحنة الآية الثامنة .

(٢) الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى للمؤلف ص ٦٣ وما بعدها .

هذه الخطوط تنظيم الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وشرح النظام الاقتصادى الذى يبرز التزامات الغنى وحقوق الفقراء ، ويؤكد ضرورة تطبيق التشريعات الإسلامية التى حفلت بها فترة المدينة . وبجانب هذه الأسس الكبيرة كان الرسول يتلمس الوسائل ليجعل كل إنسان يحس بأنه جزء من هذا المجتمع الإسلامى ، وأن عليه أن يعمل لإسعاده ورفع شأنه ، وأن الفرد لا يحقق النجاح لنفسه إلا بنجاح مجتمعه .

وقد كان من أهم ما عنى به الرسول صلوات الله عليه أن يحس المسلم بشمول الأخوة بينه وبين جميع المسلمين أخذاً من قوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » هذا المعنى الذى اهتم الرسول تمام الاهتمام بتأكيده وشرحه وتكراره فى أحاديث ومناسبات متعددة نذكر منها :

- المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله .

ثم يتجه الرسول لبيان مستلزمات هذه الأخوة ، وأن الحرص عليها وتقويتها فيه خير للجميع ، قال عليه السلام :

- المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . (متفق عليه) .

- لاتحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا (رواه مسلم) .

- مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

وينتقل الرسول من تصوير الأخوة على هذا النمط إلى صورة أخرى أرفع ، هى أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه ، قال عليه السلام :

- والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (الشيخان) .

ثم يصل الرسول إلى القمة عندما ينقل الحب إلى العمل لصالح من أحب ، فإذا كان الإسلام ألزم المسلم أن يحب أخاه المسلم ، فإن عليه رعاية لهذه الأخوة أن يساعده ويعمل لإسعاده ، وفى ذلك نجد فيضا من أحاديث

الرسول التى إن وعاها المسلمون واتبعوها حققوا لمجتمعهم أسعد حياة ، قال عليه السلام :

— ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هى الحالقة (رواه أبو داود) .

— من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب الآخرة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه (متفق عليه) .

— إن شجرة كانت تؤذى المسلمين فجاء رجل فقطعها فدخل الجنة (رواه مسلم) .

— سأل أبو برزة النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يعلمه طريقا ينتفع به ، فقال له عليه السلام اعزل الأذى عن طريق المسلمين (رواه مسلم) .

— عُرضت علىّ أعمال أمتى حسنها ومسيئها ، فوجدت فى محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق .

— أن تعدل بين الاثنين صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة (متفق عليه) .

— ما من مسلم يغرس غرسا فيأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة (رواه مسلم) .

وهكذا نجد أحاديث الرسول اشتملت العمل الصالح الذى يوجه لخدمة واحد بعينه أو يوجه لخدمة المجموع بدون نظر للأفراد ، وكان الرسول فى قيادة المجتمع قدوة طيبة يباشر هذه الاتجاهات والفضائل ، فكان يدعو بعمله بمثل ما يدعو بقوله ، مما خلق مجتمعا متعاطفا متحابا ، زلزل عروش الباطل وأقام صرح الإسلام فى أقصر فترة عرفها التاريخ .

أخلاق إسلامية يغرسها الرسول

هناك أحاديث شريفة ترتبط بأحداث محدودة روينا منها ونحن نتكلم عن الرسول صلوات الله عليه وهو يبني الفرد المسلم ، أو المجتمع الإسلامي ، وهذه أشبه بالعقد المتكامل ، أو بباقة من الزهر منتظمة ، وهناك أحاديث لا نعرف أنها ارتبطت بحادثة معينة وإنما هي ثقافة عامة لجماهير المسلمين ، وهي كذلك تغرس في نفوسهم أخلاق الإسلام فيما يقابله المسلم من شئون ، وهذه أشبه بالزهرات على الغصون طبيعية غير مصنوعة . والأحاديث الشريفة التي جاءت لمناسبة أشبه بآيات الذكر الحكيم التي نعرف لها سبب نزول ، وأما الأحاديث العامة فأشبه بآيات القرآن الكريم التي لاترتبط بأسباب نزول .

ونقطة أخرى نقدم بها كلامنا عن الأخلاق الإسلامية ، هي أن الإسلام قدم للمجتمع أخلاقا لم تكن موجودة من قبل ، بل لا يستطيع المجتمع البشري حتى الآن أن يتبنى الأخلاق الإسلامية بكل اتجاهاتها ، فقبل الإسلام كانت العدالة والوفاء بالوعد تعد ضعفا ، ولهذا هجا شاعر إحدى القبائل بأنها لا تغدر ولاتظلم فقال :

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

ومثل ذلك ما قاله الآخر : ومن لا يَظْلِم الناس يُظْلَم .

فجاء الإسلام وفرض العدالة ، بل أوحى بما هو أسمى من العدالة وهو الإحسان ، وقبل الإسلام لم تكن المساواة موجودة ، إذ كان العالم منقسما إلى سادة وعبيد ، ومع اختفاء الرق في عصرنا الحاضر فإن المساواة لا توجد الآن ، فلا يزال هناك في أرقى البلاد نزعات التفرقة العنصرية ولا يزال في العالم ظلم ونهب يتضحان من الاستعمار أو بقاياه ولا يزال هناك جبابرة يخيفون الناس ويسعدون بأنهم مصدر خوف ورعب ، وهذا وسواه لأن المجتمع البشري لم يصل بعد إلى الغاية التي سعى لها الفكر الإسلامي في مجال الأخلاق .

ما الأخلاق الإسلامية التي قدمها رسول الإسلام وجهد ليغرسها في المجتمع الإسلامي ؟ ذلك ما سنحاول الحديث عنه هنا .

ومن قراءاتي لأحاديث سيدنا رسول الله أستطيع أن أبدأ بأن أكون من الأحاديث المتناثرة صورة متكاملة لآداب اجتماع من الاجتماعات أو حفل من الحفلات ، فإذا كنت مقدما على اجتماع ، فإن الرسول يضع لك ارشاداً عن كل مرحلة من مراحل هذا الاجتماع أو الحفل ؛ من الاستعداد له . . . . حتى الانتهاء منه ، ومن الواضح أن الرسول لم يذكر هذه الأحاديث بهذا التسلسل ، ولكني أستطيع أن أضم الأحاديث بعضها إلى بعض لتشمل هذه الغاية ، وبعد ذلك نسجل مجموعة أخرى من الأحاديث عن صور أخرى من الأخلاق الإسلامية .

وأول ما نذكره متصلا بالاشتراك في الاجتماعات أن المسلم إذا كان مقبلا على اجتماع خاص أو عام أن يعد نفسه لذلك بالنظافة وحسن السمت ، وألا يأكل بصلا أو ثوما أو طعاما تؤذى رائحته ، وفي ذلك يقول عليه السلام :

- بني الدين على النظافة ، والنظافة من الإيمان .

- كان رسول الله يكره رائحة العرق في المسجد .

- من أكل هذه (البصل أو الثوم) ، فلا يغشى مجلسنا حتى يزول منه الريح .

- إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده .

فإذا طرقت الباب للدخول فسألك أصحاب البيت : من الطارق ، فلا تقل : « أنا » فقط وهذا ما يحدث في كثير من الأحوال ، بل قل : أنا فلان ، فعن جابر قال : أتيت الرسول صلوات الله عليه فدققت الباب ، فقال : من ذا ؟ فقلت : أنا ، فقال أنا ! ! أنا ! ! كأن لا أحد إلا أنت . إذا دق أحدكم الباب فسئل من الطارق ؟ فليقل : أنا فلان .

وإذا دخلت إلى مجتمع قليل الأشخاص وقام لك الحاضرون فصافحهم ، وإذا لم يقوموا فقل « السلام عليكم ورحمة الله » ، واجلس حيث انتهى بك المجلس .

– عن أبي الخطاب قال : قلت لأنس : أكانت المصافحة فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم .

– دخل الرسول على جماعة فقاموا له : فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة .

وإذا كان اللقاء مع رجل شديد الصلة بالإنسان جاز عناقه وتقبيله ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم زيد بن حارثة المدينة وجاء إلى بيتى واستأذن فاستقبله الرسول واعتنقه وقبّله .

وإذا جلس القادم فينبغى ألا يكون مجلسه فى مجلس رجل قام له بدون إذنه ، وألا يفرق بين اثنين بدون إذنهما ، فعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

– لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا .

– لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين فى مجلس إلا بإذنهما .

وفى تقدير الإنسان للجالسين ينبغى للإنسان أن يلاحظ السنّ وأقدار الناس ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيّض الله له من يكرمه عند تقدم سنه .وعن السيدة عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزلوا الناس منازلهم .

وإذا تكلم الناس فليترك الجالسُ مالا يعنيه فلا يتكلم فيه ، قال : عليه السلام : من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه (رواه الترمذى) .

– وإذا كان هناك طعام فإن الرسول يضع آداب تناول الطعام فى أروع صورة ، قال عليه السلام :

– كل بيمينك ، وكل مما يليك .

– نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع (متفق عليه) .

– عن عائشة قالت : أول بدعة حدثت بعد رسول الله ، الشبع ، ورسول الله لم يشبع قط ، وكان طعامه الكفاف .

- وعنها أيضاً قالت : لم يمتلىء جوف النبي شبعا قط ، وكان فى أهله لا يسألهم طعاما ولا يتشهاه ، إن أطعموه أكل ، وما يقدَّم له يقبله .

— ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا بد آكلا ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه .

— إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن العبادة ، ومفسدة للجسم ، ومؤدية إلى السقم ، وعليكم بالقصد فى قوتكم ، فهو أبعد عن السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة .

— لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء .

بقى بعد ذلك أن نورد مجموعة من الأحاديث عن صور أخرى رائعة من الأخلاق الإسلامية ؛ قال صلى الله عليه وسلم فى الرجل يخيف الناس فيتقى الناس شره : إن شر الناس من وَدَعه الناس اتقاء شره .

وكان رسول الله يوصى بالبهائم ، ويأمر بحسن استعمالها ، ومن الأحاديث الشهيرة فى ذلك قوله :

— دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها وسقتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض .

— اتقوا الله فى البهائم المعجمة .

— غفر الله لامرأة مذنبة لأنها رأت كلبا يلهث من العطش فقدمت له الماء .

بل كان الرسول يوصى بالأشياء التى لها ارتباط بالإنسان ، ومن هنا كان يطلق أسماء طيبة على بعض هذه الأشياء ، فكان يسمى قصعته « الغراء » ، ومرآته « المُدِلَّة » .

ويَعدُ الرسول صلوات الله عليه الذين يقضون حوائج الناس بالنجاة من النار فيقول : إن لله تعالى عبادا اختصهم بحوائج الناس ، يفزع إليهم الناس فى حوائجهم ، أولئك هم الآمنون من عذاب الله .

ونختم هذه المجموعة من الأحاديث بذكر حديث يوضح اختلاف الحكم مع اختلاف الظروف ، فقد روى سلمة بن الأكوع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى عام من الأعوام عن الأضحية :من ضحى منكم فلا يصبحن بعد ثالثة وفى بيته من أضحيته شيء ، فلما كان العام المقبل قالوا : يارسول الله نفعل كما فعلنا فى العام الماضى ؟ فأجاب : لا ، كلوا وأطعموا وأدخروا ، فإن العام الفائت كان بالناس جهد ، فأردت أن تعينوا على الجهد .

الرسول يربى القضاة

يهتم الإسلام بالقضاء اهتماما كبيراً ، فالعدالة فى القضاء مزدوجة الفائدة ، فيها إنصاف للمظلوم لتهدأ نفسه ، وفيها تخويف للظالم حتى لايتكرر ظلمه ، وقد وقف الرسول صلوات الله عليه من القضاء موقف الشارح البارع للقرآن الكريم ، المطبق للفكر الإسلامى فى هذا المجال المهم ، والذى يتابع مواقف الرسول فى مجال تربيته للقضاة يجد أن هذه المواقف شملت القضاء من جميع جوانبه ومراحله ، كما توضح ذلك الاقتباسات التالية :

وأول موقف يلحظه الباحث أن الرسول اتخذ المسجد مكانا للقضاء ، واتخاذ المسجد مكانا للقضاء يحمل معنى أشار له ابن القيم [1] وهو قدسية القضاء ، فمادام القضاء يعقد فى بيت الله فإن قدسيته تصبح واضحة ، وإذا كان القضاء قد عقد بعد ذلك فى أمكنة أخرى ، واتُّخِذت له قاعات خاصة فقد انسحبت القدسية إلى كل مكان يقام فيه ، وذلك ضمانا للعدالة وإحساسا بالمهمة الكبرى التى يزاولها القاضى .

وانعقاد جلسة القضاء فى المسجد وضع أساسا ضروريا لهذه الجلسة هو « العلنية » أى أن تكون جلسة القضاء مفتوحة للجميع ، ويمكن لأى فرد أن يدخل ساحة المسجد ويتجه إلى حيث يكون مجلس القاضى ، وحضور الجماهير هذه الجلسة سيكون نوعا من التعليم والتدريب من جانب ، وسيضمن من جانب آخر عدالة الحكم ، لأن الجماهير ستكون بمثابة المراقب الذى يحس بقدر التهمة ، ومدى الأدلة ، ونوع الحكم .

وبعد الحديث عن مكان التقاضى نتابع الرسول صلوات الله عليه وهو يبرز لنا أهم شروط القاضى والتزاماته ، ولعل أول شرط نقتبسه من كلام الرسول هو شرط العلم الذى لا يجلس الإنسان مجلس القاضى بدونه ، يقول عليه السلام :

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ص ٥٦ .

القضاة ثلاثة : قاض فى الجنة وقاضيان فى النار ، قاض عرف الحق فقضى به فهو فى الجنة ، وقاض عرف الحق فقضى بخلافه فهو فى النار ، وقاض قضى على جهل فهو فى النار (١) . فالجزء الأخير من الحديث يقرر أن القاضى الجاهل بالأحكام يُدفع للنار وإن أصاب فى قضائه ، لأن إصابته جاءت مصادفة ، والقاضى لابد أن يكون على درجة كافية من العلم ولاتتحكم المصادفة فى أحكامه .

ونستمر مع هذا الحديث الشريف فترى جزأه الأوسط يقدر ضرورة العدالة ، ويراها من أبرز شروط القاضى ، فالقاضى الذى عرف الحق وقضى بسواه يدفع به إلى النار مع القاضى الجاهل ، لأنه لم ينتفع بما علم ولم يؤد حق الله ، ويتكرر هذا المعنى فى حديث آخر رواه البيهقى ونصه : إذا جلس القاضى فى مكانه هبط عليه ملكان يسددانه ويوفقانه ويرشدانه ، ما لم يجر ، فإن جار عرجا وتركاه . وهكذا نجد عون الله مع القاضى الذى يتجه للعدالة ، أما الذى يتجه للجور والظلم فيكله الله لنفسه ، والويل كل الويل لمن لا يكون معه عون الله وتوفيقه .

وهناك خصلة يبرزها الرسول للحكام بوجه عام وللقضاة بوجه خاص ، تلك هى البعد عن شبهات الرشوة والهدايا ، يقول صلى الله عليه وسلم : هدايا العمال غلول ، ويُعَدُّ القاضى من أول العمال الذين يحرم عليهم أى شىء يشكك أو يؤثر فى عدالتهم ، حتى أن القضاة المسلمين كانوا يكرهون أن يتخذوا أصدقاء يكثرون التردد على منازلهم ، إذ قد يتوهم الناس أن هذا الذى يتردد على بيت القاضى له عنده منزلة قد تتخذ أساس استغلال غير مشروع .

وتنتقل بنا أحاديث الرسول إلى نقطة أخرى مهمة ، هى التسوية بين المتخاصمين فى مجلس الحكم ، وفى هذا الصدد يروى أبوداود عن عبد الله ابن الزبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قضى أن الخصمين يقعدان بين يدى القاضى ، ولم يكتف الرسول بالمساواة فى المجلس بل ألزم القاضى أن

---

(١) رواه أبوداود .

يسوّى بين الخصمين فى نقاط دقيقة نراها فى قوله صلى الله عليه وسلم : سوِّ بين الخصمين فى لحظك ولفظك .

وبعد الجلسة والمساواة فيها . تجىء إرشادات الرسول حول ضرورة سماع طرفى الخصومة قبل الحكم . وهو فى ذلك يقول : إذا جلس الخصمان بين يديك فلا تقض حتى تسمع كلام كل منهما ، فإنه أحرى أن يتبين لك وجه الحق .

وعند سماع الطرفين ينبّه الرسول إلى موضوع خطير هو إمكان أن يكون أحد الطرفين فصيحا وأن يكون فى الآخر عىٌّ مما قد يؤثر على القاضى ، وفى ذلك يقول المعلم العظيم : إنكم تختصمون إلىّ وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم يكون أبلغ بحجته من الآخر ، وإنما أقضى بينكم على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه . فإنما ذلك قطعة من النار يأتى بها فى عنقه يوم القيامة .

ويروى فى هذا المجال أن رجلين اختلفا فى ميراث وتقاضيا أمام الرسول ، فقال لهما هذا الحديث ، وبخاف كل منهما أن ينال من صاحبه أكثر من حقه ، فقال كل منهما للآخر : تركت حقى لك . فقال الرسول لهما : أما الآن فقوما واقتسما وتوخيا الحق . ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه :

وبعد سماع الطرفين على النحو السابق يجىء دور الأدلة ، ويوضح الرسول أن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر . وقد طلب الرسول البينة مرة من مدع فأجاب هذا : ما عندى شهود والعمل الذى بيننا لم يحضره أحد . فقال الرسول إذن اليمين على صاحبك . فقَبِل المدعى هذا ، ولكن الرسول ذكّر المنكر قبل أن يقسم بأن « من حلف يمينا يقتطع بها مال امرىء بغير حق جاء يوم القيامة وهذا الحق معلق فى رقبته » فخاف الرجل ولم يحلف اليمين ، وترك ما اختلفا عليه للمدعى .

وبعد سماع قول الطرفين وسماع الشهود أو اليمين يجىء دور الحكم الذى ينْبنى على النص أو على الاجتهاد ، وقد وضع الرسول أسس التدرج

فى ذلك فى حديثه مع معاذ بن جبل عندما اختاره ليرسله لليمن داعية وقاضياً ، وقد ذكرنا هذه المحادثة عند كلامنا عن تربية الرسول للعلماء والدعاة ، وخلاصتها أن القاضى يتبع كلام الله ، فإن لم يجد فيه نصا يعينه اتبع كلام رسول الله ، فإن لم يجد حديثا يساعده اجتهد رأيه فى حدود الإطار الإسلامى الشامل ، وعندما قال معاذ للرسول ذلك فرح الرسول وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله .

ومن روعة الإسلام أن المجتهد عن علم يثاب على اجتهاده ومحاولته حتى وإن أخطأ ، وفى ذلك يقول الرسول عليه السلام : إذا اجتهد القاضى فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد .

ومن تقدير الاجتهاد ما روى أن رجلا جاء يشكو إلى عمر من أمر ، فأحاله عمر إلى علىّ بن أبى طالب ، وقضى على فى المسألة برأيه إذ لم يكن هناك نص يلجأ له ؟ وبعد فترة التقى عمر بالرجل الشاكى فسأله عمر : ماذا فعل علىّ فى شكاتك ؟ فأخبره الرجل ، فقال عمر : لو كنت أنا الذى قضيت لقضيت بكذا . . .

وكان رأى عمر فى صالح الرجل ، فصاح به الرجل : وما يمنعك والأمر لك ؟ قال عمر : وكيف أعرف أن رأيى أفضل من رأى على .

ولم يغير عمر الحكم الذى قضى به على .

ويوضح الرسول أبلغ وضوح أنه لا شفاعة فى الحكم ، وأن القوانين الإسلامية يستوى فى الخضوع لها الملك المتوج والفقير البائس ، فعندما سرقت امرأة من بنى مخزوم وهم من أشراف قريش توقع قومها أن الرسول سيقيم عليها الحد ، فتشفعوا للرسول بأسامة بن زيد ، فلما تكلم أسامة مع الرسول فى ذلك صاح فيه الرسول : أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة ؟ إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف عاقبوه ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها (رواه البخارى) .

وقد تأثر القضاة المسلمون تأثراً عميقاً بهذا الاتجاه النبوى الكريم ، ومن ذلك ما يذكره الكندى أن توبة بن نمر الحضرمى لما ولى القضاء دعا زوجته وسألها : كيف علمت محبتى لك ؟ قالت : جزاك الله من عشير خيرا . فقال توبة والآن وقد علمتِ ما بُلينا به من أمر الناس ، فأنت طالق ...

ولم تتركه الزوجة يكمل ما يريد أن يقول ، فصاحت خائفة من الطلاق ، ولكنه قال لها اصبرى حتى تسمعى ماأريد أن أقول ، أنت طالق إن كلمتنى فى خصم أو تشفعت فى قضاء . فيروى أنها كانت ترفض أن تضع له الماء فى الدواة خشية أن يكون فى ذلك إشارة إلى استعجال فى قضاء[1] .

وهكذا كان نهج الرسول فى القضاء تعليما وتهذيبا للأجيال بدءا من أسامة ابن زيد ومعاذ بن جبل واستمرارا حتى الآن ، ودائماً فى كل زمان ومكان ، لأنه نهج سليم فى ارشاد من هدى الله ومن موهبة الرسول ، وما أعظم النهج الذى يتخذ هذين أساسا له .

---

(١) قضاة مصر ٣٧ .

الرسول يربى القوة العسكرية

إذا كان عهد الإسلام فى مكة لم يحتج إلى قوة عسكرية إذ لم يكن الإذن بالقتال قد نزل بعد، فإن عهد المدينة كان حافلا بالصراع إذ نزل قوله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » وقوله « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وقد بدأت السرايا والغزوات عقب الهجرة واستمرت طيلة عهد المدينة ، ومن هنا كان من الضرورى أن يربى الرسول القوة العسكرية ليواجه بها الباطل الذى اتجه لتهديد الدعوة بحد السلاح عقب نجاح الهجرة .

ومن هنا اهتم الرسول اهتماما كبيراً بالحث على القوة ، وتربية الرغبة فى الجهاد عند المسلمين ، كما بذل جهدا كبيراً فى إعداد المجاهد وفى التقليل من شأن من لم يكن له حظ فى الجهاد ، فعن الحث على القوة يقول صلى الله عليه وسلم « المؤمن القوى خير وأكرم عند الله من المؤمن الضعيف » وعن تربية الرغبة فى الجهاد يقول عليه السلام :

— إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف .

— لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها .

— رباط يوم فى سبيل الله خير مما طلعت عليه الشمس .

— من قاتل فى سبيل الله وجبت له الجنة ، ومن جرح جرحا فى سبيل الله جاءت جراحه يوم القيامة لونها الزعفران وريحها المسك .

وواضح أن من الناس من لا يقوى على خوض المعارك لهرم أو ضعف أو ما ماثل ذلك ، وهؤلاء يحثهم الرسول على مساعدة المجاهدين ما استطاعوا ، وفى ذلك يقول عليه السلام : من جهز غازيا كان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجر الغازى شيئا .

أما الذى لا يجاهد بنفســه ، ولا يساعد المجاهدين ، فالرسول ينذره ويتوعده ، قال عليه السلام :

- من لقى الله وليس له أثر فى سبيل الله ، لقى الله وفيه ثلمة (نقصان) .
- من لم يغز ، أو لم يجهز غازيا ، أولم يخلف غازيا فى أهله بخير ، أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة .

وفى ضوء هذه الإرشادات ، والوعد ، والوعيد تكونت حول الرسول أعظم قوة عرفتها الجزيرة العربية ، وأحاطت هذه القوة بالرسول تعمل لنيل إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، وسنعيش مع الرسول صلوات الله عليه وهو يعلّم المسلمين فنون الحرب وإدارة المعركة فى جميع مراحلها .

ومن أهم ما عنى به الرسول أنه كان إذا أراد خوض معركة ، كتم سر اتجاهه الذى يسعى إليه حتى عن أقرب الناس إليه ليفاجىء الأعداء بهجومه ، وهو هدف يحاول كبار القادة أن يتمثلوه حتى الآن ، وقد روى عن كعب ابن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يغزو غزوة ورّى بغيرها ، وعن أنس أن رسول الله قبيل غزوة بدر هتف بأصحابه قائلا : إن لنا هدفاً ، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا ، وكان إذا عقد اللواء فى سرية من السرايا لأحد أصحابه ، يركز اللواء فى فناء المسجد ويختار بعض الأبطال ولا يحدد المكان لأمير السرية إلا عند التحرك ، وأحيانا كان يكتب له كتابا ويطويه ويأمره بالاتجاه نحو الشمال أو الجنوب مثلا ، وألا يفتح الكتاب إلا فى مكان يحدده ، وكل ذلك حتى لا يتسرب الخبر للعدو فيبادر بالهجوم وتفشل الخطة .

ومما عنى به الرسول أنه قبل المعركة كان يبذل كل الجهد ليتعرف على أخبار العدو حتى يأخذ للأمر عدته ، يروى أنس أن الرسول قبيل غزوة بدر بعث بسبس بن بشر عينا ينقل له أخبار عير أبى سفيان ، كما أرسل طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى طريق الشام يتجسسان له الأخبار ، وكان له جواسيس بمكة يأتونه بأخبارها ، ومنهم عمه العباس وبشير بن سفيان العتقى (١) . ولما نزل قريبا من بدر خرج بنفسه ومعه أبوبكر يستطلعان الأخبار متنكرين (٢) .

---

(١) عبد الحى الكتابى : التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٦ و ٦٢ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٦٥ .

وقد بلغ من حرصه على التعرف على أخبار العدو أنه أمر زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود ليستطيع أن يتعرف أخبارهم[١] ، ويروى أنه أرسل عبد الله بن جحش مع ثمانية من المهاجرين ووجههم تجاه مكة دون أن يعيّن لهم الغرض من رحلتهم ، وكتب إلى عبد الله كتابا أمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين ، وسار عبد الله مع رفاقه طيلة اليومين ثم فتح الخطاب فإذا فيه : إذا نظرت فى كتابى هذا فأمعن حتى تنزل (نخلة) (بين مكة والطائف) فترىص بها قريشا ، وتعلم لنا من أخبارهم[٢] .

ولما كان من الممكن ومن المتوقع أن يرسل الأعداء عيونا لهم ليتعرفوا أخبار المسلمين فقد وضع الرسول نظاما لمعاملة هؤلاء الجواسيس ، ومن التعاليم التى وضعها الرسول أن المسلمين إذا عرفوا الجاسوس تظاهروا بأنهم لم يعرفوه ، ثم يتركون بعض الأنباء الزائفة تتسرب إليه ليخدعوه ويخدعوا مرسليه ، وإذا اضطر المسلمون أن يظهروا للجاسوس اكتشافهم لأمره فإنهم يحاولون أن يعاملوه بلطف ويستميلوه إليهم لعلهم يحصلون منه على أخبار تنفعهم ، أو ليرسلوا عن طريقه إلى العدو أخباراً غير صحيحة ، وقد عثر المسلمون يوم بدر على واحد من عيون قريش وأراد بعض المسلمين العدوان عليه ، ولكن الرسول نهاهم عن ذلك واستدعاه وسأله عن عدد قريش فلم يعرف ، فسأله عما ينحرون من الإبل كل يوم . فأجاب : بأنهم ينحرون تسعة فى يوم وعشرة فى يوم آخر فاستنتج الرسول أن العدد يتراوح بين تسعمائة وألف[٣] .

واهتم الرسول اهتماما بالغا بتنظيم الجيش تنظيما شمل مسيرة الجيش وترتيبه ، فهو يسير بجيشه ، وتكون مسيرته هو فى آخر الركب ليشجع الضعيف ، وليردف المنقطع ، وهو يلبس للحرب لباسه وعدته ، ويحمل الجيش الألوية ، وتنشد الأناشيد للتشجيع والحماسة ، وإذا واجه الجيش

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٤٢ .
(٢) الجهاد والنظم العسكرية للمؤلف : ص ٨٩ .
(٣) عبد الرءوف عون : الفن الحربى فى صدر الإسلام ص ٢١٦ .

العدو قسمه الرسول إلى قلب وميمنة وميسرة ، وجعل على كل منها قائدا ، وكان يوقف الرماة خلف الجيش لحماية ظهره ، وكان يحاول أن يقوم بعملية التفاف حول العدو ، ويتخذ للجيش كلمة سر ، وكان من كلمات السر (منصور — حم) وكان يضع كلَّ محارب مع أفراد قبيلته فى مكان معين ليتعاون أفراد القبيلة وليحرضوا على ألا توجد ثغرة فى موقعهم ، وكان يوصى كبار مساعديه بالصبر والثبات ، ومن وصيته لعبد الله بن جبير أمير الرماة فى غزوة أحد قوله : انضح الخيل عنا بالنبل ، لا نؤتينَّ من قبلك ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك ، لا نؤتين من قبلك[١] .

وقد قاد الرسول أكثر الغزوات الإسلامية ، فكان بذلك يدرب قادته تدريبا عمليا على المعارك والصمود فيها ، وقد وصفه على بن أبى طالب فى ذلك المجال بقوله : إنا كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدقة اتقينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب من العدو منه ، ووصفه عبد الله بن عمر بقوله : مارأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] .

وقد تأثر القادة المسلمون بأقوال الرسول وفعله تأثراً كبيراً ، وحققوا ن الغزوات أسمى الأهداف التى يعجز الأبطال عن تحقيقها ، حتى ليروى أن على بن أبى طالب قتل فى غزوة بدر نحو ثمانية عشر رجلا من المشركين ، كان منهم نوفل بن خويلد ، فلما التقى به على بن أبى طالب صاح نوفل بعلى : أسألك بالله والرحم أن تكف عنى ، أنا أخو خديجة وخال فاطمة فقال على : لا قرابة بين مشرك ومسلم ، لقد جئت تقتل رسول الإسلام فحق عليك القتل ، وقتل عبيدة بن الجراح أباه عندما حاول هذا الأب أن يقتله لدخوله الإسلام ، وقال له وهو يطعنه : خذها فى سبيل الله ، وهكذا علمهم الإسلام أن الله ورسوله أحب إلى الإنسان من كل قريب وكل متاع كما ذكرت الآية الكريمة « قل إن كان آباءكم وأبناءكم وإخوانكم

---

(١) تاريخ الطبرى : ج ٢ ص ١٩٢

(٢) انظر الجهاد والنظم العسكرية فى التفكير الإسلامى للمؤلف : ص ٨٢ .

وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا[١] » .

ومما عنى به الرسول عناية كبيرة التحذير من الفرار وعده الرسول من الكبائر العظمى والموبقات السبع قال عليه السلام :

— ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف .

— اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا وما هن يارسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات ، والسحر .

وقد يجوز الفرار لتدبير حربى فى حدود قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير[٢] .

وإذا كان الفرار مقبولا أحيانا من المسلمين لصالح المعركة فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعط لنفسه الحق فى الفرار قط مهما كانت الأحوال . كما حدث فى غزوة حنين . فقد فر أصحابه من هول المفاجأة ، ولكنه وقف كالطود الشامخ لا يزل ولا يفر . وحكى القرآن الكريم هذا الموقف بقوله « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم » [٣]

ونصل إلى نقطة مهمة لعل هنا أوان ذكرها : فإنه مع هذه البطولة الفائقة والثبات الرائع الذى ألممنا ببعض مظاهره لم يقتل الرسول أحدا بيده إلا شخصاً واحداً هو : أبى بن خلف . ويروى ابن هشام سبب ذلك فيقول : إن أبى

---

(١) سورة التوبة : الآية ٢٥ .

(٢) سورة الأنفال الآيتان ١٥ – ١٦ ..

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٣ .

ابن خلف كان يلقى الرسول بمكة فيقول له : يا محمد إن عندى « العوذ » فرسا أعلفه كل يوم سأقتلك عليه ، فيجيبه الرسول : بل أنا أقتلك إن شاء الله. فلما كانت غزوة أحد وجرح الرسول وناله الأذى جاء أبى وهو يصرخ قائلا : أين محمد ؟ لا نجوت أن نجا ، فهمّ المسلمون للقائه ، ولكن الرسول قال لهم : اتركوه وأخذ الحربة من الحارث بن الصمة وانتفض بها انتفاضة هزّت القوم ، وضرب بها أبى بن خلف ضربة أصابت عنقه ، فانقلب عن فرسه ، وأخذ يتدحرج ، وأسرع إلى قريش يقول : قتلنى محمد . فلما رأوا جرحه وجدوه غير بعيد الغور ، فقالوا له : هون عليك فما بك من بأس ، فقال : أبداً كذبتم . لقد روعنى محمد . ووالله لو بصق على لقتلنى ، ومات فى الطريق إلى مكة (١) .

وكان الرسول يختار للسرايا عمالقة الأبطال المسلمين الذين عرف فيهم شدة البأس وعمق الصبر ، والشجاعة ، من أمثال عبيدة بن الحارث ، وسعد ابن أبى وقاص ، وعبد الله بن رواحه وزيد بن ثابت ، وأبى عبيدة بن الجراح ، ثم أصبح من خيرة قواده خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، عندما دخلا الإسلام .

وهناك غزوة وحيدة لم تكن بقيادة الرسول . وإنما اختار لقيادتها بعض أبطال المسلمين ، تلك هى غزوة مؤتة ، وقد أدرك الرسول خطورة هذا اللقاء ، إذ كان أول لقاء مع جحافل الروم ، ولذلك اختار زيد بن حارثة ليكون أمير القوم . وقال إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب ، فعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب فليرتض المسلمون قائداً من بينهم ، والرسول فى هذا يحتاط للمعركة ، فيعيِّن أكثر من واحد بالتوالى ثم يدع الزمام للجنود ليختاروا قائدهم أن سقط القواد الذين عينهم الرسول ، وكانت أهم وصية يُعنى بها الرسول هى التعاون بين المسلمين وقد سبق أن ذكرنا أنه أرسل عمرو بن العاص يقود ثلاثمائة رجل من المسلمين لمواجهة

---

(٣) ابن هشام : السيرة جـ ٢ ص ٣١ .

جماعات من قضاعة يتجمعن وراء وادى القرى ليغيروا على المدينة ، وكان ذلك عقب غزوة مؤتة ، وأحس عمرو أن قوة العدو أكبر من قوته ، فبعث إلى الرسول يطلب المدد ، فأرسل له الرسول مددا بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ، وكانت وصية الرسول لأبى عبيدة قصيرة وحاسمة هى : ان قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا ، وعندما وصل المدد قال عمرو : أنا أمير الجيش وأنتم مدد لى ، وقال بعض أتباع أبى عبيدة ان أبا عبيدة هو أميرنا ، ولكن أبا عبيدة سرعان ما حسم الأمر عندما قال : أن الرسول أمرنى أن نتراضى ، وهأنذا أترك الإمارة لعمرو . وهذا مثل تكرر بين قواد المسلمين .

وكان من عادة الرسول إذا أرسل سرية أن يسأل الجنود عند عودتهم عن أحوالهم وصلات قائدهم بهم ، وعن مدى التعاون الذى تم بينهم .

بقيت فى مجال الحديث عن تربية القوة العسكرية أن الرسول صلوات الله عليه وضع نموذجا لم تقو المدنية على تبنيه حتى الآن ، وذلك النموذج يتضح من أحاديث الرسول التى نروى بعضها فيما يلى :

— عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذابعث جيوشه قال : فاخرجوا باسم الله ، تقاتلون فى سبيل الله ، لا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الولدان ، ولا أصحاب الصوامع .

— وعن أنس أن الرسول صلوات الله عليه قال : لا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا صغيراً ولا امرأة .

— وعن رباح بن ربيع أنه خرج مع الرسول فى غزوة غزاها ، وكان على مقدمته خالد بن الوليد ، فمر الرسول على امرأة مقتولة فقال : ماكانت هذه لتقتل ، ثم التفت إلى أحد أصحابه وقال له : الحق بخالد فقل له : لا تقتلوا امرأة ولا ذرية ولا عسيفا (أجيرا) .

ومن هذه الأحاديث الشريفة اتجه المسلمون إلى إنه لا يقتل شيخ ولا صبى ولا امرأة ولا عامل مادام هؤلاء لم يشتركوا فى الحرب ، ولايقطع

شجر ولا يُخَرَّب عامر، ولا يؤذى حيوان ، ولا يحرق زرع .... وتلك كما قلنا أفكار سامية رسمها الرسول صلوات الله عليه ، وسار عليها أصحابه بعده ، وعلى الرغم من أن المدنية الحديثة اقتبست الكثير من الفكر الإسلامى فى مجال السياسة والاقتصاد وغيرهما، فإنها لم تستطع أن تقتبس اتجاهات الإسلام وآدابه فى مجال السلم والحرب ، فالقوة لا تزال هى التى تحكم البشر ، وفى الحروب الحديثة يتعرض الأبرياء للموت ، ويُدك العمران ، ويحرق الزرع ، ولا يفرِّق المعتدون بين محارب ومسالم .

تلك هى القوة العسكرية التى بناها الرسول : والتى قُدِّر لها أن تحقق فى حياته أعظم انتصار على قوى الباطل بالجزيرة العربية فى مكة وفى المدينة وخيبر وحنين والطائف .... وقدر لها بعد وفاته أن تنتصر على جيوش الأكاسرة والقياصرة ، وأن ترفع علم التوحيد على السوارى فى أعظم امبراطوريتين عرفهما ذلك الزمان .

الرسول يربى الولاة والحكام

لقد شاهد الرسول وهو بالمدينة اتساع الدولة الإسلامية التى أوشكت أن تشمل الجزيرة العربية كلها ، ودعا الرسول أمراء البلاد المحيطة بالجزيرة وملوكها إلى الإسلام ، وامتدت آماله إلى دخول هذه الممالك فى حوزة دين الله ، ومن هنا اتجه الرسول لتربية الولاة على الأقاليم فى عهده ، وتربية الحكام من بعده ، وكان النمط الذى حرص الرسول عليه يتمشى مع قوله عليه السلام « اثنان من أمتى إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس : العلماء والأمراء » فالرسول صلوات الله عليه يدرك أهمية الحاكم بالنسبة للرعية ، فإذا كان صالحا أحسن اختيار معاونيه ، وأحسن معاونوه بالتالى سلوكهم مع الرعية ، فتستقر الأمور ويسعد الناس ، وعلى عكس ذلك يكون الحاكم الفاسد .

وتعاليم الرسول فى مجال تربية الولاة والحكام تتدرج تدرجا طبيعيا ، فهى تتحدث عن ضرورة الرئيس ، ثم تنثنى للحديث عن شروطه والتزاماته ، ثم تلزمه بحسن اختيار معاونيه ، ومتابعتهم ، ..... وسنروى من أحاديث الرسول فيما يلى ما يوضح هذه الخطوات .

فعن ضرورة الرئيس والرائد يقول صلى الله عليه وسلم :

— إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا عليهم أحدهم .

— لايحل لثلاثة يكونون فى خلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم .

وعن شروط الرئيس أو الحاكم يضع الرسول صلوات الله عليه العلم والعدالة فى قمة هذه الشروط ، ويحذر من الظلم والجهل وغش الرعية ، وفى ذلك يقول عليه السلام :

— إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا أمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأبعدهم منه مجلسا أمام جائر .

— كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وهى مسئولة عنه .

— ما من أمير بات ليلة غاشا لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة .

— ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة .

ويحذر رسول الله أولئك الأمراء والولاة الذين يعذبون الرعية بأية صورة من صور التعذيب ، وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : إن الله يعذب فى الآخرة من يعذبون الناس فى الدنيا ، ويقول : اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به .

ويوجه الرسول صلوات الله عليه اهتماما كبيراً إلى اختيار المساعدين ، وينزل المسئولية على الرئيس إن أساء الاختيار ، أو إن أغضى الطرف عن إهمال معاونيه وهو فى ذلك يقول :

— من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه فقد خان الله وخان رسوله وخان جماعة المسلمين .

— من قلد رجلا على عصابة وهو يجد فى تلك العصابة من هو أرضى منه ، فقد خان الله وخان رسوله وخان جماعة المسلمين .

وألزم الرسول الحكام والولاة أن يستشيروا استشارة خاصة أو عامة فيما يعرض لهم من شئون ليس فيها نص صريح . وأن يقبلوا رأى الأغلبية ، فنى غزوة بدر أراد الرسول أن ينزل بجنوده منزلا . فسأله الحباب بن المنذر : هل أنزلك الله هذا المنزل أو هو اجتهاد من عندك ؟ فأجاب الرسول : إنه اجتهاد من عندى . فقال الحباب : أما إذ كان الأمر كذلك فليس هذا بمنزل . وأشار بمكان آخر أيده فيه المسلمون فارتضاه الرسول .

وفى غزوة الأحزاب اتفق الرسول مع أهل الطائف على أن ينفضوا ويفكوا حصار المدينة ، وأعد لهم وثيقة نظير ذلك بأن يعطوا ثلث ثمار المدينة، وعرض هذه الوثيقة على زعماء المدينة لتوقيعها فسأله سعد بن معاذ عما إذا كان للوحى دخل فى هذا الاتفاق؟ فقال له الرسول: إنما هو أمر صنعته للمسلمين راجيا من ورائه الخير. فرفض أهل المدينة التوقيع على الصحيفة ، وقال سعد : إنهم لم ينالوا منا فى الماضى ثمرة إلا قرًى ، أفبعد أن أعزنا الله بك ، يأخذون ثلث ثمار المدينة عنوة ؟ لا والله . ورجح هذا الرأى وارتضاه الرسول(١) .

وعن الشورى ، يقول أبو هريرة : مارأيت أحدا قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ، وكان أبوبكر وعمر فى مقدمة الصحابة الذين كان يعتمد عليهم فى الاستشارة ، ويروى أنه قال لهما : وأيم الله او أنكما تتفقان على أمر ما خالفتكما فيه

ويؤكد الرسول أن الولاية على الناس مهمة صعبة وأنه ينبغى ألا يتقدم لها إلا من عرف فى نفسه أنه أهل لها ، فإن تقدم لها من ليس أهلا لها وخدع الناس حتى اختير لهذا المنصب ، فإنه ينطبق عليه قوله صلى الله عليه وسلم :

— من أمَّ قوما وهم له كارهون ، لم تجز صلاته أذنيه .

— إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون عليكم يوم القيامة ندامة .

ويوضح الرسول صلوات الله عليه وسلم أن الله يعين من اختير للرياسة بواسطة الناس ، أما الذى يسعى لها دون التأكد من التزاماتها ، فإن الله لا يعينه ويكله إلى نفسه ، وفى ذلك يقول عليه السلام لعبد الرحمن بن سمرة : لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، ويروى أن أبا ذر قال للرسول : ألا تستعملنى يارسول الله ؟ فضرب الرسول بيده على منكبه وقال : ياأبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وهى يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها (٢) .

---

(١) رواه البخارى .　　(٢) رواه البخارى .

وعندما نختار الرئيس على هذه الأسس تجب طاعته ما لم يأمر بمعصية فلا تجب الطاعة ؛ قال عليه السلام : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وهناك موضوع مهم اهتم به الرسول صلوات الله عليه ، ذلك هو أنه ليس من حق الحاكم أن يتجسس على الرعية وأن يبحث عن عوراتهم ، فليس له دخل فى عقائدهم ولا فيما يسترون ما دام ذلك لم ينقلب إلى إثارة أو عمل يضر بالدولة ، وفى ذلك يقول عليه السلام :

- إن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم .

- لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو فى جوف داره .

- ويروى أن رجلاً مشركا فر أمام أسامة بن زيد فى إحدى المعارك ولحق به أسامة فنطق الرجل بالشهادتين ،ولكن أسامةضربه ضربة قاتلة،فلما عرف الرسول ذلك صاح بأسامة : أقتلته بعد أن قالها ؟ قال أسامة : إنه قالها متعوذاً بها ، قال الرسول هل شققت عن قلبه لتعرف ذلك ؟

واهتم الرسول اهتماما كبيراً بتحريم الهدايا على العمال إحساسا منه أنها رشوة قدمت باسم الهدية ، ويروى أبو سعيد الخدرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال فى ذلك : هدايا العمال غلول (أى سحت وضلال) . وقد سبق أن ذكرنا ذلك .

وهكذا نجد الرسول صلوات الله عليه أحاط بكل الشئون فى مجال تربية الحاكم والوالى ، ويوم ينتفع المسلمون باتجاهات الرسول فى هذا المجال ، فإن حالهم يصبح غير ما هم عليه الآن . حيث أصبح الحكم مغنما يسعى له كثيرون ممن لا كفاءة لهم ، وممن لا يعرفون الفكر الإسلامى ولا يدينون به ، ومن هنا يحيط هؤلاء أنفسهم بعناصر من طبقتهم ، فيعم الفساد ، وتنتشر البلوى ، وأغلب ما يعانيه العالم الإسلامى فى العهد الحاضر يرتبط بغيبة الرئيس الصالح ، وظهور الحاكم الفاسد والأعوان الضلالة على مسرح الحكم والحياة .

الرسول والعمل

يخطىء بعض الناس إذ يظنون أن العمل هو العمل اليدوى أو الجسمانى فقط ، وأن العامل هوذاك الذى يضرب بفأسه فى الأرض أو بآلته فى المصنع ، ويتضح هذا الخطأ لو لاحظنا التقدم العلمى الهائل الذى ساد المجتمع المتمدين فى أيامنا هذه، حيث أصبح العمل فى الحقول والمصانع يتم بالآلات غالبا ، وليس على العامل إلا أن يدير هذه الآلات ، ويراقبها ، ويصلحها إن توقفت ، وعلى هذا أصبح العامل يعمل بفكره فى كثير من الحالات ، وهو بهذا ليس بعيدا عن المدرس الذى يعلّم النشء،والطبيب الذى يعالج المرضى ، وليس بعيدا عن المهندس والمحاسب والجندى والتاجر .... فكل من هؤلاء يعمل بفكرة وجسمه لأداء واجبه .

ورسول الإسلام كان يعمل دائما ، ولم يعرف الراحة منذ جاءته الرسالة ، فعندما نزل عليه قوله تعالى : « قم فأنذر ... » وتصبب عرقا بسبب لقائه مع جبريل ، قالت له زوجته السيدة خديجة فيما قالت : خذ بعض الراحة . فأجابها : لم يعد هناك يا خديجة وقت للراحة . وبدأت جهود الرسول لأداء واجبه ، وبدأ يعمل لنشر الدعوة سراً حينا وجهراً حينا ، ولاقى ألوانا من العنت فى هذا السبيل . فلما تمت الهجرة إلى المدينة ازدادت مسئولياته ؛ فأخذ يعمل فى حقول متعددة نعيش فيها الآن . فهو يربى الفرد المسلم . ويربى المجتمع الإسلامى . ويربى الدعاة ، ويربى الحكام والولاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويخوض غمار الحروب ،ويبلغ التشريعات الإسلامية ، وغير هذه من الأعمال ؛ وفى ضوء هذا الواقع فإننا نسخر من التفكير الشيوعى الذى يجعل « البروليتاريا » طبقة قائمة بذاتها ويطلب لها السيادة على باقى الطبقات ، كما نسخر من أى تفكير ينبثق عن هذا الوضع فيجعل العمال والفلاحين فى جانب وباقى الفئات فى جانب آخر ؛ وبخاصة أن هذا التفكير يمزق المجتمع ،إذ يبعد الابن الذى أصبح طبيبا أو مهندسا مثلا عن أبيه العامل أو الفلاح ، ويبعد الأخ الذى اتجه إلى الزراعة أو الصناعة عن أخيه التاجر أو المهندس . ويقلل من جهود الأمهات اللاتى يتفرغن لرعاية البيوت وتربية الأولاد وهكذا .

ومن الممتع حقا أن نجد الرسول صلوات الله عليه يفسر العمل فى حدود النطاق الذى أو ردناه،وهو السعى لطلب الرزق من أي باب حلال يناسب الإنسان ، قال عليه السلام : إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها صوم ولا صلاة ، وإنما يغفرها السعى لطلب الرزق ، وجاء أحد الصحابة ليلتحق بجيش المسلمين مجاهدا فسأله الرسول عن أبويه ، فقال : إنهما شيخان ضعيفان ، فقال له الرسول : ارجع ففيهما جاهد ، وهكذا عدَّ الرسول السعى لطلب الرزق عملا يغفر الذنوب ، وعدَّ قضاء حاجة الأبوين جهادا .

وفى ضوء هذه الدراسة يصبح معنا كلمتان فقط : هما عامل وعاطل ، فالعامل هو الذى يكدح لخدمة نفسه ومجتمعة فى أى مجال من المجالات بدءاً من القاع إلى القمة ، والعاطل هو الذى لا عمل له فى أى من مجالات الحياة ، وإذا لاحظنا ذلك فإننا نجد أن الرسول كان أكثر الناس عملا ، إذ تشعبت — كما رأينا — جوانب حياته ، فعمل كرئيس وكمعلم وقاض وقائد .... وقل أن وُجد فى مجتمع المدينة ذلك العاطل الذى يعتمد على جهود الآخرين كما سنرى فى هذه الدراسة .

ومع هذا فإذا أردنا أن نخصص هذا البحث للتعرف على موقف الرسول من العمل اليدوى والجسمانى فإننا نجد مادة خصبة فى هذا النطاق ، إذ نجد الرسول يعمل ويحث على العمل ، ويعد العمل لونا من العبادة ، يتقرب الإنسان به إلى ربه ، فيثيب الله عليه ويغفر به السيئات ، يقول صلى الله عليه وسلم :

— يثاب المؤمن على كل عمل ابتغى به وجه الله ، حتى اللقمة يضعها فى فم زوجته .

— ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده .

— وفى مطلع الحياة بالمدينة بنى المسلمون مسجدا كما ذكرنا من قبل ، واشترك المسلمون فى هذا العمل ، وكان الرسول يعمل معهم كواحد منهم ، ومن أجل هذا كان المسلمون ينشدون :

لئن قعدنا والنبى يعمل   لذاك منا العمل المضللُ

وابتكر الرسول نشيداً آخر اتخذ مظهر السجع ليكون ترديده دافعا للحماسة والنشاط وهو :

اللهم إن العيش عيش الآخره   فارحم الأنصار والمهاجره

ويروى أن الرسول فى هذا العمل حمل مرة لبنة ثقيلة ، فأشفق عليه أحد المسلمين وتقدم ليحملها عنه ، فقال له الرسول : اذهب فخذ غيرها فلست بأفقر منى إلى الله .

وكان الرسول مرة فى سفر مع بعض أصحابه فاتفقوا على إعداد شاة لطعامهم ، فقال أحد الصحابة : علىّ ذبحها يا رسول الله ، وقال آخر : وعلى سلخها ، وقال ثالث : وعلى طبخها ، فقال الرسول وعلىّ جمع الحطب ، فقالوا : يارسول الله نكفيك العمل . فقال : إنى أعلم أنكم تكفونني ولكنى أحب أن أعمل كما تعملون ولا أريد أن أتميز عليكم . وقد سبق أن ذكرنا ذلك عند الكلام عن « الرسول بين أصحابه » .

وفى غزوة الأحزاب اشترك الرسول مع المسلمين فى حفر الخندق فى شمالى المدينة ، فكان الرسول يضرب بالفأس ويرفع التراب بالمكتل حتى اغبر جلده ، وحمل أبوبكر وعمر الأتربة ، وكانا يستعملان فى ذلك أثوابهما لقلة المكاتل ، وابتكر عبد الله بن رواحة نشيدا كانوا يرددونه وهم يعملون فينشطون ، ومنه :

يارب لولا أنت ما اهتدينـــا   ولا تصدقنا ولا صلينـــا

فأنزلن سكينة علينـــا   وثبت الأقدام إن لاقينـــا

وقد أثبتت كتب السيرة مجموعة من الأعمال المتعددة التى كان يقوم بها الرسول ؛ فقد كان يحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه .

وكانت زينب بنت جحش رضى الله عنها تباشر فى بيت الرسول بعض الأعمال ، فيروى أنها كانت تحسن دبغ الجلود ، وتصنع منها أدوات تنفع الناس كالقِرَب والنعال ، وكانت تتصدق بها أو تبيعها وتتصدق بثمنها على رحمها وعلى فقراء المسلمين .

وكانت فاطمة رضى الله عنها بنت النبي وزوجة على بن أبى طالب تعمل فى شئون المنزل ما يرهقها : تطحن الحب بالرحى حتى أثّـر ذلك فى يدها وتحمل القربة فى عنقها حتى أثرت فى نحرها ، وتكنس البيت حتى اغبرت ثيابها ، ولما ذكر علىٌّ للرسول ما تعانيه فاطمة من العمل وأنها تحتاج خادما يساعدها ، التفت لها الرسول وقال : يا فاطمة اتقى الله وأدى فريضة ربك ، واعملى عمل أهلك . وقد ذكرنا ذلك عند حديثنا عند تربية الدعاة .

وعقب الهجرة لم يجد المهاجرون غضاضة من العمل فى مزارع اليهود ، إذ كان لليهود مساحات واسعة من الأرض آنذاك . ولم ينههم الرسول عن هذا العمل .

وهناك فائدة غير مباشرة ينالها المسلمون الذين يشتغلون بالزراعة والرسول صلوات الله عليه يوضحها للمسلمين بقوله : ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له أجره يوم القيامة .

وهناك نقطة مهمة مرتبطة بالعمل عنى الرسول بإيضاحها هى ضرورة إتقان العمل والإخلاص له ، وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه .

ويوضح الرسول صلوات الله عليه كما قلنا من قبل أن العمل عبادة ، يُـروى أنه كان جالسا يوما مع أصحابه، فرأوا شابا ذا جلد وقوة قد بكّـر يسعى للعمل ، فقال أحد الجالسين : ويح هذا ، ليت شبابه وجلده فى سبيل الله . فقال الرسول : لا تقولوا هذا ، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفّـها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفّـهم فهو فى سبيل الله .

فإذا ذهبنا فى دراستنا لموقف الإسلام من العاطل الذى لا يعمل نجد فى كلام الرسول وتوجيهه خير إجابة لهذا السؤال :

فالرسول يستهجن موقف من ترك العمل حتى لوتفرغ للعبادة معمتداً على ما قد يقدمه له القادرون ، فقد روى أن قوما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر . فقال : أيكم يكفى طعامه وشرابه فقالوا : كلنا . فقال : كلكم خير منه .

وقد حاول أحد الصحابة أن يتفرغ للعبادة ، ويعتزل الناس ، فقال له الرسول : لا تفعل ، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته سبعين مرة ، ومن أجل هذا كان أهل الصفة وهم فقراء المسلمين الذين يعيشون فى مسجد الرسول يسارعون للجهاد إذا دُعِيَ المسلمون للجهاد ، كما كانوا يعملون ليحصلوا على ما يقتاتون به ، وكانوا يتصدقون بما يزيد عن حاجتهم

أما العاطل الذى يسأل الناس ويمدُّ يده يطلب عونهم ومساعدتهم وهو قادر على العمل ، فإن الرسول يصيح فى وجهه :

- اليد العليا خير من اليد السفلى (اليد التى تعطى خير من اليد التى تأخـــذ) .

- لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة من حطب فيبيعها خير له من أن يسأل الناس .

- مايزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة ، وليس فى وجهة مزعة من لحم (أى ينضب ماء وجهة ويجف لحمه وذلك كناية عن ضياع الشرف والإحساس) .

- إن من يسأل لغير حاجة ماسة يجىء يوم القيامة وفى وجهه نقطة سوداء .

وهكذا نجد الرسول صلوات الله عليه قد أقبل على العمل ، وزاوله ، وحثَّ عليه ، وسوَّى بينه وبين العبادة ، وأحيانا فضله عليها ، وان أصحاب الرسول اقتدوا به فى هذا المضمار مما ثبت فى النفوس أن كلمة المعلِّم ، ومبضع الطبيب ، وقلم المهندس ، وجهد الزارع والصانع ، ألوان من العبادة ، فالإسلام دين عمران يحث على خير الدنيا كما يحث على خير الآخرة .

الرسول والشباب

فى مطلع حديثنا عن الرسول والشباب نحب أنّ نوضح أن ليس هناك حد فاصل مميِّز يقف بين الصبا والشباب ولا بين الشباب والكهولة ، فلا نستطيع أن نقول لإنسان أنك اليوم تطوى عهد الصبا لتبدأ عهد الشباب ، أو أنك تطوى صفحة الشباب لتبدأ عهد الكهولة والشيخوخة ، لأن الصلات بين هذه الأطوار صلات متداخلة ، وهذا شىء من فضل الله ، لإمكان أن يعايش الإنسان فترة الصبا والشباب معا ، وفترة الشباب والكهولة معا ، فينتفع بهذا وذاك أو قل ينتفع بهذا لذاك .

ونقطة أخرى تتصل بأطوار الإنسان ، هى أن الزمن ليس الشىء الوحيد الذى يحدد هذه الأطوار ، فالصحة الجسمانية والصحة النفسية لهما أثر كبير فى تحديد الوقت الذى ينتقل فيه الإنسان من طور إلى طور ، ومن هنا نستطيع أن نؤكد أن الرسول وكثيرين من أصحابه كانوا شبابا وهم فى العقد السادس أو بعده ، وسيرة الرسول توضح أنه كان شاب الجسم والعقل والقلب حتى تجاوز الستين ، ومرض مرض الموت ؛ وكان هو وأصحابه يديرون أمور الدولة بأعلى درجات الكفاءة وهم حول الستين من العمر .

والشباب جيل يقف فى منتصف الطريق ، يأخذ عن السابقين وينقل للاحقين ، فهو جيل يتلقى تجارب الشيوخ وقدراتهم ، ويضيف لذلك ما جدّ من معلومات وتجارب ، ثم ينقل هذا وذاك للجيل التالى الذى سيقف شبان اليوم معلمين له ومدربين ، فحلقة الحياة والتجارب متصلة ، وإضافات التجارب والخبرات والفكر ينبغى أن تشجَّع ليصبح كل جيل ملائما للعصر الذى يعيش فيه ، ولو لم يتلق الشباب عن الشيوخ لفقدوا خبرات الماضى وتجاربه ، ولكان عليهم أن يبدءوا من جديد فيما قد بدأه الجيل السابق ووصل فيه إلى حلول ونتائج ولضاق وقتهم عن إضافة الجديد .

ومن هنا كان اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالشباب ، ذلك الاهتمام الذى يمثله الحديث الشريف « نصرت بالشباب » وهذا الحديث يصوّر عصر الرسول صلوات الله عليه أدق تصوير ، فجيل الشيوخ فى مطلع الرسالة لم يستطع أن يتخلى عن عبادة الأوثان ولا عن تقاليد العصر ، لأن نفوس هذا الجيل كانت قد رسخت فيها مع طول الزمن قيم الجاهلية ونظمها ، أما جيل الشباب فكانت عبادة الأصنام لم تتعمق فى نفسه ، وكان أميل للصفاء ، وراغبا فى التعرف على ما تحمله الدعوة الجديدة من فكر ، وقد حمله ذلك إلى دراسة الإسلام فقنع به الكثيرون منهم ، ووقف بذلك جيلان متعارضين ، جيل يصارع الإسلام ويَبرُز فيه جانب الشيوخ ، وجيل يدافع عنه ويبرز فيه جانب الشباب ، وبعض هؤلاء الشباب كانوا أبناء للشيوخ الذين عارضوا الإسلام وحاربوا المسلمين ، وبعض هؤلاء الشيوخ سقطوا فى المعارك وبضربات من أبنائهم أحيانا ، وسنرى فيما بعد نماذج من شباب المسلمين الذين التفوا حول الرسول ، وكانوا عُدّته فى مختلف المواقف .

الشباب والتحولات الفكرية :

فى ضوء ماذكرناه آنفا نستطيع أن نقرر أن الشباب هم العدة الهائلة للتحوُّلات الفكرية وبدونهم تتعثر الدعوات الجديدة ، لأن صفاء نفوسهم وفتاء عقولهم ، وعدم خضوعهم لأحمال هائلة من تقاليد الماضى يجعلهم مستعدين للدراسة والبحث وتقبُّل ما يعجز عن تقبله جيل الشيوخ ، بيد أننا نوضح نقطة شديدة الأهمية هى أن الشباب للأسباب التى ذكرناها آنفا قد تخدعهم دعوات لامعة الظهر ، فجّة المخبر ، فيقعون فريسة لهذه الدعوات ويعتنقونها ويتحمسون لها فترة من الزمن ، ولكنهم بعد حين يكتشفون حقيقتها ويتمردون عليها ، وهذا هو الفرق الهائل بين دعوة الإسلام العميقة السامية التى تلقاها الشباب ، وزادوا حماسا لها من يوم إلى يوم ، وبين دعوات الشيوعية والاشتراكية والناصرية التى خدع بها الشباب حينا ، وأيدوها ثم تفهموها بعد حين فانفضوا عنها ، ومن هنا نوضح أن الشباب الذين اعتنقوا الإسلام بمبادئه كانوا يزيدون حبًّا له وإقبالا عليه كلما مر الزمن ، إذ يتعرفون على مزيد

من مبادئه الرائعة، ويزيدون ارتباطا برسول الإسلام الذى كان مثالا نادرا للقائد والرائد الذى يعمل للإسلام والمسلمين دون أن ينال أى شىء لنفسه وذويه ، وهذا يدفعنا أن ندعو الشباب إلى التريث فى قبول الدعوات الجديدة . فليست الدعوات الجديدة من عند الله كما كانت دعوة الإسلام ، وليست لها معجزات الإسلام ، ولهذا ينبغى على الشباب أن يستعملوا الأناة ، وإلا يتدفقوا على تأييد أية دعوة جديدة بحكم الرغبة فى التغيير ، وذلك حرصا على جهودهم من الضياع ، وقد رأيت وأنا أستاذ بالجامعة جماعات من الشباب يتحمسون لفكرة ، وربما ارتكبوا الشطط فى تأييدها ، ولكنهم عندما تقدم بهم العمر تخلوا عنها ، لقد اعتنقوها بثورة عاطفية ، فلما نما العقل اجتنبوا انفعالات العاطفة .

الشباب مع الرسول :

إذا عدنا إلى مطلع الإسلام وجدنا أن الشباب — كما قلنا من قبل — كانوا خير نصير للدعوة الجديدة ، وأول من نقابل فى هذا المجال عليا بن أبى طالب وهو أول من أسلم من الصبيان ، وكان آنذاك صبيا حدثا لم يبلغ الشباب بعد ، ثم نقابل أبا بكر الصديق وهو أول من أسلم من الرجال وكان أصغر عمراً من الرسول أى كان لم يكمل العقد الرابع من العمر ، ولم يستجب أبو قحافة والد أبى بكر لدعوة الإسلام ، فقد كان من الشيوخ الذين يصعب تحولهم إلى الفكر الجديد كما ذكرنا من قبل ، وظل أبو قحافة على الوثنية حتى فتحت مكة ، أما ابنه أبو بكر فقد اتجه منذ عهد مبكر جداً إلى شباب مكة يدعوهم للدين الجديد ، ويذكر لهم مبادئه ويعرفهم بالرسول ، فاجتمع حوله نخبة رائعة من الشباب ، أخلصوا الإخلاص كله للدين الجديد ، وحملوا ألويته معلمين ومهاجرين ومحاربين، ومن هؤلاء سعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيدالله، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف ، وكان هؤلاء فى قمة الشباب لم يصل بعضهم إلى سن العشرين بعد ، وسرعان ما دخل الإسلام كذلك شابان جديدان هما أبو ذر الغفارى، وعبد الله بن مسعود، وكانا من العشرة الأوائل الذين دخلوا هذا الدين ، ثم توالى بعد

ذلك دخول مجموعات من الشباب مثل أبى سلمة ، والأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وعبيدة بن الحارث ، وسعيد بن زيد ، وزوجته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب ، وأسلمت شابات صغيرات منهن أسماء بنت أبى بكر وأختها عائشة ، وأسلم خباب بن الأرت وعمير بن أبى وقاص أخو سعد ، وعبد الله بن جحش ، وجعفر بن أبى طالب ، ثم أسلم حمزة ، وعمر بن الخطاب وهما فى ريعان الشباب ، وأسلم عبد الله بن عمر وهو فى الثالثة عشرة من العمر . وعندما نراجع المهاجرين فى هجرة الحبشة الأولى نجدهم جميعا تقريبا من الشباب وزوجاتهم من الشابات ، وقد احتمل هؤلاء كل ضيم فى سبيل عقيدتهم ، وربما كانوا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم ، ولكن الآيات التى تبيح خوض المعارك ضد الكفار لم تكن قد نزلت بعد . فاستجاب هؤلاء للرسول وتركوا الديار والوطن فرارا بدينهم إلى حيث طمعوا فى الرعاية والأمان ، وعندما تمت الهجرة إلى المدينة وأذن بالقتال كان هؤلاء الشبان ليوث وغى وأبطالا مغاوير كما سنرى عند الحديث عن الغزوات .

جيلان :

سبق أن أشرنا إلى وجود جيلين فى مطلع الإسلام هما جيل الشيوخ وجيل أبنائهم الشباب ، وقد تمسك الشيوخ أو أكثرهم بعقائدهم الوثنية ، واتجه جيل الشباب إلى الإسلام وحدثت أحداث جديرة بالذكر بين الآباء والأبناء ، وسنقص فيما يلى طرفا من هذه الأحداث .

وأول من نذكره هو أبو طالب عم الرسول ، الذى كفله بعد وفاة عبد المطلب وأعلن حمايته عندما جاءت له الدعوة ، ودافع عن الرسول دفاعا طويلا ، وكانت هيبته من الأسباب التى جعلت قريشا تتردد فى العدوان على الرسول ، وكان درعا يحمى الرسول بقوة وصلابة ، ومما ينسب له فى ذلك ، البيتُ التالى :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوَسَّد فى التراب دفينــا

ومع هذه العلاقة وهذا الارتباط الوثيق ، لم يدخل أبو طالب دين الإسلام على أرجح القولين ، فهو واحد من الشيوخ الذين ضعفوا عن التحول من عقيدة إلى عقيدة .

وإذا كان هذا هو موقف الشيخ الأب ، فإن من أبنائه مَنْ أسرع فى دخول الإسلام وضرب أروع الأمثال فى الدفاع عنه مثل على بن أبى طالب الذى دخل الإسلام وهو صبى كما قلنا آنفا ، وبات فى فراش الرسول ليلة الهجرة مستعداً أن يضحى بنفسه من أجل نجاة الرسول ،وهو أخ للرسول فى المؤاخاة ،وبطل الأبطال فى كل الغزوات ، ولقد عرفه التاريخ مبارزا مقداما فى غزوة بدر وأُحُد والأحزاب .

ومن أبناء أبى طالب جعفر وكنيته أبو المساكين ، وكان الرسول يقول له : أشبهتَ خَلقى وخُلقى وتلك قمة الأوصاف العالية ، وكان الرسول يقول عنه : « طائر الجنة الغريد » وزوجته أسماء بنت عميس وهى من خيرة الزوجات ، أسلمت مع زوجها فى وقت مبكر ، وقد هاجر جعفر إلى الحبشة . وطاب له المقام هناك ، فكان زعيما للمسلمين والمتحدث باسمهم ومعلّمهم ، وقد تصدى لعمرو بن العاص فى الحوار الذى دار بينهما أمام ملك الحبشة ، وانتصر جعفر أعظم انتصار .

وعندما عاد من الحبشة عقب انتصار المسلمين فى موقعة خيبر كان ثانى القادة الذين اختارهم الرسول لقيادة الجيوش فى غزوة موتة ، وهناك لاقى ربه وهو يدافع عن الإسلام .

وننتقل فى المقارنة بين جيل وجيل إلى الحديث عن أبى عبيدة عامر ابن عبد الله الجراح ، وكان أبوه فى قمة المعادين للإسلام ، ولكن الشاب أبا عبيدة اعتنق الإسلام عندما دعاه أبو بكر لذلك ، فقد كان قلبه نقيا ، تلقى بترحاب دعوة الإسلام وتقبلها ، وهاجر عقب ذلك إلى الحبشة ، ولكن سرعان ما عاد ليقف بجوار الرسول ، فحضر المشاهد كلها ، وفى مطلع هذه المشاهد أى فى غزوة بدر واجه أبو عبيده امتحانا قاسيا ، فقد كان أحد

الأبطال المسلمين فى هذه الغزوة ، وكان أبوه يقف فى صفوف المشركين ، ولما دارت المعركة وحمى وطيسها اتضح لأبى عبيدة حرص والده على قتله ، فقد كان هذا الوالد يحاول من حين إلى آخر أن يطعن ابنه ، فكان الابن يفلت منه ليقوم بدوره فى الصراع ، ولكنه سرعان ما يجد أباه يواجهه مرة أخرى ، وأدرك أبو عبيدة أن أباه يعرقل جهده ، وقارن بين إرضاء الله ورسوله وبين إرضاء أبيه فوجد من واجبه أن يعمل لمرضاة الله ورسوله فطعن أباه طعنة قضت عليه ، وبكى أبوعبيدة عقب ذلك ، فسئل : أتبكى لأنك قتلته ؟ فأجاب : لا ، ولكن كنت أتمنى أن يشرح الله صدره للإسلام ، وإنى أبكى لأنه مات على الكفر .

وننتقل مرة أخرى فى المقارنة بين جيل وجيل لنتحدث عن أبى حذيفة ابن عتبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة هو سيد قريش فى عصره ، من فصحاء العرب وبلغائهم وهو والد هند زوجة أبى سفيان ، وقد أرسلته قريش مرة ليعرض على محمد المال والسلطان ليكف عما جاء به مما أثار قومه ومزق صفوفهم ، فاستمع له الرسول بكثير من الصبر والأناة حتى انتهى من كلامه ثم سأله الرسول :

— أو قد فرغت ؟

— بلى .

— قال محمد : فاسمع منى قوله تعالى : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظنا ذلك تقدير العزيز العليم ، فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود (١) :

---

(١) سورة فصلت : الآيات من ٩ — ١٣

وقد ذكرنا من قبل أن عتبة بن ربيعة كان من فصحاء العرب وبلغائهم فأدرك أن هذا الكلام ليس من قول البشر ، وهزه التهديد الذى جاء فى الآية الأخيرة ، فيروى أنه وضع يده على فم الرسول ، وقال له : أنا شدك الله والرحم أن تكف .

وعاد عتبة إلى قومه ، ولكنهم رأوه على حال غير الذى كانوا يتوقعونه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، ولما جلس سألوه : .

— ماوراءك ؟

— لقد سمعت قولا ما سمعت والله بمثله قط . ماهو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة ....

— قال له قومه : سحرك محمد بلسانه .

ومع هذا الإحساس الذى دب فى نفس عتبة لم يستطع أن يتخلى عن العقيدة التى كانت متغلغلة فى نفسه ، فبقى على الكفر . أما ابنه أبو حذيفة فكان له موقف آخر ، كان شابا متفتح القلب والعقل ، لم تسيطر عليه عبادة الأوثان ، ولذلك ما إن أحس بصدق الدعوة حتى اعتنقها ، وضحى بما كان ينتظره من زعامة قريش بعد أبيه ، فقد كان أبوه يعده لهذه الزعامة كما كان أبو حذيفة ينعم بالغنى والجد والترف ، ولكن هذا كله لم يكن شيئا ذا بال عند أبى حذيفة ، لقد كان الإسلام يفوق عنده كل شىء ، فآثر الفقر على الوثنية ، وأصبح يعيش فى نور الإسلام بعد ظلام الشرك ، ويسعد بالمعرفة بعد أن ترك الجهالة ، غير حافل بمال أو متاع ، وأى مال أسمى من راحة النفس ، وسعادة العقل ، وهدوء البال .

وقد سقط عتبة بن ربيعة فى المبارزة التى دارت فى مطلع غزوة بدر ، كما سقط فى هذه المبارزة شيبة أخوه والوليد ابنه ، ولكن هؤلاء الصرعى من أقرب الناس إلى أبى حذيفة لم يؤثروا فيه ، بل أبلى بلاء حسنا فى هذه الغزوة وفى سواها .

وعندما يذكر أبو حذيفة يرتبط به اسم شاب مهم فى التفكير الإسلامى هو سالم مولى أبى حذيفة الذى كان أحد أربعة أوصى الرسول أن يؤخذ القرآن منهم وهم: عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبى حذيفة، وأبى بن كعب، ومعاذ بن جبل، وكان سالم عبداً لأبى حذيفة، فلما دخل أبو حذيفة الإسلام أعتقه وتبناه، ولما أبطل الإسلام التبنى سُمّى سالمٌ «مولى أبى حذيفة»، لأن أباه لم يكن معروفاً؛ وزوَّجه أبو حذيفة بنت أخيه الوليد واسمها فاطمة، وهذا يرينا صورة رائعة من صور الفكر الإسلامى أن يتزوج مولى إحدى بنات السادة؛ ولكن الإسلام رفع شأن هذا المولى وجعله عالى القدر والمقام، وظل أبو حذيفة ومولاه سالم يصارعان من أجل الإسلام فى ميدان الفكر وميدان القتال حتى سقطا معاً فى معركة من معارك الردة وهما يحاربان مسليمة الكذاب، ويروى أن بعض المسلمين رأى سالماً وهو فى النزع الأخير فسأله سالم: ما فعل أبو حذيفة؟ قالوا: استشهد، قال سالم: فاضجعونى إلى جواره، فأجابوه أنه إلى جوارك يا سالم. لقد عاشا البطلان معاً وماتا معاً فى خدمة الإسلام.

وفى المقارنة بين جيلين ننتقل هذه المرة إلى صراع بين شاب معتنق الإسلام وبين أمه التى تمسكت بعقيدة الوثنية، ذلك الشاب الذى كان لنا معه حديث من قبل إنه مصعب بن عمير. فقد كان مصعب من بيت جاه وغنى، وكان يوصف فى مكة بأنه من أعطر أهل مكة. وكان زينة المجالس والندوات، ولكن طبيعة مصعب لم تكن خاضعة لهذا الترف، وإنما كانت خاضعة للفكر، لم يكن النعيم يسيطر عليه، وإنما كان عقله هو الذى يقوده، فلما سمع عن الدعوة الجديدة تدارسها وتفهمها، فهزت وجدانه وأثّرت فيه، فلم يقاومها، ولا اهتم بما قد يناله إذا اعتنقها، فدق باب الأرقم ابن أبى الأرقم وأعلن إسلامه.

وإذا كان مصعب قد وجد راحة الفكر فى الدين الجديد، فقد واجه المتاعب المريرة من أمه، وكانت أمه «خناس بنت مالك». شخصية قوية لها فى نفوس القوم هيبة وجلال، ولذلك اضطر مصعب أن يخفى إسلامه

عنها ، وعن عشيرته ،ولكن إسلام شخص مثل مصعب فى جاهه ومكانته لم يكن من الممكن أن يظل سراً ، فسرعان ما انكشف الأمر ، وواجه مصعب صراعا قاسيا من عشيرته وعلى رأس العشيرة أمه خناس ، وقد حاول هؤلاء بكل الوسائل أن يردوه عن اتجاهه ، ولكنهم فشلوا بطبيعة الحال . فانتقلوا إلى التحدى . فحبسته أمه فى حجرة من حجرات البيت ، وأحكمت حرمانه من كل شىء ، ولكنه استطاع بحيلة من الحيل أن يفر من هذا السجن ، وأن يهاجر إلى الحبشة ، مؤثرا البعد عن الوطن والمال ليعيش فى راحة النفس، وعندما عاد من الحبشة إلى مكة ، عرفته مكة مرقع الثياب يعانى الفاقة والحاجة بعد أن كان مترفا يرفل فى ثياب النعيم ، ولكن الأبطال لايعنيهم المظهر ، ولاتجذبهم زينة الحياة عن الخلود والخير المقيم .

وقد ذكرنا من قبل أن مصعبا كان مبعوث الرسول إلى المدينة ، ولما عاد إلى مكة من المدينة هددته أمه بحبسه مرة أخرى ، ولكنه قال لها : لئن حدث هذا لأحرصن على قتل كل من يتعرض لى ، فيئست منه أمه وتركته .

ولم يكن مصعب وحده هو الذى لاقى العناء من أمه بسبب دخوله الإسلام ، بل إن هناك شابا عظيما آخر واجه نفس المشكلة، ذلك هو سعد ابن أبى وقاص ، فقد دخل الإسلام وهو فى السابعة عشرة من العمر ، وكان من السابقين الأولين ويروى عنه قوله : أتى على يوم وأنا ثلث المسلمين، إذ لم يكن هناك أكثر من رجال ثلاثة دخلوا الإسلام آنذاك .

وسعد بن أبى وقاص من أقارب والدة الرسول ، وكان الرسول يعده خاله ، ويفخر به قائلا : هذا خالى فليرنى أمرؤ خاله . وكان سعد بن أبى وقاص فى مطلع الإسلام من الشباب صافى النفس طيب السريرة ، ليس لعبادة الأصنام جذور فى نفسه ، ولذلك أسرع بقبول دعوة أبى بكر ليدخل الإسلام ، قبل أن يدخل الرسول دار الأرقم ، ولما عرفت أمه (حمنة) أنه دخل الإسلام غضبت أشد الغضب، وأعلنت الصوم احتجاجا على سلوك ابنها ، وأقسمت أن تتمسك بالصوم حتى تموت أو يرتد ابنها عن الإسلام .

ولم يعبأ سعد بصوم أمه ولا بقسمها فقد كانت الآية الكريمة ترسم له خطته قال تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما[١] » فليست أمه هى التى تنظم حياته فى هذا المضمار . وليس لمخلوق طاعة فى معصية الخالق . ومن هنا طال صوم أمه . وتدهورت بالتالى صحتها . فأخذه بعض أهله والأم فى الرمق الأخير لعله يرى حالتها فيستجيب لرغبتها . وذهب سعد ورأى أمه . ولكنه بكل الإيمان والثبات قال لها : والله يا أم لو كانت لك مائة روح فخرجت واحدة بعد الأخرى ما تركت دينى . فكلى أو لا تأكلى . وأدركت الأم ألا جدوى من التهديد ، وأن ابنها يعرف ما يجب عليه . وأن الدين ليس بالأمر الذى يساوم الإنسان فيه . فعادت عن صومها .

بقى أن نثبت عن الشاب سعد بن أبى وقاص بعض ما ينبغى أن يعرف عنه . فسعد أول من رمى بسهم فى سبيل الله . وكان يفخر بذلك ويقول : والله لأنى أول رجل من العرب رمى بسهمه فى سبيل الله . وكان الرسول معجبا به وبإخلاصه حتى أنه دعا له أطيب دعاء فقال : اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته . فكان سعد على مر التاريخ مسدد الرمية ومجاب الدعوة . وكان مبشرا بالجنة فقد كان الرسول مرة بمجلس مع أصحابه . ثم فكر هنيهة وسرح ببصره وبصيرته ثم قال لأصحابه : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فأخذ أصحاب الرسول يتطلعون هنا وهناك ليعرفوا من هذا الذى ترتبط به هذه البشارة ، فطلع عليهم سعد بن أبى وقاص . وقد سأله مرة عبد الله بن عمرو بن العاص عن الصفات التى أنالته هذا الرضى ؟ فقال له سعد : لا شىء أكثر مما نعمل جميعا ونعبد ، غير أنى لا أحمل لأحد من المسلمين ضغنا ولا سوءا .

وترتبط بسعد تلك القصة الشهيرة التى تفيد أن الغنى الحلال خير من الفقر والحاجة ، فيروى أن سعد كان مع الرسول فى حجة الوداع فمرض ،

---

(١) سورة العنكبوت الآية الثامنة .

وذهب الرسول إليه ليعوده ، ولم يكن عند سعد من الأبناء آنذاك إلا بنت واحدة ، فقال سعد للرسول :

يارسول الله إنى امرؤ ذو مال ولا يرثنى إلا ابنة واحدة أفأتصدق بثلثى مالى ؟

فقال الرسول : لا . فعاد سعد يسأل : فبنصفه ؟ فقال الرسول : لا .

فقال سعد : فبثلثه ؟ قال الرسول : نعم الثلث والثلث كثير . إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت بها حتى اللقمة تضعها فى فم امرأتك .

وسعد آخر من مات من المهاجرين ، وكانت وفاته سنة ٥٤ هـ ، وكان يحتفظ بثوب قاتل به فى بدر فكفن فيه . رحمه الله رحمة واسعة .

وفى مجال المقارنة بين جيل الشيوخ وجيل الشباب نصل إلى اثنين من أكبر المشاهير فى مكة ، هما : الوليد بن المغيرة وابنه خالد بن الوليد ، وقد سمع الوليد بن المغيرة آيات من القرآن الكريم من سورة السجدة ، وهذه الآيات تصور أروع تصوير حالة الشيوخ التى حاولنا إبرازها يقول الله تعالى : « وقالوا قلوبنا فى أكنه مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب [1] » . نعم كانت قلوبهم فى أكنة ، وكانت آذانهم لا تسمع ، وقد أقاموا حجابا كثيفا بينهم وبين دعوة الحق ، وعندما سمع الوليد بن المغيرة هذه الآيات وما تلاها من آيات فى هذه السورة أدرك بقدرته البلاغية مكانة هذا التنزيل ، وراح يصف لقومه ما سمعه أبلغ وصف قال : سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا كلام الجن ، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه .

وهزت هذه الكلمات قريشا ، وخافت أن ينجذب الوليد إلى الإسلام ،

---

(١) سورة فصلت « الآية الخامسة .

فأرسلت إلى الوليد ابن أخيه أبا جهل يحمسه ضد محمد وضد الدين الذي جاء به، فاستجاب الوليد لابن أخيه ، وراح يصف محمدا بأنه ليس إلا رجلا يفرق بين المرء وأهله ، وجاءت آيات القرآن الكريم بأبلغ عبارة عرفتها البلاغة العربية تصف الوليد وتهدده وتزجره ، أنها قوله تعالى : « ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد، كلا، إنه كان لآياتنا عنيداً، سأرهقه صعودا، إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر »(١) .

وفى أحضان هذا الأب نشأ خالد بن الوليد . وكان حول خالد شيوخ أهل مكة الذين يحيطون بالوليد ، ومن بينهم أبو جهل ابن عم خالد وأكبر أعداء الإسلام ، ولم يجد خالد فى هذه البيئة الفرصة ليتعرف على الإسلام ، ولهذا بقى عدة سنوات فى صفوف الكفار ، وحارب ضد المسلمين ، وحقق على المسلمين انتصارا كبيرا فى غزوة أحد ، مما يدل على قدرة عسكرية هائلة .

ومرت السنون وخالد يتيه بقوته ولا يجد السبيل للتفكير . لأنه يعيش فى مكة مع أعداء الإسلام ، بعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة ، ومن هنا طالت فترة ابتعاد خالد عن دين الحق ، فدعوة الإسلام لم تدق نفسه ، ثم جاء صلح الحديبية وهدأت السيوف والحراب التى كانت شغل خالد الشاغل ، وأتيح للعقل الصافى أن يفكر ، وللنفس السمحة أن تقدر ، وهداه تفكيره إلى شىء يعبر عنه قوله : « والله لقد استقام المنسم ، وإن الرجل لرسول ، فحتى متى أبعد عنه ، ومتى سأذهب إليه فأسلم . وكان خالد يتمنى أن يجد رفيقا فى هذه الرحلة الخطيرة التى تصور تحولا هائلا فى تاريخ مكة وتاريخ المدينة ، ووجد خالد رفيقه ، وكان عثمان بن طلحة ،ولعثمان نفس الوضع

---

(١) سورة المدثر الآيات ١١ — ٢٧

الذى نتدارسه ، إنه كذلك كان فى عنفوان الشباب وكان فى نفسه صفاء ، أما أبوه فهو طلحه بن أبى طلحه وهو من طبقة الوليد بن المغيرة ،ومن أخطر أعداء الإسلام ، إنه ذلك الأب الذى وقف بعنجهية وكبرياء فى مطلع غزوة أحد يتحدى المسلمين ويطلب المبارزة ، وعندما بارزه علىٌّ وقضى عليه، خرج أخوه عثمان بحماسة الواله يطلب المبارزة أيضاً ، فصرعه حمزة، وتقدم الأخ الثالث أسعد والأخ الرابع مسافع فسقطا أيضاً فى ميدان المبارزة ، وهذا يدل على عمق فى الباطل من هذا الجيل بهذه الأسرة ولكن عثمان ابن طلحة كان يدور فى نفسه ما يدور فى نفس خالد ، فلما التقى به خالد وذكر له ما يخطر بباله أسرع بالاستجابة ، وسارا معا شوطا ، فالتقيا بعمرو بن العاص وهو شاب من سراة قريش وعظمائهم ودهاتهم ، قال له حديثا بعض رفاقه : عجبت لذكائك يا ابن العاص ، كيف تُعرض عمن أقبلت عليهم الدنيا والآخرة ،وكان عمرو ينتظر الظروف التى تساعده ليعلن ما يضمر تجاه الإسلام ، فلما التقى بخالد وعثمان بن طلحه سألهما : إلى أين المسير ؟ فأخبراه بغرضهما ، فقال : لقد دبَّ فى نفسى مادب فى نفوسكما ، فرحبا به رفيقا ثالثا فى هذه الرحلة ، وذهب الثلاثة إلى الرسول بالمدينة ، وأعلنوا إسلامهم وبايعوا رسول الله . وفى خجل من الماضى قال خالد للرسول : استغفر لى كل ما أوضعت فيه من صدٍّ عن سبيل الله ، فرد الرسول ردا فيه شفاء للثلاثة جميعا قال : إن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، وكان الرسول يقول عن عمرو بن العاص : أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص ، وحمل هؤلاء الثلاثة أعباء طويلة فى خدمة الإسلام كأنما أرادوا أن يكفروا عن مواقف وقفوها من قبل مناضلين ضد الإسلام والمسلمين .

وعندما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان الشباب أيضاً فى مطلع من عاونوه ، ومن هؤلاء معاذ بن جبل الذى دخل الإسلام وهو فى مطلع الشباب ومات فى خلافة عمر وعمره ثلاثة وثلاثون عاما .

ووجد فى المدينة كذلك جيل الشيوخ الذين عارضوا الرسول وجيل أبنائهم الشبان الذين دخلوا الإسلام وأخلصوا ودافعوا عنه ، ومن جيل

الشيوخ الذين لم يخلصوا للإسلام عبد الله بن أبيّ زعيم المنافقين الذى امتد كيده للإسلام طيلة حياته . أما ابنه عبد الله فكان مسلما عميق الإسلام حتى أنه عندما أحس بغضب الرسول على أبيه . وخشى أن يأمر الرسول من يقوم بقتل الأب ، تقدم يعرض استعداده لقتل أبيه إن أمره الرسول بذلك . وقد ذكرنا هذه القصة من قبل .

وبعد ، لقد كان الشباب عدة الإسلام ؛ حملوا فكره . وحملوا السيف للدفاع عنه ، نشروه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ودافعوا عنه عندما وقفت قوى الشر تهدده ، وكان رسول الإسلام يحتفى بالشباب ، ويقبل عليهم ، ويحسن معاشرتهم ، تقديرا لهذا الدور الكبير الذى قاموا به ؛ والذى عبر عنه الرسول أروع تعبير عندما قال : نصرت بالشباب .

توجيهات طبية يقدمها الرسول

فى مطلع هذا الحديث نحب أن نوضح حقيقة قد تخفى على بعض الناس عند قراءتهم عنوان هذا البحث ، تلك الحقيقة هى أن الرسول صلوات الله عليه ليس طبيبا ، وقد رأينا الرسول داعية ومربيا للدعاة ، ورأيناه حاكما ومربيا للولاة ، ورأيناه قاضيا ومربيا القضاة ...... وهذا صميم عمله؛ يبلغ شرع الله ويشرحه ويطبّقه .

ولا يدخل فى عمل الرسل ووظائفهم - كما يقول الإمام محمد عبده - ما هو من عمل المدرسين ومعلمى الصناعات ، فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا طبقات الأرض ، ومقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج له النباتات فى نموها ...... من علم ذلك ونظائره ، يحتاج إلى الكسب والبحث ، هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك والعقول ، وكل دخل الأديان فى ذلك هو حراسة العقول حتى لا تشتط أو تزل (١) .

وعلى هذا نقرر أن الرسول صلوات الله عليه ليس طبيبا ، فالطب صناعة من هذه الصناعات ، ولكنا مع ذلك نقرر أن الرسول صلوات الله عليه وضع فى مجال حفظ الصحة قواعد عامة اعتبرها الأطباء بالغة الأهمية فى عالم الطب ، وكان اهتمام الرسول فيها بوجه خاص يتجه إلى الطب الوقائى وهو أهم أنواع الطب ، فأرقى الدول تهتم به أعظم اهتمام حتى تحول دون انتشار الأمراض والأوبئة ، واهتم الرسول كذلك بالطب العلاجى ، ولكن غالبا بدعوة المرضى إلى العلاج ، وبيان أن لكل داء دواء ...... وفى هذا الضوء نخطو لنسجل التوجيهات الطبية التى قدمها الرسول :

الدعوة إلى القوة :

وأول ما اهتم به الرسول الدعوة إلى القوة التى تتخذ الصحة أساسا

---

(١) الإمام محمد عبده : رسالة التوحيد ص ١٠٠ وكتاب « الإسلام » من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف ص ١٠٧ .

لها ، ومن أحاديث الرسول فى الدعوة للقوة قوله : المؤمنُ القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف (رواه مسلم) ولاشك أن القوة تعين على أداء الواجب ، ودقة العمل ، والمحافظة على سلامة الأسرة والوطن ، وهناك أحاديث أخرى كثيرة فى هذا المجال نروى فيما يلى بعضها:

— إن لجسدك عليك حقًا .

— يا عباس يا عم رسول الله سل الله العافية فى الدنيا والآخرة ، (مسند أحمد) .

— سلوا الله اليقين والعافية ، فما أُعطى أحد بعد اليقين خيرا من العافية . (البخارى) .

— من أصبح معافى فى جسده ، آمنا فى سِربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا (رواه الترمذى) .

— ومن المحافظة على الصحة ما أوصى به الرسول من الرياضة والترويح عن النفس ، وكان الرسول نفسه يباشر الرياضة ، فقد سابق عائشة رضى الله عنها مرة فسبقته ، وسابقها أخرى فسبقها فقال : هذه بتلك ، وكان كذلك يهتم بالفروسية ورمى السهام ، ولايكره الترويح المباح .

فى مجال الطب الوقائى :

ونتقل بعد ذلك لنتحدث عن الطب الوقائى ، والذى يتدارس أحاديث الرسول يجد نخبة منها تقود المسلم خير قيادة لصحة الأبدان وصحة العقول والنفوس ، وأول ما نسوقه من ذلك ماروى أن المقوقس عندما أرسل مارية هدية للرسول ومعها بعض أهلها ومعها كذلك طبيب قبل الرسول الهدايا الأخرى وردّ الطبيبَ قائلا : لانحتاج لطبيب ،فنحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع ، ويقول فى التحذير من التخمة : المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، ويعلق أحد الأطباء المحدثين على هذا الحديث بقوله : والحقيقة

أن المعدة هي السبب في كثير من الأمراض المعوية وأمراض الكبد وفقر الدم وأمراض القلب[1] .

وقد تكررت أحاديث الرسول في الحث على عدم ملء المعدة بالطعام ؛ ومن هذه الأحاديث نقتبس ما يلي :

– لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء .

– إياكم بالبطنة ، فإنها مكسلة للصلاة ومفسدة للجسم ، ومؤدية إلى السقم ، وعليكم والقصد في قوتكم فهو أبعد عن السرف ، وأصح للبدن .

ومن الأشياء التي اهتم الرسول بها اهتماما كبيراً فيما يرتبط بالطب ، الوقائي ، النظافة ، وأحاديثه في هذا المجال كثيرة منها :

– النظافة من الإيمان .

– بني الدين على النظافة .

– كان رسول الله يكره رائحة العرق في المسجد .

– إن الله طيب يحب الطيب ، جواد يحب الجواد ، فنظفوا أفنيتكم ليرضى عنكم .

– لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة .

ومن الطب الوقائي الذي اهتم به الرسول عليه السلام الاعتراف بالعدوى وضرورة المحافظة منها ، ومن أحاديث الرسول في ذلك قوله :

– فر من المجذوم فرارك من الأسد .

– كلم المجذوم وبينك وبينه قيد رمح أو رمحين .

– إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها .

---

(١) دكتور محمود دياب : الطب والأطباء في مختلف العصور ص ١٠٣ .

— لا يُورَد ممرض على مصح ، وإن الجرب الرطب قد يكون بالبعير ، فإذا خالط الإبل أو حككها . أو آوى إلى مباركها وصل إليها المرض منه.

فى مجال الطب النفسى :

وتكلم الرسول كذلك عن الطب النفسى ، فقال « من كثر همه سقم بدنه » وذلك إشارة إلى علاقة النفس بالبدن . ولقد أثبت الطب الحديث أن كثرة الهموم تمرض النفس . ومرض النفس يمرض الجسم(١) .

وجاء رجل إلى الرسول يسأله النصيحة فقال له الرسول : لاتغضب . فكرر الرجل سؤاله وكرر الرسول نفس الإجابة . وقد أثبتت التجارب المختلفة أن الغضب كثيراً ما يسبب ألوانا من الأمراض التى تهجم على الإنسان وهو فى ثورة غضبه . وربما قضت عليه .

الدواء :

ومع المحافظة على الجسم والحرص على الوقاية من الأمراض . فإن المرض يصيب الإنسان لسبب أو لآخر . والرسول فى هذه الحالة يؤكد أن لكل داء دواء ، وأن المريض لابد أن يتناول الدواء ليستعيد صحته . وهو فى ذلك يقول :

— ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء .

— عندما سئل : أرأيت دواء نتداوى به هل يَرُدُّ قضاء الله ؟ أجاب : هو من قضاء الله . وكان الرسول فى قمة المرهبة عندما عارض الخرافات وأنواع الدجل التى كانت شائعة آنذاك . وهو يقول فى ذلك : من علق تميمة فلا أتمَّ الله عليه . ومن علق ودعة فلا أودع الله له .

وكانت مواقف الرسول فى مجال الطب واسعة الصدى عند المسلمين . ويروى ابن أبى أصيبعة(٢) عن بعض الحكماء قوله : من أراد الصحة فليجوِّ

---

(١) المرجع السابق .
(٢) طبقات الأطباء جـ ١ ص ١١٢ .

الغذاء ، وليأكل على نقاء ، وليشرب على ظمأ ، ويتمدد بعد الغداء ، ويتمشى بعد العشاء ، ولاينام حتى يعرض نفسه على الخلاء ، وليحذر دخول الحمام عقب الامتلاء .

القرابة القريبة فى الزواج :

وهناك موضوع يرتبط بصحة الأولاد أرشد له الرسول صلى الله عليه وسلم عندما نصح ألا يختار الإنسان للزواج فتاة شديدة القرابة به فقال « اغتربوا لا تضووا » يعنى أنه من الخير للفتى أن يخطب فتاة بها دم يختلف عن دمه بحيث لا يكون الفتى والفتاة منحدرين من أصول يقل فيها الدم الأجنبى ، ونصيحة الرسول ترمى إلى الاهتمام بسلامة الأولاد ، وقد أثبت الطب الحديث صحة هذا الاتجاه ، فى حالة القرابة القريبة قل أن ينجو الأطفال من الأمراض الموجودة بالأسرة أو العيوب الموروثة ، ولكن مع اختلاف الأسر يكثر أن يفلت الأطفال من عيوب أهل الأب وأهل الأم .

---

(١) انظر الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى للمؤلف ص ٤٠ وما بعدها .

مكرمات للرسول

هذا الموضوع فى تقديرى شديد الأهمية ، لأنه يصحح خطأ شائعا ، فلا شك أن الدارس للسيرة النبوية يواجه مكرمات عظيمة حدثت للرسول صلوات الله عليه سنروى فيما بعد نماذج منها ، ولكن بعض الناس يذكر أنها معجزات للرسول دون أن يفرّق بين المعجزة والمكرمة ، وهذا خطأ كبير ، ونريد هنا بادىء ذى بدء أن نوضح كلا من المعجزة والمكرمة والكرامة .

فالمعجزة أمر خارق للعادة . يعجز البشر عن الإتيان بمثله ، يقدمه رسول من رسل الله على وجه التحدى دليلا على صدقه ، وتحمل المعجزة معنى قول الله تعالى : « صدق عبدى فيما يبلغه عنى » ، وعلى هذا فالمعجزة شىء يتحدى الرسول به ليؤكد للناس صدقه فى الدعوة التى جاء بها ، ورسل الله لهذا مأمورون باظهار المعجزات ليقدموها أدلة على صدقهم حتى يجذبوا الناس للدعوة التى يقدمونها .

أما المكرمة فلون آخر يهبه الله للرسل تكريما لهم وإضفاء لعنايته بهم ، أو حلا لمشكلة تواجههم فى وقت من الأوقات ، ولايقدم الرسول المكرمة للتحدى . وليس واجبا عليه إظهارها ، وهذان هما الفرق بين المعجزة وبين المكرمة .

أما الكرامة فشىء ليس عاديا يقع على يد إنسان أو يقع لإنسان قريب من الله أو مجاهد فى سبيله ، ويجب على من تقع له الكرامة أن يسترها ويخفيها . ولايجوز له أن يتحدث عنها . ولا أن يعتقد بامكان اطرادها(١)

وعلى هذا فالقرآن الكريم هو المعجزة الخالدة للرسول صلى الله عليه

---

(١) الرسالة القشيرية : باب كرامات الأولياء جـ ٢ ص ٧٠٣ .

وسلم ، وقد قدمه الرسول متحديا به البلغاء والفصحاء فى كل زمان ومكان ، قال تعالى :

— أم يقولون تقوّله . بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين[1] .

— قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً[2] .

— أو يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعو من استطعتم من دون الله أن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة[3] .

— وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله[4] .

والقرآن الكريم يُعجز بأسلوبه ، ويُعجز بالفكر الذى ورد فيه؛ فثلا هنالك كما هو معروف أحداث قطع بها، فقد وردت سورة تبت يدا أبى لهب، وهى تقرر أن أبا لهب سيصلى نارا ذات لهب ، أى أنه لن يدخل الإسلام وفى هذا كل التحدى ، ومثل هذه الآيات وردت عن الوليد بن المغيرة ، وقد أوردناها من قبل ، ولم يدخل أبو لهب الإسلام ولا دخل الوليد من المغيرة ، فالله سبحانه عالم تماما بأن هذا وذاك لن يدخلا الإسلام فقرر لهما النار ، وعلم المستقبل لا يكون لغير الله تعالى،ويتضح هذا الوضع لو تذكرنا أن الرسول صلوات الله ضاق بأبى سفيان بن حرب والحارث بن هشام وعمرو بن العاص فدعا عليهم وتمنى لهم الهلاك فنزل قوله تعالى « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم[5] » ، ويعنى هذا كما يقول ابن اسحق[6] ليس لك من الحكم شيء فى عبادى إلا ما أمرتك به فيهم ، فقد أتوب عليهم.

وقد أسلم هؤلاء جميعا وحسن إسلامهم ، ومات الحارث بن هشام شهيدا

---

(١) سورة الطور : الآيتان ٣٣ — ٣٤ .

(٢) سورة هود : الآية ١٣ .

(٣) سورة البقرة : الآيتان : ٢٣ — ٢٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢١ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٢٨.

(٦) سيرة ابن هشام : ج ٣ ص ٤٩ .

بالشام ، وكان الرسول يقول عن عمرو بن العاص : أسلم الناس وآمن عمرو . وهذا هو الفرق بين علم الله وعلم سواه ، وذلك نوع من إعجاز الفكر ، دليل على أن القرآن من عند الله ، أما إعجاز القرآن بأسلوبه فالحديث عنه طويل ، وقد أوردته بإفاضة فى كتابى « تاريخ التشريع الإسلامى » .

فى ضوء هذا البيان نقرر أن الرسول صلوات الله عليه منحه الله مكرمات عظيمة لرفع قدره وشموله بعنايته تعالى . ولكن هذه ليست للتحدى فهى ليست معجزات ، ومن أهم هذه الأشياء الإسراء والمعراج الذى يقول بعض المتعجلين إنه معجزة ناسين أن المعجزة بها عنصران ضروريان هما : أن تقدم للناس ، وأن تكون للتحدى ، أما الإسراء والمعراج وهما فى رأيى حدثا بالروح والجسد كما شرحت من قبل ، لكن لم يقدمهما الرسول للناس كدليل على نبوته ، ولم يكن يتحدى بهما ، وإنما قصهما على الناس ، فصدقه المسلمون صادقو الإيمان وكذبه الضالون ، وقد شرحنا ذلك من قبل ، عند حديثنا عن الإسراء والمعراج .

وهناك مكرمات كثيرة حدثت للرسول فى ظروف مختلفة ، وكان أكثرها يحدث للرسول وهو بين المسلمين الذين سبق لهم الإيمان ، ولم يقدمها الرسول لغير المسلمين دليلا على نبوته ، وهذا يخرجها من نطاق المعجزات ، وسنروى فيما يلى بعض هذه المكرمات :

فى طريق الرسول من مكة إلى المدينة مهاجراً مرَّ بأم معبد « عاتكة بنت خالد » فأتت الرسول بشاة قليلة الدرّ ليذبحها ويأكل منها هو ورفاقه . فمسح الرسول ضرعها ، فامتلأ ضرعها باللبن ، فقال الرسول لأم معبد : لا تذبحيها وانتفعى بلبنها ، فاستجابت له ، وأتت بشاة أخرى ذُبحت وطبخ لحمها لهم ، فأكل الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعامر بن فهيرة وأعطتهم أم معبد معهم بعض لحمها لطعامهم فى الطريق وبقى عندها أكثر لحمها ، قالت أم معبد : لقد بقيت الشاة التى مسح رسول الله ضرعها إلى عام الرمادة سنة ١٨ هجرية ، فكنا نحلبها صبوحاً وغبوقاً حتى عندما جفت الأرض ولم يبق من الزرع والمرعى قليل ولا كثير(١) .

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ص ٢٦٢ والرسالة العثمانية للجاحظ ص ١١٢ .

وعندما كان المسلمون يحفرون الخندق اشتدت عليهم فى بعض الأماكن كُدْية ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا بإناء فيه ماء ، فتمضمض فيه ، ودعا الله ببعض الأدعية ، ثم نضح الماء على الكدية ، ويقسم من حضروا حفر الخندق أن الكدية أصبحت بعد ذلك كالكثيب لا ترد فأسا ولا مسحاة (١) .

وبينما كان المسلمون يحيطون بالخندق وقد مسهم الجوع ، مرت برسول الله أخت النعمان بن بشير ومعها تمر أرسلته به أمها إلى أبيها بشير بن سعد وخالها عبد الله بن رواحة ، فقال لها الرسول : تعالى يا بنية ، ما هذا الذى معك ؟ قالت : يارسول الله هذا تمر بعثتنى به أمى إلى أبى وخالى يتغديانه ، فقال : هاته . قالت : فصببته فى كفَّىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم فما امتلأت كفاه ، ثم أمر بثوب فبُسط له ، وألقى عليه التمر ، وقال لأحد جلسائه : اصرخ فى أهل الخندق أن هلموا إلى الغذاء ، فاجتمع أهل الخندق عليه ، وجعلوا يأكلون منه حتى عادوا عنه ، ولايزال فوق الثوب تمر يتساقط من أطرافه(٢) .

وقصة أخرى مماثلة حدثت فى الخندق أيضاً يرويها جابر بن عبد الله بقوله : عملنا مع رسول الله فى الخندق ، وكانت عندى شويهة غير سمينة ، فقلت لو صنعناها لرسول الله ﷺ ؟ فذكرت ذلك لامرأتى ، فطحنتْ لنا شيئا من شعير وصنعت منه خبزاً ، وذبحت تلك الشاة نشويناها ، فلما أمسينا وأراد الرسول الانصراف عن الخندق — وكنا نعمل فيه نهارا فإذا أمسينا رجعنا إلى أهلنا — قلت يارسول الله : إنى قد صنعت لك شويهة كانت عندنا وصنعنا معها شيئا من خبز الشعير ، وأحب أن تنصرف معى إلى منزلى ، فقال الرسول : نعم ، ثم أمر صارخا فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله إلى بيت جابر بن عبد الله ، قال جابر : فقلت : إنا لله وإنا إليه

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٢٩ .

(٢) ابن هشام : ج ٣ ص ١٣٠ .

راجعون ! ! وكيف لى بطعام لكل هؤلاء . فأقبل الرسول وأقبل الناس معه. وأخرجنا ماعندنا من طعام . فسمّى الرسول باسم الله ، وبدأ يأكل هو ومَنْ معه ، وكلما فرغ قوم قاموا وجاء غيرهم . حتى نال أهل الخندق جميعا حاجاتهم من الطعام(١) .

وأقحط الزراع حول المدينة حينا ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكوا ذلك إليه ؛ فصعد رسول الله المنبر واستسقى . فما لبث أن انهمر المطر ، فجاءه سكان المدينة يشكون الغرق ، فدعا الرسول ربه قائلا : اللهم حوالينا ولا علينا ، فانجاب السحاب عن المدينة ، فصار حوالبها كالإكليل . فقال رسول الله : لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لسرّه ذلك، وكان الرسول يشير بذلك إلى بيت من قصيدة أبى طالب يمدح الرسول ويؤكد أن الرسول يُسْتَسْقَى به ... وهذا البيت هو :

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثِمال اليتامى عصمة للأرامل (٢)

وفى عام الوفود حضر إلى الرسول وَفْدٌ غادر أراد أن ينتهز فرصة كثرة الوفود ليندس بينها للنيل من الرسول صلوات الله عليه . وكان ذلك وفد بنى عامر بقيادة عامر بن الطفيل ، وإربد بن قيس، وجبار بن سلمى ، وكان عامر قد اتفق مع إربد على أن يشغل بالحديث الرسولَ وحينئذ يعلوه إربد بالسيف . وتم اللقاء ، وأخذ عامر يشغل الرسول ويناقشه وينتظر من إربد أن ينفذ ما اتفقا عليه . ولكن إربد لا يفعل ،وخرج الوفد ، فصرخ عامر فى إربد : كيف لم تنفذ ما اتفقنا عليه ؟ قال إربد : لا تعجل علىّ ، فوالله ما هممت بالذى أمرتنى به إلا دخلتَ بينى وبينه حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف(٣) ؟

ولم يعلن الوفد إسلامه . وأحس الرسول الغدر من زعماء الوفد ،

---

(١) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٢٥٢ . وثمال اليتامى أى غياثهم ومعينهم .

(٣) ابن هشام جـ ٤ ص ١٥٨ – ١٥٩ .

فدعا عليهم ، فلم يصلوا إلى بلادهم ، فقد أكل الطاعون عامر بن الطفيل ، ومرت صاعقة على إربد فأحرقته(١) .

وأحب فى ختام هذه النماذج أن أقرر أن هذا التكريم للرسول عند بعض الأزمات شيء طبيعى ، ومثله يحدث لغير الرسل أحيانا ، فالله يكرم أصفياءه فى كثير من الأحوال ، ويفتح لهم أبوابا لم يتوقعوها ، وإن أى رجل مؤمن يمكنه أن يتذكر ألوانا من عون الله إليه ، وصدق الله العظيم الذى يقول « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب »(٢) .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) سورة الطلاق : الآية الثالثة .

الرسول والمنافقون

طبيعة المنافقين أنهم لا يظهرون إلا إذا كان عدوهم أقوى منهم . ومن هنا فلم يكن هناك منافقون قبل الهجرة ، لأن المسلمين كانوا أقلية لا يرهبها المشركون ، ومن ثم لم يكن أعداء الإسلام فى حاجة ليلجئوا للنفاق ، فلما اشتد ساعد الإسلام بعد الهجرة للمدينة ، وأصبح المسلمون أصحاب جاه وسلطان بهذا المركز الجديد، لم يستطع أعداؤهم بالمدينة أن يواجهوهم بعقيدتهم المنحرفة وكراهيتهم للإسلام ، فالتجأوا للنفاق ، أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر .

والنفاق أخطر من العداء الصريح ، ففى العداء السافر يتخذ المسلمون أهبتهم ويكونون على حذر ، ولكن النفاق كان ساتراً لأعداء الإسلام، وكان يمكن أن يكون مصدر خطر لولا أن الله سبحانه كشف أستارهم من حين لآخر مما جعل كيدهم يرتد إلى نحورهم فى أكثر الأحوال كما سنرى فيما بعد .

عبد الله بن أبى :

وزعامة النفاق بالمدينة تركزت فى عبد الله بن أبى بن سلول الخزرجى ، ويقول عنه ابن هشام[1] : لم تجتمع الأوس والخزرج قبل الإسلام على رجل غيره ، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ، ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم وهم على ذلك ، فلما انصرف قوم عبد الله عنه إلى الإسلام ضغن ، ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكا ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه ظاهراً وأسر النفاق .

أبو عامر الراهب ومسجد الضرار :

وهناك زعيم آخر آزر عبد الله بن أبى ، ذلك هو أبو عامر عبد عمرو ابن صيفى من الأوس ، وكان فى قومه شريفا مطاعا ، وكان قد ترهب فى

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٦٦ - ١٦٧ .

الجاهلية، ولبس المسوح فسمي الواهب . ولكن هذا الرجل لم يتجه للنفاق، بل خرج من المدينة إلى مكة وانضم إلى قريش فى عدائهم لمحمد، فلما فتح المسلمون مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ومات هناك ، وصلة هذا الرجل بالنفاق أنه كتب إلى بعض أتباعه من المنافقين بالمدينة أن يبنوا مسجدا بالقرب من مسجد قُباء يتجمعون فيه ، ويدبرون مكائدهم ضد الإسلام ورسول الإسلام متخذين من هذا المسجد وسيلة للتخفى ، وقد استجاب هؤلاء له وبنوا هذا المسجد ، وانتهوا منه قبيل غزوة تبوك ، وطلبوا من الرسول أن يصلى فيه ، فاستمهلهم حتى يعود من تبوك

وعند عودته نزل عليه قوله تعالى « والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفراً وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ، لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين[1] » .

وعندما نزلت هذه الآيات أمر الرسول بعض أصحابه أن يذهبوا ويدمروا هذا المسجد الذى سماه القرآن « مسجد الضرار » وذهب أصحاب الرسول ودمروه[2] .

ويعدد البلاذرى[3] منافقى المدينة وأهمهم من الخزرج : عبد الله بن أبى وعدى بن ربيعة وابنه سويد ، وزيد بن عمرو ، وعقبة بن قديم ، وأهمهم من الأوس الجلاس بن سويد وأخوه الحارث ، ونجاد بن عثمان ، وثعلبة بن حاطب ، وأبو حبيبة بن الأزعر وهو ممن بنوا مسجد الضرار .

---

(١) سورة التوبة الآيتان ١٠٧ - ١٠٨

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

اليهود والنفاق :

وهناك مركز آخر للنفاق بجوار مركز عبد الله بن أبي . وهو مركز تجمع اليهود الذين تظاهروا بالإسلام وهم يضمرون العداوة له ، ويتحدث ابن هشام [1] عن هذا المركز بقوله : وكان ممن تعوذ بالإسلام وأظهروه وهم منافقون بعض أحبار اليهود مثل : سعد بن حنيف وزيد بن اللصيت . ونعمان بن أوفى بن عمرو ، وعثمان أخوه ، ويروى عن زيد بن اللصيت أنه قال حين ضلت ناقة رسول الله : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ؛ وهو لا يدرى أين ناقته ؛ وأوحى الله للرسول بما قال الرجل وبمكان الناقة ، ومنهم كذلك رافع بن حريملة وهو الذى قال الرسول عنه حين مات ، لقد مات اليوم منافق عظيم ، وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد ويسخرون من المسلمين حينا ويتسمعون أحاديثهم حينا آخر لينقلوها لباقى اليهود ولأعداء الإسلام ، وقد رآهم الرسول صلى الله عليه وسلم مرة وقد لصق بعضهم إلى بعض وأخذوا يتحدثون همسا ، فأمر بهم فأخرجوا من المسجد إخراجا عنيفا ، وكان المسلمون يدفعونهم خارج المسجد وهم يقولون أف لكم من منافقين خبثاء ، اخرجوا من مسجد رسول الله ، وكان هؤلاء من يهود بنى قينقاع .

وكان بروز النفاق فى المركزين (مركز ابن أبى ومركز اليهود) عقب غزوة بدر وانتصارات المسلمين فيها . وذلك تمشيا مع ماذكرناه من قبل من أن النفاق يظهر فى مواجهة القوة والنصر .

المنافقون فى غزوة أحد :

وفى مسيرة المسلمين إلى غزوة أحد وَجدَ النفاق وسيلة ليعمل ويؤثر . فتد انخزل عبد الله بن أبى بثلث الجيش ، وقال عن الرسول « أطاع الأحداث وعصانى . وما ندرى علام نقتل أنفسنا أيها الناس » وحاول بعض المسلمين أن يثنوه عن هذا التصرف فقال قولةً حكاها عنه القرآن الكريم فى الآية

---

(١) سيرة ابن هشام ص ١٢٥ .

« لو نعلم قتالا لاتبعناكم[1] » وقد ضعف جيش المسلمين بسبب انسحاب عبد الله وأتباعه ، ولعل ذلك كان من أسباب هزيمة أحد .

وكشف منافقو المركزين عن فرحهم بما أصاب المسلمين فى غزوة أحد ، وأعلنوا شماتتهم ، فتظاهر عبد الله بن أبى وأعوانه بالحكمة لأنهم لم يدخلوا هذه المعركة ، وقالوا عن القتلى « لو أطاعونا ما قُتلوا[2] » وأما اليهود فراحوا يعلنون أن محمداً لو كان نبيا ما هزم ، ولكنه طالب ملك؛ ينتصر أحيانا ويهزم أحيانا .

المنافقون عند حفر الخندق :

وفى الجهد الذى بذله المسلمون لحفر الخندق كان المنافقون يتسللون من العمل ويعودون لبيوتهم بدون إذن الرسول[3] ، فنزل فيهم قوله الله تعالى « قد يعلم الذين يتسللون منكم لواذا ؛ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم »[4].

المنافقون عقب غزوة بنى المصطلق :

ونزلت النوازل بالمركز اليهودى المنافق بعد أن طُرد بنو قينقاع من المدينة ، وبعد أن طرد كذلك بنو النضير ، وقضى على بنى قريظة كما سنرى فيما بعد ، فألقيت مسئولية النفاق كله على عبد الله بن أبى وصحبه ، وقد ثابر هذا الرجل على بذل أقصى الجهد لينجح فى مهمته الدنيئة ، وقد شهدت غزوة بنى المصطلق موقفين خطيرين لموكب النفاق ، أما الموقف الأول فمحاولة عبد الله بن أبى أن يشعل نار الفتنة بين المهاجرين والأنصار عندما اقتتل واحد من المهاجرين مع أنصارى وهتف الأول : يا معشر المهاجرين وهتف الثانى : يا معشر الأنصار ، وقد تدخل الرسول بحزم بالغ

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٦ .   (٢) ابن هشام جـ ٤ ص ١٧ .

(٣) ابن هشام : السيرة جـ ٣ ص ١٠٩ .

(٤) سورة النور الآية ٦٣ .

معلنا أن هذه الصيحة صيحة جاهلية وهي صيحة فتنة . وقد وحّد الإسلام الجميع فلتكن الصيحة : يا للمسلمين ، وماتت الفتنة بسبب هذا الموقف العظيم من الرسول صلوات الله عليه ، ولكن المنافق عبد الله بن أبي أن يضيع هذه الفرصة ، فصاح : قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، ولقد أصبحنا معهم كما قال الأول « سمّن كلبك يأكلك «أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » وكان ممن سمع ذلك منه مسلم صالح ، هو زيد بن أرقم ، فأخبر عمر بذلك وأخبر عمر الرسول قائلا : مُرْ به ابنه عبد الله فليقتله ، ولكن الرسول قال : كيف ياعمر إذا تحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه ؟ وعالج الرسول الأمر بطريقة أخرى كلها حكمة وذكاء ، فقد أمر بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل فيها ، وأطال الرحلة دون راحة على غير عادته ، حتى تعب المسلمون ، فلما حطوا الرحال للراحة ناموا جميعا لفرط الجهد ، وبهذا لم يكن هناك وقت للنقاش حول هذا الموضوع .

وعرف عبد الله بن عبد الله بن أبيّ أن هناك اقتراحا بقتل أبيه فذهب للرسول ليقول له : يارسول الله ، إن كنت آمراً بقتل أبي فرني بذلك أنفذ أمرك ، لأني أخشى إن قتله غيري ، أن أثأر لأبي فأقتل مسلما بكافر . فقال الرسول : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا .

وذهب ابن أبي إلى الرسول ينكر أنه قال ما حمله إليه زيد بن أرقم ، ولكن سرعان ما نزلت في ذلك سورة « المنافقون » وكلها حكاية لهذا الرجل المنافق ، وفيها ماقال ضد المهاجرين «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ولكن الآية الكريمة تستمر لتقول « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون »[1] .

هذا هو الموقف الأول لهذا المنافق المرتبط بغزوة بني المصطلق ، أما الموقف الثاني فيرتبط بحديث الإفك الذى لا نحب أن نجول فيه ولا أن يجول فيه المسلمون خضوعا لقوله تعالى « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا

---

(١) سورة المنافقون الآية الثامنة ، وانظر ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٨٣ - ١٨٤ .

أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم، وكل ما نذكره عنه هو أن السيدة الطاهرة النقية بنت أبي بكر الصديق وزوجة خاتم الرسل وأعظمهم ترمى بالفاحشة ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، وعلى كل حال فقد انتهز ابن أبي هذه الفرية ليصول ويجول لا اعتقادا بصحة هذه الفرية ، ولكن لمحاولة وضع الأشواك حول الرسول ، فذلك هو الهدف الذى كان يسعى له ، وقد نزلت آيات الذكر الحكيم تقرر طهارة عائشة وتهدد بالويل والثبور أولئك الذين قالوا بهذه الفرية أو أيدوها ، قال تعالى « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم . بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم (1) » .

المنافقون بعد فتح مكة :

وفتحت مكة فى العام الثامن للهجرة ، ودخل أهل مكة فى دين الله ، ولم يدخل هؤلاء جميعا عن عقيدة وإيمان راسخ ، بل كان منهم من دخل إذ لا طريق أمامه إلا ذلك الطريق ، ومن دخل حرصا على المغانم التى كان المسلمون ينالونها فى حروبهم ضد العرب وضد اليهود ، ومن هنا وُجد منافقون مكيون انضموا لموكب المنافقين ، وكان هؤلاء من أوائل الذين فروا فى غزوة حنين التى حدثت بعد أيام من فتح مكة .

المنافقون فى غزوة تبوك :

كانت غزوة تبوك اختبارا عظيما نجح فيه المؤمنون صادقو الإيمان ، وفشل فيه المنافقون وضعاف الإيمان ، فالمعركة مع الروم ، بقوتهم، وبُعد

---

(٢) سورة النور الآيات ١١ وما بعدها وانظر سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٨٧ وما بعدها .

أرضهم ، والمعركة فى وقت القيظ والحصاد ، فكانت هذه الغزوة وسيلة انتهزها المنافقون فأعلنوا عن نفاقهم ، ومخالفتهم ، وأعلن القرآن الكريم سخط الله على هؤلاء ومن سار سيرتهم فى عدم تأييد المسلمين فى هذه المعركة وحدثت فى هذه الغزوة أحداث من المنافقين ومماثليهم نوجزها فيما يلى :

— جاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا للرسول ، فلم يعذرهم الله تعالى .

— خرج عبد الله بن أبى مع الرسول ، وعسكر الرسول على ثنية الوداع ، وعسكر عبد الله بن أبى على جبل ذباب غير بعيد من معسكر الرسول فلما سار الرسول بعسكره لم يتابعه عبد الله بن أبى وتخلف عنه وعاد للمدينة .

— خلّف الرسول محمد بن مسلمة الأنصارى على المدينة ، وترك ابن عمه على بن أبى طالب ليقيم فى أهله وأهل الرسول ، فأرجف المنافقون ، بأن الرسول ترك عليا استثقالا له وتخلصا منه ، فأخذ علىّ سلاحه ولحق بالرسول ، وبلّغه قول المنافقين ، فقال الرسول له : كذبوا ، لكنى تركتك لتخلفنى فى أهلى وأهلك ، ارجع يا على فلن يحبك إلا مؤمن ولن يبغضك إلا منافق . فعاد على [١]

وفى مواقف المنافقين وأمثالهم فى هذه الغزوة نزلت آيات كثيرة من سورة التوبة نقتبس منها « لوكان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم أنهم لكاذبون ، عفا الله عنك . لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين .... [٢] » .

نهاية عبد الله بن أبى ونهاية تجمع المنافقين :

امتد العمر بعبد الله بن أبى فلم يمت إلا بعد غزوة تبوك ، ولما مات حضر ابنه عبد الله إلى الرسول فسأله قميصه ليكفن به أباه لعل الله يغفر له ، فاستجاب له الرسول تكرما له وأعطاه القميص ، ثم سأل عبد الله أن يصلى الرسول

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١١٩ وما بعدها .

(٢) سورة التوبة الآيات ٤٢ وما بعدها .

عليه ، فاستجاب الرسول أيضاً ووقف أمام جثمانه ليصلي عليه ، ويروى أن عمر بن الخطاب وقف أمام الرسول وقال له : أتصلي على عدو الله الذى قال كذا وكذا وفعل كذا وكذا .... وكان الرسول يبتسم لعمر ، ثم قال له : يا عمر ، تأخر عنى ، إنى قد خُيِّرت فاخترت[1]. وصلى عليه ، وسار . حتى دفن والرسول واقف على قدمه ، ثم نزل قوله تعالى « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون[2]» وبموت عبد الله بن أبى انهار موكب النفاق وتشتت المنافقون بعد أن اختفى الرجل الذى كانوا يحتمون به ويلتفون حوله ؟

ولنتذكر فى ختام هذا البحث أن سطوة عبد الله وأتباعه امتدت كما رأينا من مطلع الحياة بالمدينة إلى قبيل وفاة الرسول صلوات الله عليه ، وهذا يرينا الجهد المتواصل من أجل الدعوة الإسلامية ليس فقط فى مكة ، وليس فقط من قريش أو اليهود أو الأحابيش أو هوازن ...... بل أيضاً من جماعة المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام وهم من ألد أعدائه ، ورحمك الله يارسول الله على ما عانيت من جهد حتى تم نور الله .

---

(١) يقصد الرسول قوله تعالى « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » فالرسول أخذ الآية على ظاهرها على أنها تخيير له .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٤٥ - ١٤٦ والآية رقم ٨٥ من سورة التوبة

الرسول والنصارى

يقول الله تعالى « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ....(١) » والحق أن الدارس للتاريخ الإسلامى يجد مدلول هذه الآية واضحا كل الوضوح ، فقد عارض اليهود الإسلام بقسوة وتآمروا على المسلمين من حين إلى آخر ، ووقف النصارى من المسلمين مواقف فيها الكثير من الود ، وكان اعتناقهم الإسلام سهلا فى حالات كثيرة متعددة .

وربما يخطر ببال القارىء ما عاناه المسلمون من الصليبيين ، والإجابة أن الصليبيين يُحسبون ظلما على دين المسيح ، ولم يكن هؤلاء ولا أمثالهم المستعمرون فى العصور الحديثة إلا مسيحيين بالاسم بعد أن فسدت المسيحية بالعقائد التى ابتكرها بولس(٢) . ومع أن عقائد بولس أصبحت منذ عهد مؤتمر « نيقية » سنة ٣٢٥ م هى عقائد المسيحيين فى الشرق والغرب ، فإن المسيحيين الشرقيين حافظوا على بقايا من روح المسيحية جعلتهم أقرب مودة للمسلمين حتى العهد الحاضر ، وجعلت العقلاء منهم شديدى التمسك نفسيا بالتراث المسيحى الأصيل ، ويمكن أن نحس طيب التعاون والتعامل بين المسلمين والمسيحيين فى مصر نتيجة لهذا الاتجاه ، وإذا واجهنا يوما اتجاه تآمر وعدوان بين المسلمين والمسيحين فى الشرق فذلك انحراف طارىء تأثر فيه بعض المسيحيين الشرقيين بالصليبية الأثيمة ، وربما جاز القول أن بعض المسلمين قد يخطئون فيعاملون المسيحين الشرقيين كما تعودوا أن يعاملوا المسيحين الصليبيين أو المسيحين المستعمرين ، ولو أزلنا هذا الإحساس لعاد المسيحيون إلى الوصف الذى سجله لهم القرآن الكريم ، وأشهد الله أننى رأيت هذا اللون من التعاون والود عدة مرات ، وكان يبهج المنظر ، رائع النتائج .

---

(١) سورة المائدة الآية ٨٢ .

(٢) انظر هذه العقائد بكتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان المؤلف .

تلك مقدمة لم يكن منها بد ، لأننا رأينا موقف نجاشي الحبشة من المسلمين ، وسنرى فيما يلى علاقات الرسول بالنصارى فى الجزيرة العربية طيلة حياة الرسول عليه السلام :

يقول ابن هشام (١) : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ، وكان مكوناً من ستين راكبا ، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ، وضمن الأربعة عشر رجلا ثلاثةٌ يتولون الأمر فيهم ، أحدهم أمير القوم ، والثانى منظم الرحلة والمشرف عليها ، والثالث الأسقف وهو الحَبْر والإمام ،واسم هذا «أبو حارثة» وكان ملوك الروم قد شرّفوه وموّلوه وبنوا له الكنائس وبسطوا له الكرامات . وفى الطريق إلى رسول الله عثرت بغلة « أبى حارثة » فقال أخوه «كوز» : تعس الأبعد « يقصد الرسول» تجىء له وتعثر ناقتك ؟ فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست . فدهش كوز وسائل : ولم يا أخى ؟ فأجابه : انه والله النبى الذى كنا ننتظره . فسأل أخوه : ولم لا تتبعه وقد عرفته ؟ فأجاب : الروم يا أخى ، فقد شرّفونا ومولونا وأكرمونا ، وقد أبو إلا خلافه ، ويقول ابن هشام : وقد أضمر « كوز » فى نفسه شيئا وسرعان ما أعلن إسلامه .

وقد جرت محاورة بين الرسول وبين النصارى ، وأمدّ القرآن الكريم رسول الله بالهدى والرشد فى هذه المحاورة فتم له النصر ، فقد قال تعالى رادا على من قال بألوهية المسيح وأنه روح الله يمتاز بذلك عن باقى البشر : « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » أى أن عيسى كان ممن صُوِّر فى الأرحام ، وهم لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه كما صور غيره من بنى آدم ، فكيف يكون إلها وقد كان بذلك المنزل (٢) .

وكان دخول « كوز » الإسلام فاتحة تدفق نصارى نجران على الإسلام ، على أن جماعة منهم احتفظوا بدينهم بضع سنوات ، حتى بعث الرسول لهم خالد بن الوليد قبيل حجة الوداع وسرعان ما استجاب هؤلاء لخالد ، ودخلوا

---

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ١٥٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٦١

دين الله ، فبعث خالد وفداً منهم إلى المدينة . واستقبل الرسول هذا الوفد بالترحيب والمودة(١) .

عدى بن حاتم :

وهنالك نصرانى يستحق فسحة من الفراغ هو عدى بن حاتم الطائى ، وأبوه أشهر المشاهير فى الكرم والجود ، وقد روى البخارى بعض قصة عدى ، وروى ابن هشام(٢) بعضا منها ، وكتبها بعض المؤرخين المحدثين(٣) ونوجزها فيما يلى :

يروى ابن هشام أن عدى بن حاتم قال : كنت امرءا شريفا نصرانيا ، وكنت ملكا على قومى ، وأسير فيهم بالمرباع ، آخذ ربع الغنيمة وأدع الباقى لهم ، فلما سمعت بمحمد كرهته لمخالفته لى فى الدين وفى العادات ، وكنت أخاف زحف المسلمين . فقلت لغلام لى أعد لى عددا من النوق القوية ، واجعلها قريبا منى ، فإذا سمعت بجيش محمد يطأ هذه البلاد ، فآذنى ، ففعل . وبعد فترة جاءنى مهرولا وقال : ما كنت صانعا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن ، فإن رايات محمد على وشك أن تصل هذه الأرض ، قال عدى : فقمت من فورى وفى عجلة من أمرى احتملت أهلى وولدى ، وقلت ألحق بأهل دينى من النصارى بالشام ، وبسبب هذه العجلة لم يصحب عدى أخته « سفانة » التى يبدو أنها كانت بعيدة آنذاك عن خيام أخيها .

وكان الرسول صلوات الله عليه حزم أمره على القضاء على عبادة الأوثان فى الجزيرة العربية بعد أن تم فتح مكة ، وبعد الانتصار على هوازن وثقيف ، فأرسل الرسول على بن أبى طالب على رأس جماعة لهدم صنم طيء الذى كان لا يزال هناك من يعبده . وفرّ عدى كما قلنا وتصدى بعض رجال طيء لعلى بن أبى طالب ، ولكنه سرعان ما هزمهم وأسر منهم

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٤٧٠ .

(٢) السيرة النبوية ج ٤ ص ١٦٦ وما بعدها .

(٣) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٤٢٧ — ٤٢٨ وسيرة النبى العربى للأستاذ أحمد التاجى ج ٢ ص ٢٢٠ وما بعدها .

وغنم ، وكانت « سفانة » ضمن الأسرى الذين أخذوا للمدينة ، ووُضعت سفانة فى مكان خاص بالأسرى من النساء غير بعيد من مسجد الرسول صلوات عليه بالمدينة .

ونتقل بالمشهد إلى المدينة وكانت سفانة امرأة لها هيبة وقدرة بلاغية ، وحدث أن مر رسول الله بالمكان الذى به سفانة ، فاشرأبت له وهتفت بقوة بنات الملوك ، وأجابها الرسول بحكمة الأنبياء ، فكان الحديث التالى :

— يامحمد ، هلك الوالد ، وغاب الرافد : فامنن علىَّ منَّ الله عليك .

— ومن رافدك يا فتاة ؟

— عدى بن حاتم

— الفارُّ من الله ورسوله !! .

وكأنما أدركت المرأة بذكائها أن أخاها لا يصلح أن تستعين باسمه فى هذه الأزمة ، فغيرت من أسلوبها عندما رأت الرسول فى مرة تالية ، وكان الحوار التالى :

— يا محمد ، هلك الوالد ، وكان سيد قومه ، كان يفك العانى ، ويحمى الذمار ، ويفرِّج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ويقضى حاجة من سأله أية حاجة ، أنا ابنة حاتم الطائى .

— ياجارية هذه صفات المؤمنين ومن حقك أن نكرمك من أجل أبيك ، والتفت إلى من حوله وقال لهم : خلوا سبيلها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، ولكن لا تعجلى يا فتاة بالعودة حتى تجدى مَنْ يكون لك ثقة ليبلغك إلى أهلك ، وآذنينى قبل الرحيل .

وبعد فترة قضتها سفانة حرة طليقة بالمدينة جاءت للرسول لتقول له : يا محمد هنا رهط من قومى لى فيهم ثقة وبلاغ فأذن لى أن أصحبهم ، فكساها الرسول وحملها على راحلة وأعطاها نفقة مناسبة تبلغها مأربها وسيَّرها معززة مكرمة ، فقالت له عبارات دعاء تعتبر قمة من البلاغة والفكر ونصها :

شكرتْـك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتْـك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك موضعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، وجعلك وسيلة لرد نعمة سُلبت من كريم ، فسُرَّ الرسول بدعائها وسأل الله الهداية لقومها .

وبرحلة سفانة إلى الشام ينتقل المشهد إلى خيمة عدى الواسعة التى أقامها فى أحضان نصارى الشام ودار حوار بين سفانة وأخيها عدى كالآتى :

— مرحبا يا ابنة حاتم .

— اغرب عنى أيها القاطع رحمه ، احتملت أهلك وولدك ، وتركت عورتك وبقية أبيك .

— غفرانك يا أخيَّة فما صنعت ماذكرت إلا فى ساعة هرل ، ولكن قولى لى ماذا رأيت فى هذا الرجل ؟

— والله ما رأيت فيه إلا خيراً وقصَّت عليه قصتها معه ، ثم قالت له : أرى والله أن تلحق به سريعا ، فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضيلة ، وإن كان ملكا فلن تذل عنده .

— هذا والله هو الرأى .

وانتقل المشهد إلى مسجد رسول الله بالمدينة ، فبينما كان الرسول جالسا فى المسجد إذ دخل عليه رجل أعرابى تبدو عليه النعمة والجد ، وسلم على الرسول فرد الرسول السلام ، وسأل الرسول : من الرجل ؟ فأجاب : عدى ابن حاتم ، وقد وصفه الرسول من قبل بأنه فرٌّ من الله ورسوله ، ولكن الفارَّ عاد ودخل المسجد ، ولذلك احتفى به الرسول كعادته مع النصارى وكعادته مع الوافدين عليه ، وبخاصة الرؤساء وأصحاب الجاه الذين يُرْجى أن يفتح إسلامهم الباب لإسلام العديد من أتباعهم ، ولهذا نهض الرسول إلى عدى ، وفرش له عباءته وأجلسه بجواره ، ثم — بعد فترة — أخذ بيده ، وصحبه إلى بيته .

وفى الطريق عرضت للرسول امرأة لها حاجة فاستوقفت الرسول ، فوقف لها ، وطالت وقفته ليستمع إلى شكاة المرأة وليقضى حاجتها ، فقال عدىٌّ فى نفسه : ما هـــذا ملك فالملوك لا يفعلون ذلك ، وفى بيت الرسول لم يجد عدى فراشا وثيرا ولا أى مظهر من مظاهر الترف ، وقدم الرسول لعدى حشية من ليف ليجلس عليها ، ولم تكن هناك حشية أخرى ليجلس عليها

الرسول ، فحدث عديٌّ نفسه بأن محمداً ليس مَلِكا فى مسكنه ومظهره وخلقه ، ودار بين الرسول وبين عدى هذا الحوار :

— يا عدى تعتنق النصرانية ولا تتبعها .

— كيف ذلك ؟

— تسير فى قومك بالمرباع وليس هذا من المسيحية فى شىء .

— هل أنت تعلم دينى أكثر منى ؟

— نعم، فالقرآن الكريم فيه كثير عن النصرانية الحقة ، وأما ما تتبعه فهو عادات عربية تحاول أن تخلطها بالدين .

يا عدى اسلم تسلم ، وإذا كنت ترى فينا فقراً الآن فوالله ليوشكن المال أن يفيض على المسلمين فلا يجد من يأخذه ، وإذا كنت ترى فينا ضعفا فوالله لينتصرن المسلمون على أعتى قوى الأرض بعد وقت ليس بالطويل ، وإذا كان الملك والسلطان فى غيرنا فوالله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت للمسلمين ، يا عدى اسلم تسلم

فقال عدى : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

ويروى عن عدي قوله : وعشت حتى رأيت القصور البيض قد فتحت للمسلمين ، ورأيت المال يفيض فيضا عليهم .

وهكذا كانت علاقة المسلمين بالنصارى علاقة فيها ود ، وفى كثير من الحالات دخل المسيحيون الإسلام دون تردد طويل، ولكن المسيحية عانت من اضطراب فى العقائد بسبب بولس ، ومن اتجاه للدم والسلب ، بسبب الفكر الأوربى الذى كان فكرا دمويا قبل أن تدخل المسيحية أوربا ، فلما دخلت المسيحية أوربا صبغوها بالدم والأنانية بدل أن يأخذوا منها الرحمة والإيثار، لقد خسرت المسيحية خسارة كبيرة باتصالها بأوربا ، خسرت عقائدها لأن أفكار بولس تربت بأوربا ، وخسرت سماحتها لأن شعوب أوربا كانت شعوب حرب وغارات فانعكس ذلك على الدين المسيحى ، ليت المسيحيين بالشرق يرجعون إلى طبيعة المسيحية الحقة ، ولا يقتبسون المسيحية الغربية .

اليهود والمسلمون

سبق أن قلنا إن اليهود كانوا يعرفون أن نبيا آن له أن يبعث ، لأن ذلك كان مدوّنا فى كتبهم المقدسة : وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله : (الذين يتبعون النبي الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل . . .)[١] وكان اليهود يذيعون ذلك ، وكانوا كلما تغلب عليهم عرب يثرب يقولون لهم : غداً نتبع النبي الجديد ونقوى به عليهم ، ونقتلكم قتل عاد وإرم[٢] وبعث محمد وهدى الله أكثر الأوس والخزرج لقبول دعوته ، أما اليهود فلم يدخل الإسلام منهم إلا عدد ضئيل مثل عبد الله بن سلام بن الحارث[٣] ، أما غالبيتهم العظمى فقد حكى القرآن موقفهم بقوله (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به)[٤] وربما نتساءل : لماذا كفروا به مع أنهم كانوا ينتظرونه ؟ والجواب أنهم أرادوه أن يكون منهم ولهم ، وأن يقوّى سلطانهم على الناس ويعلى مكانتهم ، ولكن الإسلام جاء على يد رجل من العرب وليس من اليهود ، وسوى الإسلام بين الناس فلم يُبْقهم شعبا مختاراً كما كانوا يقولون ، وأسرع عرب يثرب ودخلوا هذا الدين وكان اليهود يريدون الدين الجديد لينتصروا به على العرب ، فأما وقد دخله العرب قبلهم فلا فائدة فيه لهم بناء على تفكيرهم .

ومع هذا فقد أحسن الرسول معاملتهم ، وعقد معهم المعاهدة التى سبق أن تحدثنا عنها ، وترك لهم حرية العبادة وأعطاهم الحقوق التى كفلها لهم الإسلام . وفى مقابل ذلك التزم اليهود بالتعاون مع المسلمين عسكريا لحماية وطنهم المشترك إذا تعرض لعدوان ، والتزموا كذلك بالتعاون ماديا إذا حدث ما يحتاج إلى التعاون المادى . وكانت روح المعاهدة هو العمل المشترك لهدف مشترك ، غير أن اليهود — كما أثبت التاريخ ذلك — لم يكونوا

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧ (٢) ابن هشام ٢ : ٢٩٢

(٣) النووى : تهذيب الأسماء ، القسم الأول ج ١ ص ٢٧١

(٤) سورة البقرة الآية ٨٩ .

مخلصين فى عهدهم ، ولم يدخلوا فى هذا العهد إلا ريثما يجدون لأنفسهم طريقا آخر . فقد أحسوا منذ اللحظة الأولى أن الدين الجديد ينتزع منهم القيادة التى طالما افتخروا بها وهى الصلة بالله عن طريق الوحى ، وهى كذلك الافتخار بكتاب مقدس من عند الله .

وزاد حقد اليهود حينما رأوا دين محمد ينمو نمواً واسعا فى أقصر مدة عرفها التاريخ ، فاليهود يعرفون كيف تعثرت اليهودية ، وكيف حوربت المسيحية عدة قرون ، ولكن انتصار محمد بدا يتحقق فى حياته وبعد سنين قليلة من بدء دعوته وبخاصة عند ما تمت الهجرة وظهر الطريق ممهداً للنجاح الكامل .

وعقد اليهود العزم على المقاومة واتخذت مقاومتهم للإسلام جانب الصراع الفكرى تاركين الصراع العسكرى لقريش ، فبدءوا بالجدل الذى قصدوا به أن يشككوا الناس ويردون المسلمين عن الإسلام ، وأثاروا لذلك مسائل كالقضاء والقدر وخلق الأفعال ، وقد حكى القرآن ذلك الموقف بقوله (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره)(١) :

ومن ضلال اليهود أن قريشا لما سألتهم لما لهم من معرفة بالأديان : يا معشر اليهود أنتم أعلم بالكتاب منا ، أفديننا خير أم دين محمد ؟ فأجابهم اليهود بأن دينهم أفضل من دين محمد ، وجاءت فى ذلك الآية الكريمة « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا »(٢) .

ومن التشكيك والتضليل أيضا تلك القصة التى نزلت فيها الآية الكريمة :

---

(١) سورة البقرة الآية ١٠٩ (٢) سورة النساء الآيتان ٥١ ، ٥٢

(وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون)[١] ، ويذكر المفسرون فى سبب نزولها أنه قد تواطأ اثنا عشر حبراً من أحبار يهود خيبر ، فقال بعضهم لبعض : ادخلوا فى دين محمد أول النهار باللسان دون اعتقاد بالقلب ، ثم أعلنوا كفركم آخر النهار وقولوا : إنا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا ، فوجدنا أن محمدا ليس هو المبعوث الذى كنا ننتظره ، وظهر لنا كذبه . فإذا فعلتم ذلك شك أصحاب محمد فى دينه واتهموه ، وقالوا عنا إننا أهل الكتاب ، وأعلمُ بذلك .

ولعل هذه الشبهة تجعلهم يشكون فى دينهم فيرجعون عنه .

ولما دبروا هذه الحيلة ، أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بها ، فلم تتم لهم ، ولم يحصل لها أثر فى قلوب المؤمنين[٢] .

وهكذا لم يأت هذا الطريق بفائدة فلم يستطع اليهود أن يفتنوا مسلما عن دينه ، ولم يستطيعوا أن يصدوا الناس عن دخول الإسلام ، ولذلك أدركوا أن الطريق للقضاء على الإسلام هو قوة الحسام وليس قوة اللسان ، وكان اليهود قد اتجهوا فى بدء الأمر كما قلنا إلى ترك قوة السيف إلى قريش ليقضى العرب على العرب وليتولى العرب إخماد هذا الصوت الجديد ، ثم ظهر لليهود أن قوة قريش اضمحلت ، وأن محمدا هاجر وأصبح ذا قوة وعصبية ، وأنه يستطيع أن يقاوم وأن يحمى دينه وأتباعه ، وتأكد لهم هذا المعنى عند ما تم للمسلمين النصر فى غزوة بدر ، ولذلك وجد اليهود ألا مناص من أن يدخلوا ميدان النضال بأنفسهم ليرجحوا كفة قريش أو — عند اللزوم — ليحملوا هم عبء هذا الكفاح ، وسنذكر فيما يلى مراحل الصراع العسكرى بين المسلمين واليهود .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٧٢ .

(٢) الجمل على الجلالين : ج ١ ص ٢٨٧ .

بنو قينقاع (العام الثانى للهجرة) :

كان بنو قينقاع أقوى جماعات اليهود الذين شملتهم المعاهدة مع المسلمين ، وكانوا أول من نكث العهد ، ويروى فى ذلك أنه بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين أبدى اليهود السخط والغضب ، وكان بنو قينقاع أكبر اليهود سخطا وغضبا واستهانة بهذا النصر وتهوينا من شأنه ، وحدث أن ذهبت امرأة من الأنصار إلى سوق الصاغة حيث يكثر اليهود ، فتسلل خلفها رجل يهودى وهى جالسة وعقد طرف ثوبها إلى أعلاه ، فلما وقفت المرأة تكشف ظهرها فتضاحك اليهود : وصرخت المرأة شاكية ، فوثب رجل من المسلمين على اليهودى فقتله ، وشد اليهود على المسلم فصرعوه ، وأعلنوا نبذهم للعهد ، واستعدوا للحرب[1] ، ولما كلمهم الرسول فى ذلك وأنذرهم قالوا له فى استهتار ظاهر : يا محمد ، إنك تحسب أننا كقومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إننا والله لئن حاربتنا لتعلمن أننا الناس . وكان هذا تهديدا ظاهرا ، وإنذارا بخيانة جسيمة ، ونزل بعد ذلك قوله تعالى (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء)[2] . ويروى أن الرسول قال عندما نزلت هذه الآية : إنى أخاف خيانة بنى قينقاع . وخرج الرسول فى جمع من أصحابه وحاصر دورهم فقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فما استطاعوا الظهور ، ونزلوا على حكم الرسول ، وحينئذ تقدم عبد الله بن أبى وكان حليفهم قبل الإسلام فقال للرسول : أحسن فى موالى ، فتركهم الرسول له واكتفى بإبعادهم عن المدينة ، فخرجوا منها ونزلوا أذرعات الشام ولم يلبثوا حتى هلك أكثرهم وكانوا حوالى سبعمائة ، وكانوا يشتغلون بالصياغة والتجارة[3] .

---

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٥٦ ودكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ١٤٤ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٥٨ .

(٣) ابن هشام ٢ : ١٢٠ والطبرى ٢ : ١٧٢ وزاد المعاد ٢ : ٧١ وفتوح البلدان ٢٣ .

بنو النضير (العام الرابع للهجرة) :

كان بين المسلمين واليهود — فى المعاهدة التى أشرنا إليها — حلف يقضى بالتعاون بين الفريقين مادياً عند الحاجة، وحدث أن قتل أحد المسلمين رجلين خطأ، فوجب على المسلمين أن يدفعوا الدية عنهما [1]، وأثقلت الدية المسلمين لأنهم كانوا لم يستقروا بعد من الناحية المالية بسبب كثرة المهاجرين الذين فروا بدينهم تاركين أموالهم وثرواتهم بمكة. ورأى الرسول أن يسأل بنى النضير أن يسهموا فى دفع هذه الدية عملا بالحلف السابق، فذهب بنفسه إلى الحى الذى يسكنون فيه، وذكر لهم الخبر فقالوا له: «نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه» وطلبوا منه الجلوس ريثما يدبرون له المال الذى طلبه، فجلس الرسول بجانب جدار ومعه من أصحابه أبو بكر وعمر وعلى.

وذهب اليهود ليفكروا فيما يدفعون من المال، ولكن سرعان ما هتف واحد منهم: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه.

وقال آخر: من منا يعلو هذا الجدار فيلقى عليه حجراً فيريحنا منه؟ قال عمرو بن جحاش. أنا لذلك:

وصعد عمرو، ولكن سرعان ما أوحى الله لمحمد أن اليهود يأتمرون به ليقتلوه، وطلب منه الانسحاب فى صمت [2]، وانسحب الرسول وانتظره أصحابه، وانتظر عمرو بن جحاش عودته. ولكن هيهات، فلحق أبو بكر وعمر وعلى بالرسول. وسألوه عن السبب فى أنه تركهم، فذكره

---

(١) كان الذى قتلهما عمرو بن أمية الضمرى، وهو الوحيد الذى نجا من عامر بن الطفيل ومن أهل نجد الذين قتلوا جميع المسلمين الذين أرسلهم الرسول لدعوة أهل نجد للاسلام وكانت الموقعة عند بئر معونة، وعندما كان عمرو بن أمية عائداً قابل رجلين من بنى كلاب ابن ربيعة بينهما وبين الرسول عهد لم يعلمه عمرو، وقد خانهما هذا على نفسه فاغتالهما، فالتزم الرسول بديتهما (البلاذرى: فتوح البلدان ص ٢٣ — ٢٤).

(٢) ابن هشام ٢ : ٤١، ١٧٦. ويحيى بن آدم: الخراج ص ٢٩.

لهم وأشيع خبر المؤامرة . وراح بعض اليهود يلوم البعض الآخر على هذه الجريمة الشنعاء، وفى هذه الحادثة نزل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم)[١] .

وأدرك المسلمون ألا مقام لبنى النضير بينهم ، فقد كانت قريش تجمع جموعها للفتك بالمسلمين . فإذا كانت الجبهة الداخلية غير أمينة ، وإذا كان للمسلمين أعداء غادرون فى معقلهم الوحيد ، فلا أمل للمسلمين فى الانتصار ، لذلك كان طبيعياً جداً أن يعمل المسلمون على القضاء على بنى النضير بالمدينة حتى يأمنوا فى عقر دارهم ؛ وحتى يفرغوا لعدوهم الأكبر الذى يترقب الوسائل بعد غزوة أحد ليقضى على المسلمين قضاء مبرماً .

وعلى هذا تهيأ المسلمون للخروج لبنى النضير ، وسرعان ما التفت جيوش المسلمين حول حصون بنى النضير ودورهم، ولم يستطع بنو النضير أن يقابلوا المسلمين وجهاً لوجه محاربين ، فتحصنوا بالحى الذى يسكنون فيه ، وقفلوا المسالك عليهم ، وحاصرهم المسلمون مدة ستة أيام ، ثم ألقى الله فى قلوبهم الرعب . فطلبوا من الرسول أن يسمح لهم بالخروج من المدينة ومعهم ما تحمل الإبل إلا الدروع [٢]، فقبل الرسول منهم ذلك، وخرجوا حيث نزل بعضهم خيبر ونزل آخرون الشام، وكان من أشرافهم الذين نزلوا خيبر حيى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وكنانه بن الربيع[٣]. وقد استطاعوا بشرفهم وثرائهم أن ينزلوا من خيبر فى مكان الرؤساء والأمراء ، وكانت حادثة بنى النضير هذه فى السنة الرابعة من الهجرة .

وهناك ملاحظتان هامتان نختم بهما حديثنا عن بنى النضير وهما :

١ — أن بنى قريظة بالمدينة لم يمسهم أى سوء لأنهم لم يشتركوا فى المؤامرة، مع ما لهم من صلة ببنى النضير .

---

(١) سورة المائدة الآية ١١ وانظر تفسير الكشاف .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤ .

(٣) ابن هشام ٢ : ١٧٨

٢ ـ أن الاكتفاء من بنى النضير بالخروج من المدينة ومعهم ثرواتهم كان حكما فى منتهى التسامح إذا قيس بالعمل الإجرامى الذى دبره هؤلاء .

بنو قريظة (العام الخامس للهجرة) :

قلنا آنفاً إن الاكتفاء من بنى النضير بالخروج من المدينة ومعهم ثراؤهم الواسع كان عملا فى منتهى التسامح ، وقد تغلب الباعث الإنسانى الذى قضى بهذا الحكم على الحق القانونى وعلى الحرص اللازم لحراسة أمة ناشئة ودين جديد ، وإننا فى الحقيقة ننظر إلى هذا التسامح فنجده سمحاً مبالغاً فيه . لأنه مكن بنى النضير من العمل بحرية كاملة بعيدين عن عين تنظر ، أو معاهدة تقيد أو منافس يراقب ، ونستطيع أن نقارن موقف الرسول بموقف قريش عندما اجتمعت قبيل الهجرة لتقرر مصير محمد ، وعندما رفضت دون تردد إخراجه من مكة خوفاً من أن يعود إلى مكة مهاجماً بعد وقت قصير أو طويل ونسأل : لماذا لم ينتفع الرسول صلوات الله عليه بهذه التجربة وبغيرها من الأحداث المماثلة فيحكم على بنى النضير بالقتل أو بحكم آخر أقسى من الإخراج ؟

ونجيب بأن عامل الرحمة كان قوياً جداً فى نفس الرسول وبأنه لم يلجأ قط للقتل إلا عندما لم يجد سواه سبيلا .

المهم أن بنى النضير لم يكونوا جديرين بالعطف الذى عاملهم به الرسول ، إذ أنهم سرعان ما غدروا وأخذوا يجمعون الجموع ويثيرون الناس لمهاجمة المسلمين والقضاء عليهم ، وقد استجابت لهم جماعات كثيرة كان يربط بينها كراهية الإسلام والكيد له ، ومن أهم هؤلاء قريش ، وغطفان ، وبنو مرة ، وغيرهم ، وزحفت هذه الجماعات أو هؤلاء الأحزاب على المدينة فى الغزوة التى سميت بغزوة الأحزاب والتى سنتكلم عنها فيما بعد .

والمهم الآن أن نقول إن غزوة الأحزاب كانت من أشد ما عاناه المسلمون من ويلات ، لقد جاعوا فيها حتى ربطوا الحجارة على بطونهم ، وعاشوا فى سجن ضيق يحيط بهم الأعداء من كل جانب ، ثم ـ فى هذه الحالة الرهيبة ـ اتصل حيي بن أخطب أحد سادة بنى النضير الذين هاجروا إلى خيبر ، بكعب ابن أسد سيد بنى قريظة ، ودعاه أن ينقض عهده مع المسلمين وأن ينضم هو

وحماعتة بنو قريظة إلى الأحزاب ، واستجاب كعب إلى هتاف حي والأمل يراود الاثنين أن فى ذلك قضاء نهائياً على المسلمين [١] ، فقد أصبح جناحهم مهيضاً بالهجوم الشامل عليهم من الخارج ، ولم يبق إلا ضربة من داخل المدينة تنضم إلى هذه الضربات التى تنزل من الخارج فتقضى على الإسلام والمسلمين ، وقد صور القرآن الكريم حالة المسلمين أدق تصوير فقال : **(إذ جاءوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً)**[٢].

وهكذا غدر بنو قريظة فى أحرج الأوقات ، ووجد المسلمون أنفسهم بين عدو من الأمام وعدو من الخلف ، عدو من الخارج وعدو من الداخل ، ولن نستمر فى الكلام عن غزوة الاحزاب الآن ونتائجها ، فالكلام عن الغزوات له مكان آخر ، ولكنا هنا نواصل كلامنا عن بنى قريظة .

لما سمع الرسول بغدر بنى قريظة أرسل لهم سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ليريا الأمر . وليمنعا بنى قريظة عن هذا الغدر الفاجر . فذهب سيدا الأوس والخزرج . وقابلا كعب بن أسد ، وسألاه وحذراه ، فسخر منهما ، وأظهر لهما الخشونة والبغى ، ولم يسمع لرجاء منهما أو تحذير [٣] .

وانتهت غزوة الأحزاب وعاد المهاجمون دون أن يجنوا شيئاً ، وتركوا المدينة وفيها فريقان يشهر كل منهما سيفه فى وجه الآخر ، وأحاط المسلمون بمساكن بنى قريظة وشددوا عليهم الحصار ، وندم بنو قريظة على ما ارتكبوا ولات ساعة مندم ، واستمر الحصار خمسة وعشرين يوماً وعرض عليهم المسلمون أن يدخلوا الإسلام فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم فأبوا [٤] ، ورضوا أن يسلموا بما يحكم به سعد بن معاذ فى أمرهم ، وجيء بسعد فسلم له المسلمون واليهود زمام القضية ، وفكر سعد ، ولابد أنه وضع نصب عينيه العوامل الآتية :

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ١٨٩ — ١٩٠ .
(٢) سورة الأحزاب الآيتان ١٠ — ١١ .
(٣) ابن هشام ٢ : ١٩
(٤) فيليب حتى : تاريخ العرب جـ١ص٨٤ .

١ – لقد سمح المسلمون لبني النضير بالخروج من المدينة ، وكانت نتيجة ذلك إهدار دماء المسلمين وتعريضهم وتعريض دينهم للخطر بسبب هجوم بني النضير وتأليبهم الأحزاب ، فلا يمكن والحالة هذه أن تتجه الأفكار لإخراج بني قريظة .

٢ – لقد كان ذنب بني قريظة عظيما ولولا عون الله لهلك المسلمون .

٣ – رأى سعد بنفسه سخرية بني قريظة منه ومن صاحبه عندما ذهبا إليهم ، كما تذكر تحذيره إياهم ووقوعهم في الرسول أمامه وسبهم المسلمين بغير حق .

٤ – العفو عن بني قريظة وإخراجهم من المدينة سيعني بلاشك انضمامهم إلى بني النضير حيث يتضاعف الخطر اليهودي على المسلمين .

لهذه الأسباب كان حكم سعد بديهيا : لقد حكم على الخونة الغادرين بالقتل ، قتل الرجال وسبي النساء والأطفال ، وكان ذلك في العام الخامس للهجرة إثر غزوة الأحزاب . وربما ادعى بعض المتحذلقين أن هذا الحكم قاس ، والإجابة سهلة ، هي أن هذا الحكم هو الذي يحكم به حتى الآن في كل دول العالم ضد من ارتكبوا مثل هـــذه الخيانة العظمى وبخاصة وقت الحروب .

خيبر (العام السابع للهجرة) :

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا)[١] صدق الله العظيم – وقد برهنت الأحداث طوال القرون على شدة عداوة اليهود للمسلمين ، لقد أساء يهود المدينة – كما قلنا – حتى عندما أحسن المسلمون إليهم ، وبعد يهود المدينة جاء دور اليهود في الشمال ، وقد وجد الرسول أن جانب هؤلاء ليس مأمونا ، فلم يكن بد من القضاء على هذا الخطر الداهم ، فهؤلاء هم الذين سببوا غزوة الأحزاب ، والذين بدءوا يدبرون

(١) سورة المائدة الآية ٨٢ .

المؤامرات الأخرى للهجوم على المدينة بعد أن فشلوا فى غزوة الأحزاب ، ولذلك نجد الرسول يُعِدُّ العدة للزحف على يهود خيبر ووادى القرى وفدك وتيماء ، وكانت خيبر أقوى حصون اليهود وأخطرها ، لقد كان بها يهود من قبل ، ثم انضم لهم مهاجرو بنى النضير ، فأصبحت خيبر أكثر بلاد اليهود فى الجزيرة العربية عدداً وأعظمها قوة وأكثرها تحديا للمسلمين ، ولذلك بدأ الرسول بها عندما اتجه إلى الزحف على مناطق اليهود بالشمال ، وكان ذلك فى السنة السابعة للهجرة بعد أن هدأت العداوة بين المسلمين وبين قريش وعُقِد بينهما صلح الحديبية الذى سنتكلم عنه فيما بعد ، وحاصر المسلمون خيبر وامتد الحصار وطال ، وأخذت حصون اليهود بها تتساقط بسهولة أو بصعوبة فى يد المسلمين(١) ، ولم يجد اليهود بدا من أن يستسلموا ، واتفق معهم المسلمون اتفاقاً سمحاً مرة أخرى ، فقد تركهم الرسول يزرعون الأرض التى أصبحت للمسلمين بحكم الفتح ، وأصبح لليهود شطر الزرع والثمار نظير عملهم(٢) . كما صار للمسلمين الإشراف على اليهود حتى لا يعودوا إلى ألوان الغدر مرة أخرى .

ولما تهاوت حصون خيبر طلب يهود فدك الصلح فصالحهم الرسول على نصف الثمر ونصف الأرض(٣) ، أما يهود وادى القرى وتيماء فقد امتنعوا وقاتلوا فهزمهم المسلمون ، ثم تركوهم على نظام خيبر(٤) ، وانكسرت بذلك شوكة اليهود وإن كانت الشوكة لم تَزُل نهائياً وبقيت كليلة حيناً ، ومدمية كلما وجدت سبيلا إلى الإيذاء .

ومما يتصل بخيبر أنه بعد الانتهاء منها قدّمت امرأة يهودية اسمها زينب بنت الحارث بن سلام شاة مشوية للرسول دست فيها السم وأكثرت منه فى ذراعى الشاة حيث عرفت أن الرسول يحب من الشاة ذراعها ، فلما

---

(١) ابن هشام ٢ : ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٢) أبو عبيد : الأموال ص ٩ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) البلاذرى ص ٢٤٧ .

وُضعت الشاة بين يدى الرسول تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يستسغها ولفظها ، وكان يأكل معه بشر بن البراء ولكنه تعجل فابتلع ما وضعه فى فه ، وقال الرسول إن هذه الذراع لتخبرنى أن الشاة مسمومة ، ودعا الرسول المرأة فاعترفت ، فسألها الرسول : ما حملك على ذلك ؟ فقالت بلغتَ من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت إن كان ملكا استرحنا منه وإن كان نبياً فسيخبر . وقيل إنها دخلت الإسلام فعفا عنها الرسول ، وقيل قتلها الرسول قصاصاً ، لأن بشر بن البراء مات من هذا الطعام[1]

نهاية اليهود بالجزيرة العربية :

ابتداء من العام السابع للهجرة . بدأت الآمال تتطلع إلى نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية ، وبدأت وفود المسلمين تحمل رسائل الرسول ، أو تحمل دعوة الإسلام إلى أكثر الجهات . وأصبح واضحاً أن بقاء اليهود خلف هذه الوفود لايؤمَن ظهرها ، ولذلك روى عن الرسول قوله : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً .

وفى عهد الخلفاء الراشدين امتد الإسلام وتجاوز أرض خيبر فى طريقه إلى فارس والروم ، وأصبح يهود خيبر فى ظهر المسلمين ، فخاف عمر خطرهم وخشي أن يضربوا المسلمين من الخلف كما فعل اليهود من قبل ، ورأى عمر ضرورة ضمان السلامة والوحدة فى الجزيرة العربية قبل أن تتعمق جيوشه خارج هذه الجزيرة ، وزيادة على ذلك يروى البلاذرى[2] أن يهود خيبر ، عاثوا فى المسلمين فألقوا ابن عمر من فوق بيت وفدغوا يديه ، لكل ذلك استقر رأى عمر على إجلائهم .

وقد عاملهم عمر طبقاً للشروط التى كانت بينهم وبين المسلمين ، فأهل فدك كان لهم نصف الأرض فاشتراها عمر منهم ، وفى بعض الروايات أن

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٢٤٠ – ٢٤٢ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٦ و ٤٢ .

الرسول كان قد اشترى هذا النصف منهم فى حياته ليكونوا على قدم المساواة مع باقى يهود الجزيرة ، وأذن لهم عمر ، ببيع ما يريدون ، وقوّم ما كان لهم من متاع لم يستطيعوا حمله ودفع ثمنه لهم ، وأجلاهم[١] .

المستشرقون واليهود :

المستشرقون هم أولئك الغربيون الذين اشتغلوا بالدراسات الإسلامية والشرقية ، وكثير من المستشرقين أدى لهذه الدراسات خدمات كبيرة ، وبخاصة فى طرق البحث التى سبقوا المسلمين فى معرفتها وإجادتها ، ولكن مع الأسف كان أكثر المستشرقين من اليهود ، ولم يستطع هؤلاء أن ينسوا عواطفهم وهم يبحثون فى الدراسات الإسلامية ، فاستعمل بعضهم أقسى الألفاظ وهو يتحدث عن الدين الإسلامى وعن الرسول محمد ، وهاجموا الإسلام فى جميع مسائله سواء منها ما اتصل باليهود أو ما لم يتصل بهم ، وكانت دراسة بعضهم سلسلة من النقد أو القذف أو الهجاء[٢] ، ويعد هذا عودة إلى النضال الفكرى الذى نشره اليهود ضد الإسلام فى مطلع الإسلام ، وليس لنا على كل حال أن نجاريهم فى القذف والتعصب ، وإنما نقولها كلمة قوية قالها المنصفون من المستشرقين ، هى أن مبادىء الإسلام تعد من أرقى الفلسفات فى شئون الدين وإدارة الدنيا . وإن معاملة المسلمين لغير المسلمين كانت دائماً سلسلة من التسامح واليسر . وكان هذا طابعها حتى مع من فتكوا بهم واستحلوا دماءهم ، وليست الحروب الصليبية وموقف صلاح الدين الأيوبى من الصليبيين ببعيد[٣] .

---

(١) أبو عبيد : الأموال ص ٩ و ٩٨ .

(٢) ارجع لمقدمة هذا الكتاب ، وكنموذج لكتابة المستشرقين من هذا النوع يراجع القارىء مؤلفات جولدزيهر .

(٣) اقرأ عن الحروب الصليبية الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

الاســـلام والقتال

هناك عنصران رئيسيان للحديث عن الإسلام منذ الهجرة حتى وفاة الرسول ، وهذان العنصران هما :

١ – تكوين المجتمع الإسلامى ، ونشر الدعوة الإسلامية ، وتربية الدعاة على نحوماذكرنا من قبل .

٢ – حماية هذا المجتمع والدفاع عنه .

وقد تكلمنا عن العنصر الأول بإفاضة فيما سبق ، وآن لنا أن نتحدث عن العنصر الثانى .

وقد ذكرنا آنفا أن المسلمين قضوا على اليهود بالجزيرة العربية حماية للاسلام والمسلمين وسنتحدث الآن عن حماية أوسع ، وعن حروب كثيرة حصلت فى عهد الرسول وبعد وفاته ، وسنجعل سبيلنا فى الحديث – كما نحاول دائماً – أن يكون بحثاً عملياً نبرز فيه اتجاه الإسلام واتجاه المسلمين درن أن يكون هناك مجاله للتعصب .

ويعتقد بعض المستشرقين وبعض من لم تتح لهم الفرصة للتعمق فى الدراسات الإسلامية أن القوة كانت عاملا هاماً فى انتشار الإسلام . ويتخذون من الحروب التى حدثت فى حياة الرسول ، وبعد وفاته دليلا على ذلك ، ولمناقشة هذا الاتجاه نسأل هنا سؤالين هامين :

١ – هل انتشر الإسلام بالدعوة أو بالقوة ، وما الدليل على ذلك ؟

٢ – وإذا كان قد انتشر بالدعوة فلماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم ؟

وللإجابة عن السؤال الأول نقول فى قوة وإصرار : إن الإسلام لم ينتشر بالسيف وإنما انتشر بالدعوة ، ونضع البراهين الواحد بعد الآخر فى سلسلة من آيات القرآن الكريم ، ثم فى سلسلة من أحداث التاريخ بحيث لايبقى للشك مجال .

فأما عن القرآن فهاك قوله تعالى :

– لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى[١] .

– ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة[٢] .

– لكم دينكم ولى دين[٣] .

– فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب[٤] .

– فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر[٥] .

وأما سلسلة التاريخ فترينا بوضوح أن الإسلام سلك طريقه بالدعوة متبعاً هذه الآيات البينات ، وإلى القارىء بيان ذلك :

١ – حينما كان الرسول فى مكة ، وحينما بدأ دعوته وحيدا لاسلاح معه ولا مال ، دخلها مجموعة من عظماء الرجال من أمثال أبى بكر وعثمان وسعد ابن أبى وقاص وطلحة والزبير ثم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب ..... فهل يمكن أن نقول إن هؤلاء دخلوا بالقوة . وأين القوة فى ذلك الوقت ؟ . وعن مسلمى مكة يقول الأستاذ العقاد[٦] : إن كثيرين من الناس لم يخضعوا للسيف ليسلموا ، ولكنهم تعرضوا بإسلامهم للسيف ، واحتملوا السيف فى سبيل الله .

٢ – واضطهدت قريش المسلمين اضطهاداً قاسياً ، وأنزلت بمحمد وأتباعه ألواناً من العذاب ، وفى وسط هذا العناء حينما كان محمد والمسلمون معه بمكة مغلوبين على أمرهم مستضعفين ، كان أهل المدينة يسعون للإسلام ويعتنقونه ويدعون له ذويهم وأهليهم ، فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بالقوة بين سكان المدينة ؟

٣ – جاء الصليبيون إلى الشرق إبان ضعف الخلافة العباسية لمحو الإسلام والقضاء عليه ، وإذا بالإسلام يجذب جموعاً منهم فيدخلونه ويحاربون

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥ .

(٢) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٣) سورة الكافرون الآية السادسة .

(٤) سورة النحل الآية ١٤٢ .

(٥) سورة الغاشية الآيتان ٢١ ، ٢٢

(٦) عبقرية محمد ص ٤٨ .

فى صفوف المسلمين ، يقول توماس أرنولد : « لقد اجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عدداً مذكوراً حتى فى العهد الأول أى فى القرن الثانى عشر ، ولم يقتصر ذلك على عامة النصارى بل إن بعض أمرائهم وقادتهم انضموا أيضاً إلى المسلمين حتى فى ساعات انتصارات المسيحيين » .

ويروى توماس أرنولد عن بعض مؤرخى النصارى قوله : إن ستة من أمراء مملكة القدس استولى عليهم الشيطان ليلة معركة حطين ، فأسلموا وانضموا إلى صفوف الأعداء دون أن يقهروا من أحد على ذلك ، ويعلل توماس أرنولد لانتشار الإسلام بين الصليبيين بقوله : ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التى انطوت على البطولة قد أحدثت فى أذهان المسيحيين فى عصره تأثيراً سحرياً خاصاً ، حتى أن نفراً من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين . وكذلك كانت الحال عندما اطرح النصرانية : مثلا ، فارس إنجليزى من فرسان المعبد ، يدعى روبرت أوف سانت ألبانس واعتنق الإسلام ، ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين[١] .

فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بين الصليبيين بالقوة .

٤ - فى القرن السابع الهجرى هاجم المغول الجانب الشرقى من العالم الإسلامى ، وكان هجومهم وحشياً قاسياً مدمراً سفكوا الدماء فسالت أنهارا ، وحطموا مظاهر الحضارة الإسلامية به ، وهدموا القصور والمساجد ، وأحرقوا الكتب وقتلوا العلماء ، وامتدت أيديهم إلى الخليفة فقتلوه وقتلوا معه أهله ، وأزالوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ وأصبحت للمغول اليد العليا ، وهوت أمامهم كل قوى المسلمين فى عاصمة الخلافة وما حولها ، وسرعان ما جذب الإسلام إليه هؤلاء الفاتحين الغزاة ، فدخل المغول الدين الذى هاجموه وعملوا على تقويضه . فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بين المغول بالقوة ؟ .

---

(١) إقرأ ما كتبه توماس أرنولد عن « حالات التحول إلى الإسلام بين الصليبيين » فى كتابه الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٨ وما بعدها . من الترجمة العربية

يقول سير توماس أرنولد فى ذلك : «ولا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من خطوب وويلات خطباً أعنف قسوة من غزوات المغول ، فلقد انسابت جيوش جنكيزخان ، واكتسحت فى طريقها العواصم الإسلامية وقضت على ما كان بها من مدنية وحضارة ، على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته وظهر من بين الأطلال ، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه[1] » .

٥ — وأين الدم فى غزوات الرسول ؟ .

إن الإحصاء الدقيق الذى يعتمد على ما أورده ابن هشام نقلا عن ابن إسحق بالنسبة لعدد الشهداء فى الغزوات وأسمائهم ، وعدد قتلى المشركين ، يبين أن شهداء المسلمين فى جميع الغزوات كانوا ١٣٩ شهيداً ، وقتلى المشركين فى جميع الغزوات كانوا حوالى ١١٢ قتيلا ، وتوزيعهم على الغزوات كالآتى :

الغزوة	شهداء المسلمين	قتلى المشركين	ملاحظات
بدر	١٤	٧٠	
أحد	٧٠	٢٢	
الخندق	٦	٣	
بنو المصطلق	—	٣	
خيبر	١٩	—	لم يدخل اليهود فى هذه الإحصائية فلهؤلاء حكم آخر بسبب خيانتهم .
مؤتة	١٤	١٤	بعضهم من المشركين وبعضهم من نصارى العرب والروم .
حنين	٤	—	لم يذكر ابن هشام قتلى للمشركين فى هذين الموقعين .
الطائف	١٢	—	
تبوك	—	—	لا حرب ولا ضحايا .
	١٣٩	١١٢	

(١) الدعوة إلى الاسلام ص ٧١ .

٦ — ويحدثنا التاريخ بصراحة ووضوح أن أهم فترة انتشر فيها الإسلام هى فترة السلم الذى تلاصلح الحديبية بين قريش والمسلمين كما سيأتى ، وكانت فترة السلم سنتين ، ويقول المؤرخون إن من دخل الإسلام فى خلال هاتين السنتين أكثر ممن دخلوه فى المدة التى تقرب من عشرين عاما منذ بدء الإسلام حتى الصلح . وهذا يدلنا على أن انتشار الإسلام تبع السلم ولم يتبع الحرب .

٧ — وهناك فكرة هامة يجدر بنا أن نوضحها تماما ، ويجدر بالقارىء أن يتفهمها ، تلك الفكرة هى أنه لاعلاقة بين انتشار الإسلام وبين حروب المسلمين مع الفرس والروم ، فقد كانت الحروب تشتعل ، وكان المسلمون ينتصرون ، ثم تتوقف الحروب وتتوارى السيوف . وحينئذ يتقدم الدعاة والمعلمون فيشرحون نظم الإسلام ومبادئه وفلسفاته (سيأتى الحديث عن فلسفة الإسلام ومبادئه فيما بعد) . وكانت هذه الدعوة السمحة تجذب لها الناس وبخاصة عندما رأت الشعوب المغلوبة الفرق الكبير بين حكم قيصر وطغيانه ، وبين بساطة عمر بن الخطاب وسماحته وتواضعه ، وبالدعوة دخل الناس أفواجاً فى الدين الجديد ، فنهم من أسرع فى الدخول ، ومنهم من دخل بعد عام أو خمسة أعوام أو عشرة أو مائة . . . . . ويقول Kirk (١) (إن غالبية أهل الشام ومصر السفلى فى القرن التاسع الميلادى كانت لاتزال مسيحية على الرغم من أن الإسلام كان قد مضى عليه فى هذه البقاع أكثر من قرنين) ونضيف أن من سكان مصر والشام من لم يدخل الإسلام حتى الآن ، وتستطيع أن ترى اليوم الآلاف أو الملايين من المسيحيين فى مصر وسوريا وغيرهما من البلاد الإسلامية .

مرة أخرى لاعلاقة بين انتشار الإسلام وبين الحروب .

وأوضح من هذا ما ذكره Fage Roland Oliver من أن الإسلام لم يأخذ طريقه خلف الصحراء بإفريقية إلا بعد انحلال دولته الكبرى فى

A Short History of the Middle East, 39 (٢)

المغرب ، وكانت وسيلة الإسلام لهذه البقاع هي الثقافه والفكر والدعوة فانتشر الإسلام بين شعوب البربر ، وقامت خلف الصحراء دول إسلامية لعبت في التاريخ دوراً كبيراً[١] .

٨ — وانتشر الإسلام انتشاراً واسعاً في إندونيسيا وماليزيا وفي إفريقية ، فأين القوة التي نشرته في هذه البلاد الفسيحة وجذبت له قلوب الملايين ؟

وكاتب هذه السطور عاش في إندونيسيا عدة سنين ، ورأى بنفسه الإسلام وهو ينتشر بين الإندونيسيين بيسر وبساطة ، رآه وهو يهزم الديانات الأخرى والأفكار المتعددة ويتقدم إلى الطليعة لاتدفعه إلا مبادئه السمحة وتعاليمه المعقولة الهادئة البسيطة ، فقد رأيت في اندونيسيا صراعاً بين الأديان والأفكار ، كل منها يريد أن يكون أسرع وصولا إلى قلوب الإندونيسيين ، ولكل منها وسائل وطرق تعمل على تحقيق هذه الغاية ، فقد كانت المسيحية يساعدها أو قل يفرضها بطش المستعمر وماله ورجاله ، والكنفوشية يساعدها ملايين الصينيين الذين يقيمون في إندونيسيا ، وتدفعها الثروات الضخمة التي يملكها هؤلاء الصينيون ، والهندوكية والبوذية تساعدهما صلات الهند بإندونيسيا ، تلك الصلات الثقافية والحضارية التي تضرب في أعماق التاريخ ، ورأيت الإسلام تدفعه مبادئه ويرعاه الله ، يعلمه عرب هاجروا من بلادهم النائية في حضرموت بثقافة محدودة وبدون مال ولا سلطان على الإطلاق ، أو يعلمه إندونيسيون ينطبق عليهم وصف العرب في فقرهم وقلة سلطانهم ، فماذا كانت نتيجة هذا الصراع ؟

أما الكنفوشية فقد خرجت صفر اليدين ولم تجذب إليها فرداً واحداً تقريباً من أبناء إندونيسيا ، وقنعت الهندوكية والبوذية بنصيب ضئيل حصلت عليه غالباً قبل زحف الإسلام ، وجابت مدارس المسيحيين ومستشفياتهم ووظائفهم عدداً قليلا لايتجاوز المليونين ، وأغلبهم سقطوا في المسيحية مخدوعين ، فالطفل يدخل مدرسة مسيحية ويتلقى تعاليم هذه الديانة ثم يخرج مسيحياً ولايعرف غير المسيحية ، والمريض يشترك في

A Short History of Africa p, 77 (٢)

الصلوات والأدعية التى تقام فى المستشفيات وليس له إلا الاشتراك أو الطرد؛ وهكذا دواليك . أما الإسلام فقد سار وتسرب فى النور وبالدعوة السلمية إلى أكثر من تسعين فى المائة من سكان إندونيسيا وهم حوالى مائة مليون .

أما انتشار الإسلام فى إفريقية فندع الحديث عنه إلى شاهد عيان آخر ، ذلك هو الكاتب المسيحى الفرنسى هوبير ديشان حاكم المستعمرات الفرنسية بإفريقية حتى سنة ١٩٥٠ وهو يقول(١) :

إن انتشار دعوة الإسلام بإفريقية لم يقم على القسر ، وإنما قام على الإقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بدينهم ، وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمى البطىء من قوم إلى قوم ، فكان إذا ما اعتنقته الارستقراطية وهى هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة ، وقد يسَّر انتشار الإسلام أمر آخر هو أنه دين فطرة بطبيعته ، سهل التناول ، لا لبس ولا تعقيد فى مبادئه ، سهل التكيُّف والتطبيق فى مختلف الظروف ، ووسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر ، إذ لا يطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح فى عداد المسلمين ، وقد حبب الإسلام إلى الإفريقيين مظاهره البعيدة عن التكلف مثل الثوب الفضفاض ، والمسبحة ، والكتابة العربية ، والوقار الدينى ، وشعائر الصلاة ، مما يضفى على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحرة ، فالذى يدخل فى الإسلام ولو فى الظاهر يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة وأنه قد ازداد من القوة والحيوية .

وفى عام ١٩٧٣ أعلن الرئيس البير برنار بونجو رئيس جمهورية جابون أنه اعتنق الإسلام بعد أن درسه وتعرف على ما به من اتجاهات ونظم(٢) فكان هذا دفعة جديدة للزحف الإسلامى بإفريقية .

---

(١) الديانات فى إفريقيه السوداء ص ١٢٨ – ١٢٩ .

(٢) صحيفة الأخبار القاهرية فى ١٩٧٣/١٠/١ .

وربما نستطيع أن نضيف هنا ما لم يستطع ووبر ديشان أن يذكره ، وهو أن الدخول فى الإسلام كان معناه السعى للتحرر من الاستعمار ، والحرية طبيعة فى النفوس ، والجموع المسلمة هى التى حملت راية الجهاد ضد المستعمرين بإفريقية وآسيا .

٩ — وتقول الباحثة الألمانية الدكتورة Ilse Lietenstadter [١] إن التخيير ببلاد الفرس والروم لم يكن بين الإسلام والسيف ، وإنما بين الإسلام والجزية ، وهى الخطة التى استحقت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك فى إنجلترا إبان حكم الملكة اليصابات .

ونجىء بعد ذلك إلى السؤال الثانى : لماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم ؟

والإجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة أشرنا إلى بعضها فيما سبق ، وسنذكر فيما يلى موجزاً شاملا لها :

١ — **الدفاع عن النفس** : يقرر التاريخ أن المسلمين قبل الهجرة لم يؤذن لهم بقتال وقد ضُرب عمار وبلال وياسر ، وضرب محمد وأبو بكر ، ومات ياسر تحت العذاب كما ذكرنا من قبل ، ولم يرفع هؤلاء أيديهم لرد الاعتداء الذى وقع عليهم ، ولكن المشركين أسرفوا فى ذلك ووصلوا إلى حد تقرير قتل محمد ، وكان المسلمون كلما همت نفوسهم لرد الظلم ، أو تطلعت إلى القصاص من الظالمين ردهم رسول الله إلى الصبر وانتظار أمر الله قائلا : لم أومر بقتال ،

---

(١) Islam and the Modern Age p. 29

لم أومر بقتال . فلما أفلت محمد من قريش وأفلت منهم المسلمون بالهجرة ، وضع المشركون خططهم على أن يقضوا قضاء عاجلا على المدينة حتى تتخلص الجزيرة العربية من الإسلام والمسلمين. فكان من الضرورى أن يدافع المسلمون عن أنفسهم ، فأذن الله لهم بالدفاع قال تعالى : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله (١) » ويتضح من الآية للذى يمعن النظر أن الإسلام لا يحب القتال . فالفعل (أذن) مبنى للمجهول وفاعله عندما كان مبنياً للمعلوم هو الله سبحانه وتعالى ، وقد بنى الفعل للمجهول لأن الله لم يرد - فيما أفهم - أن يذكر اسمه الكريم متصلا بالإذن بالقتال ، ثم إن نائب الفاعل محذوف تقديره : (القتال) أى أذن لهم القتال ، ولم يذكر نائب الفاعل أيضاً لأنه كلمة (القتال) وبدل نائب الفاعل ذكر سبب الإذن وهو (بأنهم ظلموا) قال الضحاك هى أول آية نزلت فى القتال ، قال ابن عباس وابن جبير نزلت عند هجرة الرسول إلى المدينة . وروى النسائى والترمذى عن ابن عباس قال : لما أخرج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم !! ليهلكن ، فأنزل الله تعالى : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) ثم نزلت آية أخرى أكثر صراحة فى الإذن بالقتال والدفاع عن النفس هى قوله تعالى : (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (٢)) ومع أن الإذن هنا صريح إلا أنه مشروط بأن يكون فى سبيل الله لا فى سبيل المال أو الجاه . وأن يكون للدفاع عن النفس ، وبدون اعتداء ، فالاعتداء يسبب سخط الله .

وهكذا كان السبب الرئيسى للقتال هو الدفاع عن النفس والعرض والمال . وهنا يبدو موضوع مهم يتصل بالحبشة : تلك البلاد التى ليست بعيدة عن الجزيرة العربية ، والتى للمسلمين بها عهد منذ مطلع الإسلام فقد هاجروا إليها كما سبق القول ، والموضوع المهم هو أن المسلمين لم يهاجموا الحبشة ،

---

(١) سورة الحج الآية ٣٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

لأن الحبشة لم تمسهم بسوء، ولو كان المقصود نشر الإسلام بالقوة لهاجموها فهى أقل قوة من الفرس والروم ،وقد يقال إن البحر يحميها منهم ، والجواب سهل ، فقد ملك المسلمون بحرية قوية هاجموا بها القسطنطينية وسيطروا بواسطتها على أهم جزر البحر الأبيض المتوسط ، ولكنهم لم يتجهوا للحبشة فما كانت أعمال المسلمين الحربية إلا دفاعاً ورداً لاعتداء .

٢ — تأمين الدعوة وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها :

كانت الدعوة الإسلامية مهددة ،وكانت قريش تسلك كل السبل للقضاء عليها ، ثم كان هناك كثير من سكان مكة ومن العرب يميلون للإسلام ويريدون الدخول فيه ، ولكنهم كانوا يخافون أن ينزل بهم ما نزل بمن سبقوهم إلى الإسلام من عذاب وإيذاء ، حتى اضطر كثيرون ممن أحبوا الإسلام أن يعتنقوه سرا دون أن يعلنوا ذلك ، وفى هؤلاء نزلت الآية الكريمة « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم . . (١) » فأذن الله لرسوله وللمؤمنين أن يحموا الدعوة ويؤمنوا من يدخل فيها قال تعالى : (ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان) (٢) .

٣ — الدفاع عن الأمة الإسلامية حتى لاتدكها جيوش الفرس والروم :

قبل الإسلام لم تكن هناك أمة عربية ،وإنما كانت هناك قبائل عربية متحاربة متنافرة ، ولذلك لم يكن الفرس والروم يقيمون حساباً للعرب : إذ كان العرب داخل جزيرتهم يصطرعون صراعاً يكاد يكون متصلا ، وعلى هذا غض الفرس والروم بصرهم عن الجزيرة العربية لأنها لم تكون وحدة يمكن أن تصبح خطراً على الدولتين المجاورتين : الفرس والروم .

فلما جاء الإسلام آمن به بعض العرب وكفر به آخرون ،وقام نزاع عنيف

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٥ .

(٢) سورة النساء الآية ٧٥ .

فى الجزيرة العربية بين المسلمين وغيرالمسلمين (قريش واليهود) ، وفى هذه المرحلة لم يهتم الفرس والروم أيضاً بهذا الدين الجديد ، وقالوا إنها حركة قام بها عربى وسيقتلها العرب واليهود ، وظنوا أنها نوع من الصراع بين القبائل العربية لا يلبث أن يموت .

ولكن سرعان ما بدأ الإسلام ينتصر على أعدائه وينتشر بين العرب ، وسرعان ما تكونت فى الجزيرة العربية دولةقوية متحدة ، وبالإضافة إلى قوتها واتحادها كانت لها مبادىء الدين الجديد الذى اجتمع العرب حوله ، والذى استلزم الدعوة له ، وقد فوجىء كسرى وقيصر بحقيقة خطيرة هى أن الرسول أرسل لهما يدعوهما للإسلام فى العام السابع للهجرة ، ويدعو قومهما كذلك واعتقد الملكان أن محمداً لم يقنع بتأسيس دولة عربية وإنما أخذ يطمع فى مدّ سلطانه إلى أرضهما ، وكل هذا أدخل الذعر والخوف فى نفوس الفرس والروم ، فقد أصبحت الجزيرة العربية منافساً خطيراً ، قوياً متحداً ، وأصبحت دولة لها دين ولها مبادئ ، تعمل على نشر هذا الدين وإذاعة أخباره واكتساب الأنصارإليه ، ومن أجل هذا دخل الفرس والروم المعركه ، وقررتاضرورة القضاء علىالدولة الإسلامية الجديدة والقضاء على الوحدة التى تكونت عند العرب ،وقدبدأ ذلك والرسول صلىاللهعليه وسلم لايزالحياً :

يروى أنه فى سنة ٦٢٧ م (السادسة للهجرة) أسلم فروة بن عمر الجذامى عامل الروم على عمّان ، وأرسل مع مسعود بن سعد الجذامى بغلا أشهب وفرساً وحماراً ، وأقمصه كتانية وعباءة حريرية هدية للنبى ،ولما بلغ الرومان ذلك حاولوا إقناعه ليرتد فأبى ،فما كان منهم إلا أن ألقوا القبض عليه وسجنوه ثم صلبوه على ماء يقال له (عفرى) بفلسطين .

وفى سنة ٦٢٩ (٨ هـ) أوفد النبى جماعة قوامها خمسة عشر رجلا إلى حدود شرق الأردن ليدعوا الناس إلى الإسلام ، وليستطلعوا أخبار الروم، فخرج عليهم جمع غفير فى مكان يقال له (طلة) بين الكرك والطفيلة وقتلوهم كلهم إلا واحداً لاذ بالفرار [١] .

---

(١) كولونيل فريدريك : تاريخ شرق الأردن وقبائلها ص ٨٥ نقلا عن « الرسالة الخالدة » لعبد الرحمن عزام ص ٢٢٨ .

وكانت تجمعات الروم تهدد المسلمين دائماً حتى كان المسلمون يتوقعون هجوم الروم عليهم كل لحظة ، ومما يدل على ذلك أن صحابيا فى أثناء حياة الرسول دق باب عمر بن الخطاب فى ليلة وعمر نائم ، فهب عمر من نومه مذعورا وهو يقول : ماهو ؟ أجاءت غسان ؟

وكما تحرش الروم بالمسلمين تحرش بهم الفرس أيضاً . فالتاريخ يروى لنا أن القبائل الموالية للفرس كانت توالى الإغارة على أرض المسلمين . ولم تكن حرب المسلمين مع الفرس إلا امتداداً للدفاع الذى قام به المسلمون ليحموا أنفسهم وذويهم من هؤلاء المغيرين .

على أن الحروب لم تكن فى الحقيقة مع الشعوب . وإنما كانت مع قيصر وكسرى وجيوشهما ، هؤلاء الجبابرة الطغاة الذين كانوا يقفون حاجزاً يحول بين الناس وبين الدين الجديد ، فلما سقط هذا الحاجز بدأت الشعوب التى كانت خاضعة مغلوبة على أمرها : تفكر فى الإسلام وتقبل عليه وتستعذب الحرية فى ظلاله .

ويتجه البحث الحديث إلى اعتبار الزحف الإسلامى ضد الفرس والروم ليس إلا حركة تحرير قامت بها القبائل العربية لصالح الشعوب المستعمرة التى كانت خاضعة للاستعمار الفارسى أو الرومانى .

ومبادىء الإسلام واضحة فى أن أى قتال إنما هو لرد عدوان كما سبق ، وينص القرآن على أن على المسلمين أن يلجأوا للسلم إذا لجأ له أعداؤهم ، قال تعالى « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »(١) . وقال : « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم . فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »(٢) .

وقد سار الرسول على هدى هذه الآية الكريمة فنراه يخرج لملاقاة الروم عندما بلغه أن جموعهم تجمعت على أطراف الجزيرة ، وأنها تريد الهجوم ، فلما وصل إلى تبوك وجد أن جيش الروم تراجعت فلم يفكر فى مهاجمة الروم ، وإنما عاد أدراجه إلى المدينة .

ويتضح من الدراسات السابقة مايلى :

– أنه لاتوجد آية واحدة فى القرآن الكريم أو حادثة واحدة فى تاريخ

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦١ .   (٢) سورة النساء الآية ٩٠ .

صدر الإسلام تدل أو تشير إلى أن القتال فى الإسلام كان لحمل الناس على اعتناقه.

— وأن سبب القتال ينحصر فى رد العدوان وحماية الدعوة وحرية الدين قال تعالى « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »(١) . فهذه الآية تقرر أن القرآن لم يقصد بالقتال أن يرغم الناس على التدين بمالا يريدون ، وإنما أراد به تحقيق حرية التدين للناس ، فأمر بالقتال حتى يصبح الدين لله دون إكراه أو إرغام ، إذ كانت قريش تحارب مَنْ دخل الإسلام .

— وأن المقصود من « الكفار » فى قوله تعالى (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) هم المحاربون المعتدون ومثله كلمة « الناس » فى الحديث الشريف أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله (٢) أو المقصود مشركو الجزيرة العربية ، فهؤلاء لهم حكم خاص قال تعالى (إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ، فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم . . . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولاذمة ، يرضونكم بأفواههم ، وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون)(٣) . ويقرر المفسرون أن هذا الحكم (الإسلام أو القتال) خاص بمشركي الجزيرة للتعليل الذى ذكرته الآية الأخيرة ، وهو خطورتهم على الدعوة ونفاقهم . وكلمة « يلونكم » تؤيد هذا الاتجاه فمعناها المجاورون والأقربون .

علاقة الحالة الاقتصادية بالحروب :

بقى موضوع نحب أن نحققه بإنصاف وعمق وهو مكانة الناحية الاقتصادية فى الفتح ، وقد اهتم بهذه الناحية كثير من الباحثين ، وعدها بعضهم العامل الرئيسى فى التوسع الذى قام به العرب ، يقول توماس أرنولد(٤) إن العرب

(١) سورة البقرة الآية ١٩٣ .

(٢) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت : الإسلام والعلاقات الدولية ص ٣٧–٣٨ وانظر كتاب « الجهاد فى التفكير الإسلامى » للمؤلف .

(٣) سورة التوبة الآيات ٤ – ٨ .

(٤) The Preaching of Islam p. 49

شعب نشيط فعال ، دفعته يد الجوع والحاجة إلى ترك صحاريه القاحلة واجتياح الأراضي الغنية للشعوب المجاورة المترفة .

ويقول داويت دونلدش[١] : ونشك في الحقيقة فيما إذا كان الحماس الديني وحده كافياً لحملهم على القيام بهذه الغزوات الواسعة على البلاد المجاورة ، ويبدو أنهم واصلوا اندفاعهم بسبب الحاجة الاقتصادية الشديدة .

ويقول الدكتور فيليب حتى[٢] : إن الحاجة المادية هي التي دفعت بمعاشر البدو ، وأكثر جيوش المسلمين منهم ، إلى ما وراء تخوم البادية القفراء ؛ إلى مواطن الخصب في بلدان الشمال ، ولئن كانت الآخرة أو شوق البعض إلى بلوغ جنة النعيم قد حبب لهم الوغى ، فإن ابتغاء الكثيرين لحياة الهناء والبذخ في أحضان المدنية التي ازدهرتها الهلال الخصيب كان الدافع الذي حبب لهم القتال .

هل هذا الكلام صحيح ؟ وهل كان البدوي تواقا إلى حياة الهناء والبذخ ؟ وهل ذلك كان الدافع لهذا البدوي أن يخرج ليهدم أكبر إمبراطوريتين عرفهما تاريخ العالم في ذلك الوقت ؟!

يجب أن تقرر أن فكرة ربط الدعوة الإسلامية بالرغبة في الحصول على المال قديمة جداً ، بدأت منذ بدء الإسلام واتهم بها محمد نفسه قبل أن يتهم بها العرب والبدو بمدة طويلة ، ووجدت أدلة كثيرة تقوض هذه التهمة ، ولكنها مع ذلك لاتزال حية .

لقد اتهمت قريش محمداً بأنه طالب مال وعرضت عليه ثرواتها لتكفه عن دعوته ، فصاح : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت ذلك الأمر . . . . .

وافتقر محمد بعد غنى ، وافتقر أبو بكر بعد غنى ، وافتقر عمر الذي آل له السلطان على الإمبراطوريتين العظيمتين وظل يعيش في تقشف ظاهر ، وافتقر عثمان بعد غنى عظيم ، ومع هذا بقيت التهمة بأن المسلمين حاربوا لأنهم كانوا طالبي مال وثراء .

وعند البدء في غزو فارس برزت هذه التهمة في عقل رستم قائد الفرس

---

(١) عقيدة الشيعة ص ١٨ .

History of the Arabs Vel, I, pp 195-196 (٢)

وظن أنه يستطيع أن يرضى هؤلاء البدو بحفنات من ذهب الفرس وينجو من قتالهم ، فطلب من سعد بن أبى وقاص أن يوجه إليه بعض أصحابه فوجه إليه المغيرة بن شعبة ، فقال رستم له قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم ما تشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون(١) والعجيب أن الدكتور حتى ذكر هذه القصة حجة لدعواه ونسى أن رأى رستم لا يمكن أن يكون دليلا على المسلمين ، ونسى كذلك باقى الرواية حيث سخر المغيرة من رستم ومن رأيه ومن ماله ، وحيث صاح به بألا مناص لكم من واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال .

والذى ظنه رستم ظنه فيما بعد ملك الصين عندما زحف قتيبة بن مسلم على هذه الأصقاع وأناب عنه هبيرة الكلابى لمقابلة ذلك الملك ، فقال له الملك : قل لصاحبك (يقصد قتيبة) إنى عرفت حرصه وقلة أصحابه ، فلينصرف وإلا بعثت عليه من يهلكه . فصاح به هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ! وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟ وأما تخويفك إيانا بالموت فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه أو نخافه .

وعلى هذا فهذه التهمة قديمة وردها أيضاً قديم كما ترى ، على أننا لا نحاول أن ننكر أنه كان بين المحاربين العرب من كان يحب المال أو يسعى إليه ؛ ولكن الذى ننكره بقوة وإيمان هو أن يكون الدافع لهذه الحروب هو المال ، ومعنى الدافع هو القوة التى ترسم الخطط وتوجه ، وهو كذلك الإحساس الداخلى الذى يحث المحاربين على العمل لتحقيق الأهداف التى رسمت لهم ، هذا الدافع كان إسلامياً صرفاً ، وإذا جاء المال فهو تابع له ولكنه لم يكن قط هدفاً لذاته ، ولعل Stanley Lane - poole كان أقرب المستشرقين إلى هذا الاتجاه السليم فهو يقول : إن المحقق أن تحمس العرب للفتوح كان يؤججه عنصر قوى من التعصب للدين ، والرغبة فى نشره ، فقد حاربوا لأن مثوبة الشهداء وكئوس السعادة والنعيم كانت تنتظر من يقتلون فى سبيل الله ؛ غير أننا

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٦٦ .

لانستطيع أن ننكر أن ثروة القياصرة والأكاسرة ، والأراضى الخصبة ، والمدن العامرة فى الممالك المجاورة ، كانت عاملا كبيراً فى تحمس المسلمين(١) .

ربما كانت الرغبة فى الثراء عند بعض المحاربين عاملا ، ولكنها لم تكن قط الدافع الرئيسى لهذا الصراع ، ونضع فيما يلى بعض الأدلة لإبراز هذا الرأى .

أولا — صارع المسلمون الشرك فى قلب الجزيرة العربية أكثر من عشرين عاما سقط فيها الكثيرون من خيرة المسلمين فى الغزوات وحروب المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة ، وكانت كل هذه الحروب تدور فى البادية القفراء كما سماها الدكتور حتّى ، بعيدة عن الأطماع فى الأرض التى سماها مواطن الخصب وحياة الهناء بالشمال ، فما الدافع لكل هذه الضحايا ؟ أضف إلى ذلك أن المسلمين طالما حاولوا الانتصار دون حرب ودون غنائم كما سنرى فى فتح مكة ، وطالما ردوا غنائم حصلوا عليها إذا أسلم أصحابها كما سنرى فى غزوة حنين والطائف .

ثانياً — أى مال كان يمكن أن يتطلع إليه المسلمون والوصول إليه محفوف بالمخاطر ، وقد سبق أن أوردنا أن عمر بن الخطاب حينما دق بابه أحدُ الصحابة وهو نائم ليلاً هبَّ مذعوراً وهو يقول : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ وقد عاش البدو آلاف السنين فى هذه الجزيرة القاحلة وكانوا يعرفون الخيرات فى الشمال ، ولكن أحلام أحدهم لم تصل إلى أن يطمع أن يدك عروش الملوك وأن يجعلها تخضع لسلطان البدو الذين لاسلاح لهم ولا دربة ولاعدد ، فى حين كان للروم وللفرس جيوش جرارة ، وعتاد قوى ، ونظام كامل . وقد كان العرب لذلك يخافون حرب الروم ، وسنرى الهزيمة التى ستقع بهم فى غزوة مؤتة ، وسنرى ترددهم فى غزوة تبوك . وقد عبر عمر بن الخطاب وهو من هو قوة ويقينا عن قوة الروم بقوله : إنها الروم ربنو الأصفر ، عزم حديد وبأس شديد .

ثالثاً — لقد حافظ المسلمون قبل أن تكتسحهم الأطماع الدخيلة . على حياة التقشف والزهد ، وعندما حاصروا حصن بابليون بعد أن فرغوا من

---

(١) Muslims in Spain p. 83

الشام وفارس كانوا لايزالون على بساطتهم وصفائهم ، وقد أرسل لهم المقوقس رسلا ليتعرفوا له أحوالهم فعاد الرسل إلى المقوقس وقالوا له : رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم : ما يعرف كبيرهم من صغيرهم ولا السيد فيهم من العبد . . . . .

رابعاً — طالت حرب المسلمين مع سكان شمالى إفريقية وامتدت ، وسقط فيها عدد من الضحايا ، وكثير من بقاع الشمال الإفريقى صحراء قاحلة .

خامساً — لقد وقعت معارك شنيعة فى داخل صفوف المسلمين ، بدأت بموقعة الجمل واستمرت بعد ذلك ، وسقط آلاف الضحايا فى هذه المعارك ، وماكانت تضيف أرضا خصبة ولاحياة هناء وبذخ .

ما الدافع الحقيقى لهذه الحروب ؟

إنها العقيدة التى رخص من أجلها كل شىء ، إنها الرغبة فى الحصول على إحدى الحسنيين ، وهانت من أجل ذلك كل تضحية ، لقد كانت هناك أطماع مالية ، ولكن هذه بدأت متأخرة وكانت عند من لم يتعمق الإيمان فى نفسه ، وكانت على العموم عاملا ثانويا ، من ذا الذى يحمل رأسه على يده ويقابل بها أقوى جيوش الدمار والفتاك لينال من بذخ العيش فى أحضان الهلال الخصيب ، والتاريخ الإسلامى مملوء بقصص البطولة ، وبهؤلاء الذين نسميهم بالفدائيين الذين يلقون بأنفسهم فى مراكز الخطر ليهلكوا وينجو الإسلام وترتفع راية هذا الدين ، أين المال وترف الدنيا لهؤلاء الشهداء ؟

وقد استمرت الحروب دائرة بين الفرس والروم مئات السنين ، وكانت حروب أطماع ودنيا ، ولكن هؤلاء أو أولئك لم يستطيعوا أن يحرزوا نصراً مؤزراً ، لشىء واحد هو قلة العقيدة ؛ فلما هاجمهم البدو بسلاح العقيدة فلّ سلاحُهم كل سلاح وتهاوت جيوش الفرس والروم تحت أقدامهم .

والآن بعد أن أوضحنا براءة الإسلام من تهمة انتشاره بالقوة ، وأوضحنا أن العامل الاقتصادى لم يكن هدف المسلمين وسبب انتصارهم ، وأوضحنا السبب فى الحروب التى قام بها الرسول وأصحابه من بعده ، نخطو خطوة

جديدة لنقدم دراسة عن الحروب التى تمت فى عهد الرسول . ثم نتبعها فيما بعد — عند الكلام عن الخلفاء الراشدين — بالحديث عن الحروب التى وقعت ضد الفرس والروم .

الغزوات والسرايا

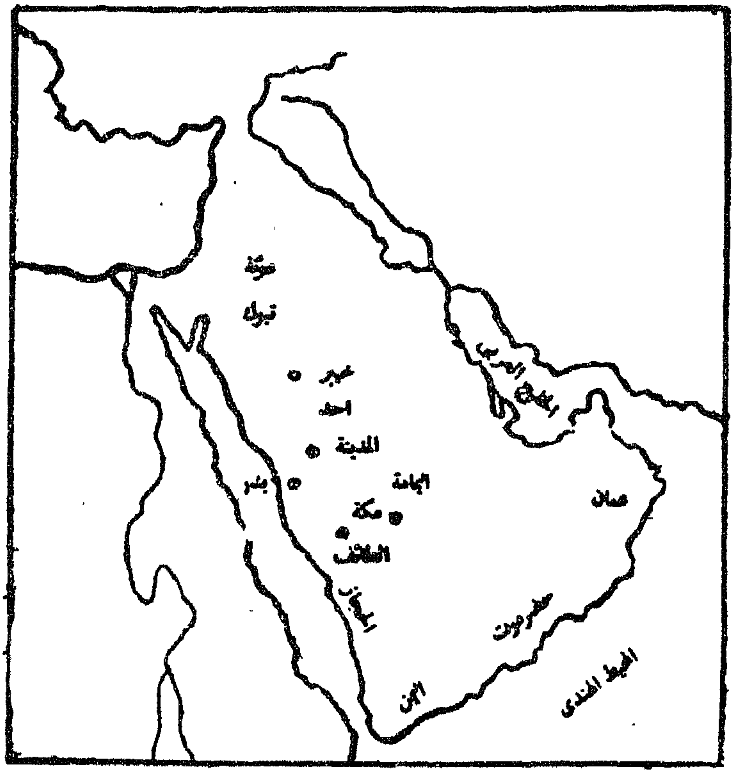
تطلق الغزوة على الجيش الذى قاده الرسول بنفسه لمقابلة عدو ، سواء حصل قتال أو لم يحصل ، أما السرية فتطلق على الجيش الذى وكل الرسول عنه نائباً لرياسته . وهذا اصطلاح غالب ، فقد تطلق كلمة « غزوة » على ما هو فى الحقيقة سرية ، كغزوة مؤتة .

وكتابة تاريخ الغزوات أو تدريسها يختلف باختلاف ثقافة القارىء أو الطالب ، فإذا كانت الكتابة بالمجلات العسكرية أو كان التدريس بالكليات العسكرية فإن الاهتمام يتجه للمواقع الاستراتيجية .والتكتيك الحربى ، والحيل التى يقوم بها كل فريق رجاء النصر ، كما يتجه لدراسة التدريب والأسلحة والإمدادات وغير ذلك ، ولكن كتابة تاريخ الغزوات والسرايا أو تدريسها للمدنيين يختلف عن ذلك ، لأنه يتجه أكثر ما يتجه إلى دراسة نتائج المعركة لا إلى سيرها ، ويُعْنَى بإيضاح ما ترتب على النصر أو الهزيمة من نظم وحضارات أما سير المعركة فليس كبير الخطر بالنسبة لهؤلاء ، وسنُعْنَى فى دراسة الغزوات والسرايا هنا بالاتجاهين جميعاً ، مولين أهمية أكبر إلى ما ترتب على التوسع الإسلامى من سير الإسلام وانتشار حضارته .

ويقول المؤرخون إن الرسول اشترك فى سبع وعشرين غزوة وقاتل فى تسع منها ، وإنه أرسل ما يقرب من ستين سرية ، ولا نزاع أن بعض هذه لم يكن بعيد الخطر ولم يذكر عنه المؤرخون معلومات كافية ، ولذلك سنكتفى هنا بالحديث عن الغزوات والسرايا ذات الأثر فى سير الإسلام وتقدم المسلمين(١) (انظر الخريطة رقم ٣) .

---

(١) أورد ابن القيم معلومات كافية منظمة عن مغازى الرسول وبعوثه . انظر زاد المعاد الجزء الثانى والثالث ، وانظر الغزوات والسرايا فى ابن هشام ٣ : ٣٥٤ وما بعدها .



(خريطة رقم ٣)

مواقع أشهر الغزوات

غزوة بدر الكبرى

زمنها : فى السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة .

مكانها : عند بئر بين مكة والمدينة ، وكانت هذه البئر مملوكة لرجل اسمه بدر فسميت باسمه[1] .

مقدمة :

فى شهر إبريل سنة ١٩٧٧ أتيح لى أن أزور مواقع هذه الغزوة ، وأن أرى بئر بدر وأمس ماءها ، وماؤها لا يزال يندفع ، ولكن المجرى الذى يستقبل هذه المياه بعيد عن النظافة ، ورأيت كذلك المكان الذى دارت فيه المعركة بين الحق والباطل ، والمكان الذى دفن فيه شهداء بدر ، وقرأنا لهم الفاتحة وبعض سور من القرآن الكريم ، كما رأينا المسجد الذى يقال إنه بنى فى مكان العريش الذى كان الرسول يدير منه المعركة .

ولقد تخيلت وأنا هناك أبطال المسلمين الأول وهم يسخرون من قوة أعدائهم ويقابلونهم بقلوب ملؤها الإيمان، فينزلون بهم بعون الله أفدح هزيمة .

ما أحوجنا قادة وشعباً إلى التعرف على أمجاد السابقين لننتصر على شراذم البشر من الصهاينة الذين اغتصبوا الديار وهاجموا الذمار .

سبب غزوة بدر :

إن غزوة بدر كانت نتيجة طبيعية للهجرة إلى المدينة ، فقد أرادت قريش أن تقتل محمداً وهو بمكة ، ولكن محمداً نجا من هذه المؤامرة وهاجر إلى المدينة ، وأصبحت المدينة مركزا إسلاميا حرا طليقا ، وهو بالإضافة إلى تهديده لأوثان قريش ، يهدد تجارتها الصاعدة والهابطة بين مكة والشام ، وإذا نجح المسلمون فى تهديد تجارة قريش ، وحبسوا تجار مكة بحيث لا يصعدون للشمال، فالويل والبوار لهؤلاء التجار ولتجارتهم، ومن

---

(١) ياقوت : معجم البلدان : ١٢٨ .

أجل هذا أصرت قريش على أن تقضى على هذا المركز الجديد الذى يهدد حياتها الدينية والاقتصادية جميعاً ، وراحت تعد العدة لزحف يكتسح من الطريق هؤلاء الذين يريدون أن يربضوا فيه .

هذا من جهة قريش ، وأما من ناحية المسلمين فإن تاريخهم يقرر أنهم احتملوا ألواناً من الضغط والعدوان إبان إقامتهم فى مكة ، فلما اشتد عليهم الطغيان تركوا ديارهم وأموالهم ، وهاجروا بدينهم إلى المدينة ، ولكن قريشاً لاحقتهم ، ودبرت الوسائل للقضاء عليهم بالمدينة حتى لا يهددوا تجارتهم وحتى لا يستمروا فى ذم آلهتهم ، فوجد المسلمون أن القوة هى الطريق الوحيد لحمايتهم بعد أن عجزت كل الطرق السلمية لمنحهم هذه الحماية .

وهكذا يرى الباحث أن الأمر قد أصبح بحيث صارت المعركة هى الشىء الوحيد الذى يحسم الأمر ، وأن هؤلاء وأولئك استقر رأيهم على النزول إلى ميدان القتال ، ليحدد ذلك الميدان نتيجة هذه الخصومة الطويلة .

وحدثت حادثة صغيرة يمكن أن نسميها (القشة التى قصمت ظهر البعير) تلك هى حادثة قافلة قريش التجارية ، التى كانت عائدة بتجارتها من الشام إلى مكة ، وكان يقودها أبو سفيان بن حرب ، فقرر المسلمون أن يتعرضوا طريقها ليثبتوا لقريش قوتهم ، ولينالوا من أموالهم إن أمكن ذلك ، تظير أموال المسلمين التى سلبتها قريش عقب هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة ، إذ كان المشركون قد استولوا على أموال من هاجر من المسلمين ، حتى أن الرسول عند ما عاد لمكة معتمرا فى العام السابع سأله أسامة : فى أى المنازل تنزل ؟ فأجاب : وهل ترك لنا عقيل منزلا ؟ نحن نازلون بوادى كنانة . فقد كان عقيل قد استولى على منزل الرسول وباعه ، كما استولى هو وأخوه طالب — وكانا كافرين — على منازل أبيهما أبى طالب وحرما منها أخويهما علياً وجعفر المسلمين (رواه البخارى) .

وعلى هذا خرج المسلمون لملاقاة القافلة ، ولكن أبا سفيان علم بخروجهم عن طريق عيونه وجواسيسه الذين كانوا يتقدمون القافلة ، فأرسل إلى مكة يطلب من قريش أن تسرع لحماية أموالها التى يريد المسلمون أن يأخذوها ، فخرج جيش قريش ، وكان عدده حوالى الألف فيهم أبطال

قريش وعظماؤها . وفى الوقت نفسه استطاع أبوسفيان أن يغير الطريق الذى قصده المسلمون ، وأن يتجه محاذياً البحر وينجو بتجارته .

الجيشان والمعركة :

أفلتت تجارة قريش كما قلنا، ولكنها فى الحقيقة لم تكن الهدف الأساسى الذى تحرك له الجيشان ، ولو كانت الهدف الحقيق لعادت قريش بعد أن نجت تجارتها ، ولعاد المسلمون بعد أن يئسوا من الاستيلاء على هذه التجارة، وعلى كل حال فقد أفلتت القافلة التجارية ولكنها تركت فى وادى بدر جيشين على أهبة القتال ، وكل من هذين الجيشين تدفعه عوامل عميقة ليعمل جاهدا رجاء أن يقضى على الجيش الآخر ، وكل من هذين الجيشين يدرك ألا طمأنينة له ولا هدوء ، وهناك الجيش الآخر يتربص به ، حتى أصبحت المسأله قضية حياة أوموت . تعال بنا نستعرض بإيجاز الدوافع الحقيقية التى كانت وراء كل من هذين الجيشين .

فمن ناحية قريش أصبحت شكوكهم حقائق مؤلمة لهم، لقد كانوا يخافون هجرة المسلمين ظنا منهم أن المسلمين سيعترضون طريق تجارتهم ويهددون حياتهم الاقتصادية ، فأصبح هذا الشك حقيقة واقعة ، فإن محمداً ما كاد يستقر بأصحابه بالمدينة حتى خرج بهم وبدأ يهدد القوافل التجارية ويحاول الاستيلاء عليها ، ولذلك لم يكن هنالك بدٌّ من أن تحارب قريش المسلمين لتقضى عليهم ولتعيد الأمن لطرقها التجارية .

ولايزال هتاف الأصنام يدوى فى عقول قريش ، ويحثهم على الانتقام لآلهتهم التى أوشك أن ينتصر عليها إله المسلمين .

وكان أبو جهل من القادة فى جيش قريش ، وعداوة أبى جهل للإسلام قديمة وعميقة ، ورثها عن عمه الوليد بن المغيرة صاحب الثروة الضخمة التى تحدث عنها القرآن الكريم فى الآيات : . . . وجعلت له مالاممدوداً ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا) (١) فن الضرورى لأبى جهل أن يحرس

(١) سورة المدثر الآيات ١٢ - ١٤

أفكاره وأفكار عمه ، وماله ومال ذويه ، وأى حراسة أهم من القضاء على العدوان الذى يجثم فى الطريق يهدد التجارة الهابطة والصاعدة ؟

وفى المعسكر الآخر بوادى بدر كان يقف ٣١٤ رجلا بعضهم من الأنصار الذين تتعرض مدينتهم لهجوم غادر ، وأكثرهم من المهاجرين الذين كظموا الغيظ سنين طويلة ، واحتملوا الاعتداء المتصل المتلون بمكة ، ثم هاجروا إلى المدينة تاركين المال والأهل ، وإذا بجيوش قريش تلاحقهم .

هل كان من الممكن أن يرتد هذان الجيشان مع هذه الدوافع دون قتال؟

الجواب . لا ، وهذا ما كان .

بيد أنه فى هذه المواجهة برز شىء جديد ، هو عدم التكافؤ بين الجيشين المتقابلين من ناحية العدد ، ومن ناحية الاقتصاد ، ومن ناحية الحماس المترتب عليهما ، فمن ناحية العدد لم يكن فى مقدور المدينة وحدها أن تقاوم قريشاً وأتباعها ، ومن ناحيه الاقتصاد كان جيش المسلمين مثقلا بتبعات عظام ، فإن المدينة لم يكن من السهل عليها أن تُؤوى المهاجرين كلهم ، وتمدهم بالحاجات الضرورية فى تلك الفترة الوجيزة من هجرتهم حتى مطلع هذه المعركة . وفى الجانب الآخر كان اقتصاد مكة راسخاً قوياً يمدهم بما تحتاجه المعارك من سلاح وطعام ووسائل مختلفة ، ومن ناحية الحماس كانت قريش قوة صاخبة يحسب لها ألف حساب ، تزمجر وتتلهف على النيل من المسلمين ، ولم يكن سهلا على القلة المسلمة أن تواجه هذه الزمجرة وهذا الصخب ، وكانت قريش تحظى بتأييد كافة العرب ضد المسلمين الذين كانوا يُعَدون فى نظر الكثيرين متمردين على الوثنية المألوفة .

وهنا تتدخل يد الله لترجح الكفة التى كانت شائلة ، ولتقوى الجماعة التى أحست الضعف ، وفى سورة الأنفال آيات كريمة تصور حالة المسلمين ، كما تصور قوة الله وهى تدخل المعركة فترجح جانب المسلمين على جانب قريش ، قال تعالى :

— إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة

مردفين . وماجعله الله إلابشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكم ، إذ يغشيكم النعاس أمنة منهم ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام ، إذيوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ،فثبتوا الذين آمنوا ،سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان (١)

— إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم ، إنه عليم بذات الصدور ، وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، وإلى الله ترجع الأمور (٢) .

والناظر فى هذه الآيات يرى المدد المادى الذى قدمه الله لأهل بدرمن المسلمين ، إذ بعث لهم ملائكة تقاتل فى صفوفهم ، كما يدرك المدد المعنوى الذى أمدهم الله به ، فقد أرى رسوله فى منامه أن عدد قريش قليل ،فشجعت هذه الرؤيا المسلمين على خوض المعركة ، وأبعدت التنازع من صفوفهم بعد أن طمأنتهم هذه الرؤيا إلى قلة عدد أعدائهم ، وفى نفس الاتجاه حجب الله الرؤيا جزئياً عند اللقاء فرآهم المسلمون قليلا ، وشجعهم ذلك على خوض المعركة ، ومثل هذا حدث لقريش فقد رأت المسلمين أقل من الحقيقة فاستخفوا بهم ، ثم هناك أيضاً القوة المعنوية التى ثبتت المسلمين وألقت الرعب فى قلوب قريش .

ومن أجل هذا نقرر أن قوة الله كانت فى المعركة وبها تحقق النصر قال تعالى: «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» (٣).

---

(١) سورة الأنفال الآيات ٩ — ١٢

(٢) نفس السورة الآيتان ٤٣ — ٤٤ .

(٣) نفس السورة الآية ١٧ .

عود إلى المعركة :

وتحدثنا الروايات التاريخية عن بعض الجهود التى بذلها حكيم بن حزام وآخرون لمنع الحرب (١) ، ولكن هذه الجهود توقفت بسبب إصرار أبى جهل على الحرب (٢) ، وسرعان مابرز من قريش ثلاثة يعدون من خيرة أبطالها ، وهم ينتسبون إلى محتد رفيع وأرومة عريقة ، وهم فى الوقت نفسه أساطين بيت واحد ، أولئك كانوا : عتبة بن ربيعة وابنه الوليد وأخوه شيبة ، وعتبة هذا جد معاوية بن أبى سفيان لأمه ، فهو أبو هند ، والوليد أخوها ، وشيبة عمها . وانخلع هؤلاء الأبطال من معسكر قريش واتجهوا إلى الفراغ الذى يفصل بين الجيشين وصرخوا فى المعسكر الإسلامى : من يبارز ؟ .

ولم يكن من الممكن أن يحتمل المسلمون هذا التحدى ، وهم الذين هانت عليهم الدنيا . وضحوا بأغلى ما فيها ، بالمال والبنين من أجل العقيدة ، وحينئذ اختار الرسول من معسكره ثلاثة قريبى الصلة به ، وقدمهم للمبارزة ، وكان هؤلاء عمه حمزة وابنى عمه عبيدة بن الحارث وعلى بن أبى طالب ، ودار صراع عنيف بين هؤلاء الأبطال الستة ، وثار الغبار وكثف حتى لم يعد الناس يستطيعون رؤية المتبارزين ، وكان لمعان السيوف يبدو للناس بين الغبار كأنه البرق بين الغمام ، وكانت صيحات الأبطال تشق الفضاء الصامت حولهم بعد أن خيم على الناس الوجوم والحذر ، ثم انجلت الموقعة عن قتل المشركين الثلاثة : قتل علىٌّ قرنه الوليد ، وقتل حمزة قرنه عتبة ، وسقط شيبة بسيوف الثلاثة ، وعاد حمزة وعلى سالمين وأصيب عبيدة بجراح بليغة مات بها (٣) .

وصارت تلك المبارزة عاملا كبيراً يدعو للحرب ، فرؤية الدم أثارت الحمية والحماسة فى الجانبين ، وهزيمة أبطال قريش كانت العار كل العار ، وبنو

---

(١) ابن هشام ٢ : ٦٧ وابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٨٨
(٢) المرجعان السابقان .
(٣) ابن هشام ٢ : ٦٧ .

عبد شمس أصحاب العير والنفير الذين يضرب بهم المثل فى القوة ما كان لهم أن يعودوا فى ذلك الجو من الخزى والهزيمة .

وعلى هذا التقى الجيشان ، ودار صراع مرير ، بين القوة فى جانب قريش ، والعقيدة فى جانب المسلمين ، بين اعتداء المشركين ودفاع المسلمين ، أو قل بين جماعة قريش التى تستطيع أن تعيش إن انهزمت أو انتصرت ، وبين المسلمين الذين كانوا يدركون أنهم إن انهزموا فعنى ذلك فناؤهم والقضاء عليهم وعلى الدين الذى اعتنقوه ، وفى ضوء هذه الدوافع سجل المسلمون انتصاراً باهراً ، ومزقوا شمل عدوهم ، وقتلوا سبعين من خيرة أبطالهم فيهم القائد أبو جهل ، الذى أجهز عليه عبد الله بن مسعود [١] ، وفيهم كذلك أمية بن خلف الذى خر بسيف بلال ، فانتقم بذلك بلال لنفسه من التنكيل الذى عاناه قبل الهجرة من أمية بن خلف سالف الذكر [٢] ، أما المسلمون فسقط منهم أربعة عشر شهيداً ، وأسر من المشركين جملة من عظمائهم فدوا أنفسهم بالمال وغير المال صاغرين ، وكانوا على وشك أن تضرب رقابهم لولا سماحة محمد وشفاعة أبى بكر [٣] ، ولم يقتل من الأسرى إلا اثنان هما النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط ، فقد كانا شديدى السخرية والإيذاء للرسول وللمسلمين فى مكة .

أهمية غزوة بدر :

من الممكن أن نقول إن غزوة بدر هى الغزوة الوحيدة التى انتصر المسلمون فيها انتصاراً حقيقياً ، وقد سقط من المسلمين عدد كبير فى غزوة أحد ، وأحاط بهم الأحزاب فى غزوة الخندق حتى أصابتهم ألوان من العناء ، وانسحبوا فى غزوة مؤتة ، وغير ذلك . ولكن هزائمهم هذه لم تضعف شوكتهم بعد أن رسخت أقدامهم

---

(١) النووى تهذيب الأسماء القسم الأول ج ١ ص ٢٨٨ .

(٢) النووى : تهذيب الأسماء ص ١٣٦ . وفى بعض الروايات أن الذى قتل أمية هو حبيب بن اساف الخزرجى .

(٣) اقرأ موضوع أسرى بدر فى كتاب المجتمع الإسلامى للمؤلف : واقرأه كذلك فى زاد المعاد لابن القيم ٢ : ٦٧ .

بالانتصار الذى أحرزوه فى غزوة بدر ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك أهمية هذه الغزوة تمام الإدراك، ولذلك كان يهتف مناجياً ربه والمعركة تدور : يارب ، إن تهلك هذه الطائفة فلن تعبد فى الأرض[1] .

ومن هنا تتضح أهمية هذه الغزوة، تلك الأهمية البالغة التى كانت أساساً متيناً لمستقبل الإسلام ، ولذلك سماها القرآن الكريم « يوم الفرقان » قال تعالى : (**ويوم الفرقان يوم التقى الجمعان**) [2] ، ويسميها المسلمون « غزوة الفرقان » لأن الله فرق بها بين الحق والباطل، ومن أجل هذا اهتم المسلمون بذكرى هذه الغزوة ولا يزالون يحتفلون بها فى كثير من بلدان العالم الإسلامى حتى اليوم ، وقد سمى كل من حضرها [3] من المسلمين « بدرياً » وكانت هذه التسمية شرفاً لا يعدله شرف ، ولو هزم المسلمون فى هذه الغزوة لكان من المحتمل أن يتغير وجه التاريخ ، كما أشار لذلك حديث الرسول الذى أوردناه آنفا وقد كان عون الله أكبر أسباب النصر الذى أحرزه المسلمون ، وقد سجل القرآن الكريم عون الله فى الآية الكريمة (**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة**) [4] .

ومن أهم آثار غزوة بدر أن اليهود أزعجهم انتصار المسلمين فأخذوا يصغرون من شأن هذا الانتصار حتى لا يغتر به المسلمون ، وقد أدى ذلك إلى إخراج بنى قينقاع كما سبق القول، كما أدرك اليهود أن هزيمة قريش تحتم على اليهود أن يدخلوا الميدان محاربين بعد أن ضعف أملهم فى أن قريشاً ستستطيع

---

(١) ابن هشام : ٦٨ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٤١ .

(٣) شخص واحد لم يحضر غزوة بدر ولكنه عد « بدرياً » وهو طلحة بن عبيد الله فقد سافر قبلها بأمر الرسول فى تجارة إلى الشام ، ولعل ذلك كان وسيلة من الوسائل التى قام بها المسلمون لتخفيف الضائقة المالية التى كان يعانيها المهاجرون بالمدينة ، واختيار طلحة لذلك له مغزى ، فقد كان معروفاً فى مجال التجارة بدقة الحس والمهارة ، وقد عده الرسول من أجل ذلك « بدرياً » وضرب له بأجره (ابن حجر : تهذيب التهذيب وابن عبد البر : الدرر) .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٢٢ .

وحدها القضاء على الإسلام والمسلمين ، فبدءوا يدبّرون المكائد للقضاء على الرسول وعلى الدين الذى جاء به كما ذكرنا آنفاً

من أحداث غزوة بدر

الذين توفاهم الملائكه ظالمى أنفسهم :

هناك فتية دخلوا الاسلام بمكة من بنى أسد وبنى مخزوم وبنى سهم ، فلما هاجر الرسول إلى المدينة حبسهم آباؤهم وأهلوهم بمكة ، وفتنوهم فافتتنوا ، ثم ساروا مع المشركين إلى غزوة بدر ، فأصيبوا جميعا ، ونزل فيهم قوله تعالى « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأؤلئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » (١) .

نهاية أمية بن خلف وابنه على :

قبيل نهاية غزوة بدر أدرك أمية بن خلف هووابنه على أن الدائرة دارت على قريش ، فألقيا نفسيهما أسيرين فى يدى عبد الرحمن بن عوف ، وأطمعاه فى فدية واسعة ، وفرح بهما عبد الرحمن ، ولكن بلالا مؤذن الرسول رآهما فصاح : « رأس الكفر لانجوتُ أن نجا ، وكان أمية يعذب بلالا بمكة أقسى العذاب ليخرجه من الاسلام ، ولكن بلالا احتمل فى سبيل الله ، وجاء الدور لبلال ليثأر لنفسه فى هذه الغزوة ، وتجمع آخرون من المسلمين معه ، وحاول عبدالرحمن أن يحمى أسيريه رغبة فى الفداء ، ولكن بلالا وأعوانه تكاثروا على أمية وابنه ، وقضوا عليهما (٢) .

حمزة فى بدر :

عندما ألقى أمية بن خلف نفسه أسيرا فى يد عبد الرحمن بن عوف ، وقبل أن يقتله بلال ، سأل أمية عبد الرحمن قائلا : من الرجل منكم

---

(١) ابن هشام حـ ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦ والآية من سورة النساء رقم ٩٧
(٢) ابن هشام حـ ، ص ١٩٨ – ١٩٩ .

المعلَّم بريشة نعامة فى صدره ؟ فأجاب عبد الرحمن: هو حمزة بن عبد المطلب قال أمية : ذلك الذى فعل بنا الأفاعيل (١) .

المسلمون قتلوا أقاربهم المشركين فى بدر :

ذكرنا من قبل أن أبا عبيدة بن عبد الله بن الجراح قتل أباه فى غزوة بدر عندما رأى أن أباه يتصدى له ويحاول قتله، ولم يكن ذلك هو المثال الوحيد لقتل الأقارب ، فيروى أن عمر بن الخطاب قتل خاله سعيد بن العاص ، وكان سعيد من سراة قريش وسادتهم ، وفى هؤلاء نزل قوله تعالى « لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حادَّ الله ورسوله ، ولوكانوا آباءهم أو أبناءهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه (٢) .

الرسول يوصى بعدم قتل بعض قريش :

طلب الرسول صلوات الله عليه إلى المسلمين أن يتحاشوا بقدر الإمكان قتلَ أعداد من القرشيين كانوا فى صفوف المشركين يوم بدر ، وكان ضمن هؤلاء بنو هاشم لشدة ما عانوا مع المسلمين وهم يحمون محمداً فى مكة ، ولأن بعضهم كان مسلما يكتم إسلامه بأمر الرسول ليظل عينا للمسلمين، وكان ضمنهم كذلك أولئك الذين بذلوا جهداً لنقض صحيفة المقاطعة حينما كان المسلمون فى الشِّعب يعانون الفاقة والجوع (٣) .

مصائب أبى سفيان وزوجته فى بدر :

كانت مصائب أبى سفيان وزوجته هند فى غزوة بدر مصائب شديدة قاسية ، فقد قتل عتبة بن ربيعة سيد قومه والد هند، كما قتل عمها شيبة وأخوها الوليد ، وقتل حنظلة بن أبى سفيان، وأسر ابنه عمرو، ولذلك لما طُلِب إلى أبى سفيان أن يفتدى ابنه عمراً قال : أيُجمع علىَّ دمى ومالى ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٩ .
(٢) سورة المجادلة الآية ٢٢
(٣) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٢١٠

قتلوا حنظلة وأفدى عمرا ؟ وحدث أن ذهب شيخ مسلم اسمه سعد بن النعمان إلى مكة معتمرا ، فأخذه أبو سفيان وحبسه وقال : لا أطلقه حتى يطلقوا عمرا ، وذهب أهل سعد للرسول وطلبوا منه أن يعطيهم عمرا ليفتدوا به صاحبهم ، فاستجاب لهم الرسول(١) .

نهاية أبي لهب :

كان أبو لهب قد تخلف عن معركة بدر ، وأرسل مكانه العاصى بن هشام ابن المغيرة ، وكان أبو لهب يجلس قلقا ينتظر الأخبار ، فرأى أبا سفيان ابن الحارث عائدا من المعركة ، فقال له أبو لهب : هلمَّ إليَّ ، فعندك لعمرى الخبر ، فجلس إليه أبو سفيان وأحاط الناس بهما ، فقال أبو لهب: يا ابن أخى ، أخبرنى كيف كان أمر الناس ، فأجاب : والله ما هو إلا أن لقينا القوم حتى منحناهم أكتافنا فأخذوا يقتلون فينا ويأسرون كيف شاءوا ، وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقد كان مع محمد رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما تُبقى شيئا ، ولا يقوم لها معارض . . . . فاغتمَّ أبو لهب وقام موليا ذليلا ، وما عاش بعد ذلك إلا سبع ليال ، ثم مات(٢) .

ويقال أنه مات بمرض معد جعلت الناس يتحاشون لمس جثمانه بعد موته ، ويجذبونه بفراشه ويدفعونه بالعصىِّ إلى حفرته .

كعب بن الأشرف يحرض للثأر :

كان كعب بن الأشرف أعظم شعراء بنى النضير وكان يهجو الرسول والمسلمين ويُشبِّب بالحرائر من المسلمات (يتغزَّل فيهن) ، وبعد بدر ذهب إلى مكة ، وهناك أخذ يندب قتلى قريش ويحرض على الأخذ بثأرهم .

وأحس الرسول خطر هذا الرجل فقال : من يكفينيه ؟

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٣ .
(٢) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٢١٠ .

قال محمد بن مسلمة الأنصارى : أنا لذلك يارسول الله .

قال الرسول : افعل إن استطعت .

فقال محمد بن مسلمة : فأذن لى يارسول الله أن أتقوّل ببعض ما لاأعتقد حتى أجد طريقا لثقة الرجل . فأذن له الرسول بذلك ،وبدأ محمد بن مسلمة يعقد صداقة صورية مع عدو الله ، ويظهر له أن الأنصار نالهم الضر بسبب ترحيبهم بمحمد وبالمسلمين . . . . . وخدع عدو الله اليهودى بذلك فشجع محمد بن مسلمة ليقوم بعمل ضد المسلمين بالمدينة فى الوقت الذى لتجه قريش للثأر لقتلاها .

وفى لقاء أعده محمد بن مسلمة ليوهم كعب بن الأشرف بتنظيم خطة العمل بالمدينة ، خلا المكان لمحمد ورفاقه بكعب فتناول محمد ناصيته بقوة وسرعان ما اعتورته سيوف المسلمين وأتت عليه .

غزوة بدر وتعاليم الحروب فى الاسلام :

وضعت سورة الأنفال التى نزلت فى هذه المعركة ، أدق التعاليم الإسلامية للحروب ، ومن هذه التعاليم مايلى :

– الاستعداد للقاء العدو بكل ما ينبغى من أهبة قال تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)(١).

– الوحدة وعدم التنازع والشقاق ، وإذا كانت هذه الصفات لازمة فى كل حال ، فهى عند الحروب ألزم ، قال تعالى (وأطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين)(٢) .

– الثبات فى المعركة حتى النهاية بحيث يكون المسلم كالطود الأشم ، إ

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٤٦ .

ينتصر أو يقتل وهو يصارع ، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير)(١) .

– إذا اشتد بالمسلمين الأمر والمعركة تدور فليذكروا الله ، فإنهم يقوون بذكره ، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)(٢) .

غزوة بدر والتشريع :

ارتبطت ألوان من التشريعات الإسلامية السامية بغزوة بدر ، ونورد هنا من هذه التشريعات بعض النماذج :

أولا – المشورة وأن ينزل الرئيس عن رأيه إلى رأى المرءوسين إذا كان فى ذلك الخير للمسلمين ، فقد حدث فى غزوة بدر أن أراد الرسول أن ينزل بجنوده منزلا ، فسأله الحباب بن المنذر : هل أنزلك الله هذا المنزل أو هو اجتهاد من عندك ؟ فأجاب الرسول بأنه اجتهاد من عنده ، فقال الحباب : أما إذا كان الأمر كذلك فليس هذا بمنزل ، وأشار بمكان آخر هو مكان بدر ، وارتضى المسلمون هذا المكان ، فانتقل له الرسول بجيشه .

ثانياً – تحذير المسلمين من أن يتطلعوا للأهداف المادية فى الحروب ، بل أن يكون هدفهم النصر إعلاء لكلمة الله ، قال تعالى (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين(٣)) .

---

(١) سورة الأنفال الآية السابعة .
(٢) سورة الأنفال الآيتان ١٥ – ١٦ .
(٣) سورة الأنفال الآية ٤٥ .

ثالثاً — التشريع فى توزيع الغنائم وقد ورد ذلك فى قوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)[1] .

تلك هى غزوة بدر وذلك حديثها بإجمال ، إنها معلم من معالم العظمة فى التاريخ الإسلامى ، وموقف بطولى وقفته قوة صغيرة فسحقت قوة عاتية جبارة ، وحمت الذمار بعد أن عجزت العدالة والسياسة عن الحماية ، وسيظل رجالها قدوة للشبان المسلمين الذين يريدون الخلود ولو ضحوا بأنفسهم فى سبيل الدين والوطن ؛ فقد برهنت غزوة بدر على أن إطالة العمر ليست ببضع سنوات يضيفها الإنسان بالجبن ، فذلك هو الموت الحقيقى ، وكم من أحياء هم فى الحقيقه أموات ، وإنما إطالة العمر تكون بتحقيق هدف وخلود ذكر ، فالموت لابد أن يطوى الشجاع والجبان ، والسعيد هو الذى يتغلب عليه بذكر طيب يبقى على مر الزمن ، وستكون قوة الله دائماً مع المسلمين فى المعركة لو اتجه المسلمون لله وعملوا على نصر دينه قال تعالى (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)[2]

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤ .

(٢) سورة محمد الآية السابعة .

غزوة أحـــد

زمنها : في منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة .

مكانها · سفح جبل أحد الذى يقع فى الشمال من المدينة .

سببها : كانت هزيمة قريش فى غزوة بدر كارثة قاسية عليهم ، وقد عقدوا العزم منذ ذلك التاريخ على الأخذ بالثأر ، وقد أفلتت قافلة التجارة التي سببت غزوة بدر ، ولكن المسلمين عرفوا الطريق الذى سلكه أبوسفيان بالقافلة وقرروا أن يعترضوه ، وحاول صفوان بن أمية بن خلف أن يتخذ طريق نجد إلى العراق ، ولكن المسلمين واجهوه أيضاً وغنموا ما فى القافلة من بضائع .

ومن هنا اتجهت كل القوى القرشية لملاقاة المسلمين فى حرب أخرى ورصدوا لهذه الحرب أموالا جمة ، بل رصدوا لها ألسنة شعراء الكفر مثل ابن عزة الجمحى وسافع بن عبد مناف [1] .

وكانت قريش تخاف أن تتكرر هزيمة بدر ، ولذلك نجدهم يستعدون لغزوة أحد استعداداً كبيراً ، فيجمع أبو سفيان حوله ثلاثة آلاف من المقاتلين من قريش ومن عرب تهامة ومن الأحابيش ، والأحابيش هم بنو الحارث وبنو الهون من كنانة وبنو المصطلق من خزاعة ، والكلمة مأخوذة من تحبشوا أى تجمعوا [2] . كما صحب أبو سفيان نساء كبرائهم حتى يكون ذلك حائلا دون فرار الرجال ، كما كانت تقضى بذلك عادة العرب[3].

ولما سمع الرسول بقدوم هذا الجيش استشار أصحابه فيما يفعل ، فأشار الشبان ومن لم يحضر بدراً عليه بالخروج لملاقاة جيش الأعداء ، وأشار

---

(١) ابن هشام ٢ : ١٢٦ وتاريخ الطبرى ١ : ١٨٧

(٢) الروض الآنف ٤ : ٢٣١ .

(٣) ابن هشام ٢ : ١٢٦ – ١٢٧ . وابن القيم ٢ : ٩١

بعض الصحابة أن يتحصن المسلمون بالمدينة وأن يتولوا الدفاع من دورها وحاراتها . وكان الرسول يميل إلى هذا الاتجاه ولكن الاتجاه الأول حظى بتأييد أغلب المسلمين وبخاصة من لم يحضر بدراً رجاء أن ينالوا ما ناله البدريون من شرف ، وعلى هذا خرج الرسول ومعه ألف مقاتل ، ولكن سرعان ما عاد عبد الله بن أبيّ بن سلول ومعه جماعة من المنافقين وكان هؤلاء حوالى ثلث الجيش وكانت حجة عبد الله فى عودته هى أن الرسول عصاه واتبع رأى الولدان الذين أشاروا بمواجهة الأعداء خارج المدينة ، وسارت الثلثان الباقية ولكن فى تثاقل ظاهر سببه هذا الانقسام الذى أحدثه المنافقون (١) وقد ذكرنا ذلك عند الحديث عن « الرسول والمنافقون » .

ووصل الرسول بجيشه إلى جبل أحد ، وأخذ ينظم هذا الجيش تنظيما دقيقاً واعياً ، واهتم اهتماماً كبيراً بظهر المسلمين خوفاً عليهم من خالد بن الوليد أن يلتف ومعه فرسان قريش الذين كانوا تحت إمرته فيضرب المسلمين من الخلف ، ولذلك اختار الرسول عدداً من خيرة الرماة ، وأمّر عليهم عبد الله ابن جبير ، وأوقفهم لحماية ظهر المسلمين من خالد بن الوليد وأتباعه ، وأوصى الرسول عبد الله بقوله : انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك ، لا نؤتين من قبلك (٢) .

المعركة :

وبدأت المعركة بالمبارزة كالعادة ، فخرج من قريش طلحة بن أبى طلحة فبرز له علىّ فقتله ، فتبعه أخوه عثمان فصرعه حمزة ، فخرج أخوهما أسعد فقتله على ، فتقدم الأخ الرابع مسافع فقتله عاصم بن ثابت ، ثم بدأت المعركة الشاملة وأظهر المسلمون فى مطلعها بطولة رائعة ، وزحزحوا قريشا عن أمكنتها ، وحاول خالد بن الوليد أن يلتف حول المسلمين ولكن المسلمين ردوه (٣) .

وظهرت طلائع النصر ، وتراجعت قوات قريش ، وبدأ المسلمون

---

(١) ابن هشام ٢ : ١٢٧ — ١٢٨ .
(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ١٩٢ .
(٣) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٩٣ .

يجمعون بعض الغنائم من الضحايا أو الفارين الذين يلقون متاعهم ويولون الأدبار ، ولكن النصر لم يكن قد كمل ، وأخطأ الرماة فأخلوا أمكنتهم ظناً منهم أن المعركة قد انتهت ، وحرصاً منهم على أن يسهموا في إيقاع الهزيمة بأعدائهم ، وعلى أن يأخذوا نصيبهم من الأسلاب [١] ، إذ كانت الأسلاب التي يجمعها الجندي في ذلك الوقت هي أهم مورد له ، وكانت كثرتها دليل بطولة المقاتل وخوضه المعمعة بنجاح ، أما الذي لا يحصل منها على نصيب كبير فكان يعد متخاذلا لم يخض غمارها ولم يندمج في نارها .

وقد أعطى خطأ الرماة فرصة لخالد بن الوليد الذي كان مختبئاً يترقب أن يخلو الطريق إليه ليدور ويضرب المسلمين من الخلف . فلما أخلى الرماة أماكنهم نفّذ خالد تدبيره ، وكانت هذه المفاجأة بعيدة الأثر في صفوف المسلمين ، فاضطربوا واختلط عليهم الأمر ، وعمهم الذعر حتى ضرب بعضهم بعضاً [٢] .

وأصيب الرسول بجراح في وجنته وشُج في رأسه ، وكسرت رباعيته ، وسقط في إحدى الحفر وقد خضبته الدماء [٣] . وصاح صائح قريش إن محمداً قد قتل ، ولعل المشركين صدّقوا ذلك فاكتفوا بهذا وأوقفوا القتال ، وقد حاول كعب بن مالك الأنصاري أن يعلن أن محمداً لم يمت ، ولكن الرسول أسكته خوفاً من أن تستمر المعركة فتزيد الضحايا من المسلمين [٤] .

وقد قتل في هذه المعركة سبعون رجلا من المسلمين فيهم البطل حمزة عم النبي ، وقد مثّلت هند بنت عتبة (الذي قتله حمزة يوم بدر) وزوجة أبي سفيان ، بجثة حمزة وشقت بطنه وأخرجت كبده ، وحاولت أكلها [٥] . ولذلك يقال لمعاوية : ابن آكلة الأكباد [٦]. وقاتل حمزة غلام

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٩٧ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٩٣ .

(٣) تاريخ الطبري ٢ : ٢٩٨ وابن هشام ٢ : ١٣٦ .

(٤) ابن هشام ٢ : ١٣٦ — ١٣٧ وابن القيم ٢ : ٩٤

(٥) ابن هشام ٢ : ١٣٦ .

(٦) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ص ٩١ .

حبشي اسمه « وحشي » كان يجيد قذف النبال ، وقد أغراه بقتل حمزه سيده جبير ابن مطعم ، وقال له : إن قتلت حمزة بعمي طعيمة بن عدى فأنت حر ، فخرج وحشي وأخذ يتربص من حمزة فرصة حتى لاحت له ؛ فأطلق نباله خلسة ، فخر حمزة صريعاً ، وقد أسلم وحشي بعد ذلك واشترك فى حرب المتنبئين ، ويروى أنه قتل مسيلمة الكذاب ، ولذلك كان يقول : قتلت شر الناس وقتلت خير الناس بعد الرسول[1] .

القرآن الكريم وغزوة أحد :

لقد صورت سورة آل عمران غزوة أحد أدق تصوير ، قال تعالى فى هذه السورة « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين[2] . . . .

وقال تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذ فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم[3] »

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٢٧ و ١٣٢

(٢) سورة آل عمران : الآيات ١٣٩ إلى ١٤٤

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٢ - ١٥٣ .

ونورد هنا تعليقات وشروحاً سريعة لهذه الآيات :

١ — حقق الله لكم النصر أول الأمر فى أحد كما وعدكم ، فأعملتم فى أعدائكم القتل والضرب « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم (تقتلونهم) بإذنه » ، ولكنكم بعد ذلك دب فيكم الفشل والنزاع وعصيتم أمر القائد الأعلى ، وظهر منكم من يسعون للمال وللدنيا ، فحقت عليكم الهزيمة للابتلاء والاختبار أولا وحتى لا تعودوا لذلك مرة أخرى .

٢ — وكان ثبات الرسول عملا عظيما فقد وقف كالطود الشامخ يدعوكم للعودة للنضال « إذ تصعدون ولا تلون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم » .

٣ — ولا تكن هزيمتكم سبب ضعف واستكانة فإنكم الأعلون وكفتكم فى النهاية هى الراجحة ما دمتم متمسكين بإيمانكم « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

٤ — الحرب هكذا يوم لك ويوم عليك . فإذا كنتم قد أصابكم قتل أو جراح فى الأجسام ، وترك هذا فى النفوس جراحاً فقد حدث مثل ذلك لأعدائكم من قبل ، فهذه طبيعة الحرب « إن يمسسكم قرح ..... » .

٥ — هذه الهزيمة الوقتية ذات فائدة لأنها تنقى وتطهر جماعة المؤمنين من ضعاف القلوب ومن المترددين « وليمحص الله الذين آمنوا ... » .

٦ — إن الثواب بقدر المشقة والصبر على الشدائد والكوارث من أهم عوامل دخول الجنة .

٧ — ولقد كنتم تمنون الموت فى سبيل الله ، فها هو وقع لأهليكم أمامكم فعليكم أن ترضوا بما حدث .

٨ — محمد رسول كرسل الله السابقين وسيموت كما ماتوا ، فلا يكن موته سبب اضطراب أو ارتداد .

٩ — الموت آت لا محالة ، والاستشهاد أشرف أنواع الموت .

١٠ — لا يضعفنكم ما أصابكم يوم أحد فسنقذف الخوف والرعب فى قلوب أعدائكم المشركين ليتحقق لكم ألوان جديدة من النصر .

غزوة حمراء الاسد

تعتبر غزوة حمراء الأسد جزءا من غزوة أحد ، فالرسول أراد بها أن يوقف نتائج غزوة أحد عند الحد الذى وقع يوم الغزوة ، وكان يوم السبت منتصف شوال ، فاتجه فى اليوم التالى (يوم الأحد السادس عشر من شوال) لما سمى غزوة حمراء الأسد ليضعف حماسة قريش إلى العودة لاستئصال المسلمين بعد هزيمتهم فى أحد ، وكان هذا التصرف من الرسول دليل عبقرية عسكرية هائلة ، وتقديراً للأمور من مختلف نواحيها .

وكان الرسول عقب غزوة أحد يتوقع غدرا من قريش ، ولم ينتظر الرسول ليرى مظاهر هذا الغدر ، بل احتاط حيطة رائعة ، فنراه يطلب أن يؤذن مؤذنه فى الناس أن هلموا لطلب العدو ، وأضاف الرسول أنه لن يخرج معنا أحد لم يحضر معنا معركة الأمس وحينئذ جاء جابر بن عبد الله ليقول له : يارسول الله إن أبى كان قد خلفنى على أخواتى السبع ، وآثر نفسه بالجهاد معك أمس وسقط فى المعركة . فأذن لى أن ألتحق بجيشك اليوم فإنى لم أتخلف أمس إلا لهذا العذر ، فأذن له الرسول بذلك وخرج الرسول وصحبه إلى حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة واستعمل على المدينه ابن أم مكتوم .

وعلى الطرف الآخر يُرْوَى أن أبا سفيان بن حرب ومن معه من قريش أجمعوا أن يعودوا من الطريق للقضاء على المسلمين ، وكانوا يقولون قتلنا أشرفهم وقادتهم ، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ إن هذا خطأ كبير ، وعلينا أن نعود إليهم لنأتى على بقيتهم ولنفرغ منهم .

وبينما كان أبو سفيان يأخذ أهبته للعودة إلى المدينة مر به معبد بن أبى معبد الخزاعى ، ويقول ابن هشام إن خذاعة مسلمهم ومشركهم كانت مكمن سر الرسول صلوات الله عليه ، وموضع تقديره وكان معبد يومئذ مشركاً فقال للرسول عقب هزيمة أحد : يامحمد أما والله لقد عزَّ علينا ما أصابك ولوددنا أن الله نصرك عليهم ، وسار معبد فقابل أباسفيان بن حرب

بالروحاء ، ورآه وهو يستعد للعودة إلى المدينة ، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال له : ما وراءك يامعبد ؟ قال معبد : محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرّقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه فى يومكم ؛ وندموا على ما صنعوا ،وفيهم من الحنق عليكم شيء لم يعرف مثله ، قال أبو سفيان : ويحك يامعبد ما تقول ؟ لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال معبد: إنى أنهاك عن ذلك ، وقد أردت لكم السلامة .

وبقى الرسول فى حمراء الأسد ثلاثة أيام هى يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة بعد أن تأكد له أن قريشاً تنافرت إلى مكة ، وفى عودته ألقى المسلمون القبض على الشاعر الخائن « أبو عزة الجمحى » الذى أكثر الهجاء ضد المسلمين وقد ذكرنا أنه كان ضمن أسرى بدر ، وأن الرسول منّ عليه على أن يكف عن هجاء المسلمين ، وتعهد أبو عزة بذلك ولكنه حنث فى وعده ، وصاح يؤلب العرب على الثأر لقتلى بدر فلما أسره المسلمون بعد حمراء الأسد عاد يقول للرسول : يارسول الله أقلنى ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : والله لا تمسح عارضيك بمكة وتقول خدعت محمداً مرتين : اضرب عنقه يازبير . فضرب عنقه[١] .

وهكذا استطاع الرسول بموهبته أن يُرهب العدو ويفت فى عضدهم ويوهمهم أن بالمسلمين قوة ، وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم ، وفى غزوة حمراء الأسد نزلت الآية الكريمة « الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم[٢] » .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٥ ص ٤٤

(٢) سورة آل عمران الآيات ١٧٢ – ١٧٤

الهزيمة التي أخافت المنتصر :

ولنعد إلى غزوة أحد لنقرر أن هزيمة المسلمين في هذه الغزوة أبرزت مجموعة من صفات المجد التي يتحلى بها المسلمون ، فمع الهزيمة برزت أنبل الصفات من ثبات وتضحية وصمود وعزيمة وإيمان وبطولة وسواها من صفات الشرف ، فكانت هزيمة لاانهيار فيها ولا استسلام ، هزيمة يطيب لي أن أصفها بعد طول قراءة وتريث أنها أخافت المنتصر ، وجعلته يدرك أن الحصول على الانتصار على المسلمين ليس أمراً هيناً ، وأنه إن حدث مرة لسبب أو لآخر فليس من السهل أن يتكرر حدوثه .

ويمكننا أن نقول إنه بسبب انتصار المسلمين في غزوة بدر وبسبب موقفهم المشرف أو قل هزيمتهم المشرقة في غزوة أحد قررت قريش أن تكف عن حرب المسلمين وإن كانت لم تعلن هذا القرار ، والباحث في ثنايا التاريخ يجد الهدوء والنكوص والتردد تحل محل ما كانت تتصف به قريش من حماسة وعدوانية ضد المسلمين ، حتى أن قريشاً عندما هاجمت المسلمين بعد هذا في غزوة الأحزاب لم تكن وحدها ولم تكن هي مدبرة الهجوم ، بل إن اليهود هم الذين دبروه وجمعوا له جموع الأحزاب ومن بينهم قريش على ما سيظهر عند الحديث عن غزوة الأحزاب ، وكانت قريش أسرع المنسحبين في غزوة الأحزاب ، كما سنرى ، ويروى عن الرسول أنه قال عقب انسحابهم : لن تغزوكم قريش بعد عامكم . وبعد غزوة الأحزاب لجأت قريش إلى الصلح عام الحديبية ، وكانت قد وهنت عظامها ، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله : (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً[1]) .

ولنبرز فيما يلي بعض جوانب المجد التي أبرزها المسلمون في غزوة أحد .

وأول من نتحدث عنه في غزوة أحد هو محمد صلى الله عليه وسلم الذي اتجهت ضده كل قوة المشركين ، وجعلت القضاء عليه هدفها الأسمى ،

(١) سورة الفتح الآية ٢٢ .

ولكنه وقف كالطود الأشم لا يزعزع ، ولقد أدركه أبي بن خلف الجمحي وقد أخذ منه الإعياء مأخذه ، فقال أبي : أين محمد لأقتله ؟ فأراد بعض المسلمين أن يتصدى له ولكن الرسول قال لهم اتركوه ، وتناول الحربة من الحارث بن الصمة الأنصاري ثم طعنه بها في عنقه فكـّر أبي منهزماً وهو يصرخ قتلني محمد ، ففحص المشركين جراحه وقالوا له : ما بك من بأس فجراحك ليست عميقة الغور . فقال : كذبتم ، والله لو بصق على لقتلني ، وصدق حدس عدو الله ، فمات من جراحه في مرجعه إلى مكة ، وقدسبق أن أوردنا هذه الحادثة عندالكلام عند تربية الرسول للقوةالعسكرية.

وعندما تجمعت قوى الشر كلها ضد الرسول ، وقف سبعة من الأنصار يذودون عنه وصارعوا صراعاً مريراً حتى قتلوا جميعاً دونه وكان آخرهم عمارة بن يزيد بن السكن ، ووقف أبو دجانة متخذاً من ظهره تـُرْساً يقي به الرسول ، فأخذ النبل يقع فيه وهولايتحرك ، وصارع عبد الرحمن بن عوف صراعاً طويلا وانهالت عليه الضربات دون أن يتراجع ، ولما انتهت المعركة وجدوا به عشرين جراحاً بعضها في رجله سببت له العرج إلى أن مات ، وأشيع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد مات ، فذهب أنس بن النضرإلى جماعة من الصحابة ورأى فيهم عمق الحزن فقال لهم مايحزنكم ؟قالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم.فقال لهم : وما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ونزل المعركة فصارع صراعاً طويلا عنيداً حتى قتل . وقد وجد المسلمون بجسمه أكثر من سبعين جرحاً بين ضربة وطعنة ورمية ، ولم يميزه أحد من كثرة ما به من دماء وجراح إلا أخته عرفته ببسمة كانت في بنانه .

ولنتحول إلى مثل آخر من أمثلة الصراع المجيدة التي برزت في غزوة أحد ، ذلك هو عمرو بن ثابت الذي كان يلقب « الأصيرم » ، وكان عمرو يأبى الإسلام فلما كان يوم أحد قذف الله بالإسلام في قلبه فأسلم ، وأخذ سيفه ولحق بالنبي وقاتل قتالا عنيفاً ، ثم سقط بين الجرحى ، ولما انجلت الحرب طاف الناس يلتمسون قتلاهم ، فوجدوا الأصيرم وبه رمق ، فدهشوا وتساءلوا

ما جاء بهذا الرجل ؟ لقد تركناه وهو منكر لهذا الأمر ، ثم سألوه ما الذى جاء بك إلى هذا المشهد ؟ أحدب على قومك أم رغبة فى الإسلام ؟ فقال : بل رغبة فى الإسلام آمنت بالله وبرسوله ، ثم لحقت بالرسول أقاتل معه فى سبيل الله حتى أصابنى ماترون . وسرعان ما مات متأثراً بجراحه ، وقد ذكره القوم للرسول فشهد له بالجنة ، فكان يقال رجل دخل الجنة من أول يوم ولم يصل قط (١) .

وفى غزوة أحد قاتلت أم عمارة الانصارية ؛ وهى نسيبة بنت كعب قتالا شديداً ، ودافعت عن الرسول دفاعاً يصوره قوله عليه السلام : ما التفت يميناً أو شمالا إلا رأيت أم عمارة تقاتل دونى . وقد ضربت عمرو بن قمئة بالسيف ضربات قوية : فوقاه درعان كانتا عليه ، وضربها عمرو بالسيف فجرحها جرحاً عظيما فى عاتقها ، وكان معها فى هذه الغزوة زوجها زيد بن عاصم ، وولداها حبيب وعبد الله (٢) وقد رأى النبى عليه السلام أحد المشركين وهو يضرب ابنها ضربة قاتلة . فناداها الرسول وقال لها : هذا ضارب ابنك . فسارعت نحوه وضربته فى ساقه فسقط على الأرض . ثم سارعت فأجهزت عليـــه .

ومما أصاب الرسول صلوات الله عليه ، فى هذه الغزوة أن نشبت حلقتان من حلق المغفر فى وجهه ، فعض عليهما أبو عبيدة بن الجراح لينتزعهما ، ولم يتم له ذلك إلا وقد سقطت ثنيتاه من فرط الجهد ، وكان أبو عبيدة يفخر بالهتم الذى حدث له وهو يزيل الأسى عن الرسول .

ولنأت بعد ذلك إلى دور طلحة بن عبيد الله فى هذه الغزوة القاسية ، ويقرر التاريخ أن طلحة كان من الأربعة الذين برزوا فى هذه الغزوة وأبلوا فيها أحسن البلاء وهم على وحمزة وأبو دجانة وطلحة ، ويبدو أن طلحة جاهد فيها جهاداً جعله فى مكان يسبق منافسيه فى الفضل ، فقد كان أبو بكر يقول

---

(١) ابن عبد البر : الدرر فى اختصار المغازى والسير ص ١٦٠ - ١٦١ .
(٢) ابن عبد البر : المرجع السابق : ص ١٥٨ .

عندما تذكر أحد (ذاك يوم كله لطلحة) وبالإضافة في جهده حين دوران المعركة نجده بعد أن سقط الأنصار السبعة الذين كانوا يدافعون عن الرسول يتصدى وحده للدفاع ،ويغطى الرسول بجسمه ويتلقى عنه الضربات ، وفى نفس الوقت يتلمس الوسيلة ليرمى المهاجمين ، وقد أصاب الشلل يده من كثرة ما نزل بها من ضربات ، وعاش بيد شلاء بقية عمره تذكره بالمجد الذى ناله وهو يدافع عن الإسلام وعن نبى الإسلام ، وقد عرض طلحة نفسه بذلك للموت أو لما هو أشد من الموت ، حتى كان الرسول يدهش لأن طلحة لم يمت مع تحديه للموت ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول عنه ، مَنْ أحبَّ أن ينظر إلى شهيد يمشى على الأرض فلينظر إلى طلحة . ولما سقط صلى الله عليه وسلم فى الحفرة التى حفرها أبو عامر الراهب ، ألقى طلحة بنفسه فى الحفرة وانتزع منها الرسول وأراد الرسول أن يصعد صخرة ولكن قواه لم تساعده فجعل طلحة من جسمه سلماً إذ انحنى للرسول فلما صعد الرسول على ظهره ارتفع بجسمه حتى مكَّن الرسول من الصعود إلى الصخرة .

وفقدت امرأة من بنى دينار فى غزوة أحد زوجها وأخاها وأباها ، فلما عرفت ذلك سألت : مافعل رسول الله ؟ قالوا لها : هو بخير . فقالت كل مصيبة تخطئه صغيره [1] .

وهكذا كان لكثير من المسلمين فى غزوة أحد أدوار جديرة بأن ينتفع بها الأبطال الباحثون عن الخلود ، وهكذا كانت هزيمة مشرفة ؛ أبرزت المنهزم فى أرقى حالات الكفاح والصراع والتضحية والثبات ، وأثبتت للمنتصر قوة خصمه حتى تردد فيما بعد أن يشن عليه الهجوم أو ينازله فى معركة .

ويتجه بعض الباحثين إلى اعتبار غزوة أحد جراحا كما وصفها القرآن الكريم وليست هزيمة ؛ فالهزيمة لاترتبط بعدد القتلى ، وإنما تتحقق بالفرار ، أو الاستسلام ، أو فقدان أرض ، وذلك لم يحصل من المسلمين .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٣ .

بعد المعركة :

رأينا المسلمين وقد انتصروا انتصاراً باهراً فى غزوة بدر ، وقد انتزعوا انتصارهم بالصراع الرائع وبجدارة فائقة ، وسخر اليهود من انتصار المسلمين فى بدر كما رأينا من قبل ، وظنت قريش أن هذا الانتصار مصادفة لن تتكرر ، ولذلك كانت غزوة أحد فى منتهى الأهمية ، وهزم المسلمون فيها تلك الهزيمة المشرفة التى وصفناها ، فلم تعط هذه الغزوة لقريش ولا لليهود النتيجة التى ترقبوها وهى القضاء على المسلمين أو إضعافهم ، وقد تركت هذه الغزوة أعداء المسلمين وهم فى تردد ظاهر واضطراب واضح ، وكان على المسلمين فى نفس الوقت أن ينتصروا على آثار الهزيمة ، وأن يستعيدوا بسرعة قوتهم ومكانتهم ، وأصبح واضحاً أن قريش وحدها لن تستطيع أن تقضى على المسلمين ، بل أصبح واضحاً أن قريشا لن تمسك بزمام المبادرة لحرب ضد المسلمين .

مزيد من علاج آثار أحد :

عملان كبيران قام بهما الرسول لاسترداد الزمام بعد غزوة أحد ، أما العمل الأول فهو أن الرسول عليه السلام أرسل بعد شهرين من غزوة أحد سرية إلى بنى أسد الذين كانوا قد اعتزموا مهاجمة يثرب تقرباً إلى قريش وقد أنزلت هذه السرية ببنى أسد هزيمة ساحقة .

أما العمل الثانى فهو موقف الرسول من بنى النضير فى العام الرابع من الهجرة ، ذلك الموقف الذى قلم من أظفار اليهود ، وأعاد للمسلمين كثيراً من الثقة فى قوتهم ، كما منحهم رصيداً من المال ، وبهذين العملين استعاد المسلمون زمام الانتصار فى معاركهم ضد أعدائهم .

وقد أصبح واضحاً أن عدوا جديداً لابد أن يتلقى زمام المبادرة ضد المسلمين ، وقد التقط يهود بنى النضير هذا الزمام بعد أن طردهم المسلمين من المدينة ، فأخذ هؤلاء يجمعون الجموع لحرب المسلمين ، وفى هذا الجو القلق جاءت غزوة الأحزاب .

غزوة الأحزاب أو الخندق

زمنها ، شوال من السنة الخامسة للهجرة .

مكانها : حول المدينة وبخاصة من الشمال .

سببها :

غزوة الأحزاب معروفة من اسمها ؛ إنها تجمعات من هنا ومن هناك تقصد القضاء على قوة الإسلام والمسلمين . وكان يهود خيبر وبخاصة بنو النضير الذين طردوا من المدينة هم الذين جمعوا هـذه الجموع وحزبوا الأحزاب على رسول الله ، يروى ابن هشام(١) أنهم خرجوا حتى قدموا مكة على قريش فدعوهم إلى حرب محمد وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . . . . . . ثم خرج هؤلاء اليهود إلى غطفان وبنى مرة وأشجع وأثاروهم كذلك .

وكانت قريش تدرك أن هذه الغزوة ستكون آخر محاولة جدية بين مكة والمدينة بعدأن طال النضال عدة سنين ، ولذلك استجاب أبوسفيان لدعوة اليهود وحشد لهذه الغزوة كل قواه ، وعمل لها كل حيلة رجاء أن تنجح .

وتجمعت قوى الأحزاب فى جيش هائل ؛ لعل الجزيرة العربية لم تشهده من قبل ؛ إذ كان عدده يربى على عشرة آلاف مقاتل(٢) .

واتخذ المسلمون فى هذه الموقعة موقف الدفاع ، إذ أشار سلمان الفارسى على الرسول أن يحفر خندقاً عميقاً واسعاً شمال المدينـة ويلتف حولها من الغرب ، إذ كانت الجهات الأخرى محصنة بالجبال والنخيل ، كما أشار بأن تشبك أبنية المدينة وتسد مسالكها حتى تصبح حصنا واحداً ، وأن يخرج

(١) ابن هشام ٢ : ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٩ .

الرجال ليحموا المدينة خلف الخندق . وقبل الرسول رأى سلمان واشتغل بنفسه فى حفر الخندق مع المسلمين وتمت التحصينات ، ومن الممكن أن نفهم أن المسلمين اتخذوا هذا الرأى عوداً إلى الفكرة التى عرضت قبيل غزوة أحد بأن يبقى المسلمون فى المدينة ويكون الدفاع من الداخل ، وقد هُزِم هذا الرأى فى غزوة أحد، ولكن هزيمة المسلمين فى أحد رجّحت هذا الرأى عند تجمعات الأحزاب ووضع المسلمون التراب الناتج عن حفر الخندق فى ناحية المدينة ليساعد تراكم التراب فى حماية المسلمين وليستتر به المسلمون الذين وقفوا خلف الخندق يدافعون عنه .

ولما وصلت جموع قريش وحلفاؤها وجدوا الخندق يحول بينهم وبين الالتقاء بالمسلمين ووجدوا جيش المسلمين خلف الخندق لحمايته ، فعسكر الجيشان متقابلين ، وتراميا بالنبال والسهام أياماً دون نتيجة تذكر ، وكان جيش المسلمين حوالى ثلاثة آلاف مقاتل ، وقد حاول أفراد من جيش المشركين أن يقوموا بمجازفة عبر الخندق ، ولكن المسلمين كانوا يحرسونه بقوة وإصرار ، وقد لقى بطل قرشى اسمه عمرو حتفه على يد على بن أبى طالب حينما قام بذلك ، وعبره أيضاً عكرمة بن أبى جهل فتصدى له علىّ وضيق عليه الخناق فلم يجد عكرمة بداً من الرجوع والفرار[1] ، وضرب الزبير بن العوام يوم الخندق عثمان بن عبد الله بن المغيرة ضربة هشمته ووصلت إلى سرج الفرس ، فقيل للزبير . ما أحدّ سيفك ، فغضب وقال : إن العمل لليد لا للسيف[2] .

وعند زيارتى للأرض المقدسة زرت بقايا الخندق ، ورأيت مواقع المدافعين وقد بنيت فى أمكنتها مجموعة من المساجد تمتد مع الخندق كما كانت تمتد حصون الدفاع . وتسمى هذه المساجد الآن « مساجد الخندق » وتحيات الموقعة الصامدة الناجحة التى وقفها أسلافنا ضد قوى الشر المعتدية.

ولنعد إلى الأحزاب ، لنقرر أنه عندما طال الحصار وجدّ الخلاف

---

(١) انظر ابن هشام ٢ : ١٩١ – ١٩٢ وابن القيم ٢ : ١١٨ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ص ٢١٢ .

طريقه ليدبّ بينهم . فقد جاءوا معاً ليعملوا السيف فى رقاب المسلمين فحال بينهم الخندق وعسكروا حوله ، وطالت أيامهم ونقصت مؤنهم ، وصدرت أوامر متناقضة ، وكل هـذا أظهر حقيقة هامة هى أن الجيش المهاجم تفككت وحدته وظهر بينه النفور وأعلنت المنافسة ، وكان أبو سفيان يعد نفسه القائد العام ، ولكن أى سلطان لأبى سفيان على طلحة بن خويلد ، وعتيبة بن حصن ، والحارث بن عوف وغيرهم من الأبطال الذين كانوا يقودون قبائلهم للاشتراك فى هذه المعركة ؟

وأوشك الخلاف أن يظهر وبخاصة بين هؤلاء الذين لم تكن لهم مصلحة حقيقية فى هذا القتال ، إذ كان واضحاً أن قريشاً واليهود هما وحدهما الجماعتان اللتان تهتمان كل الاهتمام بالقضاء على الإسلام والمسلمين ، ولما أدرك حيي بن أخطب قرب وقوع الانقسام بين صفوف الأحزاب أسرع إلى كعب بن أسد زعيم بنى قريظة وأغراه بالانضمام إلى الأحزاب وبأن يضرب المسلمين من الخلف ، وحذّره من العاقبة إن تراخى . فتلك آخر فرصة إن أفلت منها المسلمون قويت شوكتهم [١] . فاستجاب كعب ونقض العهد على ما ذكرناه من قبل .

وحينئذ عظم البلاء على المسلمين « إذا جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر [٢] » .

وفى غمرة الآلام والشدة بدأت مظاهر النصر ؛ فقد جاء زعيم من زعماء العرب هو نعيم بن مسعود مسلما ، وأبدى استعداده للقيام بأى عمل يشترك به فى الدفاع عن المدينة ، فطلب منه الرسول أن يخفى إسلامه وقال له : خذّل عنا فإن الحرب خدعة . فذهب نعيم إلى بنى قريظة وقال لهم إن قريشاً لو عادت لسبب من الأسباب إلى مكة لكان جزاء بنى قريظة قاسياً من المسلمين ؛ وأشار عليهم أن يطلبوا رهائن من سادة قريش ليتأكدوا أن

---

(١) ابن هشام ٢ : ١٨٩ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ١٠ .

قريشاً لن تدعهم وحدهم لمواجهة جيش المسلمين ؛ ومضى نعيم أيضاً إلى قريش فذكر لهم أن بنى قريظة اصطلحوا مع المسلمين سراً وأنهم سيطالبون برهائن من قريش ليقدموها إلى محمد . وحذر نعيم قريشاً من مكر اليهود ، وسرعان ما طلب بنو قريظة الرهائن مما أكد لقريش صحة ما قاله نعيم ، فلما رفضت قريش تسليم الرهائن تأكد بنو قريظة من عدم إخلاص قريش[1] ، وهكذا وقع الشقاق بين الأحلاف مما أنذر بالنهاية الفاشلة .

وجاء العون من الله ، ذلك العون العظيم الذى يحكية القرآن الكريم فى قوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا[2] » . وقوله ، « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً[3] » .

وكانت هذه الريح التى أرسلها الله عاتية ،كفأت القدور ،ونزعت الخيام ، وملأت الحلوق والعيون بالرماد ، لقد كانت قوة هائلة مميتة ، ولم يكن فى طاقة الأحزاب أن يحاربوها ، ولم يجدوا وسيلة إلا أن يتنادوا بالرحيل فى خيبة أمل ظاهرة بعد أن استمر الحصار مدة شهر .

وفى صحيح مسلم حديث يرينا نتائج البرد والريح من جهة ؛ ونتائج الوقيعة التى قام بها نعيم بن مسعود بين بنى قريظة والأحزاب من جهة أخرى ، يروى حذيفة بن اليمان أن الرسول صلى الله عليه وسلم استدعاه فى إحدى ليالى الخندق وقال له : ياحذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يفعلون ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا ، قال : فذهبت فدخلت فى القوم والريح وجنود الله عز وجل تفعل بهم ما تفعل ، لا يقر لهم قرار ، ولا تهدأ لهم نار ، فقال أبو سفيان : يامعشر قريش لينظر كل امرىء مَنْ جليسه ، قال حذيفة رضى الله عنه : فأسرعت آخذ بيد الرجل الذى إلى جنبي لأوهمه أنى مع قريش ،

---

(١) ابن هشام ٢ : ١٩٣ وابن القيم ٢ : ١١٨ .
(٢) سورة الأحزاب الآية التاسعة .
(٣) سورة الأحزاب الآية ٢٥ .

فقلت له : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم . ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىَّ أن لا أحدث شيئاً لقتلته بسهم ، قال حذيفة رضى الله عنه : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلى ، فلما انتهى من صلاته أخبرته الخبر ، وسمعتْ غطفان بما فعلت قريش فأتمروا راجعين إلى بلادهم[1] .

أثر هذه الغزوة :

لقد عانى المسلمون فى غزوة الأحزاب ألواناً من العناء والجوع من أثر الحصار الطويل . ولذلك نجد الرسول يغيِّر من خطته الحربية بعد هذه الغزوة ، فلا يكتفى بالدفاع لأن اكتفاءه بالدفاع أوشك أن يقضى على المسلمين ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يريد الهجوم لأنه لم يؤذن له إلا بالدفاع فقط ، ولذلك نجده يعمد إلى ما يسميه العسكريون « الهجوم الدفاعى » أى أن يهجم — مدافعاً — على تكتلات الأعداء التى تستعد للزحف على المسلمين ، وكانت هذه هى خطة المسلمين بعد ذلك فيما قاموا به من حروب .

. . . .

غزوة الأحزاب وبذور المستشفيات فى الإسلام :

حدث فى غزوة الأحزاب حدث ذو بال فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، ذلك هو قيام المستشفيات فى أول صورها فى التاريخ الإسلامى ، ففى مسجد المدينة كانت هناك خيمة مخصصة لجرحى المعركة ، وكانت بالخيمة امرأة اسمها « رفيدة الأنصارية » لها خبرة بالطب ، فكانت تداوى الجرحى

---

(١) صحيح مسلم .

وتحبس نفسها لخدمة المرضى ، ولما أصيب سعد بن معاذ فى هذه المعركة بسهم رماه به رجل قرشي أمر الرسول أن يوضع سعد فى هذه الخيمة لتداويه « رفيدة » من جانب ، وليكون من السهل على الرسول أن يعوده من حين إلى آخر وهو يدير المعركة(١) .

وفى ختام الحديث عن غزوة الخندق نعطى فيما يلى نبذة قصيرة للتعريف بسلمان الفارسى الذى أشار بحفر الخندق :

سلمان الفارسى :

ينسب سلمان إلى بلاد فارس لأنه فارسى الأصل، قيل كان من أصفهان، وقيل من رام هرمز ، وكان ثائراً على عبادة النار وعبادة الأصنام ، وكان يطلب دين الله، فدخل النصرانية ثم لم يرض عن طقوسها وتعقيداتها وتثليثها ، فراح يقرأ ويسمع لعله يصل إلى الحق .

ورحل إلى يثرب قبل الهجرة وتعرف على اليهود وعرف ديانتهم ولم يقبلها ، وهاجر الرسول صلوات الله عليه فاتصل به سلمان سراً وجلس إليه واستمع منه ، ففتح قلبه للإسلام ودخل دين الله وأصبح من مشهورى الصحابة ، وكانت له جلسات خاصة مع الرسول تلقى عنه فيها الكثير من الفكر الدينى ، وتقول عائشة رضى الله عنها فى ذلك : كان لسلمان مجلس من رسول الله ينفرد به فى الليل حتى كان يغلبنا على رسول الله .

ولم يحضر سلمان غزوة بدر ولا غزوة أحد ، وأعلن إسلامه عقب ذلك ، فلما تحزبت الأحزاب للهجوم على يثرب أشار سلمان بحفر الخندق ، وقبل المسلمون مشورته وعملوا فى الحفر وعمل فيه الرسول بنفسه ، وقد نجحت فكرة سلمان نجاحاً عظيما ورد المهاجمون على أعقابهم لم ينالوا من من المسلمين شيئاً ، وكانت مشورة سلمان موضع فخر له ، فقد قال الأنصار سلمان منا لأنه جاء يثرب قبل الهجرة ، وقال المهاجرون سلمان منا

(١) انظر الإصابة (ترجمة سعد ورفيدة) .

لأنه هاجر يطلب الحق كما فعلنا ، وحسم الرسول الخلاف فأعطى سلمان مزيدا من القربى بقوله : سلمان منا أهل البيت [1].

واشترك سلمان بعد ذلك في كل الغزوات ، كما اشترك في كثير من الفتوح .

واشتهر سلمان بالزهد والتقشف ، فكان يتصدق بكل عطائه ، ويقنع بلباس خشن وخبز الشعير ، وكان من أهل الصفة ومن مؤسسي التصوف .

ومات سلمان في أواخر عهد عثمان حوالي سنة ٣٥ هـ .

---

(١) ابن هشام : السيرة جـ ٢ ص ١٣٤ .

غزوة بنى المصطلق

زمنها : شعبان من السنة السادسة :

مكانها : ماء يقال له « المرَيْسيع » على مقربة من مكة .

سببها ، بنو المصطلق هم فرع من خزيمة سموا بنى المصطلق إذكان جدهم رقيق الصوت ، فالمصطلق على وزن مفتعل من الصلق وهو الصوت ، ويروى فى سبب هذه الغزوة أن الرسول تلقى أنباء تفيد أن بنى المصطلق . بعد هزيمة الأحزاب والقضاء على يهود المدينة . تصدوا لأمر المسلمين ، وعملوا على تدبير اغتيال الرسول عليه السلام ، وكان قائدهم الحارث بن أبى ضرار .

ولما سمع الرسول ذلك وتأكد من موقف بنى المصطلق العدائى . أسرع فاستعد لهم ونادى بالخروج إليهم ، وجعل لواء المهاجرين لأبى بكر ولواء الأنصار لسعد بن عبادة ، وزحف المسلمون ونزلوا على ماء قريب من بنى المصطلق يقال له « المريسيع » وأحاطوا ببنى المصطلق ، ففر من جاءوا لمشاركة بنى المصطلق فى هذه المؤامرة ، ووقف بنو المصطلق وحدهم فى مواجهة المسلمين ، وجرى تراشق النبال ، وسرعان ما أحس بنو المصطلق بأنهم لا يستطيعون الوقوف فى وجه المسلمين ، وأن الحرب ستأكلهم ، فاستسلموا . وأُخذوا أسرى هم ونساؤهم وغُنمت أموالهم .

وعلى هذا فالحديث عن غزوة بنى المصطلق حديث قصير ، لأن الحرب لم تكن شديدة ، وكان التسليم سريعاً ، ولكن لهذه الغزوة أهمية عظيمة فى التاريخ ، إذا ارتبط بها حادثان خطيران أولهما الفتنة التى أوشكت أن تحدث بين المهاجرين والأنصار ، تلك التى حاول المنافق عبد الله بن أبى أن ينتهزها فيشعل دعوة الجاهلية ، لتعظم وتأكل صفوف المسلمين ، وثانيهما حادثة الإفك التى حملها الرأس الأسود رأس ابن أبى أيضاً ، وقد تصدى

الرسول للحادث الأول فقضى عليه ، وتصدى القرآن الكريم لتبرئة السيدة الفاضلة زوج الرسول وبنت أبي بكر ، وقد تحدثنا من قبل بشيء من التفصيل عن هذين الحادثين .

ومما يتصل بهذه الغزوة ما سبق أن أوردناه من زواج الرسول من جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، وكيف كان هذا الزواج يمناً وبركة على أسيرات بني المصطلق فأعتقهن المسلمون وهم يهتفون ، كيف نأسر أصهار رسول الله ؟

الحديبية بين الحرب والسلم (*)

مرت شهور بعد غزوة الأحزاب ؛ ودخلت السنة السادسة للهجرة ؛ سنوات ست كانت طويلة على المهاجرين ؛ لم يروا خلالها مَنْ تخلف بمكة من أهليهم ، ولم تكتحل عيونهم بوطنهم ؛ وحرموا زيارة الكعبة التى يحنون إليها ، ويتوجهون من بُعْد للصلاة نحوها ؛ وأحس الرسول بما أحس به باقى المسلمين من شوق لمسقط الرأس ورغبة فى زيارة الكعبة .

والبيت الحرام معظم قبل الإسلام وبعده ؛ وهو معظم عند المسلمين وعند قريش ؛ والأشهر الحرم لا يجوز فيها الحرب ولا القتال ؛ فلماذا لا يقدُم محمد وأصحابه معتمرين ؟ وبأى حق تمنعهم قريش من دخول مكة للزيارة ثم العودة ؟ وليبق العداء بعد ذلك أو فليتوقف ، وكانت هذه الأفكار هى شغل المسلمين الشاغل ، وفى هذه الفترة رأى الرسول رؤيا تفيد أن المسلمين سيدخلون مكة ، وبينما كان المسلمون بالمسجد ذكر الرسول للمسلمين خبر هذه الرؤيا ، فماجت جموعهم طرباً ، وطمعوا فى زيارة سريعة إلى البيت الحرام : وسرعان ما أذن محمد فى أصحابه بالرحيل إلى مكة ؛ ففرحوا واستجابوا وبدءوا رحلتهم فى شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة وكانوا حوالى الألف .

ودعا الرسول بعض العرب من غير المسلمين ليصحبوا المسلمين فى الذهاب للعمرة ؛ حتى يكون فى ذلك إعلان للعرب جميعاً ولقريش بوجه خاص بأن الرحلة لا هدف لها إلا العمرة .

ستقول قريش إن المسلمين جاءوا للقتال ، وأنهم يدّعون الاعتمار ولا يقصدونه ، وإذاً فليبرهن المسلمون لقريش على حسن نيتهم بأن يلبسوا ملابس الإحرام قبل أن يبعدوا عن المدينة ، ويتركوا آلات الحرب إلا

(*) عرفت الحديبية بعدة أسماء مثل صلح الحديبية ، وأمر الحديبية ، وغزوة الحديبية ، ولذلك أسميناها « الحديبية بين السلم والحرب » وذلك تبعاً لطبيعة هذا الموقف .

السيوف فى القرب للحراسة والدفاع طول الطريق ، وساق المسلمون الهدى سبعين بدنة ليكون ذلك تأكيداً لحسن نيتهم .

ولكن كل ذلك لم تستسغه قريش . فإن دخول المسلمين عليهم مدينتهم تحت أى اسم من الأسماء هو انتصار للإسلام وهزيمة للمشركين ، ومع هذا فردٌ معتمرٍ مُحرِم يعتبر عند العرب اعتداء صارخاً . والحرب فى نطاق الحَرَم لاتجوز ، ما الحيلة ؟ هى أن ترد قريش المسلمين قبل أن يقربوا من مكة ، وعلى هذا أرسلت قريش خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل على مجموعة من الفرسان ليصدوا المسلمين عن غايتهم(١) ، ولكن المسلمين تحاشوا طريق خالد وعكرمة(٢) ، واندفعوا فى طريق آخر قادهم إلى الحديبية على بعد بضعة أميال من مكة ، حيث أصبح القتال محظوراً ، وفى هذا المكان بركت « القصواء » ناقة الرسول ، فظن بعض الناس أنها بركت من الجهد والتعب ، ولكن الرسول فسر ذلك بقوله ، حبسها حابس الفيل ، ولم يكن بهذا المكان ماء ، فأعطى الرسول رجلا من الصحابة سهماً من كنانته وأمره أن يغرزه فى بئر من الآبار الجافة هناك ، ففعل الرجل ، وانبثق الماء .

وبدأت فى الجو مشكلة كبرى ، وأخذت الوساطة تلعب دورها للعثور على حل ، فأرسلت قريش بدَيل بن ورقاء فى رجال من خزاعة ليتعرفوا القصد الحقيقى من زحف المسلمين ، وسرعان ما تبين لهؤلاء أن المسلمين جاءوا معتمرين ولا يقصدون أى سوء ، فنقل بديل وأصحابه هذا الرأى لقريش ، ونصحوهم بأن يخلوا بين المسلمين وبين العمرة ، ولكن قريشاً رفضت قبول هذه النصيحة .

ثم أرسلت قريش حليفها الحلَيس بن علقمة سيد الأحابيش لنفس الغرض ، فلما رآه الرسول أطلق الهدى أمامه ، وكان ذلك خير جواب قنع به الحُلَيس وعاد دون أن يقابل الرسول ليؤكد لقريش أن المسلمين ينوون

---

(١) ابن هشام ٢ : ٢٢٦ .

(٢) ابن القيم زاد المعاد ٢ : ١٢٣ .

العمرة لا سواها . وقد أغلظت قريش القول للحليس ورماه بعض القرشيين بالغفلة ، وبأنه — لقلة خبرته بشئون السياسة — انطلت عليه حيلة المسلمين فاكتفى برؤية بعض البُدْن وعاد أدراجه ، ولكن الحليس ثار لذلك . وهدد بأن الحلف الذى بين الأحابيش وقريش لا يتخذ الظلم دعامة له ، وأن التصدى للمعتمرين سيقابل من الأحابيش بالغضب والتحدى ، ولكن قريشاً استرضته واستمهلته لتتأكد من أهداف المسلمين .

ثم أرسلت قريش رجلا عرف بالحكمة وبعد الرأى وهو عروة بن مسعود الثقفى ، وعاد هذا ليصرخ فى قريش : إنى جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى جبروته ، والنجاشى فى أبهته ، وإنى والله ما رأيت ملكاً يطاع فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه . . وإنهم لن يسلموه أبداً ، ونصح قريشاً بأن تدع المسلمين يعتمرون .

ورأى الرسول أن يلتقط زمام المبادرة ، وأن يرسل هو الرسل لتشرح لقريش رأى المسلمين : فأرسل خراش بن أمية الخزاعى رسولا إلى أهل مكة فهموا بقتله ، ولكنه استطاع الفرار بعون بعض الأحابيش الذين دافعوا عنه ومنعوه ، فلما عاد دعا الرسول بعمر ليبعثه فقال عمر : إنى أخافهم على نفسى لما عُرف من عداوتى إياهم ، ولكنى أدلك على رجل هو أعز بمكة منى وأحب لأهلها : عثمان بن عفان . فبعث به الرسول إلى مكة ليفاوض قريشاً ، وعندما دخل عثمان مكة لقيه أبان بن سعيد ، فأدخله فى جواره طيلة بقائه بمكة ، ولما قابل عثمان زعماء قريش شرح لهم هدف المسلمين ، فقالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت فلك ذلك ، فأجاب عثمان : والله ما كنت لأطوف بالبيت ورسول الله والمسلمون ممنوعون من ذلك .

وطالت بمكة غيبة عثمان أكثر مما توقع المسلمون ، وأشيع بين المسلمين أنه قتل [1] فأدرك المسلمون أنه لابد من القتال ، وتمت « بيعة الرضوان »

---

(١) ابن هشام ٢ : ٢٢٩ . وانظر تفسير النسفى جـ٤ ص ١٣٢ والكشاف جـ٣ ص ٤٦٥ .

التي أقسم فيها المسلمون على الحرب حتى الموت أو النصر ، وقد أثنى الله على هؤلاء المتبايعين بقوله « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم مافي قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » (١) وهكذا اتخذ المسلمون السلم وسيلة لتحقيق هدفهم ، فلما لم ينفع السلم اتجهوا للاستعداد للحرب على أعلى مستوى .

ولكن عثمان سرعان ما عاد بعد أن نجح في تهدئة قريش والقضاء على مخاوفهم ، وبعد أن ألان جانبهم نحو المسلمين .

بدأت بعد ذلك مفاوضة ترمى لإيجاد حل لهذه المشكلة ، وقد ظهر واضحاً من الاتصالات والمحادثات أن أهم نقطة تعني بها قريش هي عودة المسلمين هذا العام دون أن يقتحموا مكة على سكانها حفظاً لكرامتهم وخوفاً من أن يعيّرهم العرب بذلك (٢) . ولما وافق الرسول على هذا المبدأ أصبح من السهل أن تبدأ مفاوضة شاملة هدفها وضع حد للعداء بين قريش وبين المسلمين ، ومثّل قريشاً في هذه المفاوضات وفد على رأسه سهيل بن عمرو ، وتم صلح الحديبية بعد أن أحاطت غيوم كثيرة بالموقف ، وبعد أن كانت الحرب قاب قوسين أو أدنى .

شروط صلح الحديبية ومناقشتها :

وأسس هذا الصلح هي :

١ — أن تكون هناك هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات .

٢ — يرد المسلمون من يأتيهم من قريش مسلماً بدون إذن وليه .

٣ — لا ترد قريش من يعود لها من المسلمين .

٤ — من أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه .

---

(١) سورة الفتح الآية ١٨ .

(٢) انظر ابن هشام ٢ : ٢٢٩ وزاد المعاد ٢ : ١٢٥

٥ - ألا تتم عمرة المسلمين هذا العام، بل تؤجل إلى العام القادم، ويدخل المسلمون مكة فى العام القادم بعد أن تخرج منها قريش، وليس مع المسلمين من السلاح إلا السيوف فى القرب، ويبقى المسلمون بمكة ثلاثة أيام بلياليها[١]

نظرة فى هذه الشروط :

لقد كان المسلمون قريبين من مكة، فمنعتهم هذه الشروط من دخولها، ولذلك تغلبت عليهم - فيما أعتقد - الناحية العاطفية فاستاءوا لهذه النتيجة، وعدوا أنفسهم مغلوبين أذلاء، وكانت نفوسهم تغلى بالألم، وكان عمر جريئاً كعادته، ولذلك نجده يترجم ما فى نفسه وما فى نفوس المسلمين من ثورة فى المحاورة التى دارت بينه وبين الرسول والتى ننقل نصها فيما يلى :

عمر : ألست رسول الله ؟

الرسول : بلى .

عمر : أولسنا بالمسلمين ؟

الرسول : بلى :

عمر : أو ليسوا بالمشركين ؟

الرسول : بلى ؟

عمر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

الرسول : إنى عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى [٢] .

على أن الباحث المنصف يدرك أن هذه المعاهدة كانت عظيمة الخير للمسلمين، كبيرة النفع لهم، وكانت انتقالا من العسر إلى اليسر وأن الرسول كان فى منتهى الحكمة عندما قبلها وعقدها، وقد دلت الأحداث التى ظهرت بعد ذلك على هذه النتيجة الطيبة، وفيما يلى إيضاح لما فى هذه المعاهدة من مزايا .

١ - اعترفت قريش فى هذه المعاهدة بكيان المسلمين، فالمعاهدة دائماً

---

(١) انظر هذه الشروط فى ابن هشام : ٢ : ٢٣٠ - ٢٣١ وزاد المعاد ٣ : ٧٦ ، ١٢٥ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ج ٣ ص ١٢٥ .

تكون بين نِدَّين ، ولم يعد محمد وأصحابه ثائرين ، وإنما أصبحوا هيئة لها وجود ولها حقوق .

٢ – أعطت هذه الهدنة فرصة لنشر الدعوة والتفرغ لتعريف الناس بها وعندما مشت الدعوة مرتبطة باستسلام قريش دخلها الناس وحدانا وجماعات ، حتى قال المؤرخون إن من دخلوا الإسلام من تاريخ المعاهدة إلى فتح مكة أى فى أقل من سنتين أكثر ممن دخلوا الإسلام فى جميع السنين التى سبقت ذلك الصلح ، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك الصلح بكلمة « الفتح » فى قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزاً »[1]

وقد نزلت هذه الآيات عقب صلح الحديبية ، ويقول المفسرون إن المقصود بالفتح هو الانتصارات التى تلت هذا الصلح وجعلت خلقاً عظيما يدخلون الإسلام .

وقد طمأنت هذه السورة جماعة المسلمين ووعدتهم بتحقيق ما رآه الرسول فى رؤياه ، قال تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم مالم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً »[2] .

٣ – وفى فترات النضال بين قريش وبين المسلمين لم يترك النضالُ للناس وقتاً للتفكير ، ولذلك نرى أنه عندما تمت الهدنة ، وعندما أخذ الإسلام فى أثناء هذه الهدنة ينتشر ويتنشر ، بدأ كثيرون من أبطال قريش يفكرون فى الإسلام ومبادئه ، فأسرعوا إلى المدينة معلنين إسلامهم ، ومن هؤلاء البطل العظيم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة[3] ، وقد كان ذلك نذيراً باستسلام مكة .

---

(١) سورة الفتح الآيات ١–٣ .

(٢) سورة الفتح الآية ٢٧ .

(٣) النووى : تهذيب الأسماء القسم الأول جـ ١ ص ١٢٠

٤ — أعطت هذه المعاهدة للمسلمين فرصة ليفرغوا لليهود وليتخلصوا منهم بعد أن فرقت هذه المعاهدة بين قريش وبين اليهود ، ولذلك غزا الرسول بعدها خيبر (سنة ٧ هـ) وانتصر كما ذكرنا من قبل ، ويقول بعض المفسرين إن المقصود بالفتح فى الآية السابقة هو فتح خيبر وفدك .

٥ — والباحث المدقق يرى أن دخول المسلمين مكة للعمرة فى العام القادم بعد خروج قريش منها إنما هو مزيد من الانتصار لا يعدله أن يدخلوا مكة والحذر يملأ قلوبهم ، لقد دخلوا مكة آمنين ، وانطلقت جموعهم تهتف بقوة وإيمان : لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وقد رأت قريش من شعاب الجبال حول مكة جموع المسلمين ، وسمعت أصواتهم التى تحمل التكبير والإيمان ، فاهتزت قريش لما رأت ، ووصل هتاف المؤمنين إلى قلوب الكثيرين .

٦ — فى هذا الهدوء الذى أعقب العاصفة خطا التشريع الإسلامى خطوات مباركة ورسم هذا التشريع للمسلمين حياتهم فى مختلف النواحى .

٧ — عدّ بعض المسلمين من الانهزام الواضح أن يلتزموا إعادة من يأتى لهم مسلماً من قريش بدون إذن وليه ، فى حين لا تلتزم قريش برد من يأتى لها من المسلمين ، ورأوا فى هذا الشرط عدم تكافؤ ، ولكن الأحداث برهنت على الخير الوفير فى قبول هذا الشرط ، وقد وضّح الرسول صلى الله عليه وسلم موقفه بقوله « إن من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه فسيجعل الله له فرجا ومخرجاً » وطبيعى أنه لا خير فيمن يرتد عن دينه ويعود لقريش بعد الإسلام . وأما هؤلاء الذين جاءوا من قريش مسلمين وردهم الرسول ، فقد برهنت الأحداث السريعة على أن هؤلاء دافعوا عن أنفسهم وأصبحوا خطراً على قريش نفسها ، لأن الرسول عندما ردهم — وفاء بالعهد — والتأثر ظاهر عليه ، لم يعد هؤلاء إلى مكة وإنما عسكروا فى طريق قوافل قريش عند موضع يقال له « العيص » وأخذوا يعتدون على هذه القوافل اعتداء متصلا ، ووصل عددهم حوالى ثلثمائة ، وكان يتزعمهم

رجل اشتهر اسمه فى هذه الأحداث هو « أبو بصير » ، فاضطرت قريش أن تطلب من الرسول أن يضمهم إليه(١) .

ومع أبى بصير هناك رجل اشتهر أيضا هو « أبو جندل بن سهيل » وكان هذا شديداً على قريش ، قطع طريق تجارتهم الساحلى إلى الشام ، ومن شعره فى ذلك :

أبلغ قريشا عن أبى جندل أنى بذى المروة بالساحل
فى معشر تخفق راياتهم بالبيض فيها والقنا الذابل
ليجعل الله . لهم مخرجاً والحق لايغلب بالباطل

ولكن فى مجال إعادة مَنْ وفد مسلما إلى المدنية حدث شىء لم يكن فى الحسبان ، ذلك أنه وفد إلى المدينة بعض النساء مسلمات ، فقد هاجرت من مكة للمدينة أم كلثوم بنت عقبة بن أبى مُعيط فخرج أخواها عمارة والوليد يطلبان من الرسول ردها عملا بنصوص صلح الحديبية ، لكن الرسول رأى أن هذه النصوص لا تنطبق على النساء ، وكيف تعاد زوجة دخلت الإسلام لترغم على الحياة مع زوج مشرك ؟ وسرعان ما نزلت فى ذلك آية كريمة قطعت كل تردد ، وهى قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلاترجعوهن إلى الكفار ، لاهن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن ، وآتوهم ما أنفقوا ، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن(٢) »

فبينت هذه الآية أن إسلام زوجة وبقاء زوجها على الشرك يقطع عقد الزوجية ، ويصبح من حق المسلمين أن يتزوجوا هذه الزوجة بعد ردّ ماقُدم لها من صداق .

٨ ــ وكان مما أثار المسلمين أن سهيل بن عمرو رفض أن يكتب فى عهد الصلح : محمد رسول الله ، وقال : لوكنا نعترف أنك رسول الله ما خالفناك ،

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ٢٣٣

(٢) سورة الممتحنة الآية العاشرة وانظر سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ١٠٩ .

وقد قبل الرسول أن يحذف الوصف واكتفى باسمه ، ولكن هل غير هذا من الحقيقة شيئاً ! ألم يستمر محمد رسول الله كما كان[١] .

وهكذا كان هذا الصلح فتحاً مبينا كما وصفه القرآن الكريم .

ومما يذكر أن سهيل بن عمرو هذا أسلم يوم فتح مكة وحسن إسلامه وكان من شهداء اليرموك .

ولنعد إلى سورة الفتح ، تلك السورة الكريمة التى نزلت فى مرجع رسول الله من الحديبية ، والتى حكت بعض أحداث هذه الغزوة . وكشفت الكثير من أسرارها ، وقد أتيح لى أن أشرح هذه السورة فى التليفزيون المصرى ضمن ما شرحت من سور ، فتعرفت عن طريق السورة وشرحها على معلومات لم يوردها أكثر المؤرخين ، وفيما يلى لمحات مضيئة نقتبسها من الذكر الحكيم وتفسيره مما يرتبط بحديث الحديبية :

— وأول ما نذكره أن سورة الفتح تتلو فى ترتيب السور بالمصحف سورة محمد (تسمى أيضاً سورة القتال) وبين السورتين فى تاريخ النزول حوالى ثلاث سنوات ، وهى مدة ليست بطويلة ، ومع هذا فسورة القتال طابعها الصراع المرير من أجل الحياة ، ثم تبدلت الأمور فى تلك السنوات الثلاث ، فلما جاءت سورة الفتح اتضح منها أن النعمة والبشر واليسر قد أصبحت طابع الحياة عند المسلمين .

— ونجىء بعد ذلك إلى آيات السورة فنقتبس منها ونعلق عليها ، قال تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً[٢]) وفى تفسير هذه الآية يتجه أكثر المفسرين إلى أن الفتح هو صلح الحديبية الذى كان بعيد النتائج وكان فتح مكة أحد نتائجه .

ويتشعب الفتح الوارد فى الآية — كما يرى المفسرون — إلى فتح فى النفوس وفتح فى الدعوة ، وفتح فى الأرض : فقد كشفت أزمة الحديبية

---

(١) انظر بعض الحكم التى تضمنتها الهدنة فى زاد المعاد جـ ٢ ص ١٣٠ — ١٣٢ .
(٢) سورة الفتح الآية الأولى .

عن موقف المنافقين، وهاجت نفوسهم المريضة ، كما وضّحت صنماء المسلمين واتجاههم إلى بيعة الرضوان وذلك استعداد للتضحية دون حدود، وقد أوضحت آيات السورة اعتذارات المنافقين من الأعراب لأنهم لم يلحقوا بركب الرسول وهو قاصد مكة للعمرة، ومع أنهم كانوا كاذبين فى اعتذارهم فإن نفوسهم بدأت تعرف طريقها إلى الحق والنور، أما نفوس المؤمنين فقد غمرها السرور حين عاهدت الرسول على الصمود مهما كانت النتائج .

وأما الفتح فى الدعوة فيتضح من أن الدعوة الإسلامية سارت بعد الحديبية سيراً سلساً ، وانهارت كل العقبات من طريقها .

وأما الفتح فى الأرض فإن المسلمين بعد الحديبية لم يبقوا محصورين فى المدينة بل ذهبوا فقضوا على قوة اليهود فى خيبر وتيماء ووادى القرى ، وكانوا من قبل قد قضوا على يهود المدينة ، وبانهيار قوة اليهود وتوقف الصراع مع قريش فتحت الآفاق للدعوة الجديدة ودخلت دعوة الإسلام بقاعاً واسعة فى الأرض .

– فى سورة الفتح آيات ثلاث(١) تصف حال قريش وحال المسلمين عندما تأزمت الأمور وظهر شبح الحرب ، وعندما كانت المفاوضة تدور ، فقد كان معسكر الكفار تسيطر عليه حمية الجاهلية وأنفتها ، تلك الحمية التى لاتعتمد على منهج أو عقيدة ، وكانت جماعة المسلمين تسيطر على قلوبهم السكينة والطمأنينة ، يبايعون الرسول فى ثقة وإيمان ، فهم يستعدون للحرب والتضحية بكل شىء ، ولكن فى هدوء واستقرار وطاعة كاملة للقائد ، وتقوى شاملة لله العلى العظيم .

وهذه الآيات هى :

– هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً .

– لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً .

(١) الآيات رقم ٤ و ١٨ و ٢٦

— إذا جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليماً .

— وفى سورة الفتح آية كريمة كشفت أسرار قريش هى قوله تعالى : (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً)[١] ، ويتضح من هذه الآية أنه لم يكن لدى قريش أى أمل فى النصر ، وأن الانهيار كان متغلغلا فى أنفسهم ، ولم يعد فى طاقتهم أن يواجهوا المسلمين وأن يصمدوا أمامهم .

— وآية أخيرة نقتبسها من هذه السورة الكريمة توضح لنا السبب فى عدم حدوث الحرب مع رجحان كفة المسلمين ، وهذه الآية هى قوله تعالى : (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، ليدخل الله فى رحمته من يشاء ، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما)[٢] فقد كانت هناك جموع من رجال مكة ونسائها دخلوا الإسلام سراً ، ولم يستطيعوا أن يعلنوا إسلامهم وسط عناد قريش وقسوتها ، ولو اشتعلت الحرب لكان من الممكن أن يصاب هؤلاء بسوء ، لأن المسلمين لم يعرفوا خبر إسلامهم ، ولو أنزل بهم المسلمون بعض الأذى ثم عرفوا فيما بعد خبر إيمانهم فإن المسلمين يحسون بالعار والألم ، ولو تميز هؤلاء من أولئك لكان من الممكن أن تقوم الحرب ويسلط الله فيها المؤمنين على الكافرين ، وهكذا شاء الله أن يكرم المجموع من أجل بعض أفراده .

---

(١) الآية رقم ٢٢ .
(٢) الآية رقم ٢٥ .

كتب الرسول للملوك والرؤساء

واتساع نطاق الدعوة للإسلام

قلنا آنفاً إن القضاء على شوكة اليهود من جانب، ومهادنة قريش من جانب آخر فتحا باباً أوسع لنشر الدعوة للإسلام وقد رأينا من قبل مراحل الدعوة الثلاثة :

الدعوة السرية ، ودعوة بنى هاشم ، والدعوة العلنية وجاء الآن دور اتساع الدعوة وعالميتها تحقيقاً لقوله تعالى :

— تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً[1] .

— وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[2] .

ولم يُضع الرسول الوقت ، بل سرعان ما أرسل البعوث والكتب لرؤساء العشائر والإمارات بالجزيرة العربية ، والملوك والرؤساء بالأقطار المحيطة بالجزيرة ، يدعوهم أن يدخلوا هم وأتباعهم وشعوبهم دين الله ، ويبين لهم مبادىء هذا الدين وقواعده . وقد أفاضت المراجع العربية بالحديث عن هذه الكتب ، فورد ذكرها فى صحيح مسلم وتحدث عنها الواقدى[1] وأورد أبو عبيد نصوص كتب الرسول إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين . وملوك عمان ، ولحاكم اليمن ، ولبنى عبد كلال ، وإلى النجاشى وكسرى وقيصر[2] ، وأورد ابن القيم تفاصيل عنها شملت أسماء حامليها ، وما حصل لهم ، ونتائج هذه المحاولة[3] ويقول الخثعمى السهيلى [4] إن من الملوك من اتبع محمداً كملوك اليمن وملك عمان ، ومنهم من هادنه وأهدى إليه كالمقوقس ، ومنهم من تعصّى عليه كملك الغساسنة وكسرى فارس ، ويقول النووى[5] : إن حاطب ابن بلتعة كان رسول النبى عليه السلام إلى المقوقس ؛ وكان دحية بن خليفة الكلبى رسوله إلى قيصر ، وعبد الله بن حذافة السهمى رسوله إلى كسرى ، وعمرو بن أمية رسوله إلى النجاشى ، والعلاء بن الحضرمى رسوله إلى المنذر ابن ساوى ملك البحرين . وكان كل منهم يعرف لغة الذين أرسل إليهم[6] ،

---

(١) تاريخ الواقدى ج ٢ ص ٣٣ . (٢) الأموال ص ٢٠ - ٢٤ .
(٣) زاد المعاد ج ١ ص ٣٠ - ٢٣ . (٤) انظر الروض الأنف ج ١ ص ٢٥٠ .
(٥) تهذيب الأسماء القسم الأول ج ٢ ص ١٥٠ .
(٦) انظر كذلك عبد الحى الكتانى : التراتيب الادارية ج ١ ص ١٩٤ - ١٩٥ .

وقد أوردنا هذه المراجع كلها عن هذا الموضوع لأن بعض المؤرخين لايوافق على أن الرسول كتب للرؤساء والملوك بالدعوة ، وحجة هؤلاء المؤرخين أن كتب الرسول لم توجد فى سجلات هؤلاء الملوك والرؤساء ، واعتقادى أن ذلك لا ينهض دليلا ، فقد يكون هؤلاء الملوك قد استهانوا بهذه الكتب فأغفلوها ولم يثبتوها فى سجلاتهم ، وقد تكون يد التدمير أتت عليها فى الاضطرابات الكثيرة التى نزلت بهذه الدول بعد إرسال الكتب ، على أن بعض المستشرقين ذكر هذه الكتب وأيد إرسالها ومن هؤلاء Wells[1] ، ثم إننا لا نعتقد أن الرسول يتوانى فى إرسال كتب يدعو فيها لدين الله وقد أتيحت له الفرصة بعد مهادنة قريش والقضاء على اليهود ، فطبيعة الدين الإسلامى أنه دين الناس جميعاً ، ولابد أن يكون محمد بن عبد الله قد خطا فى هذا سبيل ما استطاعه من خطوات .

وقد شهد عام ١٩٧٧ حدثاً خطيراً يتصل بهذه الرسائل ؛ إذ أعلن الملك حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية فى مطلع ذلك العام أنه عثر على النسخة الأصلية التى أرسلها الرسول ﷺ إلى هرقل ملك الروم ، وقال الملك : إنه لم يعلن ذلك إلا بعد فحوص ودراسات علمية دقيقة ، قام بها علماء غربيون ، وقد أثبتت هذه الدراسات والتحاليل أن الوثيقة التى عثر عليها قد كتبت على الرقاع التى كانت مستعملة آنذاك للكتابة ، وأن نوع الحبر هو النوع الذى كان مستعملا ، وأن الخط والأقلام هى خطوط ذلك الزمان وأقلامه .

وقد أودع الملك حسين هذه الوثيقــة فى متحف خاص ، ويمكن الاطلاع عليها .

وهذا الكشف التاريخى الخطير يضع حداً للاختلاف حول هذه الكتب والرسائل ، ويؤكد صدق الروايات الإسلامية حول هذا الموضوع .

والذى يقرأ كتب الرسول إلى الملوك والرؤساء يجدها صيغت بمنتهى الحكمة والمعرفة ، فالرسول فيها سمح يدعو ولا يهدد ولا يقلل من مكانة

---

(١) A Short History of the world pp. 195, 202.

الملوك والرؤساء، بل يكتب لهم بألقابهم، ويعترف بمكانتهم، ويقرر أن سلطانهم في ظل الإسلام باق لهم ، وهو بذلك يؤكد أنه ليس طالب مُلك ، ثم هو يذكر أن هناك زكاة في أموال الأغنياء ، ولكنه يؤكد أن الزكوات والصدقات لا تحل لمحمد ولا لآل محمد ، وإنما تؤخذ من أغنياء المسلمين وترد على فقرائهم . وهو بهذا يؤكد أنه ليس طالب مال ، وهو عليه السلام يخاطب كل ملك حسب ظروفه ، فإن كان من أهل الكتاب أشار إلى ما بين الأديان السماوية من روابط ، وإن كان من غيرهم أشار إلى التزام البشرية بالعودة إلى الله وترك عبادة ما سواه .

وينبغي لإيضاح ذلك أن نقتبس هنا بعض نماذج من هذه الرسائل :

١ – إلى هرقل الروم :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم :

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعوة الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم جميع الأريسيين(١) « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

٢ – إلى كسرى الفرس :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس :

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله :

---

(١) نسبة إلى أريوس وهو داعية مصري مسيحي كان يقول بالتوحيد الخالص (توفى سنة ٣٢٥) .

أدعوك بدعوة الله ، فإني رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ، وليحق القول على الكافرين .

أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم كل المجوس .

٠ – إلى أمير دمشق :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شَمِر .

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله وصدق برسوله .

إني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبق ملكك .

٤ – إلى المقوقس عظيم مصر :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك للاسلام ؛ فاسلم تسلم ، وإن يسلم قومك يؤتك الله أجرك مرتين (قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ؛ ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ؛ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)

---

(١) تراجع هذه الكتب أيضا في صبح الأعشى للقلقشندي حـ ٦ ص٣٧٦ - ٣٨٠ .

غزوة مؤتة

وبدء الصراع مع غير العرب

زمن الغزوة : جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة .

مكانها : قرية فى شمالى الجزيرة العربية على حدود الشام .

سببها : كانت غزوة مؤتة نتيجة لكتب الرسول إلى الملوك والرؤساء التى تحدثنا عنها آنفا ، فإن الرسول بعث كتابه إلى الغساسنة مع الحارث بن عمير الأزدى ، وكان الغساسنة خاضعين لملك الروم ، ويرون أنفسهم أقوياء بسلطان الروم ، فقتلوا حامل كتاب الرسول ، وسخروا بمن أرسله ، وكان ذلك عدواناً يستحق التأديب من جانب ، ومن جانب آخر فإن الأوان كان قد آن لتطهير الجزيرة العربيـة من الأعداء المناهضين للإسلام .

وأعد الرسول لحرب الغساسنة جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، ولأول مرة لم يعين الرسول قائداً واحدا للجيش ، بل عين زيد بن حارثة أميراً للجيش وقال : فإن أصيب فجعفر بن أبى طالب يصبح أمير الجيش ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، وكان هذا إحساساً من الرسول بصعوبة المعركة ، كما ترك هذا التصرف إحساساً لدى المسلمين بخطورة الأمر .

وسار جيش المسلمين إلى الشمال ، وما إن وصل إلى قرب مؤتة حتى فوجئوا بأنهم يواجهون جيشاً قوامه حوالى مائة ألف بعضهم من الروم وبعضهم من الغساسنة ومن حضر لمساعدتهم من العرب المحيطين بهم الذين كانوا لا يزالون على الشرك .

وجلس المسلمون للمشورة ، واتجه بعضهم إلى الكتابة للرسول بالأمر ليرشدهم إلى ما يجب أن يفعلوا أو ليرسل لهم مدداً من الرجال والسلاح ، ولكن عبد الله بن رواحة صاح فى الناس قائلا : أيها المسلمون ، والله إن التى خرجتم لطلبها هى الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ،

فانطلقوا بنا إلى إحدى الحسنيين ، النصر أو الشهادة . فقال الناس : صدق والله ابن رواحة .

وتقدم المسلمون وبدأت المعركة ، وسرعان ماظهر فيها عدم التكافؤ ، فقتل القادة الثلاثة الواحد بعد الآخر ، ثم آلت الراية إلى خالد بن الوليد الذى سرعان ما أدرك أن الاستمرار فى المعركة سيؤدى إلى فناء جيش المسلمين دون طائل ، فرأى أن ينسحب بجيش المسلمين ليضمن النجاة لجيشه حتى تكون عدة المسلمين أوفر للقاء الروم ومن معهم .

وعند ما أضمر خالد هذا الرأى ، ومال له أصحابه واجه جيش الروم فى أول أيام قيادته بتنظيم جديد أوحى إلى الروم بأن وجوها جديدة انضمت لجيش المسلمين ، كما أمر بعض أتباعه أن يثيروا الغبار خلف الجيش ليوهم الروم أن مزيداً من المساعدات ينهال على جيش المسلمين من المدينة ، وفى ظل هذا التصرف انسحب خالد بالجيش .

وغزوة مؤتة جديرة ببعض التعليقات المهمة :

أولا : إن هول المعركة لم يكن بكثرة الشهداء وإنما بالجيوش الصاخبة التى أعدها الروم وعرب الشمال لها ، أما الشهداء فهم اثنا عشر شهيداً فقط فيهم القادة الثلاثة ، ويبدو أن حامل الراية فى هذه المعركة الخطيرة كان يتقدم الجموع ، ولايقتصر على إدارة المعركة ، ومن هنا سقط حاملو الراية مع قلة من سقطوا من المسلمين ، ويروى أن جيش الأعداء سقط فيه نفس العدد أيضا .

ثانياً : يبدو للناظر فى هذه الغزوة أن الهيبة المشتركة هى التى منعت الاستمرار فى المعركة ، وجعلت كلاً من الجيشين يقنع بالمناورة والمناوشة ، فجيش الروم كان يعرف ما حققه المسلمون من انتصارات فى الغزوات وضد اليهود ، والمسلمون كانوا يعرفون قدرات الجيوش الرومية التى كانت قد حققت حديثاً نصراً ضد الفرس ، وفى جو هذه الهيبة المشتركة وقفت المعركة عند هذا الحد .

ثالثاً : لم يقبل المسلمون بالمدينة أن ينسحب خالد بالجيش ، وعدوا ذلك فراراً ، ولذلك جعل الناس يحثون التراب على الجيش ويصفونهم بأنهم فُرّار ، ويهزءون بهم فيقولون : فررتم فى سبيل الله ، ولذلك خجل كثير من هؤلاء الفارين فتوقفوا عن الظهور أمام الناس مخافة هذا الهجوم ، فقد روى ابن هشام(١) أن أم سلمة زوج الرسول صلوات الله عليه وسلم سألت زوجة سلمة بن هشام بن العاص قائلة : مالى لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ؟ فأجابت : والله ما يستطيع أن يخرج ، كلما خرج صاح به الناس : يا فرار ، فررتم فى سبيل الله . حتى قعد فى البيت فما يخرج .

ولكن الرسول صلوات الله عليه قدّر الموقف ، وسماهم « الكُرّار » مدركاً الأسباب التى جعلتهم ينسحبون (١).

وقد أضمر خالد بن الوليد ذلك فى نفسه ، ولذلك ثأر من الروم فى صراعه معهم إبان فتح الشام ، فغسل عن نفسه هذا الوصف الذى أطلقه عليه المتسرعون ، وهيهات لخالد بن الوليد أن يفر إلا عن حكمة وخطة .

رابعاً : أدرك المسلمون من هذه الغزوة أن الجولة الحربية الحقيقية ستكون ضد الروم ، وأخذوا يعدون العدة لها ليبدءوا بها فى الوقت المناسب.

خامساً : رأينا الرسول بعد هزيمة أحد يسرع فيسير إلى حمراء الأسد ليرهم قريشاً بقوة المسلمين ، وهو بعد غزوة مؤتة يفعل نفس الشىء فقد أرسل جيشاً بقيادة عمرو بن العاص إلى الشمال ، وأمده بجماعة فيهم أبو بكر وعمر بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ، وأوصى الرسول أبا عبيدة بقوله : لا تختلفا . وقد أشرنا لذلك من قبل ويعلق الدكتور محمد حسين هيكل على هذه الغزوة بقوله : « وتقدم الجيش فشتت جموع أهل الشام الذين أرادوا محاربته ، وعادت بذلك هيبة المسلمين فى تلك النواحى » (٢).

---

(١) السيرة النبوية ج ٤ ص ١٧ .

(٢) حياة محمد ص ٣٩٦ .

غزوة الفتح أو فتح مكة

زمنها : فى رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، وخروج الرسول إليها كان فى العاشر منه .

مكانها : مكة المكرمة .

سببها :

مهدت لفتح مكة ظروف كثيرة أشرنا لبعضها فيما سبق . فقد قضى المسلمون فى فترة الهدنة على أقوى وأوفى نصير لقريش وهو اليهود ، وأخذ نفوذ المسلمين يمتد فأحاط بمكة من كل جانب ، انضمت لهم كثير من بلاد الجنوب وتبعهم كثير من القبائل فى الشمال وبقيت مكة فى منتصف الجزيرة وحدها -- تقريباً -- على الشرك ، ولكن أهل مكة الآن غيرهم فى الماضى ، فقد مضت إحدى وعشرون سنة ومكة تناضل ، ناضلت قبل الهجرة وناضلت بعدها ، وفى خلال هذه السنين تغيرت أحوال مكة ، فقد خرّ فى الحروب عدد كبير ممن كان يدعو للقضاء على محمد ، كأبى جهل وعتبة وشيبة ، وكان هناك أبطال مغاوير تعتمد عليهم مكة عند النفير كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، ولكن هؤلاء لحقوا بمحمد وخلّفوا مكانهم خالياً ، وأهل مكة الباقون على الشرك هزّتهم انتصارات المسلمين ، وأوشكوا أن يهتفوا معهم من مشارف مكة حينما كان المسلمون يرفعون أصواتهم مهللين ملبين عند طوافهم بالبيت بعد أن أخلت قريش مكة لهم . ونشأ جيل جديد سمع بالإسلام منذ المهد ونعومة الأظفار فلم تتعمق عبادة الأصنام فى نفسه ، وأحس كثير من أهل مكة بالعقوق ، فالدين الذى نبع من مكة اعتنقه أكثر بلدان العرب إلا مكة ، ومحمد القرشى أصبح حظياً عند أكثر العرب ولكن القرشيين يعادونه . ياللعار ! ! !

ولنعد لخالد بن الوليد وأندادِه لنذكر أن خالد بن الوليد هو ابن الوليد ابن المغيرة الذى كان من أقسى أعداء الإسلام ، والذى نزلت فيه الآيات

الكريمة « ذرنى ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد ، كلا ، إنه كان لآياتنا عنيداً » (١)
وعثمان بن طلحة أبوه طلحة بن أبى طلحة الذى ذكرنا فى غزوة أحد أنه خرج من صفوف المشركين يدعو المسلمين للمبارزة . . . . ولذلك فإسلام خالد وعثمان وكثيرين من أندادهما كان يمثل تحولا خطيراً من جيل إلى جيل ، ويهىء العاصمة الروحية العتيدة لتلقى الذمام للإسلام .

ثم إن قريشاً رأت نفسها تقف وجهاً لوجه ضد العرب أجمعين تقريباً ، وأدركت قريش أن وفود الحجاج التى لم تنقطع عن مكة منذ عهد إبراهيم سيقطعها عداء قريش للعرب ، واستمرار قريش على عبادة الأوثان بينما دخل أغلب العرب فى دين الله ، وفطنت قريش إلى أن تجارتها لا يمكن أن تستمر فى أمن إلى الشمال أو الجنوب بعد أن امتد نفوذ المسلمين إلى جميع هذه الجهات .

وهكذا وقفت مكة تتهادى على وشك السقوط مما جعل محمداً يوقن أن دخول مكة ليس إلا كما يقول العسكريون « عملية إنزال جنود » لن يحدث فيها حرب ولا قتال ، وأتيحت للمسلمين الفرصة للدخول مكة ، فقد نقضت قريش عهدها مع المسلمين ، إذ حدث قتال بين بنى بكر وخزاعة ، وبنو بكر حلفاء قريش ، وخزاعة حلفاء المسلمين ، وانضمت قريش لحلفائها فى هذه الحرب واستنجدت خزاعة بالمسلمين (٢) .

وأعد الرسول جيشاً عظيما ، لم تشهده الجزيرة العربية من قبل . إذ كان عدده عشرة آلاف شخص ، يسيرون فى طاعة مطلقة لقائدهم العظيم .

حاطب بن بلتعة يحذر أهل مكة :

يقول ابن هشام(٣) : لما أجمع الرسول السير إلى مكة كتب حاطب بن بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بما أزمع عليه الرسول ليأخذوا حذرهم ، وأعطى الكتابَ لامرأة قيل إنها مولاة لبعض بنى عبدالمطلب ، وجعل لها جُعْلاً على ذلك ،

---

(١) سورة المدثر الآيات ١١ — ١٦ .
(٢) ابن هشام — ٢ : ٢٦٣ .
(٣) السيرة النبوية جـ ٤ ص ٢٩ — ٢٠

ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى للرسول بذلك . فبعث الرسول علياً ابن أبي طالب والزبير بن العوام لأخذ الكتاب من المرأة ومنعها من السير ، فلحقا بها في الطريق ، وقال على : أين الكتاب الذى أرسله معك حاطب؟ فأنكرت أن معها كتاباً . ففتش على رحلها فلم يجده ، فقال لها : والله ما كُذِب رسول الله ولا كَذَبنا . فإما أن تظهريه وإلا لنكشفنَّك . فلما رأت الجِدَّ منه استخرجته من ضفائر شعرها ، وعاد به عليٌّ إلى الرسول ، فقال الرسول لحاطب : ما حملك على هذا ؟ فأجاب حاطب : يا رسول الله ، والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ولكنى امرؤ ليس لى فى القوم أصل ولا عشيرة ، ولى بين قريش ولد وأهل فأردت أن تكون لى صنيعة عندهم . قال عمر : مرنى يا رسول الله لأضرب عنقه . فقال الرسول : وما يدريك يا عمر أن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم .

ونزل فى هذه الحادثة قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة . . . »(1) .

العباس وأبو سفيان :

وعلى هذا لم تعرف قريش هدف الرسول حتى أصبح على مقربة من مكة ، وأخذت قريش على غِرَّة فأسقط فى أمرها ، وبينما كانوا فى جدل من أمرهم خرج العباس والتقى بالمسلمين عند الجحفة . ويقال إن العباس كان مسلما يكتم إسلامه بأمر الرسول .

ولعب العباس دورا مهما فى هذه الفترة مخافة أن يدخل جيش المسلمين مكة فى حالة حرب . فلا تقوم لقريش بعدها قائمة ؛ فأخذ العباس بغلة الرسول ليدخل بها مكة ويحذر أهلها من جيوش المسلمين ، وعند ما كان فى الطريق سمع صوت أبى سفيان بن حرب ، وكان هذا خرج مع بُدَيل بن ورقاء ليتجسسا الأخبار . وسمع العباس صوت أبى سفيان فناداه : أبا حنظلة . ففرح أبو سفيان بصوت العباس وقال : أبا الفضل ؟ فقال العباس :

---

(١) سورة الممتحنة الآية الأولى .

ويحك يا أبا سفيان ، لقد خرج لكم رسول الله فى قوة لا تقهر ، فاركب خلفى بغلة رسول الله لعلى أنال لك النجاة . فركب خلفه ولما رآه المسلمون حاولوا القضاء عليه ؛ ولكن العباس كان يهتف : قد أجرته .

وعرض العباس الأمر على الرسول ولكن الرسول بحكمته أراد أن يبقى الخوف فى نفس أبى سفيان فترة ، فقال للعباس : خذه إلى رحلك وأتنى به فى الصباح .

وفى الصباح استقبل الرسول أبا سفيان بن حرب الذى فقد كل أمل ، والذى لم يعد يهتم إلا بأن يمنع الأذى والذل عن قومه ، وهتف به الرسول : ألم يأن لك يا أبا سفيان أن تعلم أنه لا إله إلا الله !

قال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئاً(١) .

فعاد الرسول يسأله : أما آن لك أن تشهد أنى رسول الله ؟ فأجاب أبو سفيان فى اضطراب : أما هذه ففى النفس منها شىء . فغمزة العباس وحذره وطلب منه أن يتخلى عن تعصب الجاهلية ، فأعلن إيمانه بالله ورسوله .

وآمن أبو سفيان ، ولكن الرسول لم يتركه يعود إلى مكة حتى شهد بنفسه موكب الجيوش الإسلامية ، فرأى أبو سفيان ما لم يخطر له ببال ، حتى إذا انتهى العرض العسكرى اللجب ترك أبو سفيان ليعود إلى مكة ؛ وكان أبو سفيان هناك لسانا يحدث الناس عن الزحف الذى لا يستطيع أحد إيقافه ، فقتل كل أمل فى المقاومة(٢) .

ودخلت جيوش المسلمين من جهات أربع ، وكان خالد بن الوليد من قادة الفتح ، ونادى منادى الرسول : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه عليه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن(٣) .

واستسلمت مكة .

وطاف المسلمون بالكعبة وأزالوا منها التماثيل والصور وحطموا الأصنام وهم يهتفون : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً(٤) .

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٣٦٣ .

(٢) انظر ابن هشام ٢ ، ٢٦٩ .

(٣) المرجع السابق والبلاذرى ص ٥٢ .

(٤) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ١٦٥ وانظر الأصنام لابن الكلبى ص ٤١ وما بعدها .

الفاتحون فى مكة :

هل عرف التاريخ جماعة غُلبت على أمرها وطُردت . فلما استطاعت العودة إلى الوطن لم تمتد لهم يد ، ولم يحاولوا أن يأخذوا بثأر ! .

وهل عرف التاريخ عدوين يلتقيان بعد طول صراع مخضب بالدماء فلا يكون فى لقائهما شحناء ولا بغضاء ؟ .

إنها روح الإسلام ، وسيطرة القائد الأعلى على أتباعه . ورحمته بمن كانوا بالأمس أعداءه ، فلقد اجتمعوا حوله حيث هتف فيهم : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . قال محمد : اذهبوا فأنتم الطلقاء(١) .

وكان هذا هو كل الحساب بين الجيش الزاحف من المدينة وبين أهل مكة المستسلمين .

بعد الفتح

كان استسلام مكة عملا هائلا فى تاريخ الدعوة الإسلامية . فقد توقف النشاط المعادى للاسلام من أخطر مركز باشر العداء للدين الجديد أكثر من عشرين عاما ، وهناك أحداث مهمة برزت بعد فتح مكة نتحدث عنها فيما يلى :

١ — تخوف الأنصار أن يبقى الرسول بمكة :

بعد فتح مكة قام الرسول على الصفا يدعو الله ويشكره . وكان الأنصار يحيطون به ، فقال بعضهم لبعض سراً : أترون رسول الله وقد فتح الله عليه أرضه ودياره يقيم بها ؟ فلما فرغ الرسول من دعائه سألهم : ماذا قلتم ؟ فقالوا : لا شىء يارسول الله . فلم يزل بهم حتى أخبروه . فقال : معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم(٢) .

---

(١) ابن هشام ٢ : ٢٧٤ وانظر أيضا البلاذرى ص ٥٥ .

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٤٢ تحقيق طه عبد الرءوف.

٢ — العفو الشامل إلا عن قليلين :

قلنا آنفا إن الرسول قدم عفوا شاملا لأهل مكة ، وكان قد عهد إلى أمراء الجيش ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، ولم يبح الرسول دم أحد إلا عددا قليلا لأسباب مهمة ، وهؤلاء هم :

عبد الله بن سعد : أخو عثمان من الرضاعة ، وكان عبدالله من كتبة الوحى ، ثم ارتد عن الإسلام ، ولكن عثمان شفع له فقبل الرسول شفاعته وعفا عنه .

عبد الله بن خطل : كان مسلما وله مولى ، فطلب من مولاه إعداد طعام ولكن الخادم نام ولم يصنع الطعام فقتله عبد الله ، وخاف القصاص فارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة ، فأبيح دمه لأنه قاتل ، ولأنه مرتد .

الحويرث بن وهب : كان يؤذى الرسول بمكة ، واعتدى على ابنتى الرسول وهما فى طريقهما للهجرة من مكة إلى المدينة .

عكرمة بن أبى جهل : كان يساعد أباه فى العدوان على المسلمين ، وبعد مقتل أبيه فى غزوة بدر استمر على العدوان ، فلما فتحت مكة هرب إلى اليمن ، وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام واستأمنت له فعفا عنه الرسول فخرجت فى طلبه وأعادته إلى مكة .

مقيس بن حبابه : قتل أحد الأنصار ، وفر إلى مكه وارتد عن الإسلام

قينتان : هذا بالاضافة إلى قينتين كانتا تتغنيان بمن يقتل الرسول وتشجعان على الهجوم عليه ولكن الرسول عفا عن إحداهما(١) .

٣ — إسلام والد أبى بكر :

لما دخل الرسول مكة ودخل المسجد ، أتى أبو بكر بأبيه يقوده ،

---

(١) ابن هشام ﺟ ٤ ص ٣٨ — ٤٠ .

فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هلا تركت الشيخ فى بيته حتى آتيه أنا فيه ؟ فقال أبو بكر : هو أحق أن يمشى إليك يارسول الله؛ فأجلسه الرسول بين يديه ثم مسح صدره ، وأعلن الشيخ إسلامه [١].

٤ — إسلام صفوان بن أمية :

عقب فتح مكة أسرع صفوان بن أمية بن خلف إلى «جدة» ليركب منها إلى اليمن، فجاء عمير بن وهب إلى الرسول وقال له : يا نبى الله : صفوان ابن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه فى البحر فأمِّنه يارسول الله ، قال الرسول دون تردد ، هو آمن ، قال عمير : أعطنى يارسول الله آية له يعرف بها أمانك فأعطاه عمامته . فخرج بها حتى أدركه وصاح به : ياصفوان : هذا أمان من رسول الله إليك ، أمان جاءك من أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس ، مَنْ عزُّه عزُّك وشرفُه شرفك ، قال صفوان إنى أخافه على نفسى ، قال عمير؟ هو أحلم من ذلك وأكرم ، فرجع صفوان مع عمير إلى الرسول ، ودخلا عليه وقال صفوان للرسول : إن هذا يزعم أنك قد أمَّنتنى . قال الرسول : لقد صدق ، قال صفوان : اجعلنى فى أمرى بالخيار مدة شهرين ، قال الرسول : أنت فى الخيار فيه أربعة أشهر .

ويوماً بعد يوم بدأت صلات صفوان تتوثق بالرسول ، وبدأ إعجابه به يظهر ، ولم تمض إلا أيام قلائل حتى كان صفوان فى صفوف المسلمين فى موقعة حنين قبل أن يدخل الإسلام ، وعندما تقوَّل المنافقون على الرسول إثر هزيمة المسلمين فى الجولة الأولى بهذه الموقعة تصدى لهم صفوان معارضاً ومؤنباً . ولم يلبث أن دخل الإسلام قبل الأجل الذى منحه له الرسول[٢] .

٥ — إسلام كعب بن زهير :

لما عاد الرسول من غزوة حنين والطائف كتب بوجير بن زهير بن

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٤ .

(٢) ابن هشام : ج ٤ ص ٤٤ وما بعدها .

أبى سلمى إلى أخيه كعب يخبره أن الرسول قتل رجالا بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه ، وأن بعض شعراء قريش الهجائين قد هربوا فى كل وجه ، فإن كانت لك فى نفسك حاجة ، فطر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً .

فلما تلقى كعب كتاب أخيه ضاقت به الأرض . وأشفق على نفسه ، فنظم قصيدة يمدح فيها الرسول . ويذكر خوفه وإرجاف الوشاة به ، ودخل على الرسول فى المسجد ومعه صديق من المسلمين من جهينة . وكان الرسول لايعرف كعب بن زهير ، فقال الجهنى للرسول : إن كعب بن زهير جاء تائباً مسلماً يطلب الأمان . فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال الرسول صلوات الله عليه : نعم ، فتقدم كعب بن زهير وقال : أنا كعب بن زهير يارسول الله ، وألقى قصيدته التى جاء فيها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبولُ ... متيم إثرَها لم يُفْدَ مكبول
وما سعاد غداة البَين إذ رحلوا ... إلا أغنُّ غضيضُ الطرف مكحول
هيفاء مقبلةً عجزاء مدبرةً ... لايُشْتكى قصر منها ولاطول

. . . .

إن الرسول لنور يُستضاء به ... مهنّدٌ من سيوف الله مسلول (١)

٦ — مفتاح الكعبة :

عندما دخل الرسول المسجد بعد فتح مكة ، جاء له على بن أبى طالب وفى يده مفتاح الكعبة وقال : يارسول الله ، هذا مفتاح الكعبة ، فاجعل لنا الحجابة مع السقاية ، صلى الله عليك ، فقال الرسول : أين عثمان بن طلحة ؟ فدُعى له ، فأعطاه الرسول المفتاح وقال : هاك مفتاح الكعبة ياعثمان ، اليوم يوم بر ووفاء(١) .

---

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ١٠٧ وما بعدها .

(٢) ابن هشام جـ ٤ ص ٤١

٧ - الجزيرة العربية فى الطريق إلى الاستسلام :

كان من الطبيعى أن استسلام مكة مهد الطريق لاستسلام الجزيرة العربية كلها ، لقد همد الخصم العنيد وألقى السلاح . وأصبح المسلمون سادة الكعبة وحماة البيت الحرام . وسارت سيرتهم فى البر وحسن المعاملة مع الوافدين والركبان .

ومن أسماء مكه « أم القرى » وهذا يدل على مدى أهميتها بين بلدان الجزيرة العربية ، وبها الكعبة المشرفة التى يحج لها العرب من كل الأصقاع العربية ، وباسم الكعبة كانت لقريش الزعامة الروحية ، وبهذا كان استسلام قريش واستيلاء المسلمين على الكعبة وتحطيم الأصنام مطلع عهد جديد سعيد على الإسلام والمسلمين .

وكان هدف الرسول بعد استسلام مكة تطهير الجزيرة العربية كلها من أعداء الإسلام ليخلق منها وحدة لها ثقافتها ولها دينها ولها مبادئها ونظمها ، حتى يستطيع — بوحدة الجزيرة العربية واستقرارها — أن يواجه عدوه فى الشمال ، ذلك العدو الذى يتحرش بالمسلمين ، ويعد العدة للتدخل فى شئون الجزيرة العربية ، ولذلك سارع الرسول بأن دعا إلى الإسلام قبائل البدو المتناثرة حول مكة ، كما دعا مسيحى نجران وأمراء الجنوب الذين لم يكونوا قد انضموا للإسلام بعد ، وقد استجاب كل هؤلاء لدعوة الإسلام .

ثم هبت عقب ذلك من الطائف ومن بعض بلاد نجد حركة ضد الإسلام والمسلمين استلزمت أن يخوض المسلمون معركة حنين وغزوة الطائف وسنتكلم عنهما فيما يلى بشىء من التفصيل :

غزوة حنين والطائف

مقدمة :

تعتبر غزوة الطائف امتداداً لغزوة حنين ، ذلك لأن جموع هوازن التي كانت تنتشر بطونهم انتشاراً واسعاً في نجد ،وجموع ثقيف التي كانت تسكن الطائف المدينة الغنية التي تقع في الجنوب الشرقي من مكة . هؤلاء وأولئك حاربوا المسلمين في وادي حنين ، فلما انهزموا وتقهقروا لجئوا إلى الطائف وتحصنوا بها ، ولحق المسلمون بهم حيث استمرت المعركة ، ومن هنا كان الحديث عن معركة حنين ومعركة الطائف تحت عنوان واحد ، وسيأتي تفصيل ذلك .

الزمن : السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكه بأقل من شهر .

المكان : وادي حنين ومدينة الطائف . ووادي حنين يقع بين مكة والطائف وراء عرفات بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا[1] .

السبب :

سبق أن قلنا إنه كانت هناك قوى كثيرة تعارض الإسلام وتعمل على القضاء عليه ، وأن هذه القوى ظهرت الواحدة تلو الأخرى ، فهناك قوى بكرت في الظهور ، فلما أخفقت ظهرت قوى أخرى وهكذا .

كانت قريش تعتقد أن الدعوة الإسلامية خرافة لاتلبث أن تموت من تلقاء نفسها ولذلك لم تَرَ داعيا أن تقاومها في بدء أمرها ، فلما لم تمت من تلقاء نفسها هبت قريش في وجهها للقضاء عليها .

وكان اليهود يظنون أن قريشاً كفيلة بالقضاء على الإسلام ، فلما أفلت الإسلام من مكة وهُزمت قريش في بدر انضم اليهود إلى المناضلين .

ولما بدأت هزائم اليهود بإخراج بني النضير تجمعت قوى الأحزاب للقضاء على الإسلام .

---

(١) النووي : تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٨٦ .

وقضى على اليهود ، واستسلمت مكة ، فهبت هوازن وثقيف للوقوف فى وجه الإسلام ؟

فلما استسلمت الجزيرة العربية كلها هب الفرس والروم للقضاء على القوة الهائلة الناشئة فى شبه الجزيرة العربية .

فلما انتصر الإسلام فى كفاحه ضد الفرس والروم هبت أوربا تحت راية الصليب فيما يسمى بالحروب الصليبية للقضاء على الإسلام .

وانهزم فرسان الصليبيين واندكت ممالكهم التى أقاموها بالشرق ، فبدأ الاستعمار الأوروبى يزحف على العالم الإسلامى ليقضى على الإسلام بالقوة أو بوسائل أخرى حديثة كالتبشير والتشكيك ونشر الإباحية والخلاعة باسم المدنية والحضارة .

وانتصر الإسلام فى جميع الميادين ولا يزال ينتصر .

ونحن هنا نتحدث عن حلقة من حلقات هذا النضال : عن نضال المسلمين ضد هوازن وثقيف فى وادى حنين ومدينة الطائف .

لقد استسلمت مكة ودخلها محمد مرفوع الرأس منتصراً ، وامتد سلطانه إلى الكعبة ، البيت المقدس عند العرب جميعاً ، وخضع لنفوذه أغلب الجزيرة العربية فى الشمال والجنوب ، ولم يبق خارجا عليه إلا قلة أهمها هوازن وثقيف ، ومن هنا أدركت هوازن وثقيف أنه لم يبق قوة تستطيع الوقوف فى وجه المسلمين إلا قوتهما ، وأحست هوازن وثقيف بهتاف اللات والعزى ومناة يدوى فى القلوب المظلمة ، ويحثها على الثأر للأوثان التى كسرها المسلمون بالكعبة ؛ وللأصنام التى كبها المسلمون على الوجوه .

وهبت هوازن وثقيف بقيادة مالك بن عوف[1] (من بنى نصر من هوازن) ولم يكن قد مضى على فتح مكة غير بضعة عشر يوماً كما جاء فى رواية ، أو بضعة وعشرون يوماً كما جاء فى رواية أخرى[2] .

ولم يثمل المسلمون بالنصر الذى أحرزوه بفتح مكة ، ولذلك سرعان ما أعدّ الرسول جيشاً كبيراً يبلغ عشرة آلاف أو يزيد ، ومشى الجيش

---

(١) و (٢) ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٨

ولكن فى شىء غير قليل من الزهو ؛ فقد هدت قريشٌ العدوُّ الأكبر للمسلمين ، وها هم القرشيون يلحقون بجيش المسلمين لمحاربة هوازن وثقيف ، وقد هدت أنفاسُ اليهود أقوى أعداء المسلمين ، فماذا عسى أن تكون هوازن ؟ وماذا عسى أن تكون ثقيف ؟

وأدرك مالك بن عوف أن هذه آخر محاولة يقوم بها عبدة الأوثان ضد الإسلام ، ولذلك نجده يُعْمِل الحيلة للحصول على النصر ، فاختار للموقعة أرضاً جبلية بها مرتفعات ولها مسالك لا يعرفها أغلب المسلمين ولا يجيدون القتال فيها ، وحشد مالك خلف الجند النساء والأطفال حتى يدرك المحارب أن هزيمته ستكون فناءً لأهله وماله ، وبذلك يستميت فى القتال حتى النصر[1] وعسكر مالك بجنده فى شعاب الجبال فأصبح هؤلاء الجنود مشرفين على الطرق الضيقة حيث يمر جيشُ المسلمين .

وبينما كان جيش المسلمين يعبر المسالك الضيقة بجبال تهامة والزهو يشيع فيهم بسبب ضخامة العدة وكثرة العدد ، انقضَّ عليهم العدو من مكانه فى الشعاب والمرتفعات ، وفوجىء المسلمون بالضرب ينصب عليهم انصباباً ، فاضطربوا وتفرقت جموعهم وغُلبوا على أمرهم وولوا متقهقرين ، وقد حكى القرآن الكريم هذه الهزيمة بقوله (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين[2])

وننقل فيما يلى عبارة ابن إسحق فى ذلك الموضوع قال : حدثنى عاصم ابن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال : لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى واد من أودية تهامة أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحداراً ، وفى عماية الصبح وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى ، فكمنوا لنا فى شعابه وأجنابه ومضايقه ، قد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا ، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد ،

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٢٨٢ .
(٢) سورة التوبة الآية ٢٥ .

وانتشر الناس راجعين لا يلوى أحد منهم على أحد[١] .

ولم تكن انتصار هوازن وثقيف حاسماً ، ولم يكن إلا أثراً للمفاجأة التي لم يتوقعها المسلمون ، وإذا كانت جموع المسلمين قد فرت وكتبت على نفسها الهزيمة ، فإن الرسول وقف مكانه كالطود الشامخ الذى لا يعرف الفرار ، ووقف مع الرسول جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم العباس عم النبي . ولعل وقفة هؤلاء الرفقاء لم تكن طلباً للنصر وإنما كانت ليموتوا مع الرسول أو يعيشوا معه فلا معنى للفرار وتركه وحده أياً كانت نتائج المعركة (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها[٢]) .

وهكذا سرعان ما بدأ الاستعداد لمعركة حقيقية ، فهتف الرسول بأصحابه ونادى المهاجرين والأنصار ، وأمر عمه العباس أن ينادى وكان صوته قوياً ففعل[٣] ، واجتمع المسلمون حول قائدهم وواجهوا الأعداء ، وتوقف الجيش المنتصر عن تعقب المهزومين ليقابل المحاربين ، ونظر المسلمون الفارون خلفهم فلم يجدوا أحداً يتعقبهم ، بل رأوا معركة تدور وسمعوا صياح العباس يهتف بهم ؛ فارتدوا للمعركة وتكاثروا ، وحاربوا بشجاعة فائقة فانقلبوا من مدافعين إلى مهاجمين ، وتقدم البطل العظيم على بن أبي طالب إلى صاحب راية المشركين فعقر جمله فهوت الراية ، ثم قتل حاملها ، واضطرب المشركون ، وتفرق جمعهم ، وولوا الأدبار ، وغنم المسلمون في هذه الموقعة غنائم كثيرة وسبايا عظيمة[٤] .

أما المشركون فقد فارقوا أرض المعركة متفرقين فاتجه بعضهم إلى سهل أوطاس واتجه آخرون إلى نخلة ، كما ارتد مالك بن عوف وجمهرة أتباعه إلى الطائف حيث نزلوا مع ثقيف مدينتهم الحصينة الغنية ، وقد تتبعت

---

(١) ابن هشام ٢ : ٢٨٩ .
(٢) سورة التوبة الآية ٢٦ .
(٣) ابن هشام ٢ : ٢٩٠ وابن القيم ٢ : ١٨٧ .
(٤) ابن هشام ٢ : ٢٩٠ .

وحدات من جيش المسلمين أولئك الفارين ، واتجه الرسول ومعه أغلب الجيش لحصار الطائف[1] .

وحول الطائف بدأت معركة جديدة لها ظروف خاصة ، فالطائف مدينة حصينة قوية الجدران ، وقد رأيتُ بقايا أسوار حول الطائف عرضها حوالى مترين ويُعتقد أنها بقايا أسوار الطائف الشهيرة ، ثم إن الطائف مدينة غنية كثيرة الخيرات تستطيع أن تمدّ المحاصَرين بمئونة وافرة لمدة طويلة ، ويقول البلاذرى[2] إن أهل الطائف رمّوا حصونهم وجمعوا الميرة ، ثم إن أهل الطائف لهم خبرة عظيمة بالرمى بالنبال ، ورد الذين يحاولون أن يتسلقوا إليهم أو يقتحموا عليهم مدينتهم .

وللمسلمين خبرة واسعة فى الحصار ، فقد حاصروا بنى النضير وبنى قريظة وخيبر من قبل ، وانتهى حصارهم بالنجاح الذى أرادوه . ولكن قوة الطائف وقوة أهل الطائف كانت تفوق اليهود ومدن اليهود بدرجات كثيرة . ولذلك كان على المسلمين أن يقترحوا وسائل جديدة للنجاح فى الحصار ، وكان على هوازن وثقيف أن تجد السبل التى ترد بها وسائل المسلمين ، ولذلك نجد ما يمكن أن نسميه حرباً فكرية ؛ فالمسلمون يستعملون المنجنيق وهو أداة ترمى الحجارة على الأعداء وتقوض الجدران ، ولكن جدران الطائف كانت أقوى من أن تهتز لهذه الضربات ، فاستعمل المسلمون الدبابة وهى أداة مصنوعة من الخشب أو الجلود يدخل المسلمون فيها ويتحركون فى حمايتها إلى الهدف ، فإذا وصلوا الأسوار نقبوها فى حين يحميهم سطح الدبابة من نبال الأعداء[3] ولكن أهل الطائف ألقوا على المهاجمين قطع الحديد الملتهب فتعرضت الدبابة للاحتراق ، فتغلب المسلمون على ذلك بأن غطوا ظهر الدبابة بألواح من الحديد أو الصفيح ، فألقى المحاصرون عليها حجارة

---

(١) المرجع السابق ١ : ٣٠١ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٦٧ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٦٧ ، ٦٨ .

ثقيلة دمرت بعضها ، وحاول المسلمون أن يحرقوا كروم الطائف ، وهى أغلى مايعتز به أهل الطائف ، فأرسل هؤلاء إلى الرسول يخبرونه ألا يحرق الكروم ويخبرونه أن يأخذها لنفسه أو يدعها لله وللرحم (١) .

أما إذا تكلم أهل الطائف عن الله والرحم فقد أخذت عريكتهم تلين ، ثم إن الأشهر الحرم قد قرب دخولها ، والحصار قد طال مداه حتى كرهه المسلمون وبخاصة عندما تأكدوا من كثرة المئونة داخل الطائف ، وبعُد الأمل فى الاستسلام القريب ، وإزاء هذه الظروف لجأ الرسول إلى حل آخر هو حصار الطائف حصاراً أوسع : فهل تستطيع الطائف أن تعيش وحدها على الوثنية بعد أن دخلت الجزيرة العربية كلها فى الاسلام ! وهل تستطيع الطائف أن تقف موقف العداء من العرب جميعاً !

ورفع الرسول الحصار عن الطائف وعاد إلى الجعرانة حيث كانت تنتظره السبايا والأسلاب التى حصل عليها المسلمون عند هزيمة هوازن ، وفى الجعرانة جاءه وفد من هوازن مسلمين تائبين وطلبوا أن يرد الرسول إليهم أموالهم وأهليهم ؛ فنزل لهم الرسول عن حقه وحق بنى عبد المطلب فى المال والسبى وحبب الرسول للمسلمين التنازل عن حقوقهم ، ووعد من غلبه الحرص بجزاء أوفى مما قد يجىء من غنائم ؛ فاقتدى المسلمون بالرسول وتنازلوا عن حقوقهم فى الأموال والسبايا (٢) .

وأعلن الرسول أن مالك بن عوف لو جاءه مسلماً لعفا عنه ورد إليه أهله وماله ، فخرج مالك من الطائف وقصد الرسول وأعلن إسلامه واسترد ماله وذويه (٣) .

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد : ص ١٩٧ .

(٢) ابن هشام ٢ : ٣٠٦

(٣) المرجع السابق ص ٣٠٧ .

أما الطائف فسرعان ما أدركت قوة الحصار الواسع الذى فرضه عليها المسلمون ، وقد عبر بعضهم عن هذا الحصار بقوله « أفلا ترون أنه لايأمن لكم سرب ، ولايخرج منكم أحد إلاافتطع [1] » ولذلك كونت ثقيف وفداً جاء إلى الرسول وأعلن إسلام أهل الطائف ودخول ثقيف فيما دخل فيه العرب جميعاً [2] ، وقد تم إسلام الطائف بعد غزوة تبوك التى تقهقر فيها الروم ولم يواجهوا المسلمين ، فأدركت الطائف أن قوة المسلمين أعظم من أن يفكروا فى مقاومتها ، وتم إسلام ثقيف فى رمضان سنه ٩ هـ

ومن الطرائف التى يجدر ذكرها هنا أن بنى ثقيف حاولوا أن يشترطوا أو أن يلتمسوا أن تبقى لهم إلاهتهم « اللات » ولو فترة من الزمن ، ولكن هذا الالتماس قوبل بالسخرية ، فليس فى الإسلام سبيل لاجتماع الوثنية والتوحيد ، وأمر الرسول من حطم هذا الصنم كما تحطمت أصنام مكة من قبل [3] .

وهكذا أصبحت الجزيرة العربية لأول مرة فى التاريخ دولة متحدة قوية ، لها مبادئ ولها حضارة ، ولم يبق فى الجزيرة العربية إلادين واحد التف حوله الناس من الشمال ومن الجنوب .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢٥ .
(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ١٩٧ والبلاذرى ص٦٢
(٣) انظر كتاب الأصنام لابن الكلبى فى عدة مواضع

غزوة تبـــوك

زمنها : رمضان من السنة التاسعة للهجرة .

مكانها : مدينة تبوك فى شمالى الجزيرة العربية .

سببها :

سبق أن تحدثنا عن غزوة مؤتة ، وقررنا أنه سقط فيها عدد من المسلمين فيهم القادة الثلاثة الذين تولوا قيادة الجيش ؛ الواحد بعد الآخر ، وقلنا إنه لما تولى خالد بن الوليد قيادة جيش المسلمين استطاع أن يحتال حتى عاد بالجيش دون أن تقع هزيمة كاملة . وذكرنا كذلك أن الروم سقط منهم نفس العدد الذى سقط من المسلمين ، وأنهم لم يتابعوا المسلمين بعد انسحابهم وقنعوا بهذه النتيجة ، ولكن بقى فى نفوس الروم وفى نفوس المسلمين قلق كل من الآخر ، وعند ما حقق المسلمون بعد مؤتة ألواناً من الانتصارات ففتحوا مكة ، وهزموا هوازن وثقيف ، أدرك الروم أن مسئوليتهم فى مصارعة المسلمين ضرورية ، وأنه لم يبق غيرهم يلتزم بمواجهة المسلمين ، إذ لم يعد هناك أمل أن يتولى العرب القضاء على الإسلام ، فجمعت الروم جموعاً كثيرة بالشام ، ورزق هرقل أصحابه أجر سنة مقدماً ، وأجلبت مع هرقل لخم وغسان وغيرهما(١) .

وزحف ذلك الجيش إلى أطراف الجزيرة العربية ، وجد الرسول فى إعداد جيش يقابل به جيش الروم ، ولكن الظروف هذه المرة كانت غير الظروف فى الحروب السابقة ، ونستطيع أن نقرر شيئاً لم يذكره كثير من المؤرخين ، وهو أن العرب أرعبهم أن يقفوا وجهاً لوجه أمام الروم ، فالروم قوم غير قوة العرب فى معداتهم وحصونهم وتدريبهم ، والعربى مدرب على القتال ولكن تبعاً لوسائل الحرب فى الجزيرة العربية ، ثم إن الهزيمة التى لحقت بجيش مؤتة كانت لا تزال عالقة بالأذهان ، فخاف العرب من

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٢ .

تكرارها . والروم بلاد بعيدة عن عاصمة المسلمين ، والوصول إليها شاق عصيب يتعب الزاحف وينال منه ، ويجعله بعيداً عن مراكز التموين والإمدادات ، ثم إن الوقت كان شديد الحرارة ، وكان وقت حصاد[1] ، وكل هذه الظروف جعلت الرسول يعلن أصحابه قبل الخروج بهدفه حتى يستعدوا ، وكان من عادته أن يخرج بهم دون أن يخبرهم إلا بعد الخروج[2]. وكل هذه الظروف أيضاً جعلت المنافقين يعلنون نفاقهم ويتخلفون عن ركب المجاهدين ، بل جعلتهم يحاولون تثبيط الهمم وإضعاف العزائم ، وكانوا يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى ليدبروا تثبيط همم المسلمين عن الغزوة ، فوكل الرسول لطلحة بن عبيد الله ونفر من المسلمين أن يحرقوا هذا البيت . وقد أورد القرآن الكريم ظروف هذه القصة فى آيات كثيرة من سورة التوبة نورد منها الآيات الآتية :

— يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل[3] .

— لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون[4] .

— فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا لاتنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون ، فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين[5] .

---

(١) ابن هشام ٢ : ٣١٦ وابن القيم ٣ : ٢ .

(٢) المرجعان السابقان .

(٣) سورة التوبة الآية ٣٨ .

(٤) سورة التوبة الآية ٤٢ .

(٥) سورة التوبة الآيات ٨١ - ٨٣ .

وبينما كان هناك عرب يرعبهم أن يقفوا فى وجه الروم ، وبينما كان هناك منافقون ينشرون الخوف ويتلمسون الحيل حتى لا يلحقوا بجيش المسلمين ، كان هناك مسلمون امتلأت قلوبهم بالإيمان ، يستجيبون إذا دُعوا ، ويعرضون نفوسهم وأموالهم لخدمة الإسلام دون تردد أو خوف ، هؤلاء الذين أدركوا أنه « لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون »[1] . وكان عثمان بن عفان من أهم من سخا واحتسب فى هـذه الغزوة ، فقد روى أنه قدم مئات من الإبل بأقتابها وعدتها ، وبعض الخيول ، وألف دينار[2] .

ومن هؤلاء الأبطال تكوّن جيش المسلمين فى هذه الظروف الحرجة ، وقد سمى هذا الجيش « جيش العسرة » للصعوبات التى أحاطت بتكوينه وحظى أفراد هذا الجيش برضاء الله ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة[3] ﴾ .

وزحف الجيش مستعداً للفداء ، وإن جل الفداء ، وكان تعداده ثلاثين ألفاً ، وقيل أربعين وقيل سبعين ، ولم يكن الروم ينتظرون أن يستجيب هذا العدد الضخم من المسلمين للحاق بالجيش فى فترة الحصاد وزمن الحر القاسى ، ولذلك راعهم أن يقدم لهم هذا الجيش الكبـير يقوده أبطال لا يعرفون الانهزام ، من أمثال أسيد بن حضير والحباب بن المنذر وخالد بن الوليد ، ولذلك نجد جيش الروم يتقهقر ليتخذ سكانه داخل بلاده مدافعاً بعد أن كان يريد الهجوم .

---

(١) سورة التوبة الآيتان ١٢٠ : ١٢١ .

(٢) تختلف الروايات فى تقدير عدد الإبل التى قدمها عثمان ولذلك آثرت أن أذكرها هكذا مجملة (انظر زاد المعاد ١ : وتهذيب الأسماء للنووى ١ : ٢٢٣ وابن هشام ٢ : ١٣٦ ، ٣٥٢)

(٣) سورة التوبة الآية ١١٧ .

ولم يرد الرسول أن يهاجم العدو بعد أن تقهقر ، وإذاً فليعسكر الرسول بجيشه عند تبوك حيث أرهب الأعداء ، وعمل المعاهدات مع سكان الحدود بين الجزيرة العربية والشام ، وقد شملت هذه المعاهدات سكان تبوك وأيلة ، كما أرسل النبي خالد بن الوليد مع فريق من الجيش إلى دومة الجندل ، فخضعت له (١) .

وانتهت بذلك غزوة تبوك ، وهي آخر غزوات الرسول صلوات الله عليه .

الثلاثة الذين خلفوا

تخلف عن غزوة تبوك حوالي ثمانين شخصاً ، فلما عاد الرسول منها عودة مباركة جاء أكثر المتخلفين يعتذرون بمعاذير كاذبة ، فقبل رسول الله معاذيرهم الظاهرة وترك أمرهم إلى الله ، وقد نزلت آيات سورة التوبة تهاجمهم وتكشف سترهم ، ولكن كان من بين المتخلفين ثلاثة صدقوا الرسول واعترفوا أنهم لم يكن لهم عذر يمنعهم من المشاركة في هذه الغزوة وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وقد عاملهم الرسول معاملة المذنبين ، فأمر بمقاطعتهم ، فأعرض المسلمون عنهم خمسين ليلة ، لا يكلمهم أحد ولا يعاملهم أحد حتى ضاقت عليهم الأرض لكنهم كانوا ثابتين عند موقفهم ، ويرون أن ذلك أيسر عند الله ورسوله من الكذب في اختلاق الأعذار ، وقد عانى هؤلاء أشد العناء حتى عفا الله عنهم ونزل فيهم قوله تعالى « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم (٢)

(١) ابن هشام ٢ : ٣١٩.

(٢) سورة التوبة الآيتان ١١٧ - ١١٨ .

عام الوفود

قال ابن إسحق أول من دون السيرة النبوية : لما فتح رسول الله مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ، ولذلك سمى العام التاسع للهجرة عام الوفود[1] .

ويذكر ابن هشام[2] ، هذه الوفود ويقتبس مما ألقاه خطباؤها وشعراؤها ، ومن هذه الوفود وفد بني تميم ، وبني عامر ، وبني سعد بن بكر ، ووفد عبد القيس ، وبني حنيفة ، ووفد بني طيء ، وبني زبيد وكندة ، ووفد همدان ، وغيرها[3] ، وهكذا يلاحظ الباحث أمراً عجباً ، ففي عشر سنوات — وما أقصرها في عمر الدول — نرى الرجل الذي كان يعرض نفسه على القبائل ، قد أصبح يجلس في داره حيث تفد له وفود القبائل التي تقطن قريباً من المدينة أو بعيداً عنها ، ونجد الإسلام الذي كان محدود الانتشار قليل الأتباع يصبح دين الجزيرة كلها ، ويصبح لأتباعه صولة وكلمة مسموعة ، ونرى الرجل الذي خرج من مكة في جنح الظلام متسللا والأعداء يحيطون به من كل جانب ، يعود إلى مكة منتصراً في جيش عظيم ، وتقف له مكة ؛ تحسن استقباله وتتبع دعوته ، وهكذا عمت الدعوة الإسلامية شبه الجزيرة العربية ، ونعم محمد بأن رأى زرعه يثمر ، ودين الله ينتشر على يديه .

حج أبي بكر بالمسلمين سنة ٩ ﻫ

وعليّ بن أبي طالب يؤدي عن الرسول بعض الأحكام

بعد شهور من غزوة تبوك بعث الرسول صلوات الله عليه أبا بكر أميراً على الحج في السنة التاسعة ليقيم للمسلمين حجهم ، وكان هناك أناس من العرب ممن لا يزالون على الشرك يحجون إلى البيت الحرام تبعاً لتقاليدهم

---

(١) ابن هشام ٢ : ٣٣٣ .

(٢) المرجع السابق ٣٣٣ — ٣٥٠ .

(٣) انظر بعض الوفود أيضاً العقد الفريد ج ٢ ص ٣١ وما بعدها .

التى كانت قبل الإسلام ، وقد سمح المسلمون لهم بذلك بناء على معاهدات كانت بينهم وبين الرسول ، ويقول ابن هشام(١) : إنه كانت هناك عهود بين الرسول وبين بعض المشركين على أن لا يُصَدّ عن البيت أحد جاءه وبعض العهود كانت إلى آجال مسماة ، وقد نزلت سورة براءة تحسم هذه الأمور ، واختار الرسول على بن أبى طالب ليؤدى عنه هـذه التعاليم الجديدة ، وليُسمع جميع الحجيج أوامر الله الجديدة فى هذا الشأن ، وعندما لحق علىّ بأبى بكر فى الطريق سأله أبو بكر : آمر أو مأمور ؟ فقال علىّ : بل مأمور من رسول الله لأداء عمل غير الامارة التى وُكِّلَتْ إليك لتقود الحجيج ، فأقام أبو بكر للناس الحج فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها من قبل ، حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذّن فى الناس بالذى أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد هذا العام مشرك ؛ ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته ، وأجل الناس أربعة أشهر من يومه ذاك ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ، ولا ذمة إلا لأحد كان له عند رسول الله عهد إلى مدة فهو إلى مدته ، وقرأ علىّ آيات مطلع سورة براءة فى هذا الشأن ، ونقتبس منها الآيات التالية :

– براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزى الله ، وأن الله مخزى الكافرين ، وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسولُه ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وأن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين .

– يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا .

ومنذ ذلك اليوم لم يحج مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .

(١) السيرة النبوية جـ ٤ ص ١٣٩ وما بعدها .

تمام الدعوة

يروى المؤرخون أنه عندما نزلت سورة النصر « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا » ، عندما نزلت هذه السورة بكى بعض مَن سمعها ، قيل : ما يبكيك ! قال : إن معنى هذه السورة قرب وفاة الرسول ، فقد جاء نصر الله وفتحت مكة ، وجاءت أفواج الناس تدخل فى دين الله ، وأُمِرَ محمد بالاستغفار بعد ذلك . ومعنى هذا أن مهمة الرسول قد تمت بنجاح ، وبإتمام مهمته العظمى يطلب الله منه أن يستغفر لذنبه ، وأن يستعد للقائه .

ومثل هذا ما قيل فى الآية الكريمة التى كانت خاتمة القرآن الكريم : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[1] فقد دلت على كمال الدين وتمام القرآن ، وأصبحت بذلك إشارة للرحيل .

حجة الوداع

تمت حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة ، وقد خرج الرسول لها فى مائة ألف مسلم أو يزيدون ، وخطب الرسول فى هذا الجمع الكبير من المسلمين خطابه الخالد ليُشهدهم على أنفسهم بأنه بلَّغ وأوفى . وليضع أسمى دستور للبشرية ، ومما جاء فى خطابه قوله : (أيها الناس اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلا بحقها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكم رءوس أموالكم ، لاتظلمون ولاتظلمون ، وإن كل دم كان فى الجاهلية فهوموضوع ، وإن الشيطان يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه يطمع فيما سوى ذلك فاحذروه ، أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من

---

(١) سورة المائدة : الآية الثالثة .

تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لافضل لعربي على عجمي ولالعجمي على عربي إلا بالتقوى)[1] .

مرض الرسول ووفاته

بعد حجة الوداع بحوالى ثلاثة شهور مرض الرسول بالحمى ، واشتد عليه المرض فلم يستطع أن يخرج للصلاة بالناس ، فأمر أبا بكر أن يصلى بهم[2] ، وقد أحس الرسول بجزع المسلمين لمرضه وتوقع وفاته، وعرف أنهم أحاطوا بالمسجد محزونين ، فخرج إليهم متوكئاً على عمه العباس وابن عمه على بن أبي طالب ، وجلس على أول مرقاة من المنبر وأحاط به المهاجرون والأنصار فخطب فيهم قائلا : أيها الناس . بلغنى أنكم تخافون موت نبيكم ، هل خلد نبي قبلى فأ خلد فيكم ؟ ألا إنى لاحق بربى وأنتم لاحقون بى ثم أوصى المهاجرين بالأنصار وأوصى الأنصار بالمهاجرين، ولم يطل مرض الرسول بعد ذلك ، فانتقل لجوار ربه يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١١ هـ ، وكان صلى الله عليه وسلم فى الثالثة والستين من عمره .

وقد وقع خبر وفاة الرسول وقعاً شديداً على المسلمين على الرغم مما قاله الرسول منذ مدة وجيزة ، وكان مفاجأة لم يصدقها الكثيرون منهم[3] ، ووصل الجزع إلى الأبطال المغاوير ؛ فإن عمر بن الخطاب صرخ قائلا : زعموا أن محمداً قد مات ، وإنه والله ما مات ، لكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] . . . وعلم أبو بكر بخبر الوفاة فحضر على عجل . ودلف إلى حجرة الرسول فرآه مسجى ، فكشف عن وجهه وقبله وقال : طبت حياً وميتاً ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشئون . ثم خرج أبو بكر إلى الناس

---

(١) انظر الخطبة كلها فى ابن هشام ٢ ص ٣٥٠ .

(٢) ابن هشام ص ٣٧٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ٢ : ٢١٩ .

(٤) ابن هشام : ٢ : ٣٧٢ .

فأيقظهم من غفلتهم ورد لهم أحلامهم بخطابه الرائع الذى جاء فيه : أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ﴾[1]. وأفاق الناس وأفاق عمر حتى ليروى أن عمر قال : والله لظننت أنه ليس فى القرآن آية كهذه حتى ذكرنيها أبو بكر .

وصلى الناس على الرسول أفواجاً ، ودفن فى المكان الذى توفى فيه ، صلى الله عليه وسلم .

ومات محمد بعد أن أرسى معالم النور فى عالم كان مليئاً بالظلمات ، ونشر العدالة فى دنيا كان العادل فيها يعد ضعيفاً مغلوباً على أمره ؛ ونادى بالمساواة حيث كان نظام الطبقات أساس حضارة العالم . مات محمد ولكن تعاليمه حية خالدة ، تنساب من مكان إلى مكان ، فتهدى الضال وترشد التائه ؛ وتمر السنون ودين الإسلام يشع جلالا وعظمة ويفيض بأسمى المبادىء التى تعد غذاء لأرقى الحضارات .

لمحة من صفات الرسول

قلت فى كتابى « المجتمع الإسلامى : أسس تكوينه ، أسباب ضعفه ، وسائل نهضته » إن أخلاق الرسول وصفاته الشخصية كانت من أهم العوامل التى ساعدت على نجاح المجتمع الإسلامى الأول . فقد كانت أخلاقه رخاء وسماحة وصفاء ، وحسبك أن الله سبحانه وتعالى وصفه بقوله : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[2] ، ووصف الرسول نفسه بقوله : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وقد كانت هذه الأخلاق من الأسباب التى جمعت الناس حول محمد ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾[3] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٤٤ .
(٢) سورة القلم الآية ٤ .
(٣) سورة آل عمران الآ ١٥٩ .

وأخلاق الرسول السمحة بدأت قبل البعثة ، فلم يسجد لصنم قط ، وكان معروفاً بين أهله وقومه بالصادق الأمين ، ولم يشترك فيما تعود شبان قريش أن يقوموا به من عبث ومجون .

وبعث محمد وتبعه بعض الناس وعاداه آخرون ، ولكن أعداءه لم يستطيعوا أن يجدوا فى أخلاقه مطعناً ، ولم يستطيعوا أن يزعموا أن فيه نقيصه ، أو ثلمة .

وعظم شأن الإسلام وانتشر ، وكبر سلطان محمد باعتباره الرئيس الدينى والرئيس السياسى ، ولكن مظاهر السلطان لم تعرف طريقها إليه ، فقد ظل يحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويأكل مع الخادم ، ولم ير أصحابه فيه إلا رائداً وصديقاً ، كان ينهاهم عن الوقوف له إذا أقبل عليهم ، وكان يجلس معهم كواحد منهم ، وإذا قدم وهم جالسون اتخذ مكانه حيث انتهى به المجلس ، وكان يمازحهم ، ويداعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة[1] .

ولم تقف سماحة نفسه عند أتباعه ، بل امتدت إلى أهل الكتاب ، فكان يقبل دعوتهم ، ويحسن استقبالهم ، وقد فرش عباءته لنصارى نجران عندما وفدوا عليه وطلب منهم الجلوس عليها ، وكان يزور مرضاهم ويشيع جنازاتهم .

وكان زاهداً فى الدنيا ، يؤثر على نفسه ولو كانت به خصاصة ، وكان لا يدخر شيئاً لغده ، حتى لقد توفى وقد رهن درعه عند يهودى فى قوت عياله ، وكان شديد الزهد فى الحياة المادية ، اتخذ فراشاً خشناً ، وطعاماً بسيطا ، بل لقد عانى الجوع أكثر من مرة ، وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام .

وكان لامع الذكاء ، عميق التفكير ، سريع البديهة ، وكانت تحيط به

---

(١) أفاض الإمام الغزالى فى وصفه لأخلاق الرسول فى أكثر من موضع بكتاب الإحياء . انظر كذلك زاد المعاد ج ١ : ٣٤-٤٧ .

أحياناً مشكلات جسيمة ولكنه لم ينهزم أمام واحدة منها ، بل كان يبحث عن الحلول فى وقت تقف فيه العقول عن التفكير ؛ وحسبك أن تذكر موقفه عندما اضطرب جيشه فى غزوة أحد ، وخر صفوة من أتباعه ، وتشتت افراد جيشه ، ومسه هو الضر وسقط فى حفرة والدم ينزف منه ، ونادى منادى قريش إن محمداً قد مات ، فأراد أحد المسلمين أن يكذبه ، وأن يصيح بأن محمداً لايزال حياً ، ولكن الرسول أسكته فقد أدرك ـ وهو فى حاله تلك ـ أن خبر موته سيوقف نشاط المنتصرين ، ويضمن السلامة لكثير من أتباعه . وهذا ما كان .

ومحمد : ككل مصلح وكل رسول ـ كان له أعداء ، ولايزال له أعداء ؛ ولكن أحداً من هؤلاء لم يستطع أن يجرحه فى أخلاقه ، أوأن يجد فى صفاته ما ينال منه . وكثير من المستشرقين الحانقين على الإسلام يذكر أن نجاح محمد كان نتيجة لذكائه ، وخلقه ، وحسن معالجته للأمور ، وتفوقه الذهنى والخلقى على رجالات عصره .

ومن خصائص الدين الذى جاء على يد محمد التوحيد المطلق الذى لا هوادة فيه ، وخلوه من التعقيدات اللاهوتية ، وبعده عن الكهنة والقرابين ، وقد اتخذ محمد كل الاحتياط ليحول دون تألهه بعد مماته ، كما أن من أهم خصائص هذا الدين إصراره على أن المسلمين جميعاً إخوة متساوون تماماً مهما اختلفت ألوانهم أو أصولهم أومراكزهم [1] .

رحم الله محمدا ! لقدكان نفحة سماوية أمدها الله بالتأييد ، وحباها كريم الصفات ونبيل السجايا ، ومنح العالم على يده ديناً جديراً بأن يكون خاتم الأديان لما يكفله للبشرية من تنظيم أمور الدين وأمور الدنيا .

---

(١) Wells موجز تاريخ العالم ص ٢٠٢ .

الدَعْوة الإسْلامِيّة وفلسَفتهَا

انتشر دين الاسلام فى حياة الرسول بين سكان الجزيرة العربية كلها، وانتشر بعد الرسول فى كثير من بقاع الأرض ، ومن أجل هذا يحسن بنا أن نقف هنا وقفة نبين فيها مبادىء هذا الدين ، ووسائل انتشاره ، وأثره على العرب الذين حملوا مبادئه ، وناضلوا تحت رايته ، وبالتالى أثره على الإنسانية ، وقد درسنا حضارة الإسلام فى كتب خاصة [1] ، ولكن قارئنا الآن قد لا يكون فى وسعه أن يطلع على ما كتبناه هناك ومن أجل هذا نورد له هنا طرفاً من هذه الدراسة تكفى القانع ، وتدفع الطموح إلى المزيد من الاطلاع :

١ — لمحة عن مبادىء الإسلام

وضع الإسلام الحلول لأمور الدين والدنيا : فى أمور الدين يعف التوحيد المطلق فى القمة ، فليس فى الإسلام أية شبهة من شبهات التعدد[2] ويجىء بعد ذلك الاعتراف برسالة محمد ، مع تأكيد أنه بشر جاء برسالة من عند ربه فأداها أحسن أداء ، وهو معصوم فى تبليغها ، ويمكن أن يهفو فيما سوى تبليغ الرسالة [3] ، وبعد هذا تسير أركان الإسلام تقرر ضرورة إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، وتسمى هذه الأمور الأربعة العبادات ، وللعبادات فى الإسلام فلسفة رائعة تثبت أنها ذات فائده عظمى للروح والجسم جميعاً [4] :

---

(١) انظر كتاب الإسلام وهو الجزء الثالث من سلسلة مقارنة الأديان . وانظر موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، وهى فى عشرة أجزاء للمؤلف .

(٢) يراجع فصل « الله فى التفكير الإسلامى » من كتاب « الإسلام » للمؤلف .

(٣) يراجع فصل « النبوة » من كتاب « الإسلام » للمؤلف .

(٤) يراجع فصل « فلسفة العبادات فى الإسلام » فى الكتاب السابق .

وفى أمور الدنيا يرسم الإسلام النظام السياسى والنظام الاقتصادى للمجتمع الإسلامى ؛ فيقرر أسمى نظم الديمقراطية ، وأبدع اتجاهات العدالة الاجتماعية[1] وفى أمور المجتمع ينظم الإسلام شئون الأسرة وشئون الميراث ويقرر أسمى النظم الأخلاقية ، وقد كتبت هذه الأمور بإفاضة فى كتاب « الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى » وكتاب « الإسلام » . فليرجع إليهما من يشاء .

٣ – طرق نشر الإسلام

أما نشر الإسلام فله شعبتان تتصل إحداهما بالدعوة الإسلامية بين من يعرفون اللغة العربية ، وتعم الأخرى من يعرفون اللغة العربية ومن لا يعرفونها ، أو قل إن دعوة الإسلام اتخذت سبيلها إلى قلوب الناس بطريق من اثنين أو بهما معاً . وهذان الطريقان هما :

(ا) إعجاز القرآن . (ب) سمو المبادىء الإسلامية .

سنتحدث عن كل من هذين الموضوعين بشىء من التفصيل :

١ – القرآن الكريم وأثره فى انتشار الإسلام :

نريد هنا أن نتحدث عن القرآن الكريم ، ثم عن أثره فى انتشار الإسلام وحديثنا عن القرآن الكريم يتضمن الكلام عن الوحى ، وطرقه ، وعن المحتويات الإجمالية لهذا الكتاب المقدس الذى يُعدُّ المصدر الأول للتشريع الإسلامى[2] .

أما عن الوحى فقد ذكر ابن القيم مراتبه وعدها ثمانية ، وأشار إلى أن أهمها ذلك الطريق الذى صوّرته الآية الكريمة « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين »[3] .

---

(١) اقرأ « السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى » للمؤلف .

(٢) انظر دراسة شاملة عن القرآن الكريم فى الجزء السابع من موسوعة النظم والحضارة الإسلامية .

(٣) سورة الشعراء الآيات ١٩٢ – ١٩٤ .

ومعنى الآيات أن جبريل ينزل فيتصل بالرسول اتصالا كاملا حتى كأنهما شخص واحد ، ويُلقى جبريل إلى الرسول الآيات التى أمر بحملها ، وقد روى أن الرسول كان يتفصد عرقاً عندما كان جبريل يأتيه على هذه الحالة ، وبجانب هذه الحالة ذكر ابن القيم حالات أخرى منها أن جبريل كان يأتى أحياناً فى صورته كملك ، ويلقى للرسول ما يريد أن يلقيه ، وأحياناً كان جبريل يلقى ما جاء به فى روع الرَّســول دون أن يظهر وبدون أن يتصل بالرسول ، وقد روى أن الرسول قال : إن روح القدس نفث فى روعى..... ومن الحالات التى ذكرها ابن القيم أن الله سبحانه وتعالى قد يكلم الرسول بلا واسطة ملك(١) .

أما محتويات القرآن فيمكن القول بإيجاز إنها – بالإضافة إلى المواعظ والأخبار – نُظُمُ الإسلام وقوانينه الخاصة بالدين والدنيا ، وقد ورد عن القرآن قوله تعالى « مافرطنا فى الكتاب من شىء »(٢) والمقصود أنه لا يوجد أمر ذو بال إلا وقد كشف القرآن عنه النقاب إجمالا أو تفصيلا حسب أهميته ، وقد كان القرآن كما سنرى مصدر إعجاز ، وكان مصدر تشريع ، ومصدر أخلاق ، وقد أمدنا القرآن الكريم فى الدراسة التى عقدناها عن الحضارة الإسلامية(٣) بمادة غزيرة كانت بمثابة الكنز الذى أخذنا منه لنشرح هذا الموضوع الخطير ، ويمكن أن نقول هنا بإيجاز إن بعض القرآن نزل فى مكة وإن بعضه الآخر نزل فى المدينة ، وما نزل فى مكة حوالى الثلثين وما نزل فى المدينة حوالى الثلث ، وقد اتجه الجانب المكى من القرآن إلى إبراز توحيد الله ، وإقامة الدليل على ذلك « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »(٤) كما اهتم هذا الجانب بالدعوة لمكارم الأخلاق ، وضَرْب الأمثال بالأمم الماضية وما حصل لها عندما كذبت الرسل ، أما الجانب المدنى من القرآن فقد ظهر فيه التشريع

---

(١) زاد المعاد جـ ١ ص ٨١ . وما بعدها

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٨ .

(٣) للمؤلف موسوعة فى النظم والحضارة الإسلامية تتكون من عشرة أجزاء يراها القارىء ضمن قائمة « كتب المؤلف » فى مطلع هذا الكتاب .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .

الإسلامى بتفصيله وإحاطته كنظم الميراث ، ونظم الدَّيْن ، ونظم الزواج ، والمحرمات من النساء على الرجال ، ونظم الطلاق وغيرها[1] .

والقرآن الكريم هو معجزة الرسول الأولى ، وهو كذلك معجزة خالدة تشهد – على مر السنين وتعاقب الأجيال – على صدق محمد وسمو رسالته ، وأكثر الذين يجيدون اللغة العربية يعترفون دون تردد – سواء دخلوا الإسلام أو لم يدخلوه – أن القرآن لا يمكن أن يكون من قول البشر ، لأنه أسمى بأفكاره وأسلوبه من كل ما استطاعه البلغاء وما توصل له الفصحاء ، أما الأقلية من العرب التى لم تعترف بإعجاز القرآن فقد كانت متأثرة بمؤثرات أخرى قوية حملتهم هذا الحمل الصعب الذى ظهر احيانا فى تحديهم للقرآن ومحاولة الإتيان بمثله .

وعلى هذا كان العرب بالنسبة للقرآن ثلاث طوائف :

١ – طائفة عُرفت بالقوة والشجاعة فاعترفت بإعجاز القرآن ، واتبعت الرسول .

٢ – طائفة اعترفت بإعجاز القرآن ولكن صدَّتها أسباب أخرى عن اتباع محمد .

٣ – طائفة قليلة آثرت المكابرة ، وتحدت القرآن بدافع من عصبية أو حسد ، ولكنها على كل حال انهزمت فى تحديها هزيمة منكرة .

وسنعطى بعض التفاصيل عن كل من هذه الطوائف .

١ – وتمتاز الطائفة الأولى بأنها جماعة آثرت العدالة وكان فى نفوس أصحابها طهارة من الأحقاد والأدناس ، كما كانت فيهم شجاعة وصراحة ، فما إن أدركوا إعجاز القرآن ، وأحسوا بالمعجزة قوية غلابة حتى انضموا لمحمد واعتنقوا الإسلام وتمسكوا به ، ولعل زعيم هذه الجماعة هو الخليفة طيب الذكر عمر بن الخطاب ، فقد كان قبل إسلامه شديداً على المسلمين ، وقد روى

---

(١) انظر كتاب تاريخ التشريع الإسلامى (للمؤلف) .

ابن هشام[1] عن ابن إسحاق أن عمر خرج متوشحا بسيفه ، فلقيه نعيم بن عبدالله فسأله ؛ إلى أين ؟ قال عمر : أريد أن أقتل محمداً ذلك الذى فرّق أمر قريش وسبّ آلهتها . قال نعيم : خير لك أن ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؛ فقد التحقت أختك فاطمة وزوجها سعيد بن زيد بمحمد ، فثار عمر ، وقصد دار أخته وزوجها . فلما شارف الدار سمع صوت تلاوة إذ كان عندهما خباب بن الأرت يقرئهما سورة «طه» فأيقن عمر بصدق ما سمعه عن أخته ؛ واندفع إلى الدار غاضباً ، فلما أحس به خباب اختفى وأخفتْ فاطمة الصحيفة ، فصاح عمر بأخته : ماذا كنتم تقرءون ؟ فاضطربت أخته ؛ فلطمها عمر ولطم زوجها ، فصاحت به أخته : إنه ليس من حقك أن تلطمنا . وسال منها الدم ، فأدرك عمر خطأه وهدأ ، ثم طلب أن يرى هذه الصحيفة فقرأ فيها « طه ماأنزلنا عليك القرآن لتشقىٰ ؛ إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى : الله لاإله إلا هو له الأسماء الحسنى . .) وكان عمر مثالا فى البلاغة والفصاحة ووزن الكلام ؛ فأدرك مافى هذا الكلام من روعة وجلال وإعجاز ؛ فقصد محمداً وأعلن إسلامه .

وهناك رواية أخرى عن إسلام عمر يرويها ابن هشام ، عن ابن إسحاق عن عمر نفسه ، قال عمر : كنت للإسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال قريش ، فخرجت يوماً أريد جلسائى فجئت مجلسهم فلم أجد أحداً منهم ، فذهبت إلى خمّار لأشرب عنده بعض الخمر فلم أجده . فتحولت إلى الكعبة لأطوف بها قبل عودتى للبيت ، فلما جئت المسجد رأيت رسول الله قائما يصلى ويقرأ القرآن فى صلاته ، فقلت : ماذا لو استمعت من محمد الليلة حتى أرى ما يقول ؟ فدنوت منه ولكنى لم أرد أن أروّعه ، فدخلت قبل أن يرانى تحت أستار الكعبة وجعلت أمشى رويداً رويداً حتى قمت مواجهاً الرسول وليس بينى وبينه إلا ثياب

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٤ . وما بعدها .

الكعبة ، وجلست أستمع له ، وطالت قراءته وعمقت نبراته ، وطال استماعي وعمق تأثري ، ورق قلبي ، فبكيت ، ودخلني الإسلام ، ولم أزل قائماً في مكاني ذلك حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم انصرف ، فلحقت به وأعلنت له إسلامي فكبر وحمد الله (١) .

وابن هشام بعد أن يروى عن ابن إسحاق هاتين الروايتين يروى عنه أيضاً خاتمته التي تعود أن يقولها وهي : والله أعلم أي ذلك كان .

والذى نراه احتمال حدوث السببين جميعاً ، واحتمال وقوع القصتين كلتيهما ، وقد تكون القصة الأخيرة وقعت له فرقّ قلبه للإسلام ثم دخل الإسلام بعد قصته مع أخته وختنه .

ونهج هذا النهج كثير من الفصحاء الشجعان ، ولحق بهم كثيرون من الفصحاء الذين كانت تنقصهم الشجاعة ؛ وظل هؤلاء يتغنون بجمال القرآن ويشيدون بما فيه من إعجاز وإبداع ، فقد روى أن لبيد بن ربيعة أحد شعراء المعلقات توقف عن قول الشعر بعد أن أسلم ؛ ولم يُرْوَ عنه أنه قال شعراً في الأربعين سنة التي أمضاها في ظل الإسلام إلا قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وكان إذا سئل عن شعره تلا سورة من القرآن ؛ وقال : أبدلني الله خيراً منه .

ويروى أن عربياً مرّ بفتاة تنشد الرّجز التالي :

أستغفر الله لذنبي كله
قبّلت إنساناً بغير حله
مثل غزال ناعم في دله
وانتصف الليل ولم أصله (٢)

فقال لها العربي : يافتاة ، أرجوزتك أبلغ ماسمعت من القول . قالت الفتاة . وهل ترك القرآن لنا بلاغة ياعماه؟ لوقرأت القرآن لوجدت أن أقوالنا هباء .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) أي لم أمنحه الدفء والرعاية .

قال لها العربي . ماذا تقصدين ؟

قالت الفتاة . هذه ياعماه آية واحدة من قصار الآيات ، بها أمران، ونهيان ، ووعدان ، مع جزالة وروعة أسلوب . (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولاتخافى ، ولاتحزنى ، إنا رادوه إليك ؛ وجاعلوه من المرسلين) [1] .

فأخذ العربى يكرر الآية ويقول : نعم هذا نوع آخر من القول لاعهد لنا به .

٢ — ونجىء الآن للطائفة الثانية ، هؤلاء الذين لم يتبعوا محمداً لسبب أو لآخر ، ولكنهم خضعوا للقرآن واعترفوا اعترافات جازمة بما للقرآن من حلاوة ، وما لأسلوبه من سحر وروعة ، إعجاز ومن هؤلاء الوليدبن المغيرة (أبو خالد بن الوليد) الذى- كما يقول البيضاوى[2]. سمع محمـداً وهو يقرأ سـورة السجدة فجاء قومه وقال لهم : لقد سمعت من محمد آنفا كلاماً ماهو من كلام الإنس ولامن كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق ،وإنه ليعلوولايُعلَى عليه . وكان كثيرون من قريش يحسون بإحساس الوليدولكن قلَّ فيهم من كان مثل الوليد شجاعةوجاهاً يستطيع أن يصرح بمافى نفسه ،ولقدكان تصريح الوليد ذلك فاجعة لقريش،لأن مثل ذلك دليل على ميل الوليد للإسلام . ولذلك صاحت قريش : صبأ الوليد . قال ابن أخيه أبو جهل : أنا أكفيكموه ، وقام فقعدإليه حزيناً وكلمه بما أحماه فتأثر الوليد بكلام ابى جهل وقام إلى قريش وهتف فيهم : تقولون إن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى

---

(١) سورة القصص الآية السابعة .

(٢) ابن هشام جـ ١ ص ٢١٨ .

شعراً ! فقالوا فى كل منها : لا . فقال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه . ففرحت قريش بذلك بعد أن ظنت أن الوليد مال للإسلام ، وقد روى القرآن الكريم هذه القصة مهدداً للوليد بالويل والثبور ، قال تعالى : (ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيدا ، كلا ، إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ؟ لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر)[1] وسمع الوليد هذا الكلام الملتهب فى معناه الرائع فى نهجه وأسلوبه ، سمعه ولسان حاله يقول : يتوعدنى ولكنه جميل الأسلوب حتى فى توعده وتهديده .

وهناك قصة أخرى من هذا النوع ترويها كتب الأدب والتاريخ عن ثلاثة من قريش هم أبو سفيان وأبو جهل والأخنس بن شريق ، فهؤلاء لم يتبعوا محمدا وكانوا من أقسى أعدائه . ولكنهم كانوا يتسللون فرادى إلى جدار بيت الأرقم ليتسمعوا من الكوى والنوافذ إلى محمد وهو يتلو القرآن ، وكان كل منهم يظن أنه وحده الذى يفعل ذلك ولا يدرى شيئاً عن صاحبيه ، وكان كل منهم يتخذ مجلسه فى مكان مظلم بحيث لا تراه العيون ، وحدث مرة بعد أن انتهى محمد من تلاوته للقرآن أن التقى الثلاثة بالقرب من دار الأرقم وهم يتخذون طريقهم عائدين إلى بيوتهم ، وسأل كل منهم صاحبيه : من أين جئتما ؟ وفى غمرة الدهشة لم يحر أحد منهم جواباً . واتهم كل منهم الآخرين بالذهاب لسماع محمد ، واعترفوا بأنهم فى الذنب سواء ، ولكنهم أضافوا إلى ذلك اعترافهم بخطورة العمل الذى عملوه : فإقبالهم على سماع القرآن قد يقودهم لاتباع محمد وهذا ما لا يحبونه ، ولذلك أقسموا ألا يعودوا إلى ذلك مرة أخرى ، وعادوا إلى بيوتهم .

وفى الليلة التالية تحدث أحدهم إلى نفسه قائلا : إن أحدا من هذين

---

(١) سورة المدثر الآيات ٢١ — ٢٩ .

الرفيقين لن يذهب الليلة لسماع القرآن ، فما عليَّ إن حنثت في يميني وذهبت لأسمع هذا الكلام العذب ؟ وذهب . ولكن كلا من الرفيقين الآخرين كان قد حدَّث نفسه بمثل ذلك وانتهى إلى نفس النتيجة ، ولما فرغ محمد من التلاوة أراد كل منهم أن يتأكد أنه وحده الذي جاء : فأخذ يطوف حول دار الأرقم ، فتقابل الثلاثة . ودار عتاب وشجار وأسف ممزوج بالضعف وأقسموا مرة أخرى ، ولكنهم حنثوا أيضاً مرة أخرى ، واقترح أحدهم في هذه المرة أن يجتمعوا في المساء في بيت أحدهم ليرقب بعضهم بعضاً ، إذ أن الواحد منهم وحده لا يستطيع أن يتغلب على دوافع الرغبة في نفسه ، وبذلك استطاعوا أن يتوقفوا عن استمرار ذهابهم لسماع القرآن (١).

٣ — أما الطائفة الثالثة فتشمل هؤلاء العرب الذين أعماهم الضلال فأرادوا أن يجحدوا ضوء الشمس الساطعة ، فأنكروا إعجاز القرآن وادعوا استطاعتهم أن يأتوا بمثله . وبدءوا ذلك ، وإذا بالإعجاز يأتيهم من ناحية أخرى هي أنهم تهاوَوْا ، وأُغْلِق عليهم ، فقالوا سخفاً أقل بكثير من كلامهم الذي تعودوا أن يقولوه في مناسبات غير مناسبات تحديهم القرآن ومحاولتهم تقليده والإتيان بمثله .

وقد تحدى الله سبحانه وتعالى كل البلغاء والفصحاء : فدعاهم إلى الإتيان بمثل هذا القرآن إن استطاعوا وأكد لهم أنهم لن يستطيعوا — ولو تعاونوا بحماس — أن يبلغوا هذه الغاية ، قال تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(٢).

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

ثم تحداهم الله بأن يأتوا بعشر سور فقط ؛ قال تعالى « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين »[١] . فلما عجزوا تحداهم الله أن يأتوا بسورة واحدة قال تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين »[٢] .

ولا شك أن السخف الذى قالوه لم يكن يستحق أن يُروى ولكننا نثبت منه نموذجاً واحداً مصداقاً لما قلناه .

سورة الضفدع

ياضفدع يابنة ضفدع . نقى ما تنقين . أعلاك فى الماء . وأسفلك فى الطين . لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين[٣] .

ومن الواضح أن محاولة هؤلاء المعاندين أن يأتوا بمثل القرآن تحمل فى طياتها تقديرهم للقرآن الكريم وإعجابهم به ، ولو كان القرآن لم ينل إجلالهم وإعجابهم لما حاولوا تقليده ، ولما بذلوا الجهد لتحقيق ذلك .

وقد روى لنا التاريخ أنه عندما زالت مؤثرات العصبية والحسد عن هؤلاء عاد أكثرهم يعترفون بجلال القرآن ، وكثيرون منهم اعتنقوا الإسلام وأصبحوا من خيره تابعيه ، ومن هؤلاء سجاح التى ادعت النبوة يوماً فى بنى تميم وذكرت أنه أوحى إليها بقرآن . ثم فشلت فى إقناع الناس وربما فشلت فى إقناع نفسها ، وعندما خف داعى العصبية فى التأثير عليها اعتنقت الإسلام ورجعت ترتل القرآن الكريم . ومسحت من قلبها تلك الخرافات التى توهمت حيناً أنها تنافس آى الذكر الحكيم . ومن هؤلاء كذلك طليحة بن خويلد الذى ادعى النبوة وادعى الوحى والقرآن ، ثم لم تساعده بضاعته على إطالة الوقوف فى وجه الحق فعاد يؤمن بإعجاز القرآن ويعتنق الإسلام بحماسة ظهر أثرها فى مواقفه الحربية مناضلا مع المسلمين فى حروبهم ضد الفرس . وقد سبقت الإشارة لذلك ، ولم يجن طليحة من التنبؤ الذى زعمه إلا تصغير

---

(١) سورة هود : الآية ١٣ . (٢) سورة البقرة : الآية ٢٣ .

(٣) نقلا عن عبد المتعال الصعيدى : دراسات إسلامية ص ١٠٤ :

شأنه بتصغير اسمه واسم أبيه فأصبح اسمه طليحة بن خويلد وكان فى الأصل طلحة بن خالد ، وظل الاسم المصغر علماً على الرجل حتى بعد أن تاب وأناب ، كأن العرب لم يستطيعوا أن يغفروا له غفراناً تاماً محاولته خديعتهم بما أسماه قرآناً .

ومن تقدير العرب للقرآن وإعجازه أن جميع من ادعوا النبوة منهم أحسوا بسطوة القرآن وأثره فى نفوس الناس، وكيف أنه جعل الكثيرين يدينون بالإسلام . ولهذا اتخذوا فصيح القول معجزة لهم فادعوا جميعاً نزول الوحى عليهم ، وادعوا أنه جاءهم بقرآن ، وهذا دليل واضح على ما لفصيح القول من أثر عند العرب ، ولسنا فى حاجة إلى مزيد من القول عن قيمة الأسلوب الرائع عند العرب ، فطالما كانت جموعهم تلتف حول الشعراء يسمعون قصائدهم ويطربون لها ، وقد دعاهم تقديسهم للفصيح من القول أن يعلقوا خير قصائد الجاهلية فى الكعبة لتكون فى مكان واحد مع معبوداتهم . ولتوضع فى المكان الذى يحجون إليه ويتبركون به .

المبادىء الاسلامية وأثرها فى انتشار الإسلام :

كان القرآن الكريم — كما قلنا آنفاً — من أهم الأسباب التى دعت الكثيرين من العرب إلى الدخول فى الإسلام ، ولكن كيف دخل غير العرب من المصريين والسوريين والعراقيين والفرس وغيرهم فى ذلك الدين؟ هذا ما سنتحدث عنه هنا :

لقد قلت فى كتابى « السياسة فى التفكير الإسلامى » إن عمل الحكومة الإسلامية هو أن تعيش للمحكومين وأن تعمل على إسعادهم ، فالحكومة الإسلامية تتعب ليستريح المحكومون ، والحكومة الإسلامية تسهر لينام المحكومون فى هدوء وأمن ، ومثل هذا أو أبعد من هذا كانت الحكومة الإسلامية فى عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين .

لقد طلع الإسلام على الناس بمبادىء كانت أكثر مما يأملون . وأبعد مما يتصورون ، وطبق الرسول والخلفاء الراشدون هذه المبادىء . أو قل إنهم تحمسوا لها . واختلطت بدمائهم ، ووجدوا فيها لذة ونعيماً ، فساروا

عليها ، بل ربما بالغوا فى تطبيقها باسم هذه اللذة وذلك النعيم .

ما هذه المبادىء

وما فلسفة الدعوة التى سببت تدفق الناس على الدين الجديد ؟

إن هذه المبادىء تجمعها كلمات قليلة ، ولكنها تعنى ثورة كبيرة .

إنها ألفاظ معدودة ولكنها تحقق أحلاماً أو ما هو أبعد من الأحلام .

إنها :

— المساواة .

— العدالة .

— الحاكم الفقير .

إنها هذه الكلمات أو هذه الصواعق التى قلبت الأوضاع وغيرت الاتجاهات .

لقد نادى الإسلام بالمساواة فى وقت كان النظام الطبقى متأصلا فى جميع النواحى ومختلف الأقطار فى العالم كله .

ونادى الإسلام بالعدالة فى عهد كانت العدالة تعتبر ضعفاً وخزياً . وهذا شاعر عربى يعيّر رجلا بأنه من قبيلة ضعيفة لا تغدر بالعهد ولا تستطيع أن تظلم ، قال ذلك الشاعر :

قبيلته لا يغـدرون بذمـة - ولا يظلمون الناس حبة خردل

وأهاب الإسلام بالحاكم أن يعمل للناس لا أن يعمل لنفسه ، فخلق بذلك حاكماً من نوع جديد ، حاكماً فقيراً يوجد بين رعاياه من يفوقه غنى ويملك أضعاف ما يملك ، وقد حصل هذا فى وقت كان الحاكم يعتبر نفسه مالكا للناس ولما يملكه الناس ، كان سيداً يملك الأرض ورقيق الأرض ، كان يرتع فى الملاذ ، وكان الناس يعملون ليحققوا له دوام هذه المتع وتلك الملاذ .

وعن المساواة والعدالة نذكر أنه قبل الإسلام كان بفارس ملوك يدعون أن دماء إلهية تجرى فى عروقهم ، وأنهم من طبيعة غير طبيعة البشر ، أسمى درجة وأعز شأناً ، وجاء الإسلام فحقق المساواة بين محمد أو الخليفة من بعده وبين كل من أفراد الرعية ، فهذا زيد بن سفنة اليهودى دان الرسول صلى الله عليه وسلم بدين ، وتأخر الرسول صلى الله عليه وسلم فى أداء الدّين

لعسرة ألَـمّتْ به ، وجاء زيد فأمسك بتلابيبه وجذبه بقسوة وقال له : أما آن لك يامحمد أن تسدد ما عليك من دين ؟ وارتاع عمر لقسوة زيد ، فأخرج سيفه وهمَّ بضربه ، فصاح به الرسول : ضع يا عمر سيفك فى جرابه ! لقد كان خيراً لك أن تنصحنى بحسن الأداء وتنصحه بحسن الطلب ، وذهل اليهودى مما رآه من خلق رائع ومساواة تامة مع اختلاف المكانة والدين ، فأعلن إسلامه .

وهناك يهودى آخر له حادثة أخرى مع عمر ، فقد روى أن سيف عمر ضاع ثم رآه عمر مع يهودى فادعاه ، وادعى اليهودى أن السيف سيفه ؛ فقاضاه عمر إلى قاضيه ، فلما ذهبا للقاضى جلس عمر واليهودى بين يدى القاضى ، وسأل القاضى عمر ، فادعى السيف ، وسأل اليهودى فأنكر ، وطالب القاضى عمر بالبينة فلم تكن له بينة ، فحكم بالسيف إلى اليهودى ، وعجب اليهودى كيف يحقق الإسلام المساواة بين الخليفة عظيم الشأن وبين فرد عادى من أتباع ديانة أخرى ، وكيف يجلس معه عمر بين يدى القاضى ، ثم كيف يكون الحكم لصالح اليهودى ولا يقبل القاضى قول عمر . ولم يستطع اليهودى المقاومة فاعترف بأن السيف سيف عمر ودخل الإسلام .

وهناك قصة أخرى شهيرة عن عمر وجبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة ؛ فقد دخل جبلة الإسلام وكان عمر يكرمه ويُبجله ، ولكن حدث مرة أن وطىء أحد العامة ذيل إزار جبلة وجبلة يطوف بالبيت ، فاستدار جبلة وضرب الرجل بقسوة على أنفه . فذهب الرجل وشكا إلى عمر ، فاستدعى عمر جبلة وأجلسه بجوار خصمه للقضاء ، فاعترف جبلة بأنه ضرب الرجل ، فحكم عمر بالقصاص . قال جبلة : أنا ملك وهذا سوقة تجلسه بجوارى وتقتص له منى ؟ فأجابه عمر : لقد سوَّى الإسلام بينكما[1] .

ولم يستطع جبلة أن يفهم هذه الفلسفة الجديدة التى جاء بها الإسلام ، فاستمهل عمر حتى يُرْضِى خصمه ويطيب خاطره ، فأمهله عمر ، فهرب جبلة وارتد عن الإسلام . لقد خسر الإسلام جبلة ؛ ولكن كم ألفاً من الناس

---

(١) انظر البلاذرى : فتوح البلدان ص١٤١ ج ١٤٢ والعقد الفريد ج ٢ ص ٥٦ - ٩ :

دخلوا الإسلام على أثر هذه الحادثة ؟ إنهم آلاف وآلاف دخلوا الإسلام حباً فى هذه المساواه التى لم يكن لهم بها عهد .

بل يروى أن جبلة نفسه بعد أن صحا من تسرعه وفكر فى أمره أسف لما حدث منه ؛ وتمنى لو بقى على الإسلام وتأدب بآدابه . ومما يروى عنه فى ذلك قوله :

تنصرتْ الأشراف من عار لطمة ... وما كان فيها لو صبرتُ لها ضرر
تكنّفنى منها لجاج ونخوة ... وبعتُ لها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمى لم تلدنى وليتنى ... رجعت إلى الأمر الذى لى قال عمر (١)

تلك كانت فلسفة الإسلام ، تلك كانت النافذة التى هب منها عطر الإسلام فجذب الناس إليه من كل جانب . فاعتنقته الملايين بإخلاص وإيمان(٢) .

أما عن الحاكم الفقير فقد دهش الناس عندما رأوا لأول مرة حكاما يفقدون أموالهم ، وينزلون من صفوف الأغنياء إلى صفوف الفقراء ، وكان العهد بالحاكم أن يجمع الأموال ويزيد فى ثروته ، فقد كان محمد — وكان بعض العرب يسمونه ملك الملوك — يرقع ثوبه ويخصف نعله ، ويبيت على الطوى ، وكان له مال وغنى بعد أن تزوج خديجة « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى »(٣) ، ولكنه لم يضف شيئاً

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٦١ :

(٢) قد يخطر ببال القارىء : أن العدالة والمساواة أصبحتا من الأخلاق العالمية ولا يمتاز بهما الإسلام ، ونجيب بأن أوربا التى يظن أن العدالة والمساواة تسودان بها الآن كانت بعيدة كل البعد عنهما فى العصور الماضية وفى ظلال الإقطاع ، ثم إن ما يوجد من عدالة الآن إنما هو عدالة محلية ، بين البيض فقط بعضهم والبعض ، فليس هناك من يطمع فى عدالة الإنجليز فى السودان أو إفريقية أو مصر أيام احتلالها لهذه البلاد ولا من يطمع فى عدالة الهولنديين نحو الأندونيسيين ، بل ليس هناك من يطمع فى عدالة ومساواة بين الأمريكيين البيض والأمريكيين الملونين . إن العدالة فى الإسلام عامة وعالمية وهى منحة السماء لسكان للأرض . أما عدالة المدنيات الحديثة فمحلية ،وقد أخذتها الشعوب من الحاكم قسراً وبعد صراع طويل ولا نعدو الحق اذا قلنا ان ذلك كان اقتباسا من الإسلام :

(٣) سورة الضحى : الآيات ٦ — ٨ :

إلى هذا المال ، ولم يحتفظ به ، بل فقده ، فلما مات كان مديناً ، وكان أبوبكر غنياً قبل الإسلام ثم أنفق أكثر ماله فى سبيل الله ، ولما ولى الخلافة حمل تجارته على كتفه واتجه للسوق يريد أن يربح رزقه ورزق أولاده ؛ وكان عمر وتحت سلطانه فارس وسوريا ومصر يعيش فى بيت صغير وينام فى المسجد ويرتدى لباس الفقراء ، وفقد عثمان ماله مع أنه كان من أغنى تجار العرب ،وكان علىٌّ يقدم ماعنده من الطعام إلى المحتاجين مع أنه فى حاجة إلى ذلك الطعام حتى استحق أن تنزل فيه الآية الكريمة « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »(١) .

وأدرك الفرس والسوريون والمصريون هذه الأحوال المثالية ، ووازنوا بين هؤلاء الحكام وبين الحكام الذين عرفوهم من قبل ، هؤلاء الذين كان لاهمٌّ لهم الا جمع المال وحرمان الرعية .

ولم يكن الحاكم فقط هو الذى انتبه من غفلته وعرف ربه ، ولكن المحكوم أيضاً انتبه من غفوته وعرف حقه ، وكان من قبل يؤمن بأنه وما يملك ملك لكسرى أو قيصر .

وانهال الناس يدخلون فى هذا الدين الذى حقق لهم ما هو أبعد من الأحلام .

وتوضح لنا المراجع التاريخية أن انتشار الإسلام ارتبط بعهود العدالة والمساواة لا بعهود القوة والقسر ، فكلما جاء خليفة عادل كلما انتشر الإسلام ودخله الناس أفواجاً — وقد عقد زميلنا الدكتور عبد المنعم ماجد فصلاً عن « إسلام الشعوب المفتوحة »(٢) فى عهد الخليفة طيب الذكر عمر بن عبدالعزيز ، بيّن كيف انهال الناس على الإسلام يعتنقونه فى ذلك العهد ، حتى أصبح الإسلام دين الأكثرية الغالبة بين المصريين والفرس وأهل خراسان وسكان الشمال الإفريقى ، وحتى أعلن كثير من ملوك السند وملوك ما وراء النهر دخولهم الدين الإسلامى .

---

(١) سورة الحشر : الآية التاسعة .

(٢) التاريخ السياسى للدولة العربية ، الجزء الثانى .

٣ ـ أثر الاسلام فى العرب

بقى علينا أن نعرض للنقطة الأخيرة من نقاط هذا الموضوع وهى أثر الإسلام فى العرب ، وهذه النقطة قد شرحتها بإطناب فى كتابى « المجتمع الإسلامى » فبينتُ أثر الإسلام فى الفرد وأثر الإسلام فى المجتمع الجديد ، فمن أثر الإسلام فى الفرد شرحت كيف نقل الإسلام الفرد من السيف إلى المسالمة ، ومن القوة إلى القانون ، ومن الثأر إلى القصاص ، ومن الإباحية إلى الطهر ، ومن النهب إلى الأمانة ، ومن الحياة القبلية إلى المسئولية الشخصية ؛ ومن الوثنية إلى التوحيد ، ومن امتهان المرأة إلى إجلالها ، ومن نظام الطبقات إلى المساواة[1] .

وعن أثر الإسلام فى المجتمع الجديد أبنتُ القول في أسس تكوين هذا المجتمع بما فى ذلك المؤاخاة بين المسلمين ، وتنظيم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ، وبما فى ذلك تقرير نظم الإسلام فى أمور السياسة والحكم والأمور الاقتصادية والاجتماعية وغيرها[2] .

ولا شك أن الإسلام حقق معجزة كبرى فى المجتمع العربى ، ونقله من نمط إلى نمط ، وشمل تأثيره الأخلاقَ والنظم التى تهم شئون الدين وأمور الدنيا ، وفى الكتاب الذى أشرنا إليه دراسة وافية لا تدع استزادة لدارس . وقد تحدثنا عند الكلام عن الرسول فى المدينة عن بعض هذه الاتجاهات ، ووضحنا كيف ربى الرسول الفرد المسلم وربى المجتمع الإسلامى وهكذا .

---

(١) اقرأ الفصل الثانى من كتاب المجتمع الإسلامى للمؤلف ص ٢٩ - ٤٤ .
(٢) اقرأ الفصل الثالث من كتاب المجتمع الإسلامى للمؤلف ٤٥ - ١٥٠ .

عَصْر الخلفاء الراشدين

١١ – ٤٠ هـ = ٦٣٢ – ٦٦١ م

أبو بكر الصديق

١١ – ١٣ هـ = ٦٣٢ – ٦٣٤ م

تعريف به

هو عبد الله بن أبي قحافة التيمي ، كان اسمه في الجاهلية : عبد الكعبة فسماه الرسول عبد الله ، وكنيته : أبو بكر ، قيل لأنه بكّر في دخول الإسلام ، ولقبه الصِّدِّيق ، لأنه بادر بتصديق الرسول في مواقف كثيرة حرجة ، وبخاصة في حادثة الإسراء والمعراج .

وكان في الجاهلية يشتغل بالتجارة ، وكانت تجارته واسعة ، فلما دخل الإسلام اتجه لخدمته ونشره ، ولم يوجه عناية للتجارة إلا بمقدار ما يكسب به قوته وقوت أهله ، وقد عرف في الجاهلية بالأمانة والعفة ، ولما جاء الإسلام بادر بدخوله ، ثم قام بدعاية ناجحة له ، فأسلم على يده مجموعة من أبطال الإسلام سبق أن ذكرناهم ، وهاجر مع الرسول إلى المدينة وكان « ثاني اثنين » لجأ للغار ليلة الهجرة ، ولعل من الحق أن نقرر أن طول الصحبة ، وإخلاص أبي بكر ، وصفاء نفسه ، جعلته أكثر المسلمين انتفاعاً بروح الإسلام واتجاهاته .

بيعته ومجلس شوراه :

بعد وفاة الرسول أراد الأنصار أن يكون الخليفة منهم ، وطمع علي ابن أبي طالب في الخلافة ، لمكانته في الإسلام ، وإصهاره الرسول وقرابته إليه (١) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٣ : ٩٨ .

ولكن الأغلبية الساحقة اتجهت إلى أبي بكر وبايعته خليفة (١) وسرعان ماالجتمع حوله من تردد في بادىء الأمر في مبايعته . وعقب بيعته ألقى أبوبكر خطابه الرائع الذي أعلن فيه سياسته ، ومما جاء في هذا الخطاب من المبادىء السامية قوله : أيها الناس ، إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فتابعوني وإن أسأت فقوموني ، القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم .

وكان الرسول مع مكانته من ربه ومع إمداده بالوحى يلجأ للشورى فيما لاوحى فيه ، ومن هنا أدرك أبوبكر أن حاجته للشورى أشد وأعظم ، فكوّن « مجلس شورى » من كبار الصحابة وكان يلجأ له كلما جدّ أمر ذو بال

المشكلات التي واجهها أبوبكر :

رأينا في حديثنا عن الغزوات وانتشار الإسلام أن الإسلام بدأ ينتشر بعد صلح الحديبية ، أي بعد السنة السادسة للهجرة ، وأنه بعد هزيمة هوازن وثقيف بدأت الوفود ترد إلى الرسول معلنة إسلامها ، وكان ذلك في العام التاسع ، ومن هذا يتضح لنا ان كثيرين ممن دخلوا الإسلام آنذاك لم يدخلوه عن إقتناع تام ؛ فمنهم من دخله مع الداخلين دون دراسة ودون إيمان ، ومنهم من رأى الحروب ولم يفهم أنها دفاعية فدخل الإسلام تجنبا لخوض الحروب ضد المسلمين ، ومنهم من دخل الإسلام طمعاً في مغنم أو جاه ؛ فلما توفى الرسول أبرز هؤلاء ماكانوا يخفون . وضعاف الإيمان هؤلاء كانوا يظهرون عدم ولائهم للإسلام كلما سنحت لهم فرصة ، كما فعل المنافقون بعد غزوة بني المصطلق ، وفي مطلع غزوة تبوك ، وكالأعراب الذين وصف القرآن إعلانهم في الآية : (قالت الأعرب آمنا .

---

(١) للاطلاع على الاتجاهات المختلفة حول اختيار الخليفة عقب وفاة الرسول ، يراجع ابن هشام ج : ٣٧٢ - ٣٧٣ و« السياسة في التفكير الإسلامي » للمؤلف ص ٢٧ ومابعدها

قل لم تؤمنوا ولكن قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الإيمان قلوبكم(١) ، ولكن وفاة الرسول كانت أعظم فرصة لهؤلاء ، ليظهروا ما أخفوا وليعلنوا ارتدادهم .

وبجانب عدم التعمق فى الإسلام كانت هناك العصبية ، وقد حارب الإسلام العصبية ودعا لتكوين أسرة واحدة هى أسرة الإسلام ، ولكن العصبية كانت تتجدد من حين لآخر ، وكان الرسول عدو العصبية يهجم عليها بعنف كلما ظهرت ، ومع ذلك لم تمت العصبية بل ظلت تظهر كلما أتيحت لها فرصة ، وكان كثيرون من العرب يرون فى الإسلام وسيلة فرضت عليهم سلطان قريش ، فلما مات الرسول ، وظهر للعرب أن قريشاً أخذت السلطة ولن تدعها ، قويت هذه الحركات واشتدت . فظهر فى كثير من القبائل من ادعى النبوّة وأيده قومه باسم العصبية . مع أنه كان واضحاً لهم كذبه وبهتانه .

وهناك فريق ثالث أساء تأويل بعض آيات القرآن وبخاصة تلك المرتبطة بالزكاة ، أو أساء فهمها ، فضلّ واتبع طريقاً غير طريق المسلمين .

ولهذه الأسباب نجد الجزيرة العربية تنقلب على عقبها بعد وفاة الرسول ، ونجد الإسلام يواجه أزمة قاسية أوشكت أن تقوّض أركانه ، فهنا جماعة ارتدوا عن الإسلام ، وهناك آخرون أعلنوا أنهم أنبياء وتبعهم حواريون وأشياع ، وفريق ثالث منعوا الزكاة . وتمردوا على ماسموه الإتاوة والضريبة .

وهكذا ظهر المرتدون والمتنبئون ومانعو الزكاة . وشمل هؤلاء أغلبَ الجزيرة العربية . ولم يبق تابعاً لدين الإسلام إلا مكة والمدينة والطائف ، وقد قامت هذه المدن بواجبها خير قيام . فى إعادة الحق إلى نصابه ، ولم تبخل بشىء لإعادة مجد الإسلام وإعلاء شأنه ، وحملت قريش أكبر العبء فى ذلك .

وكان التنبؤ ظاهرة تدعو لسخرية الباحث بهؤلاء المتنبئين ، لأن العرب وجدوا أنه فى رحاب النبي محمد تحققت معجزة لم يصل لها خيال العرب ، وهى وحدة العرب وتآلفهم ، وبذلك ظهر المتنبئون متخذين ادعاء النبوة وسيلة لجمع الناس حولهم ، وقد بدأ ذلك الاتجاه فى أواخر

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٤ .

حياة الرسول عندما بدأ نجاح رسالته يظهر ، وقوى ذلك الاتجاه بعد وفاة الرسول وانتشار الفتن فى الجزيرة العربية :

ومن أكثر المتنبئين خطراً مسيلمة الكذاب فى بنى حنيفة(١) باليمامة ، وقد بدأ ادعاءه فى حياة الرسول ، إذ كتب إليه يقول : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً لا ينصفون ، والسلام عليك :

فكتب له الرسول يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . والسلام على من اتبع الهدى(٢) .

وهناك عوامل ساعدت على ازدياد خطر مسيلمة وهى :

١ — قوة بنى حنيفة وبطولتهم الحربية .

٢ — استطاع مسيلمة أن يخدع الرَّجال بن عنفوة الذى أرسله محمد ليعظه ويرده عن غيِّه ، ولما خُدع الرَّجال كذب وأعلن أن محمداً أشرك مسيلمة فى الأمر .

٣ — تزوج مسيلمة من امرأة تدعى سجاح كانت قد ادعت النبوة أيضاً فى بنى تميم ، الذين كانت ديارهم على مقربة من بنى حنيفة ، وكانت مطاعة فيهم ، فانضم أتباعها إلى أتباع مسيلمة(٣) .

ويروى ابن طباطبا(٤) قصة هذا الزواج ، ولا بأس من إيراد هذه القصة هنا لطرافتها مع حذف بعض الكلمات الصريحة التى أوردها ابن طباطبا متصلة بالعلاقات الجنسية ، قال ابن طباطبا :

---

(١) أوردنا دراسة شاملة عن مسيلمة وبنى حنيفة فى الجزء السابع من هذه الموسوعة عند الكلام عن نجد .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٩٧ — ٩٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٨ وقد دخلت الإسلام بعد أن قتل مسيلمة ، انظر كذلك الكامل لابن الأثير ٢ : ٢٨٠ .

(٤) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٥١ — ٥٢ .

وظهرت امرأة من العرب اسمها سجاح ادعت أيضاً أنها نبية وأن الوحى ينزل عليها ، وتبعها بنو تميم وهم قبيلتها ، ثم سارت لقتال مسيلمة وكانت جموعها أكثر من جموعه ، فلما علم مسيلمة بمسيرها إليه فكر ، وكان داهية ذكياً ، فأرسل لها وقال : ينبغى أن نجتمع أنا وأنت فى موضع ونتدارس ما نزل علينا من الوحى ، فمن كان على الحق اتبعه الآخر ، فأجابته إلى ذلك ، وأمر مسيلمة أن تضرب قبة من أدم (الجلد المدبوغ) ويستكثر فيها من العود والبخور وقال : إن المرأة إذا اختلت برجل بين العود والبخور نشطت أنوثتها . وهذا ما كان ، ففى هذه الخلوة الشاعرية أصبحا رجلا وامرأة بعد أن كانا نبياً ونبية ، واتفقا فى النهاية على أن ما ورد لهما من الوحى يصدر عن معين واحد ، وعلى أن تعلن تصديقها له ويعلن تصديقه لها ، كما يعلن رغبته فى الزواج منها ليقوما معاً بأداء الرسالة ، وأعلنا ذلك للقوم ، وقدر مسيلمة المهر لأصهاره ، وكان ذلك المهر إعفاءهم — دون الناس — من صلاة العصر . ويقول ابن طباطبا إن كثيرين من بنى تميم لا يصلّون العصر حتى الآن ، فقد توارثوا هذه العادة منذ ذلك الحين ، ومنهم من يعلن أنه لا يصلى العصر لأنه مهر فتاة القوم .

وقد أعطت وفاة الرسول فرصة — كما سبق القول — لأتباع مسيلمة ليزداد أملهم فى النصر .

ومن الذين ادعوا النبوة أيضاً عبهلة ذو الخمار باليمن ، وهو المعروف بالأسود العنسى ، وطليحة بن خويلد فى بنى أسد ، وقد بدءا ادعاءهما فى حياة الرسول أيضاً ، وكان من أتباع هؤلاء الأنبياء المزيفين كثيرون أدركوا ضلال المدّعين ولكنهم انضموا إليهم ليقووا بهم ضد قريش التى تريد أن تستأثر بالحكم فيهم ، كما انضم لهؤلاء أيضاً كثيرون من المرتدين ليستعينوا بهم فى الوقوف فى وجه الإسلام .

وهناك مرتدون آخرون لم ينضموا إلى أحد من المتنبئين ، ولكنهم اكتفوا بترك الإسلام ومن هؤلاء سكان البحرين (١) .

---

(١) انظر الحديث المفصل عن هؤلاء فى الجزء السابع من هذه الموسوعة .

أما مانعو الزكاة فأغلبهم من اليمن واليمامة ، وقد منعها بعضهم عناداً ورأى فيها ضريبة إجبارية لم يرد أن يخضع لها ، ومن هؤلاء فيما يبدو مالك بن نويرة سيد بني حنظلة ، وقد اتُّهم أيضاً بأنه يساعد سجاح ويؤيدها [١] ولكن أغلب مانعي الزكاة أساءوا فهم الآية الكريمة (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) [٢] وظنوا أن الرسول وحده - والخطاب في الآية له - هو الذي يجوز له أن يأخذ الزكاة ، ففي ذلك تطهير وتزكية لهم ، وقد نسى هؤلاء التفسيرَ الدقيق للآية الكريمة ، كما نسوا الآيات الأخرى التي تقرر أن للفقير حقاً في مال الغني ، مثل قوله تعالى « والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » [٣]

واستشار أبو بكر الصحابة والمسلمين فيما يفعل أمام هذه المشكلات العظام ، فرأى أكثر المسلمين ألا طاقة لهم بحرب العرب أجمعين ، كما رأى بعضهم أنه لا داعي لحرب مانعي الزكاة ماداموا ثابتين على إيمانهم ، ولكن أبا بكر صاح مقسما ليحاربن الجميع حتى يثوب الجميع إلى الحق أو حتى يموت أبو بكر مجاهداً في سبيل إعلاء كلمة الله ، فاستجاب أغلب المسلمين أو كلهم إلى اتجاه أبي بكر [٤] ، ووضعت قريش أفلاذ أكبادها تحت إمرته وبدأ يعمل ، فكوّن أحد عشر جيشاً يقود كلاً منها بطل من أبطال العرب المشاهير ، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة وغيرهم ، وقد هزت هذه الجيوش الجزيرة العربية ،

---

(١) قتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة هذا ، وقصة خالد مع مالك وزواج الأول من زوجة الثاني بعد قتله من الموضوعات التي أفاض المؤرخون المحدثون في شرحها وهناك فيها اتجاهان مختلفان : يمثل الدكتور هيكل أحدهما في كتابه « الفاروق عمر » فيدين خالداً ويمثل الأستاذ صادق عرجون الاتجاه الثاني في كتابه « خالد بن الوليد » فيدافع عن خالد ويبرئه . وإلى هذا نميل .

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٣ .

(٣) سورة المعارج الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٠٤ .

وقبل أن يوجهها أبو بكر فى اتجاهاتها المرسومة أرسل كتاباً للخارجين أجاب لهم فيه عن الشبهه التى كانت قد خطرت لهم ، ودعاهم إلى العودة إلى رحاب الإسلام ، وأنذرهم إن استمروا على غيهم ، وقد نجحت الكتب مع بعض الناس ، وبقى آخرون على ضلالهم ، فاتجهت لهم الجيوش ، وكانت جولة هذه الجيوش ناجحة مظفرة فلم تلبث أن دكت الأرض حولهم . ومن أهم المعارك التى خاضها المسلمون ضد المتنبئين معركتهم ضد أربعين ألفاً[1] من بنى حنيفة وأتباعهم التفوا حول مسيلمة ، ولما التقى الفريقان سرعان ماسقط الخائن الرجال بن عنفوة ثم شد المسلمون على أعدائهم فتقهقروا ، وأراد مسيلمة أن يحتمى بحديقة فسيحة لها سور مرتفع فتراجع لها ودخلها ونادى أصحابه أن فلحقوا به ، ولكن المسلمين تسوروها عليهم ودارت بها معركة عنيفة سقط فيها آلاف من الفريقين حتى سميت « حديقة الموت » وقتل مسيلمة على يد وحشى قاتل حمزة ، وقيل على يد معاوية ، وقيل اشترك فى قتله جماعة من المسلمين[2] فى طليعتهم وحشى الذى رماه بحربة ، وعبد الله بن زايد بن عاصم الأنصارى الذى أجهز عليه بسيفه[3] ، وكان قائد جيش المسلمين فى هذه المعركة البطل العظيم خالد بن الوليد[4] .

وانهزمت كذلك جيوش الأسود الذى كان يلقب نفسه رحمان اليمن وقتل غيلة فى الليلة التى توفى الرسول فى صبيحتها[5] وكان قد استولى على نجران وصنعاء وحضرموت وعدن والبحرين والاحساء ، ولم تطل مدته أكثر من أربعة اشهر .

أما طليحة بن خويلد فقد اتبعه قومه بنو أسد كما اتبعته طىء وغطفان ،

---

(١) ابن الأثير — الكامل ٢ : ٢٤٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٨ .

(٣) النووى : تهذيب الاسماء : القسم الأول ج ١ ص ٢٣٨ .

(٤) زرت وادى حنيفة الذى جرت به هذه المعارك ، ودونت مزيداً من التفصيل عنها فى الجزء السابع من هذه الموسوعة .

(٥) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٢ وابن الأثير ج ٢ ص ١١٤ .

وعظم أمره عقب وفاة الرسول ، فأرسل له أبو بكر خالد بن الوليد على رأس جيش عظيم ؛ فتخلت عنه طيء وعادت للإسلام وظل معه بنو أسد ، ولكن طليحة انهار أمله أمام خالد ففر إلى الشام واختفى ثم أسلم فى عهد عمر(١) وحسن إسلامه واشترك فى الفتوح .

ومما يذكر أن القراء (حفظة القرآن الكريم) كان لهم دور كبير فى هذه الحروب ، فقد استطاعوا بصمودهم أن يبرهنوا على عزيمة قوية وعلى بطولة فائقة ، ويروى أنهم كانوا حماة اللواء فى هذه الحروب ، ولما انكشف المسلمون فى إحدى مواقع هذه الحرب كان غضب القراء بالغاً وصاحوا : ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ كل واحد منهم يخط فى الأرض خطاً بحيث لايتجاوزه إلى الوراء ، ويقاتل مستميتاً دون أن يتقهقر حتى ينتصر أو يموت .

وينسب للقراء أنهم فى هذه الحروب ألفوا كتائب فدائية انتحارية كان شعارها النصر أو الموت ، وقد استطاعوا بذلك أن يسحقوا الأعداء فى مواقف كثيرة ويحققوا النصر للإسلام والمسلمين .

وعلى كل حال فقد جالت الجيوش الإسلامية جولة فى الجزيرة العربية أعادت خلالها الثائر إلى الهدوء . والضال إلى الهداية ، وعادت الجيوش إلى المدينة وقد عادت للجزيرة العربية وحدتها وتمسكها بالدين الحنيف بعد أن زالت الشبهات والترهات بالحكمة عند من عرف الحكمة ، أو بالسيف عند من دفعته العصبية الضالة إلى السيف ولم تعرف لحكمة إلى نفسه سبيلا.

التوسع الإسلامى فى عهد أبى بكر :

إن انتفاض الجزيرة العربية جدد الأمل عند الفرس والروم بأن العرب سيقضون على الإسلام ، وقدمت الفرس والروم للعرب الثائرين على الحكم الإسلامى كثيراً من المساعدات وآوت الفارين منهم ، ولذلك لم يكد المسلمون يعيدون الجزيرة إلى وحدتها حتى كان الأوان قد آن للزحف نحو

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ١٠٥ .

الشمال لمواجهة العدوين الكبيرين اللذين يتربصان بالإسلام ، ويعملان على القضاء عليه ؛ ومات أبو بكر والمعارك دائرة بين المسلمين من جهة والفرس والروم من جهة أخرى ، وظهرت ثمرة هذا العمل فى عهد عمر ؛ ولذلك سنرجىء الكلام عن هذا التوسع الذى تم فى عهد الخليفتين لنتحدث عنه عند الحديث عن الخليفة عمر .

وفاة أبى بكر :

مرض أبو بكر وتوفى بعد أن أمضى فى الخلافة عامين وبضعة شهور ، وهى مدة وجيزة ولكنها حاسمة فى تاريخ الإسلام ، لقد واجه أبو بكر فيها أحرج المواقف ، ويمكن القول إنه فى فترة منها كان يقف وحده[1] ، ولكنه بإيمانه ويقينه سرعان ماضم المسلمين إلى رأيه ، ثم سار بهم يدك صروح الشرك ويقوض الشكوك والأوهام ، بل سار بهم يحطم قصور كسرى وقيصر ، ولانكاد نجد موقفاً عظيما فى الصدر الإسلامى إلا واسم أبى بكر بارز فيه ، رحم الله أبى بكر ، لقد تمثلت فيه كل المعانى الإسلامية الرائعة .

---

(١) ذلك عند إصراره على محاربة المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة فى حين اتجه باقى المسلمين إلى المسالمة قائلين : كيف نحارب الجزيرة العربية كلها .

عمر بن الخطاب

١٣ — ٢٣ هـ (٦٣٤ — ٦٤٤ م)

تعريف به :

هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي من بني عدى الذين كان لهم بين قريش — قبل الإسلام وبعده — شرف ومجد ومكانة عظيمة ، وكان عمر يشتغل بالتجارة ، وفى الجاهلية كان سفير قومه إذا تأزمت الأمور بينهم وبين الآخرين . واشتهرت عنه قبل إسلامه وبعده شجاعة لاتعرف الخوف وعزيمة لاتعرف التردد .

وكانت الدعوة الإسلامية فى مطلعها ضعيفة تحتاج إلى قوة ، ولذلك أثر عن الرسول أنه قال : اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين (عمرو بن هشام (أبو جهل) أو عمر بن الخطاب) وقد استجاب له الله فأسلم عمر فى السنة الخامسة للدعوة ، وكان إسلامه فتحاً مبينا ، وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة ، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى فى البيت خوفاً من قريش ، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا(١) ، وقصة إسلام عمر مشهورة ، وقد تحدثنا عنها عند كلامنا عن أثر القرآن فى انتشار الإسلام .

توليته الخلافة :

شهد أبو بكر الخلافات التى حدثت عقب وفاة الرسول ، والأطماع التى أوشكت أن تفرق كلمة المسلمين ، وقبيل وفاة أبى بكر كانت الجيوش الإسلامية تخوض أقسى المعارك التى عرفها التاريخ فى ذلك الحين ، إذ كانت الحروب دائرة بين المسلمين من جهة وبين الفرس والروم من جهة أخرى ، والجيوش فى ميدان القتال تحتاج إلى عون متصل من العاصمة ، عون بالرأى والسلاح والرجال وغير ذلك ، ورأى أبو بكر أنه لو ترك المسلمين بلا خليفة فإنهم قد يختلفون اختلافاً كثيراً أو قليلا ، واضطراب العاصمة سيؤدى إلى

---

(١) النووى : تهذيب الأسماء القسم الأول جـ ٢ ص ٤ .

هزيمة كبيرة للجيوش المحاربة ، وقد يمتد الخلاف إلى الجيوش نفسها فيؤيد قائدٌ مرشحاً ، ويؤيد قائد آخر مرشحاً آخر ، فتنقلب الحروب إلى معارك داخلية وهزائم قاتلة ، ومن أجل هذا رأى أبو بكر أن يعين خلفه بعد أن يستشير الناس ، أو أن يستشير الناس ويعين لهم مَنْ يرضونه ، وكان عمر هو مرشح الخليفة ومرشّح الناس ؛ ومَنْ غير عمر لهذا المكان وهناك عمر؟ ولذلك كتب أبو بكر وثيقة تعيين عمر بعد الاستشارة واتحاد الكلمة (١) .

التوسع الإسلامي في عهد أبي بكر وعمر :

تحدثنا من قبل عن أسباب تفكير المسلمين في محاربة الفرس والروم ، ونريد هنا أن نتتبع مراحل هذا التوسع ، وقد بدأ النضال بين المسلمين من جانب والغساسنة ومعهم أحلافهم الروم من جانب آخر في غزوة مؤتة التي كان يقودها زيد بن حارثة مولى الرسول ، وقد قتل فيها هو واثنان توليا القيادة بعده ، ثم جاءت غزوة تبوك ولكن المسلمين لم يثأروا فيها لقتلاهم بسبب انسحاب جيش الروم وعدم وقوع حرب كما سبق .

فلما تمت انتصارات الإسلام في الجزيرة العربية ، ولما كانت مكايد الفرس والروم مستمرة ، فقد أعد الرسول جيشاً عظيما ولى أسامة بن زيد قيادته ليثأر لأبيه ولقتلى المسلمين ، ولكن الرسول مات قبل أن يسير هذا الجيش ، فسيره أبو بكر(٢) .

ولكن تسيير أبي بكر لهذا الجيش كان عملا سياسيا أكثر منه حربياً ؛ فليس من الطبيعي أن يرسل خليفة المسلمين جيشاً لمحاربة الروم في حين تنتفض عليه أغلبية العرب ، ولذلك رأى أبو بكر أن إرسال هذا الجيش سيجعل المتمردين يحسون أن بالمسلمين قوة كبيرة لولاها ما أقدموا على حرب الروم في هذه الظروف ، ونجحت سياسة أبي بكر . فإرسال هذا الجيش خوف الروم وخوّف الثائرين العرب وحقق هذا الجيش انتصارات طيبة في الغارات السريعة

---

(١) انظر تفاصيل البيعة لعمر في كتاب « السياسة في التفكير الإسلامي » للمؤلف .

(٢) ابن هشام ٢ ص ٣٦٥ وابن الأثير ٢ : ١٩٢ .

التى شنها على الروم . . . والتى كانت فاتحة المعارك الطويلة بين المسلمين وبين الفرس والروم . تلك المعارك التى سنوجزها فيما يلى :

الفرس والروم قبل الزحف الإسلامى وعوامل انتصار المسلمين :

سبق أن قلنا إن قبيلتى هوازن وثقيف فى حربهما مع المسلمين حشدتا النساء والأموال خلف الجيوش ، حتى يعرف المحارب أن هزيمته معناها فناء أسرته وماله . ويفهم النقاد من ذلك أن هؤلاء الجنود لم يكونوا مخلصين فى المعارك التى يخوضونها . ولو كانوا مخلصين لحاربوا من أجل العقيدة بشجاعة أكثر من محاربتهم من أجل النساء والأموال . وقد حارب المسلمون من أجل عقيدتهم . فكسبوا انتصارات حاسمة فى مختلف الميادين دون أن يكون خلفهم نساء ولا أموال . وفى ضوء ذلك نحب أن نعرف شعور الجندى الفارسى أو الجندى الرومى وهو فى هذه المعارك الطاحنة يحارب المسلمين .

لقد مضى على ظهور الإسلام حينذاك حوالى ربع قرن وقد سمعت عنه الشعوب ببلاد الفرس والروم ، وسمعوا عما حققه من انتصارات . وسمعوا عن مبادئه السمحة ، ولأول مرة يسمعون عن دين سوّى بين الملك والسوقة ، ولأول مرة يسمعون عن حكام فقراء يرقعون الثياب ويخصفون النعال . وبينما كانوا يسمعون عن ذلك ويعرفونه . كانوا يعيشون فى حياة بعيدة كل البعد عنه . كانت دولهم دولا شاخت وآن لها أن تزول . عظماؤهم أضعفهم التنافس على السلطان وهدهم البذخ . وشعوبهم أضعفتها الخلافات الدينية واستبداد الملوك وظلم الحكام ، وكان الجندى يدرك أنه يدافع عن شىء لا حق له فيه . يدافع عن وطن يملكه السادة ويستمتع به الملوك ، فلماذا يبذل من أجله نفسه ؟ ولماذا يريق دمه ! ولقد كان الفرس يدركون أن جنودهم يحاربون دون رغبة . حتى اضطر القائد الفارسى فى موقعة نهاوند أن يقيد جنوده بالسلاسل حتى لا يفروا ، وقد سميت هذه الموقعة « موقعة ذات السلاسل »[1] وسيأتى الكلام عنها . وقد فعل الروم مثل ذلك أيضاً ،

(١) فتوح البلدان ص ٣٠١ .

يروى البلاذرى(١) أن الروم فى موقعة اليرموك تسلسلوا لئلا يطمعوا أنفسهم فى الهرب .

وانتشر فى فارس مبدأ الحق الإلهى المقدس ، وذلك بجعل الملوك ظل الله على الأرض ، ويُبْعِد الهوة بينهم وبين شعوبهم(٢) .

وكان الفرس والروم فى معارك تكاد تكون متصلة ، وكان الفرس أو كان الروم ينالون النصر ، ولكن الحرب تضنى المهزوم والمنتصر .

والإمبراطورية الرومانية كانت واسعة تمتد من الشام فمصر وشمال إفريقية إلى شبه جزيرة إيبريا . وهى بذلك تشمل عدة دول وعدة أجناس ، وأباطرة الرومان قساة محتلون ، تثور عليهم الدول الخاضعة لهم من حين إلى آخر ، فيقسون فى تأديبهم ، يريقون دماءهم ، ويأخذون أموالهم إذا انتصروا عليهم ، وإذا لم تثر هذه الدول فمعنى ذلك أن الثورة كامنة ، إنها نار تتأجج فى صدورهم ضد الاستعمار والاستبداد والضرائب الفادحة التى كانت تؤخذ على الرءوس والملابس وأثاث المنازل بل ، على الأموات .

وكان السكان يضجُّون تحت حكم الرومان ، ولذلك كثيراً ما رحبوا بحكم المسلمين وانضموا إليهم فى الكفاح ، يروى البلاذرى(٣) أن المسلمين بعد أن أخذوا حمص أعدّ الرومان جيشاً كبيراً ليستعيدوا به هذه المدينة : ولكن أهل حمص انضموا للمسلمين وقالوا : لولا يتكم وعدلكم لأحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة معكم وأقسموا ألا يدخل عامل هرقل المدينة إلا إذا غلبوا .

وحسبك أن تعرف أن مصر كانت تعرف عند الرومان بمزرعة القمح ، حيث يَزْرَع المصريون وتُنبت أرض مصر ، ويحصد المصريون ، ثم يؤخذ منهم نتاجهم دون عدل أو رحمة . وقبل أن يزحف المسلمون على الروم كانت الإمبراطورية قد بدأت تتصدع ، فقد أغار القوط على أسبانيا وأخذوها . وهاض الجناح الغربى ، وأوشك الجناح الشرقى أن يتحطم على يد العرب .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤١ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٩٣١
(٣) فتوح البلدان ١ ص ٤٣ .

ويقول Kirk[1] : إن غمار أهل المدن والريف فى دول الشرق الأوسط الخاضعة للروم كانوا يعيشون فى ضنك من جراء ثقل الضرائب الباهظة وفساد الموظفين ؛ فلم يدينوا بشىء من الولاء لهذا الحكم . ومن جهة أخرى نجد الكنيسة المسيحية باصطباغها بالصبغة الرسمية دخلت فى دور الجمود المسيطر على رجال الحكم ؛ ولم يبق فى الكنيسة شىء من الإخاء الذى امتاز به صدر المسيحية ، وحصل انشقاق فى الكنيسة كان عامل الوطنية من أسبابه ، ولو أنه اتخذ شكلا دينياً حول تفسير طبيعة المسيح ،ولم تثمر محاولات التقريب بين الطوائف المسيحية لأن الكنائس المحلية بدول الشرق الأوسط كانت تبغض الأباطرة وحكوماتهم فكانت النتيجة أن توقفت محاولات الأباطرة لاسترضاء شعوب الشرق الأوسط ، وحلت محلها اضطهادات شنيعة وحشية فاتسعت الهوة بذلك بين الفريقين إلى الأبد ، وتطورت الأمور فى بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط حتى بلغت الحد الذى يجعلها لقمة سائغة لأى فاتح يعرض عليهم من الحرية فى شئونهم مالم ينالوه على يد أباطرة الرومان .

وكانت الفرس تستعمر بلاد العراق ، وكان الاضطهاد الدينى ببلاد الفرس على أشده ، وضعف سلطان الساسانيين الذى امتد حوالى أربعة قرون ، وآل الحكم إلى يزدجر الثالث آخر ملوكهم ، وكان شاباً فى الحادية والعشرين من عمره قليل التجارب . ورث دولة ضعيفة لا يستطيع المسير بها فى ركب الحياة .

ويتجه البحث الحديث كما ذكرنا من قبل إلى اعتبار الزحف الإسلامى حركة قامت بها القبائل العربية المتحررة بالجزيرة العربية لتحرير الشعوب العربية التى كانت ترزح تحت الاحتلال الفارسى أو الرومانى .

فى ضوء هذه الاعتبارات قامت الحرب بين المسلمين وبين الفرس والروم ، وآذنت دولة الباطل بالخضوع ، وقد كان هجوم المسلمين على

---

(١) موجز تاريخ الشرق الأوسط ص ١٤ بتصرف : وانظر كتاب « المسيحية » للمؤلف

الفرس والروم فى وقت واحد لوناً من الإرهاب ساعد فى الحصول على النهاية الطيبة ، وسنرسم فيما يلى سير الحملات الحربية ونذكر أهم المواقع الحاسمة فى إيجاز ، وقبل أن نشرع فى هذا يجدر بنا أن نشير إلى أن الذى يقرأ كتب الفتوح مثل فتوح البلدان للبلاذرى وفتوح الشام للواقدى ، وفتوح الشام للأزدى ، وفتوح مصر لابن عبدالحكم ، يرى اختلافاً كبيراً فى الروايات التى توردها هذه الكتب أو حتى تلك التى يوردها الكتاب الواحد منها ، وهذا الاختلاف يتصل بالتواريخ وبتسلسل الفتوح وغيرها ، ولن نعنى كثيراً بهذا الاختلاف إذ لا أرى كبير فائدة فى معرفة ما إذا كانت دمشق فتحت قبل اليرموك أو بعدها ، وأى أجزائها فتح على يد خالد وأيها فتح على يد أبى عبيدة ، وأى أجزائها فتح صلحاً وأيها فتح عنوة وهكذا ، وهناك بلاد يرد ذكرها على أنها فتحت فى عهد عثمان ، ثم ترد مرة ثانية على أنها فتحت فى عهد معاوية ، وترد مرة ثالثة على أنها فتحت فى عهد الوليد ولعل ذلك يرجع إلى أن فتحها الأول كان صلحاً على جزية ، ثم توقف السكان عن دفع الجزية فأعيد فتحها ، أو كان فتحٌ ، فثورةٌ على الفتح ، فاستعادة الفتح ،

المهم مرة أخرى أن هذا الاختلاف قليل الغناء فيما أرى ، ولذلك آثرت أن اكتفى هنا بإيراد الفتوح مسلسلة حسبما استطعت فهمها من التوفيق بين الروايات المختلفة التى وردت فى الكتب السابقة وغيرها ، مع ملاحظة أن البلاذرى كان أكثر هذه الكتب دقة وشمولا ، ولذلك فسنعتمد عليه أكثر من سواه .

العراق وفارس ،

جرت المناوشات الأولى بين العرب والفرس فى بلاد العراق على يد المثنى ابن حارثة الشيبانى ، وكان ذلك فى مطلع عهد أبى بكر وبتكليف من الخليفة[1] ولكن أبا بكر بعد أن شاهد نجاح المثنى مع قلة ما معه من العدة وقلة من معه من العدد أرسل إليه جيشاً عظيما يقوده سيف الله خالد بن الوليد ، وكتب

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ص ٢٤٢ .

أبو بكر للمثنى يأمره بتلقى خالد والسمع والطاعة له[١] ووصل خالد العراق فأخذت مدنه تصالحه وتخضع وتدفع له الجزية وتعده على أن تكون معه على الفرس ، وأهم البلاد التى صالحها خالد أرض الحيرة[٢] .

وسار خالد من الحيرة إلى الأنبار فحاصرها . ولكن مقاومتها لم تطل فطلبت الصلح واستسلمت[٣] ، وكذلك استسلمت « عين التمر » بعد فترة من القتال والحصار ، وقد وجد خالد فى عين التمر مجموعة من العرب أسرهم الفرس وأودعوهم معبداً فى هذه المدينة فأطلق خالد سراحهم[٤] .

ومن أهم المعارك التى خاضها خالد بفارس موقعة « الأبله » وتسمى موقعة « ذات السلاسل » لأن الفرس ربطوا فيها جنودهم بالسلاسل[٥] حتى لا يفروا من المعركة ، ولكن ذلك لم يغنهم شيئاً . فقد فر منهم من وجد حيلة للفرار وسقط الباقون صرعى ، وقد ترتب على هذه الموقعة الاستيلاء على ميناء الأبله على الخليج الفارسى[٦] .

وبينما كان خالد فى تقدمه ذاك ، كانت الحملة على الروم تجتاز مرحلة صعبة ، فحول أبو بكر خالد بن الوليد إلى الروم ، وبذلك لم يقو جيش المثنى على الوقوف فى وجه الفرس فارتد إلى أطراف الجزيرة العربية .

وفى عهد عمر كانت كفة المسلمين قد رجحت على الروم بعد انتصارهم فى معركة أجنادين ، فاتجه عمر إلى معاودة الزحف على بلاد الفرس. وفيما يلى فكرة سريعة عن أهم المعارك الحربية التى دارت بين المسلمين وبين الفرس فى عهد عمر ، والتى وضعت حداً لمقاومة الفرس وأدخلتها إلى الأبد جزءاً من العالم الإسلامى .

يوم الجسر : حدثت هذه الموقعة سنة ١٣ هـ ؛ وكان يقود جيش المسلمين فيها أبو عبيد بن عمر الثقفى أبو المختار بن أبى عبيد المشهور ، ومعه سليط

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٢ (٢) المرجع السابق (٣) المرجع السابق ص ٤٧٢
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٨ ،
(٥) ابن الأثير ، الكامل ٢ : ٢٦٢ .
(٦) ياقوت : معجم البلدان ١ : ٨٢ .

ابن قيس الأنصارى ، وكتب عمر للمثنى أن يكون فى طاعة أبى عبيد، وكان يقود جيش الفرس قائد عظيم اسمه مرءانشاه ويقال إن اسمه رستم ، وتنسب هذه المعركة إلى جسر عند الحيرة عبرة المسلمون والتقوا بجيش الفرس ، وانتصر الفرس فى هذه المعركة وقتل أبو عبيد وسليط[1] .

يوم مهران أو يوم النخيلة : استمر عمر عاما بعد يوم الجسر لا يغزو فارس ، ولما دخلت سنة ١٥ بدأ يعاود غزوها ، فأرسل لها جيشاً يقوده جرير بن عبد الله مع المثنى بن حارثة ، وكان يقود جيش الفرس قائد اسمه مهران ، وقد ثأر المسلمون فى هذه الموقعة لقتلاهم فى يوم الجسر . وقتل مهران وكثير من أتباعه[1] .

القادسية : حدثت موقعة القادسية فى السنة السادسة عشرة ، وكان قائد المسلمين فيها سعد بن أبى وقاص وبلغ جيش المسلمين فيها حوالى عشرة آلاف وكان قائد الفرس رستم ذا الحاجب ، ويتكون جنشه من مائة وعشرين ألف مقاتل . وقد مات المثنى بن حارثة قبل المعركة ، ومن القادة الذين كانوا يساعدون سعد بن أبى وقاص ، المغيرة بن شعبة وقيس بن هبيرة وطليحة ابن خويلد الذى كان قد ادعى النبوة ثم تاب وأناب ، وقبيل المعركة تم اتصال بين المسلمين والفرس رجاء الوصول إلى اتفاق يمنع الحرب ، ولكن هذا الاتصال لم يسفر عن نتيجة ، فقامت المعركة ، وهى من المعارك الهامة فى تاريخ الحروب بين المسلمين والفرس فر فيها رستم وعشرات الآلاف من جنوده ، وغنم المسلمون فيهـا مغانم كثيرة ، وقد استمرت هذه المعركة عدة أيام[3] .

ومن الأحداث الهامة التى وقعت فى هذه المعركة أن أبا محجن الثقفى أحد مشاهير الأبطال شرب الخمر فى معسكر سعد ، فضربه سعد وحبسه ،

---

(١) البلاذرى : ص ٢٥٢ :

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ٢٥٢ – ٢٥٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٢ : ٢٤٩ ، ٢٦٥ .

ولما قامت المعركة حزن أبو محجن لأنه لم يشترك فيها . فتقدم « إلى زبراء » وهى أم ولد لسعد وطلب منها أن تطلق سراحه وتعيره فرساً لسعد ليشهد المعركة ، وحلف لها أن يعود إلى سجنه عقب المعركة ، فأطلقته وأعطته الفرس .

ورأى المسلمون فارساً مغواراً يشق الصفوف ويطعن فى العدو يمنة ويسرة فلا تخطىء طعنته ، فقال سعد : لولا أن أبا محجن فى السجن لظننت أن هذا هو أبو محجن ، وقبيل انتهاء المعركة انسحب أبو محجن وأعاد الفرس إلى مربطه وعاد هو إلى سجنه . وعرف سعد فيما بعد ذلك الخبر ، فأتى إلى أبى محجن وأطلق سراحه وقال له : إنك تستحق العفو بعد ما رأيت منك . قال أبو محجن وأنا والله لا أشرب الخمر أبداً فقد كانت على وشك أن تحرمنى من الجهاد (١) .

المدائن : كان انتصار المسلمين فى القادسية دافعاً لهم أن يستمروا فى زحفهم ، واتجهوا فى تقدمهم إلى القلب ليضربوه ، إلى العاصمة طيسفون (٢) التى أسماها العرب « المدائن » لكثرة ضواحيها حتى بدت للعرب كأنها مدائن لا مدينة واحدة ، وتقع المدائن على ضفتى نهر دجلة واستطاع المسلمون أن يستولوا على الجانب الغربى من المدينة فأسرع الفرس وأخذوا السفن للجانب الشرقى كما هدموا الجسور حتى لا يستطيع العرب عبور النهر ، ولكن المسلمين سرعان ما عبروا النهر بخيولهم ، فاضطرب الفرس وقالوا والله ما هؤلاء إلى جن . وحاقت عليهم الهزيمة وهرب يزدجرد بن شهريار إلى حلوان ومعه وجوه قومه وأسرته وما خف من متاعه .

وسقطت العاصمة الفارسية العريقة فى أيدى المسلمين بما تحويه من فن وذخائر ، ولا شك أن سقوط العاصمة آذن بالانهيار الكامل لبلاد الفرس كلها ، وكان سقوط العاصمة فى العام السادس عشر (٣) .

جلولاء : أعد يزدجرد عدته ليقابل المسلمين ، وبعث إلى كل النواحى

---

(١) انظر فتوح البلدان للبلاذرى ٢٥٥ — ٢٧٩ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان ٦ : ١٣٤ .
(٣) فتوح البلدان ٢٦٢ — ٢٦٣ وانظر أيضاً ابن الأثير ٢ ، ٣٥٤ .



الخريطة رقم (٤)
الجيش الإسلامي بفارس

يطلب العون فانهالت عليه الإمدادات ، وعسكر بمنطقة جلولاء وحفر الخنادق حول معسكره ، ولكن المسلمين اقتحموا عليهم خنادقهم ، ودارت معركة من أعنف معارك فارس يقول البلاذرى عنها [١] إن المتحاربين استعملوا الرماح حتى تقصفت وتجالدوا بالسيوف حتى انثنت ، ولكن المسلمين ثبتوا حتى كتب لهم النصر وفر يزدجرد مرة ثانية من حلوان ، وعقب الانتهاء من جلولاء أصبح للمسلمين كل أرض السواد ، وكانت هذه الموقعة سنة ١٦ أيضاً تبعاً لرواية البلاذرى [٢] .

نهاوند : موقعة نهاوند تسمى فتح الفتوح ، وقد أورد البلاذرى أنها وقعت سنة ١٩ ، قال البلاذرى : ويقال إنها وقعت سنة ٢٠ أو ٢١ ، ويبدو أن نهاوند كانت آخر محاولة جدية يقوم بها يزدجرد ، فقد جمع لها جموعاً يرى بعض المؤرخين أنها وصلت ١٠٠ ألف [٣] ، وولى قيادتها قائداً عظيما يسمى الفيرزان وحرص على ألا يهرب المحاربون فقيدهم بالسلاسل [٤] ، وقد استماتت الفرس فى الدفاع والحرب ولكن المسلمين هزموهم . وكان قائد المسلمين فى هذه المعركة نعمان بن مقرن المزنى الذى ولاه عمر بعد أن عزل سعد بن أبى وقاص الذى لم يرض عمر عن بعض تصرفاته بالكوفة [٥] وقد سقط النعمان فى مطلع المعركة فتولى مكانه حذيفة بن اليمان وتم على يده النصر [٦]

بعد نهاوند : سار المسلمون بعد نهاوند فاستولوا على الأهواز ثم استولوا على قم وكاشان . ودانت لهم كذلك منطقة أذربيجان وكانت هذه الإنتصارات الباهرة سبباً فى إضعاف الروح المعنوية عند الفرس ، فاستسلم صلحاً عدد كبير منهم . واستسلم آخرون عنوة ، ولم يستطيع يزدجرد أن يقابل المسلمين

---

(١) المرجع السابق ١٦٤ .
(٢) المرجع السابق ١٦٣ - ٢٦٤ .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٠٥ .
(٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ص ٢٠١ .
(٥) ابن سعد ٣/ ص ٧٩ .
(٦) البلاذرى ٢٠٠ - ٣٠١ .

بعد ذلك مقابلة قوية ، وظل أمره فى نقصان حتى قتل بخراسان سنة ٣١هـ فى عهد عثمان وبموته انتهت دولة (آل ساسان) .

بقيت كلمة مهمة عن الفرس ، فقد سقطوا فى الميدان العسكرى . ولكنهم ظلوا يصارعون الإسلام فكرياً فترات طويلة ، كما أنهم شنوا على المسلمين حروباً شعواء بأسماء مختلفة يمكن القول إنها كانت من أهم أسباب ضعف العالم الإسلامى ، ولا شك أن بلاد الفرس كانت سبب الانحراف فى بعض الاتجاهات الشيعية ، وأن التعاليم الفارسية القديمة ومحاولة الثأر للكرامة الفارسية ظهرت فى حركات الزنادقة والزنج والقرامطة وسنباذ والمقنع المروزى وبابك الخرمى وغيرهم ولا يوجد نظير لهذه الحركات الهدامة فى الشام ومصر والشمال الإفريقى ...

الروم

كان اهتمام المسلمين بغزو الروم يفوق اهتمامهم بغزو فارس لأن شَغَب الروم على المسلمين سبق شغب الفرس . ولأن الشام ومصر وفلسطين دول محتلة ليست مخلصة للروم ، وأمَّل المسلمون أن يجدوا من الأهلين بعض المساعدة لطرد هؤلاء المستعمرين القساة ، وقد جمع أبو بكر جيوشاً عظيمة وجهها نحو الروم فى فيالق أربعة كبيرة يقودها :

١ — أبو عبيدة بن الجراح الذى لقبه الرسول بأمين الأمة [1] ويتجه لغزو حمص وله القيادة العامة .

٢ — يزيد بن أبى سفيان ويتجه لغزو دمشق .

٣ — شُرَحْبيل بن حَسَنَة ويتجه لغزو وادى الأردن .

٤ — عمرو بن العاص ويتجه لغزو فلسطين [2] (انظر الخريطة رقم ٥) .

وكان تعداد الجيوش التى سيرت إلى الشام اثنى عشر ألفاً ولكنها زيدت إلى أربعة وعشرين ألفاً [3] .

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ٢ ص ٢٢٠ .

(٢) اقرأ تفاصيل اختيار هؤلاء القادة ووصايا أبى بكر لهم . فى فتوح الشام للواقدى ص ٣ — ١٠ واقرأ كذلك البلاذرى : فتوح البلدان ص ١١٦ وتهذيب الأسماء للنووى القسم الثانى جـ ١ — ١٨ .

(٣) فتوح الشام وفتوح البلدان .

وقد سارت هذه الجيوش كلٌ فى الاتجاه الذى حُدِّدَ له ، ولما علم الروم بخطة العرب قسموا جندهم إلى أربعة أقسام كبيرة ليقاتلوا جيوش المسلمين الزاحفة ، وكانت حصون الروم قوية ساعدت على إضعاف تقدم المسلمين ، وقد استطاعت جيوش المسلمين أن تحرز نصراً ملحوظاً كالنصر الباهر الذى ناله عمرو بن العاص فى المعارك التى قام بها على حدود فلسطين ، وهناك جيوش أخرى لم تستطع أن تحقق نصراً يذكر أمام الآلاف المحتشدة من جند الروم ، وأمام الحصون القوية التى تمطر وابلا من المقذوفات التى سببت كثيراً من الخسائر للمسلمين .

وهنا حصل تغيير فى خطة المسلمين إذ وجدوا أن جيوش الروم كثيرة العدة والعدد ، وأن جيوش المسلمين لن تنال منها ما تريد ما دامت متفرقة إلى فيالق أربعة ، وعرف الخليفة أبو بكر ذلك فانتهى الأمر إلى :

أولا — تتوحد جيوش المسلمين لمقابلة الروم .

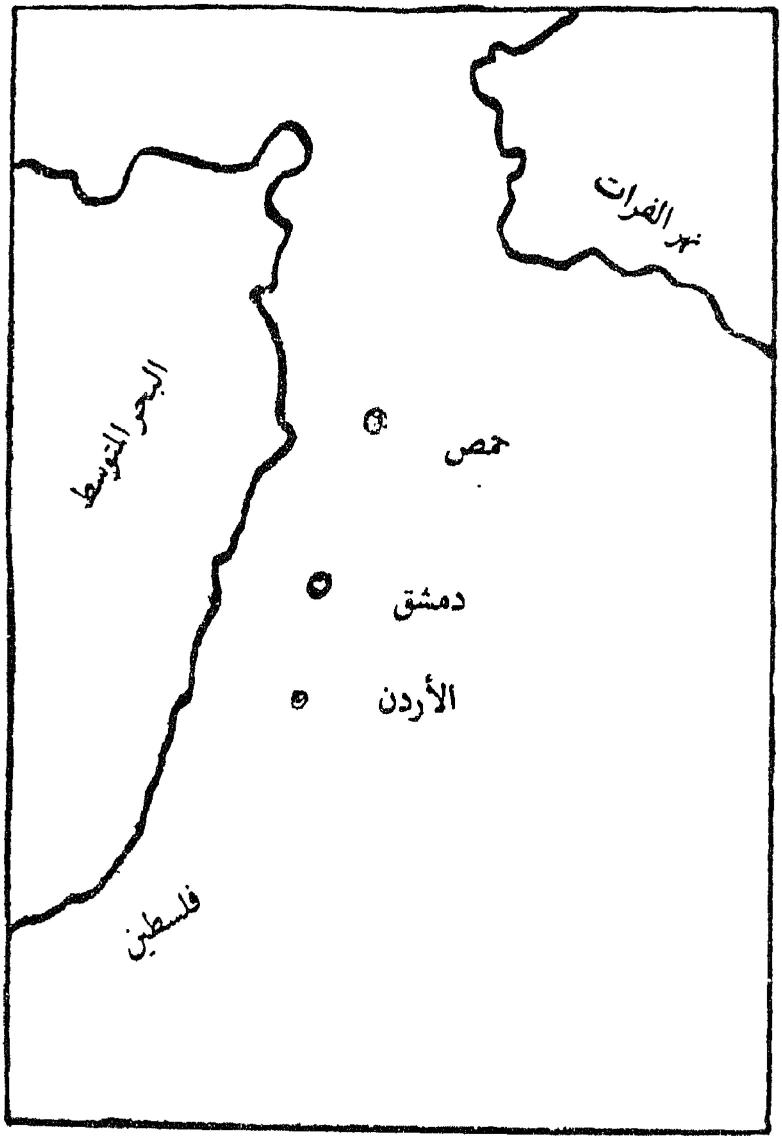
ثانياً — يتجه خالد بن الوليد من العراق للشام ليساعد جيوش المسلمين ويتولى القيادة العامة (١) .

وبدأت الجيوش تقترب وتتجمع ، وبدأ خالد يقوم برحلته التاريخية متخطيا المفاوز والصحارى ، وقد رأى خالد أنه إن اتخذ الطريق العادى من فارس إلى الروم فإن أخباره ستصل إلى الروم ، وربما اعترضته جيوشهم وحالت بينه وبين جيوش المسلمين ، ولذلك كان عليه أن يقتحم الصعاب ، وأن يتخذ طريقاً غير مأهول ، وهو بذلك يبعد عن الآبار ومنابع الماء ، ويعرض نفسه وجيشه لمجازفة لا يقوم بها إلا الأبطال الموهوبون .

واتخذ خالد عدته لهذا العمل ، وحمل معه ما استطاع حمله من الماء ، ثم أتى بجمال فعطشها ، ولما اشتد بها العطش أطلقها على الماء فملأت منه أكراشها ، ثم ربط أفواهها حتى لا تجتر ، وسار بجيشه الصغير الذى لم يصل إلى الألف ، وكان يعطى الماء لجنوده بقدر ، حتى إذا انتهى ما تحمله الإبل

---

(١) الواقدى : فتوح الشام حـ ١ ص ١٣ .



الخريطه رقم (٥)
اتجاهات الجيوش الإسلامية بالشام

من الماء ، عمد إلى الإبل التى اكتنز الماء بكروشها فذبح واحداً فى كل مرحلة وأخذ مافى كروشها من ماء فانتفع به ، ويروى أن الماء قد نفد ولم يصل الجيش بعد إلى عين ماء . فصاح خالد برائده واسمه رافع بن عمير ، ولكن الرائد طمأنهم أنهم على وشك أن يصلوا ، ولم تطل عليهم الشقة بعد ذلك حتى نزلوا بمنابع الماء (١) ، وفجأة ظهر خالد ببلاد الشام والتقى بجيوش المسلمين واستغرقت رحلته ثمانية عشر يوماً .

وقد دارت بين جيوش المسلمين وجيوش الروم مجموعة كبيرة من المعارك ولكن تسجيل هذه المعارك وتسجيل سير الفتوح هو موضع خلاف كبير بين المؤرخين كما سبق القول عن فتوح فارس ، فقد اختلطت بعض الأسماء وبعض الأحداث وسأحاول أن أختار أهم المعارك وأذكرها مسلسلة بقدر فهمى لها .

أجنادين : وقعت موقعة أجنادين (٢) سنة ١٣ هـ وكان خالد بن الوليد قائداً لجيوش المسلمين التى بلغت حوالى ثلاثين ألفاً ، وكان تيودور أخو هرقل قائداً لجيوش الروم التى أربت على مائة ألف ، وكان جيش الروم كثير الأسلحة والعتاد ، أما جيش المسلمين فكان قليل الأسلحة اللهم إلا الروح المعنوية القوية والثقة المائلة فى نصر مبين ، ودارت رحى الحرب ، فخرمن جيش الروم أكثر من نصفه ، وأسرع الباقون يولون الأدبار ، وكانت هزيمتهم صاعقة على هرقل الذى لم يتوقع مثل هذه الهزيمة الساحقة ، ولذلك ترك حمص وهرب منها إلى أنطاكية (٣) .

وهناك بيت من الشعر يجدر بى أن أقتبسه من البلاذرى فهو قوى الدلالة على الرعب الذى ملأ نفوس الروم من بطش المسلمين ، وهذا البيت كان يردده بعض جند الروم من العرب وهم يشربون ويتغنون وهو :

---

(١) الواقدى : فتوح البلدان ١ : ١٤ وانظر كذلك البلاذرى ص ١١٨

(٢) انظرها فى تهذيب الأسماء للنووى جـ ١ ص ١٧ .

(٣) البلاذرى ١٢٠ – ١٢١ .

ألا عللاني قبل جيش أبي بكر لعل منايانا قريب ولا ندري[١]

دمشق : أما المعركة الثانية الحاسمة فى بلاد الشام فكانت حول دمشق، وقد أحاط المسلمون بالمدينة الباسمة وبالغوطة الجميلة ، وتحصن الروم بالمدينة وأغلقوا أبوابها ، ووقف خالد بجنوده على الباب الشرقى ، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية ، وعمرو بن العاص على باب توما ، وشرحبيل على باب الفراديس ويزيد بن أبى سفيان على الباب الصغير ، . وقد دارت مناوشات بين المهاجمين والمدافعين ، كما درات اتصالات بين المسلمين وبعض الأساقفة بالمدينة المحاصَرة ودخل المسلمون دمشق من ناحيتين : دخلها أبو عبيدة من الباب الشرقى قسراً ودخلها أبو عبيدة من باب الجابية سلما على أصح الروايات[٢] وكان ذلك سنة ١٤ هـ .

والذى نميل له أن أمير المسلمين وقت حصار دمشق كان أبا عبيدة ، أما خالد فكان عمر قد عزله قبل ذلك فى أذيال معركة أجنادين ، عقب وفاة أبى بكر وتولية عمر الخلافة ، ومما يذكر بالفخر والإعجاب لسيف الله المسلول خالد بن الوليد أنه تلقى خبر عزله برضاً وقبول مع أنه كان فى أوج النصر ، وأنه استمر يحارب فى جلد وإخلاص تحت إمرة القائد الجديد ، وقد سبق أن وقف أبو عبيدة نفس الموقف الرائع عند ما طلب منه أبو بكر أن يسلم القيادة العامة لخالد ، إنها فى الحقيقة نماذج إسلامية رائعة ستظل ذكراها عاطرة على مر السنين .

وقد وضّح عمر سبب عزل خالد وعزل المثنى بن حارثة بقوله : إنى لم أعزلهما عن ريبة ، ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يفتتنوا بهما . ويرى ابن الأثير[٣] أن غضب عمر سببه أن خالداً أيد إسناد الخلافة لعلى ابن أبى طالب عقب وفاة الرسول ، ويرى بعض المؤرخين أن عزل خالد وتولية أبى عبيدة كان براعة سياسة من عمر ، فإن أبا عبيدة كان أكثر

---

(١) المرجع السابق ١١٨ .

(٢) الواقدى : ص ٤٦ - ٥٠ والبلاذرى ١٢٧ - ١٣٠

(٣) الكامل فى التاريخ ٢ . ٢٧٦ .

قدرة على المسالمة والإدارة من خالد الذى كانت مقدرته أبرز فى شئون الحرب وميادين القتال[١]

اليرموك : وأعد هرقل العدة إلى لقاء فاصل جمع فيه كل قواه ، مصمماً على الانتصار على المسلمين أو اليأس عند الهزيمة ، وقد بلغت جموعه مائتى ألف جندى وتبالغ بعض الروايات العربية فتصل بالرقم إلى مليون أو مليون ونصف ، وقاد الجيش جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة والقائد الأرمنى ماهان ، وكان جيش المسلمين حوالى أربعة وعشرين ألفاً يقوده أبو عبيدة ، ودارت معركة عنيفة بالقرب من نهر اليرموك ، واستعداداً لهذه المعركة أخلى العرب دمشق وحمص وغيرهما ، وتراجعوا لتكون المعركة على حافة الصحراء ، إذ أن العرب أقدر على المعارك فى مثل هذه البقاع[٢].

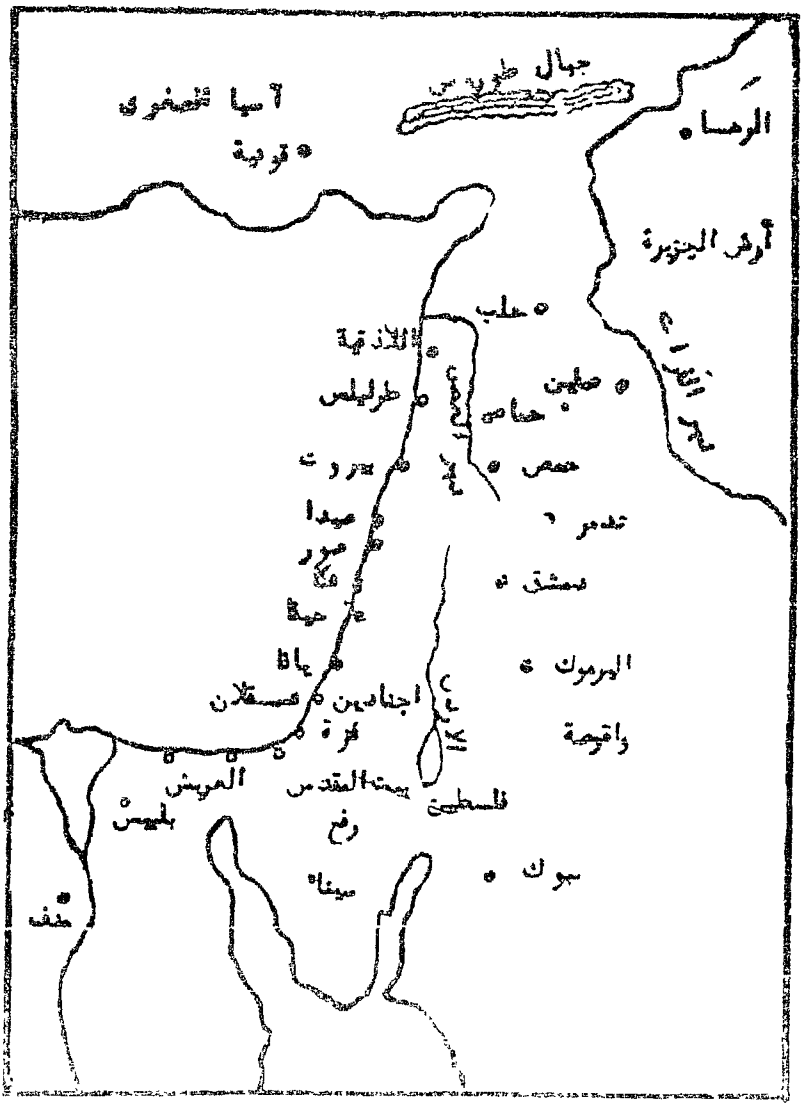
وتسلست الروم وأتباعهم لئلا يطمعوا أنفسهم فى الهرب ، وقد دارت الدائرة عليهم وفرّ منهم حوالى سبعين ألفاً ، وتشتت الباقون إلى مختلف النواحى ، وكانت نساء المسلمين يخضن المعركة مع الرجال .

ولما بلغ هرقل هزيمة جنده فرّ من أنطاكية إلى القسطنطينية ، ويروى أنه ودع سوريا وداعاً حزيناً فقال : السلام عليك يا سورية ، سلام مودع لا يرجو اللقاء[٣] .

تلك هى المواقع الحاسمة التى حدثت فى الشام بين المسلمين وبين الروم وخاضتها جيوش المسلمين مجتمعة تحت قيادة واحدة ، ويجدر بنا أن نوضح أن الجيوش الإسلامية كانت تفترق بعد كل انتصار فتتجه اتجاهات مختلفة ، وكان كل منها يحرز انتصارات محلية[٤] . ثم تجتمع كل الجيوش الإسلامية مرة أخرى لمقابلة الجيوش الكبرى التى كان هرقل يعدها كما سبق .

وبعد موقعة اليرموك انقسم جيش المسلمين قسمين اتجه قسم إلى الشمال

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ص ١٥ .
(٢) المرجع السابق ص ١١ .
(٣) الواقدى . فتوح الشام حـ ١ ص ٩٦ وما بعدها والبلاذرى. فتوح البلدان ١٤٠ – ١٤٢
(٤) البلاذرى ص ٢٢ .



(الخريطة رقم ٦)
الفتح الإسلامي للشام

بقيادة أبي عبيدة ومعه خالد بن الوليد ، واتجه قسم آخر إلى الجنوب بقيادة عمرو بن العاص وشرحبيل ، وبقي يزيد بن أبي سفيان في منطقة دمشق — وكان قد أرسل قبل ذلك لها — ليحمي ماحققه المسلمون من انتصارات بها ..

وقد استطاع أبوعبيدة وخالد أن يستوليا على حمص وحماة وقنسرين واللاذقية وحلب ، واستطاع عمرو بن العاص وشرحبيل أن يستوليا على عكا وحيفا ويافا وغزة وغيرها (١) .

ولم يبق أمام المسلمين إلا بيت المقدس ، وقد دافع عنه الروم دفاعاً شديداً أنزل كثيرا من الخسائر بجنود المسلمين ، ولكن جنود المسلمين صبروا ولعبت السياسة دورها فقد اتصل المسلمون بالمسيحيين ببيت المقدس ، وكان المسيحيون يعانون المتاعب من حكم الروم ، كما كان المسلمون يعظمون بيت المقدس ولا يريدون مواصلة الضحايا من الجانبين ، وأحس أرطبون قائد الروم بهذه المناورات تدورحوله فهرب إلى مصر ، وطلب المسيحيون الصلح على أن يحضر الخليفة بنفسه لتسلم المدينة ويتعهد لسكانها بالحرية الدينية فكتب عمرو إلى عمر بذلك فحضر عمر وكتب بنفسه كتاب الأمان (٢) المسمى « العهدة العمرية » .

واتجه عمرو بعد ذلك لمقابلة قسطنطين بن هرقل عند قيسارية ، ولكن عوامل الذعر كانت قد استولت على الأمير الشاب فهرب تاركا جيشه ، وسافر إلى القسطنطينية في ظلام الليل ، كما هرب أبوه من قبل من أنطاكية إلى القسطنطينية على أثر هزائم الروم في اليرموك .

لقد بذل المسلمون آلاف الضحايا في حروبهم ضد الروم في سوريا وفلسطين ، فأصبحت هذه الديار بذلك غالية عليهم . فكم لهم بها من أرواح أزهقت ودماء أريقت .

---

(١) انظر تفاصيل فتح هذه المدن في الواقدي حـ ١ ص ٦٣ ، ٦٥ ، ٨٥ ، وحـ ٢ ص ٩ ، ١٦ .

(٢) الواقدي : فتح الشام ص ١١١ ومابعدها والبلاذري : فتوح البلدان ص ١١٠

مصر : ليس بين مصر وفلسطين حدود طبيعية ، فإلى أين يقف عمرو ابن العاص فى زحفه نحو الجنوب ؟ وفى مصر كما كان فى فلسطين وسوريا جيش الروم ، ولن يحس المسلمون بالاستقرار فى سوريا وفلسطين وهناك جيش كبير على مقربة منهم يتبع عدوهم الحانق عليهم . ومن هنا كان الزحف إلى مصر طبيعياً ، وكانت مصر تعانى ماعانته سوريا وفلسطين من تعسف الروم وظلمهم وطغيانهم ، ثم كانت مصر كالعهد بها دائماً غنية ، درة الشرق ، وأرضها خصبة ، ونيلها الخالد ينساب بالخير وعلى جانبيه تمتد الرياض والمزارع الفينانة ، ولمصر سيرتها الجيدة التى تضرب آلاف السنين فى أعماق التاريخ ، والاستيلاء على مصر إنما هو ضمان لاستقرار الإسلام فى كل هذه البقاع بآسيا وإفريقية التى آذنت بالتحرر من سلطة دولة الروم .

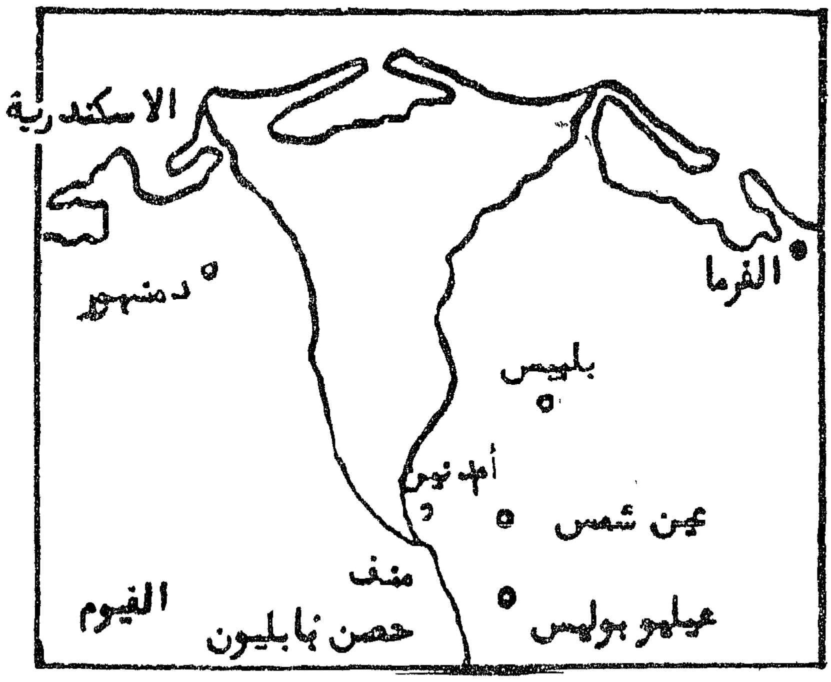
ففتح مصر إذاً كان عملا طبيعياً ؛ وبدونه ماكانت جيوش المسلمين بفلسطين تنعم بأمن أو استقرار ، ومن هنا لا مجال – فيما أعتقد – لتصديق الروايات التى تثير خلافاً بين الخليفة وبين قائده عمرو بن العاص حول الزحف على مصر(١) ؛ وما كانت هذه المعارك الضخمة تنشب فى جو من التردد كالذى تصوره هذه الروايات : وما كان عمرو بن العاص بمستطيع أن يقف من الخليفة العظيم عمر بن الخطاب هذا الموقف الذى تحاول هذه الروايات أن تثبته ، وقد أورد الواقدى ما يقطع هذه الشكوك فقال : أرسل عمر بن الخطاب كتاباً إلى أبى عبيدة يقول فيه « وإذا قرأت كتابى هذا فأمر عمرو ابن العاص أن يتوجه إلى مصر بعسكره ... »(٢) .

وعلى هذا يبدو أن الرأى كان قد استقر بين الخليفة والقائد على فتح مصر ، فسار عمرو مخترقاً صحراء سيناء حتى وصل إلى العريش فاستولى عليها دون مقاومة تذكر ، ثم سار حتى وصل الفرما وقد حاصرها جيشه أكثر من شهر ، ولعب المصريون دوراً هاماً فى مساعدة المسلمين ضد الروم حتى سقطت الفرما فى يد المسلمين سنه ١٩ هـ (انظر الخريطة رقم ٧) .

---

(١) انظر بعض هذه الروايات فى ابن عبد الحكم ص ٥٣ وما بعدها وفى البلاذرى ص ٢١٤ .

(٢) الواقدى : فتوح الشام ‍ـ ١ ص ٢٢ .


الاسكندرية
دمنهور
الفرما
بلبيس
أم دنين
عين شمس
منف
حصن بابليون
الفيوم
عيلهو بوليس

وتقدم المسلمون إلى بلبيس ، وكان بها جيش كبير يقوده أرطبون الذى فرّ من بيت المقدس ، وقد دار قتال كبير حول بلبيس استمر مدة شهر قضى فيه المسلمون عـلى قوة الروم وتسلموا المدينة ، ويقال إنه كان بها ابنة المقوقس وهو الحاكم المصرى الذى عينه قيصر الروم ليحكم البلاد باسمه ؛ ولما استولى عمرو على بلبيس أكرم ابنة المقوقس وأرسلها معززة مكرمة إلى أبيها ؛ وكانت تلك سياسة رشيدة ساعدت على تقوية العلاقة بين العرب والمصريين .

وسار جيش المسلمين إلى أم دنين (المقس) ، ودار حولها قتال عنيف لم يستطع المسلمون الفوز فيه ، فأرسل عمرو يطلب عوناً من الخليفة فأرسل له الخليفة أربعة آلاف فيهم الزبير وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ، وكتب له بقوله « قد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل » والتقى جيش المسلمين بجيش الروم وكان تعداده عشرين ألفاً يقوده قائد عظيم اسمه «تيودور» وجرت المعركة عند عين شمس وقد هزم فيها جيش الروم هزيمة منكرة بسبب التقسيم الرائع الذى اقترحه عمرو ؛ إذ قسم جيشه ثلاثة أقسام كبيرة قابل الروم بقسم منها ، وفى أثناء المعركة هجم القسم الثانى من جهة وهجم القسم الثالث من الجهة المقابلة فحوصر جيش الروم واختل نظامه وكثرت الضحايا ، وفر منه من فر إلى حصن بابليون .

حصن بابليون : ودخلت سنة ٢٠ هـ . وكانت أهم معركة يستعد لها الطرفان هى معركة حصن بابليون : وقد حاصره المسلمون حصاراً طويلا امتد ستة شهور ؛ ثم بدأت المفاوضات للصلح فأرسل المقوقس وفداً يتحدث باسمه إلى عمرو : فاستبقى عمرو الوفد يومين ليتعرفوا على أحوال المسلمين ، ثم طلب منهم أن ينقلوا للمقوقس أن يختار بين :

١ ــ الإسلام وبذلك يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين .
٢ ــ الجزية نظير الحماية ونظير الاستمتاع بمرافق الدولة من شرطة وقضاء وغيرهما .
٣ ــ الحرب .

وعاد رسل المقوقس إليه لا بهذه الثلاثة فقط ، بل بوصف حب الإسلام إلى المصريين . قالوا ؛ رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ؛ جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم . مايعرف كبيرهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم .

ورأى المقوقس ضرورة الصلح مع هؤلاء . فعقده على الجزية. فهى أقل كثيراً مما يأخذه الروم من المصريين ، ولم يوافق هرقل على هذا الصلح ولكن المقوقس أمضاه .

الإسكندرية: لم يبق أمام المسلمين بعد حصن بابليون من المواقع المهمة بمصر إلا الإسكندرية وكانت عاصمة الديار المصرية ، وقد سار إليها المسلمون وفتحوا فى الطريق إليها ما قابلهم من حصون ، وكانت الإسكندرية منيعة متصلة بالبحر ، ويأتى إليها المدد من القسطنطينية عن طريق البحر ، وبها أكبر حامية للروم بمصر ، وقد كانت هذه الظروف سبباً فى طول إقامة المسلمين حول الإسكندرية حتى ضعف الأمل فى فتحها ، وقد أحس الخليفة عمر بذلك فكتب لعمرو كتاباً شديداً يلومه فيه ويلوم المسلمين على ترددهم ، ويذكرهم أنهم إن لم يفتحوا الإسكندرية فإن حياتهم معرضة لخطر هجوم قوى من الروم يقضى عليهم بعد أن تضعف روحهم المعنوية ، ولما تسلم عمرو الكتاب قرأه على المسلمين ، فعقدوا العزم على العمل بإصرار وأمل ، وقاموا بحملة قوية على العاصمة أضعفت أمامهم قوى الروم ، وتمكنوا من التسلل إلى داخل الأسوار ، وأعملوا القتل والذعر فى نفوس الجنود فهرب هؤلاء إلى سفنهم بالبحر ، وأسر منهم عدد كبير ، وتقدم المقوقس مرة أخرى فأجرى الصلح مع المسلمين سنة ٢١ هـ على شروط أهمها :

١ — الجزية . ٢ — حرية العبادة .

٣ — أن ترحل حامية الروم وأن يبقى مع المسلمين رهينة منهم حتى لا يهاجموا مصر مره أخرى(١) .

وأصبحت مصر تابعة للخلافة الإسلامية .

---

(١) الواقدى : فتوح الشام جـ ٢ ص ٤٥ وما بعدها .

الغالبون والمغلوبون :

هل كان الفتح الإسلامي انتصاراً للعرب وهزيمة للسوريين والمصريين ؟ لعل أدق إجابة هي تلك التي يذكرها الدكتور حتى في كتابه « تاريخ العرب »(١) وهي : «كان السوريون والمصريون يعتبرون العرب الفاتحين قوماً من بني جنسهم يربطهم بهم مالا يربطهم بأولئك الحكام السابقين الذين كانوا من الأجانب الغاصبين ، فالفتوحات الإسلامية من هذه الوجهة هي عند التحقيق انقلاب اجتماعي سياسي استرد به الشرق الأدنى مجده السامي الغابر ، فقد جاء الإسلام مهيباً بالشرق إلى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحته فيها سطوة الغريب ، فاستطاع الشرق بالإسلام أن يسترجع ماضيه لا في ميدان السياسة فحسب بل في ميدان الثقافة أيضاً حيث تسنى له أن يعيد قيادته الفكرية » .

ويمكن القول إن الفرس والعراقيين والمصريين والسوريين رأوا في الإسلام متنفساً وسماحة أنقذتهم من الطغيان والإكراه والاستغلال التي عاشوا تحت ضغطها مدة طويلة ، لقد ضمن الإسلام لهم حرية الأديان، وأعفاهم من الأعمال العسكرية نظير دفع جزية ضئيلة إلا من شاء أن يدخل صفوف المدافعين عن البلاد فله أن يدخل ويعفى من الجزية مع بقائه على دينه ، وترك المسلمون الأرض للمصريين والسوريين والعراقيين على أن يدفعوا خراجها وهو أقل بكثير مما كان يأخذه الأكاسرة والقياصرة الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ملاكا للأرض ولرقيق الأرض ، وأمّن المسلمون الأهلين على أموالهم ونسائهم وأولادهم ، ورأى الأهلون في المسلمين المساواة التي كانوا لا يحلمون بها ، وقام المسلمون بكثير من الاصلاحات التي تتصل بالقضاء والشرطة والطرق والري والهندسة والجسور ، وكان القانون الإسلامي يسري على المسلمين أما غير المسلمين فقد ترك الفصل في شئونهم القانون المدني الذي كان

(١) جـ ١ ص ١٩٤ و ١٩٨ .

معمولا به قبل الفتح ، ووضع أمر تنفيذه فى يد رؤسائهم الدينيين ، وهذا هو منشأ استقلال الطوائف الدينية بشئونها المالية ، ذلك النظام الذى ظل سائداً فى البلاد الإسلامية إلى وقت انهيار الدولة العثمانية ، والذى لا يزال معمولا به فى الشئون المالية فى معظم ممالك الشرق الأوسط التى لم يوحّد فيها القضاء بجعله مدنياً بحتاً لا دخل فيه للشريعة(١) .

وفى الوقت نفسه قام الدعاة والفقهاء يتحدثون عن الإسلام وأخلاقه ومبادئه فلا عجب أن أقبل أهل هذه البلاد على الإسلام يعتنقونه ويدينون به ، فأخذ الإسلام ينتشر رويداً رويداً ، وأخذت اللغة العربية أيضاً تنتشر ، ومما ساعد على انتشارها نزوح كثيرين من العرب الرحل من البادية وانخراطهم فى غمار حياة الاستقرار بالمدن الغنية المفترحة (٢) حتى كان رجال الكنيسة القبطية فى القرن العاشر يضعون كتاباتهم باللغة العربية لكى يفهمها أتباعهم(٣)

عمر بانى الدولة الإسلامية :

كانت مهمة الرسول العظمى هى تبليغ الرسالة ، وتعليم المسلمين ما فيه خير دينهم ودنياهم ، وقد قام الرسول صلوات الله عليه بتبليغ الرسالة خير قيام ، وكذلك علّم الناس ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، ووضع للمسلمين أسس حياة سامية ، وحلّ كل المشكلات التى بدت لهم فى عهده .

---

(١) Kirk : A Short History of the Middle East p. 29.

(٢) يرى الدكتور فيليب حتى (تاريخ العرب ١ : ١٠ - ١٤) أن الجزيرة العربية هى مهد الساميين وأن هذه الهجرة التى أشرنا إليها هى آخر هجرات الجنس السامى إلى الهلال الخصيب ومصر وشمال إفريقية ، وقبل هذه الهجرة حدثت موجات من الهجرات من الجزيرة العربية حيث اختلط المهاجرون الساميون بالعناصر الأصلية بالبلاد التى هاجروا إليها ، وقد بدأت هذه الهجرات قبل الميلاد بمدة آلاف من السنين وتكررت كلما ضاقت الجزيرة العربية بسكانها ، وقد كان الفراعنة القدماء نتيجة الامتزاج بين الساميين والحاميين ، وكان البابليون نتيجة امتزاج الساميين بالسومريين . وكان الفينيقيون نتيجة الامتزاج بين الساميين والسكان الأصليين بساحل الشام هذا ويرجح من جهة أخرى أن هجرات كبيرة جاءت الى الجزيرة العربية من أواسط أفريقية عبر باب المندب .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٦ ص ٢٧٧ والكامل للمبرد ج ٢ ص ٤٨٨ .

ولكن الإسلام لم يتجاوز جزيرة العرب فى حياة الرسول ، وحياة العرب بطبيعتها سهلة بسيطة ، فلما امتد الإسلام إلى الشام ومصر والفرس ، واتصل الإسلام بحضارات هذه البلاد ، قابل الإسلام ظروفاً جديدة ، وظهرت مشكلات لم يكن للمسلمين بها عهد ، ولم تتضح هذه المشكلات بطبيعة الحال فى عهد أبى بكر ، فقد كان عهده قصيراً ومات رضى الله عنه والنصر لم يكتمل فى الحروب الدائرة بين المسلمين وبين الفرس والروم ، بل إنه قد مات والحروب مع هؤلاء فى مطلعها ، ومن ثم فعبء المشكلات الجديدة وقع على عاتق الخليفة العظيم عمر بن الخطاب .

وكان عمر ملهما ، فوُفق أجمل توفيق فى الاستجابة للحياة الجديدة وفى بناء الدولة الإسلامية ، فهو الذى دوّن الدواوين(١) . وأنشأ بيت المال ، وصك النقود ، وكون جيشاً محترفاً لحماية الحدود ، ونظم المرتبات ، وعين الولاة والقضاة ، ورتب البريد ، وأنشأ نظام الحسبة ، وثبّت الهجرة لتكون مبدأ للتاريخ عند المسلمين ، بحيث لا يُترك التأريخ بها إلى أى حادث آخر قد يجىء ، وقد شرحنا ذلك عند الحديث عن الهجرة .

ولم يكتف عمر باقتراح ما دعت له الضرورة من نظم ، بل عدل فيما وُضع من قبل عندما ظهرت ضرورة للتعديل ، فهو الذى قرر أن تبقى الأرض المفتوحة فى أيدى أصحابها واقترح لذلك نظام الخراج ، وكان المفروض أن يستولى المحاربون على ما فتحوه عنوة ، وهو الذى أعاد النظر فى إعطاء المؤلفة قلوبهم ، ووضع شروطاً لمن يستحق هذا العطاء ، وغير ذلك من الأشياء(٢) .

لقد ملأ محمد الدنيا نورا بدين الإسلام ، وأوشك هذا النور أن يخبو بعد وفاته فى خضم الأحداث العاتية ، فحفظته همة أبى بكر ، ثم جاء عمر فزين البناء الشامخ وأمده بأروع النظم وأحسنها ، ولا زال العالم الإسلامى يعيش حتى اليوم وأعظم النور الذى يستمتع به مصدره الرسول الكريم وصاحباه العظيمان .

---

(١) Kirk : A Short History of the Middle East p .37
ومن انتشار الدين الإسلامى واللغة العربية بين السكان الأصليين بسوريا ومصر أعطينا تفاصيل وافية فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

(٢) انظر « الاقتصاد فى التفكير الإسلامى » للمؤلف .

كلمة عن البريد :

ذكرنا آنفا أن من أبرز أعمال عمر أنه رتب البريد ، ونريد أن نعطى هنا مزيداً من التفصيل عن هذا الموضوع .

والبريد اسم لمسافة محددة هى اثنا عشر ميلا ، ثم أطلق اللفظ على من يحمل الرسائل ويسير بها هذه المسافة ليسلمها إلى آخر يسير بها مسافة أخرى مماثلة وهكذا ، ثم أطلق اللفظ أخيراً على الرسائل نفسها ، وقد عرف البريد عند المسلمين منذ اتساع الدولة الإسلامية فى مطالع عهد الخلفاء الراشدين ، واشتهر أمر البريد فى خلافة عمر بن الخطاب ، بسبب اتساع الدولة وضرورة الصلة بين الخليفة وبين قواده وعماله عن طريق البريد ، ولم يكن البريد فى عهد عمر خاصاً بأعمال الحكومة ، بل إن عمر كان يأمر منادياً ينادى فى الناس بأن بريد المسلمين يريد أن يخرج إلى ناحية كذا فمن كانت له حاجة فليكتب . وكان عمر نفسه يتولى الكتابة أحياناً لمن لا يعرفون الكتابة ويريدون أن يكتبوا لذويهم المجاهدين[1] .

وعلى هذا كان بريد المسلمين يشمل رسائل من الخليفة إلى عماله وإلى رؤساء جند المسلمين ، كما كان يحمل الرسائل من الناس إلى ذويهم بالميدان .

وفى عهد معاوية رُتب البريد ترتيباً أدق ، وأصبحت له مناهج وطرق ومواعيد منتظمة ، ومحطات محددة ، وفى عهد الدولة العباسية بلغتْ محطات البريد نحو ألف محطة تربط العاصمة بمختلف النواحى ، وعين لكل محطة رئيس لملاحظة سير السعاة والخيالة وحالة المحطات وكان جميع هؤلاء الرؤساء يقدمون تقريراتهم عن كل ما يحدث فى الخطوط إلى إدارة البريد العامة بالعاصمة التى كانت تعرض الأمر على الخليفة دون تأخير . وأصبح البريد يخدم أغراض الخلافة بوجه خاص ، وكان الخليفة يعين عامل البريد من أقرب المتصلين به ، كما كان عامل البريد يدخل على الخليفة دون حجاب.

وقد استعمل العرب فى أول الأمر الإبل لنقل البريد ، ثم استبدلوا بها البغال ثم الخيل لسرعتها ، وكانت الخيول تقف فى كل محطة مستعدة لتلقى

---

(١) انظر كتاب الاقتصاد فى التفكير الإسلامى ، للمؤلف .

الرسائل من المحطة السابقة ، وتوصيلها للمحطة التالية وهكذا . وكانت شبكة البريد تغطى المملكة الإسلامية كلها ، وتوثق الصلات بين أجزائها .

عين عمر :

يحس كثير من الغربيين بالدهشة إذ استطاع عمر أن يسيطر على العالم الإسلامى مع اتساعه فى عهد المواصلات البدائية ، والإجابة سهلة ، فقد كان عمر يهتم اهتماماً كبيراً باختيار ولاته ، ويراقبهم بوسائل مختلفة بعد الاختيار ، حتى ليمكن القولُ بأن عَيْـن عمر كانت فى كل مكان .

مقاتل عمر وعثمان وعلى :

إن بين مقتل عمر وعثمان وعلى رباطا قوياً ، ومن هنا فإنى أوثر أن أتكلم عن مقاتلهم فى مكان واحد .

وسأتكلم هنا بالفكر الجديد الذى أملته علىّ دراساتى فى كتابى الأخير : « حركات فارسية لضرب الإسلام والمسلمين عَبْرَ العصور » فالدراسات التى وضّحها هذا الكتاب — معتمدةً على أدق المصادر — تؤكد أن حركات نبتت فى بلاد فارس فور انتصار المسلمين على الفرس فى المعارك العسكرية ، فلقد كان سقوط فارس بسرعة عملا مذهلا ، أبرز انهيار هذه الدولة التى كانت قد استنفدت قوتها بسبب فساد مجتمعها الذى عششت فيه المانوية والمزدكية والطبقية التى وصلت إلى اعتبار الملوك آلهة لهم حقوق إلهيّة مقدسة .

وفى هذا الجو كان اليهود الذين استوطنوا فارس منذ أن أطلقهم « قورش » من سجن بابل ، ينشرون الفوضى الأخلاقية ، ويعملون على أن يكسبوا الأموال بأى طريق .

وانتصر المسلمون انتصاراً سريعاً على جيوش الفرس الجرارة ، واستولوا على الأماكن الشاسعة التى كان الفرس قد مدّوا سلطانهم لها ، ووقف الفرس حيارى لا يستطيعون مقابلة القوة بالقوة ، فلجئوا إلى المؤامرات والثورات ، وكان عدوّهم الأول هو عمر بن الخطاب الذى أعدّ الجيوش لاقتحام فارس وأعدّ الخطط التى تكفل النصر .

هل يقيمون بثورة فى عهد عمر كالثورات التى قاموا بها فى عهد عثمان وعلىّ ، وكالثورات العسكرية والفكرية التى قامت بها جماعات منهم فيما بعد كالقرامطة والزنادقة والباطنية وغيرهم ؟

الإجابة يوضحها لنا خالد بن الوليد ، فعندما عزل عمرُ خالداً من قيادة الجيش غضب خالد وقال لمن حوله : إن أمير المؤمنين استعملنى على الشام ، فلما استقر الأمر وأصبحت الحال حنطة وعسلا عزلنى وولى غيرى . فنهض رجل من السامعين وصاح : مهلا يا خالد فإن كلماتك تثير الفتنة . فقال خالد : لا فتنة وعمر بن الخطاب حىّ .

نعم لم يكن من الممكن أن تقوم فتنة أو ثورة فى عهد عمر ، فقد كان معروفاً بالعزم والحسم ، وأنه يضرب بقوة كل من يحاول أن يحدث أية فتنة أو يوحى بأية ثورة فى عهده .

وعلى هذا كان الطريق لقتل عمر هو أن تدبَّر مؤامرة سرِّيَّة فى الظلام ، يقوم بها مجموعة من الفرس الحانقين ، وفى مقدمتهم أبو لؤلؤة الذى كان من أشد الفرس تعصباً لقومه ، وكان كلما مرَّ به صبى فارسى مسح رأسه بيديه وقال : أكل كبدى عمر ، واشترك أبو لؤلؤة والهرمزان وهو سيد من سادة الفرس فقد سلطانه ، وجفينة وهو فارسى حانق ، فى التدبير لهذه الجريمة وإعداد السلاح لها كما سنرى بعد قليل ، ونفذها أبو لؤلؤة .

والعجيب أن الخديعة وصفت أبا لؤلؤة بأنه « المجوسى » ولم تصفه بأنه « الفارسى » وكان يقصد بذلك إلقاء الظلام والضباب على هذا الحادث حتى لا تنتشر حقيقة الدور الفارسى فى هذه الجريمة .

وهكذا قتل عمر بهذه المؤامرة السرية :

وجاء دور عثمان وعلى ، والخليفتان بعيدان كل البعد عن نهج عمر ، فعثمان يكره الدم ويميل للين والدعة حتى فى الظروف التى تستوجب الحسم والقوة ، وقد أشار المغيرة بن شعبة عليه أن يقتل المتمردين ، فقال : لا والله لا أكون أول من يخلف الرسول فى أمته بسفك الدماء ، وما أحب أن ألقى الله وفى عنقى قطرة دم لأحد .

وعرض عليه معاوية أن يحرسه بجيش من أهل الشام فقال : لا ، إنهم سيشاركون أهل المدينة طعامهم ، وسيزحمون المدينة على المهاجرين والأنصار .

وعليٌّ رضى الله عنه من هذا النوع ، فقد ظهر له أن الأشعث بن قيس منافق وأنه معا في الظاهر . ولكنه على صلة بأعدائه ، ومع هذا رفض أن يقتله ، وكان يقول لولاته : إياكم وسفك الدماء فإن أول ما يُسأل عنه المرء عند ربه ما سفك من دماء .

وهكذا سمحت أخلاق عثمان وعلى للمتمردين بإعلان ثوراتهم غير خائفين على أنفسهم ، وخَدَعوا بعض المسلمين فجذبوهم لصفوفهم كأبي ذر الغفارى الذى كان يكره المال ويدين الأغنياء .

وهكذا قامت الثورات الفارسية متخذةً هذا الطريق أو ذاك متعللة بسبب أو بآخر ، فاشتدت الثورات وهى آمنة فى عهد عثمان حتى راح ضحية لها ، واستمرت فى عهد على حتى قضت عليه يدٌ نسبها المؤرخون للخوارج ولكنها فى الحق مدفوعة بدافع فارسى كان يرى للفتك بزعماء العصر : على ومعاوية وعمرو بن العاص ولكن الله سلّم الأخيرين .

ذلك هو المعنى الذى أريد أن أوضحه ، مؤامرة فارسية تؤيدها الأصابع اليهودية قتلت عمر ، ثم ثورات خطط لها الفرس واليهود وقادوها ووجهوها وخدعوا بعض الأبرياء فجذبوهم لها ، فقتلت عثمان وعليا وآلافا غيرهما فى عهد على ، ثم انطلقت المؤامرات الفارسية على نطاق واسع باسم الشعوبية والباطنية والزنادقة والخرمية والقرامطة والدرزية والبابية والبهائية. . . . . . فقتلت الملايين من المسلمين ولاتزال تقتل وتضرب ، حتى اليوم بصيحة الخمينى .

تلك هى الأسباب الحقيقية لمقاتل الخلفاء الثلاثة ، أما الدراسات التقليدية فإليك حديثها عن عمر ، وسيجيء فيما بعد حديثها عن عثمان وعلى رحمهم الله واقتص من أعدائهم .

مقتل عمر :

قتل عمر بن الخطاب فى مؤامرة دبرها بعض أعداء الإسلام من الفرس واليهود ونفذها أبو لؤلؤة ، وهو مولى فارسى أسر فى نهاوند وأصبح ملكاً للمغيرة بن شعبة ، ومن الواضح أن عمر أزال ملك الفرس وقضى على سلطانهم ، ولهذا كانت الطبقة العليا من الفرس هى وأتباعها تحقد على عمر وتتمنى الخلاص منه ، وقد تسلل القاتل إلى المسجد وعمر يبدأ فى صلاة الفجر ولم ينتشر الضوء بعد ، فطعن الخليفة بخنجر عدة طعنات إحداها تحت سرته فخرقت أمعاءه ، وصاح عمر ، فأقبل المسلمون يقبضون على القاتل ، فانهال عليهم طعنا حتى قتل وجرح عددا منهم ، ثم استطاعوا القبض عليه فطعن نفسه وانتحر .

ومات الخليفة العظيم بعد ذلك ببضعة أيام تاركا أعظم الذكريات ، ومخلفا سيرة من أعظم السير التى يرويها التاريخ .

وكاد سر الجريمة ينطوى بموت القاتل ، ولكن شعاعا من الضوء ظهر فأوضح المؤامرة ، فقد ذكر عبد الرحمن بن أبى بكر أنه رأى فى اليوم السابق لطعن عمر ثلاثة يتهامسون هم الهرمزان وهو سيد من سادة الفرس ، فقد سلطانه ومكانته وأصبح يعيش بين عامة الناس بعد أن فقد الأمل فى استرجاع نفوذه ، وجفينة وكان نصرانيا من أهل الحيرة يعلم الكتابة بالمدينة وأبو لؤلؤة . ويقول عبد الرحمن إن المتآمرين فوجئوا به فارتبكوا وسقط منهم خنجر له رأسان ، ولما رأى عبد الرحمن الخنجر الذى طُعن به عمر قرر أنه نفس الخنجر الذى رآه أمس . وكان ذلك سبباً فى أن عبيد الله بن عمر حمل سيفه بعد موت أبيه وقتل الهرمزان وجفينة وابنة صغيرة لأبى لؤلؤة[1] . وسيأتى فيما بعد شرح موقف المسلمين من عبيد الله الذى حملته الحماسة أو قل الرعونة للفتك بالناس ، فالقصاص — على فرض ثبوت الجريمة — يتم بحكم القضاء وبأمر الخليفة .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٣ : ٣ .

عثمان بن عفان

٢٣ – ٣٥ هـ (٦٤٤ – ٦٥٧)

تعريف به :

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية ، ولد بعد ميلاد الرسول بخمس سنين ، ودخل الإسلام على يد أبي بكر الصديق ، وكان من كبار الأثرياء قبل الإسلام وبعده ، وكان سخياً جداً بذل المال لخدمة الإسلام ؛ ففي جيش العسرة أمدّ المسلمين بمئات من الإبل بأقتابها وعدتها ، وعدد من الخيول ، وألف دينار كما سبق القول ، وفي مناسبات أخرى كثيرة كان يعطي ماله بدون حساب لخدمة الإسلام ومساعدة المسلمين .

وعثمان من المبشرين بالجنة ، وقد أثر عن الرسول قوله : لكل نبي رفيق ورفيقي في الجنة عثمان . ولقوة صلته بالرسول زوجه الرسول من ابنته رقية فلما ماتت في أثناء غزوة بدر زوجه الرسول بابنته الثانية أم كلثوم وقد بقيت معه حتى ماتت في السنة التاسعة للهجرة ، ولذلك يسمى « ذا النورين » وقد أثر عن الرسول أنه قال له بعد موت أم كلثوم : لو أن لنا ثالثة لزوجناك .

وقد مر بنا أن عثمان كان سفير الرسول لقريش وقت الحديبية ، وهذا يدل على علو مكانته . وكانت سفارته ناجحة .

توليته الخلافة :

عندما طعن عمر لم يكن في نيته أن يولي خلفا له ؛ فالظروف التي دعت أبا بكر أن يعين خلفاً له قد زالت إذ انتصرت جيوش المسلمين واستقرت الأحوال ، ولكن المسلمين خافوا الفرقة بعد موت الخليفة فعرضوا على عمر أن يعين خلفه ، وقد أثر عنه قوله ، إن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني (يقصد أبا بكر) ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني (يقصد الرسول صلوات الله عليه) . ويبدو لنا من دراسة هذه الفترة أن عمر كان متردداً ؛ فهو لا يريد أن يتحمل مسئوليات الناس بعد موته ،

ولا يريد فى الوقت نفسه للمسلمين الفرقة بعده ، ولذلك نجده يقترح طريقاً وسطاً بين التعيين وعدم التعيين ، فيعين الستة المبشرين بالجنة ، وهم خيرة المسلمين ولن يكون الخليفة بطبيعة الحال إلا منهم ، ويطلب من هؤلاء الستة أن يختاروا من بينهم الخليفة بعد استشارة المسلمين . وهؤلاء الستة هم :

عثمان — على بن أبى طالب — طلحة بن عبيد الله — الزبير بن العوام — سعد بن أبى وقاص — عبد الرحمن بن عوف .

وضم عمر إليهم ابنه عبد الله ليكون له رأى فى الاختيار على ألا يختار للخلافة ، وحدد عمر ثلاثة أيام تنتهى المشاورة خلالها .

ومات عمر واجتمع هؤلاء للمشاورة ، فاقترح عبد الرحمن بن عوف أن يخرج أحدهم نفسه ويتولى الذى يخرج مشاورة الناس واختيار الخليفة من بين الخمسة الآخرين ، فقبلوا ذلك المبدأ ، ثم عرض عليهم استعداده ليكون هو ذلك الشخص فقبلوا ، وعاهدوه على ذلك ، وعاهدهم على الحق والعدل . واستشار عبد الرحمن الخاصة والعامة واستشار المرشحين ، فوجد أن الإجماع يكاد يكون منعقداً على عثمان أو على ، فانحصرت الخلافة فيهما ، فاختار عثمان لكبر سنه وسهولة طبعه[1].

وأول قضية بحثها عثمان هى قضية عبيد الله بن عمر الذى قتل الهرمزان وجفينة وابنة صغيرة لأبى لؤلؤة كما سبق ، وقد اختلف رأى المسلمين فى هذه القضية ، فقال بعضهم بوجوب قتل عبيد الله ، ورأى آخرون أن من الصعب قتل عمر أمس وقتل ابنه اليوم ، وتخلص عثمان من هذه المشكلة بأن حكم بالدية لأهل القتلى وتحمل الدية فى ماله . وقيل إن عثمان حكم بالقصاص ولكن أهل القتلى عفوا عن عبيد الله واكتفوا بالدية[2] .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٤ ص ٣٠٢ واقرأ التفاصيل الدقيقة فى كتاب « السياسة فى التفكير الإسلامى » للمؤلف .

(٢) انظر تفاصيل هذه القصة فى تهذيب الأسماء للنووى القسم الأول جـ١ ص٣١٥-٣١٦.

سياسة عثمان :

إن الدارس لتاريخ عثمان رضى الله عنه يرى أن سياسته فى الحكم كانت تتجه للين والعظة ولا تتجه للحسم والعزم والتخويف ، وهو بهذا كان يختلف عن أبى بكر وعمر ، ويمكن أن نلحظ علامات السياسة التى اتبعها عثمان من خطابه الذى بدأ به خلافته ، قال رضى الله عنه للناس :

« إنكم فى دار الزوال ، لا فى دار البقاء ، وفى بقية أعمار (أى تقدمت بكم الأعمار) فبادروا بخير ما تقدرون عليه ، وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم هذه الحياة ، واعتبروا بمن مضى . أين الذين عمروا الأرض ونالوا منها ؟ ألم يأتوا إلى نهاية ؟ لا تغفلوا عن الواجب فإنه لا يغفل عنكم . . . . ارموا الدنيا واطلبوا الآخرة » .

التوسعة واليسر على الناس :

وكما اتجه عثمان فى سياسته إلى الرفق واللين اتجه كذلك للتوسعة على المسلمين ، فقد زاد فى الأعطيات ، وأطلق للمسلمين حرية التمتع بالنعم الحلال ليشكروا الله على ما رزقهم من نعم ، وأباح للصحابة أن ينتشروا فى البلاد رجاء أن يدعوا إلى الله ، وأن يستفيدوا من الاتصالات بالحضارات الأخرى ، وكان عمر رضى الله عنه قد منع الصحابة من مغادرة المدينة .

نسخه عدة صور من القرآن :

يروى أن حذيفة بن اليمان عاد إلى المدينة فى عهد عثمان بعد أن كان يشترك فى الفتوحات الإسلامية بعدة بلاد ، وقد فزع حذيفة عند ما رأى اختلافات الناس هنا وهناك فى قراءة القرآن الكريم ، فجاء إلى عثمان وقال له : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى كتاب الله كما اختلف اليهود والنصارى .

فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر يطلب أن ترسل إليه المصحف الذى

كان قد جُمِّــع فى عهد أبى بكر ، لكتابة عدة نسخ منه للأقطار المختلفة، على أن يعيد الأصل إلى حفصة بعد ذلك .

وتسلم عثمان المصحف من حفصة ، وجمع مجموعة من القراء هم زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام ، وطلب منهم أن يكتبوا عدة نسخ من هذا المصحف ولما تمَّ ذلك أرسل عثمان نسخة إلى كل من البصرة والــكوفة والشام ومكة ، وخصص نسخة لأهل المدينة ، كما حصل هو نفسه على نسخة .

وعثمان بذلك قد خدم الذكر الحكيم أجل خدمة ، وجمع الناس على قراءة واحدة هى ما ورد فى هــذا المصحف الشريف ، وأمرهم بحرق ما سواه من صحف أو كتابات .

لمحة من صفات عثمان

ان الدارس لحياة عثمان قبل الإسلام وبعده ، وقبل أن يتولى الخلافة وبعد أن تولاها يجد صورة زاهية لمسلم اجتمعت فيه أسمى الصفات وأرقى السجايا ، وسنورد فيما يلى خلاصة بصفات عثمان رضى الله عنه .

قمة فى الطُّهر والتعفُّف :

وأول ما نذكره أن عثمان لم يشرب خمراً فى الجاهلية ، وكان يقول قبل الإسلام : إنها تُذهِب العقل ، والعقل أسمى ما منحه الله للإنسان ، وعلى الإنسان أن يسمو به ، لا أن يصارعه ، وفى الجاهلية كذلك لم تجذبه أغانى الشباب ولا حلقات اللهو ، ثم إن عثمان كان يتعفف عن أن يرى عورة .

حب الناس له :

ومن أطرف ما يروى عن حب الناس لعثمان لما تجمَّع فيه من صفات الخير أن المرأة العربية فى عصره كانت تغنِّى لطفلها أغنية تحمل تقدير الناس له وثناءهم عليه ، ومن الكلمات المأثورة لهذه الأغانى ما يلى :

أحبُّك والرحمنْ
حبَّ قريش لعثمانْ

الحركات العسكرية فى عهد عثمان :

١ — تتلخص الحركات العسكرية فى عهد عثمان فى ناحيتين .

القضاء على التمرد والثورات التى قامت فى بعض النواحى التى دخلها الإسلام فى عهد عمر .

٢ — استمرار التوسع الإسلامى فى الميادين المختلفة التى انتهى عندها التوسع الإسلامى فى عهد عمر .

وسنتكلم فيما يلى كلمة موجزة عن كل من هاتين الناحيتين :

١ — **القضاء على التمرد والثورات** : بعد موت عمر بن الخطاب تمردت بعض الولايات على الحكم الإسلامى وقام بهذا التمرد عناصر توالى عهد ما قبل الفتح ، أو قامت بها قوى الاحتلال التى كان لها السلطان قبل الزحف الإسلامى ، وبرزت أهم الانتفاضات فى خراسان والإسكندرية ، وقد قام بثورة خراسان أنصار الحكم السابق ، وأما الإسكندرية فقد هاجمها الروم بجيش كثيف يقوده بطل أرمنى كبير اسمه ما نويل ، وقد استطاع عثمان أن يقضى على الثورتين قضاء حاسما ، إذ أرسل لكل جيشا كبير العدد والعدة ، فأعاد البلاد إلى الطاعة ، وقضى على الثائرين أو المهاجمين :

٢ — **التوسع الاسلامى** : شمل التوسع الإسلامى تقريبا كل الميادين التى كانت الجيوش الإسلامية قد وصلت إليها فى عهد عمر ، وزاد التوسع من الناحية البحرية ، إذ أصبح للمسلمين بحرية فى عهد عثمان ، وعلى ذلك فقد انضم إلى الدولة الإسلامية برقة وطرابلس غرب مصر[١] ، وانضم لها جزء من بلاد النوبة[٢] فى الجنوب ، و نضمت لها بلاد أرمينية[٣] وأجزاء من طبرستان وهى المنطقة الجبلية جنوبى قزوين[٤] ، وتخطت جيوش المسلمين نهر جيحون ودخلت بلاد ما وراء النهر فى الدولة الإسلامية ، فاستولى المسلمون على بلخ وهراة وكابول وغزنة من بلاد الأتراك[٥] .

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٥ — ٢٢٨ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٣) انظر فتوح أرمينية فى البلاذرى ص ١٩٧ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣٠ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٩٨ .

وعن طريق البحرية الإسلامية دخلت قبرص إطار الدولة الإسلاميـــة ، وقد قام بغزوها معاوية بن أبى سفيان سنة ٢٨ هـ(١) ؛ ومن أهم المواقع البحرية موقعة ذات السوارى أو ذات الصوارى ، وقد حدثت سنة ٣١ هـ فى البحر الأبيض المتوسط بالقرب من الإسكندرية بين جيش الروم يقوده قسطنطين وبين عبد الله بن أبى سرح والى مصر ، وسميت « ذات السوارى » نسبة إلى سوارى البواخر التى اشتركت فيها ، ويقال إنه اشترك فيها ألف سفينة منها مائتان للمسلمين والباقى للروم ، وقد كسب المسلمون النصر فى هذه الموقعة(٢) (انظر الخريطة رقم ٨) .

نهاية عثمان ودراسة الفتنة التى أدت إلى قتله :

إن دراسة الفتنة التى أدت إلى قتل عثمان عمل واسع ، خصه كثير من الباحثين بدراسات مستقلة ، وسنحاول هنا إيجاز الموضوع فى غير إهمال :

من الواضح أن بنى أمية كانوا فى مطلع الإسلام أعداء هذا الدين ، وهم الذين قادوا الجيوش عدة مرات للقضاء عليه ؛ ثم استسلم بنو أمية ودخلوا الإسلام عند فتح مكة ، ولما مات الرسول صلى الله عليه وسلم لم يطمع بنو أمية فى الخلافة لقرب عهدهم بالإسلام ولموقفهم العدائى منه مدة طويلة ، ولكن الأحداث التى مر بها الإسلام خلال خلافة أبى بكر وعمر أتاحت الفرصة لبنى أمية ليعوضوا ما فاتهم ، فلمعت أسماء قادة مغاوير منهم فى حروب الردة والمتنبئين ، وفى الحروب ضد الفرس والروم ، ومن هؤلاء يزيد بن أبى سفيان ومعاوية ، وهند أم معاوية التى كانت تخوض مع الرجال موقعة اليرموك(٣) وبهذا استعاد بنو أمية مكانتهم ، وبالتالى طمعوا فى الحصول على الخلافة .

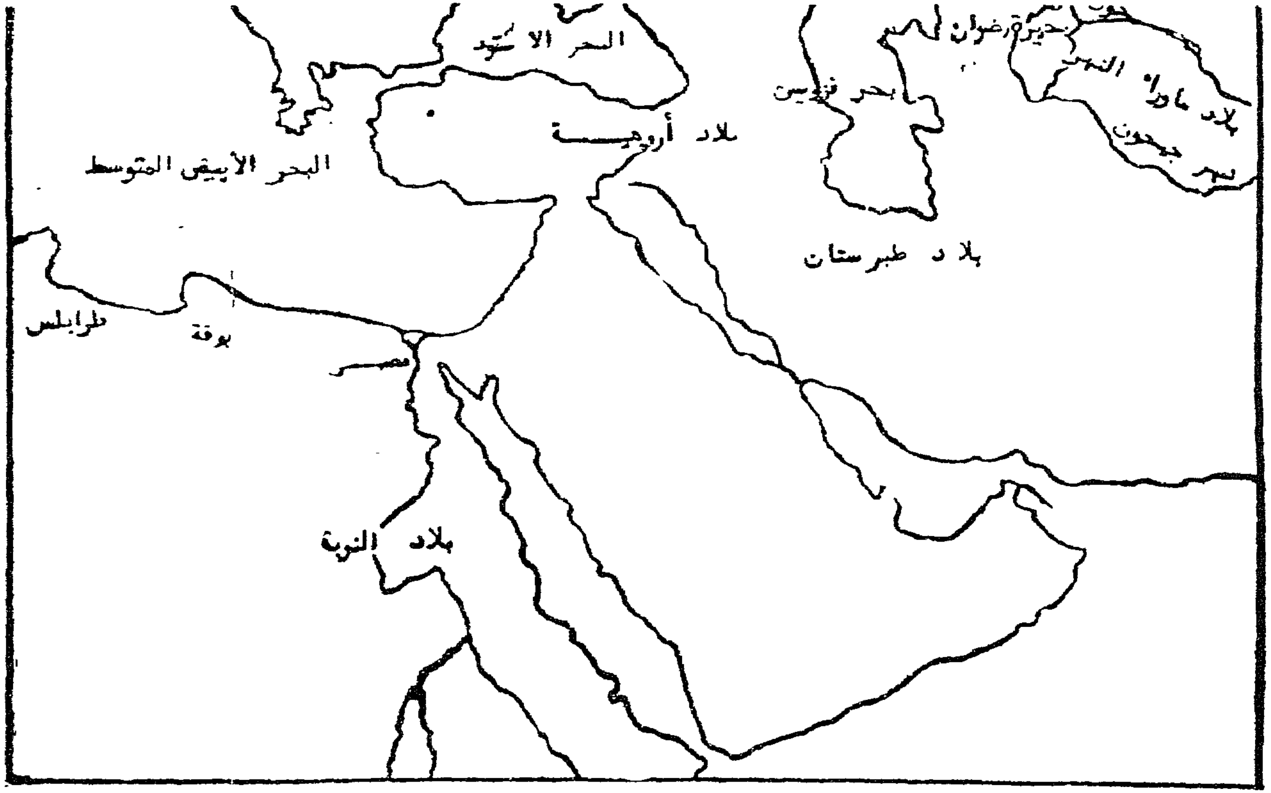
وعندما مات عمر كانت هنالك أسرتان كبيرتان تطمعان فى هذه الخلافة ، هما أسرة بنى هاشم وأسرة بنى أمية . وكان بنو هاشم أقدم طمعاً فى الخلافة من بنى أمية . فقد كان على يراها حقاً له عقب وفاة الرسول ، ولكن المسلمين

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٧ — ١٥٨ .

(٢) النووى : تهذيب الاسماء : القسم الأول جـ ١ ص ٣٧٠ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤١ .



(خريطة رقم ٨)
اتساع الدولة الإسلامية في عهد عثمان

لم يستجيبوا له حينذاك إذ رأت أغلبيتهم أن الخلافة لو أسندت إلى هاشمي لأصبح من المتعذر إخراجها من بني هاشم .

وانتهت المشورة بعد موت عمر كما قدمنا إلى واحد من اثنين : عثمان وعلي ، أو بعبارة أخرى إلى بني أمية أو بني هاشم ، وهنا أوشكت أن ترجح كفة بني هاشم لكن عاملين كبيرين ظهرا فرجحا كفة بني أمية ، وهذان العاملان هما :

أولا — أن الأمل في إمكان إخراج الخلافة من بني أمية كان أقوى من الأمل في إخراجها من بني هاشم .

ثانياً — شدة عمر وصرامته جعلت الناس يرغبون عن عليّ حتى لا تمتد الشدة والصرامة ، ومالوا إلى عثمان حيث الدعة واليسر والتسامح .

وأسند الأمر إلى عثمان ، وإذا سرنا مع عثمان في خلافته فإننا نقرر أن عثمان تولى في ظروف يمكن تلخيصها في أن الناس كانوا فريقين ، أحدهما لا يرضى عن عثمان ولا يزكيه ، والفريق الثاني يؤيده لا تقديراً له بل طمعاً فيه ، ومن هنا يبدو الوضع الحرج الذي وضع فيه عثمان من أول الأمر .

ثم إن عثمان كان قد أتم السبعين من عمره عندما تولى الخلافة ، وتلك سن تؤذن بالزوال .

وجاء عثمان بعد عمر أو قل جاء اليسر بعد الصرامة ، والتردد بعد العزيمة القوية ، فانفلت المكبوت ، وانطلق السجين ، وأقدم الخائف .

وكان من اجتهاد عمر أنه منع كبار الصحابة من مغادرة المدينة إلا بإذن ولأجل محدود ، فلما تولى عثمان لم ير ما رآه عمر أو ضعف عن أن ينفذه ، فخرجوا ، وكان خروجهم مطلع تشتت أدركه عمر ببصيرته النافذة ، فإن كل واحد من كبار الصحابة سافر إلى جهة واتخذ له مستقراً فيها ، وراح يتحدث عن مواقفه مع الرسول ، وكفاحه من أجل الإسلام ، والتف حوله معجبون كثيرون ، كما التف حوله أيضاً الطامعون ، وتفرقت الأمة ، وأصبح كل واحد من هؤلاء يمثل ملكاً له مظاهر العظمة وكثير من الأتباع .

وبدأ الغنى يظهر فى العالم الإسلامى فى أخريات عهد عمر ، والغنى وسيلة للبذخ والشيطان ، إن لم تكن هناك رقابة شديدة وتوجيه رشيد ؛ وبموت عمر ضعفت الرقابة وقل التوجيه ، فظهرت الآثام وانتشرت الشرور بين بعض الناس .

وبدأ الخليفة نفسه يعمل أشياء لم يعملها سابقوه . أشياء رآها بعض المسلمين أخطاء ورآها عثمان صواباً أو ضرورة . وكانت هذه الأعمال هى الشرارة التى انطلقت منها الفتنة العارمة . وأحب قبل أن أذكر هذه الأعمال أن أعيد أن عثمان لم يقم بها ارتجالا أو استهانة ، وإنما قام بها عن فلسفة وفكر واجتهاد هداه إلى أن من حقه أن يقوم بما قام به ، وهذا - فيما نرى - لا يلحق به ذنباً إن رأى بعض الناس أن طبيعة ما قام به عثمان مما يستدعى الذنوب .

وفلسفة عثمان هذه يمكن أن نجعلها ذات شقين . فشق منها يتصل بسياسته فى ناحية الحكم ، وشق يتصل بسياسته فى الناحية الاقتصادية .

أما فلسفة عثمان فيما يتعلق بالحكم فيمكن تلخيصها فى أن سن عثمان كانت متقدمة عندما تولى الخلافة كما سبق القول . وهو لذلك كان أكثر من أبى بكر وعمر حاجة لمن يساعده فى حمل أعباء الحكم ، ثم إن عثمان من أسرة كبيرة كما قلنا آنفاً . ولكثيرين من أفراد أسرته مكانة مرموقة فى الحياة العربية والإسلامية . وكان منهم قادة وأمراء من قبل عهد عثمان .

وبمرور الزمن وظهور الشيخوخة فى عثمان زادت حاجته إلى من يركن إليه . ورأى عثمان أن يعتمد فى العاصمة وخارجها على أقاربه ، فهم موضع ثقته . وهم أحرص على إعانته والإخلاص له . ثم إن كفاءتهم لا ينكرها أحد ؛ ومكانة بنى أمية بين العرب ليست موضع شك ، ولذلك ولاهم عثمان واستكثر منهم ، فالكوفة كانت للمغيرة بن شعبة فنقل ولايتها إلى سعيد بن العاص ، وكانت حمص إلى عمير بن سعد فضمها إلى معاوية والى دمشق . ومصر كانت لعمرو بن العاص فنقلت إلى عبد الله بن أبى سرح أخى عثمان من الرضاعة . وهكذا .

على أن هؤلاء الولاة الجدد فى الحقيقة غير مطعون فى كفاءتهم كما دافع بذلك عثمان عن نفسه ، ولكنى أحس على كل حال أن هؤلاء الولاة لم يعودوا يخافون الخليفة كما كان ولاة عمر يخافونه ، وبخاصة إذا كان الوالى من بنى أمية وفى دار الخلافة مروان بن الحكم وهو من بنى أمية أيضا ! وكان عثمان قد اتخذه مشيره ومدبره وأعطاه خاتمه .

تلك هى فلسفة عثمان فى ناحية الحكم ، ميل لتولية أقاربه لثقته فيهم ، ولأمنه جانبهم ، واطمئنانه إلى مساعدتهم .

أما فلسفة عثمان فيما يتعلق بالاقتصاد فيمكن تلخيصها فى أن عثمان كان من قبل غنياً جداً وسمحاً جداً ، كان يعيش فى رخاء ، وكان مبسوط اليد ، لا يعرف البخل طريقه إليه ، وكان يملك ما يوسع به على نفسه وما يعطيه للآخرين ، ثم أفنى ماله كله فى الإنفاق والعطاء وفى سبيل الله ، ولكنه وجد أمامه بيت المال فأخذ منه لنفسه وأعطى منه أقاربه وسائليه ، وأسرف أحياناً — كما تروى بعض الروايات — فى الإنفاق وفى العطاء ، ونسى أنه فى هذه المرة ينفق ويعطى مما لا يملك .

وحجة عثمان فى ذلك أنه كان قبل الإسلام ذا مال كثير وتجارة واسعة ، ولو أنه استمر يرعى ماله وتجارته لدام ثراؤه فاكتفى وأعطى ذويه ، وأن شئون المسلمين وشئون الخلافة هى التى ذهبت بهذا الثراء ، بين منح للمسلمين عند حاجتهم وبين انشغال عن توجيه التجارة وإدارة المـــال ، ورأى عثمان أن من حقه — والحالة كما وصفنا — أن يتسع له بيت المـــال حتى لا يعيش فى عسرة ، أو حتى لا يدع أقاربه فى عسرة ، وإذا كان أبو بكر وعمر لم يفعلا ذلك فقد تركا حقهما وهذا لا يرغمه أن يترك حقه ، أو قل إنهما لم يتعودا السعة التى عاش فيها عثمان ، ولم يتكفلا بأقاربهما كما تكفل عثمان .

على أن عثمان عندما أعطى المسلمين فى غزوة تبوك أو فى غيرها كان مانحاً ولم يكن مُقرضاً ، فهل له الحق أن يسترد من بيت المال بدل ما منحه لإعلاء كلمة الله ؟ ويجيب عثمان بأنه لا يأخذ بدلا وإنما يأخذ حاجته نظير

تفرغه لخلافة المسلمين . ولكن حاجة عثمان لنفسه ولذويه كانت أكثر مما تعوده المسلمون .

وبدأت الثورات همساً . ثم ارتفع الهمس ، وأحس الخليفة أن الفتنة بدأت تظهر ؛ ولكن الخليفة أصر على ألا يقسو على الثائرين واتسع لهم حلمه وحياؤه ، وفى ظل هذين الخلقين نمت الفتنة غير خائفة من بطش الخليفة أو من انتقامه ، وكان عثمان يثور أحياناً ولكنها ثورة الشفوق لاتلبث أن تموت ؛ وهى تضر فى فورتها وتضر فى هدوئها .

وكان على كلما اشتكى الناس إليه أمر عثمان أرسل ابنه الحسن إليه ، فلما أكثر علىّ عليه قال له عثمان : إن أباك يرى أن أحداً لا يعلم ما يعلم ، ونحن أعلم بما نفعل فكفّ عنا . فلم يبعث على ابنه فى شىء بعد ذلك(١) .

وسارت الأمور فى السنوات الست الأولى من خلافة عثمان مدفوعة بالقوة التى بذلها ابن الخطاب ، وظل الضوء الذى أشعله عمر ينير للناس ، ولكن الخليفة الجديد لم يمد المصباح بالزيت ؛ فلما أوشك الزيت أن يجف بدأ الظلام يدخل ؛ وبدأت الدولة تهتز ، وليس معنى هذا أن أعمال عثمان التى سببت حنق الناس وغضبهم لم تظهر إلا بعد ست سنوات من حكمه ؛ لا ، فقد ظهرت منذ اللحظات الأولى ، ولكنها كانت أشبه بالمرض يدب فى الجسم السليم فيقاومه الجسم ، ولا يبدو عليه الضر ويظل المرض يشتد ما دام المريض لا يجد علاجاً حتى تضعف الصحة وينهار المريض ؛ وهكذا جاءت السنوات الست الثانية . وقد بدأت الدولة تهتز وأخذت المشكلة تستعصى ، وتقدم الناصحون للخليفة الشيخ يطلبون منه الاعتزال والراحة ولكن الخليفة صاح بهم قائلا : كيف أخلع لباساً ألبسنيه الله تعالى ؟

واشتعلت الثورة ضد عثمان ، وبدأ منظموها فى الكوفة والبصرة ومصر يعلنون ما كانوا من قبل يضمرون ، وظهر مع الثائرين أعلام من الصحابة

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٢٠٨ .

أنكروا بعض تصرفات عثمان ، فأسرع ابن سبأ[١] وهو الزعيم الحقيقي للثورة فاجتذبهم أو اجتذب آراءهم إليه ، لتقوى بهم حجته ، وترجح كفته ، ومن هؤلاء الصحابة أبو ذر الغفارى وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود .

وعبد الله بن سبأ هو الشخص الذى نقل الثورة من الكلام إلى العمل ولم يكن ابن سبأ مخلصاً فى حركته ، فقد كان يهودياً ادعى أنه دخل الإسلام ولم يكن يضمر للإسلام ولا للمسلمين خيراً ، فانتهز هذه الفرصة ليشعل الفتنة وينزل بالعالم الإسلامى ناراً ظلت متأججة عشرات السنين .

من الممكن أن يخطىء شخص أو يزل ، ولكن لإصلاح الخطأ طرقاً كثيرة عندما تحسن النية ، وابن سبأ كان أبعد ما يكون عن حسن النية ، فقد

---

(١) اتبعنا المراجع الشهيرة فى حديثنا عن عبد الله بن سبأ وعن تصوير الدور الذى قام به لتجميع الشيعة فى جماعة ؛ بعد أن كانوا أفراداً ، وفى إدخال كثير من الانحرافات والضلالات على مذهبهم متحينا الفرص المختلفة لذلك ، ووضحت فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة الفرق بين الشيعة الحقيقيين وبين مدعى التشيع هؤلاء الذين لم يكونوا شيعة ولا مسلمين ، وإنما ادعوا التشيع لإدخال الأكاذيب على المذهب الشيعى لأغراض فى نفوسهم

ولقد اطلعت حديثا على كتاب « عبد الله بن سبأ » للأستاذ مرتضى العسكرى عميد كلية أصول الدين بالعراق ؛ وفيه يذكر المؤلف أن عبد الله بن سبأ أسطورة خلقها وضاع اسمه سيف بن عمر (توفى بعد السبعين والمائة للهجرة) وذكر المؤلف مواقف متعددة كانت الرواية فيها عن سيف مختلفة عن الرواية عن سواه ، وأبرز فى رواياته صورا من الأعراف .

بقى أن نورد سؤالا مهما هو . من الذى أدخل الانحرافات إلى المذهب الشيعى الذى نعرف فى أصوله السليمة بعدا عما نراه فيه من انحرافات وترهات .

فى اعتقادى أن قوى كثيرة دفعت نفسها إلى صفوف آل البيت وشيعهم لتنفث من سمومهم ، وطالما كشف أهل البيت نواياهم فصدوهم ، ولكن طالما استطاع هؤلاء بطريق أو بآخر أن يلقوا شحنة السم التى كانوا يحملونها ؛ وقد وضحت ذلك فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة .

ولهذا فأنا أقرر هنا أن ضالة بدأت هذا الشوط هى عبد الله بن سبأ أو شخص ما أطلق عليه هذا الاسم ، وأن مريدين كثيرين أخذوا عنه هذا الضلال وساروا فيه أزمنة طويلة وأشواطاً واسعة . فالاسم لا يهمنا ولكن يهمنا أن شخصا قام بالدور الذى نسب إلى عبد الله بن سبأ وأن أشخاصا قاموا بالأدوار التى تنسب للسبئيين ولأعداء الشيعة وأعداء الإسلام الذين أسميناهم (مدعى التشريع) .

طاب له أن يجد ما عدّه هو وأصحابه أخطاء لعثمان ليجعلها سبباً لهوة ينزلق فيها المسلمون .

ونجح ابن سبأ في الخطة التي وضعها : ونجده – ليضمن النجاح – يقوم بالدعوة لعلى ، فينشر مذهب الوصاية ، أى أن علياً وصى محمد كما أن لكل نبي وصياً ، وأن علياً خاتم الأوصياء كما كان محمد خاتم الأنبياء ، وأيد رأيه بأحاديث وضعها ، كما أشاع نظرية الحق الإلهى ، وهى نظرية فارسية عبرت مع الفرس إلى اليمن موطن ابن سبأ ، إذ كان الفرس يحتلون اليمن قبل أن يدخلها الإسلام ، ومغزى هذه النظرية أن علياً هو صاحب الحق الأول فى الخلافة

وأثار ابن سبأ الشبهات ، وجمع حوله أنصاره ، كما جمع الساخطين على عثمان ، وزحف الثائرون إلى المدينة من الكوفة والبصرة حيث كانت مبادىء ابن سبأ قد وجدت مرعى خصباً بين البسطاء من أتباع على . وزحف ثائرو مصر كذلك حيث كان ابن سبأ يعيش فى ذلك الوقت ، وحيث وجد الوسيلة لإثارة المصريين ضد عبد الله بن أبى سرح والى عثمان وأخيه من الرضاعة ، ويبدو أن تخطيطاً دقيقاً دفع هؤلاء وأولئك ليسيروا فى نفس الوقت ثائرين من بلدان مختلفة إلى المدينة .

وفى المدينة التقت هذه الجموع الساخطة ، ولكن عليا تصدى لهم ، وشرح لهم أن أى اعتداء على الخليفة هو إضعاف للاسلام وتفرقه للمسلمين كما أن عثمان دافع عن نفسه دفاعا مقبولا ، وظهرت الآمال بأن الأحوال ستصلح ، فقفل الثائرون راجعين .

وأدرك ابن سبأ أنه هزم ، وأن الفرصة التى عمل لها عدة سنوات أوشكت أن تضيع ، ولذلك أعمل الحيلة ودبر أمره ، فيروى أن الثائرين حال عودتهم رأوا رجلا أسود يمشى على بعد منهم وأنه يحاول أن يختفى عنهم ، فشكوا فى أمره ، فلحقوا به وقبضوا عليه وفتشوه فوجدوا معه خطاباً عليه خاتم عثمان . وفى الخطاب أمر لوالى مصر أن يقتل هؤلاء الثائرين ويقتل معهم محمد بن أبى بكر[1] الذى كان من زعمائهم ويمثل بجثث الجميع ، وهكذا أصبحت المسألة

---

(١) يقول بروكلمان ان محمدا هذا هو ابن أبى حذيفة وينسب إلى أبى بكر بالتبنى (تاريخ الشعوب الإسلامية ١ . ١٧٥ وقد كان محمد هذا من أشياع على لأنه تربى فى بيته إذ تزوج على بأمه بعد موت أبى بكر .

و نظر الثائرين دفاعاً عن النفس لأنهم أدركوا أن دماءهم مباحة ، فعادوا أدراجهم إلى المدينة ، وواجهوا عثمان بالأمر ، فأقسم عثمان إنه لم يكتب الكتاب ، ولا أمر به ، وليس له به علم ، فطلبوا منه أن يسلمهم حامل خاتمه أو يقتص منه ، فأبى ، وقال إن حامل الخاتم لا يعمل هذا أبداً ، وأن أبناء السوء قلدوا خاتمه وزوروا عليه هذا الخطاب .

ويبدو أنه من المحقق أن هذا الخطاب حيلة دبرها ابن سبأ ليعيد إلى ثورته الحياة بعد أن أوشكت أن تموت .

وقد وضّح لنا ابن عبد ربه مسألة الاختلاق ووَضْع الكتب والرسائل بأسماء الآخرين ، وكيف لعب ذلك دوراً هاما فى إشعال هذه الثورة ، ونحن ننقل عباره ابن عبد ربه بنصها ، فهى تلقى ضوءاً ساطعا على موضوع كثر فيه التخبط وتعددت الآراء ، قال :

لما قدم القواد قالوا لعلى : قم معنا إلى هذا الرجل . قال : لا والله لا أقوم معكم . قالوا : فلم كتبت إلينا ؟ قال : والله ما كتبت إليكم كتابا قط . فنظر القوم بعضهم إلى بعض . وخرج على من المدينة . :

واستنكرت عائشة قتل عثمان فقال لها مروان : هذا عملك ، كتبت للناس تأمرينهم بالخروج عليه . فقالت : والذى آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسواد فى بياض حتى جلست فى مجلسى هذا فكانوا يرون أنه كتب على لسان على وعلى لسانها : كما كتب أيضا على لسان عثمان مع الأسود إلى عامل مصر ؛ فكان اختلاق هذه الكتب كلها سببا فى الفتنة(١) .

وعلى كل حال فإن اختلاق هذا الخطاب لم يكتشف فى ذلك الحين ، وظن القوم أنه من عمل عثمان أو من عمل مروان ، وأن حياتهم أصبحت مهددة : فلم يعد هناك مجال للنقاش ، ولم يعد فى طاقة على بن أبى طالب وأمثاله أن يقوموا بأى دور للوساطة ، ولم يعد الثائرون مستعدين لأية تسوية لا يكون فيها دم الخليفة أو اعتزاله ، وأحاط الثائرون ببيت عثمان وحاصروا الخليفة

ونتوقف الآن عن السير مع هذه الأحداث لنسأل :

ما موقف كبار المسلمين من الدفاع عن عثمان ؟ وما موقف بنى أمية من ذلك؟

---

(١) العقد الفريد جـ ٤ ص ٣٩٢ - ٣٩٣ .

يروى لنا التاريخ أن بعض كبار المسلمين هجروا المدينة فى الفتنة، وأن بعضهم اعتزل الفتنة خوفا منها ولزم داره، ولكن كثيرين من شباب المسلمين وقفوا بباب عثمان يحرسونه ويذودون عنه ، وكان فى مقدمة هؤلاء الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير .

أما بنو أمية فإن موقفهم يحيط به بعض الغموض ؛ لقد كان معاوية يدرك ماسوف ينزل بابن عمه الخليفة، فعرض معاوية على عثمان أن يذهب معه للشام فامتنع وآثر أن يبقى حيث عاش ومات الرسول وصاحباه ، فعرض عليه أن يرسل له حرسا فأبى، وقال: لا أريد أن يشاركوا أهل المدينة زادهم وطعامهم، ثم تأزمت الأمور بعد ذلك ولكن معاوية لم يسرع لنجدة الخليفة ، وقتل عثمان قبل أن تصل المدينة القوة الصغيرة التى أرسلها معاوية فعادت أدراجها من منتصف الطريق(١) : ويروى أن عامر بن واثلة الصحابى دخل على معاوية إبان خلافته فقال له معاوية ، ألست من قتله عثمان : فقال عامر ؛ لا ولكنى ممن حضره فلم ينصره . . . ثم سأل عامر معاوية : وما منعك أنت من نصره ومعك أهل الشام ؟ فأجاب معاوية : أليس طلبى بدمه نصرة له ؟ فضحك عامر وقال : أنت وعثمان كما قال الشاعر :

لا ألفينَّك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زوَّدتنى زادا(٢)

ومثل ذلك ما قاله أبو أيوب الأنصارى لمعاوية ، فقد روى ابن قتيبة أن أبا أيوب كتب إلى معاوية يقول : إن الذى تربص بعثمان وثبط أهل الشام عن نصرته لأنت(٣) ، وأوضح تعليل أعتقده لموقف بنى أمية أنهم ظنوا أن تدخلهم سينقل الخلاف من دائرة إلى دائرة ، سينقله من خلاف بين المسلمين وبين خليفة المسلمين ، إلى خلاف بين المسلمين وبين أمية ، ولم يكن بنو أمية بطبيعة الحال يريدون ذلك .

على أن عثمان استطاع أن يرسل إلى الحجاج فى موسم الحج الذى عقد

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٨ وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ج ٤ - ١٣٢

(٢) السيوطى . تاريخ الخلفاء ص ٢٠٠

(٣) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٠٦

وهو محاصر يطالب عونهم ، فتحركت شهامة الكثيرين للدفاع عن الخليفة ، واتجهوا إلى المدينة ، وفى نفس الوقت كان جند الشام قد بدءوا الزحف للمدينة لإرغام المحاصرين على فك الحصار ، فأدرك الثائرون أن الفرصة أو شكت أن تفلت من أيديهم ، فتسور بضعة منهم للدار بعد أن استمر حصارها اثنين وعشرين يوما ، وهجم الذين تسوروا الدار على الخليفة وهو يقرأ القرآن ، وضربه الغافقى بحديدة كانت فى يده ، وضربه آخر بالسيف ، ولما حاولت زوجته أن تدافع عنه قطعت أصابعها وهى تتلقى عنه الضربات .

وخر الشيخ فكان مصرعه بابا لفتنة شعواء دفع المسلمون عنها آلافا من أرواح الشباب الذين لا ذنب لهم ولا جريرة .

ولعل من المناسب أن نذكر أن القتلة الحقيقين كانوا قلائل عرف منهم الغافقى ولم يعرف الآخرون ، وقد فر الغافقى بعد ذلك ولم يُعثر له على أثر ، وأما الآخرون فلم تعرف شخصياتهم ، ولهذا أسند قتل عثمان إلى الثائرين والمحرضين مما وسع الهوة وسبب ألوانا من النكبات[1] .

واختفاء الغافقى والقضاء عليه يذكرنا بقتل قاتل كيندى ، إنها سياسة واحدة ، بها بصمات يهودية ، يراد بها دفن السرّ مع صاحبه .

(١) دوايت دونالدش . عقيدة الشيعة ص ٤١ .

علي بن أبي طالب

٣٥ – ٤٠ هـ (٦٥٦ – ٦٦١ م)

تعريف به :

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ، ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة ، وهي البنت الوحيدة من نسل الرسول التي أعقبت وعن طريقها وُجدت ذرية سيدنا رسول الله حتى العهد الحاضر .

وقد سبق لنا أن قلنا إن أبا طالب كفل محمداً بعد موت جده عبدالمطلب ، فلما كبر محمد أراد أن يسدد هذا الدَّين لعمه ، فأخذ علياً ورباه في بيته ، وبخاصة أن أبا طالب كان كثير الأولاد ، وأن مكة أصابها جدب ، فمست الضائقةُ حياة أبي طالب .

ولما بُعث محمد كان عليٌّ صبيا فآمن به . ولذلك يقال إن علياً أول من آمن من الصبيان ، وبات عليٌّ في فراش الرسول ليلة الهجرة مع علمه بأن الموت يطوف حول هذا الفراش ، ويوشك أن ينزل بمن ينام فيه .

وقد رضع عليٌّ آداب الإسلام منذ الصبا ، وكان في الفصاحة بالغاً الغاية ، ولعله كان الراوية الأول لأحاديث الرسول : وكان في العلم سباقا لا يشق له غبار ، أما شجاعته فكانت مضرب الأمثال . وقد رأيناه في الطليعة دائما في جميع غزوات الرسول ، ولا تكاد تخلو غزوة من علي مصارعاً ومبارزاً غير هياب للموت ، ولا مقيما للخوف وزنا ، وطالما كسب بسيفه النصر للمسلمين ، ومن الواضح أن بطولة علي والدماء التي سفكها مدافعاً عن الإسلام وراداً عنه مهاجميه ؛ أورثته كثيراً من الأعداء ، فقد كانت هناك جراح في قلوب الكثيرين من الطعنات القاتلة التي وجهها علي إلى أبطال منهم أو إلى ذويهم تقدموا مزهوين ببطولتهم ، معارضين للإسلام ، فلاقوا مصرعهم على يده كرم الله وجهه .

وفي ذلك المعنى يقول زيد بن علي زين العابدين إمام الزيدية ما يلي :

كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أفضل الصحابة ؛ إلا أن الخلافة

فوّضت إلى أبى بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين ثائرة الفتنة ، وتطييب قلوب العامة ، فإن عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة كان قريباً ، وسيف أمير المؤمنين علىّ من دماء المشركين من قريش وغيرهم لم يجف بعد ، والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى . . فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن فى ذلك الوقت غيره [1] .

وأخلاق على : زهده ، ووفاؤه ، وعدله ، وسماحته ، وصفاء نفسه ، تجعله ثالث ثلاثة أخذوا عن الرسول العلم والخلق والروح ، فكان أبو بكر وعمر وعلى مشاعل ينبعث ضوؤها فى كل اتجاه .

البيعة لعلى :

يمكننا من الدراسة السابقة أن نستنبط أن علياً لم يكن مرغوباً فيه ، فقد كان علىّ غرة بنى هاشم ، وكان يطالب بالخلافة باسم القرابة من الرسول ، ومعنى هذا أن إسناد الخلافة إليه يعنى أن تظل الخلافة فى بنيه ، وهذا مبدأ لا يقره الإسلام ، ولا تقبله العرب ، ولا يرتضيه الطامعون ، وكان لعلى — كما قلنا آنفاً — أعداء كثيرون يكتمون العداوة أو يظهرونها ، لأنه الذى قتل بسيفه زهرات الشباب فى الغزوات المتعددة ، ثم كان حكم علىّ معناه العودة إلى حكم عمر فى صلابته وحزمه ، وقد وجد كثير من الناس الراحة فى سهولة عثمان فكيف لهم بالعودة إلى الدقة والصرامة والحساب ؟ وكان هناك كثيرون أثروا بالباطل ، وحصلوا ظلماً على نفوذ كبير ، ومعنى حكم علىّ ضياع ثروتهم وفقدان سلطانهم ، لهذه الاعتبارات وغيرها لم يكن علىّ مرغوباً فيه .

ولكن هل كان هناك حينذاك غير علىّ يطمع فى الخلافة مع وجود أبى الحسن؟ لقد كان على على وشك أن ينالها بعد عمر فكيف يمكن أن يحرمها بعد عثمان؟ وإذا كانت السن قد لعبت دورها فى تأخير تولية على ، فقد أصبح الآن فى العقد السادس بل قد تخطى نصفه فلم يعد هناك طعن فى مسألة السن .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٢٨ .

ومن هنا ندرك أن تولية على كانت طبيعية رضى الطامعون أو كرهوا ، على أننا إذا لاحظنا الأسباب التى ذكرناها آنفاً والتى جعلت علياً غير مرغوب فيه نجد أنها كانت متصلة بالطبقة العليا ، تلك التى أزهق على أرواح شبابها فى حروبهم ضد الإسلام ، وتلك التى كانت تنافسه وتخشى على ثرواتها ونفوذها من عدالته ، أما الجماهير والشعب فلم يكن لهم ملجأ سواه ، وكانوا يتطلعون إليه لينقذهم مما ألم بهم .

ومن هنا كانت بيعة على بيعة قامت بها الجماهير ، فهؤلاء الذين فتكوا بعثمان ومعهم من انضم إليهم هرعوا إلى على يبايعونه ، وقد أدرك على أن سيل الناس إليه سيل شعبي ، فصاح فيهم : إن هذا الأمر ليس لكم ، إنه لأهل بدر ، أين طلحة والزبير وسعد ولم يكن أحد من هؤلاء الخاصة يستطيع أن يواجه العاصفة فيمتنع عن بيعه على ذلك الوقت . فبايع هؤلاء راضين أو كارهين [1] وتبعهم كثير من المهاجرين والأنصار وتلاهم عامة الناس ، ولم تكن البيعة إجماعية بطبيعة الحال وكان بنو أمية قادة الممتنعين .

سياسة على :

سياسة الإنسان جزء منه ومرآة لأخلاقه ، وعلىٌّ مجبول على الصراحة ، لا يعرف فى الحق لومة لائم ، فكانت سياسته صدى لهذه الأخلاق ، فقد بادر على عقب بيعته فأصدر أمرين فى منتهى الصرامة ، وهذان الأمران هما :

١ — عزل ولاة عثمان ، وقد أرسل على ولاة بدلهم ، ولكن أكثر ولاته عادوا إليه ولم يستطيعوا أن يدخلوا الولايات التى حددها لهم [2] .

٢ — استرداد القطائع التى أقطعها عثمان لأقاربه من بيت المال مما يرى علىٌّ مجافاته للحق ، وكذلك استرداد الهبات الكبيرة التى منحها عثمان كذلك من بيت المال .

ولم يسمع على لنصح أتباعه وأقاربه الذين أشاروا عليه أن يؤجل هذا

---

(١) انظر الطبرى ج ٣ ص ٤٥٦ وما بعدها .

(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ٤٦٢ — ٤٦٣ .

التصرف ربما تستقر له الأمور [1] . إذ توقعوا أن تصرفه هذا سينتج تمرد بنى أمية ، ويجعل معاوية يهب فى وجهه يناضله ويحاربه .

ويوشك المؤرخون والمستشرقون أن يجمعوا على لوم على على هذا العمل ، وهم جميعاً تقريباً يصرحون أن التوفيق أخطأ علياً فيه ، وأن ذلك لم يكن من الحكمة ، والذى أعتقده أن ذلك الحكم على على مبالغ فيه ، وأنه من الأقوال التى تشاع فيأخذها الناس دون دراسة وبغير تمحيص ، وللتدليل على ذلك نسأل الأسئلة التالية :

١ — هل كان من الممكن أن يحتج على على الولاة الظالمين وأن يطلب من عثمان عزلهم ، حتى إذا تولى هو الخلافة تركهم ؟

٢ — وهل كان من الممكن أن يثور على القطائع التى أعطيت بغير حق واضح لأقارب الخليفة حتى إذا تولى هو الخلافة أقرها ؟

٣ — وهل كان التمرد الذى عاناه على ناشئا عن عزل الولاة واسترداد القطائع ؟ وإذا كان كذلك فلماذا ثار عليه طلحة والزبير واشتركا فى حرب الجمل ؟

٤ — وهل يتخيل المؤرخون أن معاوية كان سيبايع علياً ويسير فى ركابه لو لم يعزل ؟

٥ — وأخيراً هل يمكن أن نطلب من على أن يكون شخصاً آخر غير على ؟ إن مطالبة على بترك والٍ يعتقد أنه ظالم ، أو الإغضاء عن مال يرى أنه أخذ من بيت مال المسلمين بدون حق هو بمثابة أن نطلب من الأسد أن يصبح هرا وهيهات أن يكون ذلك .

لعل من الأفضل للمؤرخين أن يقولوا إن ذلك الوقت لم يكن الوقت الملائم لعلى ليصبح خليفة ، وكان من الخير للمسلمين أن يتولى الخلافة فى ذلك الوقت شخص آخر غير على [2] ، شخص يستطيع أن يداور وأن يداهن ، شخص لم يشترك فى الأحداث السابقة أو اشترك فيها بنصيب ضئيل ، ولكن يجب ألا ننسى أن أية محاولة لتولية شخص غير على حينذاك كان لابد من فشلها ، فتولية على كانت قد أصبحت أمراً طبيعياً كما سبق القول .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٤٥٩ وما بعدها .

(٢) تاريخ الطبرى ٣ . ٤٥٩ .

والخلاصة أن تولية على كانت طبيعية ، وأن سلوكه كان طبيعيا ، وأن التمرد الذى واجهه كان طبيعياً أيضاً وكان نتيجة لسير الأحداث ؛ وكان صراعا على السلطة ، وإن اتخذ من أسبابه قتل عثمان ، أو المطالبة بثأره ، أو عزل الولاة ، أو استرداد ما سلب من بيت المال ويقول ، محمد بن سيرين : ما علمت أن عليا اتهم فى دم عثمان حتى بويع ، فلما بويع اتهمه الناس[1] .

وقد تمخض هذا التمرد الذى عاناه علىّ عن موقعتين حربيتين كبيرتين هما موقعة الجمل وموقعة صفين ؛ وسنتكلم عن كل منهما فيما يلى :

موقعة الجمل :

أخذت هذه الموقعة اسمها من الجمل الذى كانت تركبه عائشة رضى الله عنها زوجة الرسول وبنت أبى بكر الصديق ؛ وخروج عائشة إلى المعركة لتحارب علياً كان حدثاً غير عادى ، ومن ثم ارتبطت هذه الموقعة بعائشة وبجملها ، وإن كان دور عائشة فى الحقيقة ضئيلا جداً فى هذه المعركة .

وتحليل موقف عائشة يحتاج إلى شىء من الفراغ لن نضن به ، فقد كانت هناك عوامل تحث عائشة على عدم الاشتراك فى هذه المعمعة ، وهناك عوامل أخرى كانت تدفع عائشة إلى الاشتراك فيها ، وقبل أن نتكلم عن هذه العوامل وتلك نذكر أن عائشة — كأغلب المسلمين — كانت ثائرة على عثمان ، وكانت هى وطلحة من أشد الناس انتقاداً له ، ولما حوصر عثمان تركت عائشة المدينة وذهبت إلى مكة ، فلما قتل عثمان خرجت من مكة تقصد المدينة . فلما عرفت أن البيعة تمت لعلى غضبت[2] وقالت : والله لايكون هذا الأمر أبدا ، قُتِلَ عثمان مظلوماً ، والله لأطالبن بدمه ، وعادت إلى مكة وقدم عليها بمكة طلحة والزبير ، وقد استأذنا عليا بحجة أنهما يريدان العمرة[3] كما قدم يعلى ابن أمية عامل عثمان على اليمن ومعه ما كان فى بيت مال اليمن من الأموال ، وقدم كذلك

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٣٠٥ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ٦٠ .

(٣) الطبرى ٣ : ٤٦٥ وقد أذن لهما على مع أنه لم يكن يخفى عليه غرضهما ، وقد روى أن قال لهما ؛ والله ما العمرة تريدان .

عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ، والتف حول عائشة بطبيعة الحال بنو أمية الذين كانوا بالحجاز وحثت عائشة الجميع على المطالبة بدم عثمان ، وخرجت ومعها أتباعها تريد البصرة لتستعين بسكانها فيما أقدمت عليه[1] .

هل كان حزن عائشة على عثمان هو الذى دفعها إلى ذلك العمل ؟ الحقيقة لا ، فقد كانت هناك دوافع أبعد غوراً ، نذكر أهمها فيما يلى :

١ - كانت هناك وحشة بين على وعائشة عبرت عنها عائشة بقولها :

إنه والله ما كان بينى وبين على إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها[2] . ولعل بعضها يرجع إلى موقف على من عائشة فى حادثة الإفك[3] .

٢ - نفس على على أبى بكر الخلافة وامتنع عن مبايعته زمنا ، فلماذا تسرع عائشة لمبايعة على ! ولماذا تتركه يهنأ بهذه الخلافة من أول يوم ؟

٣ - العامل الأكبر والمهم هو عبد الله بن الزبير ؟ فهو ابن أختها أسماء ، وإذ لم يكن لعائشة أولاد فقد أخذته من اختها وربته فى بيتها وصار كأنه

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦٩ - ٤٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٤٧ .

(٣) حديث الإفك حديث معروف تعمدت عدم ذكره فى هذا الكتاب تأدبا بأدب القرآن الكريم الذى حثنا على عدم الخوض فيه ، قال تعالى : « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا » (النور ١٦) . ورأيى أن رمى عائشة بالزنا كبيرة بشعة ، وليس فى تاريخ العرب ما يجعلهم هكذا يستسهلون رمى الحرائر بالعهر ، وإنما المسألة كانت من الأشواك التى توضع حول الرسول والتى يقصد بها عرقلة الدعوة ، وقد لعب المنافقون وعلى رأسهم عبدالله بن أبى دورا كبيرا فى ترويج هذه الفرية ، كما ذكرنا من قبل عند الكلام عن « الرسول والمنافقون » ولكن آيات القرآن الكريم نزلت فقضت على ألسنة السوء قال تعالى « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » (اقرأ سورة النور الآية ١١ وما بعدها) ولم يشترك على قط على اتهام عائشة ولكنه لم يدافع عنها بما أغضب عائشة عليه (البخارى وزاد المعاد ٢ : ١١٣ - ١١٥ وابن هشام ٢ : ٢٢٠ - ٢٢٢) وقد رأيت حديثا كتابا نشر عن موضوع الإفك ورأيى بناء على ما ذكرت آنفا أن هذا الكتاب ما كان ينبغى أن ينشر .

ابن لها حتى كانت تسمى أم عبدالله ، وكان عبد الله طموحا يطمع فى الخلافة ، ولكن وجود على كان يحول بينه وبين تحقيق هذه الأمنية ، فدفع خالته عائشة لتخوض هذه المعركة ضد علىّ ، لعل عليا يسقط فيها فيخلوله الجو ، وكثيراً ما ترددت عائشة فى مواصلة العمل لهذه المعركة ، ولكن عبد الله كان يحاول دائما أن يزيل ترددها ويحملها هذا المحمل الصعب ؛ فمن الممكن أن نقول إن عائشة دُفعت لهذا العمل وإن الذى دفعها هو عبد الله ، والمرأة هى المرأة على كل حال ، تضعف أمام حيل الرجال ، ولا تقوى أمام وسائلهم ، وقد روى أن عائشة سمعت منازعة أصحابها وكثرة صياحهم فقالت : المنازعة فى الحرب خَوَر ، والصياح فيها فشل ، وما برأيى خرجت مع هؤلاء[1]. وفى الحوار الرائع الذى جرى بين ابن الزبير ومعاوية فى خلافة الأخير يقول معاوية لابن الزبير : « . . . وخدعتم أم المؤمنين ، ولم تراعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أبرزتم زوجته للحتوف ومقارعة السيوف[2] ، ولعل عبد الله هو الذى دفع أباه أيضا ليشترك فى هذه الموقعة ، وهناك أدلة كثيرة تقود إلى هذه النتيجة ، فمن ذلك ما روى أن علياً قال للزبير : كنا نعدك من بنى عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ، ففرق بيننا[3] . ومن ذلك ما روى أن عليا ذكّر الزبير بقول الرسول صلى الله عليه وسلم له : ستقاتل عليا وأنت له ظالم ، فتذكر الزبير ذلك وعزم على أن يدع الحرب ، وأعلن عزمه ، فجاءه ابنه عبدالله وحمّسه بقوله : لعلك خشيت رايات ابن أبى طالب وعلمت أنها تحملها فتية أمجاد وأن تحتها الموت الأحمر ، فجبنت[4] .

ولعلنا نستطيع أن نسبق التاريخ فنقرر أن طموح عبد الله بن الزبير استمر يدفعه بعد فشل معركة الجمل لينتهز فرصة أخرى ليضع نفسه خليفة ، وقد واتته الفرصة بعد مقتل الحسين فى عهد يزيد بن معاوية ، فأعلن

---

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد جـ ١ ص ١١٠ .

(٢) المرجع السابق جـ ٤ ص ١٨ .

(٣) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ١ ص ١٠ .

(٤) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٥١٥ ، ٥١٩ .

نفسه خليفة : وظل يكافح عن ملكه المزعوم حتى دفع رأسه ورءوس الآلاف فداء لهذا الطموح . وقد أوردنا تفصيل ذلك فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة[1] .

هذه هى العوامل التى دفعت عائشة لتشترك فى قيادة الثائرين على عليّ أما العوامل التى كانت تعوقها عن الخروج فهى :

١ ــ شهدت عائشة بكاء الآلاف يوم خرجت من مكة لهذه الرحلة المشئومة ، حتى سمى ذلك اليوم يوم النحيب ، ولكن ذلك لم يمنعها من الخروج .

٢ ــ تلقت عائشة خطابا طويلا من أم سلمة تعظها وتذكرها أن خروجها للحرب هتك للحجاب الذى ضربه عليها الرسول[2] .

٣ ــ أهم من هذا كله الآية الكريمة « وقرن فى بيوتكن »[3] التى لم يغب عن عائشة مغزاها .

ولكن دفع عبد الله بن الزبير كان أقوى من كل شىء ، فإذا عائشة تفقد كل مقاومة ، وإذا بها ترضع فى الهودج ويمشى بها الركب ، وكانت تتجدد فيها المقاومة ، ولكن ابن الزبير كان يسرع فيخمد هذا الخاطر ؛ روى أن كلاباً نبحتها فى الطريق فسألت : أين نحن ؟ فقيل لها : عند ماء الحوأب . فقالت : ما أرانى إلا راجعة لأنى سمعت الرسول يقول لنسائه : كأنى بإحداكن تنبحها كلاب الحوأب : ولكن ابن الزبير سرعان ما جاءها بمن يقسم لها إن ذلك ليس ماء الحوأب ، واستشهد لها ببعض الأعراب وكان قد أكتراهم لذلك[4] .

وينبغى أن نذكر أن حديث الحوأب غير مسلم به ، وقد أنكره كثير

---

(١) ص ٢١٨ - ٢٢٨ من الطبعة السادسة .

(٢) انظر كتاب أم سلمة لعائشة ورد عائشة عليها فى العقد الفريد جـ ٤ ص ٣١٦ - ٣١٧ والإمامة والسياسة جـ ١ ص ٥٥ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .

(٤) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ١٧٠ وابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ١ ص ٦١ .

من الباحثين القدامى والمحدثين(١) .

ووصلت عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة ، وانضم إليهم خلق كثير ، كان فيهم مروان بن الحكم وبعض بني أمية ، وأيدها بعض أهل البصرة وعارضها آخرون ، ووقعت مناوشات بين الطرفين قُتل فيها بضع مئات وبخاصة من معارضي عائشة(٢) . ثم قدم علي بجيشه الكبير ، وفيه كثيرون من السبئيين ومن الذين اشتركوا في الثورة على عثمان ، وحاول عليٌّ أن يثني عائشة وأصحابها عن قصدهم . ويذكر الذين بايعوه منهم ببيعتهم ، وأوشكت هذه السفارات أن تنجح وأن يكفي الله المؤمنين شر القتال(٣) . ولكن السبئيين الذين أشعلوا الثورة على عثمان وحرضوا على قتله أدركوا أن الصلح بين الطائفتين سيكون على حساب رقابهم ، فعقدوا العزم على بدء الحرب ؛ مدركين أن الحرب وحدها هي التي يمكن أن تحميهم من المقصلة ، وهكذا بدءوا المعركة في غفلة من عليّ ، وأجابهم أتباع عائشة ، والتحم الفريقان(٤) .

إنه يؤخذ على عليّ أن سلطانه على جيشه لم يكن تاما ، ولم يكن شاملا ، بل ربما أخذ عليه أنه اصطحب معه هؤلاء الشياطين من السبئيين واستعان بهم ، ولكن هل كان يستطيع عليّ غير ذلك ؟ ومن معه غير هؤلاء بعد أن اعتزله طلحة والزبير وعائشة ، ووقف عن بيعته عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص ، واستعد لحربه معاوية وبنو أميه بالشام . كل ذلك يجعل بعض الباحثين يلومون عليا لقبوله الخلافة في ذلك الوقت ، وكان ابنه الحسن من أول من لامه على ذلك ، ولكن ألم يبايعه طلحة والزبير ؟ وألم يجتمع عليه وجوه الناس بعد عثمان ؟ وهل كان هناك من يجرؤ على التقدم لها حينذاك وأبو الحسن هناك كما قلنا ؟

وكانت معركة عنيفة فرَّ منها الزبير لا جبناً و لا خوفاً من الموت ، ولكن لعدم

---

(١) القاضي أبو بكر بن العربي . العواصم من القواصم ص ١٠١ وانظر تعليق الناشر في نفس الصفحة .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٠٣ . (٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) تاريخ الطبري ٣ . ص ٥٢٨ ومنهاج السنة لابن تيمية ج٥ ص١٨٥ وج٣ ص٢٢٥ و ٢٤١

إيمانه بأنه على حق فيما أقدم عليه ، وعند عودته مر بماء لبنى تميم ، فرآه الأحنف بن قيس فقال : جمع الزبير هذين العسكرين ثم ولى وتركهما ، فثار عمرو بن جرموز للملك ، وكان فى مجلس الأحنف ، فلحق بالزبير خفية حتى جلس دذا تحت شجرة ليستريح ثم اضطجع وغفا ، فقتله عمرو وهو نائم[1] . أما طلحة فيروى أن مروان بن الحكم عندما رآه فى مطلع المعركة قال : لا أنتظر بعد اليوم بثأرى فى عثمان فانتزع له سهما فقتله[2] : أما عبد الله بن الزبير فقد ضربه الأشتر أحد قادة على الأشداء حتى سقط ، ولكن لم يجهز عليه وبقى فى خندق فلم يشترك فى المعركة بعد ذلك واعتبر ذلك منه فراراً[3] ، وقد ظل ابن الزبير يعير بفراره وفرار أبيه من هذه المعركة ، فقد روى أنه هاجم عبدالله بن العباس مرة فى المسجد الحرام ، فكان مما قاله ابن العباس له مدافعاً عن نفسه . وأما قولك يا ابن الزبير إنى قاتلت أم المؤمنين ، فأنت أخرجتها وأبوك وخالك ، أما أنت وأبوك فقد قاتلتما عليا ، فإن كان علىّ مؤمنا فقد ضللتم بقتالكم المؤمنين ، وإن كان كافراً فقد بؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف[4] .

وبعد أن اختفى هؤلاء القادة بالموت أو الفرار ظلت المعركة تدور بدون قائد أو تحت قيادة عائشة شكلياً ، وسقط الآلاف فى حماية الجمل وحماية أم المؤمنين أو فى الهجوم على عائشة وعلى جملها كما قلنا ، ثم عُقِرَ الجمل وانتهت المعركة بنجاح على ، ولكنه أكرم عائشة وأعادها إلى مكة معززة مكرمة .

من المسئول عن موقعة الجمل :

لقد كانت هذه أول معركة تدور رحاها بين جيشين مسلمين ، وقد سقط فيها عدد من المسلمين يقدّره بعض المؤرخين بعشرة آلاف ويقدره آخرون بأكثر من ذلك[5] ، فمن المسئول عن هذه المعركة الخطيرة ؟

---

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٢٣ .

(٢) المرجع السابق ٣٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ٤ ٣٢٦ و ص ٤١٤ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤١٤ .

(٥) انظر الطبرى ج ٣ ص ٥٤٣ وانظر العقد الفريد ج ٤ ص ٣٢٦ .

يجدر بى أن أبين رأيى بوضوح فى هذا الصراع ، وفى مسئولية الذين قاموا به ، وطوائف المسلمين تختلف اختلافاً بيناً فى تحديد المسئول ؛ ومن طوائف المسلمين من سكت عن الخوض فى هذا الموضوع ، أما السكوت فليس من المصلحة فى شىء ، لأن هذه كانت أول معركة — كما قلنا — تدور بين جيشين مسلمين ، ويقف فيها المسلم يواجه المسلم . ويكذ لبريق دمه ، ويفخر بانتصاره فى إراقة دماء إخوته المسلمين . ولم تكن هذه آخر المعارك بين المسلمين ، بل تلاها عشرات أو مئات مثلها ، ولا نزال حتى اليوم نرى فى كثير من الأحيان جيشاً مسلماً مهاجماً أو مستعداً للهجوم على جيش مسلم آخر ، فليس من المصلحة فى شىء أن نسكت ، بل لابد أن نبين المسئولية . ونلقيها على من يستحقها رجاء أن يرتدع الطامعون بعد ذلك ، فلا يضعوا أنفسهم فى هذا الموضع الشائك ، فيستحقوا لعنات الناس ، وعذاب الله ، وقسوة التاريخ .

وأما الاختلاف فى إثبات المسئولية فمرجعه — عندى — سببان :

أولا : أن أغلب الباحثين لا يدرسون هذه المشكلة دراسة موضوعية ، بل يتأثرون بأشخاصها فيدفعهم تأثرهم إلى هذا الجانب أو ذاك دون عمق وبدون إعمال فكر .

ثانياً : أن شيوخ الفرق الإسلامية أنفسهم متأثرون بمكانتهم فى هذه الفرق ، فيغلب أن يتبع الواحد منهم رأى الفرقة التى هو منها ولا يشذ عنها :

فأهل السنة تراهم أسهل حكما وعدلوا الصحابة جميعاً وتولوهم واعتقدوا نجاتهم ، وقليلا ما يحاولون أن يحكموا على هذا أو ذاك بالخطأ ، وأحياناً أخرى يذكرون أن الأمر التبس عليهم فيلزمون أنفسهم السكوت ، والحقيقة أنه لم يلتبس وإنما أوشك أن يتضح وأن يقودهم إلى حكم قاس على المذنب ، وهم لا يطيقون أن يصرحوا بإدانة المذنب من هؤلاء ، فيؤثرون أن يغمضوا عيونهم .

وأما الشيعة فإنهم بدون حاجة إلى دراسة ، وبادىء ذى بدء يلقون كل المسئولية على عائشة وأصحابها ، وربما كان الأمر كذلك ، ولكنهم لا يأخذون للنتيجة سبلها بل يصلون لها دون عناء ، ومثل الشيعة الخوارج فى هذا الموضوع

ومنهم من لا يكتفون بتأثيم أصحاب عائشة بل يقولون بتكفيرهم .

والمعتزلة وهم زعماء الحركة العقلية فى التفكير الإسلامى يتأثرون أيضاً ، ولذلك نرى زعماءهم الأفذاذ أمثال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبى هذيل العلاف يقولون إن فريقاً من الفريقين مخطيء خطأ يفسق به ، ولكن أى الفريقين ذلك؟ لا يعينون[1] وربما جاز لى أن أصفهم بأنهم يستطيعون التعيين ولكنهم لا يريدون .

هل نستطيع أن ننظر إلى هذه المسألة نظرة موضوعية بصرف النظر عن أشخاصها ، بل مع كامل التقدير والإجلال لماضى كل من هؤلاء الأشخاص ؟ أرجو هذا . وقبل كل شيء نحب أن نستبعد الكفر ، فليس لإنسان أن يكفّر من قال «لا إله إلا الله محمد رسول الله» معتقداً لها ، وزعماء هذه المعركة من هذا الجانب أو ذاك من خيرة من قالها مؤمناً بها ، وقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : طلحة والزبير جاراى فى الجنة ، وسئل علىٌّ عن أصحاب الجمل : أمشركون هم؟ قال : من الشرك فروا . قيل : فنافقون هم ؟ قال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا . قيل : فما هم . قال : إخواننا بغوا علينا[2] . فالذى نتكلم عنه هنا هو المسئولية تجاه هذه الحرب الضروس التى أكلت كثيرين من المسلمين ، ولنعد لتحديد المسئولية فنسأل سؤالا هاماً هو :

هل كانت هذه الحرب حرب مبادىء ؟ وهل حقيقة ثارت عائشة لدم عثمان ؟ وثار طلحة والزبير لذلك ؟

لو كانت الحال كذلك لهان الأمر ، ولما عدا اجتهاداً أخطأ فيه المجتهد ، ولكن يبدو أن هذه الحرب لم تكن حرب مبادىء ولم تكن من أجل دم عثمان وقد سئل مروان بن الحكم — وكان فى جيش عائشة — إلى أين تسيرون .

فأجاب : لقتل قتلة عثمان . فقال السائل : فاقتلوا قادة جيشكم فهم قتلة عثمان . وقد ترك الزبير المعركة كما قلنا لأنه لم يكن يعتقد أنه على حق ، ولم يكن يدافع عن عقيدة ، وضرب مروان طلحة بسهم فأرداه . ولم تنج إلا عائشة ،

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ٢٥ — ٢٦ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٤ ص ٣٣٠

نجت لأنها أم المؤمنين، وقد ظلت – كما يقول المؤرخون – طول عمرها حزينة تتمنى لوكانت ماتت قبل معركة الجمل بعشرين عاماً[١] . ويروى أنها لما مرضت مرض الموت قيل لها : تدفنين مع رسول الله ! قالت :لا ، إنى أحدثت بعده حدثاً ، فادفنونى مع إخوتى بالبقيع[٢] .

إن هذه المعركة كانت لأطماع شخصية، وكانت تنفيساً عن كراهية شخصية . والأطماع الشخصية تتمثل فى عبد الله بن الزبير[٣] ، والكراهية الشخصية تتمثل فى عائشة . أما عبد الله فقد حمل أكبر قسط من المسئولية لأنه دفع خالته لتحقق أحلامه ، وأما الكراهية الشخصية فقد كانت تتمثل فى عائشة ، فإنها لم تكن على وفاق مع على ويبوء طلحة والزبير بقسط من المسئولية لأنهما اشتركا فى دفع الناس إلى هذا الأتون .

وخطأ على ينحصر – كما قلنا سابقاً – فى أنه لم يكن له سلطان كامل على جيشه ، فكان هو يسعى للصلح ، وبين أتباعه من يعد المؤامرات لإشعال النار . ولو كان له سلطان كامل على جيشه لكان من الممكن ألا تقوم الحرب .

فعبدالله بن الزبير – قبل الجميع – هو المسئول عن هذه الحرب الضروس وأقرر أنى لم أجد من المؤرخين من ألقى التبعة على عبد الله بن الزبير ، حتى فى الكتب التى خصصت لهذا البحث مثل « عائشة والسياسة » للأستاذ سعيد الأفغانى و « على وعائشة » للأستاذ عمر أبو النصر ، والباحثون القدامى والمحدثون أياً كانت ميولهم يلقون التبعة على طلحة أو الزبير أو عائشة أو على ، ونسوا ابن الزبير وهو عندى مشعل هذه النار وإن استتر خلف الثلاثة الكبار .

وهناك شىء آخر نحب أن نبرزه عند الحديث عن القتلى ، وهو أن التاريخ يروى أن الآلاف الذين سقطوا فى هذه المعركة سقطوا باسم النخوة والمروءة مدافعين عن أم المؤمنين وجملها ، فأم المؤمنين وجملها كلفا المسلمين آلاف الأنفس من المدافعين والمهاجمين ، فلما خر الجمل وقفت المعركة

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٤١ .

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٣١ .

(٣) أوردنا فى الصفحات السابقة مزيداً من القول عن الدور الذى لعبه ابن الزبير لإشعال الحرب ، والذى استحق به أن يتحمل المسئولية .

رباه ! إن تكن قد غفرت للمخطئين فى هذه المعركة فألهم المسلمين التوفيق حتى لايقف مسلم مرة أخرى يقتل أخاه ، ويجد الفخر فى إزهاق أرواح إخوته المسلمين .

بقيت كلمة أخرى نضيفها إلى ما ذكرناه عن عبد الله بن الزبير لعلها تلقى مزيداً من الضوء على شخصيته ، وهذه الكلمة تتعلق بارتباطه بالسيدة عائشة فى قصة أوردها ابن حزم،وذكر فيها أن عائشة تصدقت مرة بسعة وكرم ، ولكن يبدو أن ابن الزبير كان يتطلع لمال عائشة لينحدر إليه عن طريق ميراث أمه أو عن أى طريق آخر ، فاعترض على تصرفات عائشة ، وهدد بالحجر عليها ، وغضبت عائشة لذلك وقاطعته ،

وفيما يلى نص كلام ابن حزم :

نروى هذا الخبر عن طريق عبد الرازق عن معمر عن الزهرى عن عوف ابن الحارث ابن أخى عائشة أم المؤمنين لأمها ، إن عائشة حدثت أن عبدالله ابن الزبير قال فى بيع أو عطاء أعطته : والله لتنتهين عائشة أو لأحجرن عليها ، فقالت عائشة ؛ أو قال هذا ؟ قالوا : نعم ، فقالت ؛ والله لا أكلم ابن الزبير كلمة أبداً ، وقاطعته ، ولكنه تشفع لها وبكى لعبد الرحمن بن الأسود والمسور ابن مخرمة حتى كلمته وكفرت عن يمينها .

ويعلق ابن حزم على ذلك بقوله : إنها طامة الأبد ، لاندرى كيف استحل ابن الزبير أن يرتكب هذه الخطيئة ، والله يغفر له إذ أراد مثله فى كونه من أصاغر الصحابة أن يحجر على مثل أم المؤمنين وهو لايكاد يتجزى منها فى الفضل عند الله تعالى ، ولا يخلو الأمر من أن يكون ابن الزبير أخطأ وأصابت هى وهو كذلك بلاشك ، أو يكون أصاب وأخطأت ومعاذ الله من هذا[1]

---

(١) المحلى جـ ٨ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

موقعة صفين[1] :

حدثت موقعة صفين بين على ومعاوية ، وقبل الحديث عنها يجدر بنا أن نستعرض حالة القوى العسكرية والإمدادات الحربية فى العالم الإسلامى قبل بدء المعركة :

كان علىٌ وأتباعه يعتقدون أن معركتهم الأولى والأخيرة يجب أن تكون ضد الأمويين الذين يقودهم معاوية بن أبى سفيان مؤيَّداً بأهل الشام ؛ فمعاوية هو ابن عم عثمان ، وهو زعيم بنى أمية ، وله جاه عريض بين جنده وأتباعه بالشام ، ولم يكن طلحة والزبير — بعد بيعتهما لعلى — محسوبين من الأعداء الألداء . وكذلك لم يظن ظان أن الحماسة والكراهية بين عائشة وعلىٌ ستدفع بأم المومنين أن تقود الجيوش وتخوض معارك الحرب ، وعلى هذا فاستعداد على اتجه لمقاومة معاوية من أول الأمر ، ولكن الأحداث تطورت ورأى على أنه لابد من الاطمئنان إلى ظهره قبل أن يفرغ لأهل الشام ، فخاض معركة الجمل .

ما نتيجة معركة الجمل ؟

نتيجتها الساذجة أن علياً انتصر ، ولكن نتائجها الحقيقية كانت أعمق من ذلك ، لقد خر من جيش على عدة آلاف يقدرها المؤرخون بخمسة آلاف أو أكثر[2] ، فضعف بذلك جيش على ، وخرّ من أهل مكة والمدينة والبصرة ممن تبعوا عائشة وأصحابها عدد أكبر من ذلك ، وخلّف هؤلاء القتلى جراحاً تثير الحقد على علىٌ ، ثم إن جيوش على كانت حديثة الصلة به فليس له عليها يد ، وليس معه مال يغدق على الأبطال وينعم على الشجعان ، وإن كان معه مال فليس على بالذى يعطى من مال الله فى غير وجهه . وعلى هذا كان مع على أشتات من الناس أكلت منهم الحروب وليس هناك مايكلم جراحهم .

وفى الجانب الآخر من العالم الإسلامى كان يقف معاوية متخذاً من دمشق عاصمة لإمارته التى تولاها منذ عهد عمر بن الخطاب ، وقد أضاف إلى إمارته

---

(١) من أهم المراجع التى نوصى بقراءتها فى هذا الموضوع كتاب « وقعة صفين » لنصر ابن مزاحم الذى حققه الأستاذ عبد السلام هارون .

(٢) هذا هو المشهور فى أكثر الروايات ، ويرى ابن عبد ربه أن من مات من جيش على كان خمسمائة فقط أما جيش عائشة فقد خر منه عشرون ألفا (انظر العقد الفريد ج ص ٣٢٦) وذلك تقدير مبالغ فيه فيما أعتقد .

التي تولاها منذ عهد عمر بلداناً أخرى ضمها إليه عثمان ، وهكذا امتدت السنون بابن أبي سفيان في الشام وهو سياسي ضليع ، يعرف الوسيلة إلى قلوب الناس عن طريق الدهاء أو العطاء ، والشام بلاد غنية فتية لم يعرف سكانها منذ دخلوا الإسلام أو دخل الإسلام بلادهم حكماً أزهى ولا أطول من حكم معاوية ، وانضم حول معاوية آلهة الدهاء في الجزيرة العربية وعلى رأسهم عمرو ابن العاص ، كما تجمع حوله بنو أمية أو أكثرهم وكثير غيرهم من بطون العرب وقبائلها ، وكان لدى معاوية جيش لا يعرف غيره ولا يطيع سواه ، وزاد نفوذ معاوية إبان حكم عثمان فأصبح في الواقع الحاكم الأعلى والمرجع النهائي لكل الأمور ، وبينما كان عليّ يخوض معركة الجمل ويفقد من جيشه عناصر صالحة ، كان معاوية يقوّي جيشه ويدعمه ، ويفرق على أتباعه المال ويثيرهم ضد قتلة عثمان ، وينصب لهم على المنبر قميص الخليفة ملوثاً بدمه وقد علقت به أصابع زوجته التي قطعها الثائرون وهي تتلقى عن زوجها الضربات ، ويتخذ من ذلك أساساً لفيض من الكراهية ينميه ضد علي الذي اتهم بأنه كان يحمي القتلة ويستعين بهم ، وكان أهل الشام - كما لا يزالون دائماً - يحملون فكرة هامة هي أن إسناد الخلافة إلى علي معناه ثبوت الأمر لبني هاشم ، وكانوا يرون كما يرى أغلب المسلمين وجميع الباحثين أن الخلافة من حق المسلمين كافة لا يختص بها بنو هاشم ، كما أن حياتهم قد طالت وطابت في ظل معاوية ، فلماذا لا يحرصون عليه ، ويشدون أزره ، لتدوم لهم هذه الحياة ؟

في مثل هذا الجو زحف علي لمقابلة جيوش معاوية ، والتقى الجيشان في موضع سهل على الفرات يقال له صفين ، والحق يقال إن علياً كان كالعهد به دائماً يميل إلى السلم والموادعة ، فقد تغلب أول الأمر أتباع معاوية على الماء ومنعوا عنه أتباع علي ، فناهضهم علي حتى أجلاهم عن الماء ثم لم يمنعهم عنه [1] ، وكتب عليٌّ عدة كتب وأرسل عدة رسل لدعوة معاوية إلى البيعة وإلى الاتفاق ، ولكن هل كان سهلاً على معاوية أن يترك ملكاً شامخاً ويستجيب لدعوة علي ؟

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٦٦ .

والتقى الجيشان ووقعت المعارك عدة أيام ، وكان من أبرز أنصار على ، القائد العظيم مالك الأشتر واستطاع على ببطولته الشخصيه وحماسة بعض أتباعه أن يكوّن من جيشه قوة غالبة كسبت له النصر ، ومما ضمن لعلى النصر فى هذه الموقعة إيمانه العظيم بالقضاء والقدر ، وأخذه من هذه العقيدة قوة غلاله ولأصحابه ، يروى ابن عبدربه[1] أن علياً كان يخرج كل يوم بصفين حتى يقف بين الجيشين ويقول :

أىَّ يومىَّ من الموت أفرّ ... يوم لا يُقدَر أو يوم قُدر

يوم لا يقْدَر لا أرهبه ... ومن المقدور لا ينجى الحذر

ولما أدرك معاوية هزيمة جيشه صاح بعمرو بن العاص : هلم مخبأتك يابن العاص فقدهلكنا . فهتف عمرو بجنده : من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه . فرفعوا المصاحف وقالوا : كتاب الله بيننا وبينكم ، وكأنما صادف هذا الهتاف هوى فى نفوس أتباع علىّ الذين كانت الحرب قد أرهقتهم ، فاستجاب أكثرهم ، وحاول علىّ أن يحثهم على مواصلة الحرب حتى ينالوا النصر الكامل ولكنهم لم يستجيبوا له وأرغموه على إعلان إيقافها ، ففعل[2] ويروى أن بعض أتباع على ثاروا فى وجهه قائلين : القوم يدعوننا لكتاب الله وأنت تدعونا للسيف . وهددوه بأنهم سيقاتلونه إن لم يتوقف عن قتال المسلمين[3]

هل كان مع أهل الشام مصاحف يرفعونها والحرب دائرة ؟ ربما ، ولكن ابن قتيبة يروى لنا رواية أقرب إلى المنطق من تلك الرواية الشائعة التى أوردناها آنفاً ، يقول ابن قتيبة : إن الهزيمة ظهرت فى جيش معاوية وبدأ الوهن ، فقام على فى ليلة من الليالى يتوعد أهل الشام ويذكر أنه سيخوض المعركة بنفسه غداً ليصل إلى نهاية حاسمة يجنى بها ثمار ما أحرزه جيشه من انتصارات ، فلما بلغ معاوية قول على هذا استشار عمرو بن العاص فقال له عمرو : إن رجالك

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ١٢٣ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) الشهرستانى . الملل والنحل جـ ١ ص ١٥٠ .

لا يقومون لرجاله ، ولا أقوم أنا ولا أنت له ، فأنت تقاتله على أمر ويقاتلك على غيره ، وأنت تريد البقاء وعلى يريد الفناء ، وليس يخاف أهل الشام من على ما يخافه منك أهل العراق ، فادعهم إلى كتاب الله فإنك تقضى منه حاجتك قبل أن ينشب مخلبه فيك . فأمر معاوية أهل الشام أن ينادوا فى سواد الليل نداء فيه صراخ واستغاثة يقولون : يا أبا الحسن مَنْ لذرينا من الروم إن قتلتنا ؟ الله الله البقيا ، كتاب الله بيننا وبينكم . وأصبحوا وقد رفعوا المصاحف على الرماح وقلدوها أعناق الخيل[1] .

وجاءت الهزيمة إلى على من هذا الطريق ، وإن المؤرخ ليستعرض حياة على العسكرية فيجده قد انتصر فى المعارك التى خاضها كلها ، انتصر فى موقعة الجمل ، وفى موقعة صفين ، وفى مواقعه ضد الخوارج ، ولكنه كان يهزم فى مواقف الدهاء ، لأنه فيما أعتقد لم يؤثر الدنيا على الدين ، ولأن أتباعه أشتات كما وصفنا آنفاً ، ليس له عليهم يد قوية . ولعل ذلك ليس من أخطائه بل من فعل الظروف التى لم يخلقها على ، وقد وضح معاوية أسباب انتصاره على علىّ بقوله : أعنتُ على علىّ بأربع ؛ كنت رجلا أكتم سرىّ وكان رجلا يظهره ، وكنت فى أطوع جند وأصلحه وكان فى أخبث جند وأعصاه ، وتركته وأصحاب الجمل وقلت : إن ظفروا به كانوا أهون علىّ منه وإن ظفر بهم اعتددت بها عليه فى دينه ، وكنت أحب إلى قريش منه . فيالك من جامع إلىّ ومفرق عنه ، وعون لى وعون عليه[2] .

التحكيم :

وهكذا توقفت الحرب بين على ومعاوية واتجه الأمر إلى التحكيم واتفق الرأى على أن يولى أهل العراق حكما وأن يولى أهل الشام حكما ، وأن يجتمع الرجلان ليبحثا أسباب الخلاف رجاء الوصول إلى حل ، وقد ارتضى أهل الشام عمرو بن العاص بإجماع منهم ، واختلف أتباع على ، وقدّم أغلبهم

---

(١) الإمامة والسياسة جـ ١ ص ١٢٠ وسنعطى مزيدا من التفاصيل الدقيقة لهذا الموضوع فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة عند الكلام عن قيام الدولة الأموية .

(٢) المبرد : الكامل جـ ٢ ص ٦٩٩ — ٧٠٠ .

أبا موسى الأشعري على غير رغبة من عليّ ، واجتمع الحكمان في شهر رمضان سنة ٣٧ هـ ولم يكن هنالك تكافؤ في هذا التحكيم فعمرو بن العاص أستاذ الدهاء في الجزيرة العربية ، وأبو موسى فيه طيبة وبسر : وعمرو يربط مصيره بمصير معاوية وليس كذلك أبو موسى ، وخلف عمرو قوة موحدة إن كانت قد هُزمت في المعركة فإن الهزيمة لم تتم، وقد أعطي أصحابه أجر الهم واستعدوا من جديد ، وخلف أبي موسى أشتات متفرقو الكلمة مختلفو الرأي.

وفي الاجتماع دار نقاش طويل يرويه الطبري[1] والمسعودي[2] ، وقد لعب فيه دهاء عمرو دوراً كبيراً وانتهى فيه إلى أن عثمان قتل مظلوماً ، وأن من قُتل مظلوماً فإن لوليه سلطاناً ، وأن معاوية هو أولى الناس بالمطالبة بدم عثمان .. ثم تحول النقاش إلى اقتراح عزل علي ومعاوية وترك الأمر للمسلمين ليولوا أمرهم من يشاءون ، وقدّم أبو موسى الاقتراح فوافق عليه عمرو ، وتقدم أبو موسى فأعلن الاقتراح ، وتبعه عمرو فأعلن موافقته على عزل علي وأعلن تثبيته لمعاوية[3]

على أن الناقدين المحققين في العصر الحاضر يميلون إلى الاعتقاد بأن الذي جرى فعلا هو أن الحكمين خلعا كلا الزعيمين ، وهذا مؤداه أن علياً وحده هو الذي خلع إذ لم يكن معاوية خليفة بعد[4] .

وعلى أي حال فإن خبر التحكيم على هذا الوضع يقبله بعض المؤرخين ويرده بعضهم ، وليس هذا الخبر بكبير الأهمية عندي لأنه لم تُرَدْ به قط نتيجة مرضية ، وإنما لجأ له معاوية لينجو من هزيمة بدأت تظهر ، وقد نجا فعلا من الهزيمة ، وهبْ أن عمراً قرر فعلا عزل معاوية فهل كان عزل معاوية موضوعاً يستطيعه عمرو بن العاص أو أبو موسى الأشعري؟ وهنالك تفصيلات مهمة لها صلة بهذا الموضوع أوردناها عند الحديث عن الخوارج في الجزء الثاني من هذه الموسوعة[5] .

---

(١) انظر تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٤٩ وما بعدها .

(٢) أنظر مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٤ وما بعدها .

(٣) إبن طباطبا ، الفخري ص ٦٦ (٤) فيليب حتي ، تاريخ سوريا ص ٣٣ .

(٥) ص ٢١٤ وما بعدها .

بعد التحكيم :

كانت نتيجة التحكيم فى صالح معاوية لا لإعلان عزل علي وتثبيت معاوية ، ولكن لأن الانقسام بعد التحكيم قد ظهر واضحاً فى جيش على ؛ وبدأ الخوارج يثورون على علىّ ويعتزلونه لأنه قبل التحكيم(١) ، والعجيب أنه كان بين الخوارج كثيرون ممن أرغموا علياً على قبول التحكيم ؛ وكانوا يعترفون بذلك ويقولون لعلى : أخطأنا فلماذا تبعنا فى خطئنا ، وأنت الخليفة يجب أن تكون أبعدنظراً وأعمق رأياً . ولم يكتف الخوارج باعتزال على ، بل أخذوا يرتكبون الآثام ويعتدون على الناس فى العراق ، وحاول علىّ أن يرشدهم للحق بمختلف الطرق فلم يستطع ، ولم يجد بدأ من محاربتهم ، وكان كلما انتصر على جيش منهم ظهر جيش آخر ، وبدأ كبار الصحابة كسعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمر يذهبون إلى الشام وينضمون إلى معاوية لثبوت أمره ولتوفر الاستقرار عنده ، واستطاع معاوية بدهائه أن يضم مصر إليه بعد معركة قادها عمرو بن العاص ، وتبعاً لما يرويه المؤرخون فإن الطريقة التى اتبعها معاوية حتى ضم مصر إليه كانت لوناً من ألوان دهائه وحذقه السياسى ، ولا شك أنها تحسب — إن صحت — من غفلات أمير المؤمنين ، فقد روى المؤرخون أن قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى كان والياً على مصر من قبل على بن أبى طالب ، وكان ضابطاً لها ، ولم يستطع معاوية أن يأتيه من أية ناحية من نواحيه ، فأعمل الحيلة ، وانتهى إلى أن أشاع أن قيساً من أنصاره وأنه يعاونه سراً ، وجازت الحيلة على علىّ وبخاصة أنه كان بمصر جماعة من أنصار عثمان ولكن قيسا وادعهم ، وهم وادعوه ، وهدأت البلاد ، ففهم على من موادعه قيس لهم أنه حقيقة على اتصال بمعاوية وأنه يميل إلى أنصار عثمان ، فعزله ، وعين بدله محمد بن أبى بكر ، ولم يكن محمد فى كياسة قيس ، فاشتبك فى حرب مع أنصار عثمان ، وزحفت جيوش معاوية بقيادة عمرو بن العاص ومعه معاوية بن خديج ألد أعداء محمد

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٤٦ وما بعدها .

ابن أبي بكر، وانضم جيش عمرو لأعداء محمد . وكان النصر لعمرو، وقتل محمد بن أبي بكر(١) ، وهكذا كان أمر علي في نقصان ، في حين كان أمر معاوية في ازدياد متصل .

نهاية علي :

لم يستقر الأمر لعلي يوماً واحداً طيلة مدة خلافته ، وكان يرقع خرقا فتظهر له ألوان أخرى من البلى . ويظهر الثوب متهلهلا . ومن هنا يبدو النصيب والحظ فيما يعرض من أمور ، وبينما كان عليّ يُعِدُّ العدة لحملة جديدة على معاوية كانت هناك مؤامرة ثلاثية تدبر للقضاء على عليّ ومعاوية وعمرو ابن العاص ، ومدبرو هذه المؤامرة هم ثلاثة من الخوارج اتفقوا على التخلص من الزعماء الثلاثة في ليلة واحدة . فاتجه عبد الرحمن بن ملجم لقتل علي بالكوفة ، واتجه البرك بن عبد الله التميمى إلى الشام لقتل معاوية . واتجه عمرو بن بكر التميمى إلى مصر لقتل عمرو بن العاص . وقد نجح ابن ملجم من بين هؤلاء الثلاثة . فطعن علياً بسيفه طعنة قاتلة وهو ينادى للصلاة . وأمسك به المسلمون ، فلما مات علي قتل ابن ملجم فيه ، أما البرك فقد طعن

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٥٥ – ٥٥٤ وتنسب المراجع التاريخية لمعاوية قصصا مماثلة لهذه القصة استطاع بها معاوية أن يقضى على ألد خصومه ، فيروى المبرد أن أحد بطارقة الروم كان شديد الكيد للاسلام : شديد الرغبة في الإيقاع بالمسلمين كلما سنحت له فرصة ؛ فعرف معاوية ذلك ، فسأل : أي الطرف في أرض المسلمين يحبها هذا البطريق ، فلما عرف مايحبه البطريق أهداه له ، وتكررت هداياه للبطريق حتى عرف مابين معاوية والبطريق من صلة ، وظل البطريق مستمرا في الكيد للمسلمين حتى لا يظن أحد أن قبوله هدايا المسلمين ربط بينه وبينهم ، ثم إن معاوية كتب لهذا البطريق رسالة جعلها في وضع كأنها سر من الأسرار ، وأبدى معاوية في هذه الرسالة رضاءه عن سلوك البطريق في تظاهره بالكيد للمسلمين ، وأكد له ثقته فيه وفي رسالته الأخيرة التي رسم فيها ما بعده من ثورة على الإمبراطور . وطلب معاوية من حامل رسالته أن يتعرض لأن يظهر الكتاب بطريقة خفية ، وضبط الكتاب وصلب البطريق ونجحت مكيدة معاوية (انظر الكامل للمبرد ج – ص ٤٥٥) .

معاوية طعنة غير قاتلة ؛ وأما عمرو بن بكر فقد جلس يرقب عمراً بن العاص ليخرج لصلاة الفجر ؛ ولكن هذا لم يخرج لمرض ألم به ، وأناب عنه خارجة ابن حبيب السهمي ليصلي بالناس فطعن عمرو بن بكر خارجة وهو يحسبه عمراً بن العاص[1] .

وانتهى بذلك عليّ صاحب أفصح لسان ، وأقوم حسام ، وأعمق عرفان ، بين أتباع الرسول صلوات الله عليه ، وانتهى بعلي عهد الخلفاء الراشدين .

مصرع عمر وعثمان وعلي :

والآن بعد أن تحدثنا عن مصرع كل من هؤلاء الخلفاء على حدة ، وعن اليد الأثيمة التي امتدت لكل منهم ، نحب أن نتحدث عن الدوافع الحقيقية لهذا العدوان ، وعن اليد التي كانت تعبث من وراء ستار فتحرك أبا لؤلؤة والسبئيين وابن ملجم .

وتكاد النصوص تزيح الستار عن حقيقة مؤلمة هي أن الموالي هم الذين دبروا المؤامرات لقتل الخلفاء الثلاثة ، فقد صعب على رؤساء الفرس أن يزول مجدهم وأن ينقل السلطان للعرب ، فدبروا هذه المؤامرات ، لا لاستعادة السلطان فلم يكن لذلك من سبيل ، بل للثأر لكبريائهم ولأندادهم الذين فتكت بهم أو شردتهم سيوف المسلمين ، وقد وجد رؤساء الفرس من يساعدهم من بين الأتباع الذين كان لهم جاه ومال في النظام القديم وفقدوه في ظل الإسلام ، فاستهانوا بالحياة ، ويروى ابن سعد[2] أن أبا لؤلؤة كان من أشد الموالي تعصباً لقومه . وكان كلما مر به صبي من السبي مسح رأسه بيده وقال : أكل كبدي عمر . وقتل أبو لؤلؤة عمر ثأراً لقومه .

ولا تبرأ يد الموالي من قتل عثمان : فإنهم هم الذين أذاعوا الأراجيف ونظموا الدسائس ، ووضعوا الأحاديث ، وحركوا الجموع وقادوهم حتى تمت هذه الجريمة النكراء[3] .

---

(١) ابن طباطبا ؛ الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٧٢ - ٧٣ .

(٢) الطبقات جـ ٥ ص ٢٦٣٢ .

(٣) انظر الصراع بين الموالي والعرب للدكتور محمد بديع شريف ص ٣١ .

وعن اغتيال على يروى لنا المبرد نصا يربط الحادثة النكراء بالموالى أيضاً ، فقد ذكر أن المؤامرة التى ذهب علىّ ضحيتها لا تختلف عن المؤامرة التى ذهب الخليفة الثانى ضحية لها ، فقد رأس تلك الهرمزان ودبر هذه زداويه فلم تكن مجرد نقمة من الخوارج بل مؤامرة لعبت فيها أيدى الموالى(١)

على فى الميزان :

تحدثنا فى مطلع الكلام عن علىّ ، عن الصفات النادرة التى امتاز بها كرم الله وجهه على أنداده . وكذلك تحدثنا عن مواقفه الخالدة مدافعاً عن الإسلام ورادّاً عنه أعداءه ، وكذلك تحدثنا عن سابقتــه وفضله وعلمه وفصاحته ، والحديث عن على فى هذا المجال طويل ، وربما كان من الحديث المعاد ، فلن تستطيع هذه العجالة أن تلم بما له من فضل ، وأن تحوى ما امتاز به من مكانة سامية فى شتى النواحى .

ولاستكمال البحث نورد هنا بعض ما أخذ عليه ، وأهم ما أخذ عليــه اعتقاده أنه صاحب الحق الأول فى الخلافة بعد الرسول ، وأنه أولى بها دون سائر الناس ، وأن منحها لسواه قبله كان تخطيا له غير مشروع .

ومما أخذ عليه عدم استشارته شيوخ عصره فى الأمور ، وإهماله لمشورتهم إن تقدموا بها ، ولما عاتبه طلحة والزبير فى ذلك قال لهما : أى شيء جهلته حتى أستشير فيه؟

وفى قضية عبيد الله بن عمر وقتله الهرمزان (وقد سبق إيرادها) نجد علياً يريد أن يعيد محاكمته وقتله مع أن عثمان قضى فيها منذ اثنى عشر عاماً وتحمل مسئوليتها ، ولذلك نجد عبيد الله يهرب إلى الشام ويصبح من القادة فى جيش معاوية(٢)

وكان على كثير التشكيك فى عماله ، وربما تأثر بالشك فاتهمهم ، ولم يسلم من ذلك عبدالله بن العباس مما جعله يترك البصرة مقر ولايته ويعتزل بمكة

ويقول أستاذنا الخضرى : إن من أكبر الأسباب فى عدم استقامة الأمر لعلى يرجع إلى عقيدته فى نفسه ، وثقته المتناهية بما يراه ، واستغنائه عن

---

(١) المبرد : الكامل جـ ٢ ص ٥٤٩ : وما بعدها .

(٢) النووى : تهذيب الأسماء القسم الأول جـ ١ ص ٣١ .

رأى الأشياخ من قريش : وشدته عليهم ، ويقارن أستاذنا الخضرى بين عمر وعلى فى الشدة فيقول : إن عمر كان يشتد والأمة كلها معه ولكن علياً كان يشتد ومعظم الأمة عليه[1] .

أما موقف المسلمين من على فيلخصه الشعبي بقوله : كان على بن أبى طالب فى هذه الأمة مثل المسيح عيسى بن مريم فى بنى إسرائيل : أحبه قوم فكفروا فى حبه ، وأبغضه قوم فكفروا فى بغضه[2] .

والحمد لله فى البدء والختام

وإلى اللقاء فى الجزء الثانى

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية حـ ٢ ص ٨٤ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد حـ ٤ ص ٣١٢ .

ثبت المراجع

ملاحظتان :

١ — المصادر المذكورة هنا هي التي اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت في ذيل صفحاته أما المراجع التي أسهمت بطريق غير مباشر فلم تذكر في هذه القائمة .

٢ — رتبت هذه المصادر حسب الترتيب الأبجدي لأسماء مؤلفيها ، مع اعتبار الاسم المشهور للمؤلف (فمثلا ابن خلدون وليس عبد الرحمن بن محمد) ومع عدم اعتبار [ابن — ال] .

١ — القرآن الكريم.

٢ — مجموعة من كتب التفسير

٣ — كتب الأحاديث الستة

٤ — مجموعة من كتب الفقه

٥ — دراسات موقعية (على الطبيعة)

٦ — Encyclopaedia of Islam

٧ — بعض المجلات العلمية

٨ — ابن أبي أصيبعة طبقات الأطباء

٩ — ابن الأثير الكامل في التاريخ

١٠ — أحمد أمين ضحى الإسلام

١١ — أحمد أمين يوم الإسلام

١٢ — أحمد التاجي سيرة النبي العربي

١٣ — دكتور أحمد الحوفي : الحياة العربية من الشعر الجاهلي

١٤ — دكتور أحمد شلبي (الأجزاء الأخرى من هذه الموسوعة)

١٥ — « « « المجتمع الإسلامي

١٦ — « « « تاريخ التربية الإسلامية

١٧ — دكتور أحمد شلبى تاريخ التشريع الإسلامى وتاريخ النظم القضائية فى الإسلام .

١٨ — دكتور أحمد شلبى السياسة فى التفكير الإسلامى

١٩ — « « « الاقتصاد فى التفكير الإسلامى

٢٠ — دكتور أحمد شلبى الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى

٢١ « « « الجهاد والنظم العسكرية فى التفكير الإسلامى

٢٢ — « « « مقارنة الأديان « المسيحية »

٢٣ — « « « « « « الإسلام » .

٢٤ — Edward Carr : What is History

٢٥ — الأزدى فتوح الشام

٢٦ — الأزرق أخبار مكة

٢٧ — الأصفهانى الأغانى

٢٨ — Iies Lictenstrdter Islam and the Modern Age

٢٩ — isaiah Berlin Karl Marx

٣٠ — Browne A Literary History of Persia

٣١ — ابن بشر عنوان المجد

٣٢ — البلاذرى فتوح البلدان

٣٣ البلاذرى أنساب الأشراف

٣٤ — البغدادى : عبدالقاهر : الفرق بين الفرق

٣٥ — البغدادى : محمد أمين : سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب

٣٦ — التبريزى شرح المعلقات العشر

٣٧ — Collingwood The idea of History :

٣٨ — Thomas Arnold The Caliphate

٣٩ — Thomas Arnold The Preachiugbof Islam

٤٠ — الجاحظ كتاب التاج فى أخلاق الملوك

٤١ — الجاحظ البيان والتبيين

٤٢ الجاحظ — الرسالة العثمانية
٤٣ — Gibb — Muhammadanism
٤٤ — Goldziher — مذاهب التفسير الإسلامي (ترجمة الدكتور النجار)
٤٥ — الجهشياري — كتاب الوزراء والكتاب
٤٦ — د . جواد على — تاريخ العرب قبل الإسلام (الطبعة الأولى)
٤٧ — جورجي زيدان — تاريخ التمدن الإسلامي
٤٨ — جوزيف هورس — قيمة التاريخ (ترجمة الشيخ نسيب وهبة الخازن)
٤٩ — حاجي خليفة — كشف الظنون
٥٠ — حافظ وهبة — جزيرة العرب في القرن العشرين
٥١ — ابن حزم — الفصل في الملل والأهواء والنحل
٥٢ — ابن حزم — المحلى
٥٣ — ابن حجر — تهذيب التهذيب
٥٤ — دكتور حسن إبراهيم — تاريخ الإسلام السياسي
٥٥ — خالد محمد خالد — رجال حول الرسول
٥٦ — الخضرى — تاريخ الأمم الإسلامية
٥٧ — الخطيب البغدادى — تقييد العلم
٥٨ — ابن خلدون — المقدمة
٥٩ — ابن خلدون — العبر
٦٠ — دوايت دونلدش — عقيدة الشيعة
٦١ — الذهبي — تاريخ الإسلام
٦٢ — الذهبي — سير أعلام النبلاء
٦٣ — A Short History of Africa : Roland Oliver and J Fage
٦٤ — les Reh gion de l'Afriqure Noire : Hubere deschands
٦٥ — السبكى — طبقات الشافعية الكبرى
٦٦ — السخاوى — الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ
٦٧ — سعيد الأفغاني — عائشة والسياسة
٦٨ — سيد المرصفى — أسرار الحماسة (الطبعة الأولى

٦٩ — سيديو تاريخ ا . ـب العام (ترجمة عادل زعيتر)

٧٠ — ابن سعد الطبقات

٧١ — A Short History of the Saracens : Sayid Areeer Ali

٧٢ — السيد قاضى أبو العزائم أسرار القرآن

٧٣ — السيوطى تاريخ الخلفاء

٧٤ — السيوطى حسن المحاضرة

٧٥ — الشهرستانى الملل والنحل

٧٦ — صادق عرجون خالد بن الوليد

٧٧ — صلاح الدين المنجد خطط دمشق

٧٨ — ابن طباطبا الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية

٧٩ — الطبرى تاريخ الأمم والملوك

٨٠ — دكتور طه حسين الفتنة الكبرى « عثمان »

٨١ — دكتور طه حسين الفتنة الكبرى « على وبنوه »

٨٢ — دكتوره عائشة عبد الرحمن نساء النبى

٨٣ — عباس العقاد مبادىء الإسلام وأباطيل خصومه

٨٤ — « « عبقرية محمد

٨٥ — « « عبقرية الصديق

٨٦ — « « عبقرية عمر

٨٧ — « « الصديقة بنت الصديق

٨٨ — عباس العقاد فاطمة الزهراء والفاطميون

٨٩ — ابن عبد البر الدرر فى اختصار المغازى والسير

٩٠ — « « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب

٩١ — ابن عبد ربه العقد الفريد

٩٢ — ابن عبد الحكم فتوح مصر

٩٣ — عبد الحى الكتانى التراتيب الإدارية

٩٤ — عبد الرءوف عوف الفن الحربى فى صدر الإسلام

٩٥ — عبد الرحمن عزام الرسالة الخالدة

٩٦ — عبد الكريم الخطيب — الله ذاتاً وموضوعاً
٩٧ — دكتور عبد المنعم ماجد — التاريخ السياسي للدولة العربية
٩٨ — عبد المتعال الصعيدي — السياسة الإسلامية في عهد النبوة
٩٩ — » » » — دراسات إسلامية
١٠٠ — ابن العبري — مختصر تاريخ الدول
١٠١ — أبو عبيد — الأموال
١٠٢ — ابن العربي — أحكام القرآن
١٠٣ — عروة بن الورد — ديوان عروة (طبعة بيروت)
١٠٤ — دكتور عز الدين إسماعيل — الشعر العربي المعاصر
١٠٥ — ابن عساكر — تاريخ دمشق
١٠٦ — علي بن أبي طالب (الإمام) — نهج البلاغة
١٠٧ — دكتور علي النشار — شهداء الإسلام في عهد النبوة
١٠٨ — عمر الدسوقي — الفتوّة (الطبعة الثانية)
١٠٩ — الغزالي — الإحياء
١١٠ — أبو الفدا — المختصر في أخبار البشر
١١١ — كولونيل فريدريك — تاريخ شرق الأردن وقبائلها
١١٢ — Aistory of the Arabs : Philip Hitti
١١٣ — فؤاد حمزة — قلب الجزيرة العربية (مصر ١٩٣٣)
١١٤ — قاسم أمين — تحرير المرأة
١١٥ — ابن قتيبة — عيون الأخبار
١١٦ — ابن قتيبة — الإمامة والسياسة
١١٧ — ابن قتيبة — المعارف
١١٨ — القزويني — آثار البلاد وأخبار العباد
١١٩ — القشيري (الإمام) — الرسالة القشيرية
١٢٠ — القلقشندي — صبح الأعشى
١٢١ — ابن القيم — زاد المعاد
١٢٢ — كيرك — موجز تاريخ الشرق الأوسط (ترجمة عمر الاسكندري)

١٢٣ — كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية
١٢٤ — ابن كثير السيرة النبوية
١٢٥ — ابن الكلبي الأصنام
١٢٦ الكندى قضاة مصر
١٢٧ — كمال أحمد عوف المرأة فى الإسلام
١٢٨ — Lana Poole : Mahammadan dynasties
١٢٩ — الماوردى الأحكام السلطانية
١٣٠ — دكتور محمد بديع شريف الصراع بين الموالى والعرب
١٣١ — دكتور محمد حسين هيكل حياة محمد
١٣٢ — « « « « الصديق أبو بكر
١٣٣ — « « « « الفاروق عمر
١٣٤ — محمد صادق الصدر الشيعة
١٣٥ — محمد عبد الله دراز الدين
١٣٦ — محمد عبد الله عنان مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام
١٣٧ — « « « « تاريخ المؤامرات السياسية
١٣٨ — مرتضى العسكرى عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى
١٣٩ — المسعودى مروج الذهب
١٤٠ — محمد أحمد جاد المولى أيام العرب فى الجاهلية
١٤١ — محمد بن أبى الخطاب جمهرة أشعار العرب (المطبعة الرحمانية)
١٤٢ محمد عبده (الإمام) رسالة التوحيد
١٤٣ — محمد هاشم عطية الأدب العربى وتاريخه
١٤٤ — محمد كرد على خطط الشام
١٤٥ — « « « الإسلام والحضارة العربية
١٤٦ محمود دياب (دكتور) الطب والأطباء فى مختلف العصور
١٤٧ — محمود شلتوت الإسلام والعلاقات الدولية
١٤٨ — مصطفى الرافعى إعجاز القرآن
١٤٩ — د. مصطفى الرافعى الإسلام انطلاق لا جمود

١٥٠ — المقريزى	الخطط
١٥١ — الميدانى	مجمع الأمثال
١٥٢ — Macdonald	Muslim Theology
١٥٣ — موريس ديمومبين	النظم الإسلامية (الترجمة العربية)
١٥٤ — ابن ناقيا البغدادى	الجمان فى تشبيهات القرآن
١٥٥ — نصر بن مزاحم	وقعة صفين
١٥٦ — النووى	تهذيب الأسماء
١٥٧ — Nicholson	A Literary History of the Arabs
١٥٨ — ابن هشام	السيرة النبوية
١٥٩ — Heernshaw	علم التاريخ (ترجمة الأستاذ العبادى)
١٦٠ — Wasyf Ghali	Tradition chevaleresque des Arabs
١٦١ — Wells :	A Short History of the World
١٦٢ — الهمدانى	صفة جزيرة العرب
١٦٣ — الواقدى	فتوح الشام
١٦٤ — ياقوت	معجم البلدان
١٦٥ — يحيى بن آدم	الخراج
١٦٦ — دكتور يوسف خليف	الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى
١٦٧ — يوسف عبد الرازق	معالم الهجرة

فهرس الأعلام

١ ــ تحاشيا للاطالة لم أضمّن هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاء بورودها فى ذيل صفحات الكتاب ، وفى قائمة المراجع .

٢ ــ ولم أضمّن هذا الكشاف اسم الرسول صلوات الله عليه ولا أسماء الخلفاء الراشدين (أبى بكر ــ عمر ــ عثمان ــ على) لأن هذه الأسماء الخمسة وردت فى أكثر صفحات الكتاب ، مما يجعل إيرادها هنا قليل الجدوى لمن يستعمل هذا الكشاف .

٣ ــ رتبت هذه الأسماء ترتيبا أبجديا مع عدم اعتبار الملحقات (ابن ــ ال) .

٤ ــ حرف « م » يوضع بعد الرقم للدلالة على أن الاسم ورد فى الصفحة أكثر من مرة .

حرف الألف

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأمكنة

ملاحظة : تحاشياً للإطالة لم أضمّن فهارس الأمكنة كلمتى « مكة والمدينة » لكثرة ورودهما فى هذا الكتاب ، مما يجعل إيرادهما قليل الجدوى لمن يستعمل هذا الكشاف .

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

رقم الايداع : ٣٤٥٧ لسنة ١٩٨١
رقم الايداع الدولى ٩٤ ـــ ٧٠٠١ ـــ ٩٧٧



مطبعة الأسراء